الرافدين على الجلالين

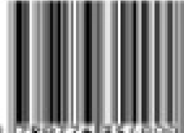
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٨٣٤٠م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العلمية للنشر والتجليد

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء الخامس والثلاثون





بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤).

{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ} فِي الدُّنْيَا {وَأَحْيَا} لِلْبَعْثِ.

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥).

{وأنه خلق الزوجين} الصنفين {الذكر والأنثى}.

مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦).

{مِنْ نُطْفَة} مَنِيّ {إِذَا تُمْنَى} تُصَبّ فِي الرحم.

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧).

{وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَة} بِالْمَدِّ وَالْقَصْر {الْأُخْرَى} الْخَلْقَة الْأُخْرَى لِلْبَعْثِ بَعْد الْخَلْقَة الْأُولَى.

وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨).

{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى} النَّاس بِالْكِفَايَةِ بِالْأَمْوَالِ {وَأَقْنَى} أَعْطَى الْمَال الْمُتَّخَذ قِنْيَة.

وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩).

{وَأَنَّهُ هُوَ رَبّ الشِّعْرَى} هُوَ كَوْكَب خَلْف الْجَوْزَاء كَانَتْ تُعْبَد فِي الْجَاهِلِيَّة.

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠).

{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى} وَفِي قِرَاءَة بِإِدْغَامِ التَّنْوِين فِي اللَّام وَضَمّهَا بِلَا هَمْزَة وَهِيَ قوم عاد والأخرى قوم صالح.

وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١).

{وثمودا} بِالصَّرْفِ اسْم لِلْأَبِ وَبِلَا صَرْف لِلْقَبِيلَةِ وَهُوَ مَعْطُوف عَلَى عَادًا {فَمَا أَبْقَى} مِنْهُمْ أَحَدًا.

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢).

{وَقَوْم نُوح مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل عَادٍ وَثَمُود أَهْلَكْنَاهُمْ {إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَم وَأَطْغَى} مِنْ عَادٍ وَثَمُود لِطُولِ لُبْث نُوح فِيهِمْ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْف سَنَة إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا وَهُمْ مَعَ عَدَم إِيمَانهمْ بِهِ يُؤْذُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)} [النجم: ٤٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأنه هو أمات من مات من خلقه، وهو أحيا من حَيا منهم. وعنى بقوله: {أَحْيَا} نفخ الروح في النطفة الميتة، فجعلها حية بتصييره الروح فيها".

قال القرطبي:"أي: قضى أسباب الموت والحياة".

قال ابن بحر:"خلق الموت والحياة كما قال: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاة} [الملك: ٢]".

قال البغوي:"أي: أمات في الدنيا وأحيا للبعث. وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: أمات الكافر بالنكرة وأحيا المؤمن بالمعرفة".

قال السعدي: " أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا".

وقال سهل:"أمات قلوب الأعداء بالكفر والظلمة، وأحيا قلوب الأولياء بالإيمان وأنوار المعرفة".

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} [النجم: ٤٥]، أي:"وأنه أوجد الزوجين: الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان".

قال مقاتل:"الزوجين الرجل والمرأة كل واحد منهما زوج بالآخر".

قال الطبري: يقول:"وأنه ابتدع إنشاء الزوجين الذكر والأنثى، وجعلهما زوجين، لأن الذكر زوج الأنثى، والأنثى له زوج فهما زوجان، يكون كلّ واحد منهما زوجا =

=

للآخر".

قال القرطبي:"أي: من أولاد آدم ولم يرد آدم وحواء بأنهما خلقا من نطفة".

قال السمعاني: أي:"آدم وحواء. والأصح أنه الذكر والأنثى من بني آدم".

قال السعدي: " فسر الزوجين بقوله: {الذَّكَرَ وَالأنْثَى}، وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها".

قوله تعالى: {مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} [النجم: ٤٦]، أي:"خلق الذكر والأنثى من نطفة تُصَبُّ في الرحم".

وفي قوله تعالى: {مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} [النجم: ٤٦]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه: إذا تخلق وتقدر، قاله الأخفش وأبو عبيدة وابن قتيبة.

قال أبو عبيدة:"إذا تخلق وتقدّر، ويقال: ما تدرى ما يمنى لك الماني ما يقدر لك القادر".

قال ابن قتيبة:"أي تقدَّرُ وتُخلَق. يقال: ما تدري ما يَمْنِي لك الماني؛ أي ما يقدِّر لك الله".

الثاني: إذا تصب في الرحم، قاله ابن عباس والضحاك وعطاء بن أبي رباح والكلبي. وآخرون.

قال ابن عباس في رواية عطاء: "يريد الجماع".

وقال في رواية الكلبي: "تهراق في الرحم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: خلق ذلك من نطفة إذا أمناه الرجل والمرأة".

قال مقاتل:"يعني: إذا تدفق المني".

قال النحاس:"أي: إذا أمناها الرجل والمرأة. وقيل: هو من منى الله عليه الشيء إذا قدّره له. فالأول من «أمنى»، وهذا من «منى»".

قال السعدي: " وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة،

=

=

حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين".

قوله تعالى: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧)} [النجم: ٤٧]

قال الطبري: " وأن على ربك يا محمد أن يخلق هذين الزوجين بعد مماتهم، وبلاهم في قبورهم الخلق الآخر، وذلك إعادتهم أحياء خلقًا جديدا، كما كانوا قبل مماتهم".

قال النحاس:"أي: عليه أن ينشئ الزوجين بعد الموت".

قال مقاتل:"يعني: البعث في الآخرة بعد الموت".

قال ابن قتيبة:"أي: الخلْق الثانيَ للبعث يوم القيامة".

قال أبو عبيدة:"يحيى الموتى".

قال ابن كثير:"أي: كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة".

قال السعدي: " فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات".

عن عكرمة في قوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}، قال: "وفَّى هؤلاء الآيات العشر: {أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}... حتى بلغ: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأخْرَى}".

قرأ الحسن، ومجاهد، وحميد، وابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو، والجحدري: {النشاءة} بفتح الشين ومد الهمزة.

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)} [النجم: ٤٨]

قال الطبري: " وأن ربك هو أغنى من أغنى من خلقه بالمال وأقناه، فجعل له قنية أصول أموال".

=

=

واختلف أهل التفسير في {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨)} [النجم: ٤٨]، على أقوال:

أحدها: معناه: أعطى وأرضى. قاله ابن عباس.

وقال ابن عباس:"فإنه أغنى وأرضى".

الثاني: أغنى بالمال وأقنى بأن جعل لهم قنية، وهي أصول الأموال، قاله أبو صالح.

قال أبو صالح:"أغنى المال وأقنى القنية".

قال أبو عبيدة:"أغنى أقواما وجعل لهم قنية أصل مال".

قال ابن قتيبة:"أي: أعطَى ما يُقتَنى: من القِنْيَة والنَّشَب. يقال: أقنيت كذا وأقْنَانِيه الله".

قال الزجاج:"ومن هذا قولك: قد أقْتَنَيت كذا وكذْا، أي: عملت على أنه يكون عِنْدِي لا أخرجه مِنْ يَدِي".

قال النحاس:"يقال: أقنيت الشيء. أي: اتخذته عندي وجعلته مقيما، فـ {أقنى}: جعل له مالا مقيما".

الثالث: أغنى: بأن مَوّل، وأقنى: بأن أخدم، قاله مجاهد وقتادة.

قال مجاهد:"أغنى: مَوَّل، وأقنى: أخدم".

قال قتادة:"أغنى وأخدم".

وقال قتادة:"أعطى وأرضى وأخدم".

عن الحسن، قوله: " {أَغْنَى وَأَقْنَى}، قال: أخدم".

الرابع: أغنى: موّل، وأقنى: رضّى. قاله مجاهد -أيضا-.

قال مقاتل:"مول وأرضى هذا الإنسان بما أعطى".

الخامس: أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه، قاله الحضرمي.

عن المعتمر بن سليمان، عن أبيه: " {وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى}، قال: زعم حضرميّ

=

=

أنه ذكر له أنه أغنى نفسه، وأفقر الخلائق إليه".

السادس: أغنى من شاء وأفقر من شاء، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"أغنى فأكثر، وأقنى أقلّ، وقرأ: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ}".

علّق ابن كثير عن القولين السابقين، فقا:"هما بعيدان من حيث اللفظ".

السابع: أغنى: بالقناعة، وأقنى: بالرضا، قاله سفيان بن عيينة.

وقال الفراء:"{أغنى}: رضى الفقير بما أغناه به، {وأقنى}: من القنية والنشب".

الثامن: أغنى بالذهب والفضة وصنوف الأموال، وأقنى بالإبل والبقر والغنم. قاله الضحاك.

التاسع: أغنى: بما كسبه الإنسان في الحياة، وأقنى: بما خلفه بعد الوفاة. مأخوذ من اقتناء المال وهو استبقاؤه. أفاده الماوردي.

قال ابن كثير:"أي: مَلَّك عباده المال، وجعله لهم قُنْيَة مقيما عندهم، لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم. وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين".

قال السعدي: " أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له".

وقال سهل:"ظاهرها متاع الدنيا، وباطنها أغنى بالطاعة وأفقر بالمعصية".

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩)} [النجم: ٤٩]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأن ربك يا محمد هو ربّ الشِّعْرَي، يعني بالشعرى: النجم الذي يسمى هذا الاسم، وهو نجم كان بعض أهل الجاهلية

=

=

يعبده من دون الله".

قال السعدي: " {الشِّعْرَى}، وهي النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبده المشركون مربوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلها مع الله".

قال الفراء:"الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء".

قال ابن قتيبة:"الكوكب المضيء الذي يطلُع بعد الجَوْزاء. وكان ناسٌ في الجاهلية يعبدونها".

قال الزجاج:"«الشعرى»: كوكب خَلْفَ الجوزاء، وهو أحد كوكبي ذِرَاع الأسَد، وكان قوم

من العرب يعبدون الشعرى، فأعلم الله- جلَّ وعزَّ- أنه رَبُّها وأنه خَالِقُهَا، وهوَ المَعْبُود- ﷻ".

قال الزمخشري:"الشِّعْرى مرزم الجوزاء: وهي التي تطلع وراءها، وتسمى كلب الجبار، وهما شعريان الغميصاء والعبور وأراد العبور. وكانت خزاعة تعبدها، سنّ لهم ذلك أبو كبشة رجل من أشرافهم، وكانت قريش تقول لرسول الله ﷺ: أبو كبشة۔ تشبيها له به لمخالفته إياهم في دينهم".

قال مقاتل: «الشعرى»: اليمانية النيرة الجنوبية كوكب مضيء وهي التي تتبع الجوزاء ويقال لها: المزن والعبور، كان أناس من الأعراب من خزاعة، وغسان، وغطفان، يعبدونها وهي الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء، قال الله- تعالى-: أنا ربها فاعبدوني".

عن ابن عباس، قوله: " {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى}، قال: هو الكوكب الذي يدعى الشعرى".

=

=

قال مجاهد: يعني: " مرزم الجوزاء".

قال مجاهد:"كان يُعبد في الجاهلية".

قال مجاهد:"الكوكب الذي خَلْف الجوزاء، كانوا يعبدونه".

قال قتادة:"كان ناس في الجاهلية يعبدون هذا النجم الذي يُقال له: الشِّعْرَى".

قال قتادة:"«كان حيّ من العرب يعبدون الشِّعْرَى هذا النجم الذي رأيتم»، قال بشر: يريد النجم الذي يتبع الجوزاء".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى}، كانت تُعبد في الجاهلية، فقال: تعبدون هذه وتتركون ربها؟ اعبدوا ربها. قال: والشِّعْرَى: النجم الوقاد الذي يتبع الجوزاء، يقال له المرزم".

قوله تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى} [النجم: ٥٠]، أي:"وأنه سبحانه وتعالى أهلك عادًا الأولى، وهم قوم هود".

قال ابن كثير:"وهم: قوم هود. ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ} [الفجر: ٦- ٨]، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله، فأهلكهم الله {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} [الحاقة: ٦، ٧]".

قال مقاتل:"وذلك أن أهل عاد وثمود وأهل السواد وأهل الموصل وأهل العال كلها من ولد إرم بن سام بن نوح عليه السلام فمن ثم قال «أهلك عادا الأولى» يعنى قوم هود بالعذاب".

قال الطبري:"يعني تعالى ذكره بـ«عاد الأولى»: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية، وإياهم عنى بقوله: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَم}.. وإنما قيل لعاد بن إرم: عاد الأولى، لأن بني لُقَيم بن هزَّال

=

=

بن هزل بن عَبِيل بن ضِدّ بن عاد الأكبر، كانوا أيام أرسل الله على عاد الأكبر عذابه سكانا بمكة مع إخوانهم من العمالقة، ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم، فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم، وهم عاد الآخرة، ثم هلكوا بعد. وكان هلاك عاد الآخرة ببغي بعضهم على بعض، فتفانوا بالقتل".

قال ابن إسحاق:"قيل لعاد الأكبر الذي أهلك الله ذرّيته بالريح: عاد الأولى، لأنها أُهلكت قبل عاد الآخرة".

عن ابن زيد: " {أَهْلَكَ عَادًا الأولَى}، قال: يقال: هي من أوّل الأمم".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: " {وأَنَّهُ أَهْلَكَ عادًا الأُولى}، قال: كانت الآخرة بحضْرموت".

ذكر القاسم بن معن: أن الأعمش قرأ: «عاد لولى»، فجزم النون، ولم يهمز (الأولى).

قوله تعالى: {وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى} [النجم: ٥١]، أي:"وأهلك ثمود، وهم قوم صالح، فلم يُبْقِ منهم أحدًا".

قال الطبري: يقول:"ولم يبق الله ثمود فيتركها على طغيانها وتمردها على ربها مقيمة، ولكنه عاقبها بكفرها وعتوّها فأهلكها".

قال ابن كثير:"أي: دمرهم فلم يبق منهم أحدا".

قال النحاس:"قال بعض العلماء: أي: فلم يبقهم على كفرهم وعصيانهم حتّى أفناهم وأهلكم وهذا القول خطأ! لأن «الفاء» لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فلا يجوز أن تنصب «ثمودا» بـ «أبقى»، وأيضا فإن بعد «الفاء» «ما» وأكثر النحويين لا يجيز أن يعمل ما بعد ما فيما قبلها، والصواب أن «ثمودا» منصوب على العطف على عاد".

=

قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ} [النجم: ٥٢]، أي:"وقوم نوح قبل عادٍ وثمود أهلكناهم".

قال ابن كثير:"أي: من قبل هؤلاء".

قال مقاتل:"وأهلك قوم نوح بالغرق من قبل هلاك عاد وثمود".

قال الطبري: يقول:"وأنه أهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، إنهم كانوا هم أشدّ ظلما لأنفسهم، وأعظم كفرا بربهم، وأشدّ طغيانا وتمرّدا على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم الله به، وأنهم كانوا بذلك أكثر طغيانا من غيرهم من الأمم".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى} [النجم: ٥٢]، أي:"هؤلاء كانوا أشد تمردًا وأعظم كفرًا من الذين جاؤوا من بعدهم".

قال النحاس:"أي: أظلم لأنفسهم من هؤلاء وأطغى وأشدّ تجاوزا للظلم".

قال ابن كثير:"أي: أشد تمردا من الذين من بعدهم".

قال مقاتل: أي:"من عاد وثمود، وذلك أن نوحا دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فلم يجيبوه، حتى إن الرجل منهم كان يأخذ بيد ابنه فينطلق به إلى نوح عليه السلام فيقول له: احذر هذا، فإنه كذاب، فإن أبي قد مشى بي إلى هذا وأنا مثلك، فحذرني منه فاحذره فيموت الكبير على الكفر وينشؤ الصغير على وصية أبيه، فنشأ قرن بعد قرن على الكفر، هم كانوا أظلم وأطغى فبقي من نسلهم، بعد عاد أهل السواد، وأهل الجزيرة، وأهل العال، فمن ثم قال: «عادا الأولى»".

عن قتادة، قوله: " {إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}، قال: دعاهم نبيّ الله ألف سنة إلا خمسين عاما".

قال قتادة: "لم يكن قبيل من الناس هم أظلم وأطغى من قوم نوح، دعاهم نبيّ الله صلى الله عليه وسلم نوح ألف سنة إلا خمسين عاما، كلما هلك قرن ونشأ قرن دعاهم نبيّ الله حتى

=

ذكر لنا أن الرجل كان يأخذ بيد ابنه فيمشي به، فيقول: يا بنيّ إن أبي قد مشى بي إلى هذا، وأنا مثلك يومئذ تتابُعا في الضلالة، وتكذيبا بأمر الله".

قال ابن أبي زمنين:"كانوا أول من كذب الرسل".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وأنه هو أمات وأحيا} أي: أمات في الدنيا وأحيا في الدنيا، وأمات في الدنيا وأحيا في الآخرة، أمات وأحيا البشر، تجد هذا تنفخ فيه الروح اليوم، فيكون الله قد أحياه، والآخر تنزع روحه من بدنه ويكون الله قد أماته، وهكذا دواليك، هو الذي أمات وأحيا، وهناك أيضًا ميتة عامة وحياة عامة، أمات العالم في الدنيا، وأحياهم في الآخرة، فهو الذي خلق الموت، وهو الذي خلق الحياة، وهذان أيضًا متضادان، حياة وموت، كلها من عند الله ﷻ، لأن الله تعالى على كل شيء قدير، {وأنه خلق الزوجين الذكر والأُنثى من نطفة إذا تمنى}ـ الزوج بمعنى الصنف، ومثاله قوله تعالى: {وآخر من شكله أزواج} أي: أصناف، وقوله تعالى: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم} ليس المراد زوجاتهم، بل المراد بأزواجهم، أي: أصنافهم، إذًا الزوجين يعني الصنفين، ثم بين هذين الزوجين فقال: {الذكر والأُنثى} من مادة واحدة، {نطفة} وهي المني {إذا تمنى} أي: تراق وتصب في رحم المرأة، فالله ﷻ خلق هذين الصنفين المختلفين خلقًا، والمختلفين مزاجًا، والمختلفين عقلًا، والمختلفين فكرًا، خلقهما من شيء واحد من نطفة، ولهذا قال الله تبارك وتعالى في آخر سورة القيامة: {فجعل منه الزوجين الذكر والأُنثى أليس ذلك بقدر على أن يحيى الموتى} الجواب: بلى، فالله تعالى خلق الزوجين من شيء واحد، وهذا يدل على كمال قدرته- جل وعلا- إذ إنه خلق صنفين مختلفين في كل الأحوال: في القوة البدنية والعقلية، والفكرية، والتنظيمية يختلف الذكر عن الأنثى، وبذلك نعرف ضلال أولئك القوم الذين يريدون أن يلحقوا المرأة بالرجل في أعمال تختص بالرجل، فإنهم سفهاء العقول،

=

ضلال الأديان، فكيف يمكن أن نسوي بين صنفين، فرَّق الله بينهما خلقة وشرعًا، فهناك أحكام يطالب بها الرجل ولا تطالب بها المرأة، وأحكام تطالب بها المرأة ولا يطالب بها الرجل، وأما قدرًا وخلقة فالأمر واضح، لكن هؤلاء الذين لم يوفقوا وسلب الله عقولهم وأضعف أديانهم يحاولون الآن أن يلحقوا النساء بالرجال، وهذه لا شك أنها فكرة خاطئة مخالفة للفطرة، ومخالفة للطبيعة كما أنها مخالفة للشريعة {وأن عليه النشأة الأُخرى} أي: على الله، وفي هذا دليل على أن الله أوجب على نفسه أن يبعث الناس، لأنه لو كان الناس يحيون ويموتون بلا إرجاع لكان هذا عبثًا محضًا؛ لأننا نعلم الآن أن الناس في الدنيا يختلفون في الغنى والفقر، والقوة والضعف، والذكاء والعقل وغير ذلك، ولو كان الخلق هكذا فقط بدون إرجاع لكان هذا منافٍ للحكمة تمامًا، لكن لابد من رجوع، ولهذا قال: {وأن عليه تصدى} وعلى تفيد الوجوب، فيكون الله أوجب على نفسه أن ينشأ الناس مرة أخرى، ولا مانع من أن الله يفرض على نفسه ما شاء، كما قال تعالى: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} أي: أوجب على نفسه الرحمة، كذلك هنا قال: {وأن عليه النشأة الأُخرى} أي أن الله أوجب على نفسه أن ينشيء الناس نشأة أخرى للجزاء، كل بحسب عمله، والنشأة الأخرى تفيد بأن هناك نشأة قبل وهي النشأة الأولى، وهي خلق الناس فابتداء خلق الناس من عند الله ﷻ وفي قوله: {الأُخرى} فائدة عظيمة وهي الإشارة إلى أن القادر على الأولى قادر على الآخرة، والنشأة الآخرة أهون من الأولى، كما قال الله ﷻ: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} والهين يختلف باعتبار ذاته لا باعتبار قدرة الله فإنها لا تختلف: كن.

فيكون، سواء كان أعلى شيء أو أدنى شيء، لكن بالنسبة للمقدور عليه الإعادة أهون، أما بالنسبة لقدرة الله فكلها واحد، لأن المسألة لا تعدو أن يقول: كن.

=

فيكون، وبهذا نعرف أن بعض المفسرين رحمهم الله وعفا عنهم- قالوا في قوله: {وهو أهون عليه} (أي: وهو هين عليه) وهذا غلط، كيف يقول الله عن نفسه {وهو أهون عليه} ويقول: وهو هين، لكن نقول الهون له نسبتان: نسبة للمفعول، ونسبة للفاعل، بالنسبة للفاعل هما سواء، لأن كل شيء منهما يتكون بكلمة واحدة كن فيكون، وبالنسبة للمفعول يختلف لا شك أن الأول أشد من الثاني.

{وأنه هو أغنى} أي: أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فهو الذي أغنى من شاء من خلقه {وأقنى} قيل: المعنى أفقر؛ لأنها في مقابلة (أغنى) وقيل: أغنى بالكفاية، وأقنى بما زاد على الكفاية، فالله ﷻ بسط لعباده الرزق، فمنهم من أغناه عن غيره، ومنهم من أقناه، أي: جعل له قنية وهي الزائد عن الكفاية، والقاعدة: أن الكلمة إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما ولا مرجح لأحدهما على الآخر فإنها تحمل عليهما؛ لأنه أعم للمعنى، فالذي يغني هو الله ﷻ، والذي يقني هو الله ﷻ، وليست هذه الأصنام التي هي مناة والعزى، بل ذلك إلى الله ﷻ.

{وأنه هو رب الشعرى} أتى بضمير الفصل تأكيدًا للجملة، و {رب الشعرى} أي: هو خالقها ومالكها ومدبرها، والشعرى هي النجم المضيء الذي يخرج في شدة الحر، ونص على هذا النجم؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدونها ويعظمونها، فبين تبارك وتعالى أن الشعرى من جملة المخلوقات المربوبات وليست إلهًا، ولا تستحق أن تعبد، {وأنه} أي: الله ﷻ {أهلك عادًا الأُولى} وهم قوم هود، و (الأولى) وصف كاشف، وليس وصفًا مقيدًا، يعني ليس هناك عاد أولى وعاد ثانية، بل هي واحدة، لكنها عاد قديمة سابقة، ولهذا وصفها بأنها الأولى أي: أنها القديمة السابقة وليس ثمة عاد أخرى، وهم قوم هود، وكان الله تعالى قد أعطاهم من القوة والنشاط وشدة البطش ما ليس لغيرهم، حتى إنهم قالوا من أشد منا قوة،

=

=

قال الله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدون} فهؤلاء القوم يفتخرون بشدتهم وقوتهم فأهلكهم الله بألطف الأشياء، أهلكهم {بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية} ابتدأت من بعد الفجر وانتهت عند الغروب فصارت الأيام ثمانية، والليالي سبعًا، {فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية} تحمل الإنسان إلى القمة ثم تقذف به على الأرض فصاروا {كأنهم أعجاز نخل خاوية} والعياذ بالله، فهؤلاء القوم مع شدة بطشهم وشدة بأسهم لم يمنعهم ذلك من عذاب الله ﷻ وقوله: {وثمود فما أبقى} أي: وأهلك ثمودًا وما أبقاهم، وثمود هم أصحاب الحجر، أرسل الله إليهم صالحًا فكذبوه، وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة، وأعطاهم معرفة وعلمًا بهندسة البناء، لكن مع ذلك ما دفعوا ما أراد الله بهم، صيح بهم ورجفت بهم الأرض {فأصبحوا في دارهم جاثمين} والعياذ بالله {وقوم نوح من قبل} يعني وأهلك قوم نوح

من قبل بالغرق، كما قال الله تعالى عن نبيهم نوح {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر} وفي قراءة {ففتَّحنا} مما يدل على الكثرة وشدة الانفتاح {أبواب السماء بماء منهمر} يعني نازل بشدة: {وفجرنا الأَرض عيونًا} الأرض كلها كانت عيونًا يعني ليس فيها موضع شبر إلا وهو يفور، حتى إن التنور الذي هو محل الإيقاد صار يفور مع أن محل الإيقاد أبعد ما يكون عن الرطوبة لكنه فار، فصارت الأرض كلها عيونًا والسماء تمطر، والتقى الماء، ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر، يعني أمر مقدر محدد بدون زيادة ولا نقص، فغرق القوم حتى بلغ الماء قمم الجبال، ويذكر أن امرأة كان معها صبي فكلما علا الماء صعدت الجبل، كلما علا الماء صعدت الجبل، حتى وصل الماء إلى قمة الجبل ووصل إلى المرأة وارتفع إلى جسدها، وكان معها صبي، فحملت الصبي على

=

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣).

{وَالْمُؤْتَفِكَة} وَهِيَ قُرَى قَوْم لُوط {أَهْوَى} أَسْقَطَهَا بَعْد رَفْعهَا إلَى السَّمَاء مَقْلُوبَة إلَى الْأَرْض بِأَمْرِهِ جِبْرِيل بِذَلِكَ.

فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤).

=

يديها ترفعه، لئلا يغرق قبلها، وجاء في الحديث: «لو رحم الله أحدًا لرحم أم الصبي» لكن إذا حقت كلمة الله فلا راد لقضاء الله تعالى، أجارني الله وإياكم من العذاب الأليم، وقوله: {إنهم كانوا هم أظلم وأطغى} اختلف المفسرون في مرجع الضمير فقيل: إن الضمير يعود على قوم نوح فقط.

وقيل: إنه يعود على كل الأمم التي ذكرها الله ﷻ ممن أهلكهم.

فعلى القول الأول يكون المعنى أن قوم نوح أظلم وأطغى من قوم ثمود وعاد، ووجه ذلك أنهم حصل منهم عتو واستكبار مع طول المدة، حيث إن نوحًا عليه الصلاة والسلام لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يقول الله تبارك وتعالى عنه: {قال رب إني دعوت قومي ليلًا ونهارًا فلم يزدهم دعائي إلا فرارًا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذنهم} حتى لا يسمعوا {واستغشوا ثيابهم} تغطوا بها حتى لا يبصروا، وهذا يدل على شدة كراهتهم لما يدعوهم إليه عليه الصلاة والسلام، {واستكبروا استكبارًا} أي: استكبارًا عظيمًا فلم يخضعوا لعبادة الله ﷻ، فكانوا أظلم وأطغى من عاد ومن ثمود.

وعلى القول الثاني: إن الضمير يعود على كل هؤلاء الأمم، يكون المعنى: أن هؤلاء كانوا أظلم وأطغى من قريش الذين كذبوك يا محمد، فيكون في هذا تسلية للرسول ﷺ بأن الله أهلك هؤلاء القوم مع أنهم أظلم وأطغى من قومك، والذي أهلك من سبق قادر على أن يهلك من لحق، وكلا المعنيين صحيح، فهؤلاء الأمم أظلم وأطغى من قريش، وقوم نوح أظلم وأطغى من عاد وثمود.

{فَغَشَّاهَا} مِنْ الْحِجَارَة بَعْد ذَلِكَ {مَا غَشَّى} أُبْهِمَ تَهْوِيلًا وَفِي هُود جَعَلْنَا عَالِيهَا سَافِلهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَة مِنْ سِجِّيل.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥).

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبّك} أَنْعُمه الدَّالَّة عَلَى وَحْدَانِيّته وَقُدْرَته {تتَمَارَى} تَتَشَكَّك أَيّهَا الْإِنْسَان أَوْ تَكْذِب.

هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦).

{هَذَا} مُحَمَّد {نَذِير مِنْ النُّذُر الْأُولَى} مِنْ جِنْسهمْ أَيْ رَسُول كَالرُّسُلِ قَبْله أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلُوا إِلَى أَقْوَامهمْ.

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧).

{أَزِفَتِ الْآزِفَة} قَرُبَتْ الْقِيَامَة.

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ (٥٨).

{لَيْسَ لَهَا مِنْ دُون الله} نَفْس {كَاشِفَة} أَيْ لَا يَكْشِفهَا وَيُظْهِرهَا إِلَّا هُوَ كَقَوْلِهِ {لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}.

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩).

{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيث} أَيْ الْقُرْآن {تَعْجَبُونَ} تَكْذِيبًا.

وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠).

{وَتَضْحَكُونَ} اسْتِهْزَاء {وَلَا تَبْكُونَ} لِسَمَاعِ وَعْده وَوَعِيده.

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١).

{وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} لَاهُونَ غَافِلُونَ عَمَّا يُطْلَب مِنْكُمْ.

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢).

{فَاسْجُدُوا لِلَّهِ} الَّذِي خَلَقَكُمْ {وَاعْبُدُوا} وَلَا تَسْجُدُوا للأصنام ولا

تعبدوها[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كانوا يمرون على رسول الله ﷺ وهو يصلي شامخين؛ فنزلت: {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)}.

ذكره السيوطي في "اللباب" (ص ٢٠٢) ونسبه لابن أبي حاتم.

لكن أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٤٨، ٤٩)، وأبو يعلى في "المسند" (٥/ ٨٤، ٨٥ رقم ٢٦٨٥) عن الأشجعي عن الثوري عن حكيم الديلمي عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١)}؛ قال: كانوا يقرون على النبي ﷺ شامخين، ألم تر إلى العجل كيف يخطر شامخًا؟! وهذا كما ترى ليس فيه سبب نزول.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٦٦): "رواه أبو يعلى؛ وفيه الضحاك بن مزاحم وقد وثق وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات؛ لكنه لم يسمع من ابن عباس".

وهو كما قال.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٦٧) وزاد نسبته للفريابي وابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} [النجم: ٥٣]، أي:"وقرى قوم لوط أهواها فأسقطها على الأرض بعد أن انقلبت بهم فصار عاليها سافلها".

قال أبو عبيدة:"المؤتفكة: المخسوف بها".

قال الطبري:"يقول تعالى: والمخسوف بها، المقلوب أعلاها أسفلها، وهي قرية سَدُوم قوم لوط، أهوى الله، فأمر جبريل ﷺ، فرفعها من الأرض السابعة بجناحه، ثم أهواها مقلوبة".

قال مقاتل:"وأهلك المؤتفكة، يعني: الكذبة. {أهوى}، يعني: قرى قوم لوط، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحتها فرفعها إلى السماء حتى سمعت =

=

ملائكة سماء الدنيا أصوات الديكة، ونباح الكلاب، ثم قلبها فهوت من السماء إلى الأرض مقلوبة".

قال الفراء:"يريد: وأهوى المؤتفكة لأن جبريل عليه السلام احتمل قريات قوم لوط حتى رفعها إلى السماء، ثم أهواها وأتبعهم الله بالحجارة".

قال ابن كثير:"يعني: مدائن لوط، قَلَبها عليهم فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود".

عن ابن عباس، قوله: " {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}، قال: المكذّبين أهلكهم الله".

عن قتادة، قوله:"{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}، قال: قرية لوط". وفي رواية:"هم قوم لوط".

قال عكرمة:"قوم لوط ائتفكتْ بهم الأرض بعد أن رفعها الله إلى السماء، فالأرض تَجَلجَل بهم إلى يوم القيامة".

عن أبي عيسى يحيى بن رافع: " {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}، قال: قرية لوط حين أهوى بها".

قال ابن زيد:"قرية لوط أهواها من السماء، ثم أتبعها ذاك الصخر، اقتُلعت من الأرض، ثم هوى بها في السماء ثم قُلبت".

عن مجاهد: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى}، قال: أهواها جبريل، قال: رفعها إلى السماء ثم أهواها". وفي رواية:"جبريل رفعها إلى السماء، ثم قلبها، والمؤتفكة: قوم لوط".

عن السُدِّيّ -من طريق أسباط- قال:"لَمّا أصبحوا -يعني: قوم لوط- نزل جبرئيل، فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ السماء الدنيا، حتى سمع أهلُ السماء نباحَ كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم قلبها، فقتلهم، فذلك حين يقول: {والمؤتفكة أهوى} المنقلبة حين أهوى بها جبرئيل الأرض، فاقتلعها بجناحه، فمن لم يمت حين أسقط الأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض

=

=

الحجارة، ومن كان منهم شاذًّا في الأرض. وهو قول الله:

{فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل}، ثم تتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث، فيأتيه الحجر فيقتله، وذلك قول الله تعالى: {وأمطرنا عليها حجارة من سجيل}".

قوله تعالى: {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} [النجم: ٥٤]، أي:"فألبسها ما ألبسها من الحجارة المتتابعة النازلة عليهم من السماء كالمطر".

قال الطبري: يقول:"فغشّى الله المؤتفكة من الحجارة المنضودة المسومة ما غشاها، فأمطرها إياه من سجيل".

قال ابن كثير:"يعني: من الحجارة التي أرسلها عليهم {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِين} [الشعراء: ١٧٣]".

قال مقاتل:"يعني: الحجارة التي غشاها من كان خارجا من القرية، أو كان في زرعه، أو في ضرعه".

عن ابن زيد، قوله: " {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، قال: الحجارة التي رماهم بها من السماء".

عن قتادة: " {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، قال: الحجارة".

قال قتادة:"غشاها صخرا منضودا".

قال قتادة:"كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان، فانضرم عليهم الوادي شيئا من نار ونفط وقَطِران كفم الأتون".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥)} [النجم: ٥٥]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعمات ربك يا ابن آدم التي أنعمها عليك ترتاب وتشكّ وتجادل".

قال السعدي:"أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة

=

=

لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو".

قال الفراء:"يقول: فبأي نعم ربك تكذب أنها ليست منه".

قال مقاتل:"يعني: يشك فيها ابن آدم".

قال قتادة:"يقول: فبأيّ نِعم الله تتمارى يا ابن آدم".

قال ابن عباس:"{تتَمارى} تُكَذِّب".

قوله تعالى: {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦)} [النجم: ٥٦]

عن أبي جعفر: " {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} ، قال: هو محمد ﷺ".

قال السعدي:"أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟ أليست أخلاقه أعلا أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟".

واختلف في قوله تعالى: {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى} [النجم: ٥٦]، على أقوال:

أحدها: أن رسول الله ﷺ، نذيرٌ بما أنذرتْ به الأنبياءُ، قبله. قاله ابن عباس وقتادة وأبو جعفر الباقر ومحمد بن كعب القرظي.

قال قتادة:"أنذر محمد ﷺ كما أنذرت الرسل من قبله".

قال قتادة:"بعث محمد ﷺ بما بعث الرسل قبله".

عن أبي جعفر: " {هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى} ، قال: هو محمد ﷺ".

قال محمد بن كعب:"محمد- ﷺ- أنذرَ ما أنذر الأولون".

=

=

قال ابن كثير:" {هَـذَا نَـذِيرٌ} يعني: محمدا ﷺ {مِنَ النُّذُرِ الأولَى}، أي: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُل} [الأحقاف: ٩]".

قال الفراء:"فهذا في الكلام كما تقول: هذا واحد من بني آدم وإن كان آخرهم أو أولهم".

الثاني: أن هلاك من تقدم ذكره من الأمم الأولى من النذر التي أنذرتها الأمم قبلكم في صحف إبراهيم وموسى. قاله أبو مالك واختاره الطبري.

عن أبي مالك: " {هَـذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأولَى}، قال: مما أنذروا به قومهم في صحف إبراهيم وموسى".

الثالث: أن خبر هلاك من تقدم ذكره من الأمم الأولى نذير لكم. ذكره الماوردي وذكر مقاتل نحو هذا المعنى.

وقال مقاتل:"فيها تقديم، يقول: هذا الذي أخبر عن هلاك الأمم الخالية، يعني: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، يخوف كفار مكة ليحذروا معصيته".

الرابع: أن «النذر»، يعني: الخبر، والمعنى: هذا خبر من خبر الأُمم الخالية. ومنه قوله: {وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ} [التوبة: ١٢٢]، يعني: وليخبروا قومهم. قاله يحيى بن سلام.

الخامس: معناه: هذا نذير من النذر الأولى في اللوح المحفوظ. حكاه الفراء.

قال الطبري: قول" أبي مالك أشبه بتأويل الآية، وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر ذلك في سياق الآيات التي أخبر عنها أنها في صحف إبراهيم وموسى نذير من النُّذر الأولى التي جاءت الأمم قبلكم كما جاءتكم، فقوله {هَذَا} بأن تكون إشارة إلى ما تقدمها من الكلام أولى وأشبه منه بغير ذلك".

قوله تعالى: {أَزِفَتِ الْآزِفَةُ} [النجم: ٥٨]، أي:"قربت القيامة ودنا وقتها".

=

قال مقاتل:"يعنى: اقتربت الساعة".

قال الفراء:"قربت القيامة".

قال ابن كثير:"أي: اقتربت القريبة، وهي القيامة".

قال السعدي:"أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها".

قال الطبري:"يقول: دنت الدانية: وإنما يعني: دنت القيامة القريبة منكم أيها الناس يقال منه: أزف رَحِيل فلان. إذا دنا وقَرُب، كما قال نابغة بنى ذُبيان:

أَزِفَ الترَحُّلُ غَيرَ أنَّ ركابنا... لَمَّا تَزَلْ بِرَحالِنا وكأنْ قَدِ

وكما قال كعب بن زُهَير:

بانَ الشَّبابُ وأمْسَى الشَّيبُ قَدْ أزِفا... وَلا أرَى لشَبابٍ ذَاهِبٍ خَلَفَا".

عن مجاهد، قوله: " {أَزِفَتِ الآزِفَةُ}، قال: اقتربت الساعة". وروي عن ابن جريج مثله.

عن ابن زيد:" {أَزِفَتِ الآزِفَةُ}، قال: الساعة".

عن ابن عباس: " {أَزِفَتِ الآزِفَة}، من أسماء يوم القيامة، عظَّمه الله، وحذره عباده".

عن سهل بن سعد، قال رسول الله-ﷺ-: " «مثلي ومثل الساعة كهاتين». وفرق بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان». ثم قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم أتيتم». ثم يقول رسول الله ﷺ: «أنا ذلك»".

عن زيد بن أسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «مثلي ومثل الساعة كمثل قوم بعثوا عينا فبصر بالعدو، فخاف أن يسبقه العدو إلى أصحابه فألاح بسيفه أتيتم، وإني جئت مبعوثا بين يدي الساعة».

قوله تعالى: {لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ} [النجم: ٥٨]، أي:"لا يدفعها إذًا من

=

دون الله أحد، ولا يَطَّلِع على وقت وقوعها إلا الله".

قال ابن قتيبة: أي:"ليس لعلمها كاشفٌ ومبيِّنٌ دونَ الله، ومثله: {لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ}".

قال الفراء:"أي: لا يعلم علمها غير ربي".

قال ابن كثير:"أي: لا يدفعها إذًا من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه".

قال الشوكاني:"أي: ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها إلا الله سبحانه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ليس للآزفة التي قد أزفت، وهي الساعة التي قد دنت من دون الله كاشف، يقول: ليس تنكشف فتقوم إلا بإقامة الله إياها، وكشفها دون من سواه من خلقه، لأنه لم يطلع عليها مَلَكا مقرّبا، ولا نبيا مرسلا".

عن قتادة:"{ليس لها من دون الله كاشفة}: أي: رادّة".

قال عطاء:"ليس لها رادٌّ".

قال الضحاك:"ليس لها من دون الله من آلهتهم كاشفة".

قال ابن جريج:"لا يكشف عنها إلا هو".

قوله تعالى: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} [النجم: ٥٩]، أي:"أفمِن هذا القرآن تعجبون -أيها المشركون- من أن يكون صحيحًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: أفمن هذا القرآن أيها الناس تعجبون، أنْ نزلَ على محمد ﷺ، وتضحكون منه استهزاءً به، ولا تبكون مما فيه من الوعيد لأهل معاصي الله، وأنتم من أهل معاصيه".

عن مجاهد في قوله:"{أفمن هذا الحديث} قال: القرآن".

قال مقاتل:"يعني: القرآن، {تعجبون} تكذيبا به".

قال ابن كثير:"ثم قال تعالى منكرا على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: {تَعْجَبُونَ} من أن يكون صحيحا".

=

=

قال السعدي:"أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولا فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأيا وعقلا وتسديدا وثباتا، وإيمانا ويقينا والذي ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله".

قوله تعالى: {وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} [النجم: ٦٠]، أي:"وتضحكون منه سخرية واستهزاءً، ولا تبكون خوفًا من وعيده".

قال مقاتل: " {وَتَضْحَكُونَ} استهزاء، {وَلَا تَبْكُونَ}، يعني: كفار مكة مما فيه من الوعيد".

قال الزمخشري:"{وَتَضْحَكُونَ}، استهزاء، {وَلا تَبْكُونَ}، والبكاء والخشوع حق عليكم".

قال ابن كثير:"{وَتَضْحَكُونَ} منه استهزاء وسخرية، {وَلا تَبْكُونَ}، أي: كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: {وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩]".

قال السعدي:"أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعا لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتا لأخباره الحسنة الصادقة".

قال سفيان الثوري:"فقد بلغت- والله أعلم- أن الله تعالى عير أقواما في كتابه بالضحك ، وترك البكاء فقال {أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون} [النجم: ٦٠] ومدح أقواما في كتابه فقال: {ويخرون للأذقان

=

=

يبكون ويزيدهم خشوعا} [الإسراء: ١٠٩] ، وقد بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط»".

عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل عليه السلام: «ما لي لم أر ميكائيل عليه السلام ضاحكا قط؟» قال: «ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار».

عن المعلى بن زياد قال: "قال غزوان: لله تبارك وتعالى ألا يراني الله ضاحكا حتى أعلم أي الدارين داري؟ قال: قال الحسن فعزم ففعل فما رئي ضاحكا حتى لحق بالله عز وجل".

عن عبد الله بن مسعود قال:"ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخطئون، وبخشوعه إذا الناس

يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا حليما سكينا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيا ولا غافلا ولا صخابا ولا ضاحكا ولا حديدا".

عن الفُضَيل بن عِياض -من طريق إبراهيم بن نصر-: "مَن أُوتِي عِلمًا لا يزداد فيه خوفًا وحزنًا وبكاء خليقٌ بأن لا يكون أُوتي علمًا ينفعه. ثم قرأ: {أفَمِن هَذا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وتَضْحَكُونَ ولا تَبْكُونَ}".

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} [النجم: ٦١]، أي:"وأنتم لاهون معرضون عنه؟".

اختلف في تفسير قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ} [النجم: ٦١]، على وجوه:

أحدها: شامخون كما يخطر البعير شامخًا، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"كانوا يمرّون على النبي ﷺ شامخين، ألم تروا إلى الفحل في الإبل عَطِنا شامخا".

الثاني: معناه: غضاب مبرطمون. قاله مجاهد.

قال مجاهد:"كانوا يمرّون على النبيّ ﷺ غضابا مُبَرْطِمين ".

=

=

عن مجاهد:"{وأَنْتُمْ سامِدُونَ}، قال: البَرْطَمة".

قال مجاهد:"«البرطمة، وهو العابس الوجه".

الثالث: غافلون، قاله الحسن وقتادة وابن زيد.

قال ابن زيد:"السامد: الغافل".

قال الخليل:"السمود في الناس: الغفلة والسهو عن الشيء".

قال السعدي:"أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب".

الرابع: مستكبرون، قاله السدي ورواه شمر بإسناد عن ابن عباس.

قال الخليل:"وكل رافع رأسه سامد".

قال السمين:"فيحتمل أن يكون ذلك تكبرًا، وأن يكون غفلةً. وهذه الحالة تكون لهذين الشخصين".

الخامس: لاهون، قاله ابن عباس -في رواية-. وبه قال مقاتل والفراء وأبو عبيدة وابن قتيبة والطبري والزجاج.

قال الفراء: أي: "لاهون".

قال أبو عبيدة:"لاهون، يقال: دع عنك سمودك".

قال مقاتل:"يعني: لاهون عن القرآن- بلغة اليمن-".

قال الطبري:"يقول: وأنتم لاهون عما فيه من العِبر والذكر، معرضون عن آياته؛ يقال للرجل: دع عنا سُمودَك، يراد به: دع عنا لهوك".

وقال الكلبي: "السامد: الحزين بلسان طيئ، وبلسان أهل اليمن: اللاهي".

قال الخليل:"أي: ساهون لاهون، ويقال: دع عنك سمودك".

السادس: أن السُّمود: اللهو واللعب. قاله الضحاك.

=

=

السابع: هو الغناء، كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ولعبوا، وهي لغة أهل اليمن، قاله ابن عباس وعكرمة.

قال عكرمة:"هو الغناء بالحِميرية".

قال ابن عباس:"هو الغناء، وهي يمانية، يقولون: اسمد لنا: تغَنَّ لنا".

قال ابن قتيبة:"يقال للجارية: اسْمُدِي لنا؛ أي: غنِّي لنا".

الثامن: أن «السامد»: القائم في تحيّر، روي معناه عن علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وإبراهيم.

عن إبراهيم، قوله: " {وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}، قال: قيام القوم قبل أن يجيء الإمام".

قال إبراهيم:"كانوا يكرهون أن يقوموا إذا أقام المؤذن للصلاة، وليس عندهم الإمام، وكانوا يكرهون أن ينتظروه قياما، وكان يقال: ذاك السُّمود، أو من السُّمود".

عن أبي خالد الوالبيّ، عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "رآهم قياما ينتظرون الإمام، فقال: ما لكم سامدون".

التاسع: خامدون. قاله المبرد. قال الشاعر:

رَمى الحِدْثانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ... بمقدارٍ سَمَدْنَ له سُمودا

قال ابن القيم -بعد ذكره لما تقدم في معنى الغناء-: "فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه. فهذه أربعة عشر اسمًا سوى اسم الغناء".

قوله تعالى: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} [النجم: ٦٢]، أي:"فاسجدوا لله وأخلصوا العبادة له وحده، وسلِّموا له أموركم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فاسجدوا لله أيها الناس في صلاتكم دون مَن سواه من الآلهة والأنداد، وإياه فاعبدوا دون غيره، فإنه لا ينبغي أن تكون العبادة إلا له، فأخلصوا له العبادة والسجود، ولا تجعلوا له شريكا في عبادتكم إياه".

قال مقاتل:"{فَاسْجُدُوا}، يعني: صلوا الصلوات الخمس، {وَاعْبُدُوا}، يعني:

=

=

وحدوا الرب- تعالى".

قال ابن كثير:"ثم قال آمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا}، أي: فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوا".

قال الشوكاني:"لما وبخ سبحانه المشركين على الاستهزاء بالقرآن والضحك منه والسخرية به وعدم الانتفاع بمواعظه وزواجره أمر عباده المؤمنين بالسجود لله والعبادة له، و «الفاء» جواب شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر من الكفار كذلك، فاسجدوا لله واعبدوا، فإنه المستحق لذلك منكم".

قال السعدي:"الأمر بالسجود لله خصوصا، ليدل ذلك على فضله وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام. ثم أمر بالعبادة عموما، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة".

عن قتادة: {فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا}، قال: " اعتِنوا هذه الوجوه لله، وعفِّروها في طاعة الله".

عن جعفر بن المطلب بن أبي وَدَاعة، عن أبيه قال: "قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسَجَد من عنده، فرفعتُ رأسي وأبيتُ أن أسجد، ولم يكن أسلم يومئذ المطلب، فكان بعد ذلك لا يسمع أحدًا يقرؤها إلا سجد معه".

قال العثيمين: قوله تعالى: {والمؤتفكة أهوى} أي: أسقط، والمؤتفكة هي قرى قوم لوط، وأهوى بمعنى أنزل، واختلف المفسرون في قوله {أهوى} هل المعنى أنه أهوى بها من فوق إلى أسفل بناءً على أن الله تعالى رفع هذه القرى إلى فوق ثم قلبها. أو أن المعنى أنه أهوى أسقطها، أي: أرسل عليها الحجارة حتى تهدم البناء

=

=

فصار أعلى البناء أسفله، المهم أن الله تعالى أخبر عن قوم لوط بأنه أهواهم أي أسقطهم، سواء من الجو، أو من سقوط أعلى البناء على أسفله {فغشاها} أي: غطاها، {ما غشى} مبهم للتعظيم والتفخيم، كقوله تعالى: {فغشيهم من اليم ما غشيهم} أي غشيهم شيء عظيم، فالإبهام أحيانًا يراد به التعظيم والتهويل والتفخيم، كما في هذه الآية.

{فبأي آلاء ربك تتمارى} الاستفهام هنا للتوبيخ و {آلاء}: النعم، و {تتمارى} أي: تتشكك، أي: بأي نعم الله تتشكك أيها الإنسان، إذ إن الواجب أن الإنسان يقر بنعم الله ويشكر الله عليها، لا أن يتشكك، ويقول: هذا من عملي. هذا من كذا. هذا من كذا، كما كانت العرب تقول: مطرنا بنوء كذا وكذا، يعني بالنجم وينسون الخالق ﷻ ثم قال- جل وعلا -: {هذا نذير من النذر الأُولى} المشار إليه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم {نذير} بمعنى منذر، والمنذر هو الذي يعلم بالشيء على وجه التخويف، لأن الإنذار هو إعلام بتخويف، والبشارة إعلام برجاء: {هذا نذير من النذر الأُولى} ولم يقل بشير؛ لأن المقام لا يقتضي إلا ذكر الإنذار، إذ إن الله تحدث من أول السورة إلى آخرها عن قريش، وتكذيبها للرسول ﷺ وعبادتها للأصنام، فيقول محمد ﷺ {نذير من النذر الأُولى} أي: من الرسل السابقين، وكما أن الذين كذبوا الرسل حل بهم العقاب والنكال فأنتم أيها المكذبون لرسول الله ﷺ يوشك أن يحل بكم النكال والعقوبة، لأن محمدًا ﷺ مثل غيره نذير من النذر، فإذا كان نذير من النذر فإن من كذبه سوف يقع به مثل ما وقع بالأمم السابقة {أزفت الآزفة} أي: قربت القيامة، ومنه قول الشاعر:

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد.

فالآزفة هي القيامة، لأن الساعة قريبة، كما قال الله تعالى: {وما يدريك لعل الساعة قريب} وقال الله تعالى في الآية الأخرى: {وما يدريك لعل الساعة تكون

=

=
قريبًا} فهي قريبة، ويدل لقربها أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل، فمعناه أن الأمر قريب، وأما كون الله تعالى يذكر أن الأمر قريب وبيننا وبين نزول القرآن أربعة عشر قرنًا، ونحن في القرن الخامس عشر، ومع ذلك يذكر الله ﷻ أن الساعة قريبة، ومن هنا نعرف أن عُمر الدنيا طويل وبعيد، ولكن هل نأخذ بقول هؤلاء الذين يتخرصون، ويقولون: عمر الدنيا الماضي كذا وكذا؟ والجواب: لا نأخذ بقولهم، ولا نصدقهم ولا نكذبهم، أحيانًا يقولون: إنهم عثروا على آثار حيوان له كذا وكذا من ملايين السنين، أو على أحجار، فهذا لا نصدق ولا نكذب، لأنهم لا يعلمون الغيب الماضي، وإنما يقيسونه بحال الحاضر، أي يقيسون عمر هذا الأثر بحسب المؤثرات في الوقت الحاضر، لكن من يعلمنا أن المؤثرات في الوقت الحاضر هي المؤثرات في الوقت الماضي لا ندري، قد يتغير الطقس من حرارة إلى برودة، ومن برودة إلى حرارة، وقد تتغير الرياح والأمطار وغير ذلك، وما نقرأه أو نسمع به من علوم هؤلاء موقفنا نحوه أن لا نصدق ولا نكذب، أما في المستقبل فيجب أن نكذب كل من أخبر عن شيء مستقبل؛ لأنه يدعي الغيب، والله ﷻ يقول: {قل لا يعلم من في السماوات والأَرض الغيب إلا الله} فعليه: {أزفت الآزفة} أي قربت القيامة لكن هل يمكن أن نحدد مدى القرب؟ لا يمكن، ومن ادعى أنه يعلم أنه متى تقوم الساعة فإنه مكذب لله ورسوله، أما الله فقد قال تعالى: {يسئلك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبًا} وأما الرسول عليه الصلاة والسلام فإن جبريل لما سأله قال: «أخبرني عن الساعة؟» قال له النبي ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» يعني إذا كنت تجهلها فأنا مثلك، فمن ادعى أن الساعة تقوم بعد مليون سنة، أو مائة ألف سنة، أو أقل، أو أكثر فإننا يجب علينا أن نكذبه، ونقول: إنه كافر، لأنه مكذب لله ورسوله. {ليس لها من دون الله كاشفة} لها معنيان: المعنى الأول: كاشفة يعني مانعة، يعني لا
=

=

أحد يكشفها أي: يمنعها، كما في قوله: {أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء} . والمعنى الثاني: كاشفة يعني عالمة تكشفها وتبينها، وعلى كل حال فلا أحد يمنع الساعة إذا شاء الله، ولا أحد اطلع على الساعة متى تكون.

{أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا} الخطاب هنا للمكذبين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والاستفهام في قوله: {أفمن هذا الحديث} للإنكار والتعجب من هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ الذي جاء بالآيات البينات، وأخبر عن الأمم السابقة، وبيَّن أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم نذير من النذر الأولى، ويخشى على من كذبه أن يناله من العذاب ما نال المكذبين للنذر الأولى، يقول الله ﷻ: {أفمن هذا الحديث تعجبون} أيها المكذبون للنبي ﷺ، ومعنى {تعجبون} أي: ترونه عجبًا منكرًا، ولهذا قالوا: {أجعل الآلهة إلهًا وحدًا إن هذا لشيء عجاب} وقال الله تعالى: {بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب} فهم يتخذون ما جاء به الرسول ﷺ عجبًا، والمراد عجب الإنكار والاستبعاد، {وتضحكون}: يعني استهزاء بهذا الحديث الذي هو القرآن، وكذلك يضحكون بشرائع هذا الحديث، حيث كانوا يضحكون من رسول الله ﷺ وعباداته ويسخرون به، إذًا {تعجبون} إنكارًا {وتضحكون} استهزاء {ولا تبكون}ـ أي: لا تبكون من هذا الحديث خشية وخوفًا وإنابة إلى الله ﷻ بل هم أقسى الناس قلوبًا، - والعياذ بالله- أو من أقسى الناس قلوبًا لا تلين قلوبهم ولا يبكون من خشية الله {وأنتم سامدون} أي: غافلون بما تمارسونه من اللغو والغناء وغير ذلك، لأن منهم من إذا سمعوا كلام الله ﷻ جعلوا يغنون، كما قال الله تعالى: {وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون} قوله تعالى: (سامدون) ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن المراد بالسمود في قوله

=

=

تعالى: {وأنتم سامدون}: اللهو والغناء.
والقول بأن المراد بالسمود: اللهو مروي عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -.
وبه قال: الفراء، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والطبري. ونسبه الأزهري للمفسرين.
وروي عن قتادة، والحسن، وابن زيد أن المراد بالسمود: الغفلة. وبه قال الرازي.
ونسب ابن كثير إلى ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن معنى سامدون: معرضون.
وروي عن ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أن المراد بالسمود: الغناء بلغة حمير.
قال الثعلبي في تفسيره: فالمراد غافلون عنه بالغناء وغيره مما تتلهون به، حتى لا تسمعوا كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا نظير ما قاله المكذبون لأول رسول أرسل إلى بني آدم، حيث قال الله تبارك وتعالى عن قوم نوح: {وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذنهم} حتى لا يسمعوا {واستغشوا ثيابهم} أي: تغطوا بها حتى لا يروا ولا يبصروا {وأصروا واستكبروا استكبارًا} فما كان في أول أمة كان في آخر أمة، {فاسجدوا لله واعبدوا} اسجدوا لله خضوعًا وذلًا، والمراد بالسجود هنا الصلوات كلها، وليس الركن الخاص الذي هو السجود، وليس أيضًا سجود التلاوة بل هو عام في كل الصلوات، {واعبدوا}- هذا عام لكل العبادات، وخص الصلاة بالذكر وقدَّمها؛ لأنها أهم العبادات البدنية الظاهرة بعد الشهادتين، وعلى هذا فيكون العطف في قوله: {واعبدوا} على قوله {فاسجدوا} من باب عطف العام على الخاص كما أن قوله تعالى: {تنزل الملائكة والروح فيها} من باب عطف الخاص على العام.
(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) (النجم: ٢٢- ٢٣)، وقال

=

=

بعدها: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) (النجم: ٢٧- ٢٨)، للسائل أن يسأل عن تعقيب قوله أولًا: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) بقوله: (وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) وثانيًا بقوله: (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)؟ وما الفائدة من تقديم ما قدم وتأخير ما أخر؟ وهل كان العكس مناسب؟

والجواب، والله أعلم: أنه لما قال تعالى قبل هذا: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) (النجم: ١٩- ٢٠) فذكر أصنامهم وتسميتهم إياها آلهة واتخاذها معبودات، وذكر تعالى في مواضع أخر أنهم جعلوا الملائكة إناثًا) (الزخرف: ١٩) وأنهم بنات الله.. قال تعالى: (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ) (النحل: ٧٥)، وكرهوا البنات لأنفسهم وإليه الإشارة بقوله: (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) (النحل: ٧٥) (أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون)، قال تعالى مخاطبًا نبيه صلى اله عليه وسلم ومعلمًا بحالهم وتوبيخًا لهم (وتقريعًا) (مع) إبقاء أعظم التلطف وأجل الحلم: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) (النجم: ٢١- ٢٢) أي جائزة، ثم عرفهم بما لا جواب لهم عليه وأنه مرتكب لا مستند له فقال: (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) (النجم: ٢٣) إلا اتباع ظن وهوى: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) (النجم: ٢٣)، ثم نبه تعالى على الرحمة بما جاءهم به نبيه ﷺ فقال: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) (النجم: ٢٣)، وعرفهم بما تشهد العقول بتصديقه لإدراك ذلك إدراكًا ضروريًا فقال تعالى: (أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى) (النجم: ٢٤) أي الجاري في الوجود أن الإنسان قد يتمنى الشيء فلا يدركه إذا لم يقدر له وقد يجيئه ما لا يريده لا بحسب تمنى المتمني منكم إلا أن شاء ذلك، ثم أخبر تعالى عن الملائكة وأشار إلى عليّ أقدارهم فقال: (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ

=

سورة القمر(١)

=

يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) (النجم: ٢٦)، فقطع تعالى بهم (في قولهم) في آلهتهم (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) (الزمر: ٣)، ثم صرف تعالى الخطاب إلى نبيه ﷺ فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ) (النجم: ٢٧)، ولم يقل له: إن قومك، أو (إن) العرب، أو ما يحرز هذا المعنى، وإبقاء عليهم، وأخبر أنهم لا علم عندهم ((إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) (النجم: ٢٧)، ثم قال: (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) (النجم: ٢٨)، فهذا موضع قوله: (وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) وأما الموضع الأول فموضع ذكر اتباعهم أهواءهم، لما أوضح تعالى (لهم) أن ليس للإنسان ما يتمناه فبضل هوى الأنفس ولم يبق إلا مجرد ظن، أخبر تعالى أن الظن لا يغني من الحق شيئًا. فتناسب هذا كله، وتبين أن كلًا من المعقب (به) في الموضعين لا يصح في غير موضعه، ولا يمكن العكس، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٥٧-٤٥٨).

(١) السّورة مكِّيّة. قاله ابن عباسـ وابن الزبير.

عن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ قال: «سأل أهل مكة النبي- ﷺ- آية؛ فانشق القمر بمكة مرتين؛ فنزلت: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}، يقول: ذاهب". [صحيح]

الثاني: أنها مكية إلاّ ثلاث آيات، أوّلها: {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ} [القمر: ٤٤]، إلى قوله: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، نزلت يوم بدر، قاله مقاتل.

قال القرطبي:"ولا يصح".

الثالث: أنها مكية إلا آية منها، وهي قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}

=

=

[القمر: ٤٥]، حكاه ابن عطية ـ وحكاه ابن الجوزي عن مقاتل. وبه قال الزمخشري.

وقال السمعاني: وهي مكية إلا قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: ٤٥]، والآية التي بعدها".

قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع إلا آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس هي مكية، وقال قوم هي مما نزل ببدر، وقيل بالمدينة وهي: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ} [القمر: ٤٥] الآية".

وقال ابن أبي زمنين:"هي مكية كلها".

وقال الفيروزآبادي:"السورة مكية بالاتفاق".

وقال ابن الجوزي:"هي مكّيّة بإجماعهم".

وقال القرطبي:"سورة القمر مكية كلها في قول الجمهور".

وقال ابن عاشور:"هي مكية كلها عند الجمهور".

*آياتها خمس وخمسون. وكلماتها ثلاثمائة واثنتان وأَربعون. وحروفها أَلْف وأَربعمائة وثلاث وعشرون. فواصل آياتها كلّها على حرف الرّاءِ.

* أسماء السورة.

عرفت السورة باسم «سورة القمر»، وكتبت في المصاحف وكتب التفسير، وبذلك ترجمها الإمام الترمذي في "جامعه".

ووجه تسميته بـ «سورة القمر»، لافتتاحها بذكر انشقاق القمر، وهو معجزة نبينا محمد-ﷺ-، قال تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}.

وتسمى «سورة اقتربت الساعة» ففي حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ «كان يقرأ بقاف والقرآن المجيد، واقتربت الساعة وانشق القمر». في الفطر، والأضحى.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١).

=

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:"نزلت بمكة سورة {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ}". وروي عن ابن الزبير مثله.

وبهذا الاسم عنون لها الإمام البخاري في كتاب التفسير من "صحيحه".

ووجه تسميتها بهذا الاسم، لافتتاحها بهذين اللفظين في قوله تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١].

كما كتبت في بعض الكتب باسم: «سورة الساعة».

* معظم مقصود السّورة: تخويف بهجوم القيامة، والشكوى من عبادة أَهل الضَّلالة وذلّهم فى وقت البعث وقيام السّاعة، وخبر الطُّوفان، وهلاك الأَمم المختلفة، وحديث العاديّين ونكبتهم بالنكباءِ، وقصة ناقة صالح، وإِهلاك جبريل قومه بالصيحة، وحديث قوم لوط، وتماديهم فى المعصية، وحديث فرعون، وتعدّيه فى الجهالة، وتقرير القضاءِ والقدر، وإِظهارِ علامة القيامة، وبروز المتقين (فى الجنَّة) فى مقعد صدق، ومقام القُرْبة فى قوله: {مَقْعَدَ صِدْقٍ}.

* المتشابه من سورة القمر قصة نوح وعاد وثمود ولوط ذكر فى كل واحد منها من التخويف والتحذير ما حلّ بهم ليتَّعظ به حامل القرآن وتاليه ويعظ غيره. وأَعاد فى قصة عاد {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} مرّتين؛ لأَنَّ الأُولى فى الدنيا والثانية فى العُقبى؛ كما قال فى هذه القصة: {لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى} وقيل: الأَول لتحذيرهم قبل إِهلاكهم، والثانى لتحذير غيرهم بعد إِهلاكهم] ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٤٥).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَة} قَرُبَتْ الْقِيَامَة {وَانْشَقَّ الْقَمَر} انْفَلَقَ فِلْقَتَيْنِ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ وَقَيْقَعَانَ آيَة لَهُ ﷺ وَقَدْ سُئِلَهَا فَقَالَ اشْهَدُوا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية؛ فانشق القمر بمكة مرتين؛ فنزلت: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢)}، يقول: ذاهب.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٥٧) -ومن طريقه مسلم في "صحيحه" (٤/ ٢١٥٩- لكن لم يسق لفظه)، وأحمد (٣/ ١٦٥)، وعبد بن حميد في "المسند" (٣/ ٩٢ رقم ١١٨٢)، والترمذي في "الجامع" (٥/ ٣٩٧ رقم ٣٢٨٦)، والأصبهاني في "دلائل النبوة" (١/ ٢٦٢ رقم ٦)، وأبو يعلى في "المسند" (٥/ ٤٦٣ رقم ٣١٨٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٧٢)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٢٦٣)- عن معمر عن قتادة عن أنس به.

والحديث قال عنه الترمذي: "حديث حسن صحيح". وقال الحاكم: "قد اتفق الشيخان على حديث شعبة عن قتادة عن أنس: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، ولم يخرجاه بسياقة حديث معمر، وهو صحيح على شرطهما". وهو كما قال، وقد توسع أخونا الفاضل مساعد الراشد -حفظه الله- في تخريج رواياته في تعليقه على "دلائل النبوة" للأصبهاني؛ فانظرها غير مأمور.

وأخرج أبو داود الطيالسي في "مسنده" (٢/ ١٢٣ رقم ٢٤٤٧- منحة)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٥٠، ٥١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٨)، وأبو نعيم في "الدلائل النبوة" (ص ٢٣٥، ٢٣٦)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٢٦٦) من طريق أبي عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود؛ قال: انشق القمر على عهد النبي ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي =

=

كبشة، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السفار؛ فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السفار فسألوهم؛ فقالوا: نعم قد رأيناه؛ فأنزل الله -تعالى-: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢)}.

وسنده صحيح.

وأخرج عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٥٧) -ومن طريقه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٧١)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٢٦٥)- عن ابن عيينة ومحمد بن مسلم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن مسعود؛ قال: رأيت القمر منشقًا شقتين مرتين بمكة قبل مخرج النبي ﷺ: شقة على أبي قبيس، وشقة على السويداء، فقالوا: سحر القمر؛ فنزلت: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١)} يقول: كما رأيتم القمر منشقًا؛ فإن الذي أخبرتكم عن اقتراب الساعة حق.

وسنده صحيح.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، إنما اتفقا على حديث أبي معمر عن عبد الله مختصرًا، وهذا حديث لا نستغني فيه عن متابعة الصحابة بعض لبعض"، ووافقه الذهبي.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ؛ فقالوا: سحر القمر؛ فنزلت: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} إلي قوله: {مُسْتَمِرٌّ}.

أخرجه الطبراني في "المعجم"الكبير" (١١/ ٢٠٠ رقم ١١٦٤٢)، و"الأوسط" (٨/ ١٧٥ رقم ٨٣١٥) من طريقين عن محمد بن يحيى القطعي نا محمد بن بكر البرساني عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس به.

ولفظ "الأوسط": "الشمس" بدل "القمر".

وهذا سند ضعيف جدًا؛ رجاله ثقات رجال الصحيح؛ لكن فيه علة خفية، وهي تدليس ابن جريج؛ قال الحافظ الدارقطني -كما في "سؤالات الحاكم"-:

=

=

"يتجنب تدليس ابن جريج؛ فإنه وحش التدليس، لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح؛ كابن أبي يحيى وموسى بن عبيدة".

وهذا الحديث سمعه من متروك، وهو إبراهيم بن زيد الخوزي، يوضح لنا هذا رواية الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٢٠٠ رقم ١١٦٤٣)؛ فقد رواه من طريق إبراهيم هذا عن عمرو بن دينار به إلا أنه قال: الشمس بدل من القمر. وهذه العلة تقدح في صحة الحديث.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٢/ ٢٠٩): "رواه الطبراني في "الأوسط" وفيه موسى بن زكريا شيخ الطبراني، فإن كان هو التستري؛ فقد تكلم فيه الدارقطني، وإن كان غيره؛ فلا أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح". وهو التستري المتروك؛ لكنه توبع، تابعه الحافظ البزار عند الطبراني.

قال الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه "الصحيح المسند من أسباب النزول" (ص ١٤٦): "وأخرج الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عباس (فذكره) "، ونقل عن الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٣/ ١٢٠) قوله: "سنده جيد".

وقال الحافظ ابن كثير -نفسه- في "البداية والنهاية" (٦/ ٧٥، ٧٦): "وهذا سياق غريب".

وتقدم أن الصحيح من سبب نزول الآية هو بسبب انشقاق القمر وهو المناسب لسياق الآيات: {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، ولا علاقة للآية بكسوف الشمس والقمر، ويدلك -أيضًا- على ضعف هذه الرواية أنها ذكرت الشمس، وكلام الله في الآيات عن القمر؛ فتنبه لهذا ولا تكن من الغافلين.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٧١) وزاد نسبته لابن مردويه.

ويؤكد هذا ما أخرجه أحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/

=

=

٤٩ رقم ٤١٢٨)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٠ رقم ٧٨٤٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٥١) من طريقين صحيحين عن داود بن أبي هند عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١)}؛ قال: ذاك قد مضى، كان قبل الهجرة، انشق حتى رأوا شقيه.

قلنا: وهذا سند حسن؛ ورواية علي محمولة على الاتصال؛ كما قال الحافظ ابن حجر وغيره، كما تقدم بيانه في أكثر من موضع.

وهذا يبين أن الكلام كله حول انشقاق القمر، لا علاقة للآية لا بكسوف القمر ولا الشمس -والله أعلم-.

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قال: جاءت أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: أرنا آية حتى نؤمن؛ فسأل النبي ﷺ ربه أن يريه آية؛ فأراهم القمر قد انشق، فصار قمرين؛ أحدهما على الصفا، والآخر على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليه، ثم غاب القمر؛ فقالوا: هذا سحر مستمر.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٧٢) ونسبه لأبي نعيم في "الدلائل".

ولم نجده فيه، لكنه أخرج (ص ٢٣٥) من طريق الزبير بن عدي عن الضحاك عن عبد الله بن عباس؛ قال: جاءت أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أرنا آية؛ حتى نؤمن؛ فسأل النبي ﷺ ربه ﷻ أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق فصار قمرين: أحدهما على الصفا، والآخر على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظرون إليهما ثم غاب القمر، فقالوا: هذا سحر مستمر.

وهذا سند ضعيف؛ لانقطاعه؛ فالضحاك لم يلق ابن عباس.

وأخرجه (ص ٢٣٤، ٢٣٥) من طريق عبد الغني بن سعيد ثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس.

وعن مقاتل عن الضحاك عن عبد الله بن عباس ﵄؛ قال: اجتمع المشركون إلى

=

=

رسول الله ﷺ؛ منهم: الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث ونظراؤهم كثير، فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقًا؛ فشق القمر لنا فرقتين: نصفًا عى أبي قبيس، ونصفًا على قعيقعان! فقال لهم رسول الله ﷺ: "إن فعلت تؤمنوا؟ "، قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر؛ فسأل رسول الله ﷺ ﷻ أن يعطيه ما سألوا؛ فأمسى القمر قد مُثُل نصفًا على أبي قبيس، ونصفًا على قعيقعان، ورسول الله ﷺ ينادي: "يا أبا سلمة ابن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم! اشهدوا". وهذا موضوع بطريقيه؛ أما الأولى؛ ففيها عبد الغني وموسى، قال الحافظ ابن حجر في "العجاب" (١/ ٢٢٠): "ومن التفاسير الواهية؛ لوهاء رواتها: التفسير الذي جمعه موسى بن عبد الرحمن الثقفي الصنعاني، وهو قدر مجلدين يسنده إلى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وقد نسب ابن حبان [في "المجروحين" (٢/ ٢٤٢)]، موسى هذا إلى وضع الحديث، ورواه عن موسى عبد الغني بن سعيد الثقفي وهو ضعيف". اهـ.

نص كلام ابن حبان: "شيخ دجال يضع الحديث، روى عنه عبد الغني بن سعيد الثقفي، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتابًا في التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل بن سليمان [وهما كذابان] وألزقه بابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، ولم يحدث به ابن عباس، ولا عطاء سمعه، ولا ابن جريج سمعه من عطاء، وإنما سمع ابن جريج من عطاء الخراساني عن ابن عباس في التفسير أحرفًا شبيهًا بجزء، وعطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس شيئًا ولا رآه، ولا تحل الرواية عن هذا الشيخ ولا النظر في كتابه إلا على سبيل الاعتبار".

والطريق الثانية كالأولى؛ فمقاتل هو وابن سليمان كذاب، ولعل موسى الثقفي أخذه عنه كما تقدم عن ابن حبان، والضحاك لم يلق ابن عباس.

=

=

* قوله تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ}، أي:"دنت القيامة".

قال الطبري: يعني:"دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون".

قال النحاس:"المعنى: اقتربت الساعة التي تقوم فيها القيامة فاحذروا منها لئلا تأتيكم فجأة وأنتم مقيمون على المعاصي".

قال ابن عطية:"{اقْتَرَبَتِ}، معناه: قربت إلا أنه أبلغ، كما أن اقتدر أبلغ من قدر. و: السَّاعَةُ القيامة وأمرها مجهول التحديد لم يعلم، إلا أنها قربت دون تحديد".

وفي تسمية «القيامة» بالساعة، وجهان:

أحدهما: لسرعة الأمر فيها.

الثاني: لمجيئها في ساعة من يومها.

قال أبو حازم: قال رسول الله ﷺ: قال أبو ضمرة لا أعلمه إلا، عن سهل بن سعد، قال: «"مثلي ومثل الساعة كهاتين". وفرق بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، ثم قال: "مثلي ومثل الساعة كمثل فرسي رهان". ثم قال: "مثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه: أتيتم أتيتم". ثم يقول رسول الله ﷺ: " أنا ذلك"».

قوله تعالى: {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١]، أي:"وانفلق القمر فلقتين".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: وانفلق القمر".

قال الزمخشري:"انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة".

وفي قوله تعالى: {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١]، ثلاثة أقوال:

أحدها: معناه: وضح الأمر وظهر. حكاه الماوردي. وبه قال العز بن عبدالسلام والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح أمره، قال الشاعر:

=

=

أقيموا بني أمي صدور مطيكم... فإني إلى قوم سواكم لأميل

فقد حمت الحاجات والليل مقمر... وشدت لطيات مطايا وأرحل

قال العز بن عبدالسلام: أي: "اتضح الأمر وظهر، يضربون المثل بالقمر فيما وضح وظهر".

الثاني: أن انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها كما يسمى الصبح فلقًا لانفلاق الظلمة عنه، وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه، حكاه الماوردي ومنه قول النابغة الجعدي:

فلمَّا أَدْبَرُوا ولهُم دَوِيٌّ... دعانا عند شَقِّ الصُّبْحِ داعي

الثالث: أنه انشقاق القمر على حقيقة انشقاقه.

وفيه على هذا التفسير الأخير، قولان:

أحدهما: أنه سينشق بعد مجيء الساعة وهي النفخة الثانية، قاله الحسن ورواه عثمان بن عطاء عن أبيه قال: لأنه لو انشق ما بقي أحد إلا رآه لأنها آية والناس في الآيات سواء.

قال ابن عطية:"وهذا ضعيف، الأمة على خلافه".

قال الفخر الرازي:"بعيد ولا معنى له".

قال الثعلبي:"العلماء على خلاف هذا القول، والأخبار الصحاح ناطقة بأن هذه الآية قد مضت".

قال الزجاج:"زعم قوم عَندُوا عَنِ القَصْدِ وما عليه أهل العلم: أنَّ تأويله أن القمر ينشق يوم القيامة، والأمر بين في اللفظ وإجْماعِ أهلِ العلم، لأن قوله: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}، فكيف يكون هذا في القيامَة!".

قال السمعاني:"قوله إن معناه: سينشق القمر. قلنا: هذا عدول عن ظاهر الآية، ولا يجوز إلا بدليل قاطع، ولأن الله تعالى قال: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ

=

=

مُسْتَمِرٌّ}، وهذا دليل على أنهم قد رأوها، ولأنه سماه آية، وإنما يكون آية إذا كانت في الدنيا؛ لأن الآية هاهنا بمعنى الدلالة والعبرة".

قال ابن الجوزي:"هذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله: {وَانْشَقَّ} لفظ ماض، وحَمْلُ لفظ الماضي على المستقبل يفتقر إلى قرينة تنقله ودليل، وليس ذلك موجودًا. وفي قوله: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا}، دليل على أنه قد كان ذلك".

الثاني: أن القمر انشق على عهد رسول الله -ﷺ- وهو بمكة، قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية، فآراهم ﷺ انشقاق القمر، آية حجة على صدق قوله، وحقيقة نبوّته. قاله عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وإبراهيم. وهو ظاهر التنزيل.

قال الزجاج:"أجمع المفسرون، - ورَوينا عن أهل العلم الموثوق بهم- أن القمر انشق على عهد رسول الله- ﷺ -".

قال ابن كثير:"قد كان هذا في زمان رسول الله -ﷺ- كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة.. وهو أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمن النبي -ﷺ-، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات". ثم ساق الأحاديث في ذلك.

قال الجصاص: " قوله تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القمر: ١]، دلالة على صحة نبوة النبي ﷺ لأن الله لا يقلب العادات بمثله إلا ليجعله دلالة على صحة نبوة النبي ﷺ وروى انشقاق القمر عشرة من الصحابة منهم عبد الله بن مسعود وابن عمر وأنس وابن عباس وحذيفة وجبير بن مطعم في آخرين كرهت ذكر أسانيدها للإطالة، فإن قيل: معناها سينشق في المستقبل عند قيام الساعة، لأنه لو كان قد انشق في زمان النبي ﷺ لما خفي على أهل الآفاق؟

=

=

قيل له: هذا فاسد من وجهين:

أحدهما: أنه خلاف ظاهر اللفظ وحقيقته.

والآخر: أنه قد تواتر الخبر به عن الصحابة ولم يدفعه منهم أحد.

وأما قوله: إنه لو كان ذلك قد وقع لما خفي على أهل الآفاق؟

فإنه جائز أن يستره الله عنهم بغيم أو يشغلهم عن رؤيته ببعض الأمور لضرب من التدبير، ولئلا يدعيه بعض المتنبئين في الآفاق لنفسه، فأظهره للحاضرين عند دعاء رسول الله ﷺ إياهم واحتجاجه عليهم".

قال الفخر الرازي:"وأما المؤرخون فتركوه، لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم، وهو لما وقع الأمر قالوا: بأنه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له، وإمكانه لا يشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه، وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام، وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات".

قال القرطبي:"ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية، وأنها كانت باستدعاء النبي ﷺ من الله تعالى عند التحدي".

قال العثيمين: قوله تعالى: {اقتربت الساعة وانشق القمر} اقتربت بمعنى قربت، لكن العلماء يقولون: إن زيادة المبنى يدل على زيادة المعنى، وهنا اقتربت فيها زيادة المبنى على قربت، والزيادة: الهمزة والتاء، فيدل على أن القرب قريب جدًا، فمعنى اقتربت أي قربت جدًا، والساعة هي يوم القيامة، وقد قال الله تعالى فيها: {فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً فقد جاء أشراطها} أي: علاماتها، ومن علاماتها بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن بعثة الرسول عليه الصلاة

=

=

والسلام وكونه خاتم الأنبياء دليل على أنه قد قربت الساعة، ولهذا حقق النبي عليه الصلاة والسلام هذا بقوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقال بإصبعه الوسطى والسبابة، والسبابة قريبة من الوسطى ليس بينهما إلا جزء يسير مقدار الظفر، وهذا يدل على قربها، لكن مع ذلك كم بيننا وبين الرسول ﷺ؟ نحن في القرن الخامس عشر الهجري بعد بعثة الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ومع ذلك مازالت الدنيا باقية مما يدل على أن ما مضى طويل جدًا، حتى إن الرسول ﷺ عند غروب الشمس قال: «إنه لم يبق من الدنيا- يعني بالنسبة لمن سبقكم- إلا كما بقي من يومكم هذا»، {وانشق القمر} كأن الله أشار إلى أن هذا من أشراط الساعة، {وانشق القمر} والمعنى أنه صار فرقتين تميز بعضهما عن بعض، أحدهماعلى جبل أبي قبيس، والثانية على جبل قعيقعان يعني فلقة على الصفا وفلقة على المروة، والمسافة السماوية في رؤيا العين ما بين الصفا والمروة بعيدة جدًا، قد تستغرق سنوات، انشق القمر بلحظة بأمر الله ﷻ وتباعدت أجزاؤه بلحظة، لأن قريشًا كانوا يتحدون الرسول عليه الصلاة والسلام ويطلبون منه الآيات، وقد قال الله ردًّا عليهم: {قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم} لكن لم يكفهم، لأنهم معاندون لا يريدون الحق، أتوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا: يا محمد أنت تقول إنك رسول، وإنك يأتيك الخبر من السماء وكذا وكذا فأرنا آية، فأشار النبي ﷺ إلى القمر ودعا ربه فانفلق فرقتين بلحظة.

ومن يفلق هذا الجسم العظيم الأفقي العالي إلا رب العالمين ﷻ؟! أراهم إياه، ولكن لم ينفعهم، وقالوا: سحرنا محمد، وبعضهم قال: سحر القمر، وأنكروا، فقال بعضهم لبعض: اسألوا المسافرين إذا قدموا هل رأوه أم لا؟ فصاروا يسألون المسافرين من كل وجه: هل رأوه أم لا؟ فيقولون: نعم، رأيناه في الليلة الفلانية كذا

=

=

وكذا، وهذا بالنسبة للقريبين منهم كأهل الجزيرة مثلًا، أما البعيدون فقد لا يرونه، وكما نعلم الآن أن الليل هنا يكون نهارًا في مكان آخر، أو لوجود غيوم وضباب كثير يمنع الرؤيا؛ ولهذا لا يمكن أبدًا لأي عاقل أن ينكر انشقاق القمر انشقاقًا حسيًّا، لأنه لم يذكر في تاريخ اليونان، ولم يذكر في تاريخ الهند ولم يذكر في كذا وكذا، هذا ليس حجة يبطل به ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من أن القمر انشق فعلًا انشقاقًا حسيًّا، ونحن نؤمن بأن القادر على أن يطوي السماوات بيمينه كطي السجل للكتب، قادر على أن يفرق القمر فرقتين، ولا شيء يعجزه، {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأَرض إنه كان عليمًا قديرًا} ولهذا لا وجه لإنكار من أنكر ذلك ممن ينتسبون إلى الإسلام، ويقولون: إن الأفلاك السماوية لا يمكن أن تتغير، نقول: الله أكبر، مَن الذي خلق الأفلاك السماوية أليس الله؟ بلى، إذن هو قادر على أن يغيرها {إنما أمره إذآ أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون}ـ فانشقاق القمر انشقاق حسي، انفلق فرقتين، ورآه الناس وشاهدوه، ولكن المكابر المعاند لا يقبل شيئًا.

(فائدة): قال الكتاني في نظم المتناثر (ص ٢١١): قال التاج ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب الأصلي الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر منصوص عليه في القرآن مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق من حديث شعبة عن سليمان بن مهران عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود ثم قال وله طرق أخرى شتى بحيث لا يمتري في تواتره وقال في الشفا بعد ما ذكر أن كثيرا من الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقطع ما نصه أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه وأخبر بوجوده ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة فلا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك في قلوب الضعفاء المؤمنين بل نرغم بهذا

=

=
أنفه وننبذ بالعراء سخفه اهـ. وفي أمالي الحافظ ابن حجر أجمع المفسرون وأهل السير على وقوعه قال ورواه من الصحابة علي وابن مسعود وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس وقال القرطبي في المفهم رواه العدد الكثير من الصحابة ونقله عنهم الجم الغفير من التابعين فمن بعدهم اهـ. وفي المواهب اللدنية جاءت أحاديث الانشقاق في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم أنس وابن مسعود وابن عباس وعلي وحذيفة وجبير بن مطعم وابن عمر وغيرهم اهـ. وقال ابن عبد البر روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا وتأيد بالآية الكريمة اهـ. وقال المناوي في شرحه لألفية السير للعراقي تواترت بانشقاق القمر الأحاديث الحسان كما حققه التاج السبكي وغيره اهـ.
وفي نظم السيرة لأبي الفضل العراقي بانشقاق القمر الأحاديث الحسان كما حققه التاج السبكي وغيره اهـ. وفي نظم السيرة لأبي الفضل العراقي فصار فرقتين فرقة علت * وفرقة للطود منه نزلت وذاك مرتين بالإجماع * والنص والتواتر السماعي. قال تلميذه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ما ملخصه وأظن قوله بالإجماع يتعلق بانشق لا بمرتين فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد الانشقاق في زمنه ﷺ وفي المواهب لعل القائل مرتين أراد به فرقتين وهذا الذي لا يتجه غيره جمعا بين الروايات.
قال الحافظ في الفتح (٧/ ١٨٥): وقد أنكر جمهور الفلاسفة انشقاق القمر متمسكين بأن الآيات العلوية لا يتهيأ فيها الانخراق والالتئام وكذا قالوا في فتح أبواب السماء ليلة الإسراء إلى غير ذلك من إنكارهم ما يكون يوم القيامة من تكوير الشمس وغير ذلك وجواب هؤلاء إن كانوا كفارا أن يناظروا أولا على ثبوت دين الإسلام ثم يشركوا مع غيرهم ممن أنكر ذلك من المسلمين ومتى سلم
=

=

المسلم بعض ذلك دون بعض ألزم التناقض ولا سبيل إلى إنكار ما ثبت في القرآن من الانخراق والالتئام في القيامة فيستلزم جواز وقوع ذلك معجزة لنبي الله ﷺ وقد أجاب القدماء عن ذلك فقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر ولا إنكار للعقل فيه لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء كما يكوره يوم البعث ويفنيه وأما قول بعضهم لو وقع لجاء متواترا واشترك أهل الأرض في معرفته ولما اختص بها أهل مكة فجوابه أن ذلك وقع ليلا وأكثر الناس نيام والأبواب مغلقة وقل من يراصد السماء إلا النادر وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل ولا يشاهدها إلا الآحاد فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها ويحتمل أن يكون القمر ليلتئذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم وقال الخطابي انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجا من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر وقد أنكر ذلك بعضهم فقال لو وقع ذلك لم يجز أن يخفى أمره على عوام الناس لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة فالناس فيه شركاء والدواعي متوفرة على رؤية كل غريب ونقل ما لم يعهد فلو كان لذلك أصل لخلد في كتب أهل التسيير والتنجيم إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره والجواب عن ذلك أن هذه القصة خرجت عن بقية الأمور التي ذكروها لأنه شيء طلبه خاص من الناس فوقع ليلا لأن القمر لا سلطان له بالنهار ومن شأن الليل أن يكون أكثر الناس فيه نياما ومستكنين بالأبنية والبارز بالصحراء منهم إذا كان يقظان يحتمل أنه كان في ذلك الوقت مشغولا بما يلهيه من سمر وغيره ومن

=

=

المستبعد أن يقصدوا إلى مراصد مركز القمر ناظرين إليه لا يغفلون عنه فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس وإنما رآه من تصدى لرؤيته ممن اقترح وقوعه ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك البصر ثم أبدى حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه إلا القرآن بما حاصله إن معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب به من قومه للاشتراك في إدراكها بالحس والنبي ﷺ بعث رحمة فكانت معجزته التي تحدى بها عقلية فاختص بها القوم الذين بعث منهم لما أوتوه من فضل العقول وزيادة الأفهام ولو كان إدراكها عاما لعوجل من كذب به كما عوجل من قبلهم وذكر أبو نعيم في الدلائل نحو ما ذكره الخطابي وزاد ولا سيما إذا وقعت الآية في بلدة كان عامة أهلها يومئذ الكفار الذين يعتقدون أنها سحر ويجتهدون في إطفاء نور الله قلت وهو جيد بالنسبة إلى من سأل عن الحكمة في قلة من نقل ذلك من الصحابة وأما من سأل عن السبب في كون أهل التنجيم لم يذكروه فجوابه أنه لم ينقل عن أحد منهم أنه نفاه وهذا كاف فإن الحجة فيمن أثبت لا فيمن يوجد عنه صريح النفي حتى إن من وجد عنه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الإثبات وقال بن عبد البر قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ويؤيد ذلك بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر ثم أجاب بنحو جواب الخطابي وقال وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين وأيضا فإن زمن الانشقاق لم يطل ولم تتوفر الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك وذلك لأن المسافرين في الليل غالبا يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك وقال القرطبي الموانع من مشاهدة ذلك إذا لم يحصل القصد إليه غير

=

=

منحصرة ويحتمل أن يكون الله صرف جميع أهل الأرض غير أهل مكة وما حولها عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة ليختص بمشاهدته أهل مكة كما اختصوا بمشاهدة أكثر الآيات ونقلوها إلى غيرهم اه وفي كلامه نظر لأن أحدا لم ينقل أن أحدا من أهل الآفاق غير أهل مكة ذكروا أنهم رصدوا القمر في تلك الليلة المعينة فلم يشاهدوا انشقاقه فلو نقل ذلك لكان الجواب الذي أبداه القرطبي جيدا ولكن لم ينقل عن أحد من أهل الأرض شيء من ذلك فالاقتصار حينئذ على الجواب الذي ذكره الخطابي ومن تبعه أوضح والله أعلم ا. هـ

وقال رحمت الله الهندي في إظهار الحق (٤/ ١٠٢٨): وأقوى شبهات المنكرين أن الأجرام العلوية لا يتأتى فيها الخرق والالتئام وأن هذا الانشقاق لو وقع لم يخف على أهل الأرض كلهم ونقله مؤرخو العالم.

(والجواب) أن هذه الشبهة ضعيفة جدًا نقلًا وعقلًا. أما نقلًا فلسبعة أوجه:

الوجه الأول: أن حادثة طوفان نوح عليه السلام كانت ممتدة إلى سنة، وفنى فيه كل ذي حياة من الطيور والبهائم والحشرات والإنسان غير أهل السفينة، وما نجا من الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به في الباب السابع والثامن من سفر التكوين.

وفي الآية العشرين من الباب الثالث من الرسالة الأولى لبطرس هكذا: (في أيام نوح إذ كان الفلك يبني الذي فيه خلص قليلون أي ثمانية أنفس بالماء).

والآية الخامسة من الباب الثاني من رسالته الثانية هكذا: (ولم يشفق على العالم القديم بل إنما حفظ نوحًا ثامنًا كارزا للبر إذ جلب طوفانًا على عالم الفجار). وما مضت على هذه الحادثة مدة إلى هذا اليوم على زعم أهل الكتاب إلا مقدار أربعة آلاف ومائتين واثنتي عشرة سنة شمسية ولا يوجد هذا الحال في تواريخ مشركي الهند وكتبهم. وهم ينكرون هذا الأمر إنكارًا بليغًا ويستهزئ به علماؤهم كافة

=

=

ويقولون: لو قطع النظر عن الزمان السالف ونظر إلى زمان كرشن الأوتار، الذي كان قبل هذا اليوم بمقدار أربعة آلاف وتسعمائة وستين سنة على شهادة كتبهم، لا مجال لصحة هذه الحادثة العامة لأن الأمصار العظيمة الكثيرة من ذلك العهد إلى هذا الحين مغمورة وثبت بشهادة تواريخهم أنه يوجد من ذلك العهد إلى هذا الحين في إقليم الهند مليونات كثيرة في كل زمان من الأزمنة، ويدعون أن حال زمان كرشن لوجود كثرة التواريخ كحال أمس.

وقال ابن خلدون في المجلد الثاني من تاريخه: (واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط) انتهى كلامه بلفظه. وقال العلامة تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزي في المجلد الأول من كتابه المسمى بكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: (الفرس وسائر المجوس والكلدانيون أهل بابل والهند وأهل الصين وأصناف الأمم المشرقية ينكرون الطوفان، وأقر به بعض الفرس لكنهم قالوا لم يكن الطوفان بسوى الشام والمغرب ولم يعم العمران كله ولا غرق إلا بعض الناس ولم يجاوز عقبة حلوان ولا بلغ إلى ممالك المشرق) انتهى كلامه بلفظه.

وأبناء صنف القسيسين ينكرون هذا الطوفان ويستهزئون به. وأنقل كلام جان كلارك الملحد عن رسالته الثالثة المندرجة في كتابه المطبوع سنة ١٨٣٩ في ليدس فقال في الصفحة ٥٤: (هذا) يعني الطوفان، غير صحيح على شهادة علم الفلسفة وأنا أتعجب! أمات الحيتان في ماء هذا الطوفان؟.

ولما كان بحكم الآية الخامسة من الباب السادس من سفر التكوين أفكار قلوب الإنسان ذميمة فلماذا أبقى الله ثمانية أشخاص. لِمَ لَمْ يخلق الإنسان مرة أخرى بعد إهلاك الكل؟ ولماذا أبقى بضاعته القديمة التي بقيت الأفكار الذميمة باقية بسببها؟ لأن الشجرة الرديئة لا تثمر ثمرة جيدة كما قال متى في الآية السادسة عشر

=

=

من الباب السابع، هل يجتنبون من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا؟. ونوح كان شارب الخمر وبهيمة وظالمًا (والعياذ بالله). كما يفهم من الآية ٢١ و ٢٥ من الباب التاسع من سفر التكوين فكيف يرجى منه أن يكون نسله صالحًا.

وانظروا أنه لم يكن صالحًا كما يظهر من الآية الثانية من الباب الثاني من رسالة بولس إلى أهل أفسيس والآية الثالثة من الباب الثالث من رسالته إلى تيطس والآية الثالثة من الباب الرابع من الرسالة الأولى لبطرس والآية [ص ١٩٠] الخامسة من الزبور الحادي والخمسين) انتهى كلامه. ثم استهزأ في هذه الصفحة ٩٣ استهزاءً بليغًا جاوز الحد في إساءة الأدب، فلا أرضى بنقل كلامه القبيح.

(الوجه الثاني) في الباب العاشر من كتاب يوشع، على وفق الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ هكذا: ١٢ حينئذ تكلم يسوع أمام الرب في اليوم الذي دفع الأموري في يدي بني إسرائيل، وقال أمامهم أيتها الشمس مقابل جبعون لا تتحركي والقمر مقابل قاع ايلون ١٣ (فوقف الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائهم، أليس هذا مكتوبًا في سفر الأبرار فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تكن تعجل إلى الغروب يومًا تامًا).

وفي الباب الرابع من الحصة الثالثة من كتاب تحقيق الدين الحق، المطبوع سنة ١٨٤٦ في الصفحة ٣٦٢ هكذا: (أما غربت الشمس بدعاء يوشع إلى أربع وعشرين ساعة) انتهى كلامه.

وهذه الحادثة عظيمة وكانت على زعم المسيحيين قبل ميلاد المسيح بألف وأربعمائة وخمسين سنة فلو وقعت لظهرت على الكل ولا يمنع السحاب الغليظ علمه أيضًا، وهو ظاهر ولا اختلاف في الآفاق لأنا لو فرضنا أن بعض الأمكنة كان فيها الليل في هذا الوقت لأجل الاختلاف فلا بد أن تظهر لامتداد ليلهم بقدر أربع وعشرين ساعة. وهذه الحادثة العظيمة ليست مكتوبة في كتب تواريخ أهل الهند

=

=

ولا أهل الصين ولا الفرس. وأنا سمعت من علماء مشركي الهند تكذيبها، وهم يجزمون بأنها غلط يقينًا، وأبناء صنف القسيسين يكذبونها ويستهزئون بها وأوردوا عليها اعتراضات:

الاعتراض الأول: أن قول يوشع أيتها الشمس لا تتحركي، وقوله فوقفت الشمس، يدلان على أن الشمس متحركة والأرض ساكنة، وإلا كان عليه أن يقول أيتها الأرض لا تتحركي فوقفت الأرض، وهذا الأمر باطل بحكم علم الهيئة الجديد الذي يعتمد عليه حكماء أوروبا كلهم الآن ويعتقدون ببطلان القديم، لعل يوشع ما كان يعلم هذه الحال، أو هذه القصة كاذبة.

والاعتراض الثاني: أن قوله فوقفت الشمس في كبد السماء يدل على أن هذا الوقت كان نصف النهار وهذا مخدوش أيضًا بوجوه: أما أولًا: فلأن بني إسرائيل كانوا قتلوا من المخالفين ألوفًا وهزموهم ولما هربوا أمطر الرب عليهم حجارة كبارًا من السماء، وكان الذين ماتوا بالحجارة أكثرمن الذين قتلهم بنو إسرائيل، وهذه الأمور حصلت قبل نصف النهار على ما هو مصرح به في الباب فلا وجه لاضطراب يوشع عليه السلام في هذا الوقت لأن المظفرين من بني إسرائيل كانوا كثيرين جدًا والباقون من المخالفين قليلين جدًا وكان الباقي من النهار مقدار النصف، فقتلهم قبل الغروب كان في غاية السهولة. وأما ثانيًا: فلأن الوقت لما كان نصف النهار فكيف رأوا القمر في هذا الوقت على أن توقيفه لغو على قواعد الفلسفة. وأما ثالثًا: فلأن الوقت لما كان نصف النهار وكان بنو إسرائيل مشتغلين بالمحاربة والاضطراب، وما كان لهم شك في المقدار الباقي من النهار، وما كانت الساعات عندهم في ذلك الزمان. فكيف علموا أن الشمس قامت على دائرة نصف النهار بمقدار اثنتي عشرة ساعة وما مالت إلى هذه المدة إلى جانب المغرب.

والاعتراض الثالث: قال جان كلارك: (إن الله كان وعد أن جميع أيام الأرض زرع

=

=

وحصاد، برد وحر، صيف وشتاء، ليل ونهار، لا تهدأ كما هو مصرح به في الآية الثانية والعشرين من الباب الثامن من سفر التكوين فإذا لم تغرب الشمس إلى المدة المذكورة هدأ الليل في ذلك الوقت).

(الوجه الثالث) في الآية الثامنة من الباب الثامن والثلاثين في بيان رجوع الشمس بمعجزة أشعيا هكذا: (فرجعت الشمس عشر درجات في المراقي التي كانت قد انحدرت).

وهذه الحادثة عظيمة، ولما كانت في النهار فلا بد أن تظهر لأكثر أهل العالم، وكانت قبل ميلاد المسيح بسبعمائة وثلاث عشرة سنة شمسية، وهذه الحادثة ليست مكتوبة في تواريخ أهل الهند والصين والفرس. وأيضًا يفهم منها حركة الشمس وسكون الأرض، وهذا أيضًا باطل على حكم علم الهيئة الجديد.

على أنا لو قطعنا النظر عن هذا، فنقول أن ههنا ثلاثة احتمالات أما أن رجع النهار فقط بمقدار عشر درجات، أو الشمس رجعت في السماء بهذا المقدار كما هو الظاهر، أو رجعت حركة الأرض من المشرق إلى المغرب بهذا المقدار. وهذه الاحتمالات الثلاثة باطلة بحكم الفلسفة. وهذه الحوادث الثلاثة مسلمة عند اليهود والنصارى والحوادث الباقية التي أذكرها تختص بالنصارى.

(الوجه الرابع) في الباب السابع والعشرين من إنجيل متى: ٥١ (وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل والأرض تزلزلت، والصخور تشققت ٥٢ والقبور تفتحت وقام كثير من أجسام القديسين الراقدين ٥٣ وخرجوا من القبور بعد قيامه ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين).

وهذه الحادثة كاذبة يقينًا كما عرفت في الفصل الثالث من الباب الأول، ولا توجد في تواريخ المخالفين القديمة من الرومانيين واليهود، ولم يذكر مرقس ولوقا تشقق الصخور، وتفتح القبور، وخروج كثير من أجساد القديسين ودخولهم في

=

المدينة المقدسة، مع أن ذكرها كان أولى من ذكر صراخ عيسى عليه السلام عند الموت الذي اتفقا على ذكره. وتشقق الصخور من الأمور التي يبقى أثرها بعد الوقوع، والعجب أن متى لم يذكر أمر هؤلاء الموتى بعد انبعاثهم لأي الناس ظهروا، وكان اللائق ظهورهم على اليهود وبيلاطس ليؤمنوا بعيسى عليه السلام كما كان اللائق على عيسى عليه السلام أن يظهر على هؤلاء بعد قيامه من الأموات ليزول الاشتباه ولا يبقى المجال لليهود أن تلاميذه أتوا ليلًا وسرقوا جثته. وكذا لم يذكر أن هؤلاء الموتى بعد الانبعاث رجعوا إلى أجسادهم أو بقوا في الحياة. وقال بعض الظرفاء: لعل متى فقط رأى هذه الأمور في المنام. على أنه يفهم من عبارة لوقا أن انشقاق حجاب الهيكل كان قبل وفاة عيسى عليه السلام خلافًا لمتى ومرقس.

(الوجه الخامس) كتب متى ومرقس ولوقا في بيان صلب المسيح، أن الظلمة كانت على الأرض كلها من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة، وهذه الحادثة لما كانت في النهار على الأرض كلها وممتدة إلى أربع ساعات، فلا بد أن لا تخفى على أكثر أهل العالم، ولا يوجد ذكرها في تواريخ أهل الهند والصين والفرس.

(الوجه السادس) أن متى كتب في الباب الثاني قصة قتل الأطفال، ولم يكتبها غيره من الإنجيليين والمؤرخين.

(الوجه السابع) في الباب الثالث من إنجيل متى ولوقا، وفي الباب الأول من إنجيل مرقس هكذا: (فساعة طلع من الماء رأى السماوات قد انشقت والروح مثل حمامة نازلًا عليه، وكان صوت من السماوات (أنت ابني الحبيب الذي به سررت) انتهى بعبارة مرقس.

فانشقاق السماوات لما كان في النهار، فلا بد أن لا يخفى على أكثر أهل العالم، وكذا رؤية الحمامة وسماع الصوت لا يختص بواحد دون واحد من الحاضرين، ولم يكتب أحد هذه الأمور غير الإنجيليين.

=

وقال "جان كلارك" مستهزئًا بهذه الحادثة: (إن متى أبقانا محرومين من الاطلاع العظيم، وهو أنه لم يصرح أن السماوات لما انفتحت هل انفتحت أبوابها الكبيرة؟ أم المتوسطة؟ أم الصغيرة؟ وهل كانت هذه الأبواب في هذا الجانب من الشمس أو في ذلك الجانب؟ ولأجل هذا السهو الذي صدر عن متى قسوسنا يضربون الرؤوس متحيرين في تعيين الجانب، ثم قال: وما أخبرنا أيضًا أن هذه الحمامة هل أخذها أحد وحبسها في القفص، أم رأوها راجعة إلى جانب السماء. ولو رأوها راجعة ففي هذه الصورة لا بد أن تبقى أبواب السماوات مفتوحة إلى هذه المدة، فلا بد أنهم رأوا باطن السماء بوجه حسن لأنه لا يعلم أن بوابًا كان عليها قبل وصول بطرس هناك، لعل هذه الحمامة كانت جنية) انتهى كلامه.

(وأما بطلانها عقلًا) فلوجوه ثمانية.

(الأول) أن انشقاق القمر كان في الليل وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشي والتردد في الطرق سيما في موسم البرد، فإن الناس يكونون مستريحين في دواخل البيوت وزواياها مغلقين أبوابها، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئًا إلا من انتظره واعتنى به، ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيرًا، وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به في السحر.

(والثاني) أن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير، فما كان للناظر أن يذهب إلى الغير الذي هو بعيد عنه وينبهه، أو يوقظ النائم ويريه.

(والثالث) أنها لم تكن متوقع الحصول لأهل العلم لينظروها في وقتها ويروها كما أنهم يرون هلال رمضان والعيدين والكسوف والخسوف في أوقاتها غالبًا لأجل كونها متوقع الحصول، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيضًا فضلًا عن الليل. فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت إلى السماء كما جاء في الأحاديث الصحيحة

=

=

أن الكفار لما رأوها قالوا: سحركم ابن أبي كبشة فقال أبو جهل: هذا سحر فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا رأوا ذلك أم لا؟ فأخبر أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقًا، وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالبًا ويقيمون بالنهار فقالوا: هذا سحر مستمر.

وفي المقالة الحادية عشر من تاريخ "فرشته" أن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضًا، وأسلم والي تلك الديار التي كانت من مجوس الهند بعد ما تحقق له هذا الأمر، وقد نقل الحافظ المري عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناءً قديمًا مكتوبًا عليه: "بني ليلة انشق القمر".

(والرابع) أنه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات بين الرائي والقمر، سحاب غليظ أو جبل، ويوجد التفاوت الفاحش في بعض الأوقات في الديار التي ينزل فيها المطر كثيرًا، بأنه يكون في بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة، وكذا لا يرى في الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور. وفي بعض أمكنة أخرى لا أثر للسحاب ولا للمطر وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة، وأهل البلاد الشمالية كالروم والفرنج في موسم نزول الثلج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام، فضلًا عن القمر.

(والخامس) أن القمر لاختلاف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين، فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض البلاد دون بعض، ولذلك نجد الخسوف في بعض البلاد دون بعض، ونجده في بعض البلاد باعتبار بعض أجزاء القمر، وفي بعضها مستوفيًا أطرافه كلها، وفي بعضها لا يعرفها إلا الحادقون في علم النجوم، وكثيرًا ما يحدث الثقات من العلماء بالهيئة الفلكية بعجائب يشاهدونها من أنوار ظاهرة ونجوم

=

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢).

{وَإِنْ يَرَوْا} أَيْ كُفَّار قُرَيْش {آيَة} مُعْجِزَة لَهُ ﷺ {يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا} هَذَا {سِحْر مُسْتَمِرّ} قَوِيّ مِنْ الْمِرَّة الْقُوَّة أو دائم.

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣).

{وَكَذَّبُوا} النَّبِيّ ﷺ {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} فِي الْبَاطِل {وَكُلّ أَمْر} مِنْ الْخَيْر

=

طالعة عظام تظهر في بعض الأوقات أو الساعات من الليل، ولا علم لأحد بها من غيرهم.

(والسادس) أنه قلما يقع أن يبلغ عدد ناظري أمثال هذه الحوادث النادرة الوقوع إلى حد يفيد اليقين، وأخبار بعض العوام لا يكون معتبراً عند المؤرخين في الوقائع العظيمة، نعم يعتبر أخبارهم أيضًا في الحوادث التي يبقى أثرها بعد وقوعها، كالريح الشديد، ونزول الثلج الكثير، والبرد. فيجوز أن مؤرخي بعض الديار لم يعتبروا أخبار بعض العوام في هذه الحادثة، وحملوه على تخطئة أبصار المخبرين العوام، وظنوا أنها تكون نحوًا من الخسوف.

(والسابع) أن المؤرخين كثيرًا ما يكتبون الحوادث الأرضية ولا يتعرضون للحوادث السماوية إلا قليلًا سيما مؤرخي السلف، وكان في زمان النبي ﷺ في ديار إنكلترة وفرانس شيوع الجهل، واشتهارها بالصنائع والعلوم إنما هو بعد زمانه ﷺ بمدة طويلة.

(والثامن) أن المنكر إذا علم أن الأمر الفلاني معجزة أو كرامة للشخص الذي ينكره تصدى لإخفائها، ولا يرضى بذكرها وكتابتها غالبًا. كما لا يخفى على من طالع الباب الحادي عشر من إنجيل يوحنا، والباب الرابع والخامس من كتاب الأعمال، فظهر أن لا اعتراض عقلًا ونقلًا على معجزة شق القمر.

وَالشَّرّ {مُسْتَقِرّ} بِأَهْلِهِ فِي الْجَنَّة أَوْ النَّار.

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤).

{وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاء} أَخْبَار إهْلَاك الْأُمَم الْمُكَذِّبَة رُسُلهمْ {مَا فِيهِ مُزْدَجَر} لَهُمْ اسْم مَصْدَر أَوْ اسْم مَكَان وَالدَّال بَدَل مِنْ تَاء الِافْتِعَال وَازْدَجَرْته وَزَجَرْته نَهَيْته بِغِلْظَةٍ وَمَا مَوْصُولَة أَوْ مَوْصُوفَة.

حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥).

{حِكْمَة} خَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أَوْ بَدَل مِنْ مَا أَوْ مِنْ مُزْدَجَر {بَالِغَة} تَامَّة {فَمَا تغن} تنفع فيهم {النُّذُر} جَمْع نَذِير بِمَعْنَى مُنْذِر أَيْ الْأُمُور المنذرة لهم وما لِلنَّفْيِ أَوْ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيّ وَهِيَ عَلَى الثَّانِي مفعول مقدم[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا}، أي:"وإن ير المشركون دليلا وبرهانًا على صدق الرسول محمد ﷺ، يُعرضوا عن الإيمان به وتصديقه مكذبين منكرين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره. وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوّة محمد ﷺ، ودلالة تدلهم على صدقة فيما جاءهم به عن ربهم، يعرضوا عنها، فيولوا مكذّبين بها مُنكرين أن يكون حقا يقينا".

قال ابن كثير:"{وَإِنْ يَرَوْا} دليلا وحجة وبرهانا، لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم".

قال مقاتل:"يعني: انشقاق القمر".

قوله تعالى: {وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} [القمر: ٢]، أي:"ويقولوا بعد ظهور الدليل: هذا سحر باطل ذاهب مضمحل لا دوام له".

قال الطبري:"ويقولوا تكذيبا منهم بها، وإنكارا لها أن تكون حقا: هذا سحر سَحَرَنا به محمد حين خَيَّلَ إلينا أنا نرى القمر منفلقا باثنين بسحره، وهو سحر =

=

مستمرّ ذاهب، من قولهم: قد مرّ هذا السحر إذا ذهب".

قال ابن كثير:"أي: ويقولون: هذا الذي شاهدناه من الحجج، سحرٌ سحرنا به، {مُسْتَمِرٌّ}، أي: باطل مضمحل، لا دوام له".

قال سفيان:"حين انشق القمر بفلقتين: فلقة من وراء الجبل، وذهبت فلقة أخرى، فقال المشركون حين رأوا ذلك: سحر مستمرّ".

عن الضحاك: " {وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}، كما يقول أهل الشرك إذا كُسف القمر يقولون: هذا عمل السحرة".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}، أقوال:

أحدها: أنَّ معناه: سحر مارٌّ ذاهب، يذهب ويتلاشى ولا يبقى، مَنَّوْا أنفسَهم بذلك، قاله أنس ومجاهد وقتادة وأبو عبيدة والزجاج.

قال قتادة: إذا رأى أهل الضلالة آية من آيات الله قالوا: إنما هذا عمل السحر، يوشك هذا أن يستمرّ ويذهب".

قال الفراء:"أي: سيبطل ويذهب".

قال الزمخشري: أي: " ذاهب يزول ولا يبقى، تمنية لأنفسهم وتعليل".

قال مقاتل:"يعني: سحر ذاهب، فاستمر، ثم التأم القمر بعد ذلك".

الثاني: أي: شديد قويّ، موثق محكم من قولهم: أمر الحبل، أي: أحكم فتله، قاله الأخفش وأبو عبيدة وابن قتيبة. ومنه قول لقيط:

حتى اسْتَمَرَّتْ على شَزْرٍ مَريرتُه... صِدْقُ العزيمةِ لا رتًّا ولا ضَرَعا

قال ابن قتيبة:"وهو من "الْمِرَّة" مأخوذ. والمِرَّةُ: الفتْل؛ يقال: استمَرَّت مَرِيرَتُه".

الثالث: أنه يشبه بعضه بعضًا. حكاه الفراء.

قال القرطبي:"أي: قد استمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة، بل الجميع تخييلات".

=

=

الرابع: أي: ماض، لم يزل الرسل- عليهم السلام- كانوا يأتون بمثله من السحر. حكاه الماتريدي.

الخامس: أن المستمر: الدائم -بلغة القريش-، حكاه القاسم بن سلام والزجاج والماوردي وبه قال الزمخشري قال امرؤ القيس:

لا إنما الدنيا ليالٍ وأَعْصُرٌ... وليسَ على شيءٍ قويمٍ بمُسْتَمِرّ

أي: بدائم.

قال الزمخشري:"مستمر: دائم مطرد، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله، قيل فيه: قد استمرّ. لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات: قالوا: هذا سحر مستمرّ".

السادس: أي: قد استمر من الأرض إلى السماء، قاله مجاهد.

السابع: أي: سحر نافذ. قاله الربيع.

الثامن: معناه: شديدُ المرارة. حكاه ابن قتيبة وبه قال الزمخشري.

قال ابن قتيبة:"ويقال: هو من «المرارة»، يقال: أَمَرَّ الشيءُ واستَمرَّ. إذا صار مُرًّا".

قال الزمشخري: "أي: مُسْتَبْشَعٌ عندنا، مُرٌّ على لَهَواتنا، ولا نَقْدِرُ أَنْ نَسِيْغَه كما لا نَسيغُ المُرَّ المَقِرَ".

قوله تعالى: {وَكَذَّبُوا} [القمر: ٣]، أي:"وكذَّبوا النبي ﷺ".

قال الطبري:"يقول:"وكذّب هؤلاء المشركون من قريش بآيات الله بعد ما أتتهم حقيقتها، وعاينوا الدلالة على صحتها برؤيتهم القمر منفلقا فلقتين".

قال مقاتل:"يعنى: بالقمر أنه ليس من الله- تعالى-".

قوله تعالى: {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [القمر: ٣]، أي:"واتبعوا ضلالتهم وما دعتهم إليه أهواؤهم من التكذيب".

قال الطبري:"يقول: وآثروا اتباع ما دعتهم إليه أهواء أنفسهم من تكذيب ذلك

=

=

على التصديق بما قد أيقنوا صحته من نبوّة محمد ﷺ، وحقيقة ما جاءهم به من ربهم".

قال النحاس:"أي: كذّبوا بحقيقة ما رأوه وتيقّنوه واثروا اتباع أهوائهم في عبادة الأوثان وترك ما أمرهم الله به أَمْرٍ".

قال الماتريدي:"يخبر أنهم إنما كذبوا ما ذكر باتباع أهوائهم، لا بحجة وبرهان".

قال الشعبي:"إنّما سُمي: الهوى؛ لأنه يهوِي بصاحبه في النار".

قوله تعالى: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} [القمر: ٣]، أي:"وكلُّ أمر من خير أو شر واقع بأهله يوم القيامة عند ظهور الثواب والعقاب".

عن ابن جُرَيْج، " {وكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌّ}، قال: بأهله".

عن مجاهد:"{وكُلُّ أمْرٍ مُسْتَقِرٌّ}، قال: يوم القيامة".

وفي قوله تعالى: {وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ} [القمر: ٣]، وجوه:

أحدها: أن لكل حديثٍ مُنتهىً وحقيقةٌ، قاله مقاتل.

وقال مقاتل:"يعني: العذاب في الدنيا القتل ببدر، ومنه في الآخرة عذاب النار".

قال الزمخشري:"أي: كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته".

الثاني: أن كُلَّ أمْر مستقِرٌّ بأهله، فالخير يستقِرُّ بأهل الخير، والشر يستقِرُّ بأهل الشر، قاله قتادة.

قال قتادة:"مستقرٌّ بأهل الخيرِ الخيرُ، وبأهل الشرِّ الشرُّ".

قال الزجاج:"تأويله أنه يستقر لأهل النار عملهم ولأهل الجنة عملهم".

قال النحاس:"المعنى: وكلّ أمر من خير أو شرّ مستقرّ قراره ومتناه منتهاه".

قال الطبري: يقول: "وكلّ أمر من خير أو شرّ مستقر قراره، ومتناه نهايته، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة، والشرّ مستقرّ بأهله في النار".

=

=

الثالث: أن قرار تكذيبهم مستقِرّ، وقرار تصديق المصدِّقين مستقِرّ، حتى يعرفوا حقيقته بالعقاب والثواب، قاله الفراء.

قوله تعالى {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} [القمر: ٤]

قال الطبري: يقول:"ولقد جاء هؤلاء المشركين من قريش الذين كذّبوا بآيات الله، واتبعوا أهواءهم من الأخبار عن الأمم السالفة، الذين كانوا من تكذيب رسل الله على مثل الذي هم عليه، وأحلّ الله بهم من عقوباته ما قصّ في هذا القرآن ما يردعهم، ويزجرهم عما هم عليه مقيمون، من التكذيب بآيات الله".

قال النحاس:"أي: ولقد جاء هؤلاء المشركين من أخبار الأمم الذين فعلوا كفعلهم فأهلكوا ما فيه منتهى عمّا هم عليه".

قال مقاتل:"يعني: جاء أهل مكة من حديث القرآن {ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ}، يعني: موعظة لهم، وهو النهي عن المعاصي".

قال الزجاج:"يعنى: من أخبار من قد سلف، قبلهم فأهلكوا بتكذيبهم {ما فيه مُزْدَجَر}، أي: ما فيه مُنْتَهَى، تقول: نهيتُه فانتهى وزجرته فازدجر".

قال ابن كثير:"أي: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم في هذا القرآن، ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب".

عن مجاهد، قوله: " {مُزْدَجَرٌ}، قال: مُنتهى".

قال سفيان:"المزدَجَر: المنتهى".

قال ابن قتيبة:"أي: متَّعَظ ومنتهى".

قال قتادة:"أي: هذا القرآن".

عن عمر بن عبد العزيز:"أنه خطب بالمدينة، فتلا هذه الآية: {ولَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ}، قال: أحلّ فيه الحلال، وحرَّم فيه الحرام، وأنبأكم فيه ما

=

=

تأتون، لم يَدعُكم في لَبْسٍ مِن دينكم، كرامة أكرمكم بها، ونعمة أتمّ بها عليكم".

قوله تعالى: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ} [القمر: ٥]، أي:"ذا القرآن الذي جاءهم حكمة عظيمة بالغة غايتها".

قال الزجاج:"المعنى ولقد جاءهم حكمة بالغة".

قال الثعلبي: أي:"تامة ليس فيها نقصان وهي القرآن".

قال الطبري:"يعني: هذا القرآن".

قال الكلبي: "يعني: القرآن".

قال ابن كثير:"أي: في هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله".

عن ابن عباس: {حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ} ـ قال: " نبوة ظاهرة".

قوله تعالى: {فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [القمر: ٥]، أي:"فأي شيء تغني النذر عن قوم أعرضوا وكذَّبوا بها؟".

قال الثعلبي: أي:"إذا كذّبوهم وخالفوهم".

قال ابن كثير:"يعني: أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: {قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]".

وفي «ما» التي في قوله: {فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [القمر: ٥]، وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى: النفي، والمعنى: فليست تغني عنهم النذر ولا ينتفعون بها، لإعراضهم عنها وتكذيبهم بها

الثاني: أن تكون بمعنى: الاستفهام، ومعناها التوبيخ، فيكون المعنى: فأي شيء تُغْنِي النُّذُر. وهذا قول ابن زيد".

وعن السدي: " {وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ} [يونس: ١٠١]، يقول: عند

=

=

قوم لا يؤمنون نسخت قوله {حكمةٌ بالغةٌ فما تُغْنِ النُّذُرُ} [القمر: ٥]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وإن يروا آيةً يعرضوا} {آيةً} نكرة في سياق الشرط، أي آية يرونها يعرضون عنها ولا يقبلونها، ويجمعون بين الإعراض وبين الإنكار باللسان، {يعرضوا} أي: بقلوبهم وأبدانهم، ويقولوا بألسنتهم: {سحر مستمر}ـ أي: هذا سحر، والسحر لا يؤثر في قلب الأعيان، ولكن يؤثر في رؤية الأعيان، والدليل أن موسى عليه الصلاة والسلام لما ألقى السحرة سحرهم، كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى حية، وانقلب الوادي كله حيات تسعى، حتى إن موسى أوجس في نفسه خيفة من هول ما رأى، لكن هذه الحبال والعصي لم تنقلب إلى حيات، لكن حسب نظر الرائي أنها حيات، فهم يقولون: سحرنا محمد حتى كانت أعيننا ترى القمر وهو واحد تراه فرقتين {ويقولوا سحر مستمر} مستمر، قيل: إن المعنى زائل ذاهب من مر بالشيء إذا تجاوزه، يقولون: هذا سحر ولن يستقر ولا قرار له، وقيل: مستمر يعني أن كل الآيات التي يأتي بها سحر، أي مستمر من مرار الشيء ودوام الشيء، وأيًّا كان فإنهم أنكروا وكذبوا، ولهذا قال تعالى: {وكذبوا}ـ أي: كذبوا النبي ﷺ، وكذبوا بآياته، {واتبعوا أهواءهم} أي: ما يريدون من الباطل {وكل أمر مستقر}ـ أي: كل أمر لابد له من قرار، فهؤلاء المكذبون قرارهم الذل والخسران في الدنيا، والنار في الآخرة، والنبي ﷺ ومن اتبعه أمرهم مستقر بالنصر والتأييد في الدنيا، والجنة في الآخرة، جعلنا الله منهم.

{ولقد جاءهم من الأَنباء ما فيه مزدجر} هذه الجملة فيها اللام وقد، وهما من أدوات التوكيد، وفيها قسم مقدر دلت عليه اللام في قوله: {ولقد جاءهم}ـ وعليه فتكون هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، القسم واللام وقد، والله سبحانه وتعالى صادق بغير توكيد لخبره، لكن هذا القرآن بلسان عربي مبين، واللسان العربي من بلاغته تأكيد الأشياء الهامة حتى تثبت وترسخ في الذهن، {ولقد

=

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦).

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} هُوَ فَائِدَة مَا قَبْله وَتَمَّ به الكلام {يوم يدع الداع} هُوَ إِسْرَافِيل وَنَاصِب يَوْم يَخْرُجُونَ بَعْد {إِلَى شَيْء نُكُر} بِضَمِّ الْكَاف وَسُكُونهَا أَيْ مُنْكَر تنكره النفوس وهو الحساب.

خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧).

{خاشعا} أَيْ ذَلِيلًا وَفِي قِرَاءَة خُشَّعًا بِضَمِّ الْخَاء وَفَتْح الشِّين مُشَدَّدَة {أَبْصَارهمْ} حَال مِنْ الْفَاعِل {يَخْرُجُونَ} أَيْ النَّاس {مِنَ الْأَجْدَاث} الْقُبُور {كَأَنَّهُمْ جَرَاد مُنْتَشِر} لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ مِنْ الْخَوْف وَالْحِيرَة وَالْجُمْلَة حَال مِنْ فَاعِل يَخْرُجُونَ وكذا قوله.

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨).

{مُهْطِعِينَ} مُسْرِعِينَ مَادِّينِ أَعْنَاقهمْ {إِلَى الدَّاعِ يَقُول الْكَافِرُونَ} مِنْهُمْ {هَذَا

=

جاءهم} أي: قريشًا جاءهم من الأنباء التي فيها رشدهم وصلاحهم وفلاحهم {ما فيه مزدجر} أي: ازدجار عن الشرك والعصيان، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

{حكمة بالغة} يعني أن الأنباء التي جاءتهم حكمة، وهذا كقوله تعالى: {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} والحكمة هي تنزيل الشيء منزلته اللائقة به، ولا شك أن شريعة الله حكمة كلها ومطابقة لما فيه صلاح العباد في معاشهم ومعادهم، وقوله: {بالغة} أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها {فما تغني النذر} (ما) يحتمل أن تكون نافية، يعني أن النذر لا تغنيهم شيئًا، ويحتمل أن تكون استفهامًا على وجه التوبيخ، يعني فأي شيء تغنيهم، وكلاهما صحيح، فالنذر لم تغنهم شيئًا، وإذا لم تغنهم هذه النذر المشتملة على حكمة بالغة فأي شيء يغنيهم؟ الجواب: لا شيء، لأنهم معاندون مستكبرون.

يَوْم عَسِر} صَعْب عَلَى الْكَافِرِينَ كَمَا فِي الْمُدَّثِّر {يَوْم عَسِير عَلَى الكافرين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ} [القمر: ٦]، أي:"فأعرض يا محمد عن هؤلاء المجرمين وانتظرهم".

قال الطبري: يقول: " فأعرض يا محمد عن هؤلاء المشركين من قومك، الذين إن يروا آية يعرضوا ويقولوا: سِحْر مستمر".

قال مقاتل:"يعني: فأعرض عن كفار مكة".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضون ويقولون: هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ} [القمر: ٦]، أي:"يوم يدعو إسرافيل إلى شيءٍ منكر فظيع، تنكره النفوس لشدته وهوله، وهو يوم القيامة".

قال الطبري: يقول: " فإنهم يوم يدعو داعي الله إلى موقف القيامة، وذلك هو الشيء النُّكُر".

قال مقاتل:"وهو إسرافيل ينفخ الثانية قائما على صخرة بيت المقدس".

قال ابن كثير:"{إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ}، أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال".

قال ابن عباس في رواية عطاء: "يريد يوم القيامة {إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ}: شدة العذاب وفظاعته".

وقال الكلبي: "يعني: حين يدعى أهل النار إلى النار".

روي عن مجاهد وقتادة، أنهما قرآ: "إلى شيء نُكِرَ"، بكسر الكاف وفتح الراء، على الفعل المجهول أي: أنكر.

وقرأ الحسن: " {نُكْرٍ}، بإسكان الكاف".

قوله تعالى: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ} [القمر: ٧]، أي:"ذليلةً أبصارهم لا يستطيعون =

=

رفعها من شدة الهول".

قال الطبري: يقول: ذليلة أبصارهم خاشعة، لا ضرر بها... وإنما وصف جلّ ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم، والمراد به جميع أجسامهم، لأن أثر ذلة كل ذليل، وعزّة كل عزيز، تتبين في ناظريه دون سائر جسده، فلذلك خصّ الأبصار بوصفها بالخشوع".

عن قتادة، قوله: " {خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ} ، أي: ذليلة أبصارهم".

قال ابن كثير:"أي: ذليلة أبصارهم".

قال السعدي:"أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم".

قال الزمخشري:"خشوع الأبصار: كناية عن الذلة والانخزال، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما".

وقرئ: «خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ»، بالألف.

قوله تعالى: {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} [القمر: ٧]، أي:"يخرجون من القبور كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم للحساب جرادٌ منتشر في الآفاق".

قال الطبري: " يخرجون من قبورهم كأنهم في انتشارهم وسعيهم إلى موقف الحساب جراد منتَشر، و {الأجْدَاثِ} : وهي جمع: جدث، وهي القبور".

قال ابن كثير:"{يَخْرُجُونَ مِنَ} القبور، كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي {جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} في الآفاق".

قال السعدي:"من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض {جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ} أي: مبثوث في الأرض، متكاثر جدا".

قال الزجاج:"«الأجداث»: القبور، واحدها: جدث، و «ينسلون»: يخرجون

=

=

بسرعة".

قال مقاتل:"حين انتشر من معدنه، فشبه الناس بالجراد إذا خرجوا من قبورهم".

قال الزمخشري:"الجراد مثل في الكثرة والتموّج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد، وكالدبا منتشر في كل مكان لكثرته".

عن ابن عباس، قوله: " {من الأجداث}، يقول: من القبور..".

قال عطاء الخراساني:"الأجداث: القبور".

قال الحسن:"شبّههم بالجراد؛ إذا أدركه الليل لزِم الأرض، فإذا أصبح وطلع عليه الشمس انتشر".

قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} [القمر: ٨]، أي:"مسرعين إلى ما دُعُوا إليه".

وفي قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} [القمر: ٨]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: مسرعين إلى الداعي، قاله سعيد بن جبير- والحسن- وقتادة- وأبو عبيدة- والطبري- والزجاج- ومنه قول يزيد بن مفرّغ الحميريّ:

بِدِجْلةَ أَهْلُهَا ولَقَد أراهُمْ... بِدِجْلةَ مُهْطِعِينَ إلى السّمَاعِ

قال الطبري:"يقول: مسرعين بنظرهم قِبَلَ داعيهم إلى ذلك الموقف".

قال ابن كثير:"أي: مسرعين {إِلَى الدَّاعِي}، لا يخالفون ولا يتأخرون".

قال السعدي:"أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته".

قال مقاتل:"يعني: مقبلين سراعا إذا خرجوا من القبور إلى صوت إسرافيل القائم على الصخرة التي ببيت المقدس".

عن الحسن:"{مُهْطِعِينَ إلى الدّاعِ}، قال: مُنطلقين".

عن سعيد بن جبير:"«مُهْطِعِينَ إلى الدّاعِي»، قال: هو النَّسَلان ".

=

=

الثاني: عامدين إلى الداعي، قاله قتادة.

الثالث: معناه: ناظرين، والمهطع: الدائم النظر لا يطرف، قاله ابن عباس والضحاك وأبو الضحى وتميم بن حَذْلم.

قال ابن عباس:"يعني بالإهطاع: النظر من غير أن يطرف".

عن ابن عباس، قوله: " {مُهْطِعِينَ}، يقول: ناظرين".

قال أبو الضحى:"الإهطاع: التحميج الدائم الذي لا يَطْرَف".

قال الضحاك:"شدة النظر الذي لا يطرف". وفي رواية:"شدة النظر في غير طَرْف".

قال مجاهد:"مُديمي النظر".

قال سفيان: أبصارهم شاخصة إلى السماء".

قال الضحاك:"الإهطاع: شدة النظر في غير طَرْف".

قال تميم بن حَذْلم:"الإهطاع: التحميج ".

الرابع: أنه المطرِق الذي لا يرفع رأسه، قاله ابن زيد.

الخامس: معناه: فاتحين آذانهم إلى الصوت، قاله عكرمة.

قال عكرمة:"صائخي آذانهم إلى الصوت".

قوله تعالى: {يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: ٨]، أي:"يقول الكافرون: هذا يوم عسر شديد الهول".

قال الطبري: "يقول الكافرون بالله يوم يدع الداعي إلى شيء نكُر: هذا يوم عسر. وإنما وصفوه بالعسر لشدة أهواله وبَلْباله".

قال ابن كثير:"أي: يوم شديد الهول عَبُوس قَمْطَرِير {فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} [المدثر: ٩، ١٠]".

قال السمعاني:"أي: غير سهل".

قال السعدي:"سهل على المؤمنين".

=

=

قال مقاتل:"فيهون على المؤمنين الحشر، كأدنى صلاتهم، والكفار يكبون على وجوههم، فلا يقومون مقاما، ولا يخرجون مخرجا إلا عسر عليهم في كل موطن شدة ومشقة".

قال ابن الجوزي:"العَسِر: الصَّعب الشَّديد".

قال ابن عباس: "يوم القيامة عسر على الكافرين، وعلى المؤمنين سهل يسير".

قال العثيمين: قوله تعالى: {فتول عنهم}ـ الخطاب للرسول ﷺ تول عن هؤلاء؛ لأنهم معاندون مستكبرون، سوف يأتيهم ما وُعدوا به، وسوف يتحقق لك ما وُعدت به، ويحسن أن يقف القارىء على قوله: {فتول عنهم} ثم يستأنف ويقول: {يوم يدعو الداع إلى شيء نكر}ـ لأن القارىء لو وصل لأوهم أن التولي يكون يوم يدع الداع، ومعلوم أن التولي في الدنيا وليس يوم يدع الداع، وقوله: {يوم يدعو الداع} ظرف، والظرف لابد له من عامل، كالجار والمجرور، لابد له من عامل، وكجميع المفعولات لابد لها من عامل، فما هو العامل؟ العامل قوله: يخرجون {خشعًا أبصرهم يخرجون} فهي متعلقة بـ (يخرجون) أي: سوف يأتيهم العذاب في ذلك الوقت يوم {يخرجون من الأَجداث كأنهم جراد منتشر} وقوله: {يوم يدعو الداع إلى شيء نكر} هو داعي يوم القيامة {إلى شيء نكر} أي: منكر عظيم لشدة أهواله، فإنه لا شيء أنكر على النفوس من ذلك اليوم؛ لأنهم لم يشاهدوا له نظيرًا {خشعًا أبصارهم} يعني أن أبصارهم خاشعة ذليلة، كما قال الله ﷻ: {ينظرون من طرف خفي} هم الآن مستكبرون رافعو رؤوسهم، يرون أن الناس تحتهم، وأنهم فوق

الناس، لكن سيأتي اليوم الذي يكونون بالعكس {خشعًا أبصرهم يخرجون من الأَجداث كأنهم جراد منتشر}ـ الأجداث هي القبور، والجراد المنتشر هو المنبث في الأرض الذي لا يدري أين وجهه ليس له طريق قائمة، لا يعرف كيف ينتهي،

=

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩).

{كذبت قبلهم} قبل قريش {قوم نوح} تأنيث الفعل لِمَعْنَى قَوْم {فَكَذَّبُوا عَبْدنَا} نُوحًا {وَقَالُوا مَجْنُون وَازْدُجِرَ} انْتَهَرُوهُ بِالسَّبِّ وَغَيْره.

فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠).

{فدعا ربه أني} بالفتح أي بأني {مغلوب فانتصر}.

فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١).

{فَفَتَحْنَا} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {أَبْوَاب السَّمَاء بِمَاءٍ مُنْهَمِر} مُنْصَبّ انْصِبَابًا شَدِيدًا.

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢).

{وَفَجَّرْنَا الْأَرْض عُيُونًا} تَنْبُع {فَالْتَقَى الْمَاء} مَاء السَّمَاء وَالْأَرْض {عَلَى

=

ولكنهم منتشرون، وهذا من أدق التشبيهات، لأن الجراد المنتشر تجده يذهب يمينًا ويسارًا لا يدري أين يذهب، فهم سيخرجون من الأجداث على هذا الوجه، بينما هم في الدنيا لهم قائد، ولهم أمير، ولهم موجِّه يعرفون طريقهم، وإن كان طريقًا فاسدًا {مهطعين إلى الداع} يعني أنهم مسرعون خاضعو الأعناق، كالرجل إذا أسرع وركض تجده يقدم رأسه يخضعه، فهم يخرجون من الأجداث مهطعين إلى الداعي، أي مسرعين خافضو رؤوسهم من الفزع والهول والشدة {يقول الكافرون هذا يوم عسر} وتأمل قوله: {يقول الكافرون} ولم يقل: يقول الناس، لأن هذا اليوم العسر لا شك أنه في حد ذاته عسر شديد عظيم ولكنه على الكافرين عسير، وعلى المؤمنين يسير، كما قال الله تبارك وتعالى: {وكان يومًا على الكافرين عسيرًا} وقال تعالى: {على الكافرين غير يسير} وأما على المؤمنين فهو يسير، ولله الحمد جعلنا الله منهم.

أَمْر} حَال {قَدْ قُدِرَ} قُضِيَ بِهِ فِي الْأَزَل وَهُوَ هَلَاكهمْ غَرَقًا.

وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣).

{وَحَمَلْنَاهُ} أَيْ نُوحًا {عَلَى} سَفِينَة {ذَات أَلْوَاح وَدُسُر} وَهُوَ مَا تُشَدّ بِهِ الْأَلْوَاح مِنْ الْمَسَامِير وَغَيْرهَا وَأَحَدهَا دِسَار كَكِتَابٍ.

تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤).

{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} بِمَرْأًى مِنَّا أَيْ مَحْفُوظَة {جَزَاء} مَنْصُوب بِفِعْلٍ مُقَدَّر أَيْ أُغْرِقُوا انْتِصَارًا {لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} وَهُوَ نُوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُرِئَ كَفَرَ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ أَيْ أُغْرِقُوا عِقَابًا لَهُمْ.

وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥).

{وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا} أَبْقَيْنَا هَذِهِ الْفِعْلَة {آيَة} لِمَنْ يَعْتَبِر بِهَا أَيْ شَاعَ خَبَرهَا وَاسْتَمَرَّ {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر} مُعْتَبِر وَمُتَّعِظ بِهَا وَأَصْله مُذْتَكِرٌ أبدلت التاء دالا مهملة وأدغمت فيها.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦).

{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر} أَيْ إِنْذَارِي اسْتِفْهَام تَقْرِير وَكَيْفَ خَبَر كَانَ وَهِيَ لِلسُّؤَالِ عَنْ الْحَال وَالْمَعْنَى حَمْل الْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْإِقْرَار بِوُقُوعِ عَذَابه تَعَالَى بِالْمُكَذِّبِينَ لِنُوحٍ مَوْقِعه.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧).

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ} سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَهَيَّأْنَاهُ لِلتَّذَكُّرِ {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر} مُتَّعِظ بِهِ وَحَافِظ لَهُ وَالِاسْتِفْهَام بِمَعْنَى الْأَمْر أَيْ احْفَظُوهُ وَاتَّعِظُوا بِهِ وَلَيْسَ يُحْفَظ

مِنْ كُتُب الله عَنْ ظَهْر الْقَلْب غَيْره[١].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ} [القمر: ٩]، أي:"كذَّبت قبل قومك -أيها الرسول- قوم نوح".

قال الطبري:"وهذا وعيد من الله تعالى ذكره، وتهديد للمشركين من أهل مكة وسائر من أَرْسَل إليه رسولَه محمدا ﷺ على تكذيبهم إياه، وتقدم منه إليهم إن هم لم ينيبوا من تكذيبهم إياه، أنه محلّ بهم ما أحل بالأمم الذين قصّ قصصهم في هذه السورة من الهلاك والعذاب، ومنجّ نبيه محمدا والمؤمنين به، كما نجَّى من قبله الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلَّها بأممهم، فقال جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: كذّبت يا محمد قبل هؤلاء الذين كذّبوك من قومك، الذين إذا رأوْا آية أعرضوا وقالوا سحر مستمرّ- قوم نوح".

قال ابن كثير:"أي: صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون".

قوله تعالى: {فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ} [القمر: ٩]، أي:"فكذَّبوا عبدنا نوحًا، وقالوا: هو مجنون، وانتهروه متوعدين إياه بأنواع الأذى، إن لم ينته عن دعوته".

قال الطبري: يثول:"فكذّبوا عبدنا نوحا إذ أرسلناه إليهم، كما كذّبتك قريش إذ أتيتهم بالحقّ من عندنا وقالوا: هو مجنون وازدجر".

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {وَازْدُجِرَ} [القمر: ٩]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: كان زجرهم إياه أن قالوا: استُطِير جنونا. قاله مجاهد.

قال مجاهد:"استُطِير جنونا". وفي رواية:"استعر جنونا".

قال الزمخشري: " قالوا هو مجنون، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه".

=

=

الثاني: تهدّدوه بالقتل. قاله الحسن.

الثالث: كان زجرهم إياه وعيدهم له بالشتم والرجم بالقول القبيح. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"اتهموه وزجروه وأوعدوه لئن لم يفعل ليكونن من المرجومين، وقرأ: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}".

قال ابن كثير:"وهذا متوجه حسن"

قوله تعالى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ} [القمر: ١٠]

قال الطبري: يقول:"فدعا نوح ربه: إن قومي قد غلبوني، تمرّدوا وعتوا، ولا طاقة لي بهم، فانتصر منهم بعقاب من عندك على كفرهم بك".

قال ابن كثير:"أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم {فَانْتَصِرْ} أنت لدينك".

قال سيبويه:"أي: قال: {إني مغلوب فَانْتَصِرْ}، أي: لي بعقابك إياهم".

قال ابن أبي زمنين:"أي: فانتقم لي من قومي".

قال النحاس: {أَنِّي مَغْلُوبٌ}، " أي: بأني قد غلبت وقهرت".

قال الماتريدي:"لم يدع عليهم بأول ما كذبوه؛ ولكن إنما دعا عليهم بعد ما أيس من عودهم إلى تصديقه، وهو ما قال: {أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ}".

قال الزمخشري:"أي: غلبني قومي، فلم يسمعوا مني واستحكم اليأس من إجابتهم لي، فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الربا".

قوله تعالى: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ} [القمر: ١١]، أي:"فأجبنا دعاءه، ففتحنا أبواب السماء بماء كثير متدفق".

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: {فَفَتَحْنَا} لما دعانا نوح مستغيثا بنا على قومه: {أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ} وهو المندفق، كما قال امرؤ القيس في صفة غيث:

=

=

رَاحَ تَمْرِيه الصبا ثُمَّ انْتَحَى... فِيهِ شُؤْبُوبُ جنوبٍ مُنْهَمِرْ".

قال الزجاج:"المعنى: فأجبنا دعاءه فنصرناه، وبيَّن النَصْرَ الذي نصر به فقال: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}، ينصبُّ انصبابًا شديدا".

عن سفيان: " {بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}، قال: ينصبّ انصبابا".

قال مقاتل:"يعني: منصب كثير".

قال ابن قتيبة:"أي: كثير سريع الانصباب. ومنه يقال: همر الرجل؛ إذا أكثر من الكلام وأسرع".

وقال أَبُو عَوْسَجَةَ: "انهمرت السماء وهمرت، أي: أمطرت؛ فأكثرت".

عن ابن عباس، قوله: " {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ}، وفتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماءان".

عن أبي الطفيل: "إن ابن الكواء سأل عليا، عن المجرة، فقال: هي شرج السماء، ومنها فتحت أبواب السماء بماء منهمر، ثم قرأ: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ}، الآية".

قال الماتريدي:"ويحتمل أن يكون قوله- تعالى -: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ}، هو حقيقة فتح السماء وإنزال الماء منها، والله- تعالى- قادر أن يرسل الماء مما يشاء، وكيف شاء".

قال الجصاص:"أنزل ذلك الماء قطرة قطرة لا تلتقي واحدة مع صاحبتها في الجو مع تحريك الرياح لها حتى تنزل كل قطرة على حيالها إلى موضعها من الأرض ولولا أن مدبرا حكيما عالما قادرا دبره على هذا النحو وقدره بهذا الضرب من التقدير كيف كان يجوز أن يوجد نزول الماء في السحاب مع كثرته وهو الذي تسيل منه السيول العظام على هذا النظام والترتيب ولو اجتمع القطر في الجو وأتلف لقد كان يكون نزولها مثل السيول المجتمعة منها بعد نزولها إلى الأرض فيؤدي إلى هلاك الحرث والنسل وإبادة جميع ما على الأرض من شجر وحيوان

=

=

ونبات وكان يكون كما وصف الله تعالى من حال الطوفان في نزول الماء من السماء في قوله تعالى: {فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِر}، فيقال: إنه كان صبا كنحر السيول الجارية في الأرض ففي إنشاء الله تعالى السحاب في الجو وخلق الماء فيه وتصريفه من موضع إلى موضع أدل دليل على توحيده وقدرته وأنه ليس بجسم ولا مشبه الأجسام إذ الأجسام لا يمكنها فعل ذلك ولا ترومه ولا تطمع فيه".

قوله تعالى: {وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا} [القمر: ١٢]، أي:"وشققنا الأرض عيونًا متفجرة بالماء".

قال الطبري: يقول:"وأسلنا الأرض عيون الماء".

قال ابن كثير:"أي: نبعت جميعُ أرجاء الأرض، حتى التنانير التي هي محال النيران نبعت عيونا "

قال الزمخشري: " وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر، وهو أبلغ من قولك: «وفجرنا عيون الأرض»، ونظيره في النظم: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: ٤]".

قال سفيان:"فجَّرنا الأرض الماءَ وجاء من السماء".

قال مقاتل:"{وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ} أربعين يوما {عُيُونا}".

عن طلحة، قال: سمعت عطاء، يقول:"بلغني أن نوحا عليه السلام قال لجاريته: إذا فار تنورك ماء فأخبريني قال عطاء: بلغني أنها لما فرغت من آخر خبزها فار التنور فذهبت إلى سيدها فأخبرته فركب هو ومن معه في أعلى السفينة وفتح الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا".

قوله تعالى: {فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} [القمر: ١٢]، أي:"فالتقى ماء السماء وماء الأرض على إهلاكهم الذي قدَّره الله لهم؛ جزاء شركهم".

قال الطبري: يقول:"فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله

=

=

وقضاه".

قال ابن كثير:" {فَالْتَقَى الْمَاءُ}، أي: من السماء ومن الأرض {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}، أي: أمر مقدر".

عن سفيان: " {فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}، قال: ماء السماء وماء الأرض".

قال ابن قتيبة:"أي: التقى ماء الأرض وماء السماء".

قال الزجاج:"يعني: ماء السماء والأرض، ولم يقل: «فالتقى الماءان»، ولو كان ذلك لكان جائزًا، إلا أن الماء اسم يجمع مَاء الأرض وماءَ السماء، ومعنى: {عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}، أي: قدْ قُدِرَ في اللوح المحفوظ، وقيلَ: {قَدْ قُدِرَ}، أي: كان قدر ماء السماء كقدر ماء الأرض".

قال مقاتل:"وذلك أن ماء السماء وماء الأرض قدر الله- تعالى- كليهما، فكانا سواء لم يزد ماء السماء على ماء الأرض، وكان ماء السماء باردا مثل الثلج، وماء الأرض جارا مثل الحميم، فذلك قوله: {عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}، لأن الماء ارتقع فوق كل جبل ثلاثين يوما، ويقال أربعين ذراعا، فكان الماء الذي على الأرض، والذي على رءوس الجبال سواء فابتلعت الأرض ماءها، وبقي ماء السماء أربعين يوما لم تشربه الأرض فهذه البحور التي على الأرض منها".

عن محمد بن كعب: " {فالتَقى الماءُ}، قال: ماء السماء وماء الأرض، {عَلى أمْرٍ قَدْ قُدِرَ}، قال: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء، وتلا: {فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ}".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: " {قَدْ قُدِرَ}، قال: صاعٌ بصاع".

وقرئ: «الماءان»، أي: النوعان من الماء السماوي والأرضي، وقرأ الحسن: «الماوان»، بقلب الهمزة واوا.

قوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} [القمر: ١٣]، أي:"وحملنا نوحًا

=

=

ومَن معه على سفينة ذات ألواح ومسامير شُدَّت بها".

قال الطبري: يقول:"وحملنا نوحا إذ التقى الماء على أمر قد قُدر، على سفينة ذات ألواح ودُسُر، والدَّسار: المسمار الذي تشدّ به السفينة؛ يقال منه: دسرت السفينة إذا شددتها بمسامير أو غيرها".

وفي معنى «الدسر»، أقوال:

أحدها: أنها المسامير التي شدّت بها السفينة، أي شدت، قاله ابن عباس ابن جبير وقتادة والقرظي وابن زيد.

الثاني: الدُّسُر: صَدْر السفينة الذي يضرب الموج، لأنها تدسر الماء بصدرها، أي: تدفعه. قاله ابن عباس -أيضا- والحسن وعكرمة.

قال ابن عباس:"الدُّسُر: كَلْكَل السفينة".

الثالث: أن الدسر: عوارض السفينة. قاله مجاهد.

قال مجاهد:"ألواح: السفينة ودسر عوارضها".

الرابع: أن الدُّسُر: أضلاع السفينة. قاله مجاهد -أيضا-.

الخامس: أن الألواح: جانبا السفينة. والدُّسُر: طرفاها وأصلاها. قاله الضحاك.

قوله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: ١٤]، أي:"تجري بمرأى منا وحفظ".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: تجري السفينة التي حملنا نوحا فيها بمرأى منا ومنظر".

قال ابن كثير:"أي: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا".

وعن سفيان، في قوله: " {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}، يقول: بأمرنا".

قال الضحاك:"بأمرنا". وفي رواية:"بمنظر منا".

وقال الربيع:"بحفظنا".

وعن قتادة في قوله:"{بأعيننا ووحينا}، قال: بعين الله ووحيه".

=

=

وعن عطاء:"{بأعيننا ووحينا}، فيقال بعين الله ورحمته".

قوله تعالى: {جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} [القمر: ١٤]، أي:"وأغرقنا المكذبين؛ جزاء لهم على كفرهم وانتصارًا لنوح عليه السلام".

قال ابن كثير:"أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح، عليه السلام".

وفي قوله تعالى: {جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ} [القمر: ١٤]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه: عوقبوا لله ولكُفرهم به. قاله مجاهد.

عن مجاهد: " {جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ}، قال: كَفَر بالله". وفي رواية:"لمن كان كفر فيه".

الثاني: معناه: لمن كان كفر نعم الله، وكفر بأياديه وآلائه ورسله وكتبه، فإن ذلك جزاء له. قاله ابن زيد.

قال الطبري:"الصواب من القول من ذلك عندي ما قاله مجاهد، وهو أن معناه: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيونا، فغرّقنا قوم نوح، ونجينا نوحا عقابا من الله وثوابا للذي جُحد وكُفر، لأن معنى الكفر: الجحود، والذي جحد ألوهته ووحدانيته قوم نوح، فقال بعضهم لبعض: {لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، ومن ذهب به إلى هذا التأويل كانت من الله، كأنه قيل: عوقبوا لله ولكفرهم به. ولو وجَّه مُوَجِّه إلى أنها مراد بها نوح والمؤمنون به كان مذهبا، فيكون معنى الكلام حينئذ، فعلنا ذلك جزاء لنوح ولمن كان معه في الفلك، كأنه قيل: غرقناهم لنوح ولصنيعهم بنوح ما صنعوا من كفرهم به".

قال القرطبي:"وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق كان الماء إلى حجزته. وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عوج تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونجاه من الغرق".

=

قوله تعالى: {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً} [القمر: ١٥]، أي:"ولقد أبقينا قصة نوح مع قومه عبرة ودليلا على قدرتنا لمن بعد نوح؛ ليعتبروا ويتعظوا بما حلَّ بهذه الأمة التي كفرت بربها".

قال الطبري: يقول:"ولقد تركنا السفينة التي حملنا فيها نوحا ومن كان معه آية، يعني عِبْرة وعظة لمن بعد قوم نوح من الأمم ليعتبروا ويتعظوا، فينتهوا عن أن يسلكوا مسلكهم في الكفر بالله، وتكذيب رسله، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة".

قال قتادة:"ألقى الله سفينة نوح على الجوديّ حتى أدركها أوائل هذه الأمة".

قال قتادة:"أبقاها الله بباقَردى من أرض الجزيرة، عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة نظرا، وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رمادا".

قال ابن كثير:"الظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [يس: ٤١، ٤٢]. وقال {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} [الحاقة: ١١، ١٢]".

عن مجاهد:"أن الله حين غرّق الأرض، جعلت الجبال تشمخ، فتواضع الجوديّ، فرفعه الله على الجبال، وجعل قرار السفينة عليه".

قوله تعالى: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٥]، أي:"فهل من متعظ يتعظ؟".

قال القرطبي: أي:"متعظ خائف".

قال ابن كثير:"أي: فهل من يتذكر ويتعظ؟".

قال الطبري:"يقول: فهل من ذي تذكر يتذكر ما قد فعلنا بهذه الأمة التي كفرت بربها، وعصت رسوله نوحا، وكذبته فيما أتاهم به عن ربهم من النصيحة، فيعتبر بهم، ويحذر أن يَحل به من عذاب الله بكفره بربه، وتكذيبه رسوله محمدا ﷺ،

=

مثل الذي حلّ بهم، فينيب إلى التوبة، ويراجع الطاعة. وأصل مدّكر: مفتعل من ذكر، اجتمعت فاء الفعل، وهي ذال، وتاء وهي بعد الذال، فصيرتا دالا مشدّدة، وكذلك تفعل العرب

فيما كان أوّله ذالا يتبعها تاء الافتعال يجعلونهما جميعا دالا مشدّدة، فيقولون: ادّكرت ادكارًا، وإنما هو: اذتكرت اذتكارا".

عن سفيان: " {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، قال: فهل من مذّكر".

قال ابن زيد:"المدّكر: الذي يتذكر، وفي كلام العرب: المذكر: المتذكر".

قال الحسن:"فهل من خائف يتذكر".

قال محمد بن كعب القرظي:"هل من مزدجر عن المعاصي".

عن عبد الله، قال: "كان رسول الله ﷺ يقرأ: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}".

عن ابن مسعود، قال: "أقرأني رسول الله ﷺ {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: {مُدَّكِرٍ}".

عن أبي إسحاق:"أنه سمع رجلا يسأل الأسود: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} أو {مُذَّكِرٍ}؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} دالا".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: ١٦]، أي:"فكيف كان عذابي ونذري لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به؟ إنه كان عظيمًا مؤلمًا".

قال ابن كثير:"أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر".

قال الطبري: يقول:"فكيف كان عذابي لهؤلاء الذين كفروا بربهم من قوم نوح، وكذّبوا رسوله نوحا، إذ تمادوا في غيهم وضلالهم، وكيف كان إنذاري بما فعلت

=

=

بهم من العقوبة التي أحللت بهم بكفرهم بربهم، وتكذيبهم رسوله نوحا، صلوات الله عليه، وهو إنذار لمن كفر من قومه من قريش، وتحذير منه لهم، أن يحلّ بهم على تماديهم في غيهم، مثل الذي حلّ بقوم نوح من العذاب".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ١٧]، أي:"ولقد سَهَّلْنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر".

وفي قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ١٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: سهلنا تلاوته على أهل كل لسان، وهو معنى قول مجاهد وابن زيد.

قال الماوردي:"وهذا أحد معجزاته، لأن الأعجمي قد يقرأه ويتلوه كالعربي".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد سهَّلنا القرآن، بيّناه وفصلناه للذكر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ، وهوّناه".

قال ابن كثير:"أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: {كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الألْبَابِ} [ص: ٢٩]، وقال تعالى: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [مريم: ٩٧].. ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تَقدّم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» ".

عن مجاهد، قوله: " {يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، قال: هوّناه". وفي رواية:"هونا قراءته".

قال ابن زيد:"يسَّرنا: بيَّنا".

وقال السدي: "يسرنا تلاوته على الألسن".

وقال الضحاك عن ابن عباس: "لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع

=

=

أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، ﷻ".

قال مقاتل:"هونا الْقُرْآن.. ولولا أن الله- تعالى- يسر القرآن للذكر ما استطاع أحد أن يتكلم بكلام الله- تعالى- ولكن الله- تعالى- يسره على خلقه فيقرءونه على كل حال".

قال سهل:"أي: هوّنا القرآن للذكر، ولولا ذلك لما أطاقت الألسنة أن تتكلم به، فهل من مدكر لهذه النعمة".

قال الزجاج:"المعنى: سَهَّلْنَا، وَقِيل: إنَّ كُتبَ أهل الأديانَ نحو التوراة والإِنجيل إنما يتلوها أهلها نظرًا، ولا يكادون يحفظون كُتُبَهُمْ من أولها إلى آخرها كما يحفظ القرآنُ".

الثاني: سهلنا علم ما فيه واستنباط معانيه، قاله مقاتل.

الثالث: هونا حفظه، فأيسر كتاب يحفظ هو كتاب الله، قاله الفراء وابن الجوزي.

قال القرطبي:"أي: سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه... ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرا، غير موسى وهرون ويوشع ابن نون وعزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت.. فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذكروا ما فيه، أي يفتعلوا الذكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب".

قوله تعالى: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ١٧]، أي:"فهل من متعظ به؟".

قال الطبري:"يقول: فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر".

قال ابن كثير:"أي: فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟".

قال ابن الجوزي:"أي: من ذاكرٍ يذكره ويقرؤه والمعنى: هو الحث على قراءته وتعلُّمه".

=

=

قال القرطبي: أي:"فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟".

قال مطر-وهو الوراق-:"هل من طالب علم فيعان عليه؟".

عن قتادة: " {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، يقول: فهل من طالب خير يُعان عليه".

قال القرظي:"هل من مزدجر عن المعاصي".

عن حماد بن زيد عن عاصم قال: "سمع أبو العالية رجلا وهو يقول سورة قصيرة، فقال: أنت أقصر وألم؛ قال: وكان ابن سيرين يكره أن يقول سورة خفيفة، فإن الله يقول: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: ٥]، ولكن قل: سورة يسيرة، فإن الله يقول:{لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ١٧]".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كذبت قبلهم قوم نوح} ونوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بدلالة القرآن والسنة، قال الله تبارك وتعالى: {إنا أوحيناَ إليك كما أوحيناَ إلى نوح والنبيين من بعده} وقال تعالى: {ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} وبهذا نعرف أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن إدريس هو الجد لنوح، كذب لا شك فيه، وليس قبل نوح رسول وفي حديث الشفاعة التصريح بأنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ولذلك كان من عقيدتنا أن أول الرسل نوح، وأن آخر الأنبياء والرسل محمد ﷺ، {كذبت قبلهم قوم نوح} لم يفصل الله ﷻ هذا التكذيب، لكنه أنزل في ذلك سورة تامة وهي سورة نوح، فصل الله فيها تفصيلًا تامًّا في تكذيبهم وأخذهم، {فكذبوا عبدنا} وهو نوح وصفه الله بالعبودية، لأن العبودية أشرف ألقاب البشر، وهي التذلل لله بالطاعة والإنابة والتوكل وغير ذلك، والعبودية من حيث هي ثلاثة أنواع:

عبودية عامة: تشمل جميع الخلق، وهي التذلل للأمر الكوني كقوله تبارك وتعالى: {إن كل من في السماوات والأَرض إلا آتى الرحمن عبدًا}. أي: ما كل من في

=

=

السموات والأرض إلا هذه حاله: أنه آتي الرحمن عبدًا، وهذه العبودية للأمر الكوني، لأن أمر الله ﷻ الكوني لا يمكن لأحد أن يفر منه، مهما كانت قوته.

النوع الثاني: العبودية الخاصة بالمؤمنين: مثل قوله تعالى: {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأَرض هونًا} فهذه عامة لكل مؤمن.

الثالث: العبودية الخاصة بالأنبياء: وهذه مثل قوله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلًا} . {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده} . {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب} . ومن ذلك هذه الآية: {فكذبوا عبدنا} .

وقد لبث فيهم نوح عليه الصلاة والسلام ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله، لكنهم كلما دعاهم إلى الله ليغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا قوله، واستغشوا ثيابهم حتى لا يروه، ولا أبلغ من هذا الاستكبار أن يضع الإنسان يده في أذنيه حتى لا يسمع قول الداعي، وأن يستغشي ثوبه فيتغطى به حتى لا يراه {وقالوا مجنون} المجنون فاقد العقل الذي يهذي بما لا يدري قالوا: إنه مجنون، وهذه القولة قيلت لكل الرسل، قال الله تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون} و (أو) هنا إما للتنويع يعني بعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنها للتنويع يعني بمعنى أن بعض المكذبين يقول ساحر، وبعضهم يقول: مجنون، أو أنهم يقولون هذا وهذا.

{وازدجر} أي: زجر زجرًا شديدًا، والزجر هو النهر بشدة وعنف، والدال هنا منقلبة عن تاء، وقد قال العلماء: إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمعنى: أنه زجرٌ شديدٌ، وقوله: {وازدجر} ينبغي ألا توصل بما قبلها، لأنك لو وصلت وقلت: {وقالوا مجنون وازدجر} لتوهَّم السامع أنهم يقولون مجنون وازدجر، يعني زجره غيرنا، لكن المعنى خلاف ذلك، المعنى كذبوا وازدجروه، فإذن الأولَى أن تقف على قوله، {وقالوا مجنون} ثم تصل وتقول: {وازدجر} فيكون

=

=

هنا لم يقتصر هؤلاء المكذبون على أن كذبوا بل كذبوا وزجروا وتوعدوا وسخروا، ولما طال الأمد {فدعا ربه أني مغلوب فانتصر} الله أكبر، كلمتان {أني مغلوب فانتصر} ولقد دعا أهلًا للإجابة- جل وعلا- فأجاب الله قال: {ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر}- وفي قراءة (فتَّحْنَا) وكلاهما حق، وينبغي لمن علم القراءة الأخرى أن يقرأ بهذه تارة وهذه تارة، بشرط ألا يكون ذلك بحضرة العوام، لأن العوام لا ينبغي أن تقرأ عليهم قراءة خارجة عن المصحف الذي بأيديهم فتحدث لهم تشويشًا، وربما تهبط منزلة القرآن في نفوسهم، أو ينسبوك إلى الغلط والتحريف، لكن عند طلبة العلم وعند التعليم، أو بينك وبين نفسك ينبغي أن تقرأ بالقراءات الثابتة مرة بهذه ومرة بهذه، كما نقول هذا أيضًا في العبادات المتنوعة تفعل هذه مرة وهذه مرة، كالاستفتاحات ونحوها {ففتحنا أبواب السماء} كل باب في السماء انفتح {بماء منهمر} أي: منصب صبًّا شديدًا، فكان كأفواه القرب، ليس كالذرات المعروفة، بل أشد، {وفجرنا الأَرض عيونًا}- أي عيونًا من المياه، وتأمل قوله تعالى: {وفجرنا الأَرض عيونًا} ولم يقل فجرنا عيون الأرض، كأن الأرض كلها كانت عيونًا متفجرة، حتى التنور الذي هو أبعد ما يكون عن الماء لحرارته ويبوسته صار يفور، كما قال الله ﷻ:

{حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور} وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى، وأن هذه الفيضانات التي تحدث إنما تحدث بأمر الله ﷻ، وليست كما قال الطبيعيون: إنها من الطبيعة، يقولون: هاجت الطبيعة، غضبت الطبيعة، وما أشبه ذلك نسأل الله العافية، بل هي بأمر من يقول للشيء كن فيكون، {فالتقى الماء على أمر قد قدر} هنا ماءان: ماء نازل من السماء دل عليه قوله: {ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر} وماء من الأرض نابع دل عليه قوله: {وفجرنا الأَرض عيونًا} فلماذا لم يقل فالتقى الماءان، لأن المراد ماء السماء وماء الأرض؟ قال

=

=

العلماء: إنه أراد الجنس، لأن الجنس هنا واحد، ماء الأرض وماء السماء، أو يقال: لأنه لما كان المقصود بهذين الماءين شيئًا واحدًا وهو عذابهم صح إفراده {على أمر قد قدر} أي: على شيء قد قضاه الله تعالى وقدره في الأزل، فإنه ما من شيء يحدث إلا وهو مكتوب، قال الله تعالى: {وكل شيء أحصيناه في إمام مبين} يعني من أعمال بني آدم، ومما يقع في الأرض كل شيء محصى، ولهذا قال {على أمر قد قدر}.

{وحملناه على ذات ألواح ودسر} أي: حملنا نوحًا وأهله إلا من سبق عليه القول منهم، وأمره الله تعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، حمله الله على ذات ألواح ودسر، يعني على سفينة ذات ألواح ودسر، وكان نوح عليه الصلاة والسلام يصنعها، فيمر به قومه ويسخرون منه قال الله ﷻ: {ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم} وهذه السفينة وصفها الله بأنها ذات ألواح، وألواح جمع منكر يدل على شيئين: الشيء الأول كثرة ألواحها، والثاني: عظمة هذه الألواح، ومتانتها، وحق لسفينة تحمل البشر على ظهرها أن تكون ذات ألواح عظيمة {ودسر} أي: مسامير، وقيل: إن الدسر ما تربط به الأخشاب فيكون أعم من المسامير، لأن الأخشاب قد تربط بالمسامير وقد تربط بالحبال، فالمهم أن توثيق هذه الألواح بعضها ببعض كان قويًا، وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى مادة صنع السفينة، وأنها من الأخشاب والمسامير، أو الروابط التي تربط بين تلك الأخشاب؛ ليكون ذلك تعليمًا للبشر أن يصنعوا السفن على هذا النحو، {تجري} أي: تسير على هذا الماء العظيم الذي بلغ قمم الجبال، والتقى فيه ماء الأرض وماء السماء، {بأعيننا} أي: ونحن نراها بأعيننا، ونكلأها ونحفظها، والباء في

=

=

قوله: {بأعيننا} للمصاحبة يعني أن عين الله ﷻ تصحب هذه السفينة، فيراها الله ﷻ ويكلأها ويحفظها، لأنها سفينة بنيت لتقوى الله ﷻ وإنجاء أوليائه من الغرق، الذي شمل أعداءه {جزاءً لمن كان كفر} أي: مكافأة لمن كان كُفِر به وهو نوح عليه الصلاة والسلام لأن قومه كفروا به وكذبوه- فبين الله ﷻ أن إنجاء نوح بهذه السفينة كان جزاء له، والله

سبحانه وتعالى يجزي المحسنين أكثر من إحسانهم {ولقد تركناها آيةً} الضمير (هاء) اختلف فيها المفسرون هل المعنى: ولقد تركنا هذه القصة- وهي قصة نوح- وإغراق قومه، أبقيناها آية لمن يأتي بعدهم، الوجه الثاني: ولقد تركناها، أي: السفينة، والمراد الجنس، أي جنس هذه السفينة أبقيناها آية لمن بعد نوح، وكلا الأمرين محتمل، والقاعدة في التفسير: أن الآية إذا احتملت معنيين لا ينافي بعضهما الآخر، وليس أحدهما بأرجح من الآخر، فإنها تحمل على المعنيين جميعًا، فنقول: إن الله ترك القصة آية وعبرة لمن يأتي بعد نوح، وترك السفينة آية وعبرة يصنع مثلها من يأتي بعده، ويدل لهذا القول وأنه غير ممتنع، أن الضمائر أحيانًا تعود إلى الجنس لا إلى الفرد، نظير قول الله تبارك وتعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفةً في قرار مكين} {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} المراد بالإنسان آدم، {ثم جعلناه نطفةً} ليس آدم هو الذي جعل نطفة في قرار مكين، بل الإنسان الذي هو جنس آدم، وهم بنو آدم، ومثل ذلك عند بعض العلماء قوله تعالى: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجومًا للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير} ليست المصابيح التي في السماء هي التي ترجم الشياطين، ولكنها شهب تخرج منها فترجم الشياطين.

{فهل من مدكر} الاستفهام هنا للتشويق، يعني هل أحد يدَّكر ويتعظ بما جرى للمكذبين للرسل من إهلاكهم وتدميرهم، وقيل: إن الاستفهام للأمر، وأن المعنى

=

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨).

{كَذَّبَتْ عَاد} نَبِيّهمْ هُودًا فَعُذِّبُوا {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر} إنْذَارِي لَهُمْ بِالْعَذَابِ قَبْل نُزُوله أي وقع موقعه وقد بينه بقوله.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩).

=

فادكروا، وسواء قلنا للتشويق أو للأمر، فإن الواجب علينا أن نتذكر وأن نخشى من عقاب الله تبارك وتعالى، وعقاب الله تعالى لهذه الأمة خاصة لا يمكن أن يشملهم جميعًا، لكن قد يشمل مناطق معينة تؤخذ بالعذاب بما فعل السفهاء منهم، كما قال الله تعالى: {واتقوا فتنةً لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب} {فكيف كان عذابي ونذر} كيف هنا للتفخيم والتعجب، يعني: ما أعظم العذاب والنذر! وقيل: إن الاستفهام للتقرير، يعني أن الله يقررنا بالعذاب وبالنذر، لكن المعنى الأول أقرب للتفخيم والتعظيم، أي ما أعظم عذابي النازل بأعدائي، وما أعظم نذري التي تنذر وتخوف من العقاب أن ينزل بمن خالف، فهذا العذاب الذي حصل لقوم نوح عذاب يعتبر من النذر المخوفة لنا من مخالفة أمر الله ورسوله، {ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر} يعني سهلنا، والقرآن هو كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ، وسمي قرآنًا، لأنه يقرأ أي يتلى، وقوله {للذكر}- قال بعضهم: للحفظ، وأن القرآن ميسر لمن أراد أن يحفظه، وقيل: يسر معانيه لمن تدبر، ويسر ألفاظه لمن حفظ، وقيل المراد بالذكر الادكار والاتعاظ، يعني أن من قرأ القرآن ليتذكر به ويتعظ به سهل عليه ذلك واتعظ وانتفع، وهذا المعنى أقرب للصواب بدليل قوله: {فهل من مدكر} يعني: هل أحد يدكر، مع أن الله سهل القرآن للذكر، أفلا يليق بنا وقد سهل الله القرآن للذكر أن نتعظ ونتذكر؟ بلى هذا هو اللائق، فهل من مدكر.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} أَيْ شَدِيدَة الصَّوْت {فِي يَوْم نَحْس} شُؤْم {مُسْتَمِرّ} دَائِم الشُّؤْم أَوْ قَوِيّه وَكَانَ يَوْم الْأَرْبِعَاء آخِر الشهر.

تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠).

{تَنْزِع النَّاس} تَقْلَعُهُمْ مِنْ حُفَر الْأَرْض الْمُنْدَسِّينَ فيها وتصرعهم على رؤوسهم فَتَدُقّ رِقَابهمْ فَتُبَيِّن الرَّأْس عَنْ الْجَسَد {كَأَنَّهُمْ} وَحَالهمْ مَا ذُكِرَ {أَعْجَاز} أُصُول {نَخْل مُنْقَعِر} مُنْقَطِع سَاقِط عَلَى الْأَرْض وَشُبِّهُوا بِالنَّخْلِ لِطُولِهِمْ وَذُكِّرَ هُنَا وَأُنِّثَ فِي الْحَاقَّة {نَخْل خَاوِيَة} مراعاة للفواصل في الموضعين.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١).

{فكيف كان عذابي ونذر}.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢).

{ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}(١).

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ} [القمر: ١٨]، أي: "كذبت عادٌ رسولهم هودًا".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: كذّبت أيضا عاد نبيهم هودا ﷺ فيما أتاهم به عن الله، كالذي كذّبت قوم نوح، وكالذي كذّبتم مَعْشر قريش نبيكم محمدا ﷺ وعلى جميع رسله".

قال السعدي: "هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هودا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه".

عن السدي: "إنّ عادًا كانوا قومًا باليمن بالأحقاف، والأحقاف: هي الرمال، فأتاهم، فوعظهم، وذكّرهم بما قصَّ اللهُ في القرآن، فكذّبوه، وسألوا أن يأتيهم بالعذاب".

=

=

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: ١٨]، أي:"فكيف كان عذابي لهم على كفرهم، ونذري على تكذيب رسولهم، وعدم الإيمان به؟ إنه كان عظيمًا مؤلمًا".

قال الطبري:"يقول: فانظروا معشر كفرة قريش بالله كيف كان عذابي إياهم، وعقابي لهم على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله هودا وإنذاري بفعلي بهم ما فعلت من سلك طرائقهم، وكانوا على مثل ما كانوا عليه من التمادي في الغيّ والضلالة".

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا} [القمر: ١٩]، أي:"أرسلنا عليهم ريحًا عاصفة باردة شديدة الهبوب".

قال الطبري: يقول: "إنا بعثنا على عاد إذ تمادوا في طغيانهم وكفرهم بالله ريحا صرصرا، وهي الشديدة العصوف في برد، التي لصوتها صرير، وهي مأخوذة من شدة صوت هبوبها إذا سمع فيها كهيئة قول القائل: صرّ، فقيل منه: صرصر".

قال ابن كثير:"أرسل {عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا}، وهي الباردة الشديدة البرد".

قال قتادة:"الصَّرصر: الباردة". وروي عن الضحاك مثله.

قال الحسن:"الصرصر: الباردة".

عن سفيان: " {رِيحًا صَرْصَرًا}، قال: شديدة، والصرصر: الباردة".

قال ابن زيد:"الصرصر: الشديدة".

عن ابن عباس، قوله: " {رِيحًا صَرْصَرًا}، قال: ريحا باردة".

قوله تعالى: {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ} [القمر: ١٩]، أي:"في يوم شؤم مستمر عليهم بالعذاب والهلاك".

قال الطبري:"يقول: في يوم شرّ وشؤم، استمرّ بهم البلاء والعذاب فيه إلى أن وافي بهم جهنم".

=

=

قال الثعلبي:"{مُسْتَمِرٍّ}: شديد ماض على الصغير والكبير فلم تبق منهم أحدا إلّا أهلكته".

قال الفراء:"استمر عليهم بنحوسته".

قال ابن كثير:"{مُسْتَمِرٍّ} عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي".

عن قتادة: " {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}، يستمرّ بهم إلى نار جهنم".

وفي تفسير قوله تعالى: {فِي يَوْمِ نَحْسٍ} [القمر: ١٩]، أقوال:

أحدها: أيام شداد. قاله ابن عباس والضحاك.

قال مقاتل:"يعني: شديد، {مُسْتَمِرٍّ}، يقول: استمرت عليهم الريح لا تفتر عنهم سبع ليال، وثمانية أيام حسوما دائمة".

الثاني: في يوم شرّ. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"النحس: الشرّ. {فِي يَوْمِ نَحْسٍ}: في يوم شر".

الثالث: في يوم شديدة البرد. حكاه الماوردي وأنشد قول الشنفرى:

ولَيْلَةِ نَحْسٍ في الأُمورِ شَهِدْتُهَا... بخُطَّةِ عَزْمٍ قَدْ أُمِرَّ مَرِيرُها

يعني:"أنه لشدة بردها يصطلي بقوسه وسهامه التي يدفع بها عن نفسه".

الرابع: أي: في يوم شؤم. قاله الحسن وقتادة وابن قتيبة والزجاج.

قال الحسن:"النّحس: المشؤوم".

قال قتادة:"النَّحْس: الشؤم".

قال الزجاج:"يعني «نَحس»: مشؤوم، {مستمر}، أي: دائم الشؤم، وقيل: في يوم أربعاء في آخر الشهر لا يدور".

قال ابن أبي زمنين:"وكان ذلك من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء".

عن زر بن حبيش: " {فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}، قال: يوم الأربعاء".

=

=

قوله تعالى: {تَنْزِعُ النَّاسَ} [القمر: ٢٠]، أي:"تقلع الريح القوم ثم ترمي بهم على رؤسهم فتدقُّ رقابهم وتتركهم".

قال الطبري:"يقول: تقتلع الناس ثم ترمي بهم على رءوسهم، فتندقّ رقابهم، وتبين من أجسامهم".

قال ابن كثير:"وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه فيبقى جثة بلا رأس".

قال السعدي:"فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} [القمر: ٢٠]، أي:"كأنهم أُصول نخلٍ قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض".

قال الفراء:"{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ}: أسافلها، {مُنْقَعِرٍ}: المصرع من النخل".

قال ابن عباس:"أعجاز سود النخل".

قال السعدي:"فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره!".

عن السدي:"{كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ} انقعر من أصوله".

عن ابن عباس، قوله: " {تنزعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}، قال: هم قوم عاد حين صرعتهم الريح، فكأنهم فلق نخل منقعر".

عن مجاهد، قوله: " {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}، قال: سقطت رءوسهم كأمثال الأخبية، وتفرّدت، أو وتَفَرّقت أعناقهم وقال " أبو جعفر: أنا أشك"، فشبهها بأعجاز نخل منقعر".

عن محمد بن قرظة بن كعب، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ، قال: «انتزعت الريح الناس من قبورهم».

عن الحسن، قال: "لما أقبلت الريح قام إليها قوم عاد، فأخذ بعضهم بأيدي بعض كما تفعل الأعاجم، وغمزوا أقدامهم في الأرض وقالوا: يا هود من يزيل أقدامنا

=

=

عن الأرض إن كنت صادقا، فأرسل الله عليهم الريح فصيرتهم كأنهم أعجاز نخل مُنْقَعر".

عن أبي هريرة، قال: "إن كان الرجل من قوم عاد ليتخذ المصراعين من حجارة، لو اجتمع عليها خمس مئة من هذه الأمة لم يستطيعوا أن يحملوها، وإن كان الرجل منهم ليغمز قدمه في الأرض، فتدخل في الأرض".

قال ابن إسحاق: " لما هاجت الريح قام نفر من عاد سبعة شَماليًّا، منهم ستة من أشدّ عاد وأجسمها، منهم عمرو بن الحُلَيِّ والحارث بن شداد والهلقام وابنا تيقن وخَلَجان بن أسعد، فأدلجوا العيال في شعب بين جبلين، ثم اصطفوا على باب الشعب ليردّوا الريح عمن بالشِّعب من العِيال، فجعلت الريح تخفقُهم رجلا رجلا فقالت امرأة من عاد:

ذَهَبَ الدَّهْرُ بعَمْرِو بْ... نِ حُلَيٍّ والهَنيَّاتِ

ثُمَّ بالحارِثِ والهِلْ... قامِ طَلاعِ الثَّنيَّاتِ

وَالَّذِي سَدَّ عَلَيْنا الرّ... يحَ أيَّامَ البَلِيَّاتِ".

لما هبَّت الريح قام سبعة من عاد، فقالوا: نردّ الريح، فأتوا فم الشعب الذي يأتي منه الريح، فوقفوا عليه، فجعلت الريح تهبّ، فتدخل تحت واحد واحد، فتقتلعه من الأرض فترمي به على رأسه، فتندقّ رقبته، ففعلت ذلك بستة منهم، وتركتهم كما قال الله: {أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ}، وبقي الخلجان فأتى هودا فقال: يا هود ما هذا الذي أرى في السحاب كهيئة البخاتيّ؟ قال: تلك ملائكة ربي، قال: ما لي إن أسلمت؟ قال: تَسْلَم، قال:

أيُقيدني ربك إن أسلمت من هؤلاء؟ فقال: ويلك أرأيت ملكا يقيد جنوده؟ فقال: وعزّته لو فعل ما رضيت. قال: ثم مال إلى جانب الجبل، فأخذ بركن منه فهزّه، فاهتز في يده، ثم جعل يقول:

=

=

لَمْ يَبْقَ إلا الخَلَجانُ نَفْسُهُ... يا لَكَ مِنْ دَهانِي أَمْسُهُ
بِثابِتِ الوَطْءِ شَدِيدٍ وَطْسُهُ... لَوْ لَمْ يَجِئْني جِئْتُهُ أَحُسُّهُ
قال: ثم هبت الريح فألحقته بأصحابه".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١)} [القمر: ٢١]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فانظروا يا معشر كفار قريش، كيف كان عذابي قوم عاد، إذ كفروا بربهم، وكذّبوا رسوله، فإن ذلك سنة الله في أمثالهم، وكيف كان إنذاري بهم مَنْ أنذرت".

قال ابن قتيبة:"{وَنُذُرِ}: جمع نَذِير. و «نذير»، بمعنى: الإنذار، أي: فكيف كان عذابي وإنذاري".

قال ابن أبي زمنين:"أي: كان شديدا".

قال السعدي:"كان والله العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ٢٢]، أي:"ولقد سَهَّلنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم وللتدبر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر".

عن مجاهد، قوله: " {يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، قال: هوّناه". وفي رواية:"هونا قراءته".

وقال السدي: "يسرنا تلاوته على الألسن".

قال ابن زيد:"يسَّرنا: بيَّنا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد سهلنا القرآن وهوّناه لمن أراد التذكر به والاتعاظ".

قال الشوكاني:"أي: سهلناه للحفظ، وأعنا عليه من أراد حفظه، وقيل: هيأناه للتذكر والاتعاظ".

قال القاسمي:"أي: سهلناه للإدكار والاتعاظ، لكثرة ما ضرب فيه من الأمثال

=

الكافية الشافية".

قال المراغي: "أي: ولقد سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، وملأناه بأنواع العبر والمواعظ، ليتعظ به من شاء، ويتدبر من أراد".

قال أبو السعود:"جملة قسمية وردت في أواخر القصص الأربع تقريرا لمضمون ما سبق من قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} [القمر: ٤- ٥]، وتنبيها على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الإدكار كافية في الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة في حيز الاعتبار، أي: وبالله ولقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحناه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد، {لِلذِّكْرِ}، أي: للتذكر والاتعاظ".

قال السعدي:"كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم".

قال الضحاك، عن ابن عباس: "لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، ﷻ".

قوله تعالى: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ٢٢]، أي:"فهل من متعظ به؟".

عن قتادة: " {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، يقول: فهل من طالب خير يُعان عليه".

قال مطر-وهو الوراق-:"هل من طالب علم فيعان عليه؟".

قال الطبري:"يقول: فهل من متعظ ومنزجر بآياته".

قال القاسمي:"أي: فيعتبر بما فيه، ويثوب إلى رشده".

قال المراغي: "أي" فهل من متعظ به، مزدجر عن معاصيه، أي: ما أقل من تذكر به، واتعظ بأمره ونهيه".

قال الشوكاني:"أي: متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره. وفي الآية الحث على درس

=

القـرآن، والاسـتكثار مـن تلاوتـه، والمـسارعة في تعلمـه. و «مـدكر»، أصـله: «مذتكر»".

قال أبو السعود: قال: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} " إنكارا ونفي للمتعظ على أبلغ وجه وآكده حيث يدل على أنه لا يقدر أحد يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه بجزالة نظمه وعذوبة ألفاظه وعباراته مما لا يساعده المقام".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كذبت عاد} هذه هي الأمة الثانية ممن قصهم الله علينا في هذه السورة الكريمة، وعاد تتلوا قوم نوح غالبًا، وقد تتقدم عليها كما في سورة (الذاريات)ـ ولكن الغالب أن قصة نوح هي الأولى في قصص الأنبياء لأنه أول نبي أرسل إلى أهل الأرض، وعاد هم قوم هود، كما قال تعالى: {ألا بعدًا لعاد قوم هود} كذبوا نبيهم هودًا عليه الصلاة والسلام، وكانوا أقوياء أشداء، وكانوا يفتخرون بشدتهم وقوتهم، ويقولون: {من أشد منا قوةً}ـ قال الله تعالى: {أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوةً وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا} يقول هنا {كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر}ـ والجواب: كان شديدًا عظيمًا واقعًا موقعه، فالاستفهام للتفخيم والتعظيم والتقرير، وهو أن عذاب الله كان عظيمًا، وكان واقعًا موقعه، {ونذر} يعني: آياته، كذلك كانت عظيمة واقعة موقعها، فبماذا أهلكهم الله؟ أهلكهم الله بألطف شيء وهو الريح التي تملأ الآفاق، ومع ذلك لا يحس الإنسان بها، لأنها سهلة لينة يخترقها الإنسان بسهولة، مكاننا الذي نحن فيه مملوء بالهواء ومع ذلك نخترقه ولا نحس به، فهي من ألطف الأشياء، فأهلك الله عادًا الذين يفتخرون بقوتهم بهذه الريح، {إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نحس مستمر} الجملة هنا مؤكدة بإن و {أرسلنا} يعني الرب ﷻ نفسه، وجمع الضمير للتعظيم {عليهم}ـ أي على عاد {ريحًا صرصرًا}ـ أي: ذات صرير لقوتها وشدتها، حتى إن مجرد نفوذها يسمع له صرير،

=

=

وإن لم تصطدم بما يقتضي الصرير، لأنها قوية جدًا، وهي الريح الغربية، أتت من جهة الغرب لعاد، فقالوا: هذا عارض ممطرنا.

وكانوا قد أجدبوا قبل ذلك سنوات، فلما أقبلت بسوادها وعظمتها وزمجرتها قالوا: هذا عارض ممطرنا، ولكن الأمر كان بالعكس، كانت ريحًا فيها عذاب أليم، كانت ريحًا عقيمة ليس فيها مطر، ولا يرجى أن يأتي منها مطر، {في يوم نحس مستمر} ـ أي: في يوم شؤم مستمر بالنسبة لعاد، وليس كل وقت، فاليوم الذي أهلكوا فيه ليس هو نفسه نحسًا مستمر، ولكنه بالنسبة لهؤلاء كان يوم نحس مستمرًا، كما قال الله تعالى عن قوم نوح: {أغرقوا فأدخلوا نارًا} هؤلاء أهلكوا بالريح فأدخلوا النار، فالنحس أي الشؤم كان مستمرًا معهم، فعذاب الآخرة متصل بعذاب الدنيا {تنزع الناس} أي: تأخذهم بشدة وقوة وترفعهم إلى السماء- نسأل الله العافية- حتى قال بعضهم: ترفعهم حتى يغيب الإنسان عن الرؤية من علوه، ثم تطرحه في الأرض، وإذا سقطوا على الأرض سقطوا على أم رؤوسهم ثم انفصل الرأس عن الجسد من شدة الصدمة، تنزع الناس {كأنهم} في حال سقوطهم الأرض {أعجاز نخل منقعر} ـ أعجاز أي أصول، والنخل معروف، والمنقعر الساقط من أصله، يعني كأنهم نخل سقط من أصله بقيت جثته، وصاروا كأعواد النخل؛ لأنه ليس لهم رؤوس على ما قال المفسرون، حيث إن رؤوسهم انفصلت من شدة الصدمة، فسبحان القوي العزيز، هؤلاء القوم الأشداء الأقوياء وصلوا إلى هذه الحال بريح من عند الله ﷻ تنزع الناس: {كأنهم أعجاز نخل منقعر}.

وهنا قال الله تعالى: {كأنهم أعجاز نخل منقعر} ـ وفي الحاقة قال تعالى: {كأنهم أعجاز نخل خاوية} ـ والمعنى متقارب، لكن من بلاغة القرآن أن يجري الكلام فيه على نسق واحد، فهناك {كأنهم أعجاز نخل خاوية} مناسب للفواصل التي في

=

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣).

{كَذَّبَتْ ثَمُود بِالنُّذُرِ} جَمْع نَذِير بِمَعْنَى مُنْذِر أَيْ بِالْأُمُورِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا نَبِيّهمْ صَالِح إنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَتَّبِعُوهُ.

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤).

{فَقَالُوا أَبَشَرًا} مَنْصُوب عَلَى الِاشْتِغَال {مِنَّا وَاحِدًا} صِفَتَانِ لبَشَرًا {نَتَّبِعهُ} مُفَسِّر لِلْفِعْلِ النَّاصِب لَهُ وَالِاسْتِفْهَام بِمَعْنَى النَّفْي الْمَعْنِيّ كَيْفَ نَتَّبِعهُ وَنَحْنُ جَمَاعَة كَثِيرَة وَهُوَ وَاحِد مِنَّا وَلَيْسَ بِمَلَكٍ أَيْ لَا نَتَّبِعهُ {إِنَّا إِذًا} إِنِ اتَّبَعْنَاهُ {لَفِي ضَلَال} ذَهَاب عَنْ الصَّوَاب {وَسُعُر} جُنُون.

أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥).

{أَأُلْقِيَ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكه {الذِّكْر} الْوَحْي {عَلَيْهِ مِنْ بَيْننَا} أَيْ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ {بَلْ هُوَ كَذَّاب} فِي قَوْله إِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ ما ذكر {أشر} متكبر بطر قال تعالى.

سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦).

=

الحاقة، أما هنا {كأنهم أعجاز نخل منقعر} مناسب للفواصل التي في سورة القمر، لأن تناسب الكلام واتساقه من كمال بلاغته {فكيف كان عذابي ونذر ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر}ـ كرر الله تعالى هذا عند آخر كل قصة من أجل أن نحرص على التذكر بالقرآن، وتدبر القرآن، وتفهم القرآن؛ لأنه ميسر، والجملة مؤكدة بمؤكدات ثلاثة: القسم، واللام، وقد، مما يدل على الترغيب في تذكر القرآن والتذكر به، فهل من مدكر، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المدكرين بكتاب الله ﷻ.

{سَيَعْلَمُونَ غَدًا} فِي الْآخِرَة {مَنِ الْكَذَّاب الْأَشِر} وَهُوَ هَمّ بِأَنْ يُعَذَّبُوا عَلَى تَكْذِيبهمْ نَبِيّهمْ صالحا.

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧).

{إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَة} مُخْرِجُوهَا مِنْ الْهَضْبَة الصَّخْرَة كَمَا سَأَلُوا {فِتْنَة} مِحْنَة {لَهُمْ} لِنَخْتَبِرهُمْ {فَارْتَقِبْهُمْ} يَا صَالِح أَيْ انْتَظِرْ مَا هُمْ صَانِعُونَ وَمَا يُصْنَع بِهِمْ {وَاصْطَبِرْ} الطَّاء بَدَل مِنْ تَاء الِافْتِعَال أَيْ اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨).

{وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَة} مَقْسُوم {بَيْنهمْ} وَبَيْن النَّاقَة يَوْم لَهُمْ وَيَوْم لَهَا {كُلّ شِرْب} نَصِيب مِنْ الْمَاء {مُحْتَضَر} يَحْضُرهُ الْقَوْم يَوْمهمْ وَالنَّاقَة يَوْمهَا فَتَمَادَوْا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ مَلُّوهُ فَهَمُّوا بِقَتْلِ النَّاقَة.

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (٢٩).

{فَنَادَوْا صَاحِبهمْ} قِدَارًا لِيَقْتُلهَا {فَتَعَاطَى} تَنَاوَلَ السَّيْف {فَعَقَرَ} بِهِ النَّاقَة أَيْ قَتَلَهَا مُوَافَقَة لَهُمْ.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠).

{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُر} إنْذَارِي لَهُمْ بِالْعَذَابِ قبل نزوله أي وقع موقعه وبينه بقوله.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَة وَاحِدَة فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِر} هُوَ الَّذِي يَجْعَل لِغَنَمِهِ حَظِيرَة مِنْ يَابِس الشَّجَر وَالشَّوْك يَحْفَظهُنَّ فِيهَا مِنْ الذِّئَاب وَالسِّبَاع وَمَا سَقَطَ مِنْ ذَلِكَ فَدَاسَتْهُ هُوَ الهشيم.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢).

{ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ} [القمر: ٢٣]، أي:"كذبت ثمود -وهم قوم صالح- بالآيات التي أُنذِروا بها".

قال مقاتل:"يعني: بالرسل".

قال يحيى:"النذر، يعني: الرسل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: كذّبت ثمود قوم صالح بنذر الله التي أتتهم من عنده".

عن الحسن البصري -من طريق إسماعيل- أنه سُئل: "يا أبا سعيد، أرأيت قوله: {كذبت قوم نوح المرسلين}، و {كذبت عاد المرسلين}، و {كذبت ثمود المرسلين}، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إنّ الآخر جاء بما جاء الأول، فإذا كذبوا واحدًا فقد كذبوا الرسل أجمعين".

قوله تعالى: {فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ} [القمر: ٢٤]، أي:"فقالوا: أبشرًا منا واحدًا نتبعه نحن الجماعة الكثيرة وهو واحد؟".

قال الطبري:"فقالوا تكذيبا منهم لصالح رسول ربهم: أبشرا منا نتبعه نحن الجماعة الكبيرة وهو واحد؟".

قال ابن كثير:"يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كُلّنا قيادنا لواحد منا!".

قال الزمخشري:"قالوا أبشرا: إنكارا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية.. وقالوا: {مِنَّا} لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى، وقالوا واحِدًا إنكارا لأن تتبع الأمّة رجلا واحدا. أو أرادوا واحدا من أفنائهم ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه قولهم: {أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا} [القمر: ٢٥]".

قوله تعالى: {إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} [القمر: ٢٤]، أي:"إنا إذا لفي بُعْدٍ عن الصواب وجنون".

=

=

قال مقاتل:"يعني: لفي شقاء وعناء إن تبعنا صالحا".

قال الطبري:"يقول: قالوا: إنا إذًا باتباعنا صالحا إن اتبعناه وهو بشر منا، لفي ذهاب عن الصواب وأخذ على غير استقامة وسُعُر: يعنون بالسُّعُر: جمع سَعير".

عن قتادة، قوله: " {إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ}: في عناء وعذاب". وفي رواية:"ضلال وعناء".

قال الزمخشري:"قيل: الضلال: الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر: الجنون".

قوله تعالى: {أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا} [القمر: ٢٥]، أي:"أأُنزل عليه الوحي وخُصَّ بالنبوة مِن بيننا، وهو واحد منا؟".

قال ابن عباس، والكلبي:"يقولون: أجاءته النبوة وخص بها من بيننا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل مكذّبي رسوله صالح ﷺ من قومه ثمود: أألقي عليه الذكر من بيننا، يعنون بذلك: أنزل الوحي وخصّ بالنبوّة من بيننا وهو واحد منا، إنكارا منهم أن يكون الله يُرسل رسولا من بني آدم".

قال مقاتل:"يعنون صالحا- صلى الله عليه-، ونحن أفضل منه عند الله منزلة".

قال الزمخشري:"أي: أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة".

قال ابن كثير:"ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم".

عن السدي في قوله:"{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} [النحل: ٤٤]، قال: هو القرآن".

قوله تعالى: {بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ} [القمر: ٢٥]، أي:"بل هو كثير الكذب والتجبر".

قال الطبري:"يقول: قالوا: ما ذلك كذلك، بل هو كذّاب أشر، يعنون بالأشر: المَرِح ذا التجبر والكبرياء، والمَرِح من النشاط".

قال مقاتل:"يعني: بطر مرح".

=

=

قال ابن كثير:"ثم رموه بالكذب فقالوا: {بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ}، أي: متجاوز في حد الكذب".

قال الزمخشري:"{أَشِرٌ}: بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك".

عن الحسن بن محمد بن سعيد القرشيّ، قال: "قلت لعبد الرحمن بن أبي حماد: ما «الكذّاب الأشر»؟ قال: الذي لا يبالي ما قال".

قال ابن عباس: "وكان صالح بن عبيد شريفًا سيدًا من أشرف بطن فيهم".

عن مجاهد أنه كان يقرأه: «كَذَّابٌ أَشُرٌ»، بضم الشين وتخفيف الراء.

قوله تعالى: {سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} [القمر: ٢٦]، أي:"سَيَرون عند نزول العذاب بهم في الدنيا ويوم القيامة مَنِ الكذاب المتجبر؟".

قال الطبري: يقول: "سيعلمون غدا في القيامة من الكذّاب الأشر، ومن رسولنا صالح حين يردون على ربهم".

قال مقاتل:"عند نزول العذاب {مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ}، فهذا وعيد".

قال ابن كثير:"وهذا تهديد لهم شديد ووعيد أكيد".

قال محمد بن السّائِب الكلبي: " {سَيَعْلَمُونَ غَدًا} يوم القيامة، وذكر الغد للتقريب على عادة الناس".

عن مجاهد:"أنه قرأ: {سَيَعْلَمُونَ} بالياء.

وقرئ: «ستعلمون»، بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبا لهم، أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات.

قوله تعالى: {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ} [القمر: ٢٧]، أي:"إنا مخرجو الناقة التي سألوها من الصخرة، اختبارًا لهم".

قال الطبري: يقول:"إنا باعثوا الناقة التي سألتها ثمودُ صالحا من الهضبة التي

=

=

سألوه بَعثَتها منها آية لهم، وحجة لصالح على حقيقة نبوّته وصدق قوله، ابتلاء لهم واختبارا، هل يؤمنون بالله ويتبعون صالحا ويصدّقونه بما دعاهم إليه من توحيد الله إذا أرسل الناقة، أم يكذّبونه ويكفرون بالله؟".

قال الزمخشري: أي:"باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا، امتحانا لهم وابتلاء".

قال ابن كثير:"أي: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقة عظيمة عُشراء من صخرة صمَّاء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به".

قال ابن عباس:"وذلك أنهم تعنتوا على صالح فسألوه أن يخرج لهم من صخرة ناقة حمراء عشراء تضع، ثم ترد ماءهم فتشربه، ثم تغدو عليهم بمثله لبنًا، فقال الله تعالى {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ}".

عن السدي، قال: "فسألوا، -يعني: صالحا- أن يأتيهم بآية فجاءهم بالناقة لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، وقال: فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فأقروا بها جميعا فذلك قوله: {فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى}، فكانوا قد أقروا بها على وجه النفاق".

قوله تعالى: {فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ} [القمر: ٢٧]، أي:"فانتظر -يا صالح- ما يحلُّ بهم من العذاب، واصطبر على دعوتك إياهم وأذاهم لك".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لصالح: إنا مُرسلو الناقة فتنة لهم، فانتظرهم، وتبصَّر ما هم صانعوه بها، واصطبر على ارتقابهم ولا تعجل، وانتظر ما يصنعون بناقة الله، {وَاصْطَبِرْ} وأصل الطاء تاء، فجعلت طاء، وإنما هو افتعل من الصبر".

قال مقاتل:"يعني: انتظرهم فإن العذاب نازل بهم، {وَاصْطَبِرْ} على الأذى".

قال الزمخشري: أي:"فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون، {وَاصْطَبِرْ} على أذاهم

=

=

ولا تعجل حتى يأتيك أمرى".

قال ابن كثير:"أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة لك والنصر لك في الدنيا والآخرة".

قال الكلبي: "أمره بالصبر لما سبق في علمه أنهم سيكذبونه".

قوله تعالى: {وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ} [القمر: ٢٨]، أي:"وأخبرهم أن الماء مقسوم بين قومك والناقة: للناقة يوم، ولهم يوم".

قال مقاتل:"يوم للناقة ويوم لأهل القرية".

قال ابن كثير:"أي: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: {قَالَ هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الشعراء: ١٥٥]".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أخبرهم أن الماء قسمة بينهم، يوم غبّ الناقة، وذلك أنها كانت ترد الماء يوما، وتغبّ يوما، فقال جلّ ثناؤه لصالح: أخبر قومك من ثمود أن الماء يوم غبّ الناقة قسمة بينهم، فكانوا يقتسمون ذلك يوم غبها، فيشربون منه ذلك اليوم، ويتزوّدون فيه منه ليوم ورودها".

قال الزمخشري: " وإنما قال: {بينهم}، تغليبا للعقلاء".

عن ابن عباس، قال: "إذا كان يومها أصدرتهم لبنا ما شاءوا".

عن أبي رَوْق -من طريق المسيب- قال: "كانت ناقة صالح عليه السلام يُوضَع لها الإناء، فتَدُرُّ فيه اللبَن".

عن جابر، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:"فبعث الله لهم الناقة وكانت ترد من ذلك الفج تشرب ماءهم يوم وردها، ويحتلبون منها مثل الذي كانوا يشربون منها يوم غبها وتصدر من ذلك".

قوله تعالى: {كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ} [القمر: ٢٨]، أي:"كل شِرْب يحضره مَن كانت قسمته، ويُحظر على من ليس بقسمة له".

=

=

قال الطبري: يقول:"كلّ شرب من ماء يوم غبّ الناقة، ومن لبن يوم ورودها محتضر يحتضرونه".

قال مقاتل:"يقول: إذا كان يوم الناقة حضرت شربها، وإذا كان يومهم حضروا شربهم".

عن مجاهد، قوله: " {كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ}، قال: يحضرون بهم الماء إذا غابت، واذا جاءت حضروا اللبن".

قوله تعالى: {فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} [القمر: ٢٩]، أي:"فنادوا صاحبهم بالحض على عقرها، فتناول الناقة بيده، فنحرها، غير مكترث بالأمر العظيم".

قال الطبري: يقول:"فنادت ثمود صاحبهم عاقر الناقة قدار بن سالف ليعقر الناقة حضّا منهم له على ذلك، فتناول الناقة بيده فعقرها".

قال ابن كثير:"قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدّار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا} [الشمس: ١٢]. {فَتَعَاطَى}، أي: فَجَسر".

قال الزمخشري: " {فَتَعَاطَى}: فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة. وقيل: {فَتَعَاطَى} الناقة فعقرها، أو {فَتَعَاطَى} السيف".

قال مقاتل:"بعد ما كانوا منعوا الماء وكان القوم على شراب لهم ففني الماء، فبعثوا رجلا ليأتيهم بالماء ليمزجوا به الخمر، فوجدوا الناقة على الماء، فرجع، وأخبر أصحابه، فقالوا لقدار بن سالف اعقروها. وكانوا ثمانية فأخذ قدار السيف فعقرها، وهو عاقر الناقة".

عن ابن عباس، قوله: " {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}، قال: تناولها بيده".

عن ابن عباسـ ومجاهد:"{فَتَعاطى}، قال: تناول".

عن ابن عباس، قوله: {فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}، قال: "تناولها بيده، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}، قال: يقال: إنه ولد زنية فهو من التسعة الذين كانوا يُفسدون في الأرض،

=

=

ولا يصلحون، وهم الذين قالوا لصالح: {لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ} ولنقتلنهم".

قال قتادة:"تناول أحيمر ثمود الناقة فعقرها".

عن هشام بن عروة، عن أبيه في قوله تعالى: {فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر} [القمر: ٢٩] أن النبي ﷺ قال: «إن عاقر الناقة كان في قومه عزيزا منيعا، كأبي زمعة»".

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: ٣٠]، أي:"فكيف كان عقابي وإنذاري لهم؟ ألم يكن فظيعًا شديدًا؟!".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه لقريش: فكيف كان عذابي إياهم معشر قريش حين عذبتهم ألم أهلكهم بالرجفة. ونُذُر: يقول: فكيف كان إنذاري من أنذرت من الأمم بعدهم بما فعلت بهم وأحللت بهم من العقوبة".

قال مقاتل:"يعني: الذي أنذر قومه ألم يجدوه حقا؟، فلما أيقن بالهلاك تكفنوا بالأنطاع وتطيبوا بالمر، ثم دخلوا حفرهم صبيحة يوم الرابع".

قال ابن كثير:"أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي؟".

قال الحسن:"لَمّا عقروا الناقة طلبوا فَصِيلها، فصار في قارة الجبل، فقطع الله قلوبهم".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن أحيمر ثَمود أبى أن يعقرها، حتى بايعه صغيرُهم وكبيرُهم، وذكرهم وأنثاهم، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسوّاها".

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً} [القمر: ٣١]، أي:"إنا أرسلنا عليهم جبريل، فصاح بهم صيحة واحدة".

قال مقاتل:"صَيْحَةً واحِدَةً من جبريل ﷺ وذلك أنه قام فى ناحية القرية فصاح صيحة فخمدوا أجمعين".

=

=

قوله تعالى: {فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} [القمر: ٣١]، أي:"فصاروا كالزرع اليابس سريع الانكسار الذي يُجْعل حِظارًا على الإبل والمواشي".

قال الطبري: يقول:"فكانوا بهلاكهم بالصيحة بعد نضارتهم أحياء، وحسنهم قبل بوارهم كيبس الشجر الذي حظرته بحظير حظرته بعد حُسن نباته، وخضرة ورقه قبل يُبسه".

قال مقاتل:"شبههم في الهلاك بالهشيم البالي يعني الحظيرة من القصب ونحوها تحظر على الغنم، أصابها ماء السماء وحر الشمس حتى بليت من طول الزمان".

وفي قوله تعالى: {فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} [القمر: ٣١]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: كالعظام المحترقة، قاله ابن عباس.

وقال قتادة:"كرمادٍ محترق. قاله قتادة.

وكان قتادة يقرأ: " «كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ»، يقول: المحترق".

الثاني: أنه التراب الذي يتناثر من الحائط وتصيبه الريح، فيحتظر مستديرًا، قاله سعيد بن جبير.

قال ابن كثير:"وهذا قول غريب".

الثالث: عني به: هشيم الخيمة، وهو ما تكسَّر من خشبها. قاله مجاهد.

عن مجاهد، قوله: " {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}، قال: الرجل يهشِم الخيمة".

وقال مجاهد:"الهشيم: الخيمة".

الرابع: أنه الورق الذي يتناثر من خشب الحطب. وهذا قول سفيان.

قال سفيان: "الهشيم: إذا ضربت الحظيرة بالعصا تهشم ذاك الورق فيسقط. والعرب تسمي كل شيء كان رطبا فيبس: هشيما".

الخامس: أنه المرعى بالصحراء حين ييبس وتحرق ونسفته الريح. قاله السدي.

السادس: أنه حظيرة الراعي للغنم. قاله الضحاك ورواه سفيان عن أبي إسحاق

=

=

وأسنده. ومنه قول الشاعر:

أثرت عجاجة كدخان نار... تشب بغرقد بال هشيم

وقال الضحاك:"المحتظر: الحظيرة تتخذ للغنم فتيبس، فتصير كهشيم المحتظر، قال: هو الشوك الذي تحظر به العرب حول مواشيها من السباع، والهشيم: يابس الشجر الذي فيه شوك ذلك الهشيم".

وقال ابن زيد: "كانت العرب يجعلون حِظَارًا على الإبل والمواشي من يَبِيس الشوك، فهو المراد من قوله: {كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}".

قال الزمخشري:"الهشيم، الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم".

قال ابن قتيبة:"«الهشيم»: من النبت المتفتت. وأصله من: هشمت الشيء إذا كسرته. ومنه سمي الرجل: هاشما".

قال ابن كثير:"أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخَمَدوا وهَمَدوا كما يهمد يَبِيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ٣٢]، أي:"ولقد سَهَّلْنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر لمن أراد أن يتذكر ويعتبر".

قال الطبري: يقول:"ولقد هوّنا القرآن بيَّناه لمن أراد أن يتذكر به فيتعظ".

قال الواحدي: أي:"سهَّلناه للحفظ فليس يحفظ كتابٌ من كتب الله ظاهرًا إلاَّ القرآن".

قال البغوي: أي:"سهلنا {القرآن} ليتذكر ويعتبر به".

قال ابن عطية:"معناه: سهلناه وقربناه و «الذكر»: الحفظ عن ظهر قلب، يسر بما فيه من حسن النظم وشرف المعاني فله لوطة بالقلوب، وامتزاج بالعقول

=

السليمة".

قال الزمخشري:"أي: سهلناه للادكار والاتعاظ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد، ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر، من يسر ناقته للسفر: إذا رحلها، ويسر فرسه للغزو، إذا أسرجه وألجمه".

قال السمعاني:"معنى تيسر القرآن للذكرى: هو قراءته عن ظهر قلب، ولم يعط هذا في كتاب الله غير هذه الأمة، فإن أهل الكتابين إنما يقرءوا فهما عن الصحف".

قال الماتريدي:"أي: يسرنا القرآن لذكر ما نسوا من نعم الله تعالى، وأغفلوا عنها، أو يسرنا القرآن لذكر ما أغفلوا من الحجج والآيات ونسوها، أو يسرنا القرآن لذكر ما نسوا من الأنباء، وما نزل بمكذبي الرسل- عليهم السلام- بالتكذيب والعناد".

قوله تعالى: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ٣٢]، أي:"فهل مِن متعظ به؟".

قال الواحدي: أي:"مُتَّعظ بمواعظه".

قال السمعاني:"أي: متفكر".

قال الطبري: " يقول: فهل من متَّعظ به ومعتبر فيعتبر به، فيرتدع عما يكرهه الله منه".

قال ابن عطية:"وقوله: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} استدعاء وحض على ذكره وحفظه، لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس، والآية تعديد نعمة في أن الله يسر الهدى ولا بخل من قبله، فلله در من قبل وهدى".

عن الحسن: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، قال: " فهل من خائف يتذكّر".

قال محمد بن كعب القرظي:"هل من مزدجر عن المعاصي".

عن عبد الله، قال: "كان رسول الله ﷺ يقرأ: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}".

عن ابن مسعود، قال: "أقرأني رسول الله ﷺ {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، فقال رجل: يا أبا

=

عبد الرحمن، مُدَّكر أو مُذَّكر؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: {مُدَّكِرٍ}".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كذبت ثمود بالنذر} أي: بما جاءهم من النذر، وهي الآيات التي جاء بها صالح عليه الصلاة والسلام، وديارهم معروفة الآن ببلاد الحجر في طريق تبوك من المدينة، وكان صالح عليه الصلاة والسلام أُرسل إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له كسائر الأنبياء، قال الله تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة} أرسله الله ﷻ إلى قومه، وأعطاه آية وهي ناقة لها شرب ولهم شرب، أي أن بئر الناقة الكبير الغزير الماء، وقد ذكروا أنها إذا شربت إناء من الماء فإن الذي يسقيها إناء من الماء يحلب من لبنها بقدر ما أسقاها، وهذا من آيات الله أن ناقة تشرب ماء ثم تخرجه في الحال لبنًا، فإن هذا ليس له عادة، ولكنها آية من آيات الله ﷻ أراهم الله تبارك وتعالى إياها حتى يعتبروا، لأن الله لم يرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، رحمة منه وحكمة، لأنه لا يعقل أن رجلًا من بين الناس يأتي ويقول: إني رسول الله إليكم. إلا إذا أتاه الله آيات تدل على صدقه. قال العلماء: وما من آية أوتيها نبي من أنبياء الله السابقين إلا كان لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم مثلها أو أشد، ولكن قد تكون غير متوفرة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ولكنها موجودة في أمته الذين اتبعوه، ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء.

(أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه)ـ لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون آية للنبي، وعليه فنقول: من آيات موسى أنه يضرب الحجر، وإذا ضربه انفجر عيونًا، تنبع ماء من حجر يابس، فهل

=

=

كان لرسول الله ﷺ مثله؟ الجواب: كان له أعظم، فإن النبي ﷺ جيء إليه بقدح من ماء وليس مع الناس ماء إلا ما في هذه الركوة فوضع يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع يده كالعيون سبحان الله، وهذا أعظم من آية موسى، لأن آية موسى يخرج الماء من الحجر، وخروج الماء من الحجر معتاد، كما قال تعالى: {وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأَنهار} لكن لم تجر العادة أن يخرج الماء من الإناء الذي بينه وبين الأرض فاصل إذن هذه أعظم، وموسى عليه الصلاة والسلام ضرب البحر فانفلق فكان أسواقًا يابسة، وهذه لا شك آية عظيمة، وجرى لهذه الأمة أعظم من هذه، مشوا على الماء دون أن يضرب لهم طريق يبس، مشوا على الماء المائع الهين الذي يغوص فيه من يقع فيه، مشوا بدوابهم وأرجلهم ولم يغرقوا، وذلك في قصة العلاء بن الحضرمي وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، مشوا على الماء، وهذا أعظم من أن يمشوا على الأرض التي تفرق عنها الماء، وآية صالح عليه السلام هذه الناقة لها شرب ولثمود شرب، لها يوم ولهؤلاء يوم، وقد وقع مثلها لرسول الله عليه الصلاة والسلام في الهجرة، فإنه مر براعي غنم وعنده ماعز أو ضأن ليس فيها لبن، فمسح النبي ﷺ ضرعها فجعلت تبش من اللبن.

فالمهم أنه ما من نبي بعثه الله إلا أعطاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، قلنا: هذا رحمة وحكمة: رحمة بالناس من أجل أن تحملهم هذه الآيات على التصديق فينجو من عذاب الله، وحكمة، لأنه ليس من الحكمة أن يقوم إنسان من بين الناس ويقول: أنا رسول الله. حتى يؤتى آيات. يقول ﷻ: {كذبت ثمود بالنذر} النذر جمع نذير، والمراد به الآيات التي أوتيها صالح عليه الصلاة والسلام، فقالوا من جملة ما قالوا في تكذيبهم {أبشرًا منا واحدًا نتبعه} أنكروا الآيات وما كأنها أتت، يعني أنتبع بشرًا منا واحدًا، لا نقبل، وهذا النفي بمعنى الإنكار، يعني لا يمكن أن نتبع واحدًا منا {إنا إذًا لفي ضلال وسعر} يعني إنا إن اتبعناه لفي ضلال وسعر،

=

=

أي لفي جهل وفي عذاب، كأنه وعدهم بأنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من النار، فقالوا بالعكس: لو اتبعناه لضللنا واحترقنا بالسعر بالنار، عكس ما قال، وهذا من أشد المراغمة للرسل عليهم الصلاة والسلام، والمحادة لله تبارك وتعالى، {أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر} هذا أيضًا استفهام احتقار، يعني كيف يلقى الذكر عليه من بيننا، ما الذي ميزه، وكل ما ذكروا شبهات، لا دلالات، فكونه بشرًا لا يمنع أن يكون رسولًا، بل لابد أن يكون رسول البشر بشرًا، لأن الله قال: {وقالوا لولآ أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأَمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلًا} يعني لو أرسلنا ملكًا للزم أن نجلعه في صورة البشر حتى يمكن أن يختلط بالناس ويأتلف بهم، وإذا جعلنا الملك بشرًا لبسنا عليهم ما يلبسون، فعادت المسألة مختلطة.

الشبهة الثانية: أنه منا لا يتميز علينا بشيء، الثالثة: أنه واحد لم يؤيد، والله ﷻ يقول: {واضرب لهم مثلًا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون} وهؤلاء يقولون: واحد لابد يعزز بثانٍ وثالث، الرابعة: أألقي الذكر عليه من بيننا؟ يعني كيف يلقى عليه الذكر والوحي من بيننا؟ هذا لا يمكن، أربع شبهات وهم يرونها حججًا توجب رد صالح عليه الصلاة والسلام، والواقع إنها ليست بحجج، بل هي شبه وتضليل، وهكذا المبطلون في كل زمان ومكان يوردون الشبه على الحق، ولكن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبين الحق، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، ثم قالوا: {بل هو كذاب أشر} {بل} هنا لإبطال دعواه أنه حق {كذاب} صيغة مبالغة وفي نفس الوقت وصف، لأن كلمة فعال تأتي للمبالغة وتأتي للوصف، فإذا قلت: فلان نجار، يعني من النجارين، وإن لم ينجر إلا مرة واحدة، وإذا قلت فلان نجار لكثرة النجارة صارت مبالغة، فهم يرون- والعياذ بالله- أنه كذاب موصوف

=

=

بالكذب، ليس له صفة إلا الكذب، وكثير الكذب أيضًا {أشر} أي: بطر متعال، متعاظم مستكبر، مدع ما ليس له، قال الله تعالى: {سيعلمون غدًا من الكذاب الأَشر} سيعلمون غدًا أي: يوم القيامة، والسين هنا للتحقيق والتقريب، لأنك إذا قلت سيقوم زيد فهذا تأكيد وتقريب أيضًا، فإذا قال قائل: التقرير معروف أن الساعة آتية لا ريب فيها، لكن كيف التقريب؟ قلنا: إن الله يقول: {وما يدريك لعل الساعة تكون قريبًا} ومن الأمثال العابرة (كل آت قريب)ـ والذي بقي عليه ألف سنة أقرب من الذي لم يمض عليه إلا عشر دقائق، لأن الذي مضى عليه عشر دقائق لا يمكن أن يرجع، لكن المستقبل لابد أن يأتي، {إن ما توعدون لآت} وسمي يوم القيامة غدًا لأنه يأتي بعد يومه، {سيعلمون

غدًا من الكذاب الأَشر}ـ أصالح هو أم هؤلاء الكذاب الأشر، وهذا وعيد عظيم، {وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} والإنسان في غفلة عن هذا اليوم العظيم، قال الله تعالى: {بل قلوبهم في غمرة من هذا} يعني من عمل الآخرة، {في غمرة} مغطاة عن عمل الآخرة، {ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون} يعني أعمال الدنيا هم لها عاملون، وأتى بجملة اسمية يعني أنهم محققون للعمل فيها لا يتركونها ولا يفرطون فيها، وأما الآخرة فهم في غفلة منها {إنا مرسلوا الناقة فتنةً لهم} {إنا} يعني نفسه- جل وعلا- وأتى بصيغة الجمع تعظيمًا له- جل وعلا- لعظمة صفاته، وكثرة كلماته، وكثرة جنوده، فلذلك يكني عن نفسه بصيغة التعظيم، {إنا مرسلوا الناقة فتنةً لهم}ـ يعني باعثوها فتنة لهم واختبارًا، هل يؤمنون أو لا يؤمنون، فلم يؤمنوا، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد يظهر للإنسان من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، حتى إذا استكبر كان استكباره عن علم، فكان عقابه أشد وأوجع، ولهذا جعل الله الناقة فتنة، لأنها أظهرت الحق لهم، ولكن لم يقبلوه، وانتبه لهذا الاستدراج من الله ﷻ إذا يسر الله لك أسباب

=

=

المعصية، فلا تفعل، فإن الله ربما ييسر أسباب المعصية للإنسان فتنة له، أرأيتم أصحاب السبت من بني إسرائيل يسرت لهم أسباب المعصية فتنة، وهي أن الله حرَّم عليهم صيد السمك يوم السبت فكانت الحوت تأتي يوم السبت شرَّعًا على وجه الماء وبكثرة عظيمة، لكنهم ملتزمون لم يصيدوا السمك في يوم السبت، فلما طال عليهم الأمد عجزوا عن ملك أنفسهم، فرجعوا إلى طبيعتهم وهي الغدر والحيلة والمكر، فاحتالوا على صيد السمك، صاروا يجعلون شباكًا يوم الجمعة فتأتي الحيتان وتدخل في الشباك، فإذا كان يوم الأحد أخذوا الحيتان، وهذه حيلة واضحة، فقلبهم الله قردة، قال الله تعالى:

{ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين} وفي صدر هذه الأمة حرم الله على المحرمين الصيد {لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم} فبعث الله الصيد عليهم وهم محرمون تناله أيديهم ورماحهم، يعني أن الذي يمشي على الأرض يمسكونه باليد مثل الأرنب والغزال يمسكه الواحد باليد. والطائر الذي كان لا ينال إلا بالسهم لأنه بعيد، صار يطير وكأنه على الأرض، الرمح يدركه، فتنة، فهنا يسر الله لهم أسباب المعصية، لكن الصحابة رضي الله عنهم وهم خير الناس لم يأخذ أحد منهم صيدة واحدة رضي الله عنهم ، بينما بنو إسرائيل تحيلوا وخادعوا الله، أما سلف هذه الأمة، وفقنا الله لموافقتهم في الدنيا في أعمالهم وفي الآخرة في مساكنهم فإنهم لم يأخذوا.

وهذه الناقة أرسلها الله تعالى فتنة لثمود لكن ما أغنتهم {إنا مرسلوا الناقة فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر} أي: ارتقب عذابهم، أو ارتقب أفعالهم، وانظر ماذا يفعلون {واصطبر} يعني اصبر، وأصل اصطبر (اصتبر) بالتاء للمبالغة، لكن قلبت التاء طاء لعلة تصريفية اقتضتها اللغة العربية، يعني أن الله قال لرسولهم صالح عليه السلام: ارتقب هؤلاء واصطبر فالنصر قريب، {ونبئهم أن الماء قسمة بينهم}ـ أخبرهم أن

=

=

الماء قسمة بينهم كل له شرب وللناقة شرب، ولهذا قال {كل شرب محتضر}ـ يعني كل شرب يحضره من يستحقه، إما الناقة وإما هم، وبقوا على هذا لكن لم يستمروا، {فنادوا صحبهم} الذي يرونه قويًا شجاعًا، وقالوا له: هذه الناقة ضايقتنا لو أننا عقرناها لكنا نشرب كل يوم، فطلبوا منه أن يعقرها- نسأل الله العافية- وهذا الصاحب القوي الشجاع الذي يرونه أشد منهم إقدامًا، بقطع النظر عن اسمه، فبعض المفسرين سماه، لكن لا يهمنا لم يتأخر، بل بادر {فتعاطى فعقر} تعاطى تفاعل من العطاء يعني بذل نفسه وبسرعة، ويدل على السرعة الفاء في قوله {فتعاطى} من حين نادوه، وافق {فعقر}ـ عقر الناقة- نسأل الله العافية- قطع أطرافها أولًا، ثم نحرها ثانيًا، وهي من آيات الله ﷻ ومن مصالحهم- لكن نسأل الله العافية- نفوسهم لا تقبل، {فكيف كان عذابي ونذر} يقول الله ﷻ مخاطبًا الإنسان: {فكيف كان عذابي ونذر} ؟ هل وقع موقعه؟ وهل كان شديدًا؟ الجواب: نعم، كان في موقعه، وكان شديدًا، ما هذا العذاب؟ {إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدة فكانوا كهشيم المحتظر} صيح بهم- والعياذ بالله- مع الرجفة، ففي السماء أصوات، وفي الأرض رجفان، أخذتهم الرجفة والصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأنهم لم يغنوا فيها، كأنهم ما وجدوا {فكانوا كهشيم المحتظر} يعني الحضار يجعله

الإنسان لغنمه فالأعرابي في البادية يجعل على الغنم حضار من الشجر اليابس ومن عسب النخل، وما أشبه ذلك، لئلا تخرج، ولئلا تعدو عليها السباع. هذا الحضار مع طول الزمن والشمس والرياح يتفتت حتى يتلاشى، كان هؤلاء الأقوياء الأشداء المكذبين لرسولهم كانوا كهشيم المحتضر، أي كالحضار حينما يتلف، وهذا من آيات الله ﷻ وتمام قدرته وسلطانه {إنما أمره إذآ أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} فكانوا كهشيم المحتضر {ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من

=

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣).

{كَذَّبَتْ قَوْم لُوط بِالنُّذُرِ} بِالْأُمُورِ الْمُنْذِرَة لَهُمْ على لسانه.

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤).

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا} رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِالْحَصْبَاءِ وَهِيَ صِغَار الْحِجَارَة الْوَاحِد دُون مِلْء الْكَفّ فَهَلَكُوا {إِلَّا آل لُوط} وَهُمْ ابْنَتَاهُ مَعَهُ {نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} مِنْ الْأَسْحَار وَقْت الصُّبْح مِنْ يَوْم غَيْر مُعَيَّن وَلَوْ أُرِيدَ مِنْ يَوْم مُعَيَّن لَمُنِعَ مِنَ الصَّرْف لِأَنَّهُ مَعْرِفَة مَعْدُول عَنْ السَّحَر لِأَنَّ حَقّه أَنْ يُسْتَعْمَل فِي الْمَعْرِفَة بِأَلْ وَهَلْ أُرْسِلَ الْحَاصِب عَلَى آل لُوط أَوْ لَا قَوْلَانِ وَعَبَّرَ عَنْ الِاسْتِثْنَاء عَلَى الْأَوَّل بِأَنَّهُ مُتَّصِل وَعَلَى الثَّانِي بِأَنَّهُ مُنْقَطِع وَإِنْ كَانَ مِنْ الْجِنْس تَسَمُّحًا.

نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥).

{نِعْمَة} مَصْدَر أَيْ إِنْعَامًا {مِنْ عِنْدنَا كَذَلِكَ} أَيْ مِثْل ذَلِكَ الْجَزَاء {نَجْزِي مَنْ شَكَرَ} أَنْعَمْنَا وَهُوَ مُؤْمِن أَوْ مَنْ آمَنَ بِاَللهِ ورسوله وأطاعهما.

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦).

{وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ} خَوَّفَهُمْ لُوط {بَطْشَتنَا} أَخْذَتنَا إِيَّاهُمْ بِالْعَذَابِ {فَتَمَارَوْا}

=

مدكر} سبق تفسيرها، والمعنى أن الله تعالى يسر القرآن، أي يسر معانيه لمن تدبره، ويسر ألفاظه لمن حفظه، فإذا اتجهت اتجاهًا سليمًا للقرآن للحفظ يسره الله عليك، وإذا اتجهت اتجاهًا حقيقيًّا إلى التدبر وتفهم المعاني يسره الله عليك {ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر} وهل للتشويق، يشوقنا الله ﷻ إلى أن ندكر القرآن فنتعظ به، جعلنا الله ممن يتلونه حق تلاوته لفظًا ومعنى وعملًا، إنه على كل شيء قدير.

تَجَادَلُوا وَكَذَّبُوا {بِالنُّذُرِ} بِإِنْذَارِهِ.

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧).

{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفه} أَنْ يُخَلِّي بَيْنهمْ وَبَيْن الْقَوْم الَّذِينَ أَتَوْهُ فِي صُورَة الْأَضْيَاف لِيَخْبُثُوا بِهِمْ وَكَانُوا مَلَائِكَة {فَطَمَسْنَا أَعْيُنهمْ} أَعْمَيْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا بِلَا شَقّ كَبَاقِي الْوَجْه بِأَنْ صَفَقَهَا جِبْرِيل بِجَنَاحِهِ {فَذُوقُوا} فَقُلْنَا لَهُمْ ذُوقُوا {عَذَابِي وَنُذُر} إنْذَارِي وَتَخْوِيفِي أَيْ ثَمَرَته وَفَائِدَته.

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨).

{وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَة} وَقْت الصُّبْح مِنْ يَوْم غَيْر مُعَيَّن {عَذَاب مُسْتَقِرّ} دَائِم مُتَّصِل بِعَذَابِ الآخرة.

فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩).

{فذوقوا عذابي ونذر}.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠).

{ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣)} [القمر: ٣٣]

قال الطبري: يقول:"كذّبت قوم لوط بآيات الله التي أنذرهم وذكرهم بها".

قال النحاس:"أي: بالآيات التي أنذروا بها".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين".

قال قتادة:"بلغني أنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان أو ما شاء الله من ذلك".

=

=

عن جامع بن شداد أبي صخرة، قال: "كانت اللوطية في قوم لوط في النساء قبل أن تكون في الرجال بأربعين سنة".

قال عمرو بن دينار: "ما نزلوا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط".

قال وهب بن منبه:"كان سدوم الذين فيهم لوط قوم سوء قد استغنوا، عن النساء بالرجال".

عن الحسن البصري -من طريق إسماعيل- أنه سُئل: "يا أبا سعيد، أرأيت قوله: {كذبت قوم نوح المرسلين}، و {كذبت عاد المرسلين}، و {كذبت ثمود المرسلين}، وإنما أرسل إليهم رسول واحد؟ قال: إنّ الآخر جاء بما جاء الأول، فإذا كذبوا واحدًا فقد كذبوا الرسل أجمعين".

قوله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا} [القمر: ٣٤]، أي:"إنا أرسلنا عليهم حجارةً".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إنا أرسلنا عليهم حجارة".

قال النحاس:"أي حجارة تحصبهم".

قال ابن كثير:"أهلكهم الله هلاكا لم يُهلكه أمةً من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا. {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا} وهي: الحجارة".

قال الزمخشري:"{حاصِبًا}: ريحا تحصبهم بالحجارة، أي: ترميهم".

قال الشوكاني:"أي: ريحا ترميهم بالحصباء، وهي الحصى".

عن الضحاك: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا}، "يعني: صغار الحصى".

و «الحاصب»: الريح العاصف، سميت بذلك لأنها تحصب أي: ترمي بالحصباء، و «القاصف»: الريح التي تقصف الشجر فتكسره.

=

قال سعيد بن المسيّب: "سمعتُ عمر بن الخطاب يقول لأهل المدينة: حصِّبوا المسجد. أي: صُبُّوا فيه الحجارة".

قوله تعالى: {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} [القمر: ٣٤]، أي:"إلا آل لوط، نجَّيناهم من العذاب في آخر الليل".

قال الطبري: " يقول: غير آل لوط الذين صدّقوه واتبعوه على دينه فإنا نجيناهم من العذاب الذي عذّبنا به قومه الذين كذبوه، والحاصب الذي حصبناهم به بسحر".

قال ابن كثير:"أي: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمَسَسْه سوء".

قال السمعاني:"هو لوط وابنتاه، وفي الخبر: أنه وأعنزة بين يديه، وهي أربعون يسوقها، وهو آخذ بيد ابنته الكبرى بيمينه، وبيد ابنته الصغرى بيساره، وامرأته خلفه، فلما سمعوا الوصية في هلاك القوم سجد هو وابنتاه شكرا، والتفتت المرأة فأصابتها الحجارة وهلكت".

قال النحاس:"«آل الرجل»: كلّ من كان على دينه ومذهبه، كما قال جلّ وعزّ لنوح ﷺ: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٦] وهو ابنه".

قال الزمخشري:"{بِسَحَرٍ}، بقطع من الليل، وهو السدس الأخير منه".

قال السدي:"لما قال لوط: {لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد}، بسط حينئذ جبريل عليه السلام جناحيه، ففقأ أعينهم، وخرجوا يدوس بعضُهم في أدبار بعض عميانًا يقولون: "النَّجَاءَ النجاء! فإن في بيت لوط أسحرَ قوم في الأرض"! فذلك قوله: {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ} [سورة القمر: ٣٧]. وقالوا للوط: {إنا رسل ربِّك لن يصلوا إليك فأسرْ بأهْلكَ بقطع منَ اللَّيْل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها}، وَاتبع أدبارَ أهلك، يقول: سرْ بهم {وامضوا

=

حيث تؤمرون}، فأخرجهم الله إلى الشام. وقال لوط: أهلكوهم الساعة! فقالوا: إنا لم نؤمر إلا بالصُّبح، أليس الصبح بقريب؟ فلما أن كان السَّحَر، خرج لوط وأهله معه امرأته، فذلك قوله: {إِلا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} [سورة القمر: ٣٤]".

قوله تعالى: {نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا} [القمر: ٣٥]، أي:"نعمة من عندنا عليهم".

قال الطبري: " يقول: نعمة أنعمناها على لوط وآله، وكرامة أكرمناهم بها من عندنا".

قال السمعاني:"أي: إنعاما من عندنا".

قال الزجاج:"المعنى: نجيناهم لِلإنعام عليهم".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ} [القمر: ٣٥]، أي:"كما أثبنا لوطًا وآله وأنعمنا عليهم، فأنجيناهم مِن عذابنا، نُثيب مَن آمن بنا وشكرنا".

قال الطبري: " يقول: وكما أثبنا لوطًا وآله، وأنعمنا عليه، فأنجيناهم من عذابنا بطاعتهم إيانا كذلك نثيب من شكرنا على نعمتنا عليه، فأطاعنا وانتهى إلى أمرنا ونهينا من جميع خلقنا".

قال النحاس:"أي: نجزي من شكر جزاء كذلك النجاء".

قال الشوكاني:"أي: مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمتنا ولم يكفرها".

قال السمعاني:"أي: شكر نعم الله".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا} [القمر: ٣٦]، أي:"ولقد خوفهم لوط عقوبتنا الشديدة، وانتقامنا منهم بالعذاب".

قال ابن عباس: "عذابنا".

قال الطبري: يقول:"ولقد أنذر لوط قومه بطشتنا التي بطشناها قبل ذلك".

قال السمعاني:"أي: خوفهم بطشتنا بهم في الإهلاك".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه".

قال الشوكاني:"أي: أنذر لوط قومه بطشة الله بهم، وهي عذابه الشديد وعقوبته البالغة".

قوله تعالى: {فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ} [القمر: ٣٦]، أي:"فتشككوا وكذبوا بالإنذار والوعيد".

قال الطبري: "يقول: فكذّبوا بإنذاره ما أنذرهم من ذلك شكا منهم فيه".

قال السمعاني:"أي: شكوا برسالة الرسل".

قال ابن كثير:"فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به".

قال الشوكاني:"أي: شكوا في الإنذار ولم يصدقوه، وهو تفاعل من المرية، وهي الشك".

عن قتادة، قوله: " {فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ} ، لم يصدّقوه".

قال الفراء:"كذبوا بما قال لهم".

قال النحاس:"أي: كذّبوا بها شكّا".

قال مقاتل:"يقول: شكوا في العذاب بأنه غير نازل بهم الدنيا".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ} [القمر: ٣٧]، أي:"ولقد طلبوا منه أن يفعلوا الفاحشة بضيوفه من الملائكة".

قال الطبري: يقول: "ولقد راود لوطا قومه عن ضيفه الذين نزلوا به حين أراد الله إهلاكهم".

قال السمعاني:"أي: طلبوا من لوط أن يسلم إليهم أضيافه".

قال الشوكاني:"أي: أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الملائكة ليفجروا بهم كما هو دأبهم".

قال ابن كثير:"وذلك ليلة ورَدَ عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل في

=

صورة شباب مُرد حِسان محنَةً من الله بهم، فأضافهم لوط -عليه السلام- وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: {هَؤُلاءِ بَنَاتِي} يعني: نساءهم، {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [الحجر: ٧١] {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ}، أي: ليس لنا فيهن أَرَبٌ، {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} [هود: ٧٩]".

قوله تعالى: {فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ} [القمر: ٣٧]، أي:"فطمسنا أعينهم فلم يُبصروا شيئًا".

قال مقاتل:"فلطمهم جبريل بجناحه فذهبت أبصارهم".

قال الطبري: "يقول: فطمسنا على أعينهم حتى صيرناها كسائر الوجه لا يرى لها شقّ، فلم يبصروا ضيفه. والعرب تقول: قد طمست الريح الأعلام: إذا دفنتها بما تسفي عليها من التراب، كما قال كعب بن زُهَير:

مِنْ كُلّ نَضَّاخَةِ الذّفْرَى إذَا أعْتَرَقَتْ... عُرْضَتها طامِسُ الأعْلام مَجْهُولُ

يعني بقوله: {طامِسُ الأعْلامِ}: مندفن الأعلام".

قال الشوكاني:"أي: صيرنا أعينهم ممسوحة لا يرى لها شق، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: أذهب الله نور أبصارهم مع بقاء الأعين على صورتها".

قال ابن كثير:"فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح".

قال ابن عباس:"عمى الله عليهم الملائكة حين دخلوا على لوط".

=

قال قتادة:"وذُكر لنا أن جبريل عليه السلام استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أتوا لوطا، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليه، فصفقهم بجناحه، وتركهم عميا يتردّدون".
قال الضحاك:"جاءت الملائكة في صور الرجال، وكذلك كانت تجيء، فرآهم قوم لوط حين دخلوا القرية. وقيل: إنهم نزلوا بلوط، فأقبلوا إليهم يريدونهم، فتلقَّاهم لوط يناشدهم الله أن لا يخزوه في ضيفه، فأبوا عليه وجاءوا ليدخلوا عليه، فقالت الرسل للوط خلّ بينهم وبين الدخول، فإنا رسل ربك، لن يصلوا إليك، فدخلوا البيت، وطمس الله على أبصارهم، فلم يروهم؛ وقالوا: قد رأيناهم حين دخلوا البيت، فأين ذهبوا؟ فلم يروهم ورجعوا".
عن ابن زيد في قوله تعالى:"{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ}، قال: هؤلاء قوم لوط حين راودوه عن ضيفه، طمس الله أعينهم، فكان ينهاهم عن عملهم الخبيث الذي كانوا يعملون، فقالوا: إنا لا نترك عملنا فإياك أن تُنزل أحدا أو تُضيفه، أو تدعه ينزل عليك، فإنا لا نتركه ولا نترك عملنا. قال: فلما جاءه المرسلون، خرجت امرأته الشقية من الشقّ، فأتتهم فدعتهم، وقالت لهم: تعالوا فإنه قد جاء قوم لم أر قطّ أحسن وجوها منهم، ولا أحسن ثيابًا، ولا أطيب أرواحا منهم، قال: فجاءوه يهرعون إليه، فقال: إن هؤلاء ضيفي، فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي، قالوا: أولم ننهك عن العالمين؟ أليس قد تقدمنا إليك وأعذرنا فيما بيننا بينك؟ قال: هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم فقال له جبريل عليه السلام: ما يهولك من هؤلاء؟ قال: أما ترى ما يريدون؟ فقال: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك، لتصنعن هذا الأمر سرّا، وليكوننّ فيه بلاء؛ قال: فنشر جبريل عليه السلام جناحا من أجنحته، فاختلس به أبصارهم، فطمس أعينهم، فجعلوا يجول بعضهم في بعض، فذلك قول الله: {فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}".

=

=

قوله تعالى: {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: ٣٧]، أي:"فقيل لهم: ذوقوا عذابي وإنذاري الذي أنذركم به لوط عليه السلام".

قال الطبري:"فذوقوا معشر قوم لوط من سدوم، عذابي الذي حلّ بكم، وإنذاري الذي أنذرت به غيركم من الأمم من النكال والمثلات".

قال السمعاني:"أي: فذوقوا عذابي وعاقبة إنذاري".

قال الزمخشري: أي:"فقلت لهم: ذوقوا. على ألسنة الملائكة".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ} [القمر: ٣٩]، أي:"ولقد جاءهم وقت الصباح عذاب دائم استقر فيهم حتى يُفضي بهم إلى عذاب الآخرة".

قال السمعاني:"أي: نزل بهم العذاب واستقر بكرة. ومعنى الاستقرار هو هلاكهم بذلك العذاب".

قال الشوكاني:"أي: أتاهم صباحا عذاب مستقر بهم نازل عليهم لا يفارقهم ولا ينفك عنهم".

قال الطبري: يقول:"ولقد صُبِّحَ قوْمُ لوط عند طلوع الفجر {عَذَابِ}، وذلك قلب الأرض بهم، وتصيير أعلاها أسفلها بهم، ثم إتباعهم بحجارة من سجيل منضود، واستقرّ ذلك العذاب فيهم إلى يوم القيامة حتى يوافوا عذاب الله الأكبر في جهنم".

قال الفراء:"{عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ}، يقول: عذاب حق".

قال ابن كثير: {عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ}، " أي: لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه".

عن سفيان: " {بُكْرَةً}، قال: عند طلوع الفجر".

عن سفيان: " {وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ}، قال: حجارة رموا بها".

عن سفيان: " {مُسْتَقِرّ}، استقرّ".

قال مقاتل:"يقول: استقر بهم العذاب بكرة".

قال قتادة:"يقول: صبحهم عذاب مستقرّ، استقرّ بهم إلى نار جهنم".

=

=

قال الحسن:"عذاب في الدنيا استقرّ بهم في الآخرة".

قال ابن زيد:"ثم صبحهم بعد هذا، -يعني: بعد أن طمس الله أعينهم-، فهم من ذلك العذاب إلى يوم القيامة، قال: وكل قومه كانوا كذلك، ألا تسمع قوله حين يقول: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}".

قوله تعالى: {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} [القمر: ٣٩]، أي:"فقيل لهم: ذوقوا عذابي الذي أنزلته بكم؛ لكفركم وتكذيبكم، وإنذاري الذي أنذركم به لوط عليه السلام".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لهم: فذوقوا معشر قوم لوط عذابي الذي أحللته بكم، بكفركم بالله وتكذيبكم رسوله، وإنذاري بكم الأمم سواكم بما أنزلته بكم من العقاب".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ} [القمر: ٤٠]، أي:"ولقد سَهَّلْنا لفظ القرآن للتلاوة والحفظ، ومعانيه للفهم والتدبر لمن أراد أن يتذكر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد سهَّلنا القرآن للذكر لمن أراد التذكر به".

قوله تعالى: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ٤٠]، أي:"مِن متعظ به؟".

قال الطبري: يقول:"فهل من متعظ ومعتبر به فينزجر به عما نهاه الله عنه إلى ما أمره به وأذن له فيه".

قال الشوكاني:"ولعل وجه تكرير تيسير القرآن للذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة، لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها".

قال الزمخشري: " فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله: {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} ؟

قلت: فائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبا من أنباء الأوّلين ادكارا واتعاظا، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم

=

=

الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ} عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن، وقوله: {فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} عند كل آية أوردها في سورة «والمرسلات»، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسية في كل أوان".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كذبت قوم لوط} قوم لوط هم أناس كفروا بالله ﷻ وأشركوا به، وكان مما اختصوا به من المعاصي هذه الفعلة القبيحة الشنيعة وهي اللواط، أي إتيان الذكر، وحذرهم نبيهم من هذا وقال لهم {أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون} ولكنهم- والعياذ بالله- استمروا على هذا حتى جاءهم العذاب {بالنذر} النذر: جمع نذير، وهي الكلمات التي أنذرهم بها لوط عليه الصلاة والسلام، وجمعها يدل على أنه كان يكرر عليهم هذا، ولكنهم أبوا وأصروا على هذا الفعل، فبين الله عقوبتهم بقوله: {إنا أرسلنا عليهم حاصبًا إلا آل لوط نجيناهم بسحر} {حاصبًا} أي: شيئًا يحصبهم من السماء، أمطر الله عليهم حجارة من سجيل، فهدمت بيوتهم حتى كان عاليها سافلها، لأن البناء إذا تهدم صار أعلاه أسفله {إلا آل لوط}ـ آل لوط هم أهل بيته، إلا زوجته كما قال تعالى: {فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين} وانظر نبي يبعث إلى قومه ولم يتبعه إلا آل بيته إلا امرأته أيضًا فكانت كافرة ومع ذلك فهو صابر حتى أذن له بالخروج {نجيناهم بسحر} أي: في السحر بالصباح، وذلك أن هؤلاء القوم أخذهم العذاب صباحًا، كما ابتدأ عذاب عاد بالصباح، سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، لأنه ابتدأ بالصباح فأخذهم العذاب- والعياذ بالله- في الصباح، فأهلكهم الله {نعمةً من عندنا}ـ أي: أنعمنا على آل لوط نعمة من عند الله ﷻ من وجهين:

الوجه الأول: أن الله أنجاهم.

=

=

والوجه الثاني: أن الله أهلك عدوهم، لأن إهلاك العدو من نعمة الله، فصارت نعمة الله على آل لوط بالنجاة وإهلاك العدو {كذلك نجزي من شكر} أي: مثل هذا الجزاء، وهو الإنجاء والنعمة {نجزي من شكر} نعمة الله، وشكر نعمة الله تعالى هي القيام بطاعته، وليست مجرد قول الإنسان: أشكر الله، بل لابد من القيام بالطاعة، ولهذا من قال أشكر الله، وهو مقيم على معاصيه فإنه ليس بشاكر، بل هو كافر بالنعمة مستهزئ بالله ﷻ، إذ إن مقتضى النعمة أن يشكر الله، ولكنه عكس الأمر، قال الله تعالى: {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار} فكل من شكر الله فإن الله تعالى ينجيه ويهلك عدوه، {ولقد أنذرهم بطشتنا} يعني أن لوطًا عليه الصلاة والسلام أنذر قومه البطشة، وهي الأخذ بالقوة {فتماروا بالنذر} أي: تشككوا فيه ولم يؤمنوا به، {ولقد راودوه عن ضيفه}ـ أي: راودوا لوطًا عن ضيفه الذي جاء إليه من الملائكة، وكان الله تعالى قد بعث إليه الملائكة على صورة شباب مُرد، ذوي جمال وهيئة، امتحانًا من الله ﷻ، فلما سمع قوم لوط بهؤلاء الضيف أتوا يهرعون إليه يسرعون، يريدون هؤلاء الضيف، ليفعلوا بهم الفاحشة- والعياذ بالله- {فطمسنا أعينهم} أي: فطمس الله أعينهم، أما كيف طمس أعينهم هل جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه أو غير ذلك؟ الله أعلم، إنما علينا أن نؤمن بأن الله تعالى طمس أعينهم، حتى أصبحوا لا يبصرون، {فذوقوا عذابي ونذر} الأمر هنا للامتهان، أو إنه أمر كوني، يعني أن الله أمرهم أمر إهانة، أو أمرًا كونيًا أن يذوقوا العذاب، ومثل هذا قول الله تبارك وتعالى عن صاحب الجحيم {ذق إنك أنت العزيز الكريم} فإن هذا الأمر أمر إهانة بلا شك وليس أمر إكرام ولا أمر إباحة، {ولقد صبحهم بكرةً عذاب

مستقر} يعني أن العذاب صبحهم أتاهم في الصباح على حين قيامهم من النوم،

=

=

واستقبالهم يومهم وهم فرحون، كل واحد منهم يفكر فيما يفعل هذا اليوم، فإذا بالعذاب يقع بهم، نسأل الله العافية {فذوقوا عذابي ونذر} {ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر} من العبر في هذه الآية أن هؤلاء الذين قلب الله فطرتهم وطبيعتهم قلب الله عليهم البنيان برميهم بحجارة من سجيل، فتهدم البنيان حتى صار أعلاه أسفله، وقيل: إن الله تعالى قلب بهم ديارهم اقتلعها من أساسها حتى رفعها ثم قلبها، فإن صح هذا فالله على كل شيء قدير، وإن لم يصح فليس لنا إلا أن نأخذ بظاهر القرآن، أنهم أمطروا بحجارة من سجيل، فتهدم البناء عليهم.

وأخذ أهل العلم من ذلك أن اللوطي يقتل بكل حال، الفاعل والمفعول به، وهذا هو القول الراجح أن اللواط يجب فيه القتل على كل حال وليس كالزنا، فالزنا يفرق فيه بين المتزوج وغير المتزوج، أما اللواط فيقتل فيه على كل حال مادام الفاعل والمفعول به بالغين عاقلين، فإنه يجب قتلهما بكل حال إلا المكره، فليس عليه شيء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على قتل الفاعل والمفعول به، إلا أنهم اختلفوا كيف يقتلان، فقال بعضهم: يقتلان بالرجم بالحجارة حتى يموتا، وقال بعضهم: يقتلان بأن يلقيا من أعلى مكان في البلد ويتبعان بالحجارة، وحرق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اللوطي بالنار، وكذلك خالد بن الوليد وأحد خلفاء بني أمية حرقوهم بالنار لعظم جرمهم- والعياذ بالله -، ولأن هذه الفاحشة إذا انتشرت في قوم صار الرجال نساء، وصار الواحد منهم يتتبع فحول الرجال حتى يفعلوا به الفاحشة- والعياذ بالله- وانقلبت الأوضاع وضاع النسل بمعنى أن الناس ينصرفون إلى الذكور، ويدعون النساء اللاتي هن حرث للرجال، والتحرز منه صعب، لأنه لا يمكن أن نجد اثنين ونقول: كيف صحبت هذا؟ لكن لو وجدنا رجلًا وامرأة يمكن التحرز منهما، فلذلك كان دواء المجتمع من هذه الفعلة القبيحة الشنيعة أن يقتل الفاعل والمفعول به، وقد جاء في ذلك حديث عن

=

وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١).

{وَلَقَدْ جَاءَ آل فِرْعَوْن} قَوْمه مَعَهُ {النُّذُر} الْإِنْذَار عَلَى لِسَان مُوسَى وَهَارُون فَلَمْ يُؤْمِنُوا بل.

كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢).

{كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلّهَا} التِّسْع الَّتِي أُوتِيَهَا مُوسَى {فَأَخَذْنَاهُمْ} بِالْعَذَابِ {أَخْذ عَزِيز} قَوِيّ {مُقْتَدِر} قَادِر لَا يُعْجِزهُ شَيْء.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣).

{أَكُفَّاركُمْ} يَا قُرَيْش {خَيْر مِنْ أُولَئِكُمْ} الْمَذْكُورِينَ مِنْ قَوْم نُوح إلَى فِرْعَوْن فَلَمْ يُعْذَرُوا {أَمْ لَكُمْ} يَا كُفَّار قُرَيْش {بَرَاءَة} مِنْ الْعَذَاب {فِي الزُّبُر} الْكُتُب وَالِاسْتِفْهَام فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَى النَّفْي أَيْ لَيْسَ الْأَمْر كَذَلِكَ.

أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤).

=

النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»

ولهذا يجب علينا أن نحترز من هذا غاية الاحتراز، وأن نتفقد أبناءنا أين ذهبوا ومن أين جاءوا، ومَن أصدقاءهم، وهل هم على الاستقامة أو لا؛ حتى نحمي المجتمع من هذا العمل الخبيث، ثم قال ﷻ: {ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر} يسر الله ﷻ القرآن للذكر لحفظه ولفهم معناه، وهذا الخبر يراد به الحث على حفظ القرآن وعلى تدبر معناه؛ لأنه ميسر سهل، وأنت جرب تدبَّر في آيات الله ﷻ لتفهم معناها، وانظر كيف ييسر الله ﷻ لك فهمها حتى تفهم منها ما لا يفهمه كثير من الناس، ولهذا قال {فهل من مدكر} ؟ والاستفهام هنا للتشويق، والمعنى هل أحد يدكر ويتعظ بما في القرآن الكريم.

{أَمْ يَقُولُونَ} أَيْ كُفَّار قُرَيْش {نَحْنُ جَمِيع} جمع {منتصر} على محمد وَلَمَّا قَالَ أَبُو جَهْل يَوْم بَدْر إنَّا جمع منتصر نزل.

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥).

{سيهزم الجمع ويولون الدبر} فَهُزِمُوا بِبَدْرٍ وَنُصِرَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْهِمْ.

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦).

{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ} بِالْعَذَابِ {وَالسَّاعَة} أَيْ عَذَابهَا {أَدْهَى} أَعْظَم بَلِيَّة {وَأَمَرّ} أَشَدّ مَرَارَة مِنْ عذاب الدنيا.

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧).

{إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَال} هَلَاك بِالْقَتْلِ فِي الدُّنْيَا {وَسُعُر} نَار مُسَعَّرَة بِالتَّشْدِيدِ أَيْ مُهَيَّجَة في الآخرة.

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨).

{يَوْم يُسْحَبُونَ فِي النَّار عَلَى وُجُوههمْ} فِي الْآخِرَة وَيُقَال لَهُمْ {ذُوقُوا مَسَّ سَقَر} إصَابَة جهنم لكم[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان ذلك يوم بدر، قال: قالوا: نحن جميع منتصر، قال: فنزلت هذه الآية.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٣٥٧ رقم ١٨٥٠٩)، وأحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٤٩ رقم ٤١٢٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٦٤) من طريق داود بن أبي هند عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به.

وهذا سند حسن؛ ورواية علي عن ابن عباس محمولة على الاتصال؛ كما تقدم =

=

مرارًا.

وعن أبي هريرة ﵁؛ قال: أنزل الله جل جلاله على نبيه ﷺ بمكة: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)}؛ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! أي جمع -وذلك قبل بدر-؟، قال: فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش؛ نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتًا بالسيف يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)} وكان ليوم بدر؛ فأنزل الله ﷻ فيهم: {حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ} [المؤمنون: ٦٤]، الآية، وأنزل الله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا} [إبراهيم: ٢٨] الآية، ورماهم رسول الله ﷺ؛ فوسعتهم الرمية، وملأت أعينهم وأفواههم؛ حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه رماد؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧]، وأنزل الله في إبليس: {فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، [الأنفال: ٤٨]، وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: غر هؤلاء دينهم؛ فأنزل الله: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ} [الأنفال:٤٩].

أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٩/ ٥٨ رقم ٩١٢١) من طريق إبراهيم بن المنذر نا عبد العزيز بن عمران ثني محمد بن هلال عن أبيه عن أبي هريرة به.

قال الطبراني عقبه: "لا يروى هذا الحديث عن أبي هريرة عن عمر إلا بهذا الإسناد، تفرد به إبراهيم بن المنذر". وهذا سند ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

الأولى: عبد العزيز هذا؛ متروك الحديث، احترقت كتبه، فحدث من حفظه؛ فاشتد غلطه؛ كما في "التقريب" (١/ ٥١١).

الثانية: هلال -والد محمد وابن أبي هلال المدني؛ قال أحمد: "لا أعرفه"، وقال الذهبي: "لا يعرف"، ولم يوثقه إلا ابن حبان، وفي "التقريب": "مقبول".

=

=

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٧٨): "رواه الطبراني في "الأوسط"؛ وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف".

وعن يوسف بن ماهك؛ قال؛ إني عند عائشة؛ إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين! أريني مصحفك، قالت: لِمَ، قال: لعلّي أؤلف القرآن عليه؛ فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيّهُ قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام؛ نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (٤٦)}، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف؛ فأملت عليه آي السور.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٨٧٦، ٤٩٩٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر؛ فنزلت: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)}.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ٢٠٤٦، ٢٦٥٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: ما نزلت هذه الآية: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)} إلا في أهل القدر.

أخرجه البخاري في "خلق أفعال العباد" (٤٥/ ١٣٦)، والبزار في "مسنده" (٣/ ٧٢، ٧٣ رقم ٢٢٦٥ - "كشف الأستار") من طريق يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به.

=

=

وفي إسناده يونس بن الحارث ضعيف؛ كما في "التقريب".

والحديث قال عنه الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٧): "رواه البزار؛ وفيه يونس بن الحارث؛ وثقه ابن معين وابن حبان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات".

وقال الحافظ ابن حجر في "مختصر زوائد البزار" (٢/ ١١٠ رقم ١٥١٣): "إسناده حسن!".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٣) وزاد نسبته لابن المنذر، وقال: "بسند جيد".

وكذا قال العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٤/ ٥٣).

وعن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)}؛ قال: "نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله".

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٨٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ٢٧٦ رقم ٥٣١٦)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٩)، وابن شاهين؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٣) -ومن طريقه الخطيب في "تالي التلخيص" (١/ ١٥٠ رقم ٦٥)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٣/ ١٢٣١ رقم ٣٠٨٦)، وابن منده في "معرفة الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٢/ ١٠٣)، و"الإصابة" (١/ ٥٤٨، ٥٤٩)- ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٩/ ١٠) -من طريق سعيد بن عمرو بن جعدة المخزومي وخالد بن سلمة عن عمرو بن زرارة عن أبيه به.

وسنده ضعيف؛ لجهالة عمرو بن زرارة، وبه أعله شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ في "الصحيحة" (٤/ ٥٢، ٥٣ رقم ١٥٣٩).

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٧): "وفيه من لم أعرفه".

=

=

وعن عطاء بن أبي رباح؛ قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع في ماء زمزم قد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر؛ فقال: أو قد فعلوها؟ فقلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)} أولئك شرار هذه الأمة؛ لا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن أريتني أحدًا منهم، فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، وابن بطة في "الإبانة" (٢/ ١٢١، ١٢٢ رقم ١٥٥٠، ص ١٦٢ رقم ١٦٢٨ - القدر)، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (٣/ ٥٤١ رقم ٩٤٨)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (١٠/ ٢٠٥) من طريق مروان بن شجاع المروزي عن ابن جريج عن عطاء به.

وهذا حسن رجاله ثقات؛ غير مروان؛ فيه كلام، وفي "التقريب": "صدوق له أوهام".

وأما ما يخشى من عنعنة ابن جريج؛ فإن عنعنته عن عطاء خاصة محمولة على الاتصال.

وأخرج الطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٧٩، ٨٠ رقم ١١١٦٣) من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس؛ قال: نزلت هذه الآية في القدرية.

وعبد الوهاب؛ متروك الحديث؛ كما في "التقريب"؛ فالحديث ضعيف جدًا.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٧): "وفيه عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف".

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ، فقالوا: الآجال والأرزاق بقدر الأعمال؛ فأنزل الله ﷻ: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ

=

=

بِقَدَرٍ (٤٩)}

أخرجه ابن عدي في "الكامل" (٧/ ٢٥٨٣) -ومن طريقه البيهقي في "القضاء والقدر" (ص ٣٢٣، ٣٢٤)- من طريق هذيل بن بلال المدائني ثنا عمر بن واقد بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: هذيل هذا؛ ضعيف، وانظر: "لسان الميزان" (٦/ ١٩٢).

الثانية: عمر بن واقد لم نجد له ترجمة.

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: ما نزلت هذه الآية إلا تعييرًا لأهل القدر: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)}.

أخرجه سفيان بن عيينة في "جامعه"؛ كما في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٤) -ومن طريقه الفريابي في "القدر" (١٦٩ رقم ٢٤٦)، والإمام أحمد في "السُّنة" (٢/ ٤٢٧ رقم ٩٤١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٦٥)، والآجُريُّ في "الشريعة" (ص ١٦٢، ٢٢٢)، وابن بطة في "الإبانة" (رقم ١٥٣٥)، واللالكائي في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (٤/ ٦٨٤ رقم ١٢٦٠) -عن سالم بن أبي حفصة وعاصم بن محمد عن محمد به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وأخرجه الفريابي (ص ٢٢٦ رقم ٤٠٩)، والإمام أحمد (٢/ ٤١٩ رقم ٩١٩)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ٦٥) من طريقين عن خصيف الجزري عن محمد بن كعب: نزلت هذه الآية في أهل القدر، هذا لفظ أحمد.

ولفظ الباقين: لما تكلم الناس في القدر؛ نظرت، فإذا هذه الآية أنزلت فيهم.

وهذا مع إرساله ضعيف؛ لأجل خصيف.

وأخرجه البيهقي في "القدر" (ص ٥٥٣)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٧٠) من طريق بقية بن الوليد ثنا ابن ثوبان عن بكر بن أسيد عن أبيه عن محمد بنحوه. وسنده ضعيف

=

=

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن هذه الآية نزلت في القدرية: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)}".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٣) ونسبه لابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر، وقال: "بسند ضعيف".

هو عند ابن عدي في "الكامل" (٥/ ٢٠١٧)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٩) من طريق عفير بن معدان عن سليم بن عامر؛ قال: أشهد بالله لسمعت أبا أمامة يقول: (فذكره).

وهذا سند ضعيف جدًا؛ لأجل عفير.

قال الحافظ ابن طاهر المقدسي في "ذخيرة الحفاظ" (٢/ ٩٨٥): "وعفير ليس بشيء في الحديث".

وعن عطاء؛ قال: جاء أسقف نجران إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد! تزعم أن المعاصي بقدر، والبحار بقدر، والسماء بقدر، وهذه الأمور تجري بقدر، فأما المعاصي؛ فلا؛ فقال رسول الله ﷺ: "أنتما خصماء الله"؛ فأنزل الله -تعالى-: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)} إلى قوله {خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٦٩) من طريق علي بن محمد الطنافسي ثنا عبيد الله بن موسى ثنا بحر السقاء عن شيخ من قريش عن عطاء به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الإعضال.

الثانية: عطاء؛ صدوق كثير الخطأ يرسل ويدلس؛ كما في "التقريب".

الثالثة: جهالة الشيخ القرشي.

الرابعة: بحر السّقاء؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن سيار أبي الحكم؛ قال: بلغنا أن وقد نجران قالوا: أما الأرزاق والآجال؛

=

=

فبقدر، وأما الأعمال؛ فليست بقدر؛ فأنزل الله ﷻ فيهم هذه الآية: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)} إلى آخر الآيات.

أخرجه الفريابي في "القدر" (ص ١٧٠ رقم ٢٤٩)، والآجريُّ في "الشريعة" (ص ٢٠٥)، وابن بطة في "الإبانة" (رقم ١٨٢٦) بسند صحيح إلى معتمر بن سليمان ثنا أبو مخزوم عن سيار به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: أبو مخزوم؛ لم نظفر بترجمته.

الثانية: الإعضال.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء العاقب والسيد، وكانا رأسي النصارى بنجران، فتكلما بين يدي النبي ﷺ بكلام شديد في القدر، والنبي ﷺ ساكت ما يجيبهما بشيء حتى انصرفا؛ فأنزل الله ﷻ: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} الذين كفروا وكذبوا بالله قبلكم: {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}: في الكتاب الأول، إلى قوله: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ} الذين كفروا وكذبوا بالقدر قبلكم {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)} في أم الكتاب {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)}؛ يعني: مكتوب.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٥) ونسبه لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية، أنزلت فيهم آية من كتاب الله: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)} إلى آخر الآية".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٥) ونسبه لابن مردويه.

وعن مجاهد؛ قال: نزلت هذه الآية في أهل التكذيب، إلى آخر الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٥) ونسبه لعبد بن حميد.

وقال مجاهد: قلت لابن عباس: ما تقول فيمن يكذب بالقدر؟ قال: اجمع بيني

=

=
وبينه، قلت: ما تصنع به؟ قال: أخنقه حتى أقتله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٥) ونسبه لعبد بن حميد.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: المكذبون بالقدر مجرموا هذه الأمة، وفيهم أنزلت هذه الآية: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧)} إلى قوله: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٦٨٥) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١)} [القمر: ٤١]

قال الطبري: يقول:"ولقد جاء أتباع فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة بكفرهم بنا وبرسولنا موسى.

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة".

قال مقاتل يعني بـ «آل فرعون»: القبط، وكان فرعون قبطيا".

قال النحاس: {آلَ فِرْعَوْن}، " أي: أهل دينه والقائلين بقوله".

قال الزمخشري:"{النُّذُرُ}: موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون، أو جمع: «نذير»، وهو الإنذار".

قوله تعالى: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا} [القمر: ٤٢]، أي:"كذَّبوا بأدلتنا كلها الدالة على وحدانيتنا ونبوة أنبيائنا".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: كذّب آل فرعون بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحججنا التي أتتهم بأنه لا إله إلا الله وحده كلها".

قال الزمخشري:"{بِآيَاتِنا كُلِّها}، بالآيات التسع".

قال مقاتل:"يعني بـ «الآيات التسع»: اليد، والعصا، والطمس، والسنين،
=

=

والطوفان، والجراد، والقمل والضفادع، والدم".

قوله تعالى: {فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٤٢]، أي:"فعاقبناهم بالعذاب عقوبة عزيز لا يغالَب، مقتدر على ما يشاء".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبة شديد لا يغلب، مقتدر على ما يشاء، غير عاجز ولا ضعيف".

قال الزمخشري:"{أَخْذَ عَزِيزٍ}، لا يغالب، {مُقْتَدِرٍ}، لا يعجزه شيء".

قال ابن كثير:"أي: فأبادهم الله ولم يُبق منهم مخبرًا ولا عينًا ولا أثرًا".

قال قتادة:"يقول: عزيز في نقمته إذا انتقم".

قوله تعالى: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} [القمر: ٤٣]، أي:"أكفاركم -يا معشر قريش- خير مِنَ الذين تقدَّم ذكرهم ممن هلكوا بسبب تكذيبهم".

قال الفراء:"يقول: أكفاركم يأهل مكة خير من هؤلاء الذين أصابهم العذاب".

قال ابن قتيبة:"أي: يا أهل مكةَ! أنتم خير من أولئك الذين أصابهم العذاب؟!".

قال ابن كثير:"أي: أيها المشركون من كفار قريش {خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} يعني: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئك؟".

قال مقاتل:"يعني: أكفار أمة محمد- ﷺ- خير من كفار الأمم الخالية الذين ذكرهم في هذه السورة يقول أليس أهلكتهم بالعذاب بتكذيبهم الرسل، فلستم خيرا منهم إن كذبتم محمدا- ﷺ- أن يهلككم بالعذاب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لكفار قريش الذين أخبر الله عنهم أنهم {وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} أكفاركم معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نقمتي من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، فهم يأملون أن ينجوا من عذابي، ونقمي على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي. يقول: إنما أنتم

=

=

في كفركم بالله وتكذيبهم رسوله، كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم، وعقوبة الله بكم نازلة على كفركم به، كالذي نزل بهم إن لم تتوبوا وتنيبوا".

عن قتادة، قوله: " {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ}، أي: من مضى".

عن الربيع بن أنس: " {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ}، قال: كفار هذه الأمة".

قال عكرمة:"يقول: أكفاركم يا معشر قريش خير من أولئكم الذين مضوا".

قال ابن زيد:"يقول: أكفاركم خير من الكفار الذين عذبناهم على معاصي الله، وهؤلاء الكفار خير من أولئك. وقال: {أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ} استنفاها".

قال ابن عباس:"يقول: ليس كفاركم خيرا من قوم نوح وقوم لوط".

قوله تعالى: {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ} [القمر: ٤٣]، أي:"أم لكم براءة مِن عقاب الله في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة؟".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: أم لكم براءة من عقاب الله معشر قريش، أن تصيبكم بكفركم بما جاءكم به الوحي من الله في الزبر، وهي الكتب".

قال ابن كثير:"أي: أم معكم من الله براءة ألا ينالكم عذاب ولا نكال؟".

قال الفراء:"يقول: أم عندكم براءة من العذاب {فِي الزُّبُرِ}".

قال مقاتل:"يقول: ألكم براءة من العذاب في الكتاب أنه لن يصيبكم من العذاب ما أصاب الأمم الخالية؟، فعذبهم الله ببدر بالقتل".

قال ابن قتيبة:"{الزُّبُرِ}، يعني: الكتب المتقدمة. واحدها: زَبُور".

عن الضحاك، قوله: " {الزُّبُرِ}، يقول: الكتب".

عن عكرمة: " {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}، يعني: في الكتب".

عن ابن زيد، قوله: " {أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}، في كتاب الله براءة مما تخافون".

قوله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤)} [القمر: ٤٤]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: أيقول هؤلاء الكفار من قريش: نحن جميع

=

=

منتصر ممن قصدنا بسوء ومكروه، وأراد حربنا وتفريق جمعنا".

قال الثعلبي:"أي جماعة لا ترام ولا تضام، ولا يقصدنا أحد بسوء، ولا يريد حربنا وتفريق جمعنا إلا انتقمنا منهم، وكان حقّه: منتصرون فتبع رؤوس الآي".

قال ابن كثير:"أي: يعتقدون أنهم مناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء".

قال الزجاج:"المعنى: بل {أَيَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ}، فيدلون بقوة واجتماع عليك".

قال ابن عباس: "يريد جماعة ينصر بعضنا بعضًا".

وقال الكلبي: "نحن جميع أمرنا ننتصر من أعدائنا".

وفي التفسير: "أن أبا جهل هو القائل: {نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ}".

قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)} [القمر: ٤٥]

عن ابن عباس: " {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}، قال: كان ذلك يوم بدر. قال: قالوا نحن جمع منتصر، قال: فنزلت هذه الآية".

قوله تعالى: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ} [القمر: ٤٥]، أي:"سيهزم جمع كفار «مكة» أمام المؤمنين".

قال الطبري: " فقال الله جلّ ثناؤه: سيهزم جمع كفار قريش".

قال مقاتل:"يعني: جمع أهل بدر".

قال ابن كثير:"أي: سيتفرق شملهم ويغلبون".

قال الفراء:"وهذا يوم بدر".

قوله تعالى: {وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: ٤٥]، أي:"ويولُّون الأدبار".

قال الطبري: " يقول: ويولون أدبارهم المؤمنين بالله عن انهزامهم عنه".

قال مقاتل:"يعني: الأدبار لا يلوون على شيء، وقتل عبد الله بن مسعود أبا جهل

=

=

بن هشام بسيف أبي جهل، وأخبر النبي- ﷺ- أنه رأى في جسده مثل لهب النار، قال ذلك ضرب الملائكة، وأجهز على أبي جهل عوف ومعوذ ابنا عفراء".

عن قتادة، قوله: " {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ}... الآية ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: يوم بدر".

عن ابن عباس:"أن النبي -ﷺ- قال- وهو في قبة له يوم بدر -: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد بعد اليوم أبدا». فأخذ أبو بكر، رضي الله عنه، بيده وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}".

عن عكرِمة، قوله: " {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ}، يعني: جمع بدر، {وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}".

عن الربيع بن أنس: " {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}، قال: يوم بدر، هزموا وولوا الدبر".

قال ابن زيد:"هذا يوم بدر".

قوله تعالى: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ} [القمر: ٤٦]، أي:"والساعة موعدهم الذي يُجازون فيه بما يستحقون".

قال الطبري:"يقول: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أنهم لا يبعثون بعد مماتهم {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ}، للبعث والعقاب".

قال مقاتل:"أوعدهم، فقال: {بَلِ السَّاعَةُ}، يعني: يوم القيامة {مَوْعِدُهُمْ} بعد القتل".

قوله تعالى: {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، أي:"والساعة أعظم وأقسى مما لحقهم من العذاب يوم «بدر»".

عن يوسف بن ماهك؛ قال؛ إني عند عائشة؛ إذ جاءها عراقي، فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك! وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين! أريني مصحفك، قالت: لم، قال: لعلي أؤلف القرآن عليه؛ فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه

=

قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام؛ نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر؛ لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا؛ لقالوا: لا ندع الزنا أبدا، لقد نزل بمكة على محمد- ﷺ- وإني لجارية ألعب: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر (٤٦)}، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف؛ فأملت عليه آي السور.

قال الطبري: يقول: " {وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} عليهم من الهزيمة التي يهزمونها عند التقائهم مع المؤمنين ببدر".

قال الفراء:"وهذا يوم بدر".

قال مقاتل:"يقول: أشد عليهم من عذاب يوم بدر، {وَأَمَرُّ}، من المرارة".

عن الحسن:"{والسّاعَةُ أدْهى} مِن تلك الأخذات التي أهلك بها الأمم السالفة، {وأَمَرُّ}، أي: وأشدُّ".

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} [القمر: ٤٧]، أي:"إن المجرمين في تيه عن الحق وعناء وعذاب".

قال الطبري: يقول:"إن المجرمين في ذهاب عن الحقّ، وأخذ على غير هدى، وفي احتراق من شدّة العناء والنصب في الباطل".

قال ابن كثير:"يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق".

قال السعدي:"أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم".

=

قال يحيى بن سلام:"يعني: في شقاء وعناء".

عن قتادة، قوله: " {فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ}، قال: في عناء".

قال الضحاك: "يعني: نارا ستعرض عليهم".

قال الحسين بن الفضل: " {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ} في الدنيا ونار في الآخرة".

وقال ابن كيسان: "بعد من الحق".

وقال القاسم بن سلام:"يعني: في جنون -بلغة عمان-".

قوله تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} [القمر: ٤٨]، أي:"يوم يُجرُّون في النار على وجوههم".

عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في القدر؛ فنزلت: {يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩)}.

قال الطبري: يقول:"يوم يُسحب هؤلاء المجرمون في النار على وجوههم".

قال ابن كثير:"أي: كما كانوا في سُعُر وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالا سُحبوا فيها على وجوههم، لا يدرون أين يذهبون".

قال السعدي:"{يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ} التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون".

وفي قراءة عبد الله: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ إِلَى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ».

قوله تعالى: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [القمر: ٤٨]، أي:"ويقال لهم: ذوقوا شدة عذاب جهنم".

عن عطاء بن أبي رباح؛ قال: أتيت ابن عباس وهو ينزع في ماء زمزم قد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تكلم في القدر؛ فقال: أو قد فعلوها؟ فقلت: نعم، قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: {ذوقوا مس سقر (٤٨) إنا كل شيء خلقناه

=

بقدر (٤٩)} أولئك شرار هذه الأمة؛ لا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن أريتني أحدا منهم، فقأت عينيه بأصبعي هاتين.

قال ابن عباس: "{سَقَرُ} أسفل الجحيم، نابتٌ فيها شجرة الزَّقوم".

قال ابن عباس: "وهي الطبق السادس من جهنم".

قال الطبري: يقول: "يوم يُسحبون في النار على وجوههم، يقال لهم: ذوقوا مَسَّ سقَر".

قال السعدي: "أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها".

قال ابن كثير: "ويقال لهم تقريعا وتوبيخا: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}".

قال الثعلبي: "وإنّما هو كقولك: ذق المر السياط".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ولقد جاء ءال فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر} الجملة مؤكدة بالقسم المقدر واللام وقد، {ولقد جاء ءال فرعون النذر} يعني قومه وعلى رأسهم فرعون، كما أخبر الله تعالى في آيات أخرى متعددة أنه أرسل موسى إلى فرعون وملئه، والنذر قيل: بمعنى الإنذار والتخويف. وقيل: إنه جمع نذير وهو كل ما ينذر به العبد، والمراد به الآيات التي جاء بها موسى، كما قال الله تعالى: {ولقد ءاتينا موسى تسع ءايات بينات} وهذا الأخير هو الصحيح أن النذر جمع نذير، وليست بمعنى الإنذار، ويدل لهذا قوله {كذبوا بآياتنا كلها} أي: كل الآيات الدالة على صدق رسالة موسى صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كذبوا بها وقالوا: إن موسى مجنون، وإنه ساحر، حتى إن فرعون من كبريائه قال: {إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون} ـ ولما كذبوا بالآيات أخذهم الله {أخذ عزيز} أي: غالب، {مقتدر} أي: قادر، ولكنها أبلغ من كلمة (قادر) لما فيها من زيادة الحروف، وإنما ذكر الله تعالى أنه أخذهم {أخذ عزيز مقتدر} لأن فرعون كان متكبراً، وكان يقول: {أنا ربكم الأعلى} ـ وكان

=

يسخر من موسى ومن أرسله، فناسب أن يذكر الله تعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر، وقد أجمل الله تعالى هذه القصة في هذه الآية، ولكنه بينها في آيات كثيرة، وأن أخذهم كان بإغراقهم في البحر، فأغرقه الله ﷻ بمثل ما كان يفتخر به، لأنه كان يقول لقومه: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، يقررهم بهذا، سيقولون: بلى، أفلا تبصرون.

{أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين}- يعني بذلك موسى، فأغرقهم الله في اليم حين جمع فرعون جنوده واتبع موسى ومن اتبعه ليقضي عليهم، ولكن الله بحمده وعزته قضى عليهم، ثم قال تعالى: {أكفاركم خير من أولائكم} الخطاب هنا لقريش، أي: يعني هل كفاركم خير من هذه الأمم السابقة التي أهلكها الله؟ {أم لكم براءة في الزبر} يعني أم لكم براءة في الكتب أن الله مبرئكم من عاقبة أفعالكم؟ والجواب لا هذا ولا هذا، يعني إما أن يكون كفاركم خير من الكفار السابقين، وإما أن يكون لكم براءة من الله ﷻ كتبها الله لكم ألا يعاقبكم، وكل هذا لم يكن، فليس كفارهم خيرًا من الكفار السابقين، وليس لهم براءة في الزبر، ولهم دعوى ثالثة {أم يقولون نحن جميع منتصر}- أم هنا بمعنى بل الإضرابية، وهي إضراب الانتقال، يعني: بل يقولون نحن، والضمير لقريش {جميع منتصر}- جميع هنا بمعنى جمع، ولهذا قال {منتصر}- ولم يقل منتصرون، يعني جمع كثير منتصر على محمد وقومه، هذا معنى كلامهم، فأعجبوا بأنفسهم، وظنوا أنهم قادرون على القضاء على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ورسالته، فماذا كان جوابهم من الله تعالى، قال الله تعالى: {سيهزم الجمع ويولون الدبر} أي: يخذلون شر خذيلة، ويولون الدبر، ولا يستطيعون المقاومة ولا المدافعة ولا المهاجمة، مع أنهم كانوا يقولون نحن جميع منتصر، ولكن لا انتصار لهم، وهذا هو الذي وقع ولله الحمد، وأول ما وقع في غزوة بدر حين

=

=

اجتمع كبراؤهم ورؤساؤهم وصناديدهم في نحو ما بين تسعمائة إلى ألف رجل، في مقابل ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا مع النبي ﷺ فهزموا- والحمد لله- شر هزيمة، وتحدثت بهم الأخبار، وألقي أربعة وعشرون نفرًا من رؤسائهم في قليب من قلب بدر خبيثة منتنة، وهذه شر هزيمة لا شك، ولذا قال:

{سيهزم الجمع ويولون الدبر}ـ هذه عقوبتهم في الدنيا، أما في الآخرة: {بل الساعة موعدهم} يعني أضف إلى ذلك أن الساعة موعدهم وهو يوم البعث {والساعة أدهى وأمر} أي: أشد فتكًا، وأمرُّ مذاقًا، لأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، ثم قال الله ﷻ مبينًا ماذا يحدث لهم ولأمثالهم فقال: {إن المجرمين في ضلال وسعر} الضلال في الدنيا لا يهتدون، والسعر في الآخرة، أي: في نار شديدة التأجج تحرقهم، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودًا غيرها، ليذوقوا العذاب.

ويحتمل أن قوله {في ضلال} أي: في ضلال عن الطريق الذي يهتدون به إلى الجنة، لأنهم ضلوا في الدنيا فضلوا في الآخرة {يوم يسحبون في النار على وجوههم} يسحبون سحبًا كما تسحب الجيفة، ليبعد بها عن المنازل، وليسوا يسحبون على ظهورهم ولكن على وجوههم- والعياذ بالله- ويقال: {ذوقوا مس سقر} ولقد قال الله تعالى في آية أخرى: {أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة} أي: يتقي بوجهه وكان يتقي في الدنيا الحر بيديه لوقاية وجهه، لكنه في النار ليس له ما يقي وجهه النار، بل يتقي بوجهه نسأل الله العافية، فهم يسحبون في النار على وجوههم، وهذه ليست أساطير الأولين، وليست قصصًا تقال، هذه حقيقة نشهد بها- والله- كأننا نراها رأي العين، لابد أن يكون هذا لكل مجرم {يوم يسحبون في النار على وجوههم} الساحب هم الملائكة الموكلين بهم، لأن للنار ملائكة موكلين بها، ويقال {ذوقوا مس سقر}ـ انظر إلى الإذلال: جسدي وقلبي، الجسدي هو أنهم يسحبون على وجوههم، والقلبي أنهم يوبخون، ويقال: {ذوقوا

=

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩).

{إِنَّا كُلّ شَيْء} مَنْصُوب بِفِعْلٍ يُفَسِّرهُ {خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} بِتَقْدِيرِ حَال مِنْ كُلّ أَيْ مُقَدَّرًا وقرئ كل بالرفع مبتدأ خبره خلقناه.

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠).

{وَمَا أَمْرنَا} لِشَيْءٍ نُرِيد وُجُوده {إِلَّا} مَرَّة {وَاحِدَة كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} فِي السُّرْعَة وَهِيَ قَوْل كُنْ فَيُوجَد إِنَّمَا أَمْره إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١).

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعكُمْ} أَشْبَاهكُمْ فِي الْكُفْر مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر} اسْتِفْهَام بِمَعْنَى الْأَمْر أَيْ اُذْكُرُوا وَاتَّعِظُوا.

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢).

{وَكُلّ شَيْء فَعَلُوهُ} أَيْ الْعِبَاد مَكْتُوب {فِي الزُّبُر} كُتُب الْحَفَظَة.

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣).

{وَكُلّ صَغِير وَكَبِير} مِنْ الذَّنْب أَوْ الْعَمَل {مُسْتَطَر} مَكْتُوب فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤).

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات} بَسَاتِين {وَنَهَر} أُرِيدَ بِهِ الْجِنْس وَقُرِئَ بِضَمِّ النُّون وَالْهَاء جَمْعًا كَأَسَدٍ وَأُسْد وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَنْهَارهَا الْمَاء وَاللَّبَن وَالْعَسَل وَالْخَمْر.

فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥).

=

مس سقر}ـ مس أي: صلاها، وسقر من أسماء النار – نسأل الله العافية.

{فِي مَقْعَد صِدْق} مَجْلِس حَقّ لَا لَغْو فِيهِ وَلَا تَأْثِيم أُرِيدَ بِهِ الْجِنْس وَقُرِئَ مَقَاعِد الْمَعْنَى أَنَّهُمْ فِي مَجَالِس مِنْ الْجَنَّات سَالِمَة مِنْ اللَّغْو وَالتَّأْثِيم بِخِلَافِ مَجَالِس الدُّنْيَا فَقَلَّ أَنْ تَسْلَم مِنْ ذَلِكَ وَأُعْرِبَ هَذَا خَبَرًا ثَانِيًا وَبَدَلًا وَهُوَ صَادِق بِبَدَلِ الْبَعْض وَغَيْره {عِنْد مَلِيك} مِثَال مُبَالَغَة أَيْ عَزِيز الْمُلْك وَاسِعه {مُقْتَدِر} قَادِر لَا يُعْجِزهُ شَيْء وهو الله تعالى وعند إشَارَة إلَى الرُّتْبَة وَالْقُرْبَة مِنْ فَضْله تَعَالَى[1].

---

(١)

قوله تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)} [القمر: ٤٩]

عن أبي هريرة:"أن مشركي قريش خاصمت النبيّ -ﷺ- في القَدَر، فأنزل الله: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}".

قال الطبري: يقول: " إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه، وفي هذا بيان، أن الله جلّ ثناؤه، توعد هؤلاء المجرمين على تكذيبهم في القدر مع كفرهم به".

قال الزجاج:"أي: كل ما خلقنا فمقدور مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه".

قال السعدي:"وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير".

قال ابن كثير:"قوله: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، كقوله: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢] وكقوله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الأعلى: ١ - ٣] أي: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمةُ السنة على إثبات قَدَر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردّوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات،

=

=

وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرْقة القَدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة".

قال الحسن: " قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له".

وقال الربيع: "هو كقوله: {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، أي: أجلا لا يتقدم ولا يتأخر".

عن طاووس بن كيسان، قال: "أدركتُ ناسًا مِن أصحاب رسول الله- ﷺ- يقولون: كلّ شيء بقَدَر الله".

وقال ابن عباس: "إنّا كل شيء جعلنا له شكلا يوافقه ويصلح له، فالمرأة للرجل، والأتان للحمار، والرمكة للفرس، وثياب الرجال للرجال لا تصلح للنساء، وثياب النساء لا تصلح للرجال وكذلك ما شاكلها على هذا".

عن ابن عباس، قوله: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، قال: "خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق لهم الخير والشرّ بقدر، فخير الخير السعادة، وشرّ الشرّ الشقاء، بئس الشرّ الشقاء".

قال محمد بن كعب:"ما نزلت هذه الآية إلا تعييرا لأهل القدر: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)} [القمر: ٤٨- ٤٩]".

عن داود بن قيس، قال: سمعت محمد بن كعب القرظي ، قال: " كنت أقرأ هذه الآية فلا أدري ما عني بها، حتى سقطت عليها: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} [القمر: ٤٧] إِلَى {كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠]، فإذا هم المكذبون بالقدر".

عن محمد بن كعب القُرَظي: " {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}، قال: نزلت تعييرا لأهل القَدَرِ".

عن ابن زُرَارة، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، قال: "نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون

=

=

بقدر الله".

قال ابن عباس:"إني أجد في كتاب الله قوما يسحبون في النار على وجوههم، يقال لهم {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}، لأنهم كانوا يكذّبون بالقَدَرِ، وإني لا أراهم، فلا أدري أشيء كان قبلنا، أم شيء فيما بقي".

عن عطاء بن أبي رَبَاح، قال: "أتيت ابن عباس وهو يَنزع من زمزم، وقد ابتلّت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلّم في القدر. فقال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: {ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}، أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم ولا تُصَلّوا على موتاهم، إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعيّ هاتين".

عن نافع، قال: "كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكاتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر، فإياك أن تكتب إليّ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر".

عن عبد الله بن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: "لكل أمة مجوس، ومجوس أمتي الذين يقولون: لا قدر. إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم".

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "سيكون في هذه الأمة مسخ، ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزنديقية".

عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "كل شيء بقدرن حتى العجز والكيس".

وفي الحديث الصحيح: "استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّرُ الله وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان".

وفي حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك

=

=

بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفّت الأقلام وطويت الصحف".

عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: "دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي. فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لما تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة" يا بني، إن متَّ ولستَ على ذلك دخلت النار".

عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره".

عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة" زاد ابن وهب: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} [هود: ٧]".

قوله تعالى {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)} [القمر: ٥٠]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما أمرنا للشيء إذا أمرناه وأردنا أن نكوّنه إلا قولة واحدة: كن فيكون، لا مراجعة فيها ولا مرادّة، فيوجد ما أمرناه وقلنا له: كن كسرعة اللمح بالبصر لا يُبطئ ولا يتأخر".

قال السعدي:"فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة".

قال الفراء:"أي: مرة واحدة، هذا للساعة كلمح خطفة".

=

=

قال مقاتل:"يعني: إلا مرة واحدة لا مثنوية لها، كجنوح الطرف".

قال ابن كثير:"وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: {وَمَا أَمْرُنَا إِلا وَاحِدَةٌ}، أي: إنما نأمر بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلا موجودا كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، وما أحسن ما قال بعض الشعراء:

إِذَا ما أَرَادَ الله أَمْرًا فَإِنَّما... يقُولُ لهُ: كُنْ، قَوَلةً فَيَكُونُ".

عن ابن عباس:"من طريق عطاء- {وما أَمْرُنا إلّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ}: يريد: أنّ قضائي في خلْقي أسرع مِن لَمْح البصر".

عن ابن عباس: من طريق الكلبي-" ما أمرنا بمجيء الساعة في السُّرعة إلا كطرْف البصر".

قال الحسن:"يعني: إذا جاء عذاب كُفّار آخر هذه الأُمّة بالنفخة الأولى".

عن ابن عباس، "عن النبي- ﷺ -، قال: «ما طَنَّ ذُباب إلا بقَدَر». ثم قرأ: {وما أَمْرُنا إلّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ}".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ} [القمر: ٥١]، أي:"ولقد أهلكنا أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية".

قال مقاتل:"يعنى: عذبنا إخوانكم أهل ملتكم، يا أهل مكة، يعنى: الأمم الحالية حين كذبوا رسلهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمشركي قريش الذين كذّبوا رسوله محمدا ﷺ: ولقد أهلكنا أشياعكم معشر قريش من الأمم السالفة والقرون الخالية، على مثل الذي أنتم عليه من الكفر بالله، وتكذيب رسله".

قال ابن كثير: "يعني: أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل".

قال السعدي: أي:"من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما

=

=

كذبتم".

عن ابن زيد، في قوله: " {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، قال: أشياعكم من أهل الكفر من الأمم الماضية".

قال ابن عباس:"الذين كفروا وكذبوا بالقدر قبلكم".

قوله تعالى: {فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القمر: ٥١]، أي:"فهل من متعظ بما حلَّ بهم من النَّكال والعذاب؟".

قال مقاتل:"يقول: فهل من متذكر فيعلم أن ذلك حق فيعتبر ويخاف فلا يكذب محمدا- ﷺ-".

قال الطبري:"يقول: فهل من مُتَّعِظ بذلك منزجر ينزجر به".

قال ابن زيد:"يقول: فهل من أحد يتذكر".

قال ابن كثير: " أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ} [سبأ: ٥٤]".

قال السعدي:"أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين".

قال ابن زيد:"المدّكر: الذي يتذكر، وفي كلام العرب: المذكر: المتذكر".

قال الحسن:"فهل من خائف يتذكر".

قال محمد بن كعب القرظي:"هل من مزدجر عن المعاصي".

قوله تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)} [القمر: ٥٢]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكل شيء فعله أشياعكم الذين مضوا قبلكم معشر كفَّار قريش في الكتب التي كتبتها الحفظة عليهم. وقد يحتمل أن يكون مرادا

=

=

به في أمّ الكتاب".

قال ابن كثير: " أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام".

قال السعدي:"أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية".

عن الضحاك، قوله: " {فِي الزُّبُرِ}، قال: الكُتب".

وروي عن ابن زيد، قال:"في الكتاب".

قال ابن عباس:"في أم الكتاب".

قال أبو عبيدة:" {الزُّبُرِ}، جماعة: «زبور»، ويقال: زبرت الكتاب وذبرته".

قوله تعالى {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)} [القمر: ٥٣]

قال الطبري:"قول تعالى ذكره: {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ} من الأشياء، مُثْبَت في الكتاب مكتوب".

قال الفراء:"يريد: كل صغير من الذنوب أو كبير فهو مكتوب".

قال أبو عبيدة:" {مُسْتَطَرٌ}، أي: مفتعل مكتوب، مجازها مجاز: مسطور".

قال ابن قتيبة:" {مُسْتَطَرٌ}، أي: مكتوب: مُفْتَعَل، من: سطرت: إذا كتبت. وهو مثل: مَسْطور".

قال الزجاج:"المعنى: كل صَغِيرْ من الذنوب وكبير مستطر مكتوب على فاعليه قبل أن يفعلوه، ومكتوب لهم وعليهم إذا فعلوه لِيجازَوْا عَلَى أفعالهم".

قال ابن كثير: " {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ}، أي: من أعمالهم {مُسْتَطَرٌ}، أي: مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها".

قال السعدي:"أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن

=

=

ليصيبه".

عن ابن عباس، قوله: " {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ}، يقول: مكتوب، فإذا أراد الله أن ينزل كتابا نَسَخَتْهُ السَّفَرةُ".

قال عكرمة:"مكتوب في كلّ سطر".

قال قتادة:"محفوظ مكتوب".

عن الضحاك، " {مُسْتَطَرٌ}، قال: مكتوب".

عن ابن زيد، في قوله: " {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ}، قال: مكتوب، وقرأ: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، وقرأ: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}".

عن عوف بن الحارث- وهو ابن أخي عائشة لأمها- عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: "يا عائشة، إياك ومُحَقِّرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا".

ورواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر، ثم قال سعيد: "فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي: ويحك يا سعيد بن مسلم! لقد حدثني سليمان بن المغيرة أنه عمل ذنبا فاستصغره، فأتاه آت في منامه فقال له: يا سليمان:

لا تَحْقِرنَّ مِنَ الذنوبِ صَغِيرا... إن الصَّغير غدًا يعود كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهده... عند الإله مُسَطَّرٌ تسطيرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن... صعب القياد وشمرن تشميرا
إن المُحِبَّ إذا أحب إلههُ... طار الفؤاد وأُلْهِم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بنِيَّة... فَكَفَى بِرَبّكَ هاديا ونصيرا".

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤)} [القمر: ٥٤]

=

=

قال الطبري: يقول:"إن الذين اتقوا عقاب الله بطاعته وأداء فرائضه، واجتناب معاصيه في بساتين يوم القيامة، وأنهار".

قال ابن كثير:"أي: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسُّعر والسحب في النار على وجوههم، مع التوبيخ والتقريع والتهديد".

قال السعدي:"{إِنَّ الْمُتَّقِينَ} لله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه".

قال السمعاني:"أي: بساتين وأنهار، واحد بمعنى الجمع، والأنهار هذه ما ذكرها الله تعالى في «سورة محمد» ".

واختلف أهل العلم في قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} [القمر: ٥٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن النهر: معناه: أنهار، أي: أنهار الماء، والخمر، والعسل، واللبن، قاله شريكـ وابن جريجـ وبه قال الفراءـ وأبو عبيدةـ والطبري.

قال أبو عبيدة:"{وَنَهَرٍ}، مجازها: أنهار".

قال الفراء:"{وَنَهَرٍ}، معناه: أنهار، وهو في مذهبه كقوله: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: ٤٥]. وزعم الكسائي أنه سمع العرب يقولون: أتينا فلانا فكنا في لحمة ونبيذة فوحد، ومعناه: الكثير".

عن شريك، في قوله: " {فِي جَنّاتٍ ونَهَرٍ}، قال: جنات وعيون".

الثاني: أن النهر: الضياء والنور، ومنه: النهار، قاله محمد بن إسحاقـ ومحمد بن كعب القرظيـ ومنه قول الراجز:

=

=

لَوْلا الثَّرِيدانِ هَلَكْنَا بِالضُّمُرْ... ثَرِيدُ لَيْلٍ وثَرِيدٌ بِالنُّهُرْ

قال القرظي:"في نور وضياء".

قال الفيروزآبادي:"«النهار»: ضد الليل، ولا يجمع، كما لا يجمع العذاب والسراب، فإن جمعته قلت في قليله: أنهر، وفي كثيره: نهر، مثل سحاب وسحب".

عن أبي عمران الجوني قال: "ليس في الجنة ليل، هو نهار كله، ويعرف مجيء النهار بفتح الأبواب ورفع الستور، ويعرف مجيء الليل برد الأبواب وإرخاء الستور".

الثالث: أنه سعة العيش وكثرة النعيم، ومنه اسم: نهر الماء، قاله قطرب.

قال الراغب: " والنّهر: السّعة تشبيها بنهر الماء، ومنه: أَنْهَرْتُ الدَّمَ. أي: أسلته إسالة، وأَنْهَرَ الماء: جرى، ونَهْرٌ نَهِرٌ: كثير الماء، قال أبو ذؤيب:

أقامت به فابتنت خيمة... على قصب وفرات نهر".

الرابع: أن النّهر الضياء والسعة. قاله ابن عباس والضحاك.

قال ابن عباس:"النّهر الضياء والسعة، ليس بنهرٍ جاري".

قال الضحاك:"يعني: في ضياء وسعة".

قال الفراء:"ويقال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}: في ضياء وسعة، وسمعت بعض العرب ينشد:

إِنْ تَك لَيْلِيًّا فَإِنِّي نَهِرُ... مَتَى أَرَى الصُّبْحَ فَلاَ أَنْتَظِرُ

ومعنى «نهر»: صاحب نهار".

قال ابن قتيبة، -ناقلا قول الفراء-:"قال-أي الفراء-: ويقال: " النهْر: الضياء والسعة؛ من قولك: أنْهَرْتُ الطعنة؛ إذا وسعتها. قال قيس بن الخطِيم يصف طعنة:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي، فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا... يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِها مَاوَرَاءَهَا

أي: وسَّعتُ فتقها".

=

قال القشيري:"أكثرُ أهل التفسير والمعاني على أنه أراد: وأنهار. يعني: أنهار الجنة من الماء والخمر واللبن والعسل، ووحد لأنه قابل الفواصل فصار كقوله {وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} والواحد قد ينبى عن الجميع فيخبر به".

قوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)} [القمر: ٥٥]

قوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} [القمر: ٥٥]، أي:"في مجلس حق، لا لغو فيه ولا تأثيم".

قال الطبري: " يقول: في مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم".

قال السمعاني:"وكل مكان ليس فيه لغو ولا تأثيم، فهو مقعد صدق".

قال ابن كثير:"أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه".

قال الواحدي: أي:"في مجلس حسن. والعرب إذا بالغت في مدح شيء أضافته إلى «الصدق»، كقوله تعالى {لِسَانَ صِدْقٍ} [الشعراء: ٨٤] و {قَدَمَ صِدْقٍ} [يونس: ٢]".

عن عطاء: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ} "يريد في جوار الرحمن".

قال جعفر الصادق: مدح الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلَّا أهل الصِدق".

عن خالد بن معدان، قال: "بلغنا أنَّ الملائكة يأتون المُؤْمنين يوم القيامة، فيقولون: يَا أولياء الله انطلقوا. فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: إنكم لتذهبون بنا إلى غير بغيتنا. فيقال: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد مع الحبيب".

عن عبد الله بن بريدة:"أنَّه قال في قوله تعالى: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)} أن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار ﷻ، فيقرؤون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل امرئ منهم مجلسه الذي هو مجلسه على منابر من

=

الدرِّ، والياقوت، والزبرجد، والذهب، والزمرد، والفضة، بقدر أعمالهم، فلم تقرَّ أعينهم بشيء قط كما تقرُّ بذلك، ولم يسمعوا شيئًا أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلهم قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد".

قوله تعالى: {عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥]، أي:"عند الله المَلِك العظيم، الخالق للأشياء كلها، المقتدر على كل شيء تبارك وتعالى".

قال الطبري: " يقول: عند ذي مُلك مقتدر على ما يشاء، وهو الله ذو القوّة المتين، تبارك وتعالى".

قال ابن كثير:"أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون".

قال السمعاني يقال: إن «الملك» و «المليك» بمعنى واحد.. وقيل: إن «المليك» هو المستحق للملك، و «الملك»: القائم بالملك. ومعنى الآية: ذكر كرامة المؤمنين وقربهم من الله تعالى، وهو النهاية في الإكرام".

قال مقاتل:"وذلك أن أهل الجنة يدخلون على ربهم- تعالى- على مقدار كل يوم جمعة، فيجلسون إليه على قدر أعمالهم في الدنيا وبقدر ثوابهم في الآخرة فيعطون في ذلك المجلس ما يحبون من شيء، ثم يعطيهم الرب- تعالى- ما لم يسألوه من الخير من جنة عدن ما لم تره عين، ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر".

قال السعدي:"فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا".

عن عبد الله بن عمرو يَبلُغُ به النبي ﷺ- قال: "المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} لما ذكر عذاب أهل النار ثم

=

=

سيذكر نعيم أهل الجنة، ذكر بينهما أن هذا الخلق وتفاوته بقدر الله ﷻ فكل شيء مخلوق فهو بقدر، كل ذرة في رملة فهي مخلوقة بقدر، وكل نقطة تقع على الأرض من السحاب فهي مخلوقة بقدر، وكل شيء تعم ما سوى الخالق، لأنه ما ثم إلا مخلوق وخالق، فإذا كان كل شيء مخلوقًا كان الخالق وحده الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، قال النبي ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»

العجز يعني تكاسل الإنسان، والكيس يعني حزم الإنسان ونشاطه في طلب ما ينفعه والبعد عما يضره، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الإنسان مخلوق لله تعالى، وأن أفعاله مخلوقة لله، وأن كل شيء قد قدر وانتهى، وإذا كان كذلك فيلجأ الإنسان إذا أصابته ضراء إلى الله الخالق، وإذا أراد السراء أيضًا يلتجيء إلى الله الخالق، لا يفخرن ويعجبن بنفسه إذا حصل له مطلوب، ولا ييأسن إذا أصابه المكروب، فالأمر بيد الله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» القوي في إيمانه، والقوي في إرادته وهمته ونشاطه، وليس المراد القوي في بدنه، فقوة البدن إما لك وإما عليك، إن استعملتها في العمل الصالح فهي لك، وإن عجزت عنه مع فعلك إياه في حال القوة كتب لك، وإن استعملت هذه القوة في معصية الله كانت عليك، لكن المراد بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «القوي» أي: في إيمانه وإرادته، أما قوة البدن فهي لك أو عليك، قال: «وفي كلٍّ خير» أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذه الجملة يسميها علماء البلاغة جملة احترازية، لأنه لما قال: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» يظن الظان أن المؤمن الضعيف ليس فيه خير، فقال: «وفي كل خير».

ولها نظائر قال الله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل} يعني

=

=

من قبل صلح الحديبية {أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى} كلًا من هؤلاء وهؤلاء، يعني فلا تظنوا أن هذا التفاوت يحط من قدر الآخرين ويحرمهم الخير، وقال تعالى: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا} فهنا قال النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» فإذا فعلت ذلك حرصت على ما ينفع واستعنت بالله، وكنت حازمًا نشيطًا وقويًّا في مرادك، إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله يعني هذا قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أنت عليك أن تسعى للخير، وليس عليك أن يتم لك ما تريد، المهم أن كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، فمن قدر الله له الهداية، ومن قدر له الشقاء فهو بقدر، ولكن السبب لتقدير الله الشقاء على العبد هو نفس العبد، لقول الله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين}.

{ومآ أمرنا إلا واحدة} يعني ما أمرنا فيما نريد أن يكون {إلا واحدة} أي: إلا مرة واحدة، بدون تكرار {كلمح بالبصر} بدون تأخر - سبحان الله - أمر الله ﷻ واحدة لا تكرار، بسرعة فورية أسرع ما يمكن أن يكون كلمح للبصر، كن فيكون، واشتهر عند العوام يقولون: يا من أمره بين الكاف والنون، وهذا غلط ليس أمر الله بين الكاف والنون، بل بعد الكاف والنون، لأن الله قال: كن فيكون، بعد كن، فقولهم بين الكاف والنون غلط لأنه لا يتم الأمر بين الكاف والنون، بل لا يتم الأمر إلا بالكاف والنون، أي بعد الكاف والنون فورًا كلمح بالبصر، وإن شئت أن ترى عجائب ذلك فانظر إلى الزلازل تصيب مئات القرى، أو آلاف القرى وبلحظة

=

=

واحدة تعدمها، لو جاءت المعاول والدركترات والقنابل ما فعلت مثل فعل لحظة واحدة من أمر الله ﷻ، واسأل الخبراء بالزلازل تجد الجواب، وانظر إلى ما هو أعظم من ذلك، الموتى في قبورهم، والحشرات والحيوانات وكل الأشياء تبعث يوم القيامة بكلمة واحدة، كما قال- جل وعلا -: {إن كانت إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميع لدينا محضرون} صيحة واحدة فقط، {فإذا هم جميع}- كلهم {لدينا} أي عندنا {محضرون} فصدق الله ﷻ وعده {ومآ أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} مثل لمح البصر.

{ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر} الخطاب لكفار قريش، وقوله: {أشياعكم فهل من مدكر} أي: أشباهكم من الكفار السابقين، وقد قص الله سبحانه وتعالى في هذه السورة من نبئهم ما فيه عبرة وعظة، قص علينا ما حصل لقوم نوح، وما حصل لعاد، ولثمود، ولقوم لوط، ولآل فرعون، وفي هذا مدكر لمن أراد الادكار، ولهذا قال: {فهل من مدكر}- يعني هل من متعظ ومعتبر بما جرى على السابقين أن يجري على اللاحقين، لأن الله سبحانه وتعالى ليس بينه وبين عباده محاباة أو نسب، بل أكرمهم عند الله أتقاهم له من أي جنس كان، وفي أي مكان كان، وفي أي زمان كان، كما قال الله تبارك وتعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} ثم قال الله ﷻ: {وكل شيء فعلوه في الزبر} كل مبتدأ {في الزبر} خبره، وليس هذا من باب الاشتغال، بل هو خبر محض، لأن (كل) لا يمكن أن تكون مفعولًا لفعلوه، بل هي مبتدأ، {وكل شيء فعلوه} أي: فعلته الأمم السابقة، أو الأمم اللاحقة، فإنه مكتوب {في الزبر} أي في الكتب، وكتابة الأعمال كتابة سابقة، وكتابة لاحقة.

والكتابة السابقة كتابة على أن هذا سيفعل كذا، وهذه الكتابة لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب، لأن المرء لم يكلف بها بعد، وكتابة لاحقة وهي كتابة أنه فعل، فإذا

=

=

فعل الإنسان حسنة كتبها الله، وإذا فعل سيئة كتبها الله، وهذه الكتابة اللاحقة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، وبما قررناه يزول الإشكال عند بعض الناس في قول الله تبارك وتعالى: {ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم} فإن بعض الناس قد يشكل عليه هذه الآية، كيف يقول ﷻ {حتى نعلم} وهو قد علم؟ فيقال: {حتى نعلم} يعني العلم الذي يترتب عليه الثواب، وأما علم الله السابق فإنه لا يترتب عليه الثواب ولا العقاب.

والكتابة السابقة معناها أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، كما جاء في الحديث الصحيح: «أن الله لما خلق القلم قال له: اكتب، قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة». فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، نؤمن بهذا، قال الله تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأَرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير}. وقال ﷻ: {ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأَرض يرثها عبادي الصالحون} أما الكتابة اللاحقة فهي أن الله سبحانه وتعالى إذا عمل الإنسان عملًا كتبه، قال الله تعالى: {كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كرامًا كاتبين} وهذه الكتابة هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، {وكل شيء فعلوه في الزبر}ـ ومعنى الآية: أن كل شيء يفعله الإنسان فإنه مكتوب، فلا تظن أنه يضيع عليك شيء أبدًا، كما قال ﷻ: {ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربك أحدًا}.

سبحان الله، بعد مئات السنين التي لا يعلمها إلا الله يجدونه حاضرًا، لا يظلم ربك أحدًا، {وكل صغير وكبير مستطر}ـ كل صغير وكبير مما يحدث في هذا الكون من المخلوقات، وأوصافها، وأعمالها، {مستطر}ـ أي: مسطر في الكتاب العزيز،

=

=

اللوح المحفوظ، كل صغير وكبير حتى الشوكة يشاكها الإنسان تكتب، حتى ما يزن مثقال ذرة من الأعمال يكتب، كل صغير وكبير، وإذا آمنت بذلك ويجب عليك أن تؤمن به، فإنه يجب عليك الحذر من المخالفة، فإياك أن تخالف بقولك، أو فعلك، أو تركك، لأن كل شيء مكتوب، قال الله ﷻ: {ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد} وما يفعل من فعل كذلك لديه رقيب عتيد، لأنه إذا كانت الأقوال تكتب وهي أكثر بآلاف المرات من الأفعال، فما تنطق به لا يحصى، فإذا كانت الأقوال تكتب، فالأفعال من باب أولى، فعليك أن تتقي الله ﷻ ولا تخالف الله، إذا سمعت الله يقول خبرًا، فقل: آمنت به وصدقت، وإذا سمعت الله يقول شيئًا أمرًا، فقل: آمنت به سمعًا وطاعة، نهيًا آمنت به، وسمعًا وطاعة.

فاترك المنهي عنه، وافعل المأمور به، {إن المتقين في جنات ونهر} هذا مقابل قوله: {إن المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم} {إن المتقين في جنات ونهر} الجنات جمع جنة، وقد ذكر الله تعالى أصنافها في سورة الرحمن فقال: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} ثم قال: {ومن دونهما جنتان} فهي إذن أربع ذكرها الله في سورة الرحمن، إذًا {في جنات} يعني في هذه الجنات الأربع، هذه الأصناف لكن أنواعها كثيرة، والجنات نفسرها بأنها شرعًا هي: (الدار التي أعدها الله للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)ـ لكن عندما تقرأ قول الله تعالى: {إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة} تفسر الجنة بأنها البستان الكثير الأشجار، وعندما تقرأ: {كلتا الجنتين آتت أكلها} تفسر بأنها بستان كثير الأشجار، لكن لا تفسر جنة النعيم في الآخرة بهذا التفسير، لأنك إن فسرتها بهذا التفسير قلَّت الرغبة فيها وهبطت عظمتها في قلوب الناس، لكن قل: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، سكانها خير البشر، النبيون، والصديقون،

=

=
والشهداء والصالحون، حتى تحفز النفوس على العمل لها، وحتى لا يتصور الجاهل أن ما فيها كأمثال ما في الدنيا وقوله: {ونهر} يعني بذلك الأنهار، وذكر الله تعالى أصنافها أربعة في سورة القتال: {أنهار من ماء غير ءاسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى}.

أما المكان: {في مقعد صدق عند مليك} يعني في مقعد صدق ليس فيه كذب لا في الخبر عنه ولا في وصفه، كله حق وعند من؟ {عند مليك مقتدر} وهو الله جل وعلا، - اللهم اجعلنا منهم - عند مليك مقتدر، يتنعمون بلذة النظر إلى الله ﷻ وهو أنعم ما يكون لأهل الجنة، قال الله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله، وقال تعالى {وجوه يومئذ ناضرة} يعني حسنة بهية يكسوها الله تعالى نضرًا، أي: حسنًا وجمالًا وبهاءً؛ لتكون مستعدة للنظر إلى الله ﷻ - {إلى ربها ناظرة} ثم ينظرون إلى الله فيزدادون حسنًا إلى حسنهم، ولهذا إذا رجعوا إلى أهلهم، قال لهم أهلوهم: إنكم ازددتم بعدنا حسنًا بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العليا أن تجعلنا من هؤلاء بمنك وكرمك، إنك على كل شيء قدير.

(فائدة): موضوع القضاء والقدر من الموضوعات الكبرى التي خاض فيها جميع الناس، وشغلت أذهان الفلاسفة والمتكلمين، وأتباع الطوائف من أهل الملل ومن غيرهم كما اعتُبِر القضاء والقدر والمسائل المندرجة تحته من أهم القضايا التي تناولها العلماء بالاهتمام والدراسة، حتى أفردها البعض منهم بالكتابة والتأليف.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الخوض والجدل في هذه القضية قد بدأت جذوره على عهد النبي - ﷺ - حيث نهى عن ذلك صراحة؛ إلا أن أسئلة الصحابة - رضي الله عنهم - حينها كانت أسئلة استفهام، فإذا ما جاءهم الجواب عن رسول الله - ﷺ -:
=

=

((اعملوا فكل ميسر لما خلق الله)) اكتفوا به، بل كان لهذا الجدل وجود قبل ظهور الإسلام كما أخبرنا الله- ﷻ- بذلك في كتابه المبين عن كفار قريش ومن سبقهم من مشركي الأمم أنهم ينسبون شركهم وما هم عليه من المعاصي إلى مشيئته- ﷻ- قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)} النحل: ٣٥، وقوله تعالى على لسانهم: {لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا} النحل: ٣٥..

ولأجل كون القدر سرًا من أسرار الله- ﷻ -ـ وإدراك كنهه وحكمة الله- ﷻ- في عباده غير متحقق من كل وجه؛ فلذلك صار الخائض في القدر بلا دليل عرضة لمزلة القدم، بل لم يخض في القدر أحد بغير حجة وبرهان إلا وزلت قدمه، وتنكب سواء الصراط؛ ولهذا ينبغي أن يتكلم في القدر بما جاء في النص دون زيادة؛ لأنه أمر غيبي، ولا يمكن للعبد أن يخوض في الأمور الغيبية إلا مع الدليل، والمخالفون في القدر كثيرون.

قال ابن القيم- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " القدر بحر محيط لا ساحل له، ولا خروج عنه لأحد من العالمين، والشرع فيه سفينة النجاة؛ من ركبها نجا، ومن تخلف عنها فهو من المغرقين".

وقال ابن عباس- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ((القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر؛ تم توحيده، ومن وحد الله، وكذب بالقدر، نقض توحيده))ـ "والقدر هو قدرة الله" كما قال الإمام أحمد- رَحِمَهُ اللَّهُ -ـ لذا فإن الاختلاف في مسائل التوحيد سينتج بالضرورة اختلافات في مفهوم القدر؛ لأن الإيمان بالقدر متعلق بتوحيد الربوبية خصوصًا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنه من صفات كمال الله- ﷻ - ، ولا شك أن الإقرار بتوحيد الله وربوبيته لا يتم إلا بالإيمان بصفاته، فمن زعم أن

=

=

هناك خالقًا غير الله فقد أشرك.

ولفهم هذه القضية وما يندرج تحتها من مسائل متعلقة بموضوع بحثنا، لا بد من التمهيد بتعريف القضاء والقدر في اللغة والمراد به شرعًا، وبيان معناه وأهميته.

أولًا: التعريف بالقضاء والقدر:

في تعريف القضاء:

معنى القضاء لغة: يقول ابن فارس: " القاف والضّاد والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلُّ على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه"ـ هو بالمدّ، ويقصر، أصله: قَضَايٌ؛ لأنّه من قضيت، إلا أنّ الياء لَمّا جاءت بعد الألف همزت، تقول: قضى وطره؛ أي: أتمه وبلغه، وقضى عليه: أماته، وقضى عليه دينه: أوصاه وأنفذه، وقضى عليه عهدًا: أدّاه.

ويطلق القضاء على معان عدّة منها: الأمر، والأداء، والحكم، والفراغ، والإعلام، والموت؛ وهذه هي أهم معاني (القضاء) في اللغة، وهناك اشتقاقات أخرى ذكرَتها كتب اللغةـ فالقضاء موضوع للقدر المشترك بين هذه المفهومات، وهو انقطاع الشيء والنهاية، والفصل بتمام الأمر.

ويتبين مما سبق أن معنى القضاء في اللغة، هو: إحكام الشيء وإتمام الأمر.

وهذا هو أصل معاني القضاء الواردة في اللغة، وقد يأتي بمعنى القدر.

معنى القضاء شرعًا، هو: علم الله تعالى في الأزل بالأشياء كلها على ما ستكون عليه في المستقبل، أي: "إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ماهي عليه فيما لا يزال".

في تعريف القدر:

معنى القدر لغة: يقول ابن فارس: " القاف والدّال والرّاء أصل صحيح يدلّ على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته"ـ تقول: قدر الله تعالى ذلك عليه يقدره قدْرًا وقدَرًا،

=

=

وقدّره عليه وله، واستقدر الله خيرًا: سأله أن يقدر له به، وقدر الرزق: قسمه، فالقدر إذًا: مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا: أي مبلغه وكذلك القدر. وقدرت الشيء أَقْدِرُه وأَقْدُرُه من التقدير، وقدّرته أقدِّرُه، والقدْر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها الله.

ويطلق القدر على معان عدّة منها: الحكم، والقضاء، والطّاقة، والتّضييق، والتّقدير، وهو مصدر قَدَرَ يَقدر قَدَرًا، وهو مبلغ الشيء، وجمعه أقدار.

تعريف القدر شرعًا، هو: الإيمان بعلم الله تعالى السابق، وكتابته وإرادته ومشيئته وخلقه لأفعال عباده مع إثبات قدرتهم المؤثرة في هذه الأفعالـ وقيل: "هو إيجاد الله- سبحانه وتعالى- الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم".

قال النووي- رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: " واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر ومعناه: أن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى".

* في تعريف القضاء والقدر شرعًا:

اختلفت عبارات أهل العلم رحمهم الله في تعريفهم الاصطلاحي للقضاء والقدرـ فمنهم من فرق بين القضاء والقدر، ومنهم من اعتبرهما شيئا واحدًا، قال الحافظ ابن حجر- رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وغيره: " القضاء: الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر: الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل".

" وجماع القول في هذا الباب أنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم

=

=
البناء ونقضه"ـ كما أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فإذا أطلق القضاء مفردًا شمل القدر، وإذا أطلق القدر مفردًا شمل القضاء، وأمّا إذا اجتمعا فالمراد بالقضاء ما يقضيه الله تعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، والمراد بالقدر ما قدّره الله تعالى في الأزل، فالقدر سابق والقضاء لاحق.

والمختار والله أعلم أن المراد بالقضاء والقدر في الشرع، هو:

علم الله بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، ومشيئته سبحانه لوقوعها، وخلقه- ﷻ- لها على ما سبق به علمه وكتابته ومشيئته.

ويتبين مما سبق ما بين المعنى اللغوي لكل من القضاء والقدر والمعنى الشرعي من ربط قوي، فكل منهما يأتي بمعنى الآخر، ومعاني القضاء ترجع إلى إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه، كما أن معاني القدر ترجع إلى التقدير، والله سبحانه وتعالى قدر مقادير الخلق، فعلمها وكتبها وشاءها وخلقها، وهي مقتضية ومقدرة فتقع حسب أقدارها.

ثانيًا: معنى الإيمان بالقضاء والقدر وما يتضمنه.

الإيمان بالقضاء والقدر: هو الإيمان بقدرة الله التامة والشاملة على خلقه، لذا دل الكتاب والسنة وإجماع السلف على أن الله- ﷻ- موصوف بالعلم أزلًا وأبدًا لا يغيب عن علمه شيء، وأنه كتب كل ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، وأن مشيئته نافذة في كل شيء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالقُ كل شيء لا خالق غيره ولا رب سواه، وقد اصطلح أهل العلم على تسمية هذه الأمور الأربعة- العلم والكتابة والمشيئة والخلق- بمراتب الإيمان بالقدر، لذلك كان مذهب السلف الصالح- رضي الله عنهم - في باب الإيمان بالقضاء والقدر يقوم على أربع مراتب تنتظم الإيمان بالقدر، هي:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن يؤمن المكلف بأن الله تعالى علم كل شيء
=

=

جملة وتفصيلًا، وما كان وما يكون، فكل شيء علمه الله تعالى دقيقًا كان أو جليلًا، ولا يكون شيء إلا بعلمه؛ فيجب الإيمان "بأن الله- ﷻ- لم يزل عالمًا بالخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم، ولا يزال عالمًا بهم، ولم يزدد في علمه بكينونة الخلق خردلة واحدة...".

كما أن تقدير الأمور وتدبيرها وإرادتها في القدم لا تكون إلا من مقدر مريد مدبر أول ليس قبله شيء، وهذه هي معاني الربوبية لله سبحانه وتعالى، فالكلام في القدر كلام في الربوبية.

وأدلة هذه المرتبة في القرآن الكريم أكثر من أن تحصر، فمن الأدلة قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)} الأنعام: ٥٩، ومن السنة قوله- ﷺ- في أطفال المشركين: (الله أعلم بما كانوا عاملين).

وقد خالف في هذه المسألة طائفتان:

١- غلاة القدرية: فزعموا أن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها، وهذه طائفة كفرها كثير من السلف، وقد انقرضت ولا وجود لها اليوم ولا يُعرف من ينسب إليها من المتأخرين.

٢- الفلاسفة: قالوا إن الله لا يعلم الجزئيات، وإنما يعلم الأشياء على وجه كلي، أي: يعلم الكليات دون الجزئيات.

المرتبة الثانية: الكتابة، أي: أن الله- ﷻ- قد كتب كل ما هو كائن قبل أن يكون، كما قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢)} الحديد: ٢٢، قال الحافظ ابن كثير- رَحِمَهُ اللهُ -: " وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق

=

=

قبحهم الله". وقال في قوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢)}؛ "أي: أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله- ﷻ -؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون".

كما دل على ذلك قوله تعالى: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} الأنعام: ٣٨، فكل ما يجري مثبت في اللوح المحفوظ.

ومما يدل لذلك قوله- ﷺ -: ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة...)).

والكتابة لها أكثر من موضع:

١ - اللوح المحفوظ: وهي الكتابة الأزلية التفصيلية في اللوح المحفوظ.

٢ - الكتابة العمرية: التي تكون للجنين في بطن أمه.

٣- الكتابة الحولية: وتكون في ليلة القدر، فيكتب فيها ما يكون تلك السنة.

٤ - الكتابة اليومية: كتابة الملكين اللذين لا يفارقان ابن آدم بحال من الأحوال، وهي من قول الله تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩)} الرحمن: ٢٩، فهو سبحانه يحيي ويميت ويعطي ويمنع وينفع ويضر، ويرفع ويخفض، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، فما من شيء في السموات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته، فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدًا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، وقد دل على هذا أدلة كثيرة منها قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} الأنعام: ١١٢، وقوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} يس: ٨٢.

قال الإمام ابن القيم- رَحِمَهُ اللهُ -: " وقد دل على ذلك إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفكرة التي فطر الله عليها خلقه،

=

=

وأدلة العقول والعيان وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن...".

ومشيئة الله وإرادته كونية وشرعية:

أما الكونية: فهي المشيئة العامة، ومثالها قول نوح عليه السلام لقومه: {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} هود: ٣٤، فهذه إرادة كونية يتعين فيا وقوع ما أرداه الله تعالى، سواء أحبه، أم كرهه.

وأما الشرعية: فهي بمعنى المحبة للمراد، كقوله تعالى: {وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧)} النساء: ٢٧.

خالف في هذه المرتبة: المعتزلة ومن وافقهم فقالوا: أفعال العباد حادثة بمشيئتهم والله- عز وجل- لم يردها، فلا تعلق له بها.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق، أي: أن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أفعال العباد، فلا يقع شيء في هذا الكون إلا والله خالقه، ودليل ذلك قوله تعالى: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} غافر: ٦٢، ومن أدلة ذلك من السنة قوله- صلى الله عليه وسلم -: (إن الله يصنع كل صانع وصنعته)ـ قال الإمام البخاري- رحمه الله -: " فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة".

والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم، فأفعال العباد إذًا تسند إلى العباد فعلًا وتسند إلى الله خالقًاـ كما قال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)} التكوير: ٢٨- ٢٩.

وخالف في هذه المرتبة ثلاث طوائف:

١ - الجبرية: قالوا إن العبد مجبور على فعله، فالله- عز وجل- هو الفاعل لفعل العبد، كما أنه هو الخالق له، فلا فعل ولا علم لأحدٍ غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال

=

=

إلى المخلوقين على المجاز، كما يقال: زالت الشمس ودارت الرحى من غير أن يكون فاعلين أو مستطيعين لذلك.

٢- المعتزلة: نفوا تعلق أعمال العباد بالله- ﷻ- وأنكروا أن يكون الله خالقًا لها وأن تكون تحت مشيئته، وإنما يحدثها العبد استقلالًا.

٣- الأشاعرة: أرادوا أن يوفقوا بين القولين السابقين فجاءوا بنظرية الكسب التي تكون في مآلها جبرًا محضًا، فقالوا: للعبد قدرة حادثة غير مؤثرة في الفعل لامتناع اجتماع قدرتين مؤثرتين على أثر واحدٍ، وإنما أجرى الله العادة بخلق مقدروها مقارنًا لها.

وهذه المرتبة والتي قبلها -أي المشيئة- هما محل النزاع بين أهل السنة والجماعة ومن خالفهم من الطوائف.

وبعد: فهذه هي المراتب، وإن شئت فقل الأركان التي يدور عليها رحى الإيمان بالقدر ذكرها الإمام ابن القيم، وأفاض في الكلام عليها والاستدلال لها فأفاد وأجاد- رَحِمَهُ ٱللَّهُ -ـ كما أوضح هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية- رَحِمَهُ ٱللَّهُ- في العقيدة الواسطيةـ بل إن كتب العقيدة اهتمت بمسائل القدر أيما اهتمام، وأطالت في ذكره، والحديث عنه، كالإبانة لابن بطةـ والشريعة للآجريـ وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائيـ والحجة في بيان المحجة للأصبهانيـ وغيرها.

ثالثًا: بيان أهمية الإيمان بالقضاء والقدر:

دل الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وإجماع سلف الأمة على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه من أصول الإيمان الستة، التي لا يتم إسلام العبد ولا إيمانه إلا بها، كما دلت على ذلك آيات من القرآن الكريم وأحاديث صحيحة مستفيضة بل متواترة عن الرسول الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم.

كما يعتبر موضوع القضاء والقدر من المواضيع المهمة لتعلقه بحياة الإنسان، فما

=

=

من إنسان يعيش في هذه الحياة، ويسير في مناكبها على أي ديانة كان، وفي أي اتجاه اتجه في حياته العملية أو العقدية أو غيرها؛ إلا وقضية القضاء والقدر عنده من القضايا التي تشغل باله في كل وقت. ومن هنا كان للإيمان بالقضاء والقدر أهمية عظمى، تبرز فيما يلي:

١ – الإيمان بالقدر طريق للخلاص من الشرك:

زعم المجوس بأن النور خالق الخير، وأن الظلمة خالقة الشر، كما زعمت القدرية بأن الله لم يخلق أفعال العباد لا الخير ولا الشر، وهؤلاء جميعًا أثبتوا خالقين مع الله – ﷻ –، وهذا شرك.

قال شيخ الإسلام – رَحِمَهُ اللهُ –: " اعلم أن أهل البدع من القدرية الجهمية والمجبرة والقدرية النافية لا يحمدون الله ولا يشكرونه، كما أنهم لا يعبدونه، وأما أهل الإلحاد من المتفلسفة والباطنية فهم أبعد عن حمده وشكره، وذلك أن المجبرة حقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا مُنعم، بل ولا إله يستحق أن يعبد ويُحب، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة، وإنما هو يفعل بمحض مشيئة ترجح الشيء على مثله لا لمرجِّح، وكل الممكنات عندهم متماثلة، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم، أو يريد فسادهم وهلاكهم وإضرارهم، يقولون: هذا كله عندهم سواء".

ومنهج أهل السنة العام في باب القدر، هو: الإيمان بأن جميع الكائنات واقعة تحت قدر الله، محكومة بقدره، ليس لها من الأمر شيء، فلا تملك لنفسها –فضلا عن غيرها– جلب نفع أو دفع ضر، وأن الأمور كلها بيد الله، فهو المعطي المانع، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فإذا آمن الإنسان بذلك وأيقن به انبعث إلى إفراد الله بالعبادة وتجنب الشرك بأنواعه، وأخلص الدين لله رب العالمين، ولم يخش إلا الله.

=

=

كما أن من منهجهم الإيمان بالقدر خيره وشره، وذلك أن كل ما يكون فقد شاءه الله، وأن الطاعات والمعاصي كلها بقضاء الله وقدره، واعتبار الخير والشر بالنسبة للمقضي المقدر، وأما تقدير الله وقضاؤه فكله خيرٌ كما قال النبي - ﷺ -: ((والشر ليس إليك)). وذلك أن القضاء والتقدير فعل الله، وأفعال الله - ﷻ - كلها خير وحكمة ليس فيها شر.

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ -: " الشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه، لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شرًا بالنسبة إلى محل وخيرًا بالنسبة إلى محل آخر، وقد يكون خيرًا بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه، كما هو شر له من وجه، بل هذا هو الغالب وهذا كالقصاص وإقامة الحدود وقتل الكفار، فإنه شر بالنسبة إليهم لا من كل وجه بل من وجه دون وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم لما فيه من مصلحة الزجر والنكال ودفع الناس بعضهم ببعض، وكذلك الآلام والأمراض إن كانت شرورًا من وجه فهي خيرات من وجوه عديدة... فالخير والشر من جنس اللذة والألم والنفع والضرر وذلك في المقضي المقدر لا في نفس صفة الرب وفعله القائم به، فإن قطع يد السارق شر مؤلم ضار له، وأما قضاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل وخير وحكمة ومصلحة".

لذا فإن الإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد وخلاص من الشرك؛ لأن ارتباطه مباشرة بالإيمان بالله تعالى، فقد جاء في صفاته سبحانه صفة العلم، والإرادة، والقدرة، والخلق، وعلى هذه الأسس قامت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر.

كما عد العلماء الإيمان بالقضاء والقدر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله، فالراضي بالقضاء والقدر راضٍ بالله، والساخط من القدر ساخط على الله، وهذه النكتة في

=

=

عطف الفعل "تؤمن" لما عد النبي - ﷺ - أركان الإيمان فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) في حديث جبريل المشهور.

كما أن الإيمان بالقدر هو المحك الحقيقي لمدى الإيمان بالله تعالى على الوجه الصحيح، وهو الاختيار القوي لمدى معرفة الإنسان بربه تعالى، وما يترتب على هذه المعرفة من يقين صادق بالله، وبما يجب له من صفات الجلال والكمال؛ وذلك لأن القدر فيه من التساؤلات والاستفهامات الكثيرة لمن أطلق لعقله المحدود العنان فيها.

٢- الإيمان بالقدر يحقق السعادة الدائمة والاطمئنان الكامل على الحاضر والمستقبل:

إن العبد المؤمن بالقدر خيره وشره يأخذ بالأسباب، ويدع تحقيق الآمال لربه تعالى، فإن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، ولا شك أنه يرضى بقسمة الله تعالى، ويقنع بما أعطاه، بل يفرح، وكل من الشكر والرضا والقناعة والفرح من أثر الإيمان بالقدر وفيها سعادة وطمأنينة، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، فلا يسيطر عليه الفزع، ولا يستبد به الجزع والهلع، مصداقًا لقوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١)} التغابن: ١١؛ لأنه يعلم أن كل شيء بقدر، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، فيكون بعيدًا عن الحيرة والتردد، محجبًا عن حياة القلق والاضطراب.

وذلك يحميه أيضًا من كثير من الأمراض النفسية والصراعات العصبية التي أصبحت سمة من سمات هذا العصر الذي نعيش فيه، فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدي بهم الجزع إلى أن يكفروا بالله، وبعضهم يجن، وبعضهم يصبح

=

=

موسوسًا، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات، وبعضهم يقتل نفسه.

ومن هنا فإن الإيمان بالقدر يورث السعادة الكاملة والاطمئنان على الحاضر والمستقبل؛

كما يوجب صدق الاعتماد عليه- ﷻ -.

٣- الإيمان بالقدر يورث القوة والحزم: الإيمان بالقدر يورث القوة في مواطن اليأس والخطر، والإقدام والشجاعة والبسالة عند ملاقاة الأعداء في الحروب؛ لأن المؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت قبل أجله المقدر له، فلا العيش في النعيم والنوم على الأسرة الموطئة بفرش الحرير تزيد في الأعمار، ولا الدخول في ساحات القتال ومنازلة الأعداء تقرب من الآجال، وتقصر الأعمار، قال تعالى: {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)} آل عمران: ١٥٤.

كما أن الإيمان بالقدر يورث الثبات على الحق، ومواجهة الباطل، فهو يهب صاحبه ثباتًا ورسوخًا على المنهج الصحيح، شعاره قوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)} التوبة: ٥١.

* ما جاء في البدع المتقابلة في الإيمان بالقضاء والقدر.

تمهيد: جاء الإيمان بالقضاء والقدر في القرآن الكريم واضحًا، وشرحه النبي- ﷺ- أتم الشرح، وتلقاه الصحابة عنه، فكانوا -رضوان الله عليهم- أعظم الناس فهمًا لحقيقة الإيمان بالقدر، فأثر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا أشجع الناس، وأكرمهم، وأتقاهم.

ثم دبَّ في هذه الأمة داء الأمم، فركبت سنن من كان قبلها، ودخلت الفلسفات اليونانية، والهندية، وعقائد اليهود المحرفة، والنصارى الزائغة، إلى بلاد

=

=

المسلمين، فظهرت بدعة القدرية في البصرة ودمشق، ووقع أول شرك في الأمة، وهو نفي القدر.

ومما لا شك فيه: أن باب القدر من علوم الغيب، لذا فقد حار النظار، والعقلاء قديمًا وحديثًا في شأنه، وفي فهم حقيقته، فلم يصلوا إلى اليقين والصواب؛ ذلك لأنهم التمسوا الهدى في غير مظانه، فحاروا، وحيروا، وتعبوا، وأتعبوا، فـ"كثر الاختلاف حول القدر، وتوسع الناس في الجدل والتأويل لآيات القرآن الواردة بذكره، بل وأصبح أعداء الإسلام في كل زمن يثيرون البلبلة في عقيدة المسلمين عن طريق الكلام في القدر، ودس الشبهات حوله".

وقد وفق الله سبحانه وتعالى أهل السنة والجماعة لفهم هذا الباب، وذلك لاتباع ما جاء في الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح؛ إذ لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الباب على وجه التفصيل فهمًا صحيحًا -إلا كما فهمه أهل السنة والجماعة- سلف هذه الأمة الصالح، وإذا نظرت إلى كتاب الله وسنة رسوله- ﷺ- انتظم العقد في هذا الباب، وظهرت ملامح الوسطية فيه، وسلمت من الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، كما تجد أن القرآن الكريم والسنة المطهرة ترشدنا إلى أبواب يستطيع العقل البشري أن يجول فيهاـ وتنهانا عن أمور يستحيل العقل أن يصل إليها.

لذلك فقد أنكر السلف التوليدات الحادثة عند الفرق حول هذا المسألة، وأجازوا الرد عليهم باصطلاحاتهم من باب الضرورة وإقامة الحجة، كما أنكروا ضرب النصوص بعضها ببعض

كما فعل المعتزلة والجبرية ومن وافقهم، وقالوا: بأن الواجب في القدر هو الإمساك عن الكلام والجدل حوله، ورأوا أن الغوص في الكلام على القدر ذريعة الخذلان والحرمان، لا سيما إذا كان من باب التنازع والتخاصم وتحكيم الأهواء

=

=

ومقاييس البشر.

قال ابن أبي العز- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع".

ولهذا كان الأسعد بالدليل والأوفق للحكمة والتعليل أهل السنة والجماعة الطائفة الوسط المقتصدة في اعتقادها، الذين جمعوا بين الأدلة، وسلكوا في طريقهم خير مسلك، فآمنوا بقضاء الله وقدره في مراتبه الأربع، وآمنوا بأن للعبد اختيارًا وقدرة. ولم يقفوا عند هذا الحد؛ بل تصدى علماء السنة للبدع المتقابلة في باب القدر، وبينوا عوارها، ودحضوا باطلها، وأظهروا الحق، ونشروه.

ويمكن إجمال أسباب انحراف الفرق في الإيمان بالقضاء والقدر إلى الأسباب التالية:

١ - الجهل بحكمة الله فيما يخلق ويقدر: معلوم أن حكمة الله- عَزَّ وَجَلَّ- في خلقه منها ما هو مدلل عليه، ومنها ما ليس بمعروف، ولذلك إذا جهلت الحكمة، فإن المرء يُسَلم، ولا يعترض، لكن المبتدعة لم يعرفوا حكمة الله- عَزَّ وَجَلَّ- في الأشياء، ولا حكمته فيما يقدر ويخلق من الخير والشر أو من المخلوقات بعامة، ولما لم يدركوا الحكمة، عارضوا فعل الله- عَزَّ وَجَلَّ- في ملكوته بما يرون من ظاهر رأيهم.

٢ - قياس أفعال الله- عَزَّ وَجَلَّ- على أفعال العباد فيما هو من قبيل العدل والظلم: نظر المبتدعة إلى أفعال الرب- عَزَّ وَجَلَّ -، فجعلوا ما هو عدل في تصرفات البشر واجبًا وعدلًا في تصرفات الرب- عَزَّ وَجَلَّ -، وجعلوا ما هو ظلم من تصرفات البشر محرمًا أو منفيًا وظلما في تصرف الرب، فضلوا في هذا الباب؛ لأن الخالق- عَزَّ وَجَلَّ- لا يقاس على المخلوق في أفعاله وفي تدبيراته في ملكوته. وقصدوا بذلك تعظيم الرب وتنزيهه: فالقدرية من المعتزلة وغيرهم قصدوا تعظيم الرب وتنزيهه عما ظنوه قبيحًا من الأفعال وظلمًا، فأنكروا عموم قدرته ومشيئته، ولم يجعلوه خالقًا لكل

=

=

شيء، ولا أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، بل قالوا: يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، ثم إنهم وضعوا لربهم شريعة فيما يجب عليه ويحرم بالقياس على أنفسهم، وتكلموا في التعديل والتجويز بهذا القياس الفاسد الذي شبهوا فيه الخالق بالمخلوق، فضلوا وأضلوا. وقابلتهم الجهمية الغلاة في الجبر، فأنكروا حكمة الله ورحمته.

٣- إحداث ألفاظ ومصطلحات جعلت أصلًا في هذا الباب، ثم حمل الكتاب والسنة عليها: مثل لفظ: الاستطاعة -بتفسيرهم- وما يطاق وما لا يطاق، والتكاليف، وأشباه ذلك، ومنها أيضًا -عند الجبرية- الكسب ونحوه، وفسروها بتفسيرات تخصهم، فضلوا في أصلٍ يجب الرجوع فيه إلى الدليل؛ لأن إحداث لفظ وإحداث مصطلح لا شك أنه سيترتب عليه أشياء كثيرة. ومن المعلوم أن هذه الأمور الغيبية -كالقدر- الاصطلاح عليها بألفاظ وأسماء لمسميات لم يأت عليها برهان أنه يجعل المرء يؤصل ويقعد بشيء لا أساس له، والعلم بالقرآن والسنة حجة على كل مخالف أحدث المصطلحات؛ لأن إحداث المصطلحات عقلي، واتباع الكتاب والسنة نقلي، ولهذا يغلب النقل العقل الحادث والمصطلح عليه في هذه المسائل.

٤- التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا: منشأ الغلط في باب القدر هو اعتقاد أن محبة الله- ﷻ- ورضاه، ومشيئته وإرادته متحدان أو متلازمان. وهذا أصل مشترك بين القدرية والمعتزلة والجبرية والجهمية والأشعرية. واعتقادهم بالتسوية مبنيٌّ على صفة المحبة لله- ﷻ -. فأنكرتها القدرية، بينما غلت فيها الجبرية، ثم بنى كل فريق على ذلك منهجهم في الغلو أو الجفاء في الإيمان بالقضاء والقدر.

٥- اعتمادهم على مقدمات فاسدة: الأساس في مخالفة تلك الفرق للنصوص

=

=

الشرعية إنما يرجع إلى شبهات عقلية سلموا بها قبل النظر في دلالات النصوص الشرعية، ثم نظروا إلى النصوص الشرعية بعد ذلك وفسروها بما يوافق تلك الشبهات، وبهذا يكون ضلالهم في موقفهم من النصوص الشرعية مضاعفًا، حيث تركوا دلالات تلك النصوص واعتمدوا على شبهات عقلية زعموا أنه لا يمكن اعتبار دلالات النصوص الشرعية معها، ثم عادوا على دلالات النصوص بعد ذلك بالتأويل ودعوى أنها معارضة لما هو معلوم بالضرورة، والاستشهاد بالمتشابه منها على ما ادعوه من المعاني الباطلة، فيما يتعلق بالقدر وأفعال العباد.

ومن أجل هذا: انقسم المبتدعة إلى طرفين متقابلين، طرف انتهج الغلو والإفراط والزيادة! ! وطرف سلك طريق التقصير والتفريط والنقصان!؛ لإعراضهم عن هدي المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين. وبيان ذلك في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: الانحراف المؤدي إلى التفريط في الإيمان بالقضاء والقدر.

لقد شغلت قضية القضاء والقدر أذهان الفلاسفة وأتباع الطوائف من أهل الملل من قديم الزمان، وما زالت حتى يومنا هذا، وضلال أهل الأهواء والبدع في هذا الأصل العظيم كضلالهم في باقي الأركان، وهذا ما وضحه الله- سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم من زعم بعضهم بأن الله لا يقدر الأمور، وإنما تسير على حسب جريان الدهر، فقال تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤)} الجاثية: ٢٤.

وكانت البداية لنشأة الاختلاف والكلام في القدر، تدور على أمرين:

أحدهما: نفي علم الله تعالى بالأشياء قبل وقوعها، وبالتالي نفي الكتابة، وهذا التقدير ينكره غلاة القدرية الأوائل، وقد انقرض مذهبهمـ كما ينكره الفلاسفة، القائلون: بأن الله لا يعلم الجزئيات، وإنما يعلم الأشياء على وجه كلي، أي: يعلم الكليات دون الجزئيات.

=

=

وقد تأثر اليهود والنصارى بالفلسفة القديمة، وتجد في كتبهم المحرفة ما يفيد إنكار علم الله تعالى.

الآخر: نفي خلق الله تعالى لأفعال العباد، والقول بأنها ليست واقعة بقدره، وأن العباد يخلقون أفعالهم ـ فجعلوا لله شريكًا في خلقه، واستدلوا استدلالًا أعور ببعض الآيات،

وأولوا ما عدا ذلك مما يخالف مذهبهم، وهذا التقدير ينكره متأخرو القدرية، بينما يثبتون علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها.

ولو ذهبنا نستجلي أقوال الناس في هذه المسألة لوجدنا أنها هي هي، لم تتغير قبل الإسلام أو بعده، فهي ترجع دائمًا إلى ثلاثة أقوال:

١ – قول الجبرية: الذين يقولون: بأن الله هو الخالق للأفعال، بينما الإنسان مجبور على أفعاله.

٢ – قول أهل حرية الإرادة: الذين يقولون: إن الله لا يوصف بأنه يخلق فعل العبد، بل الإنسان مستقل في أفعاله عن خالقه، وأنه هو الذي يخلق أفعاله، وهم يقولون هذا لسببين:

أ–أن فعل العبد فيه الأشياء المشينة مثل: الكفر، والزنا، والسرقة، والقتل.. إلخ، ولو قيل: أن الله هو الذي يخلق هذه الأشياء، لصار في هذا نسبة للأشياء السيئة إلى الله، وهو منزه عنها.

ب– أن خلق الفعل من الله يقتضي التفريق بين المكلفين، هذا خلق فعل طاعته، فأدخله الجنة، وهذا خلق فعل معصيته، فأدخله النار، وهذا ظلم؛ لأنه لم يساو بينهم في خلقه وفعله.

والخوض في هذا الباب: طريقة أهل الأهواء والمراء، وهي طريقة وعرة ودحضُ مزلة، مع نهي الشرع عنها أصلًا وفرعًا، كما أنه قدح في فعل الرب سبحانه وتنقص

=

=

لحكمته، وتحكيم في إرادته بمحض القياس العقلي الناقص، المتضمن لتنقص الشرع وصاحبه.

ويتبين مما سبق أن القدرية النفاة مفرطون في هذا الباب، مقصرون فيه بما سلبوا الله تعالى قدرته، وبقولهم إن العباد هم الخالقون لأفعالهم.

٣- قول أهل الوسط بين هؤلاء وهؤلاء، وهم الذين يثبتون القدر السابق، ويقولون أيضًا: إن للإنسان إرادة ومشيئة، ولكنها خاضعة لمشيئة الله، والإنسان وأفعاله مخلوق لله- ﷻ -، وهذا مذهب الأنبياء وأتباعهم؛ لأنه لا يحدث في ملك الله شيء إلا وهو خالق له سبحانه وتعالى.

ومن خلال ما سبق يمكننا الوقوف على طرق الانحراف المؤدية إلى التفريط في الإيمان بالقضاء والقدر، وهي:

أولًا: إرادة تنزيه الله- ﷻ- عن الشر:

منشأ ضلال هؤلاء في البداية هو أنهم أرادوا تنزيه الله- ﷻ- عن الشر، فوقعوا في نفي القدر، وهذا أصل التعطيل ومنشأ التفريط، فقالوا: بأن العبد مستقل بعمله في الإرادة، والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته في ذلك أثر، وقالوا بأن: أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها، وقالوا: إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئته الشاملة، وغلاتهم ينكرون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون مشيئته الشاملة، وقدرته النافذة، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن للكون إلهين: إله النور، وهو خالق الخير، وإله الظلمة: وهو خالق الشر ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)} الصافات: ٩٦.

ثانيًا: إرادة تنزيه الله- ﷻ- عن الظلم:

أرادت القدرية تنزيه الله- ﷻ- عن الظلم، حتى لا تنتفي عنه صفة العدل، فغلوا في

=

جانب التصديق بالأمر والنهي والوعد والوعيد، ما جرهم إلى الظن بأنه لا يتم هذا إلا بالتكذيب بالقدر- وزعموا أن هذا مقتضى العدل؛ فأدخلوا إنكار مشيئة الله وخلقه أفعال عباده في فروع أصل العدل الذي أصلوه؛ بل حكموا على أفعاله- ﷻ- بأحكام من جهة النظر إلى الخلق، فجعلوا فعلًا لله- ﷻ- واجبًا عليه بالنسبة للجميع، وجعلوا فعلًا لله- ﷻ- ممتنعًا عليه بالنسبة للجميع، وخلاف القدرية في مسألة الاستطاعة ناشئ عن أنهم قالوا: الواجب على الله- ﷻ- أن يجعل الناس سواء فيما يطيعهم، فكون هذا يوفق، وهذا يخذل، هذا غير سائغ؛ لأنه تفريق فإذا جعلنا الأصل هو أن يكون الناس سواسية.

فإن هذا قاعدة نبني عليها غيرها من مسائل القدر، وبهذا نشأت أقوال كثيرة محدثة في القدر وخلاف متنوع في المسائل العقلية، وما يجب على الرب- ﷻ -، وما لا يجوز عليه.

وهذه التسوية بين الجميع جعلتهم ينفون أن يكون هناك أمرٌ زائدٌ خص به هذا، أو منع ذاك، فجعلوها جميعًا قبل الفعل، وأما مع الفعل، وفي أثناء الفعل، فعندهم العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، وبالتالي فلو جعل هذا مستطيعًا للفعل، وهذا غير مستطيع للفعل، لكان الناس ليسوا سواسية فيما أعطاهم الله- ﷻ -، وبالتالي يترتب على هذا أن هذا ظلم.

والحق أن هذا العدل الذي أصلوه معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته؛ فهو بعيد عن العدل الذي هو وصف قضائه جل وعلا؛ لأن جميع أعمال الله- ﷻ- بين الفضل والعدل وليس فيها ظلم إطلاقًا، فإن أعطى وأنعم فبفضله، وإن منع وعذب فبعدله، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ينزه الله عنه، والعدل هو وضع الشيء في موضعه ومن تمام عدله- ﷻ- أن أتقن صنعه، وشرعه، وجزاءه {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} فهو العدل الكامل في عدله- بل أعظم من هذا أنه

=

حرم الظلم على نفسه كما في الصحيح والعباد قاصرون عن معرفة الحكم في أنفسهم، فكيف بالحكم في أفعال الله- ﷻ- وصفاته وتصرفه في ملكوته؟ !.

ثالثًا: اطراد ما التزمه أهل البدع من أصولهم الفاسدة:

لذا نجد أن الخوارج قد نالهم الاختلاف في هذا الركن عن طريق قولهم: بأن مرتكب الكبيرة كافر خالد مخلد في النار، فهم عندما يجعلونه كافرًا -وقد كتبه الله عنده من المؤمنين- خالفوا كتابته ومشيئته، وعندما يجعلونه من أهل النار -وقد جعله الله من أهل الجنة- يؤدي قولهم إلى رد المشيئة والكتابة ضمنًا وتلويحًا لا تصريحًا، وبذلك يقع الخلل عندهم في القضاء والقدر والله أعلم.

كما نلحظ الخلل الكبير الذي وقعت فيه الشيعة، حينما قالوا بعقيدة البداء على الله- ﷻ -، وهذه العقيدة تعارض القضاء والقدر؛ لأن وصفهم الله- ﷻ- بالبداء يستلزم منه وصفه سبحانه وتعالى بالجهل، وعلى ذلك فلا علم ولا كتابة ولا إرادة ولا خلق، فعن طريق قولهم بالبداء يلزمهم نفي القضاء والقدر ومحو ما كتبه سبحانه وتعالى، أما متأخرو الشيعة فقد قالوا بقول المعتزلة، فبذلك زاد الخلل عندهم في هذا الركن يقول شيخ الإسلام- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " وأما عمدتهم في النظر والعقليات، فقد اعتمد متأخروهم على كتب المعتزلة، ووافقوهم في مسائل الصفات والقدر".

أما المعتزلة فقد وقعت في خلل كبير في هذا الركن من أركان الإيمان، حيث قالوا: بأن الله يفعل المفعولات ويخلق المخلوقات لحكمة مخلوقة منفصلة عنه، فهم أثبتوا الحكمة من أفعال الله تعالى كما أثبتها أهل السنة والجماعة، ولكنهم انحرفوا عن السلف حين أثبتوا لأفعال الله حكمة منفصلة عنه سبحانه وتعالى لا ترجع إليه، وحصروا هذه الحكمة في المخلوق ثم زعموا أن هذه الحكمة لا تتم إلا بأن يكون العبد خالقًا لأفعاله، والله ليس خالقًا لها حتى لا تنتفي صفة العدل

=

=

عنه، ثم تمادوا وقالوا بوجوب فعل الصلاح والأصلح وما تحته من مسائل تعارض وتخالف هذا الركن الجليل من أركان الإيمان، وهم قد شابهوا الخوارج في تخليدهم لمرتكب الكبيرة في النار، فلازم قولهم رد قضاء وقدر الله سبحانه وتعالى في هذا العاصي، بحيث يجعلونه في أهل النار أن والله قد يكون كتبه في أهل الجنة، كما يوجبون على الله إدخال الطائع الجنة وقد يكون الله- ﷻ- كتبه مع أهل النار، فليزمهم رد القضاء والقدر السابق، ولهم مخالفات أخرى في هذا الركن جاءت عن طريق تماديهم وغلوهم في هذا الباب.

رابعًا: محاولة إدراك حقيقة القدر بالعقل المجرد، ومخالفتهم للنصوص: تكلف المبتدعة تقديس العقل، فردوا به نصوص الوحي، زاعمين كفاية العقل في إدراك الفرق بين الحسن والقبيح، وبهذا يكون ضلالهم في موقفهم من النصوص الشرعية مضاعفًا، حيث تركوا دلالات تلك النصوص واعتمدوا على شبهات عقلية زعموا أنه لا يمكن اعتبار دلالات النصوص الشرعية معها.

يقول ابن قتيبة- رَحِمَهُ اللَّهُ- عنهم: " ولما اطرد لهم القول على ما أصلوه، ورأوه حسن الظاهر قريبًا من النفوس، يروق السامعين ويستميل قلوب الغافلين، نظروا في كتاب الله فوجدوه ينقض ما قاسوا، ويبطل ما أسسوا، فطلبوا له التأويلات المستكرهة، والمخارج البعيدة، وجعلوه عويصًا وألغازًا، وإن كانوا لم يقدروا من تلك الحيل على ما يصح في النظر ولا في اللغة".

فالأساس إذًا في مخالفة تلك الفرق للنصوص الشرعية إنما يرجع إلى شبهات عقلية سلموا بها قبل النظر في دلالات النصوص الشرعية، ثم نظروا إلى النصوص الشرعية بعد ذلك وفسروها بما يوافق تلك الشبهات، وهذا ما لا يُعجز كل مبطل، والذي جلب لهم هذا الخلط والاضطراب والحيرة: أنهم رتبوا إثباتهم لتعلق أفعال العباد بقدرة الرب وقدرة العبد على إدراكهم لكيفية الصلة بين القدرتين، لا على

=

=

مجرد التسليم بما دلت عليه الضرورة من ثبوتهما.

ومن ثم توهموا أن هناك معارضة بين العقل والنقل ولما كان العقل عندهم مقدسًا منزهًا عن الخطأ، نفوا وعطلوا وأولوا ما دل عليه النقل، وركنوا إلى قواعدهم العقلية وأصولهم الفلسفية، وجعلوها عمدة في ردّ ما ورد به الشرع بدعوى معارضته لها.

ومن هذه الشبهات التي ظل بسببها المبتدعة في باب القدر:

أ-قولهم: لو كانت أفعال العباد خلقًا لله لبطل التكليف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولسقطت بعثة الرسل، ولقبحت المساءلة والمحاسبة والمعاقبة؛ لأنه لا يجوز أن ينهى الله عما خلقه، ولا أن يأمر بما يفعله هو؛ إذ لا فائدة من ذلك، كما أنه لا يجوز أن يثيب ويعاقب على فعله.

ب- أنه يحسن المدح على الحسن من أفعال الناس والذم على قبيحها دون المدح والذم على حسن الهيئة وضده، أو طول القامة وقصرها، فدل هذا الفرق على أن أفعال العباد محدثة من جهتهم بخلاف الهيئة والصورة فإنها من عند الله.

ت- أنا "نحتاج في هذه الأفعال إلى آلات وقدر وارتفاع الحواجز؛ لأنه إذا أراد الرامي الإصابة فلا بد له من قوس وآلة، وألا يكون بينه وبين المرمى حاجز، وأن يكون عالمًا، وأن يكون قويًا ليبلغ الرمي بشدة اعتماده، ولو كان من فعل الله تعالى لما احتاج إلى ذلك؛ لأنه تعالى فيما يفعله لا يحتاج إلى هذه الأمور، تعالى الله عن ذلك".

وكل هذا مردود بالكتاب والسنة والإجماع بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وليس بعد الحق إلا الضلال، مع ضرورة التسليم بالشرع والقدر، واستحالة التعارض بينهما.

المطلب الثاني: الانحراف المؤدي إلى الإفراط في توحيد الإيمان بالقضاء والقدر.

=

ظَهَر قول مضاد معاكس لقول القدرية، وهو القول بالجبر، والذي يثبت أصحابه القدر بمراتبه، لكنهم سلبوا العبد قدرته واختياره، وقالوا: إنه مجبور على أفعاله، وأنه لا يقدر منها على شيء؛ لأنها مكتوبة عليه، فلا أثر لإرادته، ولا لقدرته بل هو كالريشة في مهب الريح، فليس له فعل حقيقة، وليس له تصرف حقيقة، ولا كسب حقيقة، وإنما هذه أمور مجازية، وفعل العبد هو في الحقيقة فعل الله- ﷻ -، لكن أضيف للعبد اقترانًا، ولم يضف إليه حقيقة، وأخرج بعضهم لفظ الكسب، وعللوا به.

وقد سبقهم إبليس فاحتج على الله بالقدر: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)} الحجر: ٣٩، فنسب الغواية إلى الله تعالى، وأخذ أهل البدع عنه {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} الزخرف: ٢٠، {وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} النساء: ١٥٥، كما أن هؤلاء الجبرية يسمون بالقدرية المشركية؛ لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: {لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا} الأنعام: ١٤٨، فكانت هذه الأقوال السابقة بذرة لزرع القول بالجبر والخوض في القضاء والقدر على حسب الأهواء والآراء.

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون: أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم، وهذا كلام ظاهر البطلان، بخلاف ما عليه أهل السنة، الذين يقولون: إن الله هو الخالق، والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب، والعقاب.

ولا تزال هذه الأقوال تقال على ألسنة طوائف من أهل الأهواء والبدع كالمرجئة- الأشاعرة والجهمية الكلابية-، والجبرية، وغلاة الصوفية. ومن يعتقدون تأثير الكواكب، وغيرهم، وكما أن بدعة القدر ظهرت قديمًا، فهي وما تزال موجودة إلى الآن.

ومن أجل هذا فإن الانحراف المؤدي إلى الإفراط في الإيمان بالقضاء والقدر، يأتي

=

من طريقين، هما:

أولًا: إرادة تنزيه الله- سبحانه وتعالى- عن العجز الذي رماه به القدرية:

لما ظهر من ينكر علم الله بالجزئيات ومن ينكر مشيئة الله وخلقه، ظهر في المقابل من يثبت لله- ﷻ- خلق المخلوقات وأمر المأمورات لا لعلة ولا لحكمة؛ بل إنه تعالى فعل ذلك لمحض المشيئة والإرادة، وتسويتهم بين محبة الله ومشيئته، ونفيهم تعليل أفعال الله، أو أن تكون له فيها حكمة تعود إليه، نتج عن هذا أن جوزوا عقلًا كل ممكن عليه سبحانه، حتى تعذيب أوليائه وتنعيم أعدائه، وأن يأمر بما لا منفعة فيه، بل ما يكون ضررًا محضًا؛ لأنه تصرف في ملكه، ولا ملك إلا ملكه فيكون الظلم ممتنعًا عنه، وكل ما شاءه الله حسن؛ لأنه يحبه.

وهذا النفي لحكمة الله- سبحانه وتعالى- دفعهم إلى سلب العباد إرادتهم ومشيئتهم، وإلى القول بأن العبد مجبور على فعله، ولا قدرة له ولا اختيار، في مقابل قدرة الله واختياره، وأن الله وحده هو الخالق لأفعال العباد وأعمالهم، إنما تنسب إليهم مجازًا كما تنسب إلى الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة وطلعت الشمس وغربت واهتزت الأرض وأنبتت إلى غير ذلك، وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضًا جبر، وهذا ما قالت به الأشاعرة والجهمية.

ومع أن الكلابية يثبتون الحكمة لله- ﷻ- إلا أنهم يجعلونها قديمة، فيزعمون أن الله تعالى لم يزل راضيًا عمن علم أنه سيموت مؤمنًا وإن كان أكثر عمره كافرًا، ولم يزل ساخطًا على من علم أنه سيموت كافرًا، وإن كان أكثر عمره مؤمنًا، وإرادة الله سبحانه وتعالى لكون الشيء هو الكراهة ألا يكون، ويزعمون أن محبته ورضاه وسخطه وإرادته كل ذلك قديم، وقولهم واضح البطلان حيث يؤدي إلى رد الصفات الاختيارية ورد النصوص من الكتاب والسنة فظهر خلل المرجئة في هذا الموضع.

=

=

والخلاصة أن نفي قدرة العبد واختياره، وإخراج أفعاله عن أن تكون أفعالًا له؛ وإنما هو آله محضة، مضطرٌ إلى جميع ما فيه من حركة أو سكون، وأن إضافة الفعل إليه مجازًا، والفاعل الحقيقي هو الله تعالى، كل هذا ترتب عليه مفاسد كثيره، منها:

١- اعتقادهم أنهم مكرهون على المعاصي، مقهورون على فعل السيئات، من غير اختيار منهم البتة، وبناء على هذا اعتقدوا أنهم إذا عُذبوا على السيئات فإنما يعذبون على ما لا صنع لهم فيه؛ بل يعذبون على فعله هو- سبحانه وتعالى- عما يقولون- إذ العبد عندهم لا فعل له، وقد بلغ التجرؤ أقصاه عندما تبجح من تبجح بالمدافعة عن إبليس زاعمين أن الله تعالى ظلمه، وأنه أجبره على الحال التي هو فيها، وأنه منعه التوبة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- أن البعض منهم تدرج في الأمر فاحتج بالقدر على المعاصي، زاعمًا أن ذلك بإرادة الله ومشيئته وأنه هو الخالق لهذا الفعل.

٣- قرر بعضهم أن أعمالهم لا توصف بحسن ولا قبح، فتذرع من غلا منهم إلى إنكار الفرق بين المأمور والمحظور، بل إلى أن يروا أفعالهم كلها طاعات لموافقتها القدر.

٤- صار هذا الانحراف إلى مزلق الجبر ذريعة إلى الانسلاخ من الشرع وطي بساط الأمر والنهي.

ولو صح ما قالوه من أن أفعال كافة العباد اضطرارية لما صح شيء في العقل البتة؛ بل وأبطلت الشرائع وسقطت التكاليف جملة فإنه لا يتصور تعلق الأمر والنهي بأفعال اضطرارية غير اختيارية.

ثانيًا: الغلو في شهود خصائص الربوبية:

كذلك فالغلو في شهود خصائص الربوبية أدى إلى إيجاب الرضا بكل مقضي؛

=

=

وليس في كتاب الله، ولا سنة رسوله- ﷺ -، ولا كلام أحد من السلف ما يدل على أنه يجب أو يستحب الرضا بكل مقضي، ومنشأ ذلك -والله أعلم- هو الغلو في جانب القضاء والقدر، وذلك بشهود ذلك منفصلًا عن الأمر والنهي الذي هو مقتضى توحيد الألوهية.

ومقتضى التسليم بتوحيد الربوبية، هو الإيمان بعموم خلق الله- سبحانه وتعالى- لجميع المخلوقات، ومنها أفعال العباد، مع الجزم بنسبة أفعال العباد إليهم نسبة حقيقية، لتوقف التكليف على ذلك، إذ لا يمكن تكليف من لا ينسب إليه الفعل نسبة حقيقية، والإخلال بهذا مفضٍ إلى جعل القدر حجة في باب المعصية، والأمر ليس كذلك، فليس لأحد أن يحتج بالقدر على معاصيه، بل عليه التوبة والاستغفار، وإنما يحتج بالقدر في باب المصائب لا المعائب؛ فليس لأحد حجة على الله.

لذا يفرق الإمام ابن القيم بين ما يضاف إلى قدرة الله تعالى وما يضاف إلى قدرة العبد من أفعال العباد، فيقول: " يضاف الفعل إلى قدرة العبد إضافة السبب إلى مسببه، ويضاف إلى قدرة الرب إضافة المخلوق إلى الخالق، فلا يمتنع وقوع مقدور بين قادرين، قدرة أحدهما أثر لقدرة الآخر... وإذا عرف هذا فنقول: الفعل وقع بقدرة الرب خلقًا وتكوينًا، كما وقعت سائر المخلوقات بقدرته وتكوينه، وبقدرة العبد سببًا ومباشرة، فالقدرة الحادثة وأثرها واقعان بقدرة الرب ومشيئته".

يتضح لنا مما سبق تفرد منهج أهل السنة بأنه وسط بين هذه البدع المتقابلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " وهم -أي: أهل السنة- وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ

=

=

كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (القمر: ١٨ - ٢٢)، للسائل أن يسأل عن تكرر قوله تعالى (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) في قصة عاد مرتين ولم يقع في قصة قوم نوح وقصة ثمود بعد إلا مرة واحدة فما وجه تكرار ذلك في قصة عاد مرتين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن عادًا لما كذبوا هودًا، عليه السلام، امتحنوا بالقحط ثلاث سنين، واشتد الأمر عليهم حتى بعثوا وجوههم إلى مكة ليستسقوا لهم، وقد اشتد الأمر عليهم، وهذا أشد تخويف لو وفقوا للتذكر، وقد خوف بذك آل فرعون قال تعالى (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (الأعراف: ١٣٠)، فخوفت بذلك عاد، فلما لم يجد ذلك عليهم مع أليم أمتحانهم به أهلكوا بالريح العقيم، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، فامتحنوا بعذابين، وإنما كان أخذ قوم نوح قبلهم وهلاكهم بالطوفان، ولم يتعرف من الكتاب العزيز أنه تقدمهم قبله أخذ بغيره من ضورب من أهلك به غيرهم، وكذلك ثمود أخذوا بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والحجارة، وإنكا تكرر الإمتحان بعد عاد على آل فرعون فأخذوا بضروب من العذاب والامتحان إلى أن أغرق الله آخرهم مع فرعون، وممن أشار الكتاب العزيز إلى تنوع أخذهم قوم شعيب، ولم يقع ذكرهم في هذه السورة، فلما أخذت عاد بالسنين ثم اسؤصلوا بالريح العقيم ورد متكررًا، فأشار قوله أولًا: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) إلى ما قدم لهم من منع المطر وشدة السنين عليهم وما أنذروا به من ذلك، وأشار قوله ثانيًا: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) إلى استئصالهم بالريح العقيم، ويجري مع ذكره ويشير إليه قوله تعالى: (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ) (الأعراف: ٧١)، والرجس هنا العذاب ومنه أخذهم بالسنين، وأما الريح العقيم فمن غضبه سبحانه إلى ما يلحقهم منه في

=

=

الآخرة، قال تعالى: (وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) (هود: ٦٠)، فتكرر قوله تعالى: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) مرتين مشيرًا إلى ما قدم لهم مما باشروه وشاهدوه من العذاب بالسنين وقطه دابرهم واستئصالهم بالريح العقيم وجاريًا مع هذا التنويع من امتحانهم في الدنيا والآخرة. ولما لم يذكر من حال قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط مثل هذا التنويع لم يتكرر ما ورد في أعقاب قصصهم من قوله: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ)، وتناسب ذكل كله أتم مناسبة، وجرى مع كل قصة ما يلائمها فإن قيل: فإن آل فرعون قد تكرر عليهم الامتحان قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ) (الأعراف: ١٣٠) وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك ولم يقع التنبيه على تعذيبهم وإنذارهم متكررًا كما وقع في قصة عاد؟ فالجواب أن قصة آل فرعون لم يقع تعقيبها بقوله: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) كما ورد في القصص الثلاث، وإذا لم يرد تعقيبها بذلك فقد سقط السؤال عن التكرر، ثم أعقبت بما يحرز امتحانهم بأشد امتحان وهو قوله تعالى (فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ) (القمر: ٤٢). فلما خالف إيرادها تلك القصص ولم يجر في ذلك التعقيب مجراها لم يلزم السؤال المفروض، والله أعلم (بما أراد).

وأما الجواب عن قصة عاد فإنما اختص ما نزل فيها من كتاب الله بذكر عذابين أحدهما قوله تعالى: (لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (فصلت: ١٦) والثاني قوله: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) (فصلت: ١٦)، فأشار قوله أولًا: (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ) إلى عذابهم في الدنيا، وأشار التكرار إلى عذاب الآخرة. وهذا الجواب، والله أعلم: بعيد لأن سورة القمر بأسرها مقصودها تذكير كفار العرب من قريش بغيرهم بما نزل بمن تقدمهم من كذبي الأمم، وإنما ذكروا بحاصل قد وقع بمن سلك مسلكهم ليتعرفوا خبره فيتعظوا، وعلى هذا جرى تذكارهم في الكتاب العزيز، فتارة بما يشاهد من خلق السماوات والأرض

=

سورة الرحمن[1]

=

وشبه ذلك، وتارة بما يعلم خبرًا. أما وعظهم بعذاب الآخرة وهم يكفرون بالرحمن فبعيد ولا يطابق قوله عقب كل قصة: (فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) ولا قوله: (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (القمر: ١٥) فتأمله، وهو أعمد جوابي صاحب كتاب الدرة وأراه (لايصلح)، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٥٩-٤٦٠).

(١) السّورة مكِّيّة كلها. قالته عائشة وابن عباس وابن الزبير وبه قال الحسن وعطاء وعكرمة وجابر ومقاتل والجمهور.

قال ابن عاشور: "الأصح أنها مكية كلها، وهي في مصحف ابن مسعود أول المفصل".

قال الفيروزآبادي: "السورة مكية بالاتفاق".

قال ابن الجوزي: "هي مكّيّة بإجماعهم".

قال ابن عاشور: "هي مكية في قول جمهور الصحابة والتابعين".

* أسماء السورة:

وردت تسميتها بـ «سورة الرحمن» في أحاديث الرسول -ﷺ-، وكذلك سميت في كتب السنة وفي المصاحف.

ووجه تسمية هذه السورة بـ «سورة الرحمن»، أنها ابتدأت باسمه تعالى: {الرَّحْمَنُ} [الرحمن: ١].

قال البقاعي: "فمقصودها بالذات: إثبات الاتصاف بعموم الرحمة، ترغيبا في إنعامه، بمزيد امتنانه وترهيبا من انتقامه، بقطع إحسانه، وعلى ذلك دل اسمها «الرحمن»، لأنه العام الامتنان".

وتسمى: «عروس القرآن» ذكره البقاعي والسيوطي وروي البيهقي عن علي رضي الله عنه،

=

=

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لكل شيء عروس، وعروس القرآن الرحمن".

وهذا لا يعدو أن يكون ثناء على هذه السورة وليس هو من التسمية في شيء كما روي أن سورة البقرة فسطاط القرآنـ فالظاهر أن معنى: «لكل شيء عروس»، أي: لكل جنس أو نوع واحد من جنسه يزينه تقول العرب: عرائس الإبل لكرائمها فإن العروس تكون مكرمة مزينة مرعية من جمع الأهل بالخدمة والكرامة، ووصف سورة الرحمان بالعروس تشبيه ما تحتوي عليه من ذكر الحبرة والنعيم في الجنة بالعروس في المسرة والبذخ، تشبيه معقول بمحسوس ومن أمثال العرب: لا عطر بعد عروس -على أحد تفسيرين للمثل- أو تشبيه ما كثر فيها من تكرير فبأي آلاء ربكما تكذبان بما يكثر على العروس من الحلي في كل ما تلبسه.

قال البقاعي:"واسمها «عروس القرآن» واضح البيان في ذلك، لأنها الحاوية لما فيه من حلى وحلل وجواهر وكلل، والعروس مجمع النعم، والجمال والبهجة، في نوعها والكمال".

قال الطيبي:"أعرس الرجل يعرس فهو معرس إذا دخل بامرأته عند بنائها، والعروس -ها هنا- يحتمل وجهين:

أحدهما: الزينة، ومنه قوله تعالي: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَت} [يونس: ٢٤]، شبهها بالعروس إذا تزينت بالحلي والثياب الفاخرة.

وثانيهما: الزلفي إلي المحبوب والوصول إلي المطلوب، وذلك أنه كلما كرر قوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٦]، كأنه يجلو نعمة السابغة علي الثقلين، ويزينها ويمن عليهم بها".

وتسوى «سورة الرفرف» ذكره البقاعيـ وقال:"وكذا سميت: «الرفرف» بما في آيته من جليل الإنعام، البالغ إلى أنهى غايته".

=

=

* آياتها ثمانٍ وسبعون فى عدّ الكوفة والشام، وسبع فى الحجاز، وست فى البصرة. وكلماتها ثلاثمائة وإحدى وخمسون. وحروفها أَلف وثلاثمائة وستّ وثلاثون. المختلف فيها خمس آيات: الرّحمن، {خَلَقَ الإنسان}، الأوّل {لِلأَنَامِ} {الْمُجْرِمُوْنَ} {شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ}. مجموع فواصل آياتها (مرن) وقيل هذه الحروف الأَلف إلا {الْمَغْرِبَيْنِ} و {الْمُجْرِمُوْنَ}.

* معظم مقصود السّورة: المِنَّة على الخَلْق بتعليم القرآن، وتلقين البيان، وأَمر الخلائق بالعدل فى الميزان، والمنَّة عليهم بالعَصْف والرّيحان، وبيان عجائب القدرة فى طِينة الإِنسان، وبدائع البحر، وعجائبها: من استخراج اللؤلؤ والمَرْجان، وإِجرَاءِ الفُلْك على وجه الماءِ أَبدع جريان، وفناءِ الخَلْق وبقاءِ الرّحمن، وقضاءِ حاجات المحتاجين، وأَن لا نجاة للعبد من الله إِلاَّ بحجّة وبرهان، وقهره الخلائق فى القيامة بلهيب النَّار والدُّخَان، وسؤال أَهل الطاعة والعصيان، وطَوْف الكفار فى الجحيم، ودلال المؤمنين (فى نعيم الجنان. ومكافأَة أَهل الإِحسان بالإِحسان، ونشاط المؤمنين) بأَزواجهم من الحور الحِسان، وتقلبهم ورَودهم فى رياض الرضوان، على بساط الشاذَرْوان، وخطبة جلال الحقِّ على لسان أَهل التوحيد والإِيمان بقوله: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ}.

* المتشابهات: قوله: {وَوَضَعَ الميزان} أَعاده ثلاث مرّات فصرّح ولم يُضمر؛ ليكون كلّ واحد قائما بنفسه غير محتاج إِلى الأَوّل. وقيل: لأَنَّ كلّ واحد غير الآخر: الأَوّل ميزان الدّنيا، والثانى ميزان الآخرة، والثالث ميزان العقل. وقيل: نزلت متفرّقة، فاقتضى الإِظهار.

قوله: {فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} كرّر الآية إِحدى وثلاثين مرة، ثمانية منها ذُكِرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خَلْق الله وبدائع صنعه، ومبدأ الخَلْق ومَعادهم، ثمّ سبعة منها عَقِيب آيات فيها ذكر النَّار وشدائدها على عَدَد أَبواب جهنَّم، وحَسُن

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

الرَّحْمَنُ (١).

{الرحمن} الله تعالى.

عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢).

{علم} من شاء {القرآن}.

خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣).

{خَلَقَ الْإِنْسَان} أَيْ الْجِنْس.

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤).

{عَلَّمَهُ الْبَيَان} النُّطْق.

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥)

{الشَّمْس وَالْقَمَر بِحُسْبَانٍ} يَجْرِيَانِ.

وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦).

{وَالنَّجْم} مَا لَا سَاقَ لَهُ مِنْ النَّبَات {وَالشَّجَر} مَا لَهُ سَاق {يَسْجُدَانِ} يَخْضَعَانِ لِمَا يُرَاد مِنْهُمَا.

=

ذكر الآلاءِ عقيبها؛ لأَن في صرفها ودفعها نِعما توازى النعم المذكورة، أَوْ لأَنَّها حَلَّت بالاعداءِ، وذلك يُعد من أَكثر النّعماءِ، وبعد هذه السّبعة ثمانية فى وصف الجنان وأَهلها على عدد أَبواب الجنة، وثمانية أُخرى [بعدها] للجنَّتين اللَّتين دونها فمن اعتقد الثمانية الأُولى، وعمل بموجَبها استحقَّ كلتا الثمانيتين من الله، ووفّاه السبعة السابقة، والله أعلم.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧)

{وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَان} أَثْبَت الْعَدْل.

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨).

{أَلَّا تَطْغَوْا} أَيْ لِأَجْلِ أَنْ لَا تَجُورُوا {فِي الْمِيزَان} مَا يُوزَن بِهِ.

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩).

{وَأَقِيمُوا الْوَزْن بِالْقِسْطِ} بِالْعَدْلِ {وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَان} تنقصوا الموزون.

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠).

{وَالْأَرْض وَضَعَهَا} أَثْبَتَهَا {لِلْأَنَامِ} لِلْخَلْقِ الْإِنْس وَالْجِنّ وغيرهم.

فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١)

{فِيهَا فَاكِهَة وَالنَّخْل} الْمَعْهُود {ذَات الْأَكْمَام} أَوْعِيَة طلعها

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢).

{والحب} كالحنطة والشعير {ذو العصف} التين {وَالرَّيْحَان} الْوَرَق الْمَشْمُوم.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣).

{فَبِأَيِّ آلَاء} نِعَم {رَبِّكُمَا} أَيّهَا الْإِنْس وَالْجِنّ {تُكَذِّبَانِ} ذُكِرَتْ إحْدَى وَثَلَاثِينَ مَرَّة وَالِاسْتِفْهَام فِيهَا لِلتَّقْرِيرِ لِمَا رَوَى الْحَاكِم عَنْ جَابِر قَالَ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُول الله ﷺ سُورَة الرَّحْمَن حَتَّى خَتَمَهَا ثُمَّ قَالَ مَالِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا لَلْجِنّ كَانُوا أَحْسَن مِنْكُمْ رَدًّا مَا قَرَأْت عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَة مِنْ مَرَّة {فَبِأَيِّ آلَاء رَبّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إلَّا قَالُوا وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمك رَبّنَا نُكَذِّب فَلَك الحمد[1].

(١) قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}.

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الرحمن أيها الناس برحمته إياكم علمكم القرآن. فأنعم بذلك عليكم، إذ بصَّركم به ما فيه رضا ربكم، وعرّفكم ما فيه سخطه، لتطيعوه باتباعكم ما يرضيه عنكم، وعملكم بما أمركم به، وبتجنبكم ما يُسخطه عليكم، فتستوجبوا بذلك جزيل ثوابه، وتنجوا من أليم عقابه".

قال النحاس:"أي: من رحمته علّم القرآن فبصّر به رضاه الذي يقرّب منه وسخطه الذي يباعد منه ومن رحمته".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن ويسر حفظه وفهمه على من رحمه".

عن قتادة أنه قال: في تفسير: " {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ}، قال: نعمة والله عظيمة".

عن محمد بن السّائِب الكلبي: " {عَلَّمَ الْقُرْآنَ} علّم القرآنَ محمدًا".

قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} [الرحمن: ٣]، أي:"خلق جنس الإنسان".

قال السعدي: أي: " في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البديع تعالى البديع خلقه، أي إتقان".

وفي قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ} [الرحمن: ٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: آدم-عليه السلام-، قاله ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج.

عن قتادة، في قوله: {خَلَقَ الإِنْسَانَ}، قال:"الإنسان: آدم- صلى الله عليه وسلم-".

قال الثعلبي: علّمه" أسماء كل شيء، وقيل: علّمه اللغات كلّها، وكان آدم عليه السلام يتكلم بسبعمائة ألف لغة أفضلها العربية".

الثاني: يعني: النبي- صلى الله عليه وسلم- حكاه الزجاج وعزاه الثعلبي لابن كيسان.

الثالث: أنه أراد جميع الناس وإن كان بلفظ واحد، كما قيل: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} [العصر: ٢]. قاله الحسن وأبو العالية وابن زيد وحكاه الطبري وهو قول الأكثرين.

=

=

قال الزجاج:"يجوز في اللغة أن يكون الإِنسان اسمًا لجنس الناس جميعًا".

قال الطبري:"القولان [يعني: الأول والثالث] كلاهما غير بعيدين من الصواب، لاحتمال ظاهر الكلام إياهما".

قوله تعالى: {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: ٤]، أي:"علَّمه البيان عمَّا في نفسه تمييزًا له عن غيره".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: علَّم الإنسان البيان".

قال النحاس:"فهو خبر بعد خبر".

وفي قوله تعالى: {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: ٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن البيان الحلال والحرام، قاله قتادة.

عن قتادة: " {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}، الدنيا والآخرة ليحتجّ بذلك عليه".

قال قتادة:"علمه الله بيان الدنيا والآخرة بين حلاله وحرامه، ليحتجّ بذلك على خلقه".

الثاني: يعني: الخير والشر، قاله الضحاك والربيع بن أنس وقتادة.

قال قتادة: "تَبَيَّنَ له الخيرُ والشرّ، وما يأتي، وما يدع".

الثالث: أن البيان: الكلام، قاله وأبو العالية ومرّة الهمذاني وابن زيد وبه قال ابن قتيبة.

قال السدي: "علّم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به".

وقال:"محمد ابن كعب: ما يقول وما يقال له".

الرابع: النطق والتمييز. قاله الحسن. وبه قال ابن كثير.

قال ابن كثير:"قول الحسن ها هنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف

=

=

مخارجها وأنواعها".

الخامس: الكتابة والخط بالقلم. نظيره {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} [العلق: ٤]، حكاه الثعلبي وهو مأثور.

السادس: الهداية، قاله ابن جريج.

السابع: العقل، لأن بيان اللسان مترجم عنه. حكاه الماوردي.

قال الزجاج:"جعله مميزًا حتى انفصل الإنسان من جميع الحيوان".

الثامن: يعني: بيان كل شيء. قاله مقاتل.

التاسع: أن البيان ما اشتمل على أمرين: إبانة ما في نفسه ومعرفة ما بين له. أفاده الماو.

العاشر: يعني: علّمه الكلام الذي هو من نفس الروح وفهم العقل وفطنة القلب وذهن الخلق وعلم نفس الطبع، ألهم الله ذلك آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين ذلك. قاله سهل بن عبد الله.

الحادي عشر: علّم النبي -عَلَيْهِ السَّلَامُ- القرآن الذي فيه بيان كل شيء.- حكاه الزجاج.

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن الله علَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه، لأن الله جلّ ثناؤه لم

يخصص بخبره ذلك، أنه علَّمه من البيان بعضا دون بعض، بل عمّ فقال: علَّمه البيان، فهو كما عمّ جلّ ثناؤه".

قال السعدي: وميزه على سائر الحيوانات. بأن {عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه".

قوله تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} [الرحمن: ٥]

=

=

في تفسير {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}، أقوال:

أحدها: يعني: بحساب، قاله ابن عباس وأبو مالك وقتادة.

قال ابن عباس:"بحساب ومنازل يرسلان".

قال ابن عباس:"يجريان بعدد وحساب".

قال قتادة:"أي: بحساب وأجل".

قال قتادة:"يجريان في حساب".

و «الحسبان»: مصدر الحساب، وقيل: جمعه.

الثاني: أي: أنهما يجريان بقدر. قاله الضحاك.

الثالث: معناه: أنهما يدوران في مثل قطب الرحا. قاله مجاهد.

عن مجاهد، قوله: {بِحُسْبَانٍ}، قال: "كحسبان الرحا".

الرابع: معنى الحسبان هذه آجالها، فإذا انقضى الأجل كانت القيامة، قاله السدي.

الخامس: أنه يقدر بهما الزمان لامتياز النهار بالشمس والليل بالقمر، ولو استمر أحدهما فكان الزمان ليلًا كله أو نهارًا كله لما عرف قدر الزمان، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"حسب بهما الدهر والزمان لولا الليل والنهار، والشمس والقمر لم يدرك أحد كيف يحسب شيئا لو كان الدهر ليلا كله، كيف يحسب، أو نهارا كله كيف يحسب".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: الشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل، لأن الحسبان مصدر من قول القائل: حسبته حسابا وحسبانا، مثل قولهم: كفرته كفرانا، وغفرته غُفْرانا. وقد قيل: إنه جمع حساب، كما الشهبان: جمع شهاب".

قوله تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} [الرحمن: ٦]

أي: والنجوم التي في السماء أو النبات الذي ينجم ويطلع من الأرض ولا ساق له،

=

=

وأشجار الأرض التي لها ساق، تعرف ربها وتسجد له، وتنقاد لما سخرَّها له مِن مصالح عباده ومنافعهم.

واختلف أهل التفسير في معنى «النجم» -في هذا الموضع-، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن النجم -ههنا- يعني به: ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع: قَدْ نَجَم. ذكره الزجاج.

الثاني: أن النجم: نجم السماء، وهو موحد والمراد به جميع النجوم، قاله الحسن ومجاهد وقتادة.

قال قتادة:"إنما يريد النجم".

قال الزجاج:"وهذا جائز أن يكون، لأن الله- ﷻ- قد أعلمنا أن النجم يسجد، فقال: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ} [الحج: ١٨]".

الثالث: أن النجم: النبات الذي قد نجم في الأرض وانبسط فيها، ليس له ساق مثل البقل ونحوه، والشجر ما كان على ساق، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وسفيان والسدي والكلبي.

عن ابن عباس، قوله: " {وَالنَّجْمِ}، قال: ما يُبسط على الأرض".

قال سعيد بن جبير:"النجم كل شيء ذهب مع الأرض فرشا، قال: والعرب تسمي الثبل نجما".

قال سفيان:"النجم: الذي ليس له ساق".

قال السدي:"النجم: نبات الأرض".

قال الطبري:"والصواب قول من قال: عُنِي بالنجم: ما نجم من الأرض من نبت لعطف الشجر عليه، فكان بأن يكون معناه لذلك: ما قام على ساق وما لا يقوم على ساق يسجدان لله، بمعنى: أنه تسجد له الأشياء كلها المختلفة الهيئات من

=

=

خلقه، أشبه وأولى بمعنى الكلام من غيره".

قال يحيى بن سلام:"النَّجم كلُّ نبت ليس له ساق، والشَّجر كلُّ ما قام على ساق".

قال الفراء:"النجم: ما نجم مثل: العشب، وَالبقل وشبهه. والشجر: ما قام عَلَى ساق".

قال أبو عبيدة:"الشجر: ما كان على ساق، والنجم: ما نجم من الأرض ولم يكن على ساق ومجازها على الأشجار وثنّى فعلهما على لفظهما".

قال الزجاج:"قال أهل اللغة وأكثر أهل التفسير: «النجم»: كل ما نبت على وجه الأرض مما ليس له سَاق، و «الشَجَرُ»: كل ما له ساق".

قال الطبري: "أجمعوا على أن الشجر ما قام على ساق".

عن ابن عباس، قوله: " {وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}، قال: الشجر: كل شيء قام على ساق". وروي عن سعيد بن جبير مثله.

قال سفيان:"الشجر الذي له سُوق".

قال قتادة:"الشجر: شجر الأرض".

قال سهل بن عبد الله: "قوله تعالى: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٨- ٨٩]، قال: وحكي عن محمد بن سوار عن أبي عمرو بن العلاء قال: معناه نظر إلى النبات، كقوله: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ} [الرحمن: ٦]، وأراد بالنجم ما لا ساق له من النبات، وبالشجر ما له ساق".

واختلفوا في سجود «النجم والشجر»، على خمسة أقوال:

أحدها: هو سجود ظلهما، قاله سعيد بن جبير والضحاك وأبو رزين. وبه قال الطبري.

قال الطبري:"عُنِي به سجود ظلهما، كما قال جلّ ثناؤه: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥]".

=

=

عن مجاهد في قوله: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}، قال: "يسجد بكرة وعشيا".
قال قتادة:"ما نزل من السماء شيئا من خلقه إلا عَبَّده له طوعا وكرها".
الثاني: هو ما فيهما من الصنعة والقدرة التي توجب السجود والخضوع، قاله ابن بحر.
الثالث: أن سجودهما دوران الظل معهما، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل: ٤٨]. قاله الزجاج.
الرابع: أن سجود النجم أفوله، وسجود الشجر إمكان الإجتناء لثمارها. حكاه الماوردي.
الخامس: أن سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا أشرقت ثم يميلان معها إذا انكسر الفيء، قاله الفراء.
السادس: معناه: أنهما يستسلمان لله بالتّسخير. وهذا قول ابن قتيبة.
قال ابن قتيبة:"والظلّ في أول النهار قبل طلوع الشمس يعمّ الأرض كما تعمّها ظلمة الليل، ثم تطلع الشمس فتعمّ الأرض إلا ما سترته الشّخوص، فإذا ستر الشّخص شيئا عاد الظّل، فرجوع الظلّ بعد أن كان شمسا، ودورانه من جانب إلى جانب- هو سجوده، لأنه مستسلم منقاد مطيع بالتّسخير، وهو في ذلك يميل، والميل: سجود. وكذلك قوله: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ} [الرحمن: ٦]، أي: يستسلمان لله بالتّسخير".
قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا} [الرحمن: ٧]، أي:"والسماء رفعها فوق الأرض".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والسماء رفعها فوق الأرض".
قال ابن أبي زمنين:"بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام".
قال سعيد بن جبير: "كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها

=

=

الأرض، كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه".

قال الحسن وقتادة: "كانتا جميعا، ففصل الله بينهما بهذا الهواء".

قوله تعالى: {وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٧]، أي:"ووضع في الأرض العدل الذي أمر به وشرعه لعباده".

قال الطبري:"يقول: ووضع العدل بين خلقه في الأرض".

عن مجاهد، في قوله: " {وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}، قال: وضع العدل".

وقال الحسن وقتادة والضَّحَاك: "هو الذي يوزن به لينتصف به النَّاس بعضهم من بعض".

وفي قراءة عبد الله: «خَفَضَ المِيزَانَ»، والخفض والوضع متقاربا المعنى في كلام العرب.

قوله تعالى: {أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ} [الرحمن: ٨]، أي:"لئلا تعتدوا وتخونوا مَن وَزَنتم له".

قال الطبري: يقول: " ألا تظلموا وتبخسوا في الوزن".

قال قتادة:"اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف كما تحبّ أن يُوَفى لك، فإن بالعدل صلاح الناس".

عن أبي المغيرة، قال: "سمعت ابن عباس يقول في سُوق المدينة: يا معشر الموالي، إنكم قد بُليتم بأمرين أهلك فيهما أمتان من الأمم: المِكْيال، والميزان".

عن مغيرة، قال: "رأى ابن عباس رجلا يزن قد أرجح، فقال: أقم اللسان، أقم اللسان، أليس قد قال الله: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَان} ".

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ} [الرحمن: ٩]، أي:"وأقيموا الوزن بالعدل".

عن مجاهد:"{وأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالقِسْطِ}، قال: اللسان".

=

=

قال الطبري: " يقول: وأقيموا لسان الميزان بالعدل".

قال عطاء:"أقيموا لسان الميزان بالعدل".

قال سفيان بن عيينة:"الإقامة باليد، والقِسط بالقلب".

قوله تعالى: {وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٩]، أي:"ولا تُنْقِصوا الميزان إذا وَزَنتم للناس".

قال الطبري: يقول: " ولا تنقصوا الوزن إذا وزنتم للناس وتظلموهم".

قال ابن زيد:"نقصه إذا نقصه فقد خَسَّره، تخسيره نقصه".

عن قتادة في قوله: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٧- ٩]، قال قتادة:"قال ابن عباس: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم، اتقى الله رجل عند ميزانه، اتقى الله رجل عند مكياله، فإنما يعدله شيء يسير، ولا ينقصه ذلك، بل يزيده الله إن شاء الله".

قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ} [الرحمن: ١٠]، أي:"والأرض وضعها ومهَّدها؛ ليستقر عليها الخلق".

قال الطبري: يقول: " والأرض وطأها للخلق، وهم الأنام".

عن ابن عباس، قوله:"{لِلأَنَامِ}، يقول: للخلق". وقال في رواية:"كلّ شيء فيه الروح".

وقال الحسن:"للخلق الجنّ والإنس".

عن قتادة: " {لِلأَنَامِ}، قال: للخلق".

قال مجاهد:"للخلائق".

قال ابن زيد:"الأنام: الخلق".

قال الضحاك:"كلّ شيء يَدِبّ على الأرض".

=

=

قال عامر الشعبي:"لكلّ ذي رُوح".

قوله تعالى: {فِيهَا فَاكِهَةٌ} [الرحمن: ١١]، أي:"فيها من أنواع الفواكه المختلفة الألوان والطعوم والروائح".

قال الطبري: يقول:"في الأرض فاكهة".

قال الثعلبي: يعني: أنواع الفواكه".

وقال ابن كيسان: "يعني: ما يفكههم الله به من النعم التي لا تحصى، وكل النعمة يتفكَّه بها".

قوله تعالى: {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} [الرحمن: ١١]، أي:"وفيها النخل التي يطلع فيها أوعية الثمر".

قال أبو عبيدة:"واحدها كم".

قال الطبري: " الأكمام: جمع كِمّ، وهو ما تكممت فيه".

وفي قوله تعالى: {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} [الرحمن: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذي على عنق النخلة، قاله الحسن وقتادة.

قال الحسن: "سَعَفة من ليف عُصبَتْ بها".

عن قتادة والحسن: " {ذَاتُ الأَكْمَامِ} أكمامها: ليفها".

قال قتادة:"الليف الذي يكون عليها".

وعن قتادة، قال:"أكمامها رُفاتها".

وحكي الثعلبي عن قتادة قال:"رقابها".

وقال الضحاك: " {ذَاتُ الْأَكْمَامِ} ذات الغُلف".

وقال عكرمة: "ذات الأحمال".

الثاني: أنه الطلع قبل أن يتفتق، قاله ابن زيد.

=

=

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد في قوله: {وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ}، وقيل له: هو الطلع، قال: نعم، وهو في كم منه حتى ينفتق عنه، قال: والحبّ أيضا في أكمام. وقرأ: {وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا}".

الثالث: أن الأكمام: أوعية الطلع. قاله ابن عباس.

قال ابن كثير:"وهو الذي يطلع فيه القنو ثم ينشق عن العنقود، فيكون بسرا ثم رطبا ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله وصف النخل بأنها ذات أكمام، وهي متكممة في ليفها، وطلعها متكمم في جُفِّهِ، ولم يخصص الله الخبر عنها بتكممها في ليفها ولا تكمم طلعها في جفه، بل عمّ الخبر عنها بأنها ذات أكمام. والصواب أن يقال: عني بذلك ذات ليف، وهي به مُتَكَمِّمة وذات طَلْعٌ هو في جُفِّه متكمِّمٌ فيُعَمَّم، كما عَمَّ جلّ ثناؤه".

قال ابن عطية:"الأكمام: جمع كم، وهو غلاف التمر قبل ظهوره".

قال مقاتل:"يعنى: الكفرى موقر طلعها".

قال ابن قتيبة:"أي: ذات الكُفُرَّى قبل أن ينفتق. وغِلاف كل شيء: كُمُّه، و"الكُفُرَّى": هو الجُفُّ وهو الكُمُّ وهو الكافور وهو الذي ينشق عن الطَّلْع".

قال الزجاج:"معنى «الأكمام»: ما غَطَّى وكل شجرة تخرج ما هو مُكَمَّم فهي ذات أَكمام وأَكمامُ النخلة ما غَطى جُمّارَها من السَّعَف والليف والجِذْع وكلُّ ما أَخرجته النخلة فهو ذو أَكمام فالطَّلْعة كُمُّها قشرها ومن هذا قيل للقَلَنْسُوة كُمَّة لأنها تُغَطِّي الرأْس ومن هذا كُمّا القميص لأنهما يغطيان اليدين".

قوله تعالى: {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ} [الرحمن: ١٢]، أي:"وفيها الحب ذو القشر؛ رزقًا لكم ولأنعامكم، وفيها كل نبت طيب الرائحة".

قال الطبري:"الحبّ: هو حبّ البُرّ والشعير ذو الورق".

=

=

قال الضحاك:"الحبّ: البّر والشعير".

عن سعيد بن جبير:"{وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ}، البقل من الزرع".

قال الفراء:"العصف، فيما ذكروا: بقل الزرع لان العرب تَقُولُ: خرجنا نعصف الزرع إِذَا قطعوا مِنْهُ شيئًا قبل أن يدرك فذلك العصف".

عن أبي مالك قوله: " {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}، قال: الحب أول ما ينبت".

وفي «العصف»، ثلاثة أقوال:

أحدها: تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الريح، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة.

قال الضحاك:"العصف: التِّبن".

قال قتادة:"عصفه تبنه".

قال ابن عباس:"العصف: الزرع".

قال ابن عباس:"العصف: ورق الزرع الأخضر الذي قطع رءوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس".

وقال مجاهد:"العصف: الورق من كل شيء. قال: يقال للزرع إذا قُطع: عصافة، وكلّ ورق فهو عصافة".

قال الزجاج:"{ذُو الْعَصْفِ}: ذو الورق".

قال ابن قتيبة:"{الْعَصْفِ} ورق الزرع؛ ثم يصير -إذا جَفَّ ودَرَس- تبنًا".

الثاني: أن العصف: هو الحب من البرّ والشعير بعينه. قاله الضحاك-أيضا-.

الثالث: أنه حب المأكول منه، قاله الضحاك كما قال تعالى: {كَعَصْفٍ مَأْكُول} [الفيل: ٥].

وأما «الريحان»، ففيه وجوه:

أحدها: أنه الرزق، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك.

=

=
قال ابن عباس:"كلّ ريحان في القرآن فهو رزق".
عن الضحاك: " {وَالرَّيْحَانُ} : الرزق، ومنهم من يقول: ريحاننا".
وقال الضحاك في رواية:"الرزق والطعام".
قال مقاتل:"يعني: الرزق -بلسان حمير- الذي يخرج من الحب من دقيق أو سويق أو غيره".
قال الفراء:"{وَالرَّيْحَانُ} : هُوَ رزقه".
قال ابن قتيبة:"{وَالرَّيْحَانُ} الرزق؛ يقال: خرجت أطلب ريحان الله. قال النَّمِر بن تَوْلَبٍ:
سلامُ الإلهِ ورَيْحَانُهُ... ورَحْمَتُه وسَماءٌ دِرَرْ".
قال الزجاج:"{وَالرَّيْحَانُ} : والرزق، العرب تقول: سبْحَانَ الله وَرَيْحانه، قال أهل اللغة: معناه: واسترزاقه".
الثاني: أن الريحان الزرع الأخضر الذي لم يسنبل، قاله ابن عباس.
قال ابن عباس:"الريحان حين يستوي على سوقه ولم يسنبل".
الثالث: أنه الريحان الذي يشم، قاله ابن عباس-أيضا-والحسن وابن زيد.
قال الحسن:"أما الريحان فما أنبتت الأرض من ريحان".
عن الحسن: " {وَالرَّيْحَانُ} ، قال: ريحانكم".
قال ابن زيد:"الرياحين التي توجد ريحها".
الرابع: أن الريحان: خُضرة الزرع. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.
الخامس: أنه ما قام على ساق. وهذا قول سعيد بن جبير.
السادس: أن العصف المأكول من الحب، والريحان: الصحيح الَّذِي لم يؤكل. حكاه الفراء والطبري.
قال أبو عبيدة:"الريحان الحبّ منه الذي يؤكل، يقال: سبحانك وريحانك أي:
=

=

رزقك".

وحكي الماوردي عن الكلبي: "أن العصف الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحب المأكول".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي به الرزق، وهو الحبّ الذي يؤكل منه، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لأن الله جلّ ثناؤه أخبر عن الحبّ أنه ذو العصف، وذلك ما وصفنا من الورق الحادث منه، والتبن إذا يبس، فالذي هو أولى بالريحان، أن يكون حبه الحادث منه، إذ كان من

جنس الشيء الذي منه العصف، ومسموع من العرب تقول: خرجنا نطلب رَيْحان الله ورزقه، ويقال: سبحانَك وريحانَك: أي: ورزقك".

قال ابن كثير:"معنى هذا- والله أعلم- أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له في حال نباته عصف، وهو: ما على السنبلة، وريحان، وهو: الورق الملتف على ساقها".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٣]

قال الطبري: يقول:"فبأيّ نِعَم ربكما معشر الجنّ والإنس من هذه النعم تكذّبان".

قال مقاتل:"يعني: فبأي نعماء ربكما تكذبان بأنها ليست من الله- تعالى-".

قال ابن قتيبة:"«الآلاء»: النعم. واحدها «ألًى»".

قال الزجاج:"أي: فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ من هذه الأشياء المذكورة، لأنها كلها منعم بها عليكم في دلالتها إياكم على وحدانيته وفي رزقه إياكم ما به قوامكم والوصلة إلى حياتكم، والآلاء واحدها: أَلَى وَإِلْيٌ، وكل ما في السورة من قوله: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، فمعناه على ما فسَّرْناه، فَبِأَيِّ نِعَمِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ".

قال ابن كثير:"أي: فبأي الآلاء- يا معشر الثقلين، من الإنس والجن- تكذبان؟

=

=

أي: النِّعَمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فلك الحمد»".

قال قتادة:"يقول للجنّ والإنس: بأيّ نِعم الله تكذّبان".

قال الحسن:"فبأيّ نعمة ربكما تكذّبان".

قال ابن عباس:"يقول: فبأيّ نعمة الله تكذّبان".

عن ابن عباس، في قوله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، قال:"لا بأيتها يا ربّ".

عن ابن عباس:"أنه كان إذا قرأ: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، قال: لا بأيتها ربنا".

قال ابن زيد:"الآلاء: القدرة، فبأيّ آلائه تكذّب خلقكم كذا وكذا، فبأيّ قُدرة الله تكذّبان أيها الثَّقَلان، الجنّ والإنس".

عن ابن عمر، قال: "إن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن، أو قُرئت عنده، فقال "ما لِيَ أَسْمَعُ الجنّ أَحْسَنَ جَوَابا لِرَبِّها مِنْكُمْ؟ " قالوا: ماذا يا رسول الله؟ قال: "ما أَتَيْتُ على قَوْلِ اللهِ: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}؟ إلا قالت الجنّ: لا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّنا نُكَذِّبُ".

قال العثيمين: قوله تعالى: {الرحمن علم القرءان خلق الإنسان علمه البيان} {الرحمن} مبتدأ، وجملة {علم القرءان} خبر، {خلق الإنسان} خبر ثان، {علمه البيان} خبر ثالث، والمعنى أن هذا الرب العظيم، الذي سمى نفسه بالرحمن تفضل على عباده بهذه النعم، والرحمن هو ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء، كما قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء}.

وابتدأ هذه السورة بالرحمن عنوانًا على أن ما بعده كله من رحمة الله تعالى، ومن نعمه {علم القرءان} أي: علمه من شاء من عباده، فعلمه جبريل عليه السلام أولًا، ثم نزل به جبريل على قلب النبي ﷺ ثانيًا، ثم بلغه محمد صلى الله عليه وعلى آله

=

=

وسلم ثالثًا إلى جميع الناس، والقرآن هو هذا الكتاب العزيز الذي أنزلـه الله تعـالى باللغة العربية، كما قال الله تعالى: {إنا جعلناه قرءانًا عربيًا لعلكم تعقلـون} وقـال تعالى: {نزل به الروح الأَمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربـي مبين} وتعليم القرآن يشمل تعليم لفظه، وتعليم معناه، وتعليم كيف العمل به، فهو يشمل ثلاثة أشياء، {خلق الإنسان} المراد الجنس، فيشمل آدم وذريتـه، أي: أوجـده مـن العدم، فالإنسان كان معدومًا قبل وجوده، وقبل خلقه، قال الله ﷻ: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا} يعني أتى عليه حين مـن الـدهر قبـل أن يوجد، وليس شيئًا مذكورًا ولا يعلم عنه، وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشـارة إلـى أن نعمـة الله علينا بتعليـم القـرآن أشـد وأبلـغ مـن نعمتـه بخلـق الإنسان وإلا فمن المعلوم أن خلق الإنسان سابق على تعليم القرآن، لكن لما كـان تعليم القرآن أعظم منة من الله ﷻ على العبـد قدمـه علـى خلقـه {علمـه} أي: علـم الإنسان {البيان}ـ أي: ما يبين به عما في قلبه، وأيضًا ما يـستبين بـه عنـد المخاطبـة، فهنا بيانان: البيـان الأول مـن المـتكلم، والبيـان الثـاني مـن المخاطـب، فالبيـان مـن المـتكلم يعنـي التعبيـر عمـا في قلبـه، ويكـون باللـسان نطقًـا، ويكـون بالبنـان كتابـة، فعندما يكون في قلبك شيء تريد أن تخبر به، تارة تخبر بـه بـالنطق، وتـارة بالكتابـة، كلاهما داخل في قوله {علمه البيان}ـ وأيضًا {علمـه البيـان} كيـف يـستبين الـشيء وذلك بالنسبة للمخاطب

يعلم ويعرف ومـا يقـول صـاحبه، ولـو شـاء الله تعـالى لأسـمع المخاطـب الـصوت دون أن يفهـم المعنى فالبيان سواء من المتكلم، أو من المخاطـب كلاهمـا منـة مـن الله ﷻ فهذه ثلاث نعم: {علم القرءان خلق الإنسان علمه البيان}.

-قال أبو حيان: ولما عدد نعمه تعاليـ بدأ من نعمه بما هو أعلـى رتبهاـ وهـو تعلـيم القرآنـ إذ هو عماد الدين ونجاة من استمسك به، ولما ذكر تعليم القـرآن ولـم يـذكر

=

=

المعلم ذكره بعد في قوله: (خلق الإنسان) ليعلم أنه المقصود بالتعليم" انتهى.
وقال الألوسي: ثم أتبع سبحانه نعمة تعليم القرآن بخلق الإنسان فقال تعالى: (خلق الإنسان)؛ لأن أصل النعم عليه وإنما قدم ما قدم منها لأنه أعظمها وقيل: لأنه مشير إلى الغاية من خلق الإنسان وهو كماله في قوة العلم والغاية متقدمة على ذي الغاية ذهنا وإن كان الأمر بالعكس خارجا. انتهى.
وقال العثيمين لقاءات الباب المفتوح: وبدأ الله تعالى بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أن نعمة الله علينا بتعليم القرآن أشد وأبلغ من نعمته بخلق الإنسان وإلا من المعلوم أن خلق الإنسان سابق على تعليم القرآن لكن لما كان تعليم القرآن أعظم منة من الله ﷻ على العبد قدمه على خلقه " انتهى-
{الشمس والقمر بحسبان} لما تكلم عن العالم السفلي بين العالم العلوي فقال: {الشمس والقمر بحسبان} أي: بحساب دقيق معلوم متقن منتظم أشد الانتظام، يجريان كما أمرهما الله ﷻ ولم تتغير الشمس والقمر منذ خلقهما الله ﷻ إلى أن يفنيهما يسيران على خط واحد، كما أمرهما الله، وهذا دليل على كمال قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه، وكمال علمه أن تكون هذه الأجرام العظيمة تسير سيرًا منظمًا، لا تتغير على مدى السنين الطوال، {والنجم والشجر يسجدان} النجم اسم جنس، والمراد به النجوم تسجد لله ﷻ فهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء تسجد لله ﷻ سجودًا حقيقيًا، لكننا لا نعلم كيفيته، لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله ﷻ سجودًا حقيقيًا، لكن لا ندري كيف ذلك، والله على كل شيء قدير، وانظر إلى الأشجار إذا طلعت الشمس تتجه أوراقها إلى الشمس تشاهدها بعينك، وكلما ارتفعت، ارتفعت الأشجار، وإذا مالت للغروب مالت، لكن هذا ليس هو السجود، إنما السجود حقيقة لا يُعلم، كما قال ﷻ: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا

=

=

يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفورًا} فالنجوم كلها تسجد لله، والأشجار كلها تسجد لله ﷻ قال الله تعالى: {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأَرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} ويقابله، {وكثير حق عليه العذاب} فلا يسجد– والعياذ بالله– {والسماء رفعها} يعني

ورفع السماء ولم يحدد في القرآن الكريم مقدار هذا الرفع، لكن جاءت السنة بذلك، فهي رفيعة عظيمة ارتفاعًا عظيمًا شاهقًا، {ووضع الميزان} أي: وضع العدل، والدليل على أن المراد بالميزان هنا العدل قوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} يعني العدل، وليس المراد بالميزان هنا الميزان ذا الكفتين المعروف ولكن المراد بالميزان العدل، ومعنى وضع الميزان أي أثبته للناس، ليقوموا بالقسط أي بالعدل {ألا تطغوا في الميزان} يعني ألا تطغوا في العدل، يعني وضع العدل لئلا تطغوا في العدل فتجوروا، فتحكم للشخص وهو لا يستحق، أو على الشخص وهو لا يستحق، {وأقيموا الوزن بالقسط}- يعني وزنكم للأشياء، أقيموه ولا تبخسوه فتنقصوا، لهذا قال: {ولا تخسروا الميزان} أي لا تخسروا الموزون، فصار الميزان يختلف في مواضعه الثلاثة: {ووضع الميزان} أي: العدل {ألا تطغوا في الميزان} لا تجوروا في الوزن {ولا تخسروا الميزان} أي: الموزون.

{والأَرض وضعها للأَنام} يعني: أن من نعم الله ﷻ أن الله وضع الأرض للأنام أي: أنزلها بالنسبة للسماء، والأنام هم الخلق، ففيها الإنس، وفيها الجن، وفيها الملائكة، تنزل بأمر الله ﷻ من السماء، وإن كان مقر الملائكة في السماء لكن ينزلون إلى الأرض، مثل الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال قعيد، والملائكة الذين يحفظون من أمر الله المعقبات، والملائكة الذين ينزلون في ليلة

=

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤).

{خَلَقَ الْإِنْسَان} آدَم {مِنْ صَلْصَال} طِين يَابِس يُسْمَع لَهُ صَلْصَلَة أَيْ صَوْت إِذَا نُقِرَ {كالفخار} وهو ما طبخ من الطين.

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (١٥).

{وَخَلَقَ الْجَانّ} أَبَا الْجِنّ وَهُوَ إِبْلِيس {مِنْ مَارِج مِنْ نَار} هُوَ لَهَبهَا الْخَالِص مِنْ الدخان.

=

القدر وغير ذلك، {فيها}ـ أي في الأرض {فاكهة} أي: ثمار يتفكه بها الناس، وأنواع الفاكهة كثيرة، كالعنب والرمان والتفاح والبرتقال وغيرها {والنخل ذات الأكمام} نص على النخل، لأن ثمرتها أفضل الثمار فهي حلوى وغذاء وفاكهة، وشجرتها من أبرك الأشجار وأنفعها، حتى إن النبي ﷺ شبه النخلة بالمؤمن فقال: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن»ـ فخاض الصحابة ﷺ في الشجر حتى أخبرهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنها النخلة

وقوله: {ذات الأكمام} جمع كم وهو غلاف الثمرة، فإن ثمرة النخل أول ما تخرج يكون عليها كم قوي، ثم تنمو في ذلك الكم حتى يتفطر وتخرج الثمرة، {والحب ذو العصف} الحب يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والأرز وغير ذلك، وقوله: {ذو العصف} يعني ما يحصل من ساقه عند يبسه وهو ما يعرف بالتبن؛ لأنه يعصف أي تطؤه البهائم بأقدامها حتى ينعصف، {والريحان} هذا الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه، والنخل، والحب، والريحان، لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} الخطاب للجن والإنس، والاستفهام للإنكار، أي: أي نعمة تكذبون بها.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧).

{رَبّ الْمَشْرِقَيْنِ} مَشْرِق الشِّتَاء وَمَشْرِق الصَّيْف {وَرَبّ المغربين} كذلك

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)

{مَرَجَ} أَرْسَلَ {الْبَحْرَيْنِ} الْعَذْب وَالْمِلْح {يَلْتَقِيَانِ} فِي رأي العين.

بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠).

{بَيْنهمَا بَرْزَخ} حَاجِز مِنْ قُدْرَته تَعَالَى {لَا يَبْغِيَانِ} لَا يَبْغِي وَاحِد مِنْهُمَا عَلَى الْآخَر فيختلط به.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان.

يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢).

{يَخْرُج} بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِل {مِنْهُمَا} مِنْ مَجْمُوعهمَا الصَّادِق بِأَحَدِهِمَا وَهُوَ الْمِلْح {اللُّؤْلُؤ وَالْمَرْجَان} خَرَز أحمر أو صغار اللؤلؤ.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤)

{وَلَهُ الْجَوَار} السُّفُن {الْمُنْشَآت} الْمُحْدَثَات {فِي الْبَحْر كالأعلام} كالجبال عظما وارتفاعا.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}[1].

(١) قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن: ١٤].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: خلق الله الإنسان وهو آدم من صلصال: وهو الطين اليابس الذي لم يطبخ، فإنه من يبسه له صلصلة إذا حرّك ونقر كالفخار، يعني أنه من يُبسه وإن لم يكن مطبوخا، كالذي قد طُبخ بالنار، فهو يصلصل كما يصلصل الفخار، والفخار: هو الذي قد طُبخ من الطين بالنار".

وفي قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن: ١٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه الطين اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وبه قال الطبري ومنه قول الشاعر:

وقاعٍ ترى الصَّلصال فيه ودونه... بقايا بلالٍ بالقرى والمناكبِ

عن ابن عباس، قوله: " {خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، يقول: الطين اليابس".

قال ابن عباس:"الصلصال: التراب المدقق".

قال ابن عباس:"هو من الطين الذي إذا مطرت السماء فيبست الأرض كأنه خزف رقاق".

عن قتادة: " {خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، قال: من تراب يابس له صلصلة".

عن قتادة، في قوله: " {مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، قال: من طين له صلصلة كان يابسا، ثم خلق الإنسان منه".

قال مجاهد:"الصلصال: التراب اليابس الذي يُسمع له صلصلة فهو كالفخار، كما =

=

قال الله ﷻ".

قال الماوردي: " «الصلصة»: الصوت الشديد المسموع من غير الحيوان، وهو مثل القعقعة في الثوب".

قال أبو عبيدة:"«الصلصال»: الطّين اليابس لذى لم تصبه نار فإذا نقرته صلّ فسمعت له صلصلة فإذا طبح بالنار فهو فخّار وكل شئ له صلصلة، صوت فهو صلصال سوى الطين، قال الأعشى:

عنتريس تعدو إذا حرّك السّو... ط كعدو المصلصل الجوال".

قال الزجاج:"الصلصال الطين اليابس الذي يصل ليبسه، ومعنى يصل يصوت، قال الشاعر:

رجعت إلى صدر كجرة حنتم... إذا قرعت صفرا من الماء صلت".

وقال الضحاك:"طين صُلْب يخالطه الكثيب".

وقال مجاهد:"التراب اليابس" .. وقال "الصلصال: الذي يصلصل، مثل الخَزَف من الطين الطيب".

الثاني: أنه طين خلط برمل، قاله ابن عباس -أيضا- وعكرمة. وبه قال الفراء.

قال عكرمة:"الصلصال: طين خُلط برمل فكان كالفخار".

الثالث: أنه الطين المنتن، قاله مجاهد- مأخوذ من قولهم: «صَلَّ اللحمُ وأَصَلَّ»، إذا أنتن، قال الشاعر:

ذَاكَ فَتًى يَبْذُلُ ذَا قِدْرِةٍ... لا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

وقال ابن زيد:"يبس آدم في الطين في الجنة، حتى صار كالصلصال، وهو الفخار، والحمأ المسنون: المنتن الريح".

الرابع: أنه الطين تعصره بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك. قاله ابن عباس- أيضا-.

=

=

عن ابن عباس: " {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، قال: ما عصر فخرج من بين الأصابع".

قال ابن عباس:"خلق الله آدم من طين لازب، واللازب: اللَّزِج الطيب من بعد حمأ مسنون مُنْتن، قال: وإنما كان حمأ مسنونا بعد التراب، قال: فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسدا ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوّت، قال: فهو قول الله تعالى: {كَالْفَخَّارِ}، يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمصمت".

قال عبد الله بن سلام: "خلق الله آدم من تراب من طين لازب، فتركه كذلك أربعين سنة، ثم صلصله كالفخار أربعين سنة، ثم صوره فتركه جسدًا لا روح فيه أربعين سنة، فذلك مائة وعشرون سنة، كل ذلك والملائكة تقول سبحان الذي خلقك، لأمر ما خلقك".

قوله تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن: ١٥]، أي:"وخلق إبليس، وهو من الجن من لهب النار المختلط بعضه ببعض".

قال الطبري: يقول:"وخلق الجانّ من مارج من نار، وهو ما اختلط بعضه ببعض، من بين أحمر، وأصفر وأخضر من قولهم: مَرِج أمر القوم: إذا اختلط، ومن قول النبيّ ﷺ لعبد الله بن عمرو: «كَيْفُ بِكَ إِذَا كُنْتَ فِي حُثالَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وأماناتُهُمْ! وَذلكَ هُوَ لَهَبُ النَّارِ وَلِسانُهُ»".

وفي قوله تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} [الرحمن: ١٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه لهب النار، قاله ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة والضحاك.

قال ابن عباس:"يقول: خلقه من لهب النار، من أحسن النار".

عن ابن عباس، في قوله: " {مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}، قال: من أوسطها وأحسنها".

=

=

قال ابن عباس:"يقول: خالص النار".

قال ابن عباس:"خلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا ألهبت".

قال عكرمة:"من أحسن النار".

قال الضحاك:"أحسن النار". وفي رواية:"من لهب النار".

قال قتادة والحسن:"أي: من لهب النار".

قال ابن زيد:"المارج: اللهب".

قال ابن كثير: {مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ} " هو: طرف لهبها".

الثاني: من خلط من النار، قاله أبو عبيدة.

الثالث: أنه اللهب الأخضر والأصفر والأحمر الذي يعلو النار إذا أوقدت ويكون بينها وبين الدخان، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"هو اللهب المنقطع الأحمر".

عن مجاهد، في قوله: {مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}، قال: "اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلو النار إذا أوقدت".

قال مجاهد:"الحمرة التي تكون في طرف النار".

الرابع: أنها النار المرسلة التي لا تمتنع، قاله المبرد.

الخامس: أنها النار المضطربة التي تذهب وتجيء، وسمي مارجًا لاضطرابه وسرعة حركته. حكاه الماوردي.

وفي الجان المخلوق من مارج من نار قولان:

أحدهما: أنه إبليس، قاله الحسن وقتادة وبه قال ابن جرير الطبري.

الثاني: أنه أبو الجن، قاله أبو فروة يعقوب عن مجاهد وبه قال الكلبي.

قال ابن عباس:"كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ، خُلقوا من

=

=

نار السموم من بين الملائكة. قال: وخُلقت الجنّ الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار".

وقال ابن عباس: "الجان أبو الجن وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس. والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر".

عن وهب بن منبه:"وسئل عن الجنّ ما هم، وهل يأكلون أو يشربون، أو يموتون، أو يتناكحون؟ قال: هم أجناس، فأما خالص الجنّ فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون. ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه التي منها السعالِي والغُول وأشباه ذلك".

وفي النار التي خلق من مارجها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها من النار الظاهرة بين الخلق، حكاه الماوردي عن الأكثرين.

الثاني: من نار تكون بين الجبال من دون السماء وهي كالكلة الرقيقة، قاله الكلبي.

الثالث: من نار دون الحجاب، ومنها هذه الصواعق وترى جلد السماء منها، ذكره الفراء.

قال الفراء:"المارج: نار دون الحجاب- فيما ذكر الكلبي- منها هَـذِهِ الصواعق، ويُرى جلد السماء منها".

عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٦]

قال الطبري: يقول:"فبأيّ نعمة ربكما معشر الثقلين من هذه النعم تكذّبان؟".

قال القاسمي:"أي مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم، ومما أظهره لكما بالقرآن".

قال قتادة:"يقول للجنّ والإنس: بأيّ نِعم الله تكذّبان".

=

=

قال الحسن:"فبأيّ نعمة ربكما تكذّبان".

قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ} [الرحمن: ١٧]، أي:"هو سبحانه وتعالى ربُّ مشرقَي الشمس في الشتاء والصيف".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ذلكم أيها الثقلان {رَبُّ} مشرق الشمس في الشتاء، ومشرقها في الصيف".

قوله تعالى: {وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} [الرحمن: ١٧]، أي:"هو سبحانه وتعالى ربُّ مغربي الشمس صيفًا وشتاء".

قال الطبري:"يعني: وربّ مغرب الشمس في الشتاء، ومغربها في الصيف".

قال ابن كثير في الآية:"يعني: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربي الصيف والشتاء. وقال في الآية الأخرى: {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال في الآية الأخرى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب".

عن مجاهد، قوله: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، قال: "مشرق الشتاء ومغربه، ومشرق الصيف ومغربه".

قال قتادة:"فمشرقها في الشتاء، ومشرقها في الصيف".

قال قتادة:"مشرق الشتاء ومغربه، ومشرق الصيف ومغربه".

قال القرظي:"مغرب الشتاء، ومغرب الصيف، ومشرق الشتاء، ومشرق الصيف.

قال ابن زيد:"أقصر مشرق في السنة، وأطول مشرق في السنة، وأقصر مغرب في السنة، وأطول مغرب في السنة".

عن ابن أبزى، قوله: " {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، قال: مشارق الصيف ومغارب الصيف، مشرقان تجري فيهما الشمس ستون وثلاث مئة في ستين

=

=

وثلاث مئة بُرْج، لكلّ برج مطلع، لا تطلع يومين من مكان واحد. وفي المغرب ستون وثلاث مئة برج، لكل برج مغيب، لا تغيب يومين في برج".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٨]

قال قتادة:"يقول للجنّ والإنس: بأيّ نِعم الله تكذّبان".

قال الحسن:"فبأيّ نعمة ربكما تكذّبان".

قال الطبري: "يقول: فبأيّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس من هذه النعم التي أنعم بها عليكم من تسخيره الشمس لكم في هذين المشرقين والمغربين تجري لكما دائبة بمرافقكما، ومصالح دنياكما ومعايشكما تكذّبان".

قال ابن كثير:"ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب، مصالح للخلق من الجن والإنس قال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}؟".

قوله تعالى: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ} [الرحمن: ١٩]، أي:"أرسل البحر الملح والبحر العذب يتجاوران يلتقيان ولا يمتزجان".

قال الطبري: يقول:"أرسل وخلى ربّ المشرقين وربّ المغربين البحرين يلتقيان، يقال: مرج فلان دابته: إذا خلاها وتركها".

قال أبو عبيدة:"مرجت دابتك، خليت عنها وتركتها".

عن ابن عباس، قوله: " {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ}، يقول: أرسل".

واختلف أهل العلم في البحرين اللذين ذكرهما الله جلّ ثناؤه في هذه الآية، على أقوال:

أحدها: أنهما بحران: أحدهما في السماء، والآخر في الأرض. قاله ابن عباس وابن أبزي وسعيد بن جبير. وبه قال الطبري.

قال ابن عباس:"بحر في السماء والأرض يلتقيان كل عام".

الثاني: أنهما بحر فارس وبحر الروم. قال قتادة.

=

=

وقال الحسن:"بحر الروم، وبحر فارس واليمن".

وقال قتادة:"بحر فارس وبحر الروم وبحر المشرق وبحر المغرب".

الثالث: أنه البحر المالح والأنهار العذبة، قاله ابن جريج. وبه قال ابن كثير.

الرابع: أنه بحر المشرق وبحر المغرب يلتقي طرفاهما. حكاه الماوردي.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُني به بحر السماء، وبحر الأرض، وذلك أن الله قال: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}، واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطَرْ ماء السماء، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء".

قال ابن كثير:"المراد بقوله: {البحرين} الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك في سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٥٣]، قال ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ}، أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا".

قوله تعالى: {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} [الرحمن: ٢٠]، أي:"بينهما حاجزٌ من قدرة الله تعالى لا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة".

قال الطبري:"بينهما حاجز وبعدٌ، لا يُفسد أحدهما صاحبه فيبغي بذلك عليه، وكل شيء كان بين شيئين فهو برزخ عند العرب، وما بين الدنيا والآخرة برزخ".

قال أبو عبيدة:"ما بين كل شيئين برزخ وما بين الدنيا والآخرة برزخ".

=

=

وفي «البزخ» الذي بينهما، أربعة أقوال:

أحدها: أنه حاجز، قاله ابن عباسـ ومجاهد.

عن ابن عباس، قوله: " {بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ}، يقول: حاجز".

قال مجاهد:"بينهما حاجز من الله، لا يبغي أحدهما على الآخر".

قال ابن كثير:"أي: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه".

الثاني: أنه عرض الأرض، قاله مجاهد-أيضا-ـ وابن زيد.

وقال ابن زيد:"منعهما أن يلتقيا بالبرزخ الذي جعل بينهما من الأرض. قال: والبرزخ بعد الأرض الذي جعل بينهما".

الثالث: أنه ما بين السماء والأرض، قاله عطيةـ والضحاك.

الرابع: أنه الجزيرة التي نحن عليها وهي جزيرة العرب، قاله الحسنـ وقتادة.

قال قتادة:"والبرزخ: هذه الجزيرة، هذا اليبَس".

قال قتادة:"البرزخ الذي بينهما: الأرض التي بينهما".

قال قتادة:"حُجِز المالح عن العذب، والعذب عن المالح، والماء عن اليبس، واليبس عن الماء، فلا يبغي بعضه على بعض بقوته ولطفه وقُدرته".

عن الحسن:"{بينهما برزخ}، قال: أنتم البرزخ {لا يبغيان} عليكم فيغرقانكم".

وفي تفسير قوله تعالى: {لَا يَبْغِيَانِ} [الرحمن: ٢٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يختلطان، قاله مجاهد.

الثاني: لا يبغي أحدهما على صاحبه، قاله ابن أبزيـ ومجاهدـ وقتادة.

وروي عن قتادة، قوله: " {لا يَبْغِيانِ} : على اليبس، وما أخذ أحدهما من صاحبه فهو بغي، فحجز أحدهما عن صاحبه بقدرته ولطفه وجلاله تبارك وتعالى".

=

الثالث: لا يبغي أحدهما أن يلتقي مع صاحبه، قاله ابن زيد.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله وصف البحرين اللذين ذكرهما في هذه الآية أنهما لا يبغيان، ولم يخصص وصفهما في شيء دون شيء، بل عمّ الخبر عنهما بذلك، فالصواب أن يُعَمَّ كما عمّ جلّ ثناؤه، فيقال: إنهما لا يبغيان على شيء، ولا يبغي أحدهما على صاحبه، ولا يتجاوزان حدّ الله الذي حدّه لهما".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٢١]

قال الطبري: يقول:"فبأيّ نعم الله ربكما معشر الجنّ والإنس تكذّبان من هذه النعم التي أنعم عليكم من مَرْجه البحرين، حتى جعل لكم بذلك حلية تلبسونها كذلك".

قال القاسمي:"أي: مما في البحرين وخلقهما من الفوائد".

قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [الرحمن: ٢٢]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يخرج من هذين البحرين اللذين مرجهما الله، وجعل بينهما برزخا اللؤلؤ والمرجان".

قال ابن كثير:"أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى، كما قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} [الأنعام: ١٣٠]، والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ".

قال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان: واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية: من أن قوله: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}، يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير، لا يجوز القول به. لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين الملح

=

والعذب، بقوله: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـذَا عَـذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [٣٥/ ١٢]، ثـم صـرح باسـتخراج اللؤلـؤ والمرجـان منهـا جميعًـا بقولـه: {وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا}، والحليـة المـذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقض للآية صريحًا، كما ترى.

قال ابن عباس:"إن السماء إذا أمطرت، فتحت الأصداف أفواهها، فمنها اللؤلؤ".

قال ابن عباس:"إذا نزل القطر من السماء، تفتَّحت الأصداف فكان لؤلؤا".

قال ابن عباس:"إن السماء إذا أمطرت تفتحت لها الأصداف، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ".

قال عكرمة:"ما نزلت قطرة من السماء في البحر إلا كانت بها لؤلؤة أو نبتت بها عنبرة".

واختلف أهل التفسير في صفة اللؤلؤ والمرجان، على أقوال:

أحدها: اللؤلؤ: ما عظم من الدر، والمرجان: ما صغُر منه. قاله ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد.

قال الضحاك:"أما المرجان: فاللؤلؤ الصغار، وأما اللؤلؤ: فما عظُم منه".

قال قتادة:"أما اللؤلؤ فعظامه، وأما المرجان فصغاره، وإن لله فيهما خزانة دلّ عليها عامة بني آدم، فأخرجوا متاعا ومنفعة وزينة، ويُبلغه إلى أجل".

روي عن كعب الأحبار يُسأل عن المرجان، فقال: "هو البُسَّذ. قال أبو جعفر: البُسَّذ له شُعَب، وهو أحسن من اللؤلؤ".

قال السدي:"وهو البُسَّذ بالفارسية".

قال السمعاني:"البُسَّذ جوهر معروف".

قال أبو عبيدة:"المرجان: صغار اللؤلؤ واحدتها: مرجانة، وإنما يخرج اللؤلؤ من أحدهما فخرج مخرج: أكلت خبزا ولبنا".

=

=

الثاني: أن المرجان من اللؤلؤ: الكبار، واللؤلؤ منها: الصغار. قاله ابن عباس –أيضا–ـ ومجاهدـ ومرّة.

قال مجاهد:"المرجان، قال: ما عظم من اللؤلؤ".

قال ابن عباس:"المرجان: عظيم اللؤلؤ".

الثالث: أن المرجان: جيد اللؤلؤ. قاله مرّة –أيضا–.

عن موسى بن أبي عائشة، قال: "سألت مرّة عن اللؤلؤ والمرجان قال: المرجان: جيد اللؤلؤ".

الرابع: أن المرجان: حجر. قاله ابن مسعود.

قال الطبري:"والصواب من القول في اللؤلؤ، أنه هو الذي عرفه الناس مما يخرج من أصداف البحر من الحبّ، وأما المرجان، فإني رأيت أهل المعرفة بكلام العرب لا يتدافعونه أنه جمع مرجانة، وأنه الصغار من اللؤلؤ. قد ذكرنا ما فيه من الاختلاف بين متقدمي أهل العلم، والله أعلم بصواب ذلك".

قوله تعالى:

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣)} [الرحمن: ٢٣]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نِعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم بها عليكم فيما أخرج لكم من منافع هذين البحرين تكذّبان".

قال ابن كثير:"ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}".

قوله تعالى: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} [الرحمن: ٢٤]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولربّ المشرقين والمغربين الجواري، وهي السفن الجارية في البحار كالجبال، شبَّه السفن بالجبال، والعرب تسمي كل جبل طويل علما".

=

=

قال ابن أبي زمنين:"يعني: السفن التي عليها شرعها، وهي القلع، ومعنى المنشآت: التي أنشئن، والأعلام: الجبال".

قال ابن كثير:"يعني: السفن التي تجري في البحر كالجبال في كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع".

قال السعدي:"أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من كبرها وعظمها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم

وأنواع تجاراتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة".

قال الشوكاني:"المراد بالجوار: السفن الجارية في البحر، والمنشآت: المرفوعات التي رفع بعض خشبها على بضع وركب، حتى ارتفعت وطالت، حتى صارت في البحر كالأعلام، وهي الجبال، والعلم: الجبل الطويل".

قال أبو عبيدة:"{الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ}: المجريات المرفوعات، {كَالْأَعْلامِ} كالجبال قال جرير يصف الإبل:

إذا قطعن علما بدا علم".

قال الزجاج:"معنى «المنشئآت» المرفوعات الشُّرُع. و «المنشئَات» على معنى: الحاملات الرافعات الشرع، ومعنى {كالأعلام}: كالجبال".

عن قتادة: " {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأعْلامِ}، يعني: السفن". وروي عن ابن زيد مثله.

عن مجاهد، قوله: " {الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ}، قال: ما رفع قلعه من السفن فهي منشئات، وإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشأة".

=

=

قال الزمخشري:"الأعلام: جمع: علم، وهو الجبل الطويل".

عن عميرة بن سعد قال: "كنت مع علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على شاطئ الفرات إذ أقبلت سفينة مرفوع شراعها، فبسط على يديه ثم قال: يقول الله عز وجل: {وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ}. والذي أنشأها تجري في بحر من بحوره ما قتلتُ عثمان، ولا مالأت على قتله".

قرأ إبراهيم النخعي، والضحاك:"«المُنشِآتُ»، قال: أي: الفاعلات".

عن عاصم، أنه قرأها على الوجهين:"{المُنشَآتُ}، و «المُنشِآتُ» بكسر الشين وفتحها".

عن سليمان بن مهران الأعمش:"أنه كان يقرؤها: «المُنشِآتُ»، يعني: الباديات".

قرأ حمزة وأبو بكر: «المنشئات»، بكسر الشين، والباقون بفتحها.

قال الزمخشري:"وقرئ بكسر الشين: وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهنّ".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٢٥]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس التي أنعمها عليكم، بإجرائه الجواري المنشئات في البحر جارية بمنافعكم- تكذّبان".

قال القاسمي:"أي: نعمه التي أنعم بها في هذه الجواري".

قال الشوكاني:"فإن ذلك من الوضوح والظهور بحيث لا يمكن تكذيبه ولا إنكاره".

قال العثيمين: قوله تعالى: {خلق الإنسان من صلصال كالفخار} خلق الإنسان يعني جنسه من صلصال، والصلصال هو الطين اليابس الذي له صوت، عندما تنقره بظفرك يكون له صوت كالفخار، هو الطين المشوي، وهذا باعتبار خلق آدم عليه السلام، فإن الله خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، من حمأ مسنون،

=

=

كل هذه أوصاف للتراب ينتقل من كونه ترابًا، إلى كونه طينًا، إلى كونه حمأً، إلى كونه صلصالًا، إلى كونه كالفخار، حتى إذا استتم نفخ الله فيه من روحه فصار آدميًا، {وخلق الجآن} وهم الجن {من مارج من نار}ـ المارج هو المختلط الذي يكون في اللهب إذا ارتفع صار مختلطًا بالدخان، فيكون له لون بين الحمرة والصفرة، فهذا هو المارج من نار، والجان، خلق قبل الإنس، ولهذا قال إبليس لله ﷻ: {أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين} {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} أي: بأي نعمة من نعم الله تكذبون، حيث خلق الله ﷻ الإنسان من هذه المادة، والجن من هذه المادة، وأيهما خير التراب أم النار؟ التراب خير، لا شك فيه، ومن أراد أن يطلع على ذلك فليرجع إلى كلام ابن القيم- رحمه

الله- في كتاب «إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان» {رب المشرقين ورب المغربين} يعني هو رب، فهي خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو رب المشرقين ورب المغربين، يعني أنه مالكهما ومدبرهما، فما من شيء يشرق إلا بإذن الله، ولا يغرب إلا بإذن الله وما من شيء يحوزه المشرق والمغرب إلا لله ﷻ وثنى المشرق هنا باعتبار مشرق الشتاء ومشرق الصيف، فالشمس في الشتاء تشرق من أقصى الجنوب، وفي الصيف بالعكس، والقمر في الشهر الواحد يشرق من أقصى الجنوب ومن أقصى الشمال، وفي آية أخرى قال الله تعالى: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب} فجمعها، وفي آية ثالثة {رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلًا} فما الجمع بينها؟ نقول: أما التثنية فباعتبار مشرقي الشتاء والصيف، أما جمع المغارب والمشارق فباعتبار مشرق كل يوم ومغربه، لأن الشمس كل يوم تشرق من غير المكان الذي أشرقت منه بالأمس، فالشمس يتغير شروقها وغروبها كل يوم، ولاسيما عند تساوي الليل والنهار، فتجد الفرق دقيقة، أو دقيقة ونصفًا بين غروبها بالأمس واليوم، وكذلك الغروب، أو باعتبار الشارقات

=

=

والغاربات، لأنها تشمل الشمس والقمر والنجوم، وهذه لا يحصيها إلا الله ﷻ، أما قوله: {رب المشرق والمغرب} فباعتبار الناحية، لأن النواحي أربع: مشرق، ومغرب، وشمال، وجنوب، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} أي: بأي شيء من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فما جوابنا على هذه الاستفهامات بهذه الآيات كلها؟ جوابنا: ألا نكذب بشيء من آلائك يا ربنا، ولهذا ورد حديث في إسناده ضعف عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن، ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودًا منكم، كنت كلما أتيت على قوله {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

لكن هذا الحديث ضعيف يذكره المفسرون هنا، وكل آية أعقبت {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} فهي تتضمن نعمًا عظيمة، فما النعم التي يتضمنها اختلاف المشرق والمغرب؟ النعم ما يترتب على ذلك من مصالح الخلق: صيفًا، وشتاء، ربيعًا، وخريفًا، وغير ذلك مما لا نعلم، فهي نعم عظيمة باختلاف المشرق والمغرب، ثم قال سبحانه وتعالى: {مرج البحرين يلتقيان} مرج بمعنى أرسل البحرين، يعني المالح والعذب {يلتقيان}ـ يلتقي بعضهما ببعض، البحر المالح هذه البحار العظيمة، البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأطلسي، وهذه البحار كلها مالحة، وجعلها الله تبارك وتعالى مالحة، لأنها لو كانت عذبة لفسد الهواء وأنتنت، لكن الملح يمنع الإنتان والفساد، والبحر الآخر البحر العذب وهو الأنهار التي تأتي: إما من كثرة الأمطار، وإما من ثلوج تذوب وتسيح في الأرض، فالله سبحانه وتعالى أرسلهما بحكمته وقدرته حيث شاء ﷻ {يلتقيان} أي: يلتقي بعضهما ببعض عند مصب النهر في البحر فيمتزج بعضهما ببعض، لكن حين سيرهما أو حين انفرادهما، يقول الله ﷻ: {بينهما برزخ} وهو اليابس من الأرض

=

=

{لا يبغيان} أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولو شاء الله تعالى لسلط البحار ولفاضت على الأرض وأغرقت الأرض، لأن البحر عندما تقف على الساحل لا تجد جدارًا يمنع انسيابه إلى اليابس مع أن الأرض كروية، ومع ذلك لا يسيح البحر لا هاهنا، ولا هاهنا بقدرة الله ﷻ، ولو شاء الله سبحانه وتعالى لساحت مياه البحر على اليابس من الأرض ودمرتها، إذن البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض هذا قول علماء الجغرافيا، وقال بعض

أهل العلم: بل البرزخ أمر معنوي يحول بين المالح والعذب أن يختلط بعضهما ببعض، وقالوا: إنه يوجد الآن في عمق البحار عيون عذبة تنبع من الأرض، حتى إن الغواصين يغوصون إليها ويشربون منها كأعذب ماء، ومع ذلك لا تفسدها مياه البحار، فإذا ثبت ذلك فلا مانع من أن نقول بقول علماء الجغرافيا وقول علماء التفسير، والله على كل شيء قدير {فبأي ءالآء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} أي: يخرج من البحرين العذب والمالح اللؤلؤ والمرجان، وهو قطع من اللؤلؤ أحمر جميل الشكل واللون مع أنها مياه، وقوله تعالى: {منهما} أضاف الخروج إلى البحرين العذب والمالح، وقد قيل: إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح ولا يخرج من العذب، والذين قالوا بهذا اضطربوا في معنى الآية، كيف يقول الله {منهما} وهو من أحدهما؟ فأجابوا: بأن هذا من باب التغليب، والتغليب أن يغلب أحد الجانبين على الآخر، مثلما يقال: العمران، لأبي بكر وعمر، ويقال: القمران، للشمس والقمر، فهذا من باب التغليب، فـ {منهما} المراد واحد منهما، وقال بعضهم: بل هذا على حذف مضاف، والتقدير: يخرج: من أحدهما، وهناك قول ثالث: أن تبقى الآية على ظاهرها لا تغليب ولا حذف، ويقول {منهما} أي: منهما جميعًا يخرج اللؤلؤ والمرجان، وإن امتاز المالح بأنه أكثر وأطيب.

فبأي هذه الأقوال الثلاثة، نأخذ؟ نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله ﷻ يقول:

=

=

{يخرج منهما} وهو خالقهما وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ يخرج منهما جميعًا وجب الأخذ بظاهرها، لكن لا شك أن اللؤلؤ من الماء المالح أكثر وأطيب، لكن لا يمنع أن نقول بظاهر الآية، بل يتعين أن نقول بظاهر الآية، وهذه قاعدة في القرآن والسنة: إننا نحمل الشيء على ظاهره، ولا نؤول، اللهم إلا لضرورة، فإذا كان هناك ضرورة، فلابد أن نتمشى على ما تقتضيه الضرورة، أما بغير ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما {فبأي ءالاء ربكما تكذبان} لأن ما في هذه البحار وما يحصل من المنافع العظيمة، نِعم كثيرة لا يمكن للإنسان أن ينكرها أبدًا.

{وله الجوار المنشئات في البحر كالأَعلام} أي لله ﷻ ملكًا وتدبيرًا وتيسيرًا {الجوار} بحذف الياء للتخفيف، وأصلها الجواري جمع جارية، وهي السفينة تجري في البحر كما قال الله ﷻ: {ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمت الله} {المنشئات} أي: التي أنشأها صانعوها ليسيروا عليها في البحر، وقوله: {في البحر} متعلق بالجواري أي الجواري في البحر، وليست فيما يظهر متعلقة بالمنشآت، يعني الجواري التي تصنع في البحر، لأن السفن تصنع في البر أولًا، ثم تنزل في البحر، وقوله: {كالأَعلام} تشبيه، والأعلام جمع علم وهو الجبل، كما قال الشاعر:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

كأنه جبل، ومن شاهد السفن في البحار رأى أن هذا التشبيه منطبق تمامًا عليها، فهي كالجبال تسير في البحر بأمر الله ﷻ، وإنما نص الله عليها لأنها تحمل الأرزاق من جانب إلى جانب، ولولا أن الله تعالى يسرها لكان في ذلك فوات خير كثير للبلاد التي تنقل منها والبلاد التي تنقل إليها، وفي هذا العصر جعل الله تبارك وتعالى جواري أخرى، لكنها تجري في الجو، كما تجري هذه في البحر، وهي

=

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦).

{كُلّ مَنْ عَلَيْهَا} أَيْ الْأَرْض مِنْ الْحَيَوَان {فَانٍ} هَالِك وَعَبَّرَ بِمَنْ تَغْلِيبًا لِلْعُقَلَاءِ.

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧).

{وَيَبْقَى وَجْه رَبّك} ذَاته {ذُو الْجَلَال} الْعَظَمَة {والإكرام} للمؤمنين بأنعمه عليهم.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) .

{فبأي ألاء ربكما تكذبان}.

يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩).

{يَسْأَلهُ مَنْ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} بِنُطْقٍ أَوْ حَال مَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ مِنْ الْقُوَّة عَلَى الْعِبَادَة وَالرِّزْق وَالْمَغْفِرَة وَغَيْر ذَلِكَ {كُلّ يَوْم} وَقْت {هُوَ فِي شَأْن} أَمْر يُظْهِرهُ عَلَى وَفْق مَا قَدَّرَهُ فِي الْأَزَل مِنْ إحْيَاء وَإِمَاتَة وَإِعْزَاز وَإِذْلَال وَإِغْنَاء وَإِعْدَام وَإِجَابَة دَاعٍ وإعطاء سائل وغير ذلك.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠).

{فبأي ألاء ربكما تكذبان}.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١)

=

الطائرات، فهي منة من الله ﷻ كمنته على عباده في جواري البحار، بل ربما نقول: إن السيارات أيضًا من جواري البر، فتكون الجواري ثلاثة أصناف: بحرية، وبرية، وجوية، وكلها من نعم الله ﷻ، ولهذا قال: {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} أي بأي: نعمة من نعم الله تكذبان، والخطاب للإنس والجن.

{سَنَفْرُغُ لَكُمْ} سَنَقْصِدُ لِحِسَابِكُمْ {أَيّهَا الثَّقَلَانِ} الْإِنْس والجن.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)

{فبأي ألاء ربكما تكذبان}.

يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣).

{يَا مَعْشَر الْجِنّ وَالْإِنْس إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا} تَخْرُجُوا {مِنْ أَقْطَار} نَوَاحِي {السَّمَاوَات وَالْأَرْض فَانْفُذُوا} أَمْر تَعْجِيز {لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} بقوة ولا قوة لكم على ذلك.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥).

{يُرْسَل عَلَيْكُمَا شُوَاظ مِنْ نَار} هُوَ لَهَبهَا الْخَالِص مِنْ الدُّخَان أَوْ مَعَهُ {وَنُحَاس} أَيْ دُخَان لَا لَهَب فِيهِ {فَلَا تَنْتَصِرَانِ} تَمْتَنِعَانِ من ذلك بل يسوقكم إلى المحشر.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}[1].

---

(١) قوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} [الرحمن: ٢٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: كلّ من على ظهر الأرض من جنّ وإنس فإنه هالك".

قال السمعاني:"أي: كل من على الأرض هالك".

=

=

قال الشوكاني:"أي: كل من على الأرض من الحيوانات هالك، وغلب العقلاء على غيرهم، فعبر عن الجميع بلفظ من، وقيل: أراد من عليها من الجن والإنس".
قال مقاتل:"فلما نزلت هذه الآية قالت الملائكة الذين في السماء: هلك أهل الأرض، العجب لهم كيف تنفعهم المعيشة! حتى أنزل الله- تعالى- في القصص: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَه} [القصص: ٨٨]، يعني: كل شيء من الحيوان في السموات والأرض يموت إلا وجهه، يقول: إلا الله، فأيقنوا عند ذلك كلهم بالهلاك".
قوله تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٧]، أي:"ويبقى وجه ربك ذو العظمة والكبرياء والفضل والجود".
قال الطبري: يقول:"ويبقى وجه ربك يا محمد ذو الجلال والإكرام".
قال السمعاني:"أي: يبقى ربك، {ذو الجلال}، أي: الكبرياء والعظمة. وأما الإكرام: هو ما أكرم أولياءه، وأصفياءه".
قال الشوكاني:"..الجلال: العظمة والكبرياء، واستحقاق صفات المدح، يقال: جل الشيء، أي: عظم، وأجللته، أي: أعظمته، وهو اسم من جل. ومعنى ذو الإكرام: أنه يكرم عن كل شيء لا يليق به، وقيل: إنه ذو الإكرام لأوليائه، والخطاب في قوله: ربك، للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح له".
وروى الضحاك عن ابن عباس: "أنه يبقى ما أريد به وجه ربك".
وفي قراءة عبد الله: «ذي الجَلال والإكْرام»، بالياء، على أنه من نعت الربّ وصفته.
عن الحسن في قوله: {وَالْإِكْرَامِ}، قال:"الذي يكرم أهل دينه وولايته".
وعن الكلبي:"الكريم على خلقه في عفوه عنهم".
وعن ابن عباس:"الذي لا أكرم منه ولا أجل ولا أعظم".
وعن ابن عباس -أيضا-:"{ذو الجلال والإكرام} قال: ذو الكبرياء والعظمة".

=

=

قال الشعبي: "إذا قرأت {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ} فلا تسكت حتى تقول: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}".

عن حميد بن هلال قال: "قال رجل: يرحم الله رجلا أتى على هذه الآية {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}، فسأل الله تعالى بذلك الوجه الكافي الكريم" - ولفظ البيهقي- "بذلك الوجه الباقي الجميل".

قوله تعالى {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)} [الرحمن: ٢٨]

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فبأيّ نِعَم ربكما معشر الثقلين من هذه النعم تكذّبان".

قال الشوكاني:"وجه النعمة في فناء الخلق أن الموت سبب النقلة إلى دار الجزاء والثواب".

قال الزمخشري:"أعظم النعمة وهو مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك".

القرآن

{يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)} [الرحمن: ٢٩- ٣٠]

قوله تعالى: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الرحمن: ٢٩]، أي:"يسأله مَن في السموات والأرض حاجاتهم، فلا غنى لأحد منهم عنه سبحانه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إليه يَفْزع بمسألة الحاجات كلّ من في السموات والأرض، من مَلَك وإنس وجنّ وغيرهم، لا غنى بأحد منهم عنه".

قال الزمخشري:"كل من أهل السماوات والأرض مفتقرون إليه، فيسأله أهل السماوات ما يتعلق بدينهم، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم".

قال مقاتل:"يعني: يسأل أهل الأرض الله الرزق، وتسأل الملائكة أيضا لهم الرزق والمغفرة".

=

قال الشوكاني:"أي: يسألونه جميعا لأنهم محتاجون إليه لا يستغني عنه أحد منهم.. يسأله كل مخلوق من مخلوقاته بلسان المقال أو لسان الحال، من خيري الدارين أو من خيري إحداهما".

عن ابن عباس، قوله: " {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، قال: يعني: مسألة عباده إياه الرزق والموت والحياة، كلّ يوم هو في ذلك".

قال قتادة:"لا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض، يُحْيي حَيا، ويُمِيت ميتا، ويربي صغيرا، ويذلّ كبيرًا، وهو مَسْأل حاجات الصالحين، ومنتهى شكواهم، وصريخ الأخيار".

قوله تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩]، أي:"كل يوم هو في شأن: يُعِزُّ ويُذِلُّ، ويعطي ويَمْنع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هو كلّ يوم في شأن خلقه، فيفرج كرب ذي كرب، ويرفع قوما، ويخفض آخرين، وغير ذلك من شئون خلقه".

قال الزمخشري:"أي: كل وقت وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا".

قال مقاتل:"وشأنه أنه يحدث في خلقه ما يشاء من خلق، أو عذاب، أو شدة، أو رحمة، أو رخاء، أو رزق، أو حياة، أو موت. فمن مات محى اسمه من اللوح المحفوظ".

عن عبيد بن عمير، " {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، قال: يجيب داعيا، ويعطي سائلا أو يفكّ عانيا، أو يشفي سقيما". وفي رواية:"يفكّ عانيا، ويشفي سقيما، ويجيب داعيا".

قال عبيد بن عمير:"يجيب داعيا، ويعطي سائلا ويفك عانيا، ويتوب على قوم، ويغفر".

قال مطر الوراق:"يُحيي ميّتا، ويُميت حيًّا، ويُربي صغيرًا، ويجيب داعيًا، ويشفي

=

سقيمًا، ومنتهى شكوى الصالحين، ويعرض حاجات المؤمنين".
قال الربيع بن أنس:"خلق خلْقًا، ويُميت آخرين، ويرزقهم، ويَكْلؤهم.
قال مجاهد:"من شأنه أن يعطي سائلا ويفك عانيا، ويجيب داعيا، ويشفي سقيما".
قال مجاهد:"كلّ يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرًا، ويغفر ذنبا".
قال قتادة:"يخلق مخلقا، ويميت ميتا، ويحدث أمرا".
قال أبو الجوزاء:"لا يشغله شأن عن شأن".
قال سفيان بن عُيينة: "الدّهر كلّه عند الله يومان: أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، فالشأن الذي هو فيه اليوم الذي هو مدة الدنيا: الاختبار بالأمر والنهي، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، وشأن يوم القيامة: الجزاء والحساب، والثواب والعقاب".
عن أبي سليمان الدّاراني، في قوله تعالى: " {كل يوم هو في شأن}، قال: "ليس من الله شيء يَحْدُثُ إنما هو في تنفيذ ما قدّر أن يكون في ذلك اليوم".
عن عبيد الله بن أبي نَهيك -من طريق الفضل بن موسى-:"{يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن}، قال: يُسأل كلّ يوم، والرّبّ -تبارك وتعالى- في شأن، وهو اسم من أسماء الله- ﷻ -".
قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٣٠].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نِعَم ربكما معشر الجنّ والإنس، التي أنعم عليكم من صرفه إياكم في مصالحكم، وما هو أعلم به منكم من تقليبه إياكم، فيما هو أنفع لكم تكذّبان".
قال مقاتل:"يعني: نعماء ربكما تكذبان أنها ليست من الله- تعالى-".

=

=

قال الشوكاني:"فإن اختلاف شؤونه سبحانه في تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها، ولا يتيسر لمكذب تكذيبها".

قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ} [الرحمن: ٣١]، أي:"سنفرُغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكما التي عملتموهما في الدنيا، أيها الثقلان -الإنس والجن-، فنعاقب أهل المعاصي، ونُثيب أهل الطاعة".

قال الطبري: يقول: "سنحاسبكم، ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجنّ، فنعاقب أهل المعاصي، ونثيب أهل الطاعة.. فإنه وعيد من الله لعباده وتهدد، كقول القائل الذي يتهدّد غيره ويتوعده، ولا شغل له يشغله عن عقابه، لأتفرغنّ لك، وسأتفرّغ لك، بمعنى: سأجدّ في أمرك وأعاقبك، وقد يقول القائل للذي لا شغل له: قد فرغت لي، وقد فرغت لشتمي: أي أخذت فيه، وأقبلت عليه".

قال مقاتل:"يعني: سنفرغ لحساب الإنس والجن، ولم يعن به الشياطين لأنهم هم أغووا الإنس والجن، وهذا من كلام العرب يقول سأفرغ لك، وإنه لفارغ قبل ذلك وهذا تهديد، والله- تعالى- لا يشغله شيء".

قال الفراء:"وهذا من الله وعيد لأنَّه ﷻ لا يشغله شيء عنْ شيء، وأنت قائل للرجل الَّذِي لا شغل لَهُ: قَدْ فرغت لي، قَدْ فرغت لشتمي. أي: قَدْ أخذت فِيهِ، وأقبلت عَلَيْه".

قال أبو عبيدة: أي:"سنحاسبكم، لم يشغله شيء تبارك وتعالى".

قال ابن قتيبة:"والله تبارك وتعالى لا يشغله شأن عن شأن. ومجازه: سنقصد لكم بعد طول التّرك والإمهال".

قال الزجاج:"معناه: سنقصد لِحِسَابِكُمْ، والله لا يَشْغَلُه شأن عن شأن. والفراغ في اللغة على ضربين: أحدهما الفراغ من شُغلٍ. والآخر: القصد للشيء، تقول: قد فرغت مما كنت فيه، أي: قد زال شغلي به، وتقول: سَأَتَفَرغ لفلانٍ، أي سأجْعَلُ

=

=

قَصْدِي له".

قال أبو بكر الكيساني: "إن الفراغ ليس يستعمل عند الفراغ عن الشغل خاصة، لكن يستعمل له ولغيره من نحو: إنجاز ما وعد، وأوعد؛ كأنه قال: سننجز لكم ما أوعدتكم أيها الثقلان".

قال الزحيلي:"{سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلان} استعارة تمثيلية، شبه محاسبة الخلائق وجزاءهم يوم القيامة بالتفرغ للأمر، والله تعالى لا يشغله عن شأن، وإنما ذلك على سبيل المثال، إذ شبه تعالى ذاته في المجازاة بحال من فرغ للأمر".

عن الضحاك: " {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}، قال: وعيد".

عن ابن عباس، قوله: " {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}، قال: وَعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ".

قال سعيد بن جبير:"يقول: سأقصد لحسابكم".

عن الحسن:"{سَنَفْرُغُ لَكُمْ} مما أوعدناكم وأخبرناكم، فنحاسبكم ونجازيكم، ونُنجز لكم ما وعدناكم، ونُوصل كلًّا إلى ما وعدناه، فيتمّ ذلك، ويفرغ منه".

عن قتادة:"أنه تلا: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ}، قال: دنا من الله فراغ لخلقه". قال ابن قتيبة:"يريد: أن الساعة قد أزفت وجاء أشراطها".

عن جعفر بن محمد الصادق: " {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ} سُمي الجن والإنس: ثَقلين؛ لأنهما مُثقلان بالذنوب".

وقرئ: «سَيَفرغ لَكُمْ»، بالياء، وفتحها ردّا على قوله: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، ولم يقل: يسألنا من في السموات، فأتبعوا الخبر الخبر.

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٣٢]، أي:"فبأيِّ نِعَم ربكما – أيها الثقلان– تكذِّبان؟".

قال الطبري: يقول:"فبأيّ نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعمها عليكم، من ثوابه

=

=

أهل طاعته، وعقابه أهل معصيته تكذّبان؟".

قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا} [الرحمن: ٣٣]، أي:"يا معشر الجن والإنس، إن قَدَرْتم على النفاذ من أمر الله وحكمه هاربين من أطراف السموات والأرض فافعلوا".

قال البغوي:"معناه: إن استطعتم أن تهربوا من الموت بالخروج من أقطار السموات والأرض: فاهربوا واخرجوا منها، والمعنى: حيثما كنتم أدرككم الموت، كما قال جل ذكره: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ} [النساء: ٧٨]".

قال ابن كثير:"أي: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب {إِلا بِسُلْطَانٍ}، أي: إلا بأمر الله، {يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلا لا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} [القيامة: ١٠-١٢]. وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٧]".

عن سفيان: " {إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}، قال: من أطرافها".

قال الزجاج:"الأقطار: النَواحي".

قال الزحيلي:"الأمر هنا للتعجيز، فقوله: {فَانْفُذُوا} أمر تعجيزي".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:"كل سلطان في القرآن حجة".

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ

=

=

تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا} [الرحمن: ٣٣]، على ثلاثة أقوال:
أحدها: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموا، لن تعلموه إلا بسلطان، قاله عطية العوفي.
الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هربًا من الموت فانفذوا، رواه عبيد عن الضحاك.
قال الضحاك: "يعني بذلك أنه لا يجيرهم أحد من الموت، وأنهم ميتون لا يستطيعون فرارا منه، ولا محيصا، لو نفذوا أقطار السموات والأرض كانوا في سُلطان الله، ولأخذهم الله بالموت".
الثالث: معناه: إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض، فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم؛ فجوزوا ذلك، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطان من ربكم. وهذا قول يقال لهم يوم القيامة. رواه الأجلح عن الضحاك.
قال الضحاك بن مزاحم: "إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقّقت بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة، فأحاطوا بالأرض ومن عليها بالثانية، ثم بالثالثة، ثم بالرابعة، ثم بالخامسة، ثم بالسادسة، ثم بالسابعة، فصفوا صفا دون صف، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبِّته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل الأرض ندوّا، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ}، وذلك قوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِيءَ
يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، وقوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ}، وذلك قوله: {وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا}".

=

=

قوله تعالى: {لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: ٣٣]، أي:"ولستم قادرين على ذلك إلا بقوة وحجة، وأمر من الله تعالى، وأنَّى لكم ذلك".

وفي قوله تعالى: {لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: ٣٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: إلا بحجة، قاله مجاهد وعكرمة.

قال عكرمة:"كلّ شيء في القرآن سلطان فهو حجة".

قال ابن بحر: "والحجة الإيمان".

قال الزجاج:"أي: حيثما كنتم شاهدتم حجةً لِلَّهِ وسلطانًا تدل على أنه واحدٌ".

الثاني: لا تنفذون إلا بمُلْك وليس لكم مُلْك، قاله قتادة.

وقال قتادة:"إلا بسلطان من الله، إلا بملكة منه".

قال قتادة: يقول: إلا بملكة من الله".

وقال عطاء:"لا تخرجون من سلطاني.

الثالث: معناه: لا تنفذون إلا في سلطانه وملكه، لأنه مالك السموات والأرض وما بينهما، قاله ابن عباس.

عن ابن عباس، قوله: {لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَان}، يقول: لا تخرجون من سلطاني".

الرابع: إلا البينة من الله جلّ ثناؤه. قاله ابن عباس أيضا-.

قال ابن عباس:"يقول: إن استطعتم أن تعلموا ما في السموات والأرض فاعلموه، لن تعلموه إلا بسلطان، يعني البينة من الله جلّ ثناؤه".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: إلا بحجة وبينة، لأن ذلك هو معنى السلطان في كلام العرب، وقد يدخل الملك في ذلك، لأن الملك حجة".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٣٤]، أي:"فبأي نِعَم ربكما -أيها الثقلان- تكذِّبان؟".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما تكذّبان معشر الثقلين التي أنعمت عليكم -من التسوية بين جميعكم، لا يقدرون على خلاف أمر أراده بكم- تكذّبان".

قوله تعالى: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ} [الرحمن: ٣٥]، أي:"يُرْسَل عليكم لهب من نار، ونحاس مذاب يُصَبُّ على رؤوسكم، فلا ينصر بعضكم بعضًا يا معشر الجن والإنس".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا} أيها الثقلان يوم القيامة {شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ}، وهو لهبها من حيث تشتعل وتؤجَّج بغير دخان كان فيه، فلا تنتصران أيها الجنّ والإنس منه، إذا هو عاقبكما هذه العقوبة، ولا تُستنقذان منه".

عن قتادة: " {فَلا تَنْتَصِرَانِ}، قال: يعني الجنّ والإنس".

قال السمعاني:"أي: لا تمتنعان، يقال: لا يكون لكما قوة دفع العذاب".

قال البغوي:"أي: فلا تمتنعان من الله ولا يكون لكم ناصر منه".

قال المراغي:"أي: يصب عليكما ألوان من النيران، فمن لهب خالص يضئ كضوء السراج، إلى نار مختلطة بالدخان، فلا تستطيعان المهرب منها، بل يسوقكم إلى الحشر سوقا".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ} [الرحمن: ٣٥]، على وجوه:

أحدها: أن الشواظ: لهب النار، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد ومقاتل. ومنه قول أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي... مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إِلَى عُكَاظِ
أَلَيْسَ أَبُوكَ فِينَا كَانَ قَيْنًا... لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلًا فِي الْحَفَاظِ
يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا... وَيَنْفُخُ دَائِبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

=

=

فأجابه حسان فقال:

أتاني عن أميّ ثنا كلام... وما هو في المغيب بذي حفاظ

ستأتيه قصائد محكّمات... وتنشد بالمجاز إلى عكاظ

همزتك فاختضعت بذلّ لفظ... بقافية تأجّج كالشّواظ

قال ابن زيد:"الشواظ: اللهب، وأما النحاس فالله أعلم بما أراد به".

الثاني: أنه قطعة من النار فيها خضرة، قاله مجاهد وسفيان.

قال مجاهد:"الشُّواظ: الأخضر المتقطع من النار".

قال مجاهد:"الشواظ: هذا اللهب الأخضر المتقطع من النار".

قال سفيان:"الشواظ: اللهب الأخضر المتقطع من النار".

الثالث: الشُّواظ: هو الدخان الذي يخرج من اللهب، قاله الضحاك-أيضا- قال رؤبة بن العجاج:

إنَّ لَهُمْ مِنْ وَقْعِنا أَقْياظا... ونارُ حَرْب تُسْعِرُ الشُّوَاظا

قال الضحاك:"الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب".

الرابع: أنها طائفة من العذاب، قاله الحسن.

وأما «النحاس»، ففيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه الصفر يعذّبون به، رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقتادة وسفيان ومقاتل.

قال مجاهد:"يذاب الصفر من فوق رءوسهم". وفي رواية:"يذاب الصفر فيصبّ على رأسه".

قال سفيان:"يذاب الصفر فيصبّ على رءوسهم".

قال قتادة:"توعدهما بالصُّفر كما تسمعون أن يعذّبهما به".

قال قتادة:"يخوّفهم بالنار وبالنحاس".

=

=

قال مقاتل:"يعني: الصفر الذائب وهي خمسة أنهار تجري من تحت العرش على رءوس أهل النار ثلاثة أنهار على مقدار الليل، ونهران على مقدار أنهار الدنيا".

الثاني: أنه دخان النار، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وبه قال الفراء وأنشد قول النابغة الجعدي:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سَرَاجِ السَّلِيطِ... لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسَا

الثالث: أنه القتل، قاله عبد الله بن أبي بكرة.

الرابع: أنه نحس لأعمالهم، قاله الحسن.

قال الطبري:"الصواب قول من قال: عُنِي بالنحاس: الدخان، وذلك أنه جلّ ثناؤه ذكر أنه يرسل على هذين الحيَّين شواظ من نار، وهو النار المحضة التي لا يخلطها دخان. والذي هو أولى بالكلام أنه توعدهم بنار هذه صفتها أن يُتبع ذلك الوعد بما هو خلافها من نوعها من العذاب، دون ما هو من غير جنسها، وذلك هو الدخان، والعرب تسمي الدخان نُحاسا بضم النون، ونحاسا بكسرها، والقرّاء مجمعة على ضمها".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٣٦].

أي: فبأى هذه النعم تكذبان، فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالإنعام على الأول والانتقام من الثاني، من أجل نعم الإله القادر على جزاء عباده".

قال البيضاوي:"فإن التهديد لطف والتمييز بين المطيع والعاصي بالجزاء والانتقام من الكفار في عداد الآلاء".

قال العثيمين: قوله تعالى: {كل من عليها} أي: كل من على الأرض {فان} أي: ذاهب من الجن والإنس والحيوان والأشجار، قال الله تبارك وتعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينةً لها لنبلوهم أيهم أحسن عملًا وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا

=

=

جرزًا} أي: خالية، وقال الله تعالى: {ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا} أي: يذر الأرض قاعًا صفصفًا، أو يذر الجبال بعد أن كانت عالية شامخة قاعًا كالقيعان مساوية لغيرها، صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} أي: يبقى الله ﷻ ذو الوجه الكريم، وكان بعض السلف إذا قرأ هاتين الآيتين وصل بعضهما ببعض، قال: ليتبين بذلك كمال الخالق ونقص المخلوق؛

لأن المخلوق فانٍ والرب باقٍ، وهذه الملاحظة جيدة أن تصل فتقول: {كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} وهذا هو محط الثناء والحمد على الله ﷻ أن تفنى الخلائق ويبقى الله ﷻ وقوله تعالى: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام} فيه إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى ولكنه وجه لا يشبه أوجه المخلوقين، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} يعني أنت تؤمن بأن لله وجهًا، لكن يجب أن تؤمن بأنه لا يماثل أوجه المخلوقين بأي حال من الأحوال، لقوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} ولما ظن بعض أهل التعطيل أن إثبات الوجه يستلزم التمثيل أنكروا أن يكون لله وقالوا: المراد بقوله {ويبقى وجه ربك} أي ثوابه، أو أن كلمة {وجه} زائدة، وأن المعنى: ويبقى ربك! ولكنهم ضلوا سواء السبيل، وخرجوا عن ظاهر القرآن وحرفوه وخرجوا عن طريق السلف الصالح، ونحن نقول: إن لله وجهًا، لإثباته له في هذه الآية، ولا يماثل أوجه المخلوقين لنفي المماثلة في قوله: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وبذلك نسلم ونجري النصوص على ظاهرها، المراد بها، وقوله: {ذو الجلال} أي: ذو العظمة {والإكرام} أي: إكرام من يطيع الله ﷻ كما قال تعالى: {أولئك في جنات مكرمون} فالإكرام أي أنه يكرم من يستحق الإكرام من خلقه، ويحتمل أن يكون لها معنى آخر وهو أنه يُكْرَم من أهل العبادة

=

من خلقه، فيكون الإكرام هذا المصدر صالحًا للمفعول والفاعل، فهو مكرَم ومكرِم {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} وهذه الآية تكررت عدة مرات في هذه السورة، ومعناها أنه بأي نعمة من نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس، وهذا كالتحدي لهم، لأنه لن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذه النعم، ثم قال سبحانه وتعالى: {يسأله من في السماوات والأَرض كل يوم هو في شأن} أي: يسأل الله من في السماوات والأرض، والذي في السماوات هم الملائكة يسألون الله ﷻ ومن سؤالهم أنهم {ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم} إلى آخره، ويسأله من في الأرض من الخلائق، وسؤال أهل الأرض لله ﷻ قسمان: الأول: السؤال بلسان المقال، وهذا إنما يكون من المؤمنين، فالمؤمن يسأل ربه دائمًا حاجاته، لأنه يعلم أنه لا يقضيها إلا الله ﷻ وسؤال المؤمن ربه عبادة، سواء حصل مقصوده أم لم يحصل، فإذا قلت: يا رب أعطني كذا. فهذه عبادة، كما جاء في الحديث: «الدعاء عبادة". وقال تعالى {وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين} فقال {ادعوني} ثم قال: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي} وهذا دليل على أن الدعاء عبادة، النوع الثاني: دعاء بلسان الحال، وهو أن كل مخلوق مفتقر إلى الله ينظر إلى رحمته، فالكفار مثلًا ينظرون إلى الغيث النازل من السماء، وإلى نبات الأرض، وإلى صحة الحيوان، وإلى كثرة الأرزاق وهم يعلمون إنهم لا يستطيعون أن يجدوا ذلك بأنفسهم، فهم إذن يسألون الله بلسان الحال، ولذلك إذا مستهم ضراء اضطروا إلى سؤال الله بلسان المقال {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين}.

{كل يوم هو في شأن} من يحصي الأيام؟ لا أحد إلا الله ﷻ ومن يحصي الشهور؟ لا أحد إلا الله ﷻ {كل يوم هو في شأن}ـ يغني فقيرًا، ويفقر غنيًّا، ويمرض

=

صحيحًا، ويشفي سقيمًا، ويؤمّن خائفًا ويخوف آمنًا، وهلم جرا، كل يوم يفعل الله تعالى ذلك، هذه الشئون التي تتبدل عن حكمة ولا شك، قال الله تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون} وقال تعالى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدًى} فنحن نؤمن أن الله لا يقدر قدرًا إلا لحكمة، لكن قد نعلم هذه الحكمة وقد لا نعلم، ولهذا قال: {كل يوم هو في شأن}ـ ولكن اعلم أيها المؤمن أن الله تعالى لا يقدر لك قدرًا إلا كان خيرًا لك، إن أصابتك ضراء فاصبر وانتظر الفرج، وقل: الحمد لله على كل حال. وكما يقال: دوام الحال من المحال، فينتظر الفرج فيكون خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس هذا لأحد إلا للمؤمن {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} نقول فيها ما قلنا في الآيات السابقة أن المعنى بأي نعمة من نعم الله تكذبان؟ والجواب: لا نكذب بشيء من نعم الله، بل نقول: هي من عند الله، فله الحمد وله الشكر، ومن نسب النعمة إلى غير الله فهو مكذب.

وإن لم يقل إنه مكذب قال الله تعالى: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} وهذه الآية يعني بها قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا، وقد قال النبي ﷺ وهو يحدث أصحابه على إثر مطر كان، قال لهم بعد صلاة الصبح: «هل تدرون ماذا قال ربكم» ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب».

{سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأي ءالآء ربكما تكذبان} هذه الجملة المقصود بها الوعيد، كما يقول قائل لمن يتوعده سأتفرغ لك، وأجازيك. وليس المعنى أن الله تعالى يشغله شأن عن شأن ثم يفرغ من هذا، ويأتي إلى هذا، هو سبحانه يدبر كل شيء في آن واحد في مشارق الأرض ومغاربها وفي السماوات، وفي كل مكان يدبره

=

=

في آن واحد، ولا يعجزه. فلا تتوهمن أن قوله: {سنفرغ} أنه الآن مشغول وسيفرغ.

بل هذه جملة وعيدية تعبر بها العرب، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب وفي قوله: {سنفرغ لكم} من التعظيم ما هو ظاهر حيث أتى بضمير الجمع، {سنفرغ} تعظيمًا لنفسه- جل وعلا- وإلا فهو واحد، وقوله: {أيها الثقلان} يعني الجن والإنس، وإنما وجه هذا الوعيد إليهما، لأنهما مناط التكليف، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} سبق تفسيرها فلا حاجة إلى التكرار {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأَرض فانفذوا} بعد الوعيد قال: {إن استطعتم أن تنفذوا} أي: مما نريده بكم {من أقطر السماوات والأَرض فانفذوا} ولكنكم لا تستطيعون هذا، فالأمر هنا للتعجيز، ولهذا قال: {لا تنفذون إلا بسلطان} يعني ولا سلطان لكم، ولا يمكن أحد أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض إلى أين يذهب؟ لا يمكن ثم قال: {فبأي ءالآء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار} يعني لو استطعتم، أو لو حاولتم لكان هذا الجزاء {يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس} أي: محمى بالنار {فلا تنتصران} أي: فلا ينصر بعضكم بعضًا، وهذه الآية في مقام التحدي، وقد أخطأ غاية الخطأ من زعم أنها تشير إلى ما توصل إليه العلماء من الطيران، حتى يخرجوا من أقطار الأرض ومن جاذبيتها، وإلى أن يصلوا كما يزعمون إلى القمر أو إلى ما فوق القمر، فالآية ظاهرة في التحدي، والتحدي هو توجيه الخطاب إلى من لا يستطيع، ثم نقول: إن هؤلاء هل استطاعوا أن ينفذوا من أقطار السماوات، لو فرضنا أنهم نفذوا من أقطار الأرض ما نفذوا من أقطار السماوات، فالآية واضحة أنها في مقام التحدي، وأنها لا تشير إلى ما زعم هؤلاء أنها تشير إليه، ونحن نقول الشيء الواقع لا نكذبه، ولكن لا يلزم من تصديقه أن يكون القرآن دل عليه أو السنة، الواقع واقع، فهم

=

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧).

{فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاء} انْفَرَجَتْ أَبْوَابًا لِنُزُولِ الْمَلَائِكَة {فَكَانَتْ وَرْدَة} أَيْ مِثْلهَا مُحْمَرَّة {كَالدِّهَانِ} كَالْأَدِيمِ الْأَحْمَر عَلَى خِلَاف الْعَهْد بِهَا وَجَوَاب إذَا فما أعظم الهول.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩).

{فَيَوْمئِذٍ لَا يُسْأَل عَنْ ذَنْبه إنْس وَلَا جَانّ} عَنْ ذَنْبه وَيُسْأَلُونَ فِي وَقْت آخَر {فَوَرَبِّك لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} وَالْجَانّ هُنَا وَفِيمَا سَيَأْتِي بمعنى الجني والإنس فيهما بمعنى الإنسي.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١).

{يُعْرَف الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ} سَوَاد الْوُجُوه وَزُرْقَة الْعُيُون {فَيُؤْخَذ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَام} تُضَمّ نَاصِيَة كُلّ مِنْهُمْ إلَى قَدَمَيْهِ مِنْ خَلْف أَوْ قُدَّام وَيُلْقَى فِي النَّار وَيُقَال لَهُمْ.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢).

=

خرجوا من أقطار الأرض، وهذا واقع لا يحتاج إلى دليل، وهذه الآية في سياقها إذا تأملتها وجدت أن هذا التحدي يوم القيامة، لأنه قال: {كل من عليها فان}ـ ثم ذكر {يسأله من في السماوات والأرض} ثم ذكر {يا معشر الجن}.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبّكُمَا تُكَذِّبَانِ}.

هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣).

{هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون}.

يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤).

{يَطُوفُونَ} يَسْعَوْنَ {بَيْنهَا وَبَيْن حَمِيم} مَاء حَارّ {آنٍ} شَدِيد الْحَرَارَة يُسْقَوْنَهُ إذَا اسْتَغَاثُوا مِنْ حر النار وهو منقوص كقاض.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ} [الرحمن: ٣٧]، أي:"فإذا انشقت السماء وتفطرت يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:"فإذا انشقَّت السماء وتفطَّرت، وذلك يوم القيامة".

قال مقاتل:"يعني: انفرجت من المجرة، وهو البياض الذي يرى في وسط السماء وهو شرج السماء لنزول من فيها، يعني الرب- تعالى- والملائكة".

قال ابن الجوزي:"أي: انفرجتْ من المجرَّة لنُزول مَنْ فيها يومَ القيامة".

قوله تعالى: {فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} [الرحمن: ٣٧]، أي:"فكانت حمراء كلون الورد، وكالزيت المغلي والرصاص المذاب؛ من شدة الأمر وهول يوم القيامة".

قال الطبري: يقول:"فكان لونها لون البرذون الورد الأحمر".

قال ابن كثير:"أي: تذوب كما يذوب الدّرْدي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم".

وفي قوله تعالى: {فَكَانَتْ وَرْدَةً} [الرحمن: ٣٧]، وجوه:

=

=

أحدهما: أنه أراد بالوردة: الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي الشتاء أغبر، فشبه السماء يوم القيامة في اختلاف ألوانها بالفرس الورد، لاختلاف ألوانه، قاله أبو صالح والضحاك والكلبي والفراء وابن قتيبة.

قال أبو صالح الدنداني [الهُذيل بن حبيب]: "شبّه لونها بلون دُهن الوَرد، ويقال: بلون الفَرس الوَرد؛ يكون في الربيع كميتًا أشقر، وفي الشتاء أحمر، فإذا اشتد البَرد كان أغبر، فشبّه لون السماء في اختلاف أحوالها بلون الفَرس في الأزمنة المختلفة".

قال الضحاك:"يقول: تتغير السماء فيصير لونها كلون الدابة الوردة".

قال أبو صالح:"كلون البرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان".

قال الفراء:"أراد بالوردة الفَرس، الوردةُ تكون فِي الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كَانَ بعد ذَلِكَ كانت وردة إلى الغُبْرة، فشبه تلوّن السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة فِي اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه".

وقال السدي:"تكون كلون البغلة الوردة".

الثاني: أنها وردة النبات، وهى الزهرة المعروفة التي تشم والغالب على الورد الحمرة، وبها يضرب المثل في لون الحمرة، كذلك تصير السماء يوم القيامة حمراء كالورد، قاله ابن بحر.

قال عبد بني الحسحاس:

فَلَوْ كُنْتُ وَرْدًا لونُهُ لَعشِقْتَنِي... ولكِنَّ ربِّي شَانَنِي بِسَوَادِيَا

قال الزجاج:"معنى {وَرْدَةً} صارت كلون الورد، وذلك في يوم القيامة".

قال قتادة:"هي اليوم خضراء كما ترون، ولونها يوم القيامة لون آخر". وفي رواية:"إنها اليوم خضراء، وسيكون لها يومئذ لون آخر".

=

=

قال ابن زيد:"مشرقة كالدهان".

وفي قوله تعالى: {كَالدِّهَانِ} [الرحمن: ٣٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: خالصة، قاله الضحاك.

الثاني: صافية الحمرة مشرقة، قاله مجاهد والأخفش. وبه قال الطبري.

قال النحاس:"{كَالدِّهانِ}، أصح ما قيل فيه، وهو قول مجاهد والضحاك، أنه جمع: دهن، أي: صافية ملساء".

قال الطبري:"الصواب قول من قال: عني به الدهن في إشراق لونه، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب".

قال مقاتل:"يعني: فصارت من الخوف {وردة كالدهان}، شبه لونها في التغير والتلون بدهان الورد الصافي".

قال أبو عبيدة:"تمور كالدهن صافية، وردة لونها كلون الورد وهو الجلّ".

وحكي ابن كثير عن أبي الجوزاء:"في صفاء الدهن".

الثالث: ذات ألوان، قاله الحسن.

الرابع: صفراء كلون دُهْن الوَرْد، وهذا قول عطاء الخراساني وأبي الجوزاء.

قال الزجاج:"معنى: {كَالدِّهَانِ}، تتلون من الفزع الأكبر تَلَوْن الدهان المختلفة، والدِّهَان جمع: دُهْنٍ، ودليل ذلك قوله: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}، أي: كالزيت الذي قد أُغْلِيَ".

الخامس: كعكر الزيت. قاله زيد بن أسلم.

وقال السدي:"وتكون كالمهل، كدردي الزيت".

وقال ابن جريج:"بن جريج: تصير السماء كالدهن الذائب، وذلك حين يُصيبها حر جهنم".

السادس: الدهان: أديم الأرض الأحمر، قاله ابن عباس وحكاه الفراء والطبري

=

=

الطبري دون نسبة، قال الأعشى:

وأَجْرَدَ مِنْ كِرامِ الخَيْلِ طِرْفٍ... كأنَّ على شَواكِلِه دِهانا

أي: أديمًا أحمر.

قال الماوردي: "وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن هي حمراء كحمرة الدم وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحًا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز ترى حمراء لأنه أصل لونها".

عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: "يبعث الناس يوم القيامة والسماء تَطِش عليهم".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٣٨]، أي:"فبأي نِعَم ربكما -أيها الثقلان- تكذِّبان؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ قدرة ربكما معشر الجنّ والإنس -على ما أخبركم بأنه فاعل بكم- تكذّبان".

قوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، أي:"ففي ذلك اليوم لا تسأل الملائكة المجرمين من الإنس والجن عن ذنوبهم؟".

قال الطبري: يقول: " فيومئذ لا يسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم، لأن الله قد حفظها عليهم، ولا يسأل بعضهم عن ذنوب بعض، ربهم".

وفي قوله تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: كانت المسألة قبل، ثم ختم على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، قاله الحسن وقتادة.

قال الحسن: "قد حفظ الله عليهم أعمالهم".

=

=

قال قتادة:"حفظ الله ﷻ عليهم أعمالهم".

قال قتادة:"قد كانت مسألة ثم ختم على ألسنة القوم، فتتكلم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون".

الثاني: أنه لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، قاله ابن عباس.

قال الزجاج:"فَلَا يسأل عن ذنْبِه ليستفهم، قد علم الله ﷻ ما سَلَفَ مِنْهُم".

قال النحاس:"معناه: أنه لا يسأل سؤال استعلام".

الثالث: أنه لا يسأل بعضهم بعضًا عن حاله لشغل كل واحد منهم بنفسه، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا.

قال ابن عباس:"يقول تعالى ذكره: لا يسألهم عن أعمالهم، ولا يسأل بعضهم عن بعض وهو مثل قوله: {وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}، ومثل قوله لمحمد ﷺ: {وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}".

الرابع: لا يسأل الملائكة عنهم لأنهم قد رفعوا أعمالهم في الدنيا، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لا يسأل الملائكة عن المجرم يعرفون بسيماهم". وفي رواية: " لا تسأل الملائكة عن المجرم إنسا ولا جانا، يقول: يعرفون بسيماهم".

الخامس: المعني: لا يسأل إنس عنْ ذنبه، ولا جان عنْ ذنبه لأنهم يعرفون بسيماهم كما وصف الله: فالكافر يعرف بسواد وجهه، وزرقة عينه، والمؤمن أغر محجل من أثر وضوئه، قاله الفراء.

قال ابن كثير:"وهذه كقوله: {هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ. وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فهذا في حال، وثَمّ حال يسأل الخلائق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر: ٩٢، ٩٣]".

قال عكرمة:"إنها مواطن، يُسأل في بعضها، ولا يُسأل في بعضها".

=

=

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٤٠]، أي:"فبأي نِعَم ربكما -أيها الثقلان- تكذِّبان؟".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما معشر الثقلين، -التي أنعم عليكم من عدله فيكم، أنه لم يعاقب منكم إلا مجرما-[تكذّبان]".

قوله تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ} [الرحمن: ٤١]، أي:"تَعرِف الملائكة المجرمين بعلاماتهم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم وسيماهم التي يسوّمهم الله بها من اسوداد الوجوه، وازرقاق العيون".

قال النحاس:"السيما والسيمياء العلامة".

عن قتادة: " {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ}، قال: زرق العيون، سود الوجوه".

قال الحسن:"يعرفون باسوداد الوجوه، وزُرقة العيون".

قال الضحاك:"بسواد وجوههم، وزُرقة عيونهم".

قال البيضاوي:"{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ}: وهو ما يعلوهم من الكآبة والحزن".

قوله تعالى: {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} [الرحمن: ٤١]، أي:"فتأخذهم الملائكة بمقدمة رؤوسهم وبأقدامهم، فترميهم في النار".

قال الطبري: يقول: " فتأخذهم الزبانية بنواصيهم وأقدامهم فتسحبهم إلى جهنم، وتقذفهم فيها".

قال السعدي:"أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة".

قال الزجاج:"قيل: تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي من خلف ويلقون في

=

=

النار. وذلك أشد لعذابهم، والتشويه بهم".

قال ابن عباس:"تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه، ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور".

قال الزمخشري:"وقيل: تسحبهم الملائكة: تارة تأخذ بالنواصي، وتارة تأخذ بالأقدام".

قال ابن عباس:"تأخذ الزّبانية بناصيته وقدميه، ويُجمع فيُكسر كما يُكسر الحطب في التَّنُّور".

قال الضحاك:"يأخذ المَلَك بناصية أحدهم، فيَقْرُنها إلى قدميه، ثم يكسر ظهره، ثم يُلقيه في النار".

قال الضحاك:"يُجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة مِن وراء ظهره".

عن عائشة -من طريق عُروة- قالت: لا يُحاسَب أحدٌ يوم القيامة إلا دخل الجنة. ثم قرأَتْ: {فَأَمّا مَن أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيرًا} [الانشقاق ٧، ٨]، ثم قرأَتْ: {يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي والأَقْدامِ} [الرحمن: ٤١]".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢)} [الرحمن: ٤٢]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس -التي أنعم عليكم بها من تعريفه ملائكته أهل الإجرام من أهل الطاعة منكم، حتى خصوا بالإذلال والإهانة المجرمين دون غيرهم".

قال القاسمي:"أي: من عقوبته أهل الكفر به، وتكريمه أهل الإيمان به".

قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ} [الرحمن: ٤٣]، أي:"يقال لهؤلاء المجرمين -توبيخًا وتحقيرًا لهم-: هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون في الدنيا".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يقال لهؤلاء المجرمين الذين أخبر جلّ ثناؤه أنهم يعرفون يوم القيامة بسيماهم حين يؤخذ بالنواصي والأقدام: هذه جهنم التي يكذّب بها المجرمون".

قال النحاس:"أي يقال لهم: هذه جهنم التي كانوا يكذبون بها في الدنيا".

قال السمعاني:"يقال لهم هذا حين يرون جهنم، وهذا على طريق التقريع والتوبيخ، يعني: ما أنكرتموه وجحدتموه فأبصروه عيانا".

قال الكلبي:"قال الكلبي: تقول الملائكة لهم: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها أنها لا تكون".

قوله تعالى: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤]، أي:"يترددون بين نار جهنم وبين ماءٍ حار بلغ النهاية في الحرارة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يطوف هؤلاء المجرمون الذين وصف صفتهم في جهنم بين أطباقها وبين ماء قد أسخن وأغلي حتى انتهى حرّه وأنى طبخه، وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنى، ومنه قوله: {غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}، يعني: إدراكه وبلوغه".

قال الزمخشري:"أي: يعاقب عليهم بين التصلية بالنار وبين شرب الحميم".

قال النحاس:" {يَطُوفُونَ بَيْنَها}، أي: بين أطباقها".

قال افراء:"بين عذاب جهنم وبين الحميم إذَا عطشوا".

وفي قوله تعالى: {حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤]، ثلاثة أوجه:

أحدها: هو الذي انتهى حره وحميمه. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وسفيان والسدي. ومنه قول نابغة بني ذُبيان:

ويُخْضَب لِحْيَةٌ غدَرَتْ وخانَتْ... بأحمَرَ مِنْ نَجيع الجَوْفِ آني

يعني: مدرك.

=

=

قال أبو عبيدة: أي: " بلغ إناه في شدة الحر وكل مدرك آن وفى آية أخرى: {غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ}، أي: إدراكه".

قال ابن قتيبة:"«الحميم»: الماء المغلي، و «الآني»: الذي قد انتهت شدة حره".

قال الزجاج:"أي: متناهية في شدة الحرِّ"ـ" قد أنى يأنى فهو آنٍ، إذا انتهى في النضج والحرارة، فإذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم الآني الذي قد صار كالمهل، فيطاف بهم مرَّةً إلى الحميم ومرة إلى النار".

عن ابن عباس قوله: " {وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}، يقول: انتهى حرُّه".

قال ابن عباس:"غلى حتى انتهى غليه".

قال ابن عباس:"الآني: ما اشتدّ غليانه ونضجه".

قال سعيد بن جبير:"الآني الذي قد انتهى حرّه".

قال الحسن:"يقول: حميم قد آن منتهى حره".

قال سفيان:"قد انتهى حرّه".

قال الضحاك:"هو الذي قد انتهى غَلْيه".

قال قتادة:"يقول: حميم قد أنى طبخه منذ خلق الله السموات والأرض".

الثاني: أن الآني: الحاضر. قاله ابن زيدـ ومحمد بن كعب.

الثالث: أنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته، وهو معنى قول مجاهد.

عن مجاهد، قوله: " {وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}، قال: قد بلغ إناه".

قال كعب الأحبار: «آن»: وادي من أودية جهنم يجمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم وهم في الأغلال، فيغمسون في ذلك الوادي حتى تخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله سبحانه لهم خلقا جديدا، فيلقون في النار فذلك قوله سبحانه: {يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ}".

قال قتادة:"فهم في عناء وعذاب بين نار وحميم وتلا هذه الآية: {يَطُوفُونَ بَيْنَهَا

=

=
وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [الرحمن: ٤٤]".
قال مقاتل:"لا يستريحون ساعة من غم يطاف عليهم في ألوان عذابهم، فذلك قوله: {ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُم} [الصافات: ٦٨] من الزقوم والحميم يعني الشراب، {لَإِلَى الْجَحِيم} [الصافات: ٦٨]، فيذهب به مرة إلى الزقوم، ثم إلى الجحيم، ثم إلى منازلهم في جهنم".
قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)} [الرحمن: ٤٥]
قال الطبري:"يقول: فبأيّ نعم ربكما معشر الجنّ والإنس التي أنعمها عليكم - بعقوبته أهل الكفر به، وتكريمه أهل الإيمان به- تكذّبان".
قال النحاس:"أي: فبأيّ نعم ربكما التي أنعم بها عليكم فلم يعاقب منكم إلّا المجرمين، وجعل لهم سيمياء يعرفون بها حتّى لا يختلط بهم غيرهم".
قال الزمخشري:"ونعمة الله فيما ذكره من هول العذاب: نجاة الناجي منه برحمته وفضله، وما في الإنذار به من اللطف".
قال العثيمين: قوله تعالى: {فإذا انشقت السماء} يعني تفتحت وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: {إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت... أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه} {فكانت وردةً} أي: مثل الوردة في الحمرة {كالدهان}ـ كالجلد المدهون، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} {فيومئذ} أي: إذا انشقت {لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جآن}.
قال الشنقيطي: (وهنا إشكال معروف).
في الآية نفي السؤال يوم القيامة، ومثلها قوله تعالى: {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون (٧٨)} [القصص:٧٨].
وفي قوله تعالى: {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين (٦)}
=

=

[الأعراف:٦] ما يوهم التعارض، بين الآيتين.

والجمع بينها من عدة أوجه منها:

الوجه الأول: أن يحمل السؤال المنفي على مقام، ويحمل السؤال المثبت على مقام آخر، رواه عكرمة عن ابن عباس، وهو قول عكرمة، وقتادة.

الوجه الثاني: أن يحمل السؤال المثبت على السؤال عن شهادة أن لا إله إلا الله؛ لما روى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين} [الحجر:٩٢] قال: " عن لا إله إلا الله "، والسؤال المنفي عما عدا ذلك مما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل له قوله تعالى: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥)} [القصص:٦٥].

الوجه الثالث: أن السؤال المنفي سؤال بعضهم بعضا؛ لاشتغال كل واحد منهم بنفسه، روي هذا عن ابن عباس، والسؤال المثبت هو سؤال الله تعالى للجميع، ويدل له قوله جل وعلا: {ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين (٦٥) فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦)} [القصص:٦٥- ٦٦].

الوجه الرابع: أن السؤال المنفي هو سؤال الكافر؛ لأنه قد عرف بعلامته وسيماه، ويدل له قوله تعالى في الآية التي بعدها: {يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام (٤١)} [الرحمن:٤١]، روي هذا عن ومجاهد، وروي عن قتادة أن نفي السؤال عن الذنوب لأن الله قد حفظها عليهم.

الوجه الخامس: أن السؤال المنفي بعد استقرارهم في النار، والسؤال المثبت قبل ذلك.

الوجه السادس: أن السؤال المنفي سؤال الاستخبار والاستعلام، والسؤال المثبت سؤال التوبيخ والتقريع، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لهم: لم عملتم كذا وكذا؟).

=

=

قال القرطبي: (واعتمد قطرب هذا القول). وبه قال النحاس، والجصاص، والواحدي.

قال ابن عطية: (وهو الأظهر).

قال الشنقيطي عن هذا الوجه الأخير: (وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه..) إلى أن قال: (وجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله المنصوص: في كله توبيخ وتقريع؛ كقوله تعالى: {وقفوهم إنهم مسئولون (٢٤) ما لكم لا تناصرون} [الصافات:٢٤- ٢٥]، وقوله: {أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون} [الطور:١٥]، وكقوله: {ألم يأتكم رسل منكم} [الأنعام:١٣٠]، وكقوله: {ألم يأتكم نذير} [الملك:٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وسؤال الله للرسل ماذا أجبتم لتوبيخ الذين كذبوهم كسؤال الموؤودة: {بأي ذنب قتلت} [التكوير:٩] لتوبيخ قاتلها).

ومما يؤيد هذا: أن السؤال المنفي في الآيات المذكورة أخص من السؤال المثبت فيها؛ لأن السؤال المنفي مقيد بكونه سؤالا عن الذنوب؛ كقوله تعالى: {ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون} [القصص:٧٨] فخصه بكونه عن الذنوب، وكذلك في قوله سبحانه: {لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان (٣٩)} [الرحمن:٣٩]، والمراد به: الاستعلام والاستخبار، وهذا لا ينافي ثبوت نوع آخر من السؤال، كسؤال التوبيخ والتقريع؛ لأنه نوع من العذاب، وكذلك سؤال التقرير؛ لأن آية إثبات السؤال جاءت عامة حيث قال تعالى: {فوربك لنسألنهم أجمعين (٩٢)} [الحجر:٩٢]، وهذا صريح في إثبات سؤال الجميع يوم القيامة، وهذا هو أولى الأوجه بالجواب.

قال القرطبي: (والقول بالعموم أولى)، أي: عموم السؤال للجميع. وبهذا يزول ما يوهم التعارض بين الآيات. والله تعالى أعلم.

{فبأي ءالآء ربكما تكذبان يعرف المجرمون بسيماهم} أي: بعلامتهم يعرفون،

=

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦).

{وَلِمَنْ خَافَ} أَيْ لِكُلٍّ مِنْهُمْ أَوْ لِمَجْمُوعِهِمْ {مَقَام رَبّه} قِيَامه بَيْن يَدَيْهِ لِلْحِسَابِ فَتَرَكَ معصيته {جنتان}.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨).

{ذَوَاتَا} تَثْنِيَة ذَوَات عَلَى الْأَصْل وَلَامهَا يَاء {أفنان} أغصان جمع فنن

=

ومن علاماتهم- والعياذ بالله- أنهم سود الوجوه، قال الله تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه} وأنهم يحشرون يوم القيامة زرقًا إما أنهم زرق أحيانًا وسود أحيانًا، وإما أنهم سود الوجوه زرق العيون، وإما أنهم زرق زرقة يعني بالغة يحسبها الإنسان سوداء {يعرف المجرمون بسيمهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام} النواصي مقدم الرأس، والأقدام معروفة، فتؤخذ رجله إلى ناصيته، هكذا يطوى طيًّا إهانة له وخزيًا له، فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويلقون في النار {فبأي ءالآء ربكما تكذبان هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون} يعني يقال هذه

جهنم التي تكذبون بها، وقال {المجرمون} ولم يقل: تكذبون بها، إشارة إلى أنهم مجرمون، وما أعظم جرم الكفار الذين كفروا بالله ورسوله، واستهزؤا بآيات الله واتخذوها هزوًا ولعبًا، {يطوفون بينها} أي: يترددون بينها {وبين حميم ءان} أي: شديد الحرارة- والعياذ بالله -. أما كيف يكون ذلك فالله أعلم، لكننا نؤمن بأنهم يطوفون بينها وبين الحميم الحار الشديد الحرارة، والله أعلم بذلك، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان}.

كطلل.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠).

{فيهما عينان تجريان}.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢).

{فِيهِمَا مِنْ كُلّ فَاكِهَة} فِي الدُّنْيَا أَوْ كُلّ مَا يُتَفَكَّه بِهِ {زَوْجَانِ} نَوْعَانِ رَطْب وَيَابِس وَالْمُرّ مِنْهُمَا فِي الدُّنْيَا كَالْحَنْظَلِ حُلْو.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان.

مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤).

{مُتَّكِئِينَ} حَال عَامِله مَحْذُوف أَيْ يَتَنَعَّمُونَ {عَلَى فُرُش بَطَائِنهَا مِنْ إِسْتَبْرَق} مَا غَلُظَ مِنْ الدِّيبَاج وَخَشُنَ وَالظَّهَائِر مِنْ السُّنْدُس {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ} ثَمَرهمَا {دَانٍ} قَرِيب يَنَالهُ الْقَائِم وَالْقَاعِد وَالْمُضْطَجِع.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦).

{فِيهِنَّ} فِي الْجَنَّتَيْنِ وَمَا اشْتَمَلَتَا عَلَيْهِ مِنْ الْعَلَالِيّ وَالْقُصُور {قَاصِرَات الطَّرْف} الْعَيْن عَلَى أَزْوَاجهنَّ الْمُتَّكِئِينَ مِنْ الْإِنْس وَالْجِنّ {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ}

يَفْتَضّهُنَّ وَهُنَّ مِنْ الْحُور أَوْ مِنْ نِسَاء الدُّنْيَا المنشآت {إنس قبلهم ولا جان}.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨).

{كأنهن الياقوت} صفاء {والمرجان} اللؤلؤ بياضا.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠).

{هَلْ} مَا {جَزَاء الْإِحْسَان} بِالطَّاعَةِ {إلَّا الْإِحْسَان} بالنعيم.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عطاء الخراساني: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذكر ذات يوم وفكر في يوم القيامة والموازين والجنة حيث أزلفت وفي النار حين أبرزت، وصفوف الملائكة وطي السماوات والأرض، ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب، فقال: وددت أني كنت خضرًا من هذه الخضراء تأتي عليّ بهمة فتأكلني وأني لم أخلق؛ فنزلت هذه الآية: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)}.

أخرجه أبو الشيخ في "العظمة" (١/ ٣٠٧، ٣٠٨ رقم ٥١) من طريق كنانة بن جبلة عن عثمان بن عطاء عن أبيه به.

وهذا سند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الإعضال؛ فعطاء لم يدرك أحدًا من الصحابة.

=

=

الثانية: عطاء الخراساني؛ صدوق كثير الخطأ يرسل ويدلس.

الثالثة: ابنه عثمان؛ ضعيف الحديث.

الرابعة: كنانة ذا؛ اتهمه ابن معين ووافقه عثمان الدارمي على ذلك، وقال أبو حاتم: "محله الصدق يكتب حديثه، حسن الحديث".

وعن ابن شوذب؛ قال: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٧/ ٧٠٦)، و"لباب النقول" (ص ٢٠٣) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا ضعيف -أيضًا-؛ لإعضاله.

وعن عطية بن قيس في قوله -تعالى-: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)}؛ نزلت في الذي قال: احرقوني بالنار لعلّي أضل الله، قال: تاب يومًا وليلة بعد أن تكلم بهذا؛ فقبل الله منه وأدخله الجنة.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٢٩٦): ثنا أبي ثنا محمد بن مصفى ثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن عطية به.

وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: بقية؛ مدلس ولم يصرح بالتحديث.

الثانية: أبو بكر بن أبي مريم؛ متروك؛ كما قال الدارقطني وابن حبان.

الثالثة: الإرسال.

قال الحافظ ابن كثير: "والصحيح أن هذه الآية عامة؛ كما قاله ابن عباس وغيره".

* قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)} [الرحمن: ٤٦]

قال ابن كثير:"الصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله، عز وجل، يوم القيامة، {وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} [النازعات: ٤٠]، ولم يطغ، ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فأدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان.. وهذه الآية عامة في

=

=

الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولمن اتقى الله من عباده -فخاف مقامه بين يديه، فأطاعه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه- جنتان، يعني: بستانين".

قال الزمخشري:"{مَقامَ رَبِّهِ}: موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم القيامة: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ}، ونحوه: {لِمَنْ خافَ مَقامِي}، ويجوز أن يراد بمقام ربه: أن الله قائم عليه، أي: حافظ مهيمن من قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ}، فهو يراقب ذلك فلا يجسر على معصيته. وقيل: هو مقحم كما تقول: أخاف جانب فلان، وفعلت هذا لمكانك. وأنشد:

ذَعَرْتُ به القَطَا وَنَفَيتُ عنه... مقام الذئبِ كالرجُلِ اللعينِ

يريد: ونفيت عنه الذئب".

عن ابن عباس، قوله: " {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، يقول: خاف ثم اتقى، والخائف: من ركب طاعة الله، وترك معصيته".

قال ابن عباس:"وعد الله جلّ ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه، فأدَّوا فرائضه الجنة".

عن مجاهد، في قوله: " {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، هو الرجل يهم بالذنب، فيذكر مقام ربه فينزع".

قال مجاهد:"الرجل يهمّ بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركه، فله جنتان".

قال مجاهد:"الرجل يهمّ بالمعصية، فيذكر الله ﷻ فيدعها".

قال مجاهد:"هو الرجل يهمّ بمعصية الله تعالى، ثم يتركها مخافة الله".

قال مجاهد:"يذنب الذنب فيذكر مقام ربه فيدعه".

قال إبراهيم:"إذا أراد أن يذنب أمسك مخافة الله".

=

=

قال قتادة:"إن لله مقاما قد خافه المؤمنون".

قال قتادة:"إن المؤمنين خافوا ذاكم المقام فعملوا له، ودانوا له، وتعبَّدوا بالليل والنهار".

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: "جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ﷻ إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن".

عن أبي الدرداء، قال، قال رسول الله ﷺ: " {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإنْ زَنى وسَرقَ وإنْ رَغِمَ أنْف أبي الدَّرْداء»".

عن عطاء بن يسار، قال: أخبرني أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ، قرأ يوما هذه الآية: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ قال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، قال فقلت: يا رسول الله وإن زنى وإن سرق؟ قال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وَإِنْ زَنى وإِنْ سَرَقَ رَغْمَ أَنْفِ أبي الدَّرْدَاءِ»".

عن أبي موسى، عن أبيه، -قال حماد لا أعلمه إلا رفعه- في قوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، قال: "جنتان من ذهب للمقرّبين أو قال: للسابقين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين".

عن سيار، قال: "قيل لأبي الدرداء في هذه الآية: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، فقيل: وإن زنى وإن سرق، فقال: وإن زنى وإن سرق. وقال: إنه إن خاف مقام ربه لم يزن ولم يسرق".

عن ابن مسعود في قوله: " {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، قال: وإن زنى وإن سرق".

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد، في قوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، قال:

=

=

مقامه حين يقوم العباد يوم القيامة، وقرأ: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، وقال: ذاك مقام ربك".

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد، في قوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، قال: جنتا السابقين، فقرأ: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}، فقرأ حتى بلغ: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}، ثم رجع إلى أصحاب اليمين، فقال: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}، فذكر فضلهما وما فيهما".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم قال جَنَّتَانِ؟

قلت: الخطاب للثقلين، فكأنه قيل: لكل خائفين منكما جنتان: جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني. ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي، لأنّ التكليف دائر عليهما وأن يقال: جنة يثاب بها، وأخرى تضم إليها على وجه التفضل، كقوله تعالى لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَة".

قوله تعالى:

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)} [الرحمن: ٤٧]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما أيها الثقلان -التي أنعم عليكم بإثابته المحسن منكم ما وصف جلّ ثناؤه في هذه الآيات- تكذّبان".

قوله تعالى:

{ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨)} [الرحمن: ٤٨]

قال الطبري:"يقول: ذواتا ألوان، واحدها فن، وهو من قولهم: افتن فلان في حديثه: إذا أخذ في فنون منه وضروب".

قال ابن كثير:"أي: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة".

=

=

وتعددت عبارات أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} [الرحمن: ٤٨]، على وجوه:

أحدها: ذواتا ألوان، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو سنان.

عن ابن عباس في قوله: " {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}، قال: ذواتا ألوان".

الثاني: ذواتا ألوان من الفاكهة، قاله الضحاك.

الثالث: ذواتا أغصان، قاله مجاهد-أيضا- ومقاتل وأبو عبيدة والأخفش وابن بحر.

قال مقاتل:"يعني: ذواتا أغصان يتماس أطراف شجرها بعضه بعضا كالمعروشات".

وحكى البغوي، عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: " الغصن المستقيم طولا".

الرابع: ذواتا أطراف أغصان الشجر. قاله ابن عباس-أيضا-.

قال ابن عباس:"يقول: فيما بين أطراف شجرها، يعني: يمسّ بعضها بعضا كالمعروشات، ويقال: ذواتا فضول عن كل شيء".

الخامس: عنى بذلك فضلهما وسعتهما على ما سواهما. قاله قتادة.

قال قتادة:"يعني: فضلهما وسعتهما على ما سواهما".

قال قتادة:"ذواتا فضل على ما سواهما".

السادس: إن الأفنان أغصان الشجَر يمس بعضُها بعضا، قاله عطاء الخراساني.

السابع: يعني: ظِل الأغصان على الحيطان. قاله عكرمة وأنشد قول الشاعر:

ما هاجَ شَوْقَكَ مِنْ هَدِيل حَمامَة... تَدْعُو على فَنن الغُصُونِ حَماما
تَدْعُوا أبا فَرْخَين صَادَفَ ضاريا... ذا مِخْلَبين مِنَ الصُّقُّورِ قَطاما".

وحكي البغوي عن الحسن، قال:"ذواتا ظلال".

=

=

الثامن: واسعتا الفناء. قاله الربيع بن انس.

قال ابن كثير-بعد أن ذكر طرفا من الأقوال السابقة:"وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم".

قال الزمخشري:"خص الأفنان بالذكر: وهي الغصنة التي تتشعب من فروع الشجرة، لأنها هي التي تورق وتثمر، فمنها تمتد الظلال، ومنها تجتنى الثمار. وقيل: الأفنان ألوان النعم ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين".

عن أسماء، قالت: سمعت رسول الله ﷺ- وذكر سدرة المنتهى- فقال: "يسير في ظل الفَنَن منها الراكب مائة سنة- أو قال: يستظل في ظل الفَنَن منها مائة راكب- فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القِلال".

قوله تعالى {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩)} [الرحمن: ٤٩]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم عليكما بإثابته هذا الثواب أهل طاعته- تكذّبان".

قوله تعالى {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠)} [الرحمن: ٥٠]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره في هاتين الجنتين عينا ماء تجريان خلالهما".

قال ابن كثير:"أي: تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان".

قال الشوكاني:"هذا أيضا صفة أخرى لـ «جنتان»، أي: في كل واحدة منهما عين جارية".

قال الرازي:"أي: في كل واحدة عين واحدة".

قال مقاتل:"في عين أخدود من ماء غير آسن".

قال الزمخشري:"{عَيْنانِ تَجْرِيانِ} حيث شاءوا في الأعالي والأسافل. وقيل: تجريان من جبل من مسك".

=

=

وعن الحسن: "تجريان بالماء الزلال: إحداهما التسنيم، والأخرى: السلسبيل".
وقال عطية: "إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين".
عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله- ﷺ -: «إنّ الله اختار مِن الملائكة أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل». وذكر الحديث حتى قال: «واختار من العيون أربعة، يقول في محكم كتابه: {فيهما عينان تجريان}، وقال: {فيهما عينان نضاختان} [الرحمن: ٦٦]، فأما التي تجريان: فعين بَيْسان، وعين سُلْوان، وأما النَّضّاختان: فعين زمزم، وعين عَكا... »".
قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١)} [الرحمن: ٥١]
قال الشوكاني:"فإن من جملتها هذه النعمة الكائنة في الجنة لأهل السعادة".
قوله تعالى: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)} [الرحمن: ٥٢]
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فيهما من كلّ نوع من الفاكهة ضربان".
قال ابن كثير:"أي: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".
قال الشوكاني:"هذا صفة ثالثة لجنتان، والزوجان: الصنفان والنوعان، والمعنى: أن في الجنتين من كل نوع يتفكه به ضربين يستلذ بكل نوع من أنواعه، قيل: أحد الصنفين رطب والآخر يابس، لا يقصر أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب".
قال الرازي:"معناه: كل واحدة منهما زوج، أو معناه في كل واحدة منهما من الفواكه زوجان، ويحتمل أن يكون المراد مثل ذلك أي في كل واحدة من الجنتين زوج من كل فاكهة ففيهما جميعا زوجان من كل فاكهة".
عن ابن عباس: "ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة".
وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء". قال ابن كثير:"يعني: أن بين ذلك بَونًا عظيما، وفرقًا بينا في التفاضل".

=

=

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣)} [الرحمن: ٥٣]

قال الطبري: يقول:"فبأي آلاء ربكما -التي أنعم بها على أهل طاعته من ذلك- تكذّبان".

قال الشوكاني:"فإن في مجرد تعداد هذه النعم ووصفها في هذا الكتاب العزيز من الترغيب إلى فعل الخير والترهيب عن فعل الشر ما لا يخفى على من يفهم، وذلك نعمة عظمى ومنة كبرى، فكيف بالتنعم به عند الوصول إليه".

قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤]، أي:"وللذين خافوا مقام ربهم جنتان يتنعمون فيهما، متكئين على فرش مبطَّنة من غليظ الديباج".

قال ابن كثير:"{مُتَّكِئِينَ} يعني: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التّربّع. {عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} وهو: ما غلظ من الديباج.. فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى".

قال الطبري:"بطائن هذه الفرش من غليظ الديباج، والإستبرق عند العرب: ما غلظ من الديباج وخشن".

قال الزمخشري:"{مُتَّكِئِينَ} نصب على المدح الخائفين. أو حال منهم، لأنّ من خاف في معنى الجمع".

عن يحيى بن أبي إسحاق، قال:"قال لي سالم بن عبد الله: ما الإستبرق؟ قال، قلت: ما غلظ من الديباج وخشن منه".

عن عكرِمة، في قوله: " {إسْتَبْرَق}، قال: الديباج الغليظ".

وقال أبو عِمْران الجَوْني: هو الديباج المغَرّي بالذهب".

قال الفراء:"الإستبرق: ما غلظ من الديباج".

=

=

قال أبو عبيدة:"يسمّى المتاع الصيني الذي ليس له صفاقة: الديباج ولا خفّة الفرند إستبرقا".

قال الزجاج:"قيل الإستبرق: الديباج الصفيق جدًّا نحو ما يعمل للكعبة، والبطائن: ما يلي الأرض".

وفي قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} [الرحمن: ٥٤]، وجهان:

أحدهما: أن بطائنها يريد به: ظواهرها، قاله قتادة والحسن ومقاتل.

قال مقاتل:"يعني: ظاهرها من الديباج الأخضر فوق الفرش الديباج وهي بلغة فارس، نظيرها في آخر السورة: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ} [الرحمن: ٧٦]، يعني: المحابس الخضر على الفرش".

قال الفراء:"وَقَدْ تكون البطانة: ظهارة، والظهارة بطانة فِي كلام العرب، وذلك أن كل واحد منهما قَدْ يكون وجهًا، وَقَدْ تَقُولُ العرب: هَذَا ظهر السماء، وهذا بطن السماء لظاهرها الَّذِي تراه. قَالَ: وأخبرني بعض فصحاء المحدثين عَنِ ابْنِ الزُّبَيْر يعيب قتلة عثمان رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ: «خرجوا عَلَيْهِ كاللصوص من وراء القرية، فقتلهم الله كلّ قتلة، ونجا من نجا منهم تحت بطون الكواكب». يريد: هربوا ليلًا، فجعل ظهور الكواكب بطونًا، وذلك جائز عَلَى ما أخبرتك بِهِ".

قال ابن قتيبة-بعد أن نقل كلام الفراء-:"وهذا أيضا من عَجَب التفسير. كيف تكون البِطانةُ ظِهارةً، والظِّهارةُ بِطانةً- والبِطانةُ: ما بَطَن من الثوب وكان من شأن الناس إخفاؤه؛ والظِّهارةُ: ما ظَهَر منه وكان من شأن الناس إبداؤه؟!. وهل يجوز لأحد أن يقول لوجهِ مصلًّى: هذا بِطانته؛ ولما وَلِيَ الأرضَ منه: هذا ظِهارتُه؟!. وإنَّما أراد الله جل وعز أن يعرفنا -من حيثُ نفهم- فضلَ هذه الفُرش وأن ما وليَ الأرضَ منها إستَبْرَقٌ، وهو: الغليظ من الدِّيباج. وإذا كانت البِطانة كذلك:

=

=

فالظِّهارةُ أعلى وأشرفُ. وكذلك قال النبي ﷺ: " لَمَنَادِيلُ سعدِ بن مُعاذٍ -في الجنة- أحسنُ من هذه الحُلَّة». فذكر المناديلَ دون غيرها: لأنها أخشنُ من الثياب. وكذلك البطائنُ: أخشنُ من الظواهر. وأما قولهم: ظهر السماء وبطن السماء؛ -لما ولِينَا-:فإن هذا قد يجوز في ذي الوَجْهين المتساويَيْن إذا ولِيَ كلُّ واحد منهما قومًا. تقول في حائط بينك وبين قوم -لِمَا ولِيَكَ منه-: هذا ظهرُ الحائط؛ ويقول الآخَرون لما ولِيَهم: هذا ظهر الحائط. فكلُّ واحد -من الوجهين-: ظهرٌ وبطنٌ. ومثلُ هذا كثيرٌ. كذلك السماء: ما وَلِينا منها ظهرٌ؛ وهو لمن فوقها -من الملائكة- بطن".

الثاني: أنه أراد البطانة دون الظهارة، لأن البطانة إذا كانت من إستبرق وهي أدون من الظاهرة دل على أن الظهارة فوق الإستبرق، قاله الكلبي.

قال ابن مسعود:"قد أخبرتم بالبطائن، فكيف لو أخبرتم بالظواهر؟".

قال هبيرة: "هذه البطائن فما ظنكم بالظواهر؟".

قال ابن عباس:"إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله".

عن جعفر، عن سعيد، قال: "قيل له: هذه البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}".

سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله: " {بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ} قال: ظواهرها من نور جامد.

قال مالك بن دينار: "بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور".

قال سفيان الثوري- أو شريك -: "بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد".

قال القاسم بن محمد: "بطائنها من إستبرق، وظواهرها من الرحمة".

قال ابن شَوْذَب، عن أبي عبد الله الشامي: "ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر،

=

=

وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله".

وفي قراءة عبد الله: «متكئين على سرر وفرش بطائنها من رفرف من استبرق».

قوله تعالى: {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤]، أي:"وثمر الجنتين قريب إليهم".

قال الطبري:"يقول: وثمر الجنتين الذي يجتني قريب منهم، لأنهم لا يتعبون بصعود نخلها وشجرها، لاجتناء ثمرها، ولكنهم يجتنونها من قعود بغير عناء".

قال ابن كثير:"أي: ثمرها قريب إليهم، متى شاءوا تناولوه على أي صفة كانوا، كما قال: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} [الحاقة: ٢٣]، وقال: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا} [الإنسان: ١٤] أي: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها".

قال أبو عبيدة:"ما يجتنى قريبا لا يعنّى الجاني".

قال ابن عباس:"يقول: ثمارها دانية".

قال السمعاني:"أي: ثمار الجنتين دانية، ومنه قول العرب: هذا جناي خيار فيه، إذ كل جان يده إلى فيه، وهو يحكي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين دخل بيت المال بالكوفة، ورأى ما فيه من الذهب والفضة فقال: «يا صفراء، ويا بيضاء غرا غيري»، ثم قال: «هذا جناي... إلى آخره".

قال القرطبي:"«الجنى» ما يجتنى من الشجر، يقال: أتانا بجناة طيبة لكل ما يجتنى".

وفي قوله تعالى: {وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} [الرحمن: ٥٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: داني لا يبعد على قائم ولا على قاعد، قاله ابن عباس ومجاهد، والضحاك.

قال ابن عباس:"جناها ثمرها والداني القريب منك يناله القائم والقاعد".

=

=

عن مجاهد: "{وجَنى الجَنَّتَيْنِ دانٍ} ما يُجتنى من قريب".

قال الضحاك: "دانٍ ثمارها".

الثاني: أنه لا يرد أيديهم عنها بُعد ولا شوك، قاله قتادة.

الثالث: أي: ما يجنى من ثمرهما إذا أرادوه دنا من أفواههم حتى يتناوَلوه بأفواههم وأيديهم. قاله الزجاج.

عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله- ﷺ- قال: «... وفيها ثمار متدلّية، إذا اشتَهَوها انشَعب الغُصن إليهم، فيأكلون مِن أيّ الثمار اشتَهوا؛ إن شاء قائمًا، وإن شاء مُتكئًا، وذلك قول الله- ﷻ -: {وجَنى الجَنَّتَيْنِ دانٍ} ...".

وقرئ: «وجِنى»، بكسر الجيم.

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥)} [الرحمن: ٥٥]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فبأيّ آلاء ربكما معشر الثقلين التي أنعم عليكما -من أثاب أهل طاعته منكم هذا الثواب، وأكرمهم هذه الكرامة- تكذّبان".

قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ} [الرحمن: ٥٦]، أي: "في هذه الفرش زوجات قاصرات أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم متعلقات بهم".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره في هذه الفرش التي بطائنها من إستبرق {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، وهنّ النساء اللاتي قد قُصِرَ طرفهنّ على أزواجهنّ، فلا ينظرن إلى غيرهم من الرجال".

قال مقاتل: "يقول حافظات النظر عن الرجال، لا ينظرن إلى أحد غير أزواجهن ولا يشتهين غيرهم".

قال سهل بن عبد الله: "أي: غاضات الأبصار عن غير أزواجهن فمن قصر طرفه في الدنيا عن الحرام والشبهات، وعن اللذات وزينتها، أعطاه الله في الجنة قاصرات الطرف، كما وعد".

=

=

قال ابن كثير:"ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: {فِيهِنَّ}، أي: في الفرش {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، أي: غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئا أحسن في الجنة من أزواجهن".

قال مجاهد:"قَصُر طرفهنّ عن الرجال، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ".

قال قتادة:"يقول: قُصِر طرفهنّ على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم".

قال ابن زيد:"لا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ، تقول: وعزّة ربي وجلاله وجماله، إن أرى في الجنة شيئا أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي، وجعلني زوجَك".

قوله تعالى: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]، أي:"لم يطأهن إنس قبلهم ولا جان".

قال الطبري:"يقول: لم يمسهنّ إنس قبل هؤلاء الذين وصف جلّ ثناؤه صفتهم، وهم الذين قال فيهم {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}، ولا جانّ".

قال مقاتل:"لأنهن خلقن في الجنة مع شجر الجنة، يعني لم يطمثهن إنس قبل أهل الجنة، ولا جان، يعني: جن".

قال ابن كثير:"أي: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن. وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة".

عن عليّ: " {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}، قال: منذ خلقهنّ".

عن عامر الشعبي -من طريق رجل- {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ}، قال: منذ أُنشِئن".

قال محم بن السائب الكلبي:"قال محمد بن السّائِب الكلبي: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ} هنّ مِن نساء الدنيا، لم يُمْسَسْنَ منذ أُنشِئن خلقًا".

وفي قوله تعالى: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]، وجوه من

=

=

التفسير:

أحدها: لَم يَمَسَّهنّ شيء إنسٌ ولا غيره. قاله مجاهد- ابن زيد- وأبو عبيدة- والزجاج.

قال أبو عمرو: "الطمث: المس، وذلك في كل شيء يمس".

قال أبو عبيدة:"لم يمسسهن، يقال: ما طمث هذا البعير حبل قط، أي: ما مسّه حبل".

الثاني: لم يذللهن إنس قبلهم ولا جان، والطمث: التذليل، قاله المبرد.

الثالث: لم يُدْمِهُنَّ إنس ولا جان، قاله الفراء- ورواه أبو صالح عن مقاتل- ومنه قول الشاعر:

وقَعْنَ إليَّ لَمْ يُطْمَثْنَ قَبْلِي... وهُنَّ أصحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ

قال ابن قتيبة:"قال ابن قتيبة:"«الطَّمْث»: النكاح بالتَّدْمِيَة. ومنه قيل للحائض: طامثٌ"... "قال في الحور العين: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ} [الرحمن: ٧٤]، فدل على أن الجن تطمث الإنس".

قال الزجاج:"وفي هذه الآية دليل على أن الجني يغشى، كما أن الإِنسي يغشى".

قال الماوردي:"وفي الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس".

الرابع: لم يجامعهنّ إنس قبلهم ولا جانّ. قاله ابن عباس- وعكرمة- وعطاء الخراساني.

قال عطاء:"لم يضاجعهم إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ".

عن عكرمة، من طريق مُغيرة- قال: " {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ} لم يُجامعهنّ".

قال عكرمة:"لا تقل للمرأة: طامث، فإن الطَّمْث هو الجماع، إن الله يقول: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}".

عن عاصم، قال: "قلت لأبي العالية امرأة طامث، قال: ما طامث؟ فقال رجل:

=

=

حائض، فقال أبو العالية: حائض، أليس يقول الله ﷻ: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}".

قال الطبري: "فإن قال قائل: وهل يجامع النساء الجنّ، فيقال: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}؟

فإن مجاهدا روي عنه..ـ قال: «إذا جامع الرجل ولم يسمّ، انطوى الجانّ على إحليله فجامع معه، فذلك قوله: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}». وكان بعض أهل العلم ينتزع بهذه الآية في أن الجنّ يدخلون الجنة".

عن أرطاة بن المنذر، قال: "سألت ضَمْرة بن حبيب: هل للجنّ من ثواب؟ قال: نعم، ثم نزع بهذه الآية: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجنّ".

ويقرأ: «لَمْ يَطْمُثْهُنَّ».

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧)} [الرحمن: ٥٧]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فبأيّ آلاء ربكما معشر الجنّ والإنس -من هذه النعم التي أنعمها على أهل طاعته تكذّبان".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨)} [الرحمن: ٥٨]

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: كأن هؤلاء القاصرات الطرف، اللواتي هنّ في هاتين الجنتين في صفائهنّ الياقوت، الذي يرى السلك الذي فيه من ورائه، فكذلك يرى مخّ سوقهنّ من وراء أجسامهنّ، وفي حسنهنّ الياقوت والمرجان".

قال الزجاج: "قال أهل التفسير وأهل اللغة: هن في صفاء الياقوت وبياض المرجان، والمرجان صغار اللؤلؤ وهو أشد بياضًا".

قال ابن زيد: "كأنهن الياقوت في الصفاء، والمرجان في البياض، الصفاء: صفاء الياقوتة، والبياض: بياض اللؤلؤ".

=

=

قال الضحاك:"كالياقوت واللؤلؤ في صفائه".

عن الحسن، في قوله: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}، في بياض المرجان".

قال السدي:"صفاء الياقوت وحسن المرجان".

قال سفيان:"في صفاء الياقوت وبياض المرجان".

قال قتادة: "شبه بهنّ صفاء الياقوت في بياض المرجان".

عن قتادة: " {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}، صفاء الياقوت في بياض المرجان. ذُكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال:"مَنْ دَخَلَ الجَنَّةَ فَلَهُ فِيها زَوْجتَان يُرى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وَرَاءِ ثِيابِهِما".

عن عبد الله بن الحارث الهاشميّ:"{كَأَنَّهُنَّ الياقُوتُ والمَرْجانُ} كأنهن اللؤلؤ في الخيط".

قال مجاهد:"يُرى مخّ سُوقهنّ مِن وراء الثياب؛ كما يُرى الخيط في الياقوتة".

عن إسحاق بن عبد الله، قال: بلَغني: "أنه يقول -يعني: الولي- في الجنة: أشتهي العين. فيُقال له: أفإنهنّ حور عين. فيقول: أشتهي البياض. فيقال: إنهنّ كأنهنّ بيضٌ مكنون. فيقول: أخشى أن يكون في وجهها كَلف. فيقال له: {كَأَنَّهُنَّ الياقُوتُ والمَرْجانُ}. فيقول: أخشى أن تكون خفيفة. فيقال له: {حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الخِيامِ}. فيقول: إني غيور. فيقال: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ}. قال: قال ابن عباس: تسنيم، وماء التسنيم يشربها المُقرّبون صرفًا، وتُمزج لأصحاب اليمين".

عن عمرو بن ميمون، قال:"إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة، فيرى مخّ ساقها كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء".

عن كعب الأحبار، قال: "إنّ المرأة مِن الحور العين لَتلبس سبعين حُلّة، لَهي أرقُّ مِن شَفِّكُم هذا الذي تُسمّونه شَفًّا، وإنّ مُخ ساقها ليُرى من وراء اللحم".

=

=

قال ابن مسعود: "إن المرأة من أهل الجنة لتلبس سبعين حلة من حرير، يرى بياض ساقها وحسن ساقها من ورائهنّ، ذلكم بأن الله يقول: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}، ألا وإنما الياقوت حجر فلو جعلت فيه سلكا ثم استصفيته، لنظرت إلى السلك من وراء الحجر".

عن محمد بن سيرين، قال: إما تفاخروا وإما تذكروا، الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: "إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أَضْوَأ كوكب دُرّي في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يُرَى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب".

عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: "لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وَلَقَابُ قوس أحدكم- أو موضع قيده- يعني: سوطه- من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا، ولطاب ما بينهما، ولنَصِيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩)} [الرحمن: ٥٩]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نعم ربكما التي أنعم عليكم معشر الثقلين - من إثابته أهل طاعته منكم بما وصف في هذه الآيات- تكذّبان".

قوله تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠]، أي:"هل جزاء مَن أحسن بعمله في الدنيا إلا الإحسان إليه بالجنة في الآخرة؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هل ثواب خوف مقام الله ﷻ لمن خافه، فأحسن فى الدنيا عَمله، وأطاع ربه، إلا أن يحسن إليه في الآخرة ربُّهُ، بأن يجازيه على إحسانه ذلك في الدنيا، ما وصف في هذه الآيات من قوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} ... إلى قوله: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}".

=

=

وفي قوله تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن: ٦٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: هل جزاء الطاعة إلا الثواب. وهو معنى قول قتادة.

قال قتادة:"عملوا خيرا فجوزوا خيرا".

الثاني: هل جزاء الإحسان في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة، وهو معنى قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"ألا تراه ذكرهم ومنازلهم وأزواجهم، والأنهار التي أعدّها لهم، وقال: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ}: حين أحسنوا في هذه الدنيا أحسنا إليهم، أدخلناهم الجنة".

قال الزجاج:"أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يُحْسَنَ إليه في الآخرةِ".

قال ابن كثير:"أي: ما لمن أحسن في الدنيا العمل إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة. كما قال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]".

الثالث: هل جزاء من شهد أن لا إله إلا الله إلا الجنة في الآخرة، قاله ابن عباس.

وقال محمد بن المنكدر:"هل جزاء من أنعمت عليه بالإسلام إلا الجنة".

قال يحيى بن سلام:"يقول: هل جزاء أَهل الإيمان، أهل طاعة الله إِلاَّ الجنَّة".

الرابع: هل جزاء التوبة إلا المغفرة، قاله جعفر بن محمد الصادق.

الخامس: أنها مسجلة للبر والفاجر، للفاجر في دنياه وللبرّ في آخرته. قاله محمد ابن الحنفية والحسن.

السادس: هل جزاء إحسان الله عليكم إلا طاعتكم له. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٦١]، أي:"فبأي نِعَم ربكما -أيها الثقلان- تكذِّبان؟".

قال الطبري:"يقول: فبأيّ نعم ربكما معشر الثقلين التي أنعم عليكم -من إثابته

=

=

المحسن منكم بإحسانه- تكذّبان؟".

قال ابن كثير:"ولما كان في الذي ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان، قال بعد ذلك كله: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} ".

قال قتادة:"يقول للجنّ والإنس: بأيّ نِعم الله تكذّبان".

قال الحسن:"فبأيّ نعمة ربكما تكذّبان".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} يعني أن من خاف المقام بين يدي الله يوم القيامة، فإن له جنتين. وهذا الخوف يستلزم شيئين: الشيء الأول: الإيمان بلقاء الله ﷻ لأن الإنسان لا يخاف من شيء إلا وقد تيقنه.

والثاني: أن يتجنب محارم الله، وأن يقوم بما أوجبه الله خوفًا من عقاب الله تعالى، فعليه يلزم كل إنسان أن يؤمن بلقاء الله ﷻ، لقوله تعالى: {يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه} وقال تعالى: {واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين}ـ وأن يقوم بما أوجبه الله، وأن يجتنب محارم الله فمن خاف هذا المقام بين يدي الله ﷻ فله جنتان {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} سبق الكلام عليها {ذواتآ أفنان} أي صاحبتا أفنان، والأفنان جمع فنن وهو الغصن، أي أنهما مشتملتان على أشجار عظيمة ذواتي أغصان كثيرة وهذه الأغصان كلها تبهج الناظرين {فبأي ءالآء ربكما تكذبان}ـ ثم قال {فيهما عينان تجريان} أي: في الجنتين عينان تجريان، وقد ذكر الله تعالى أن في الجنة أنهارًا من أربعة أصناف، فقال- جل وعلا -: {مثل الجنة التى وعد المتقون فيهآ أنهار من ماء غير ءاسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} والعينان اللتان تجريان، يظهر- والله أعلم- أنهما سوى هذه الأنهار الأربعة {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} وقوله: {فيهما من كل فاكهة زوجان} أي: في هاتين الجنتين من كل فاكهة، والفاكهة كل ما يتفكه الإنسان به مذاقًا ونظرًا،

=

=

فيشمل أنواع الفاكهة الموجودة في الدنيا، وربما يكون هناك فواكه أخرى ليس لها نظير في الدنيا، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} {متكئين على فرش بطآئنها من إستبرق وجنى الجنتين دان} أي: يتنعمون بهذه الفاكهة حال كونهم متكئين، وعلى هذا فكلمة متكئين حال من فاعل والفعل المحذوف، أي: يتنعمون ويتفكهون، متكئين، والاتكاء قيل: إنه التربع، لأن الإنسان أريح ما يكون إذا كان متربعًا، وقيل {متكئين} أي: معتمدين على مساند من اليمين والشمال ووراء الظهر {على فرش} يعني جالسين {على فرش

بطآئنها من إستبرق} يعني بطانة الفراش وهو ما يدحى به الفراش من استبرق وهو غليظ الديباج، وأما أعلى هذه الفرش فهو من سندس، وهو رقيق الديباج، وكله من الحرير {وجنى الجنتين دان} تأمل أو تصور هذه الحال إنسان متكيء مطمئن مستريح يريد أن يتفكه من هذه الفواكه هل يقوم من مكانه الذي هو مستقر فيه متكيء فيه ليتناول الثمرة؟ بيّن الله بقوله تعالى ذلك {وجنى الجنتين دان} قال أهل العلم: إنه كلما نظر إلى ثمرة وهو يشتهيها، مال الغصن حتى كانت الثمرة بين يديه لا يحتاج إلى تعب وإلى قيام، بل هو متكيء، ينظر إلى الثمرة مشتهيًا إياها، فتتدلى له بأمر الله ﷻ مع أنها جماد، لكن الله تعالى أعطاها إحساسًا بأن تتدلى عليه إذا اشتهاها ولا تستغرب فهاهي الأشجار في الغالب تستقبل الشمس، انظر إلى وجوه الأوراق أول النهار تجدها متجهة إلى المشرق، وفي آخر النهار تجدها متجهة إلى المغرب ففيها إحساس، كذلك أيضًا جنى الجنتين دان قريب يحس، إذا نظر إليه الرجل أو المرأة فإنه يتدلى حتى يكون بين يديه، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان فيهن قاصرات الطرف} {فيهن} أكثر العلماء يقولون: إن الضمير يعود إلى الجنتين، وأن الجمع باعتبار أن لكل واحد من الناس جنة خاصة به، فيكون {فيهن} أي في جنة كل واحد ممن هو في هاتين الجنتين قاصرات الطرف، وعندي

=

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢).

{ومن دونهما} الْجَنَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ {جَنَّتَانِ} أَيْضًا لِمَنْ خَافَ مَقَام ربه.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

مُدْهَامَّتَانِ (٦٤).

{مدهامتان} سوداوان من شدة خضرتهما.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

=

أن قوله {فيهن} يشمل الجنات الأربع، هاتين الجنتين، والجنتين اللتين بعدهما، {قاصرات الطرف} يعني أنها تقصر طرفها أي نظرها على زوجها فلا تريد غيره، والوجه الآخر: قاصرات الطرف، أي: أنها تقصر طرف زوجها عليها فلا يريد غيرها، وعلى القول الأول يكون قاصرات مضافة إلى الفاعل، وعلى الثاني مضاف إلى المفعول {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جآن} أي: لم يجامعهن، وقيل: إن الطمث مجامعة البكر، والمعنى أنهن أبكار لم يجامعهن أحد من قبل لا إنس ولا جن، وفي هذا دليل واضح على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان} أي: في الحسن والصفاء كالياقوت والمرجان، وهما جوهران نفيسان، الياقوت في الصفاء، والمرجان في الحمرة، يعني أنهن مشربات بالحمرة مع صفاء تام {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} ـ ثم قال ﷻ: {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان} يعني ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، الإحسان الأول: العمل، والإحسان الثاني: الثواب، أي: ما جزاء إحسان العمل إلا إحسان الثواب، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان.

فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦).
{فيهما عينان نضاختان} فوارتان بالماء.
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧).
{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨).
{فِيهِمَا فَاكِهَة وَنَخْل وَرُمَّان} هُمَا مِنْهَا وَقِيلَ من غيرها.
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩).
{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠).
{فيهن} أي الجنتين وما فيهما {خيرات} أخلاقا {حسان} وجوها.
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١).
{فبأي آلاء ربكما تكذبان.
حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢).
{حُور} شَدِيدَات سَوَاد الْعُيُون وَبَيَاضهَا {مَقْصُورَات} مَسْتُورَات {في الخيام} مِنْ دُرّ مُجَوَّف مُضَافَة إلَى الْقُصُور شَبِيهَة بالخدور.
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣).
{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤).
{لم يطمثهن إنس قبلهم} قبل أزواجهن {ولا جان}.
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥).
{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦).

{مُتَّكِئِينَ} أَيْ أَزْوَاجهمْ وَإِعْرَابه كَمَا تَقَدَّمَ {عَلَى رَفْرَف خُضْر} جَمْع رَفْرَفَة أَيْ بُسُط أَوْ وَسَائِد {وَعَبْقَرِيّ حِسَان} جَمْع عَبْقَرِيَّة أَيْ طَنَافِس.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧).

{فبأي آلاء ربكما تكذبان}.

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨).

{تَبَارَكَ اسْم رَبّك ذِي الْجَلَال وَالْإِكْرَام} تَقَدَّمَ ولفظ اسم زائد(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]، أي:"ومن دون الجنتين السابقتين جنتان أخريان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن دون هاتين الجنتين -اللتين وصف الله جلّ ثناؤه صفتهما التي ذكر أنهما لمن خاف مقام ربه- جنتان".

واختلف أهل التفسير في معنى قوله: «وَمِنْ دُونِهِمَا» في هذا الموضع، على قولين:

أحدهما: ومن دونهما في الدَّرَج. وهو معنى قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير.

عن الحسن:"{ومِن دُونِهِما جَنَّتانِ} قال: هما دون {تَجْرِيانِ}".

الثاني: ومن دونهما في الفضل. قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"هما أدنى من هاتين لأصحاب اليمين".

قال ابن كثير:"هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}".

وقال القشيري:"هما جنتان غير هاتين اللتين ذكرتا جنتان أخريان. وليس يريد دونهما في الفضل، ولكن يريد «جَنَّتانِ» سواهما".

وفي قوله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]، وجوه:

=

=

أحدها: أن الجنات الأربع لمن خاف مقام ربه، فيكون في الأوليين النخل والشجر، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط. حكاه الماوردي عن ابن عباس.

الثاني: أن الأوليين للسابقين، والأخريين للتابعين، قاله الحسن.

قال مقاتل: " في هذه الجنان الأربع..: جنة عدن، وجنة النعيم، وجنة الفردوس، وجنة المأوى، ففي هذه الجنان الأربع جنان كثيرة في الكثرة مثل ورق الشجر ونجوم السماء".

قال ابن كثير:"الدليل على شرف الأوليين على الأخريين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}. وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثاني".

الثالث: أن يكون من دونهما جنتان لأتباعه، لقصور منزلتهم عن منزلته، إحدهما: للحور العين، والأخرى: للولدان المخلدين، لتميز بهما الذكور عن الإناث. أفاده الماوردي.

الرابع: أن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من وَرِقٍ لأصحاب اليمين.

وقال أبو موسى: "جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين".

وقال ابن جريج:"هن أربع: جنتان للمُقرّبين السابقين، فيهما مِن كلّ من فاكهة زوجان، وجنتان لأصحاب اليمين، فيهما فاكهة ونخل ورمان".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٦٣].

قال الطبري:"يقول: فبأيّ نعم ربكما التي أنعم عليكم -بإثابته أهل الإحسان ما وصف من هاتين الجنتين- تكذّبان؟".

قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} [الرحمن: ٦٤]، أي:"هاتان الجنتان خضراوان، قد

=

=

اشتدَّت خضرتهما حتى مالت إلى السواد".

وفي قوله تعالى: {مُدْهَامَّتَانِ} [الرحمن: ٦٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أي: خضراوان، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وعطاء بن أبي رباح.

وقال عطاء الخراساني:"كثرة الشجر وخضرته".

وعن عطاء بن أبي رباح، قال: " {مُدْهامَّتانِ} هما جنتان خَضْراوان".

الثاني: مسودتان من شدة خضرتهما من الريّ، قاله ابن عباس -أيضا- ومجاهد وأبو سنان وابن زيد وبه قال الطبري ـ مأخوذ من: الدهمة، وهي السواد، ومنه سمي سود الخيل: دهمًا. قال ذو الرُّمة -وذكر غيثًا-:

كَسا الأَكْمَ بُهْمَى غَضَّةً حَبَشِيَّةً... تُؤَامًا ونُقْعانُ الظُّهورِ الأَقارِعِ

جعلها حبشية من شدة الخضرة.

قال ابن عباس:"قد اسودتا من الخضرة، من شدة الري من الماء".

قال أبو سنان:"مسوادتّان من الريّ".

قال ابن زيد:"من الخضرة من شدة خضرتهما، حتى كادتا تكونان سَوْداوين".

قال ابن قتيبة:"سَوْداوَان من شدة الخُضرة والرِّي".

قال ابن كثير:"قال هناك: {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}: وهي الأغصان أو الفنون في الملاذ، وقال هاهنا: {مُدْهَامَّتَان}، أي سوداوان من شدة الري".

الثالث: خضراوان من الرّي، قاله ابن عباس -في إحدى الروايات- وابن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة وعطية وأبو صالح.

عن حارثة بن سليمان السلميّ، قال: "سمعت ابن الزبَير وهو يفسر هذه الآية على المنبر، وهو يقول: هل تدرون ما {مُدْهَامَّتَانِ}؟ خضراوان من الري".

وقال قتادة:"خضراوان من الريّ، ناعمتان".

قال قتادة:"خضراوان من الريّ: إذا اشتدت الخضرة ضربت إلى السواد".

=

=

وقال سعيد بن جبير: "علاهما الريّ من السواد والخضرة".

قال الفراء: "خضراوان إلى السواد من الري".

قال أبو عبيدة: "خضراوان إلى السواد من الري".

الرابع: ملتفتان. حكاه ابن عباس.

الخامس: ناعمتان. قاله الحسن. وروي عن قتادة نحوه.

السادس: ممتلئتان من الخضرة. قاله محمد بن كعب.

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٦٥]، أي: "فبأي نِعَم ربكما - أيها الثقلان- تكذِّبان؟".

قال الطبري: "يقول: فبأيّ نِعَم ربكما التي أنعم عليكم -بإثابته أهل الإحسان ما وصف في هاتين الجنتين- تكذّبان".

قوله تعالى: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} [الرحمن: ٦٦]، أي: "فيهما عينان فوَّارتان بالماء لا تنقطعان".

وفي قوله تعالى: {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} [الرحمن: ٦٦]، وجوه من التفسير:

أحدهما: ممتلئتان لا تنقطعان، قاله الضحاك.

الثاني: جاريتان، قاله الفراء.

الثالث: فياضتان. رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس.

الرابع: يعني: فوّارتان. قاله أبو عبيدة والطبري.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: في هاتين الجنتين اللتين من دون الجنتين اللتين هما لمن خاف مقام ربه، عينان نضاختان، يعني: فوّارتان".

قال الماوردي: وذكر في الجنتين الأوليين عينين تجريان، وذكر في الأخريين عينين نضاختين، والجري أكثر من النضخ".

قال ابن كثير: "قال هناك: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}، وقال هاهنا: {نَضَّاخَتَان}،

=

=
والجري أقوى من النضخ".
وبماذا هما نضاختان؟ فيه سبعة وجوه:
أحدها: نضاختان بالماء، قاله ابن عباس وعكرمة وابن زيد وبه قال ابن قتيبة.
وقال عكرمة:"تَنضَخان بالماء هوامش أنهار الجنة".
الثاني: بالمسك والعنبر، قاله أنس.
قال أنس:"بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ تَنْفُخَانِ عَلَى دُورِ الْجَنَّةِ كَمَا يَنْضَخُّ الْمَطَرُ عَلَى دُورِ أَهْلِ الدُّنْيَا".
الثالث: تنضخان بالخير. قاله قتادة.
وحكي الماوردي عن الحسن والكلبي، قالا:"بالخير والبركة".
وعن مجاهد:"{نَضّاخَتانِ}، قال: بكلّ خير".
قال الزجاج:"جاء في التفسير أنهما ينضخان كُلَّ خَير".
الرابع: بالماء والفاكهة، قاله سعيد بن جبير.
الخامس: نضاختان بألوان الفاكهة. قاله سعيد بن جبير -أيضا-.
السادس: نضاختان بالخير. قاله ابن عباس -أيضا-.
قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك أنهما تنضخان بالماء، لأنه المعروف بالعيون إذ كانت عيون ماء".
قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ٦٧]، أي:". فبأي نِعَم ربكما -أيها الثقلان- تكذِّبان؟".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نِعم ربكما التي أنعم عليكم -بإثابته محسنكم هذا الثواب الجزيل- تكذّبان؟".
قوله تعالى: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)} [الرحمن: ٦٨].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وفي هاتين الجنتين المدهامتَّين فاكهة ونخل
=

=

ورمَّان".

واختلف في المعنى الذي من أجله أعيد ذكر النخل والرمان؛ وقد ذكر قبل أن فيهما الفاكهة، وفيه قولان:

أحدهما: أعيد ذلك، لأن النخل والرمان ليسا من الفاكهة. حكاه الطبري.

الثاني أنهما من الفاكهة؛ وأعيدا ترغيبا لأهل الجنة. كقوله: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى}، فقد أمرهم بالمحافظة على كلّ صلاة، ثم أعاد العصر تشديدا لها. حكاه الطبري -أيضا.

قال ابن كثير:"قال هناك: {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}، وقال هاهنا: {فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع على فاكهة، وهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم؛ ولهذا فسر قوله: {وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما".

قال الزجاج:"قال بعض أهل اللغَةِ- منهم يونس النحوي، وهو يتلو الخليل في القدم والحذق-: إن الرَّمَّان والنخل من أفضل الفاكهة، وإنما فُصِلاَ بالواو لفضلهما، واستشهد في ذلك بقوله تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}، فقال لفضلهما فصِلَا بالواو".

قال سعيد بن جبير:"نخل الجنة جذوعها من ذهب، وعروقها من ذهب، وكرانيفها من زمرد، وسعفها كسوة لأهل الجنة، ورطبها كالدلاء، أشدّ بياضا من اللبن، وألين من الزبد، وأحلى من العسل، ليس له عَجَم".

عن وهب الذماري، قال:"بلغنا أن في الجنة نخلا جذوعها من ذهب، وكرانيفها من ذهب، وجريدها من ذهب وسعفها، كسوة لأهل الجنة، كأحسن حلل رآها الناس قط، وشماريخها من ذهب، وعراجينها من ذهب، وثفاريقها من ذهب،

=

=

ورطبها أمثال القلال، أشدّ بياضا من اللبن والفضة، وأحلى من العسل والسكر، وألين من الزُّبد والسَّمْن".

قال الأعمش:"إنّ في الجنة شجرة لو أنّ غرابًا خرج من عُشّه فطار لَمات هَرمًا قبل أن يقطعها".

عن عمر بن الخطاب قال: «جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: "نعم، فيها فاكهة ونخل ورمان". قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: "نعم

وأضعاف". قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: "لا ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى"».

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩)} [الرحمن: ٦٩]

قال الطبري:"يقول: فبأيّ نعم ربكما تكذّبان، يقول: فبأيّ نعم ربكما التي أنعمها عليكم -بهذه الكرامة التي أكرم بها محسنكم- تكذّبان".

قوله تعالى {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠)} [الرحمن: ٧٠]

اختلف أهل العلم في تفسير الآية على قولين:

أحدهما: أن المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة، قاله قتادة.

الثاني: أن «خيرات» جمع: خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلُق الحسنة الوجه، قاله عبد الله وقتادة-أيضا- وابن زيد وبه قال الطبري وحكاه ابن كثير عن الجمهور. وروي مرفوعا عن أم سلمة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: في هذه الجنان الأربع اللواتي اثنتان منهنّ لمن يخاف مقام ربه، والأخريان منهنّ من دونهما المدهامتان خيرات الأخلاق، حسان الوجوه".

قال ابن زيد:"الخيرات الحسان: الحور العين".

=

=

قال قتادة:"يقول: في هذه الجنان خيرات الأخلاق، حسان الوجوه".

قال قتادة:"خيرات في الأخلاق، حسان في الوجوه".

قال عبد الله:"في كل خيمة زوجة".

عن مجاهد:"{فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ}، قال: النساء".

قال الحسن:"خيِّرات فاضلات".

قال أبو صالح:"عذارى الجنة".

قال إسماعيل بن أبي خالد: "عذارى".

قال الأوزاعي:"لَسْنَ بذَرِبات اللسان، ولا يَغَرْنَ، ولا يؤذين".

عن أمّ سلمة قالت: "قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ}، قال: «خَيْرَاتُ الأَخْلاقِ، حِسانُ الوُجُوهِ»".

عن ابن أبي ذئب، عمن سمع أنسا، يقول: إن الحور العين في الجنة ليتغنين، يقلن: نحن الخيرات الحسان حبسنا للأزواج الكرام".

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أزواج أهل الجنة ليغنين [ص:١٥٠] أزواجهن بأحسن أصوات سمعها أحد قط. إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان. أزواج قوم كرام. ينظرن بقرة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا يمتنه. نحن الآمنات فلا يخفنه. نحن المقيمات فلا يظعنه».

وقرأ بعضهم: «فيهن خَيّرات»، بالتشديد.

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)} [الرحمن: ٧١]

قال الطبري:"يقول: فبأيّ نِعم ربكما التي أنعم عليكما -بما ذكر- تكذّبان".

قال قتادة:"يقول للجنّ والإنس: بأيّ نِعم الله تكذّبان".

قال الحسن:"فبأيّ نعمة ربكما تكذّبان".

قوله تعالى: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)} [الرحمن: ٧٢]

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن هؤلاء الخيرات الحسان {حُورٌ}، يعني: بقوله حور: بِيض، وهي جمع حوراء، والحوراء: البيضاء".

قال ابن كثير:"ثم قال: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، وهناك قال: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، ولا شك أن التي قد قَصَرَت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات".

قال أبو عبيدة:"الحوراء: الشديدة بياض العين والشديدة سواد العين".

عن أبي صالح، في قوله: " {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، قال: عَذارى الجنة".

واختلف في تفسير قوله: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ} [الرحمن: ٧٢]، على أقوال:

أحدها: مقصورات الطرف على أزواجهن فلا يبغين بهم بدلًا، ولا يرفعن طرفًا إلى غيرهم من الرجال، قاله مجاهد والربيع.

قال مجاهد:"قُصِر طرفهنّ وأنفسهنّ على أزواجهن".

قال مجاهد:"قُصر طرفهنّ على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم".

قال مجاهد:"قَصَرْن أنفسَهنّ وأبصارهنّ على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم".

الثاني: المحبوسات في الحجال، لَسْنَ بالطوافات في الطرق، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد-أيضا- والضحاك وأبو العالية والربيع-أيضا- ومحمد بن كعب.

قال الحسن:"محبوسات، ليس بطوّافات في الطرق".

قال سهل بن عبد الله:"أي: محبوسات في الخيام".

قال الضحاك:"المحبوسات في الخيام لا يخرجن منها".

قال مجاهد:"لا يبرحن الخيام".

الثالث: المخدرات المصونات، ولا متعطلات ولا متشوِّفات، قاله زيد بن

=

=

الحارث وأبو عبيدة.

قال أبو عبيدة:"مقصورات: أي خدّرن في الخيام".

الرابع: أنهن المسكنات في القصور، قاله الحسن-أيضا-.

الخامس: أن يريد بالمقصورات البيض، مأخوذ من قصارة الثوب الأبيض، لأن وقوع الفرق بين المقصورات والقاصرات يقتضي وقوع الفرق بينهما في التفسير. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وصفهنّ بأنهن مقصورات في الخيام، والقصر: هو الحبس. ولم يخصص وصفهنّ بأنهنّ محبوسات على معنى من المعنيين اللذين ذكرنا دون الآخر، بل عمّ وصفهنّ بذلك. والصواب أن يعمّ الخبر عنهنّ بأنهنّ مقصورات في الخيام على أزواجهنّ، فلا يردن غيرهم، كما عمّ ذلك".

وفي «الخيام» ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها خيام تضرب لأهل الجنة خارج الجنة كهيئة البداوة، قاله سعيد بن جبير.

الثاني: أنها خيام في الجنة تضاف إلى القصور. حكاه الماوردي.

الثالث: أن الخيام هي البيوت، قاله أبو عبيدة والطبري وابن بحر ومنه قول لبيد:

شاقَتْكَ ظُعْنُ الحَي يَوْم تَحَمَّلُوا... فَتَكَنَّسُوا قُطُنا تَصِرُّ خِيامُها

وقال جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح... سقيت الغيث أيتها الخيام

قال أبو عبيدة:"الخيام البيوت والهوادج أيضا خيام".

قال مقاتل:"«الخيام»، يعني: الدر المجوف الدرة الواحدة مثل القصر العظيم جوفاء على قدر ميل في السماء طولها فرسخ، وعرضها فرسخ، لها أربعة آلاف

=

=
مصراع من ذهب، فذلك قوله- تعالى-: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد: ٢٣]".
عن ابن عباس: " {فِي الخِيامِ}، قال: بيوت اللؤلؤ".
قال ابن عباس:"الخيمة لؤلؤة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب".
قال ابن عباس:"الخيمة في الجنة من درّة مجوّفة، فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع".
عن عبد الله: " {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، قال: الدر المجوّف".
عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، قالا: "الخيام: درّ مجوّف".
قال عمرو بن ميمون:"الخيام: الخيمة: درّة مجوّفة".
قال الضحاك:"الخيمة درّة مجوفة".
قال الحسن:"الخيام: الدرّ المجوّف".
قال مجاهد:"خيام اللؤلؤ".
قال ابن زيد:"يقال: خيامهم في الجنة من لؤلؤ".
قال مجاهد:"الخيام: اللؤلؤ والفضة، كما يقال والله أعلم".
عن محمد بن كعب والربيع، في قوله: {فِي الخِيامِ}، قالا: "في الحجال".
عن أبي الأحوص، قال، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أتدرون ما حور مقصورات في الخيام؟ الخيام: درّ مجوّف".
عن أبي الأحوص في قوله: " {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، قال: درّ مجوّف".
قال أبو الأحوص:"الخيمة: درّة مجوّفة، فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف مصراع من ذهب".
عن خُلَيْد العَصَري، عن أبي الدرداء، قال: "الخيمة لؤلؤة واحدة، فيها سبعون بابا
=

=

من در.

عن خليد العصريّ قال: "لقد ذكر لي أن الخيمة لؤلؤة مجوّفة، لها سبعون مِصْراعا، كلّ ذلك من درّ".

قال قتادة:"ذُكر لنا أن ابن عباس كان يقول: الخيمة: درّة مجوّفة، فرسخ في فرسخ، لها أربعة الآف باب من ذهب".

وقال: قتادة: "كان يقال: مسكن المؤمن في الجنة، يسير الراكب الجواد فيه ثلاث ليال، وأنهاره وجنانه وما أعدّ الله له من الكرامة".

قال ابن عباس:"الخيمة: درّه مجوّفة، فرسخ في فرسخ، لها أربعة آلاف باب من ذهب".

عن أبي مجلز" أن رسول الله ﷺ قال في قول الله: {حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، قال: «درّ مُجَوَّفٌ»".

عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهلٌ ما يَرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون".

وفي رواية مسلم: "إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣)} [الرحمن: ٧٣]

قال الطبري:"يقول: فبأيّ نعم ربكما التي أنعم عليكما -من الكرامة، بإثابة محسنكم هذه الكرامة- تكذّبان".

قوله تعالى: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤)} [الرحمن: ٧٤]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لم يمسهنّ بنكاح فيدميهن إنس قبلهم ولا جانّ".

قال مقاتل:"لأنهن خلقن في الجنة، يعني لم يطأهن إنس قبل أهل الجنة، ولا جان

=

=

يعني ولا جني".

قال القاسمي:"يعني: بهن حور الجنتين اللتين من دون الأوليين. أو تكرير لما سبق، للتنويه بهذا الوصف، وكونه في مقدمة المشتهيات، وطليعة الملذات".

قال ابن كثير:"زاد في وصف الأوائل بقوله: {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}".

قال عامر الشعبي:"{لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جانٌّ} منذ أُنشِئن".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥)} [الرحمن: ٧٥]

قال الطبري:"يقول: فبأيّ نِعمَ ربكما التي أنعم عليكم بها -مما وصف- تكذّبان".

قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ} [الرحمن: ٧٦]، أي:"متكئين على وسائد ذوات أغطية خضر".

اختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ} [الرحمن: ٧٦]، على وجوه:

أحدها: أن الرفرف المحبس المطيف ببسطه، قاله ابن كامل.

الثاني: أن الرفرف فضول المحابس والبسط، قاله ابن عباس ومروان وآخرون.

عن سلمة بن كُهيل الحضرميّ، عن رجل يقال له غزوان، {رَفْرَفٍ خُضْرٍ}، قال: "فضول المحابس".

عن عنترة، عن أبيه، قال: "فضول الفُرُش والمحابس".

قال عطاء الخراساني:"الرّفرف: فُضول الفُرُش والمحابس.

قال الحسن:"هي البسط، أهل المدينة يقولون: هي البسط".

قال قتادة:"الرفرف الخضر: المحابس". وقال:"محابس خضر".

قال الضحاك:"هي المحابس".

قال ابن زيد:"الرفرف: المحابس".

عن محمد بن جُحادَةَ، في قول الله: " {مُتَّكِئِينَ عَلى رَفارَفٍ خُضْرٍ}، قال:

=

=

مجالس".

وقال مجاهد:"فُضول الفُرش".

قال سفيان بن عيينة: "هي الزّرابي".

الثالث: أنها الوسائد، قاله الحسن وعاصم الجحدري.

قال الحسن:"الرفرف: مرافق خُضْر".

الرابع: أنها الفرش المرتفعة، مأخوذ من الرف. حكاه الماوردي.

الخامس: أنها المجالس يتكئون على فضولها. حكاه الماوردي-أيضا-.

السادس: رياض الجنة، قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد بن جبير:"الرّفرف: رياض الجنة، {خضر} مُخضبة".

قوله تعالى: {وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]، أي:"وفرش بديعة فائقة الصنع في غاية الحسن".

وفي قوله تعالى: {وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]، قولان:

أحدهما: أنها الزَّرابيّ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد.

وعن الحسن:"أنها الطنافس المخملية".

قال مقاتل:"يعني: الزرابي وهي: الطنافس المخملة وهي الحسان".

قال الفراء:"الطنافس الثخان".

قال ابن قتيبة: العبقريّ: الطّنافِس الثِّخان.

قال أبو عبيدة: يقال لكل شيء من البُسُط: عبقريّ.

وقال سعيد بن جبير: "هي عتاق الزرابي". يعني: كرام الوسائد وجيادها.

عن محمد بن جُحادَةَ، في قول الله: " (وعَباقِرِيَّ حِسانٍ)، قال: طَنافس. وكان يقرأها: (وعَباقِرِيَّ)".

=

=

قال الطبري:"وأما العبقريّ، فإنه الطنافس الثخان، وهي جماع واحدها: عبقرية، وقد ذُكر أن العرب تسمي كل شيء من البسط عبقريا".

وسئل الحسن البصري عن قوله: {وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} فقال: "هي بسط أهل الجنة– لا أبا لكم– فاطلبوها".

الثاني: أنه الدِّيباج الغليظ، قاله مجاهد.

وقال أبو حَزْرَة يعقوب بن مجاهد: "العبقري: من ثياب أهل الجنة، لا يعرفه أحد".

وقال القتيبي: "كل ثوب مُوَشى عند العرب عبقري".

قال ابن كثير:"وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: {مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاءً بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى".

وفي أصل كلمة «عبقري»، قولان:

أحدهما: أنه سيد القوم وعينهم، قاله عبد الله بن عمر ـ ومنه قول النبي –ﷺ– في عمر رضي الله عنه: «فلم أر عبقريا في الناس يفري فريه». فنسبه إلى أرفع الثياب لاختصاصه.

قال الأصمعي: "سألت أبا عمرو بن العلاء عن «العبقري»، فقال: يقال: هذا عبقري قوم كقولك: هذا سيد قوم وكبيرهم وقويهم".

وروي سلمة عن الفراء قال: "العبقري السيد من الرجال، وهو الفاخر من الحيوان والجوهر".

الثاني: أرض عبقر. قاله أبو عبيد.

وفي تسميتها بذلك قولان:

=

=

أحدهما: لكثرة رملها ويكون المراد بذلك أنها تكون مثل العبقري لأن ما ينسج بعبقر لا يكون في الجنة إذا قيل إن عبقر اسم أرض.

الثاني: لكثرة الجن فيها.

قال الليث: "عبقر، موضع بالبادية كثير الجن يقال في المثل: كأنهم جن عبقر".

قال أبو عبيد: " العَبقَري: البُسُط التي فيها الأصباغ والنُّقوش، والعَبقَري: جمعٌ، واحده: عَبقَريةٌ، وكذلك الرَّفرَف، واحدتُهُ: رَفْرَفَة، زَعَم ذلك الأحمر. قال: وهو منسوب إلى بلاد يقال لها: عَبقَر، يُعمَلُ بها الوَشْي. قال ذو الرُّمَّة:

حتى كأنَّ رياضَ القُفِّ ألبَسَها... مِن وَشْي عَبقَرَ تَجليلٌ وتَنجيدُ

قال: والعربُ ينسبون إلى هذه البلاد كلَّ شيءٍ يريدون مدحَهُ، ويَرفعون قدرَهُ، وما وَجَدنا أحدًا يدري أين هذه البلاد، ومتى كانت".

قال الزجاج:"وأصل «العبقري» -في اللغة-: صفة لكل ما بولغ في وصفه، وأصله أن عبقر: اسم بلد كان يوَشَّى فيه البسط وغيرها، فنسب كل شيء جيد، وكل ما بولغ في وصفه إلى عبقر. قال زهير:

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَريةٌ... جَديرون يومًا أَن يَنالوا فيَسْتَعْلُوا".

قال ابن الأثير: عبقر: قرية تسكنها الجن فيما زعموا، فكلما رأوا شيئا فائقا غريبا مما يصعب عمله ويدق أو شيئا عظيما في نفسه نسبوه إليها فقالوا: عبقري، اتسع فيه حتى سمي به السيد والكبير. وفي الحديث: «أنه كان يسجد على عبقري»؛ وهي هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش، حتى قالوا ظلم عبقري، وهذا عبقري قوم للرجل القوي، ثم خاطبهم الله تعالى بما تعارفوه: فقال: {عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} [الرحمن: ٧٦]".

قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧)} [الرحمن: ٧٧]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فبأيّ نِعم ربكما التي أنعم عليكم -من إكرامه

=

=

أهل الطاعة منكم هذه الكرامة- تكذّبان".

قال الزجاج:"أي: فَبِأَيِّ نعم رَبِّكما التي عددت عليكما يا معشر الجن والإِنس تكذبان، فإنما ينبغي أن يعظِّما الله ويمجداه، فختم السورة بما ينبغي أن يمجَّدَ به".

قوله تعالى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)} [الرحمن: ٧٨]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: تبارك ذكر ربك يا محمد، {ذِي الجَلالِ}: يعني ذي العظمة، {والإكْرامِ}، يعني: ومن له الإكرام من جميع خلقه".

قال مقاتل:"يعني: بـ {الْجَلَالِ}: العظيم، {وَالْإِكْرَامِ}، يعني: الكريم فلا أكرم منه، يمدح الرب نفسه- تبارك وتعالى-.".

قال النحاس:"أي: البركة في اسمه جل وعز، والبركة -في اللغة-: بقاء النعمة وثباتها، فحضهم بهذا على أن يكثروا ذكر اسمه جل وعز ودعاءه، وأن يذكروه بالإجلال والتعظيم له فقال: ذي الجلال والإكرام، أي: الجليل الكريم، وفي الحديث «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» ".

قال القرطبي:"{الجلال}: عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح، يقال: جل الشيء أي عظم وأجللته أي عظمته، والجلال اسم من جل. {والإكرام}، أي: هو أهل لان يكرم عمالا يليق به من الشرك، كما تقول: أنا أكرمك عن هذا، ومنه إكرام الأنبياء والأولياء".

عن الحسن في قوله: {وَالْإِكْرَامِ}، قال:"الذي يكرم أهل دينه وولايته".

قال ابن كثير:"وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: {هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ} فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما في حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخيريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين. ثم قال: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإكْرَامِ}، أي: هو أهل أن

=

=

يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى".

عن ابن عباس، في قوله تعالى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}، " يقول: ذو العظمة والكبرياء".

وفي الحديث الآخر: "إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وذي السلطان، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه".

عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام".

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "ألظّوا بيا ذا الجلال والإكرام".

قال ابن كثير:"وقول ابن مسعود: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»ـ أي: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر- والله أعلم- وهو المداومة واللزوم والإلحاح. وفي صحيح مسلم والسنن الأربعة من حديث عبد الله بن الحارث، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد- يعني: بعد الصلاة- إلا قدر ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام» ".

قال ابن عطية:"والدعاء بهاتين الكلمتين حسن مرجو الإجابة".

قال الجوهري: "ألظ فلان بفلان: إذا لزمه.

قرأ جمهور الناس: «ذي الجلال» على اتباع الرب. وقرأ ابن عامر وأهل الشام. «ذو» على اتباع الاسم، وكذلك في الأول، وفي حرف أبيّ وابن مسعود، «ذي الجلال» في الموضعين، وهذا الموضع مما أريد فيه بالاسم مسماه.

قال العثيمين: قوله تعالى: {ومن دونهما جنتان} أي: من دون الجنتين السابقتين جنتان من نوع آخر، وقد جاء ذلك مبينًا في السنة، حيث قال النبي ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » والآية صريحة أن

=

=

هاتين الجنتين دون الأوليان {فبأي ءالآء ربكما تكذبان مدهآ متان} أي: سوداوان من كثرة الأشجار {فبأي ءالآء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان} أي: تنضخ بالماء، أي: تنبع، وفي الجنتين السابقتين قال: {فيهما عينان تجريان}ـ والجري أكمل من النبع، لأن النبع لايزال في مكانه لكنه لا ينضب، أما الذي يجري فإنه يسيح، فهو أعلى وأكمل، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان} وهناك يقول: {فيهما من كل فاكهة زوجان}ـ أما هذا فقال {فيهما فاكهة ونخل ورمان}ـ والنخل والرمان معروفان في الدنيا، ولكن يجب أن تعلم أنه لا يستوي هذا وهذا.

الاسم واحد والمسمى يختلف اختلافًا كثيرًا، ودليل ذلك قوله تعالى: {فلا تعلم نفس مآ أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون} ولو كانت النخل والرمان كالنخل والرمان في الدنيا لكنا نعلم، لكننا لا نعلم، فالاسم واحد، ولكن الحقيقة مختلفة، ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»ـ {فبأي ءالآء ربكما تكذبان فيهن خيرات حسان} {فيهن} وهذا جمع، وقد قال قبل ذلك {فيهما}ـ لأن هذا الجمع يعود على الجنان الأربع، ففي الجنان الأربع قاصرات الطرف كما سبق، وفي الجنان الأربع {خيرات حسان} أي: في الأخلاق.

الأخلاق طيبة، حسان الوجوه والبدن، فالأول حسن الباطن وهذا حسن الظاهر {فبأي ءالآء ربكما تكذبان حور مقصورات في الخيام} الحوراء هي الجميلة، التي جملت في جميع خلقها، وبالأخص العين: شديدة البياض، شديدة السواد، واسعة مستديرة من أحسن ما يكون، {مقصورات} أي: مخبئات، {في الخيام}: جمع خيمة، والخيمة معروفة هي بناء له عمود وأروقة، لكن الخيمة في الآخرة ليست كالخيمة في الدنيا، بل هي خيمة من لؤلؤة طولها في السماء مرتفع جدًا، ويرى من

=

=

في باطنها من ظاهرها، ولا تسأل عن حسنها وجمالها، هؤلاء الحور مقصورات مخبئات في هذه الخيام على أكمل ما يكون من الدلال والتنعيم {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جآن} يعني لم يجامعهن أحد، بل هي باقية على بكارتها إلى أن يغشاها زوجها، جعلنا الله منهم، {ولا جآن} أي: ولا جن، وهذا يدل على أن الجن يدخلون الجنة مع الإنس وهو كذلك، لأن الله لا يظلم أحدًا، والجن منهم صالحون، ومنهم دون ذلك، ومنهم مسلمون ومنهم كافرون، كالإنس تمامًا، كما أن الإنس فيهم مطيع وعاصٍ، وفيهم كافر ومؤمن، كذلك الجن، والجن المسلم فيه خير، ويدل على الخير، وينبىء بالخير، ويساعد أهل الصلاح من الإنس، والجن الفاسق أو الكافر مثل الفاسق أوالكافر من بني آدم سواء بسواء، وكافرهم يدخل النار، بإجماع المسلمين كما في القرآن: {قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار} وهذا نص القرآن، وأجمع العلماء على أن الكافر من الجن يدخل النار، ومؤمن الجن يدخل الجنة، وقوله تعالى: {لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جآن} يدل على أن الجن يدخلون الجنة، وهو كذلك {فبأي ءالآء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان} أي: معتمدين بأيديهم وظهورهم {على رفرف} أي: على مساند ترفرف مثل ما يكون على أطراف المساند، ويكون في الأسرّة، هكذا يرفرف،

{متكئين على رفرف خضر}ـ لأن اللون الأخضر أنسب ما يكون للنظر، وأشد ما يكون بهجة للقلب، {وعبقري حسان}ـ العبقري هو الفرش الجيدة جدًا، ولهذا يسمى الجيد من كل شيء عبقري، كما قال النبي ﷺ في الرؤية التي رآها حين نزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «فما رأيت عبقريًا يفري فريه» أي: ينزع نزعه: من قوته رضي الله عنه، {فبأي ءالآء ربكما تكذبان} المعنى التقرير، يعني أن النعم واضحة فبأي شيء تكذبون؟ الجواب: لا نكذب بشيء، نعترف بآلاء الله ونعمه ونقر بها

=

=

ونعترف بأننا مقصرون، لم نشكر الله تعالى حق شكره، ولكننا نؤمن بأن الله أوسع من ذنوبنا، وأن الله تبارك وتعالى عفو كريم يحب توبة عبده، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، حتى قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم» وذكر الرجل في فلاة أضل راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فطلبها ولم يجدها، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظرالموت، آيس من الحياة، فإذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة، فأخذه وقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك».

يريد أنت ربي وأنا عبدك، لكن من شدة الفرح أخطأ فقال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك». فالله تعالى أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا الرجل بناقته، اللهم تب علينا يا رب العالمين {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} ختم الله تبارك وتعالى هذه السورة بهذه الجملة العظيمة، أي ما أعظم بركة الله ﷻ وما أعظم البركة باسمه، حتى إن اسم الله يحلل الذبيحة أو يحرمها، لو ذبح الإنسان ذبيحة ولم يقل باسم الله تكون ميتة حرامًا نجسة مضرة على البدن، حتى لو ذبح ونسي أن يقول: بسم الله. فهي حرام نجسة تفسد البدن، فيجب أن يسحبها للكلاب، لأنها نجسة، قال الله تعالى: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق} فانظر البركة، والإنسان إذا توضأ ولم يسم فوضوؤه عند بعض العلماء فاسد لابد من الإعادة، لأن البسملة واجبة عند بعض أهل العلم، والإنسان إذا رأى الصيد الزاحف، أو الطائر فيرميه ولم يسمِ يكون هذا الصيد حرامًا ميتة نجسًا مضرًا على البدن، فانظر البركة، والإنسان إذا أتى أهله يعني جامع زوجته وقال: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا» كان هذا حماية لهذا الولد الذي ينشأ من هذا الجماع، حماية له من الشيطان، قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا. فإنه إن يقدر بينهما ولد

=

=

لم يضره الشيطان أبدًا »

والإنسان يسعى يمينًا وشمالًا لحماية ولده ويخسر الدراهم الكثيرة، وهنا هذا الدواء من الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يسير من ناحية العمل، وسهل، وكل هذا دليل على بركة اسم الله ﷻ، {ذي الجلال والإكرام} أي: ذي العظمة والإكرام، {ذي الجلال والإكرام}: بمعنى صاحب، وهي صفة لرب، لا لـ (اسم) ولو كانت صفة لـ (اسم) لكانت ذو، والإكرام يعني هو يُكرِم وهو يُكرَم، فهو يكرم ويحترم ويعظم ﷻ وهو أيضًا يكرم، قال الله تعالى في أصحاب الجنة {أولئك في جنات مكرمون} فهو ذو الجلال والإكرام يكرم من يستحق الإكرام، وهو يكرمه ﷻ عباده الصالحون جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ❁ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ❁ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن: ٧- ٩)، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر (لفظ) الميزان ثلاث مرات؟ ووجه تخصيص السورة بذلك؟

والجواب عن ذلك- والله أعلم- أن المراد بذكر الميزان إعلام العباد بما به قوام أحوالهم واستقامة أديانهم من إجراء أمورهم على العدل الذي أمر سبحانه في قوله: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) (النساء: ٥٨)، وفي قوله: (اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: ٨)، وفي قوله: (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (الحجرات: ٩)، وفي الحديث: إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة. وتكرر في الكتاب العزيز الوصية بالوفاء في الكيل والوزن المحسوسين لبيان الأمر فيهما فقال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) (الإسراء: ٣٥)، وذك سبحانه من بخس فيهما، وجعل جزاءه الويل والهلاك فقال: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) (المطففين:

=

=

١)، وأعلمنا سبحانه بعاقبة (قوم) شعيب، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في ذلك، وأخذهم بالصيحة وعذاب يوم الظلة، وأعلمنا سبحانه بوزن أعمال العباد يوم القيامة فقال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) (الأنبياء: ٤٧)، وتكررت الآيات والأحاديث معلمة بذلك ليشاهد العباد عظيم العدل واستيفاء جزاء الأعمال مرئيًا محسوسًا جاريًا على مألوفهم في دنياهم مشاهدًا للصالح والطالح على المعتقد المتقرر عند كافة أهل السنة. فلما كانت الاستقامة في الكيل والوزن مشعرة بالاستقامة فيما سواهما وتأكدا لأنفسهما (ولما وراءهما أكد سبحانه الأمر بذلك، وأخبر بوضعه للخلق فيالقيامة) ليمتثلوا بذلك أمره، فقال تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن: ٧)، وقال مفسرًا وآمرًا: (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ) (الرحمن: ٨-٩)، و (أن) في قوله: (أَلَّا تَطْغَوْا) يحتمل أن تكون علة أي لئلا تطغوا في الميزان، وأن تكون حرف عبارة وتفسير نائبة مناب أي ومقدرة لها كالواقعة في قوله تعالى: (وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا) (ص: ٦)، وكرر لفظ الميزان جريًا على عادة العرب فيما لها به اعتناء وتهمم كقول الخنساء:

وإن صخر لوالينا وسيدنا... وإن صخرًا إذ نشتو لنحار

وإن صخرًا لتأتم الحداة به... كأنه علم في رأسه نار

فكررت ذكر صخر ثلاث مرات ظاهرًا غير مضمر، وكقول آخر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء... نغض الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاث مرات في بيت واحد. وقال:

ليت الغراب غداة ينعب دائبًا... كان الغراب مقطع الأوداجِ

وهذا موجود في كلامهم كثيرًا إذا قصدوا الاهتمام والاعتناء والتهويل والاستعظام، ومن الوارد في هذا في التنزيل: (الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ) (الحاقة: ١- ٢)

=

=

(الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ) (القارعة: ١ - ٢)، وما ورد من هذا. وأما تخصيص هذه السورة بذكر الميزان وأكيده والوصاة بحفظه وفاء والتزامًا- وهو الجواب الثاني- فمن حيث إن بناء السورة على إعلام الثقلين بنعمة سبحانه لديهم، وإقامة الحجة عليهم، وتعريفهم (بأنهم) لو وفقوا للحظ نعمة تعالى وما بث في السماوات والأرض وخلوقاتهما من عجائب صنعه ما كفر منهم أحد ولا كذب، وإنما أتى على من قدم ذكره من الأمم المكذبة في سورة القمر المتصلة بهذه لعدولهم عن النظر السديد اعتمادًا على الأهواء ونبذًا للعدل، والإنصاف ولو اعتبروا بخلق الإنسان وما منح وعلم من البيان وشرف به على سائر الحيوان، واعتبروا بآيتي الشمس والقمر وجريهما بحسبان لتفصيل الفصول وربط الأزمان، وتعاقب الملوين للتصرف والاستراحة (وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) (الإسراء: ١٢) (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) (يس: ٤٠)، فلو اعتبروا بهذا وما يستدعيه وينجر معه، وبالنبات نجمًا وشجرًا، ورفع السماء، ووضع الميزان للأنام، إخراج ضروب الأطعمة وأصناف الفواكه منها، واختلاف أنواعها في الطعن واللون والروائح مع اتحاد المادة: (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) (الرعد: ٤)، وكيف مرج سبحانه البحرين: (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) (الفرقان: ٥٣)، وقد حجز سبحانه ما بينهما وأحكم فلا يلتقيان التقاء يعود بعدم المنفعة على العباد، وأخرج منها اللؤلؤ والمرجان. وأجرى فيهما السفن بإجراء الرياح، وأقام على الجميع دلائل الافتقار والحدوث، وحكم عليهم بالفناء والعجز: (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ) (الروم: ٤٠)، وما من معتبر من هذه إلا كان في مشاهدته مفصحًا بلسان حاله: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢٢)، فلو اعتبر أولئك الأمم ببعض المنصوبات للاعتبار من المنبه عليه في سورة الرحمن لدلهم ذلك على

=

=

الصانع الذي ليس كمثله شيء، ولنبذوا معبوداتهم من دونه جل وتعالى وأجابوا الرسل فلم يهلكوا، ولكنهم انحرفوا عن ميدان الإنصاف فكذبوا فهلكوا، فلبناء السورة على هذا اختصت بذكر الميزان مكررًا مؤكدًا على ما وقع فيها. ولما لم ترد هذه الأغراض في غير هذه السورة مبنية على ما تقدمها في السورة قبلها من أخذ المكذبين على الصفة الواردة فيها، وانفردت هي بما قدم؟، كانت مظنة الاعتناء بما ينسحب على كل طرق السلامة في كل عمل، وهو العدل الذي به قوام المخلوقات، والوزن بالقسط الذي تستوضح كل نفس في القيامة (به) ما لها وعليها، ولم تكن غير هذه السورة لتكون أولى بذكر ذلك فيها منها، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الرحمن قوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن: ١٣)، للسائل أن يسأل عن وجه تكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، ما وجه ذلك؟ وهل لتخصيص هذا العدد سبب موجب؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه افتتح سبحانه السورة بذكر ضروب من النعم تجل عن الإحاطة بوصفها، ويعجز العارفون عن شكرها، وكلها دلائل للمعتبر واضحة، وشواهد قاطعة بانفراده سبحانه بالخلق والاقتراع والإنشاء والإبداع، فقال تعالى: (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ) (الرحمن: ١ - ٢)، وخص سبحانه من أسمائه: (الرحمن) مناسبة لما رحم به عباده، فبدأ سبحانه بتعليمه القرآن، ولا نعمة أعظم من ذلك إذ بتعليمه البيان المتوصل به إلى الإبانة عما في نفسه واستيضاح ما انبهم عليه وإيضاح ذلك لغيره، وبخ يعرف قدر النعمة بالقرآن، ثم أردف فذكر نعمة الشمس والقمر، ونبه تعالى على جريهما في بروجهما بحسبان ولما يدرك العالم من منافعهما إنضاجًا وتيبيسًا وإضاءة وحسبانًا: (وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) (الإسراء: ١٢) ثم قال تعالى تحريكًا للمعتبرين وإيقاظًا للمتفكرين: (وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) (الرحمن: ٦)، والنجم ما نجم من

=

=

النبات وارتفع عن أرضه، ثم قال: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا) (الرحمن: ٧)، فأشار إلى جعلها سقفًا محفوظًا من غير عمد مزينة بالنجوم للدلالة ورجم الشياطين، وقد مر التنبيه بما فيها وفي خلقها من العبر، ثم قال: (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن: ٧)، وقد تقدم الكلام في ذلك، ثم قال: (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ) (الرحمن: ١٠) للمشي في مناكبها والاكل مما بث فيها والاعتبار بها وبعجائبها، وعجائب السماوات والأرض أكثر من أن تحصى بالعد، قال تعالى: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الجاثية: ٣)، ثم ذكر تعالى بعض ما بثه فيها من الرزق فقال: (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ) (الرحمن: ١١ - ١٢). ولما كانت هذه النعم مشاهدة للخلائق، ولا طمع لأحد في نسبتها إلى غيره سبحانه، قد شهدت العقول وعرفت انفراده سبحانه بإيجادها واختراعها، أتبع ذلك بتقرير الثقلين وتعجيز الفريقين فقال لهما عقب هذه الضروب الثمانية: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (الرحمن: ١٣)، أي أمن هذه ما يمكن للجاحد أن يكذب به ويتعاطاه لغيره سبحانه في وضوح شهادتها لخالقه (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) (آل عمران: ٨٣)، ثم عرفنا سبحانه بخلقه الثقلين وبالمادة التي أوجد منها كلا من الصنفين فقال: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) (الرحمن: ١٤ - ١٥)، أينسب ذلك إلى غيره؟ أيستبد به سواه؟ ثم أتبع سبحانه بأنه (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) (الرحمن: ١٧) أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف إشارة إلى الغايتين في الانتهاء من رأس الجدي إلى رأس السرطان) ثم بخلق البحرين الحلو والمالح والتقائهما وفصلهما، ثم بما يخرج منها للانتفاع والزينة، ثم بتسخير السفن وجريها، ثم بذكر فناء كل من عليها وبقائه سبحانه، ثم بافتقار أهل السماوات والأرض إليه جل وتعالى وسؤالهم إياه شؤونهم وحاجاتهم كل يوم، وأعقب كل

=

=

قصة من هذه بتقرير الثقلين وتعجيزهم لقيام الحجة عليهم فقال: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)، وتكررت الآية بتكرر القضايا، وكلها مما لا مطمع لأحد في ادعائه، فقامت الحجة بها، وكانت سبعًا جريًا على سنة ما وقع التنبيه به من تحريك المعتبرين، واطرد هذا العدد في ذلك فقال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) (المؤمنين: ١٢) إلى تمام سبعة اطوار آخرها قوله تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) (المؤمنين: ١٤)، وقال عقب هذا: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) (المؤمنين: ١٧). ولما ذكر سبحانه الحالات التعبدية التي بها خلاص المكلفين ذكر سبعًا فقال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) (المؤمنين: ١ – ٢) فعد للمؤمنين خصالًا سبعًا جعلهم بها وارثين نعيمة وساكنين جنته فقال: (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنين: ١٠– ١١)، وهذا العدد مطرد جار في أشياء يشهد اطراده فيها على قصد حكمة تقتضيها، فمنها ما ذكر آنفًا ومنها أن أم القرآن سبع آيات، والأيام سبع، (والسماوات سبع)، والأرض (سبعة) مثلها، وأبواب جهنم سبعة، (وحد) الإثغار سبعة أعوام، ويعق عن المولود يوم سابعه، ومن مسنوناته، عَلَيْهِ السَّلَامُ سبع قضايا وعيدية: أولها قوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ) (الرحمن: ٣١) إلى قوله: (يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) (الرحمن: ٤٤) معقبًا فيها كل قضية بقوله تعالى مقرعًا وقامعًا للمعاندين بقوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ).

ثم انصرفت الآي إلى فريق النجاة ووعدهم بما أعد تعالى لهم فقال تعالى: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) (الرحمن: ٤٦)، واستمرت الآي فيما أعد تعالى لهم وإعطاهم إلى قوله: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠) مختتمة كل قضية منها بقوله في ثماني كرات في أعقاب ثماني قضايا على ما تقدم: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ). وكانت هذه ثمانية لكونها في أهل الجنة فجاءت على

=

سورة الواقعة(١)

=

وفق أبوابها، ويشهد لهذا القصد تعقيبها بمثلها عددًا فيما زادهم في قوله تعالى: (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ) (الرحمن: ٦٢) إلى آخر السورة:، وهي ثماني آيات كعدد ما قبلها معقبة كل آية منها بقوله: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) رعيًا لما ذكرنا. فتحصل في المجموع العدد المتقدم، ولم تكن الزيادة على ذلك لتناسب إذ لا قضية سوى هذه المعقبات، كما أن النقص من هذا العدد لا يناسب لطلب كل قضية لذلك الإعقاب تناسبًا وتوازنا على ما تقدم من الرعي، فورد ذلك كله على الوجه الذي لا يناسب خلافه، والله أعلم.

فإن قلت ما وجه اختصاص سورة الرحمن بهذا التعقيب مما هو إيقاظ للغافلين وتنبيه للمؤمنين وتقريع وتوبيخ للغافلين؟ وما وجه ذلك؟ فالجواب: (.......) - بياض بالأصل-. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٦١-٤٦٥).

(١) قال ابن عطية:"هي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين. وقيل إن فيها آيات مدنية، أو مما نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت".

وقال الفيروزبآدي: السّورة مَكِّيّة بالاتِّفاق.

آياتها تسع وتسعون فى عدّ الحجاز والشام، وسبع فى البصرة، وستّ فى الكوفة. وكلماتها ثلاثمائة وثمان وسبعون. وحروفها ألف وسبعمائة وثلاث. المختلف فيها أَربع عشرة آية: {فَأَصْحَابُ الميمنة} {وَأَصْحَابُ المشأمة} {وَأَصْحَابُ الشمال} {وَأَصْحَابُ اليمين} إنشاءً {فِي سَمُوْمٍ وَحَمِيمٍ} {وَكَانُوا يِقُولُونَ} {وَأَبَارِيقَ} {مَّوْضُونَةٍ} {وَحُورٌ عِينٌ} تأْثيما {والآخرين} {لَمَجْمُوْعُونَ} {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ}. مجموع فواصل آياتها (لا بدّ منه) على الباءِ منها آية واحدة: {وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ}. * سميت بسورة الواقعة، لافتتاحها بلفظ: «الواقعة»، وهي

=

=

القيامة، قال تعالى: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١)}.

قال المهايمي:"سميت بها، لأنها مملوءة بوقائع القيامة التي هي الواقعة العظمى لوقوعها في أشد الأهوال".

وهكذا سميت في المصاحف، وكتب السنة، فلا يُعرف لها اسم غير هذا.

* معظم مقصود السورة: ظهور واقعة القيامة، وأَصناف الخلق بالإِضافة إِلى العذاب والعقوبة، وبيان حال السّابقين بالطاعة، وبيان حال قوم يكونون متوسّطين بين أَهل الطاعة وأَهل المعصية، وذكر حال أَصحاب الشِمال، والغَرْقَى فى بحار الهلاك، وبرهان البعث من ابتداءِ الخِلْقة، ودليل الحشر والنشر من الحَرْث والزّرع، وحديث الماءِ والنَّار، وما فى ضمنهما: من النّعمة والمِنَّة، ومَسّ المصحف، وقراءَته فى حال الطَّهارة، وحال المتوفَّى فى ساعة السّكرة، وذكر قوم بالبشارة، وقوم بالخسارة، والخُطْبة على جلال الحقّ تعالى بالكبرياءِ والعظمة بقوله: {فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم}.

* المتشابهات: قوله: {فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة} أَعاد ذكرها. وكذلك {وَأَصْحَابُ المشأمة مَآ أَصْحَابُ المشأمة} ثمّ قال: {السابقون} لأَنَّ التقدير عند بعضهم: والسابقون ما السّابقون، فحذف (ما) لدلالة ما قبله عليه وقيل: تقديره: أَزواجًا ثلاثة فأَصحاب الميمنة وأَصحاب المشأَمة والسّابقون ثم ذكر عقيب كلّ واحد منهم تعظيمًا أَو تهويلًا فقال: ما أَصحاب الميمنة ما أَصحاب المشأَمة، والسّابقون أَى هم السّابقون. والكلام فيه يطول.

قوله: {أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ} {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُوْنَ} {أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ} {أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ} بدأَ بذكر خَلْق الإنسان، ثمّ بما لا غنى له عنه، وهو الحَبّ الَّذى منه قُوتُه (وقوّته) ثمّ الماء الَّذى منه سَوْغه وعَجْنه، ثمّ النَّار التى منها نُضْجه وصلاحه. وذكر عقيب كلّ واحد ما يأْتى عليه ويفسده، فقال فى الأُولى:

=

بسم الله الرحمن الرحيم[١]

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١).

{إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَة} قَامَتْ الْقِيَامَة.

لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢).

{لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَة} نَفْس تَكْذِب بِأَنْ تَنْفِيهَا كَمَا نَفَتْهَا فِي الدُّنْيَا

خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣).

{خَافِضَة رَافِعَة} أَيْ هِيَ مُظْهِرَة لِخَفْضِ أَقْوَام بِدُخُولِهِمْ النَّار وَلِرَفْعِ آخَرِينَ بِدُخُولِهِمْ الْجَنَّة.

إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤).

{إِذَا رُجَّتْ الْأَرْض رَجًّا} حُرِّكَتْ حَرَكَة شَدِيدَة.

وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥).

{وَبُسَّتْ الْجِبَال بَسًّا} فُتِّتَتْ.

فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦).

{فكانت هباء} غبارا {منبثا} منتشرا وإذا الثانية بدل من الأولى.

وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧).

=

{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ} وفى الثَّانية {لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} وفى الثالثة {لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا} ولم يقل فى الرّابعة ما يفسدها، بل قال: نحن جعلناها تذكرة: يتَّعظون بها [ومتاعا] للمُقْوِين: أَى للمسافرين ينتفعون بها. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٥٠).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{وكنتم} في القيامة {أزواجا} أصنافا {ثلاثة}.

فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨).

{فَأَصْحَاب الْمَيْمَنَة} وَهُمْ الَّذِينَ يُؤْتُونَ كُتُبهمْ بِأَيْمَانِهِمْ مُبْتَدَأ خَبَره {مَا أَصْحَاب الْمَيْمَنَة} تَعْظِيم لِشَأْنِهِمْ بدخولهم الجنة.

وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩).

{وَأَصْحَاب الْمَشْأَمَة} أَيْ الشِّمَال بِأَنْ يُؤْتَى كُلّ مِنْهُمْ كِتَابه بِشِمَالِهِ {مَا أَصْحَاب الْمَشْأَمَة} تَحْقِير لِشَأْنِهِمْ بِدُخُولِهِمْ النَّار.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠).

{وَالسَّابِقُونَ} إلَى الْخَيْر وَهُمْ الْأَنْبِيَاء مُبْتَدَأ {السَّابِقُونَ} تأكيد لتعظيم شأنهم.

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١).

{أولئك المقربون}.

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢).

{في جنات النعيم}.

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣).

{ثُلَّة مِنْ الْأَوَّلِينَ} مُبْتَدَأ أَيْ جَمَاعَة مِنْ الأمم الماضية.

وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤).

{وَقَلِيل مِنْ الْآخِرِينَ} مِنْ أُمَّة مُحَمَّد ﷺ وَهُمْ السَّابِقُونَ مِنْ الْأُمَم الْمَاضِيَة وَهَذِهِ الْأُمَّة وَالْخَبَر.

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥).

{عَلَى سُرُر مَوْضُونَة} مَنْسُوجَة بِقُضْبَانِ الذَّهَب وَالْجَوَاهِر.

مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦).

{مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} حَالَانِ مِنْ الضَّمِير فِي الخبر.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧).

{يَطُوف عَلَيْهِمْ} لِلْخِدْمَةِ {وِلْدَان مُخَلَّدُونَ} عَلَى شَكْل الْأَوْلَاد لَا يَهْرَمُونَ.

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨).

{بِأَكْوَابٍ} أَقْدَاح لَا عُرَا لَهَا {وَأَبَارِيق} لَهَا عُرَا وَخَرَاطِيم {وَكَأْس} إنَاء شُرْب الْخَمْر {مِنْ مَعِين} أَيْ خَمْر جَارِيَة مِنْ مَنْبَع لَا ينقطع أبدا.

لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩).

{لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ} بِفَتْحِ الزَّاي وَكَسْرهَا مِنْ نَزَفَ الشَّارِب وَأَنْزَفَ أَيْ لَا يَحْصُل لَهُمْ مِنْهَا صُدَاع وَلَا ذَهَاب عَقْل بخلاف خمر الدنيا.

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠).

{وفاكهة مما يتخيرون}.

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١).

{ولحم طير مما يشتهون و} لهم للاستمتاع.

وَحُورٌ عِينٌ (٢٢).

{حور} نِسَاء شَدِيدَات سَوَاد الْعُيُون وَبَيَاضهَا {عِين} ضِخَام الْعُيُون كُسِرَتْ عَيْنه بَدَل ضَمّهَا لِمُجَانَسَةِ الْيَاء وَمُفْرَده عَيْنَاء كَحَمْرَاء وَفِي قِرَاءَة بِجَرِّ حُور عين.

كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣).

{كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤ الْمَكْنُون} الْمَصُون.

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤).

{جَزَاء} مَفْعُول لَهُ أَوْ مَصْدَر وَالْعَامِل الْمُقَدَّر أَيْ جَعَلْنَا لَهُمْ مَا ذُكِرَ لِلْجَزَاءِ أَوْ جزيناهم {بما كانوا يعملون}.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥).

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا} فِي الْجَنَّة {لَغْوًا} فَاحِشًا مِنْ الْكَلَام {وَلَا تَأْثِيمًا} مَا يُؤْثِم.

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦).

{إلَّا} لَكِنْ {قِيلًا} قَوْلًا {سَلَامًا سَلَامًا} بَدَل من قيلا فإنهم يسمعونه(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: لما نزلت: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١)}؛ ذكر فيها: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)}، قال عمر: يا رسول الله! ثلة من الأولين وقليل منا؟ قال: فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزل: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)}؛ فقال رسول الله ﷺ: "يا عمر! تعال فاستمع ما قد أنزل الله؛ {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)} ألا من آدم إليَّ ثُلَّة، وأُمتي ثلة، ولن نستكمل ثلتنا حتى نستعين بالسودان، من رعاة الإبل، ممن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

أخرجه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٤٢/ ١٨٦) من طريق محمد بن خيم: ثنا هشام بن عمار، ثنا عبد ربه بن صالح، عن عروة بن رويم، عن جابر به. وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الانقطاع؛ فعروة لم يدرك جابرًا؛ كما في "التهذيب".

الثانية: عبد ربه بن صالح؛ مجهول.

وقال الحافظ ابن كثير: "في إسناده نظر".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٣): "بسند فيه نظر".

وقد أخرجه الطبراني في "مسند الشاميين" (١/ ٢٩٨/ ٥٢٠) عن أحمد بن المعلى، عن هشام بن عمار، عن عثمان بن علان، عن عروة به.

=

=

فقال: "عن عثمان بن علان" بدل "عبد ربه بن صالح".

وعثمان -هذا- لم نجد له ترجمة.

وعن أبي هريرة ﵁؛ قال: لما نزلت: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤)}؛ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ؛ فنزلت: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)}؛ فقال النبي ﷺ: "إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة -أو: شطر أهل الجنة- وتقاسموهم النصف الثاني".

أخرجه أحمد في "المسند" (٢/ ٣٩١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٣٠٥) من طريق شريك القاضي عن محمد -بياع الملاء- عن أبيه عن أبي هريرة به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١١٨): "رواه أحمد من حديث محمد -بياع الملاء- عن أبيه ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات".

وفيه علة ثالثة غفل عنها وهي ضعف شريك القاضي.

لكنه توبع: فأخرجه الطبراني؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٨٥)، و"فتح الباري" (١١/ ٣٨٧) -وعنه أبو نعيم الأصبهاني في "حلية الأولياء" (٧/ ١٠١) -من طريق هاشم بن مخلد عن ابن المبارك عن الثوري عن محمد بنحوه، فبرئت ذمة شريك منه.

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٣): "بسند فيه من لا يعرف".

وسكت عنه الحافظ في "الفتح" (١١/ ٣٨٧)، وليس بجيد منه.

وصححه الشيخ أحمد شاكر (١٧/ ١٣٢ رقم ٩٠٦٩)!

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧) وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه.

ثم تنبهنا لأمر وهو: أن محمدًا هذا روى عنه جمع من الثقات، ووثقه ابن حبان،

=

=

وهـو مـن أتبـاع التـابعين؛ فمثلـه يحـسن حديثـه -إن شـاء الله-، وفي "التقريـب": "مقبول"، لكن قال الذهبي عنه وعن أبيه في "المغني": "لا يعرفان".

فالعلة هي من والده؛ فقد تفرد عنه ابنه، ولـم يوثقـه إلا ابـن حبـان؛ فهـو مجهـول العين، ولعله لذلك قال الذهبي: "لا يعرف"، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

* قوله تعالى: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الواقعة: ١]، أي: "إذا قامت القيامة".

قال الطبري: يعني: "إذا نزلت صيحة القيامة، وذلك حين يُنفخ في الصور لقيام الساعة".

وفي قوله تعالى: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الواقعة: ١]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: الصيحة، قاله الضحاك.

قال مقاتل: "يعني: إذا وقعت الصيحة، وهي النفخة الأولى".

الثاني: الساعة وقعت بحق فلم تكذب، قاله السدي.

الثالث: أنها القيامة، قاله ابن عباس والحسن وابن قتيبة.

قال ابن عباس: "الواقعة والطامة والصاخة، ونحو هـذا مـن أسـماء القيامـة، عظَّمه الله، وحذره عباده".

قال ابن كثير: "الواقعة: مـن أسـماء يـوم القيامـة، سـميت بـذلك لتحقـق كونها ووجودها، كما قال: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الحاقة: ١٥]".

قوله تعالى: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} [الواقعة: ٢]، أي: "ليس لقيامها أحد يكذِّب به".

قال الطبري: " يقول تعالى: ليس لوقعة الواقعة تكذيب ولا مردودية ولا مثنوية".

وفي قوله تعالى: {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} [الواقعة: ٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: ليس لها مرد يرد، قاله ابن عباس وبه قال الفراء وابن قتيبة والزجاج.

=

=

قال الفراء:"يقول: ليس لها مردودة ولا رد، فالكاذبة -هاهنا- مصدر مثل: العاقبة، والعافية، وقَالَ لي أَبُو ثروان فِي كلامه: إن بني نمير ليس لحدهم مكذوبة، يريد: تكذيب".

قال ابن قتيبة:"أي: ليس لها مردود. يقال: حمل عليه فما كذَب؛ أي: فما رجع".

قال الزجاج:"أي: لا يردها شيء كما تقول: قَدْ حَمَلَ فُلان لا يُكَذَبُ، أي: لايرد حَمْلَته

شيء".

قال ابن كثير:"أي: ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: {اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ} [الشورى: ٤٧]، وقال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ٧٣]".

الثاني: ليس لها مثنوية، ولا رجعة، ولا ارتداد. قاله قتادة.

قال مقاتل:"يعنى: ليس لصيحتها {كاذبة} أنها كائنة ليس لها مثنوية ولا ارتداد".

وحكي الماوردي عن قتادة: "لا رجعة فيها ولا مشورة".

الثالث: معناه: لا بد أن تكون. قاله محمد بن كعب.

الرابع: ليس لها مكذب من مؤمن ولا من كافر. قاله ابن كامل.

الخامس: ليس الخبر عن وقوعها كذبًا. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ} [الواقعة: ٣]، أي:"هي خافضة لأعداء الله في النار، رافعة لأوليائه في الجنة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الواقعة حينئذ خافضة، أقواما كانوا في الدنيا، أعزّاء إلى نار الله، ورفعت أقواما كانوا في الدنيا وُضعَاء إلى رحمة الله وجنته".

=

=

وفي قوله تعالى: {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ} [الواقعة: ٣]، وجوه:

أحدها: تخفض رجالًا كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالًا كانوا في الدنيا مخفوضين، قاله ابن عباس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب.

قال ابن عباس:"تخفض ناسا وترفع آخرين".

وقال السُّدِّيّ: "خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين".

قال ابن كثير:"أي: تخفض أقواما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا في الدنيا أعزّاء. وترفع آخرين إلى أعلى علييّن، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا في الدنيا وضعاء".

وقال سهل بن عبد الله:"يعني: القيامة تخفض أقوامًا بالدعاوى، وترفع أقوامًا بالحقائق".

قال زيد بن أسلم:"نِ انخفض يومئذٍ لم يرتفع أبدًا، ومَنِ ارتفع يومئذٍ لم ينخفض أبدًا".

الثاني: أن الساعة خفضت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة، قاله عمر بن الخطاب وبه قال عثمان بن عبد الله بن سراقة واختاره ابن قتيبة.

قال الفراء:"أي: الواقعة يومئذ خافضة لقومٍ إلى النار، ورافعة لقوم إلى الجنة". ورواه عن الكلبي.

الثالث: خفضت الصوت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى، فكان القريب والبعيد من الله سواء. قاله قتادة والضحاك وعكرمة وروي نحوه عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"سمَّعت القريب والبعيد".

قال الضحاك:"خفضت فأسمعت الأدنى ورفعت فأسمعت الأقصى، فكان فيها القريب والبعيد سواء".

=

=

قال مقاتل:"{خافضة}، يقول: أسمعت القريب، ثم قال: {رافعة}، يقول: أسمعت البعيد، فكانت صيحة، يعني: فصارت صيحة واحدة، أسمعت القريب والبعيد".

الرابع: تخللت كلّ سهل وجبل، حتى أسمعت القريب والبعيد، ثم رفعت أقواما في كرامة الله، وخفضت أقواما في عذاب الله. قاله قتادة.

الخامس: «خافضة» أسمعت أهل الأرض، «ورافعة» أسمعت أهل السماء. حكاه مقاتل.

السادس: أنها خفضت بالنفخة الأولى من أماتت، ورفعت بالنفخة الثانية من أحيت. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا} [الواقعة: ٤]، أي:"إذا حُرِّكت الأرض تحريكًا شديدًا".

وفي قوله تعالى: {إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا} [الواقعة: ٤]، وجهان من التفسير:

أحدهما: رجفت وزلزلت، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ومنه قول رؤبة بن العجاج:

أَلَيسَ يَوْمٌ سُمِّيَ الخُرُوجا... أَعْظَمَ يَوْم رَجَّةً رَجُوجا؟

عن ابن عباس، قوله: " {إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا}، يقول: زلزلها".

قال قتادة:"يقول: زلزلت زلزلة".

قال الفراء:"إِذَا زلزلت حتَّى ينهدم كل بناء عَلَى وجه الأرض".

قال أبو عبيدة:"اضطربت، والسهم يرتجّ في الغرض".

قال الطبري:"إذا زلزلت الأرض فحرّكت تحريكا من قولهم: السهم يرتجّ في الغرض، بمعنى: يهتزّ ويضطرب".

قال الكلبي: "وذلك أن الله ﷻ إذا أوحى إليها اضطربت فرقا".

=

=

قال مقاتل:"يعني: رجا شدة الزلزلة لا تسكن حتى تلقى كل شيء في بطنها على ظهرها، يقول: إنها تضطرب وترتج، لأن زلزلة الدنيا لا تلبث حتى تسكن وزلزلة الآخرة لا تسكن وترنج كرج الصبي في المهد حتى ينكسر كل شيء عليها من جبل، أو مدينة، أو بناء، أو شجر، فيدخل فيها كل شيء خرج منها من شجر أو نبات، وتلقى ما فيها من الموتى، والكنوز على ظهرها".

الثاني: أنها ترج بما فيها كما يرج الغربال بما فيه، قاله الربيع بن أنس.

قال الماوردي: "فيكون تأويلها على القول الأول: أنها ترج بإماتة ما على ظهرها من الأحياء، وتأويلها على القول الثاني: أنها ترج لإخراج من في بطنها من الموتى".

وأصل «الرجّ» -في اللغة-: "التحريك. يقال: رججته فارتجّ فارتضى عنقه، ورجرجته فترجرج".

قوله تعالى: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [الواقعة: ٥]، أي:"وفُتِّتت الجبال تفتيتًا دقيقًا".

وفي قوله تعالى: {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا} [الواقعة: ٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعنى: فتتت الجبال فتا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومقاتل.

الثاني: نسفت نسفا. قاله قتادة.

الثالث: سالت سيلًا، حكاه الماوردي عن مجاهد.

الرابع: هدت هدًا، حكاه الماوردي عن عكرمة.

الخامس: قطعت قطعًا، حكاه الماوردي عن الحسن.

السادس: سيرت سيرا، حكاه الماوردي عن محمد بن كعب وأنشد قول الأغلب العجلي:

نحن بسسنا بأثر أطارًا... أضاء خمسًا ثمت سارا

السابع: إنها بست كما يبس السويق، أي: بلت، والبسيسة هي: الدقيق يلت ويتخذ

=

=

زادًا، قاله مجاهد أيضا- وإسماعيل السدي وأبو صالح وبه قال الفراء وأبو عبيدة. وأنشدا قول لص من غطفان:

لا تَخْبِزَا خَبْزًا وبُسَّا بَسَّا... مَلْسا بِذَوْدِ الحَلَسِ مَلْسا

أي: أراد أن يخبز فخاف أن يعجل عن الخبز فبلّ الدقيق فأكله عجينا.

عن مجاهد، قوله: " {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا}، قال: كما يبس السويق".

قال الفراء:"صارت كالدقيق، وذلك قوله: {وَسُيِّرَتِ الْجِبال}".

قال أبو عبيدة:"مجازها كمجاز السّويق المبسوس أي: المبلول، والعجين".

قال ابن قتيبة:"فُتِّتَتْ حتى صارت كالدقيق والسَّوِيق المَبسوس".

قال الطبري: أي: "فتتت الجبال فتا، فصارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول، كما قال جلّ ثناؤه: {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا}، و «البسيسة» -عند العرب-: الدقيق والسويق تلتّ وتتخذ زادا".

قال ابن زيد:"صارت كثيبا مهيلا كما قال الله".

قوله تعالى: {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} [الواقعة: ٦]، أي:"فصارت الجبال غبارًا متطايرًا في الجو قد ذَرَتْه الريح".

وفي قوله تعالى: {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} [الواقعة: ٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: رهج الدوابّ، قاله علي والسدي.

روي الحارث عن عليّ -رضي الله عنه- قال: رهج الدوابّ".

قال ابن قتيبة:"أي ترابًا منتشِرًا. و "الهباءُ المُنْبَثُّ": ما سطع من سنابك الخيل".

الثاني: أنه الهباء الذي يطير من النار إذا اضطرمت، يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئًا، قاله ابن عباس وعطية العوفي.

قال عطية بن سعد العَوفيّ: "الهباء: ما تطاير مِن شَرر النار".

الثالث: أنه ما يبس من ورق الشجر تذروه الريح، قاله قتادة.

=

=

قال قتادة:"كيبيس الشجر، تذروه الرياح يمينا وشمالا".

قال قتادة:"الهباء: ما تذروه الريح من حطام الشجر".

الرابع: أنها شعاع الشمس الذي دخل من الكوة كهيئة الغبار، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد.

عن ابن عباس، في قوله: " {فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}، يقول: شعاع الشمس".

قال سعيد بن جبير:"شعاع الشمس حين يدخل من الكوّة".

قال مجاهد:"شعاع الشمس يدخل من الكوّة، وليس بشيء".

قال أبو مالك:"الغبار الذي يخرج مِن الكَوّة مع شعاع الشمس".

قال الحسن:"هو الذي تراه في الشمس إذا دخَلَتْ من الكَوّة إلى البيت".

قال الحسن:"غُبارًا ذا هباء".

قال أبو عبيدة:"الهباء: الغبار الذي تراه في الشمس من الكوّة منبثّا منثورا متفرقا والهبوة من الغبار والعجاج يرى في الظل".

وقال مقاتل:"يقول: فصارت بعد القوة والشدة، عروقها في الأرض السابعة السفلى، ورأسها فوق الأرض العليا، من الخوف {هَبَاءً مُنْبَثًّا}، يعني: الغبار الذي تراه في الشمس إذا دخل من الكوة في البيت".

قال الطبري:"وأما قوله: {مُنْبَثًّا}، فإنه يعني: متفرّقا".

قال ابن كثير:"وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها- أي قلعها- وصيرورتها كالعهن المنفوش".

قوله تعالى: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً} [الواقعة: ٧]

قال الطبري: يقول:"وكنتم أيها الناس أنواعا ثلاثة وضروبا".

قال الفراء:"ثُمَّ فسرهم فقال: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}.. {وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}.. {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، فهذا

=

=

الصنف الثالث".

عن قتادة: " {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً}، قال: منازل الناس يوم القيامة".

قال مجاهد:"يعني: فرقا ثلاثة".

وقال ميمون بن مِهْران: "أفواجا ثلاثة".

عن ابن عباس، قوله: " {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً}، قال: أصنافا".

عن ابن عباس، قوله: " {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً}، قال: هي التي في سورة «فاطر»: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَات} [فاطر: ٣٢]".

قال ابن كثير:"أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السُّدِّيّ: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار- عياذًا بالله من صنيعهم- وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم في قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ} الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين في الظالم لنفسه".

قوله تعالى: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [الواقعة: ٨]، أي:"فأصحاب اليمين، أهل المنزلة العالية، ما أعظم مكانتهم!!".

=

=

قال مقاتل:"يقول: ما لأصحاب اليمين من الخير والكرامة في الجنة".

قال ابن قتيبة:"على التعجب. كأنه قال: أيُّ شيء هم؟!، ويقال في الكلام: زيدٌ ما زَيدٌ!، أيْ: أيُّ رجل هو".

قال الفراء:"عجّب نبيّه منهم فَقَالَ: ما أصحاب الميمنة؟ أي: شيء هُمْ؟ وهم أصحاب اليمين".

قال الطبري:"وهذا بيان من الله عن الأزواج الثلاثة.. يعجِّب نبيه محمدا منهم، وقال: {مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، أيّ شيء أصحاب اليمين".

قال الزجاج:"هم أصحاب المنزلة الرفيعة".

عن قتادة، قوله: " {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}، أي: ماذا لهم، وماذا أعد لهم".

وفي قوله تعالى: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} [الواقعة: ٨]، وجوه:

أحدها: أن أصحاب الميمنة الذين أخذوا من شق آدم الأيمن، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر، قاله زيد بن أسلم.

الثاني: أن أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بيساره، قاله عطاء ومحمد بن كعب.

وعن الضحاك:"{فَأَصْحابُ المَيْمَنَةِ ما أصْحابُ المَيْمَنَةِ} هم الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم".

الثالث: أن أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات، قاله ابن جريج.

الرابع: أن أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم، قاله الحسن والربيع.

=

=

عن الحسن، و والربيع بن أنس: " {فَأَصْحابُ المَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ المَيْمَنَةِ} هم الذين كانوا ميامين مُباركين على أنفسهم، وكانت أعمارهم في طاعة الله- ﷻ -، وهم التابعون بإحسان".

الخامس: أن أصحاب الميمنة أهل الجنة، وأصحاب المشأمة أهل النار، قاله السدي.

السادس: أن أصحاب الميمنة أصحاب التقدم، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر. والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي: اجعلني من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين. قاله المبرد.

عن أنس بن مالك، قال: «كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: " فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ﷺ، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا، قال جبريل: لخازن السماء افتح، قال: من هذا؟ قال هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا، فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بي إلى السماء الثانية... الحديث.

قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} [الواقعة: ٩]، أي:"وأصحاب الشمال، أهل المنزلة الدنيئة، ما أسوأ حالهم!!".

قال مقاتل:"يقول: ما لأصحاب المشأمة من الشر في جهنم".

=

=

قال الفراء:"عجبه أيضا منهم، وهم أصحاب الشمال".

قاب الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأصحاب الشمال الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تسمي اليد اليسرى: الشؤمي؛ ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

فأنْحَى على شُؤْمَي يَدَيه فَذادَها... بأظْمأَ مِنْ فَرْعِ الذُّوَابَةِ أسْحَما".

قال الزجاج:"«أصحاب الشمال» هم أصحاب المنزلة الدنيئة الخسيسة".

قال ابن قتيبة:"والعرب تسمِّي اليدَ اليسرى: الشُّؤمَى؛ والجانبَ الأيسر: الجانبَ الأَشْأَمَ. ومنه قيل: اليُمْن والشُّؤم. فاليُمن: كأنه ما جاء عن اليمين؛ والشُّؤم: ما جاء عن الشمال. ومنه سميت: اليَمَنُ، والشَّأم".

عن قتادة، قوله: " {وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}، أي: ماذا لهم وماذا أعد لهم".

عن الحسن، عن معاذ بن جبل: "أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: {أَصْحَابُ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٢٧]، {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ} [الواقعة: ٤١]ـ فقبض بيديه قبضتين فقال: «هذه في الجنة ولا أبالي وهذه في النار ولا أبالي»".

قال القرطبي:"والتكرير في: {ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ}. و {ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ} للتفخيم والتعجيب، كقوله: {الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ} [الحاقة: ١ - ٢]، و {الْقَارِعَةُ {مَا الْقَارِعَةُ} [القارعة: ١ - ٢]، كما يقال: زيد ما زيد! وفي حديث أم زرع رضي الله عنها: مالك وما مالك! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب".

قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة:]، أي:"والسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الآخرة".

قال الفراء:"فهذا الصنف الثالث".

قال الزمخشري:"قيل: الناس ثلاثة فرجل ابتكر الخير في حداثة سنه، ثم داوم عليه

=

=

حتى خرج من الدنيا، فهذا السابق المقرّب، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة، ثم تراجع بتوبة، فهذا صاحب اليمين، ورجل ابتكر الشر في حداثة سنه، ثم يزل عليه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب الشمال".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة:]، وجوه:

أحدها: أنهم الأنبياء، قاله محمد بن كعب.

الثاني: أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة، قاله الحسن وقتادة.

عن قتادة، قوله: " {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، أي: من كل أمة".

عن الحسن، في قوله: " {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}... إلى {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ}، فقال رسول الله ﷺ سوى بين أصحاب اليمين من الأمم السابقة، وبين أصحاب اليمين من هذه الأمة، وكان السابقون من الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة".

قال الزمخشري:" {وَالسَّابِقُونَ}: المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار في طلب مرضاة الله ﷻ".

الثالث: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين، قاله ابن سيرين.

الرابع: هم أول الناس رواحًا إلى المساجد وأسرعهم خفوقًا في سبيل الله، قاله عثمان بن أبي سودة.

عثمان بن أبي سَوَدة مولى عبادة بن الصامت -من طريق أبي عمرو- قال: "بلغنا في هذه الآية: {والسّابِقُونَ السّابِقُونَ} أنهم السابقون إلى المساجد والخروج في سبيل الله".

الخامس: أنهم السابقون إلى الصلوات الخمس. قاله علي -رضي الله عنه-.

السادس: أنهم السابقون إلى الجهاد. قاله الضحاك.

=

=

السابع: أنهم السابقون إلى التوبة وأعمال البر، قال الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَ} [آل عمران: ١٣٣]. وهذا قول سعيد بن جبير.

عن عبد الله بن شُمَيط، قال: سمعت أبي يقول: "الناس ثلاثة: فرجل ابتكر الخير في حَداثة سِنّه ثم داوم عليه حتى خرج عن الدنيا فهذا السابق المقرب، ورجل ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة حتى ختم له بهذا فهو من أصحاب اليمين، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى حتى ختم له بهذا فهذا من أصحاب الشمال".

الثامن: أنهم ثلاثة: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل يس، سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- سبق إلى رسول الله ﷺ-وفي رواية" وسابقان من أمة محمد-ﷺ- وهما: أبو بكر وعمر" -. قاله ابن عباس.

وقال مقاتل:"منهم أبو بكر وعلي- -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- هم {السابقون} إلى الإيمان بالله ورسوله من كل أمة، هم السابقون إلى الجنة".

التاسع: أنهم الذي أسلموا بمكة قبل هجرة النبي- ﷺ- وبالمدينة قبل هجرته إليهم، لأنهم سبقوا بالإسلام قبل زمان الرغبة والرهبة. أفاده الماوردي.

العاشر: أن السابق: هو الذي يكون العلم غالبا للهوى. قاله ابن زيد.

الحادي عشر: ما روي النعمان بن بشير، قال: "قال رسول الله ﷺ {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧]، قال: «الضرباء، كل رجل مع قوم كانوا يعملون بعمله، وذلك بأن الله تعالى يقول: {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} [الواقعة: ٧- ١٠]، قال: هم الضرباء". وهو حديث ضعيف.

الثاني عشر: أنهم السابقون "إلى كلّ خير". قاله محمد بن كعب القُرَظيّ.

الثالث عشر: أن السابقين: أصحاب النبي- ﷺ -، وأصحاب الأنبياء. قاله

=

=

الحسن.

عن آدم بن عبد الله الخَثْعميّ، قال: "سألتُ زيد بن علي عن قول الله- ﷻ -: {والسابقون السابقون أولئك المقربون} مَن هؤلاء؟ قال: أبو بكر، وعمر. ثم قال: لا أنالني اللهُ شفاعةَ جدّي إن لم أُوالِهما".

الرابع عشر: أنهم أهل القرآن، وهم المتوَّجُون يوم القيامة. قاله كعب الأحبار.

الخامس عشر: أنهم المهاجرون، وكل من سبق إلى نبي من الأنبياء. قاله الفراء.

وقال الطبري:"وهم الزوج الثالث وهم الذين سبقوا إلى الإيمان بالله ورسوله، وهم المهاجرون الأوّلون".

قال الزجاج:"معناه: السابقون إلى طاعة الله ﷻ والتصديق بأنبيائه".

قال ابن كثير-بعد أن ذكر طرفا من الأقوال السابقة-:"وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ} [آل عمران: ١٣٣]، وقال: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأرْضِ} [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}".

عن عبد الله بن عمرو قال:"قالت الملائكة: يا رب، جعلت لبني آدم الدنيا فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: لا أفعل. فراجعوا ثلاثا، فقال: لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له: كن، فكان. ثم قرأ عبد الله: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}".

عن عثمان بن عبد الله بن سُراقة، قوله: " {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً}، قال: اثنان في الجنة وواحد في النار، يقول: الحور العين للسابقين، والعُرُب الأتراب".

=

=

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ١١]، أي:"أولئك هم المقربون عند الله".

قال الواحدي:"إلى كرامة الله".

قال مقاتل: أي:"عند الله- تعالى- في الدرجات والفضائل".

قال أبو سليمان الدمشقي: "يعني: عند الله في ظلّ عرشه وجواره".

قال ابن عباس:"هم أقرب الناس مِن دار الرحمن مِن بُطنان الجنة، وبُطنانها: وسطها، {فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ}".

عن عُرْوة بن الزّبير -من طريق سعد بن إبراهيم- قال:"كان يقال: تقدّموا تقدّموا".

قال سهل:"إن الله تعالى مدح أمته فقال: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ١٠- ١١] ولم يقل القريبون، وعلامات المقرب واضحات من هذه الأمة، فالقريب وجد من الله المنة والكرامة،

والبعيد وجد من الله العذاب والعقوبة، والمعبد وجد من الله الحجاب والقطيعة، والمقرب وجد من الله اللقاء والزيارة".

قوله تعالى: {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [الواقعة: ١٢]، أي:"يُدْخلهم ربهم في جنات النعيم".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

قال مالك بن دينار: " جنات النعيم بين جنان الفردوس وبين جنات عدن، وفيها جواري خلقن من ورد الجنة، قيل: فمن يسكنها؟ قال: الذين عملوا بالمعاصي فلما ذكروا عظمتي راقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت

=

=

عنهم العذاب".

قوله تعالى: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ} [الواقعة: ١٣]، أي:"يدخلها جماعة كثيرة من صدر هذه الأمة، وغيرهم من الأمم الأخرى".

وفي معنى قوله تعالى: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ} [الواقعة: ١٣]، وجوه:

أحدها: أنهم الجماعة، ذكره أبو عبيدة. وبه قال الطبري والزجاج ومنه قول الشاعر:

ولست ذليلًا في العشيرة كلها... تحاول منها ثلة لا يسودها

قال الزجاج:"الثُّلَّة: الجماعَة".

قال مقاتل:"يعنى: جمعا من الأولين".

الثاني: يعني: أمة. قاله مجاهد.

الثالث: الشطر، وهو النصف، قاله الضحاك.

الرابع: أنها الفئة، قاله أبو عبيدة. ومنه قول دريد بن الصمة:

ذريني أسير في البلاد لعلني... ألاقي لبشر ثلة من محارب

الخامس: بقية. ذكره أبو عبيدة.

قال أبو عبيدة: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِين}، " تجئ جماعة وأمة وتجئ بقيّة".

وفي تفسير قوله تعالى: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ} [الواقعة: ١٣]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أصحاب محمد -ﷺ-، قاله أبو بكرة.

الثاني: أنهم قوم نوح، قاله الحسن.

الثالث: يعنى: سابقي الأمم الخالية، وهم الذين عاينوا الأنبياء- عليهم السلام- فلم يشكوا فيهم طرفة عين فهم السابقون. قاله مقاتل والطبري والزجاج.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: جماعة من الأمم الماضية".

قال الزجاج:"أي: جماعة ممن عاين الأنبياء وصدق بِهِمْ، فالذين عاينوا جميع النبيين وصدَّقوا بِهِم أكثر ممن عاين النبي عليه السلام، وذلك قوله في قصة يونس:

=

=

{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨)} [يونس: ١٤٧ - ١٤٨]، هَؤلاء سوى سائر من آمن بجميع الأنبياء ممن عاينهم وصَدَّقَهُم، ويجوز أن يكون الثُّلَّة بمعنى: قليل من الأولين وقليل من الآخرين، لأن اشتقاق «الثلة» من: القطعة، و «الثل» الكسر والقطع، و «الثُّلَّة» نحو: الفئة والفرقة".

قوله تعالى: {وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة: ١٤]، أي:"وقليل من آخر هذه الأمة".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة: ١٤]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أصحاب محمد -ﷺ-، قاله الحسن.

عن السُّرِّيّ بن يحيى، قال: "قرأ الحسن: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ} ثلة ممن مضى من هذه الأمة".

عن محمد بن سيرين: أنه قال في هذه الآية: {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ} قال: "كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة".

قال ابن كثير:"فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»-الحديث بتمامه".

عن مجاهد، والضحاك، وعطاء بن أبي رباح، قالوا: " {ثُلَّةٌ مِنَ الأوَّلِينَ} مِن سابقي هذه الأُمّة، {وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ} مِن آخر هذه الأُمّة في آخر الزمان".

عن محمد بن سيرين: {ثلة من الأولين وثلة من الآخرين} [الواقعة: ٤٠] قال: " كانوا يقولون: كلهم من هذه الأمة". وفي رواية: "كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة".

=

=

عن مجاهد:"{ثلة من الأولين وثلة من الآخرين}، قال: مثل قوله: {فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات} [فاطر: ٣٢]".

عن ميمون بن مهران، في قوله: " {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ}، قال: كثير من الأوّلين، وكثير من الآخرين".

عن معمر، عن قتادة، أنه بلغه أن النبي ﷺ قال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟» قالوا: نعم، قال: «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قالوا: نعم، قال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، ثم تلا قتادة {ثلة من الأولين وثلة من الآخرين} [الواقعة: ٤٠]".

الثاني: أنهم الذين تقدم إسلامهم قبل أن يتكاملوا. حكاه الماوردي.

الثالث: يعني: أمة محمد- ﷺ-، فهم أقل من سابقي الأمم الخالية. قاله مقاتل والطبري.

قال الطبري:"قيل لهم الآخرون: لأنهم آخر الأمم".

قال ابن كثير:"وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام، هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ}، أي: من صدر هذه الأمة، {وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ}، أي: من هذه الأمة".

قوله تعالى: {عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ} [الواقعة: ١٥]، أي:"على سرر منسوجة بالذهب".

قال الطبري:"يقول: فوق سُرر منسوجة، قد أدخل بعضها في بعض، كما يوضن حلق الدرع بعضها فوق بعض مضاعفة؛ ومنه قول الأعشى:

=

=

وَمِنْ نَسْجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةً... تُساقُ مَعَ الحَيّ عِيرًا فعِيْرًا

ومنه وضين الناقة، وهو البطان من السيور إذا نسج بعضه على بعض مضاعفا كالحلق حلق الدرع".

وفي قوله تعالى: {مَوْضُونَةٍ} [الواقعة: ١٥]، وجوه:

أحدها: أنها المنسوجة بالذهب، قاله ابن عباس ومجاهد.

قال مجاهد:"الموضونة: المرملة بالذهب".

قال ابن عباس:"مرمولة بالذهب".

قال ابن عباس:"يعني الأسرة المرملة".

وقال قتادة:"الموضونة: المرمولة، وهى أوثر السرر".

عن أبي هلال، في قوله: {مَوْضُونَةٍ}، قال:"مرمولة".

قال معمر:"مرملة مشبكة".

قال ابن زيد:"الموضونة: المرمولة بالجلد، ذاك الوضين منسوجة".

وقال السُّدِّيّ: "مرمولة بالذهب واللؤلؤ".

الثاني: أنها المشبكة النسج، قاله الضحاك ومنه قول لبيد:

إن يفزعوا فسرا مع موضونة... والبيض تبرق كالكواكب لامها

قال الضحاك:"الوضن: التشبيك والنسج، يقول: وسطها مشبك منسوج".

وقال عكرمة:"مشبكة بالدّر والياقوت".

قال مقاتل:"يعني: بـ «الموضون»: السرر وتشبكها مشبكة أوساطها بقضبان الدر والياقوت والزبرجد".

قال الفراء:"موضونة: منسوجة، وإنما سمت العرب: وضين الناقة وضينا، لأنه منسوج، وَقَدْ سمعت بعض العرب يَقُولُ: فإذا الآجر موضون بعضه عَلَى بعض يريد: مُشْرَج، قَالَ الفراء: الوضين: الحِزام".

=

=

قال أبو عبيدة:"{مَوْضُونَةٍ}: بعضها على بعض مداخلة كما توضن كحلق الدرع بعضها فى بعض مضاعفة".

الثالث: أنها المصفوفة. قاله ابن عباس -أيضا-.

الرابع: أنها المضفورة، قاله أبو حرزة يعقوب بن مجاهد.

ومنه: "وضين الناقة. وهو البطان العريض المضفور من السيور".

الخامس: أنها المسندة بعضها إلى بعض. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} [الواقعة: ١٦]، أي:"متكئين عليها يقابل بعضهم بعضًا".

قال مجاهد:"لا ينظر أحدُهم في قفا صاحبه".

قال ابن عباس:"ينظر الرجل منهم في قفا صاحبه، يقول: حِلقًا حِلقًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره متكئين على السُّرر الموضونة، متقابلين بوجوههم، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض".

قال ابن كثير:"أي: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد".

قال الزجاج:"معنى {متقابلين}: ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ولا ينظر في أقفاء بعض. وصفوا مع نعمهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق، وصفاء المودة ومن ذلك قوله ﷻ: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧]".

قوله تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} [الواقعة: ١٧]، أي:"يطوف عليهم لخدمتهم غلمان لا يهرمون ولا يموتون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يطوف على هؤلاء السابقين الذين قرّبهم الله في جنات النعيم، ولدان على سنّ واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون".

قال ابن قتيبة:"أي: يَطُوفون عليهم في الخدمة".

=

=

وفي قوله تعالى: {مُخَلَّدُونَ} [الواقعة: ١٧]، أقوال:

أحدها: مسورون بالأسورة. روي عن أبي عبيدة. وحكاه الفراء. وابن قتيبة.

الثاني: مُقَرَّطون بالأقراط، حكاه الفراء-أيضا-. وابن قتيبة. وأنشد الأخير فيه قول الشاعر:

ومُخَلَّداتٌ باللُّجَيْنِ كأَنَّمَا... أَعْجَازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبانِ

وقال الزجاجي: "محلَّون".

الثالث: أنهم الباقون على صغرهم لا يموتون ولا يكبرون ولا يتغيرون، قاله الحسن. ومجاهد. ومنه قول امرئ القيس:

وهَلْ ينعمَنْ إلا سعيدٌ مُخلدٌ... قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوْجالِ

قال مقاتل:"يعني: غلمان لا يكبرون، {مخلدون}، لا يموتون".

قال أبو عبيدة:"من الخلد، أي: لا يهرمون يبقون على حالهم لا يتغيرون ولا يكبرون".

قال الفراء:"يُقال: إنهم عَلَى سن واحدة لا يتغيرون، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلّد، وإذا لم تذهب أسنانه عَنِ الكبر قيل أيضًا: إنه لمخلد".

قال ابن كثير:"أي: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون".

الرابع: أنهم الباقون معهم لا يبصرون عليهم ولا ينصرفون عنهم بخلافهم في الدنيا. أفاده الماوردي.

الخامس: أنهم مبقون أبدا على شكل الولدان وحدّ الوصافة، لا يتحوّلون عنه. قاله الزجاج. وبه قال الزمخشري.

قال الطبري:"والذي هو أولى بالصواب في ذلك قول من قال معناه: إنهم لا يتغيرون، ولا يموتون، لأن ذلك أظهر معنييه، والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم

=

=

يشمط: إنه لمخلد، وإنما هو مفعل من الخلد".

وروي عن على -رضى الله عنه- وعن الحسن:"أنهم أولاد أهل الدنيا: لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها، ولا سيئات فيعاقبوا عليها".

عن سمرة بن جندب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،" أن رسول الله ﷺ سئل عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة»".

عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ قال: «أولاد المشركين خدم أهل الجنة».

عن أنس بن مالك- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله- ﷺ -: " أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة".

قوله تعالى: {بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ} [الواقعة: ١٨]، أي:"بأقداح وأباريق".

قال ابن الجوزي:"قرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي قال: الإبريق: فارسيّ معرَّب، وترجمتُه من الفارسية أحدُ شيئين: إمّا أن يكون: طريقَ الماء، أو: صبَّ الماءِ على هينة، وقد تكلمتْ به العربُ قديمًا، قال عديُّ بن زيد:

ودَعَا بالصَّبُوحِ يومًا فجاءتْ... قينة في يمينها إبريق".

وفي قوله تعالى: {بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ} [الواقعة: ١٨]، قولان:

أحدهما: أن الأكواب: التي ليس لها عُرى، وأما الأباريق: فهي التي لها عرى. قاله الضحاك وانشد قول الأعشى:

صَرِيفيَّةٌ طَيِّبٌ طَعْمُها... لَهَا زَبَدٌ بَينَ كُوب ودَنٌ

قال مجاهد:"الأباريق: ما كان لها آذان، والأكواب ما ليس لها آذان". وفي رواية:"ليس لها عرى ولا آذان".

قال قتادة:"الأكواب التي دون الأباريق ليس لها عُرًى".

عن السدي: " {وَأَكْوَابٍ}، قال: الأكواب التي ليست لها آذان".

عن ابن إدريس، قال: "سمعت أبي، قال: مر أبو صالح صاحب الكلبي قال: فقال

=

=

أبي، قال لي الحسن وأنا جالس: سله، فقلت: ما الأكواب؟ قال: جرار الفضة المستديرة أفواهها، والأباريق ذوات الخراطيم".

قال ابن عباس:"الأكواب: الجرار من الفضة".

عن أبي رجاء، قال: سئل الحسن عن الأكواب، قال: هي الأباريق التي يصبّ لهم منها".

قال الفراء:"الكوب: ما لا أذن لَهُ ولا عروة لَهُ. والأباريق: ذوات الآذان والعرا".

قال أبو عبيدة: {بِأَكْوابٍ}،" واحدها: كوب. وهو الذي لا خرطوم له من الأباريق واسع الرأس".

قال ابن قتيبة:"«الأكواب»: الأباريق لا عُرى لها؛ ويقال: ولا خراطيمَ. واحدها: «كُوب»".

وقال ابن فارسٍ: "الكافُ والواوُ والباءُ: كلمةٌ واحدةٌ، وهي الكوبُ: القَدَحُ لا عُروَةَ له، والجمعُ: أكوابٌ، قال تعالى: {وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ} [الغاشية: ١٤]".

قال مقاتل:"بأيدي الغلمان أكواب، يعني: الأكواب العظام من فضة المدورة الرؤوس ليس لها عرى ولا خراطيم، وأباريق من فضة في صفاء القوارير، فذلك قوله في: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَان} [الإنسان: ١]... {كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّة} [الإنسان: ١٥- ١٦]".

الثاني: أن الأكواب: مدورة الأفواه، والأباريق: التي يغترف بها. قاله قتادة ـ ومنه قول الشاعر:

فعدوا عليّ بقرقف... ينصب من أكوابها

قال قتادة:"الأكواب: التي يغترف بها ليس لها خراطيم، وهي أصغر من الأباريق".

قال ابن كثير:"أما الأكواب فهي: الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التي جمعت الوصفين".

=

=

قوله تعالى: {وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ} [الواقعة: ١٨]، أي:"وكأس من عين خمر جارية في الجنة".

قال الطبري:"وكأس خمر من شراب معين، ظاهر العيون، جار".

قال ابن كثير:"والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية مَعِين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة".

قال أبو عبيدة:"المعين: الماء الطاهر".

قال مقاتل:"كل معين في القرآن فهو جار غير الذي في «تبارك الذي بيده الملك»: يعنى به زمزم، {إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} [الملك: ٣٠]، يعنى: ظاهرا تناله الدلاء، وكل شيء في القرآن كأس فهو الخمر".

عن ابن عباس، قوله: {وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ}، قال: الخمر".

قال الضحاك:"الكأس: الخمر".

قال قتادة:"أي: من خمر جارية".

قوله تعالى: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ} [الواقعة: ١٩]، أي:"لا تُصَدَّعُ منها رؤوسهم، ولا تذهب بعقولهم".

وفي قوله تعالى: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا} [الواقعة: ١٩]، وجوه:

أحدها: معناه: لا يمنعون منها، قاله أبو حرزة يعقوب بن مجاهد.

الثاني: لا يفرّقون عنها، من قولك: صدَّعْتُه فانْصَدَع. حكاه ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"لا أراه إلا من: الصُّداع الذي يعتري شرابَ الخمر في الدنيا؛ لقول النبي ﷺ -في وصف الجنة-: «وأنهار من كأسٍ ما إنْ بها صُدَاعٌ ولا ندامةٌ» ".

الثالث: لا ينالهم من شربها وجع الرأس وهو الصداع، قاله سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي وعطية وأبو عبيدة والطبري وهذا قول الجمهور.

=

=

قال الطبري:"يقول: لا تصدع رءوسهم عن شربها فتسكر".

قال ابن كثير:"أي: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة".

وروى الضحاك، عن ابن عباس، أنه قال: "في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال".

وفي قوله تعالى: {وَلَا يُنْزِفُونَ} [الواقعة: ١٩]، وجوه:

أحدها: لا تنزف عقولهم فيسكرون، قاله سعيد بن جبير ـ ومجاهد ـ وقتادة ـ والضحاك والقرظي ـ وبه قال الفراء ـ وأبو عبيدة.

قال سعيد بن جبير، وقتادة:"لا يغلب أحد على عقله".

قال الفراء:"يقال للرجل إذا سكر: قَدْ نُزِف عقله، وإذا ذهب دمه وغشى عَلَيْهِ أَوْ مات قيل: منزوف".

الثاني: لا يملون، قاله عكرمة.

قال عكرمة:"أهل الجنة يأكلون ويشربون، ولا يُنزَفون كما يُنزَف أهل الدنيا إذا أكثروا الطعام والشراب. يقول: لا يَملّوا".

الثالث: لا يتقيؤون، قاله يحيى بن وثاب.

الرابع: -وهو تفسير من قرأ بكسر الزاي- لا يفنى خمرهم. ذكره الفراء ـ ومنه قول الأبيرد:

لَعَمْري لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ... لبِئْسَ النَّدامى أنتمُ آلَ أَبْجرا

قال الفراء:"والعرب تقول للقوم إذا فنى زادهم: قَدْ أَنْزَفُوا وأقتروا، وأنفضوا، وأرمَلوا، وأملقوا".

وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: "في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، وقد ذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال".

=

قوله تعالى: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ} [الواقعة: ٢٠]، أي:"ويطوف عليهم الغلمان بما يتخيرون من الفواكه".

قال الطبري: يقول: "ويطوف هؤلاء الولدان المخلدون على هؤلاء السابقين بفاكهة من الفواكه التي يتخيرونها من الجنة لأنفسهم، وتشتهيها نفوسهم".

قال مقاتل:"يعني: يختارون من ألوان الفاكهة".

عن ابن عباس: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ} " يقول: مما يشتهون".

قال ابن كثير:"أي: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار. وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها.

قوله تعالى: {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ} [الواقعة: ٢١]، أي:"وبلحم طير ممَّا ترغب فيه نفوسهم".

قال الطبري: " يقول: ويطوفون أيضا عليهم بلحم طير مما يشتهون من الطير الذي تشتهيه نفوسهم".

قال مقاتل:"إن شاءوا شواء، وإن شاءوا قديدا، كل طير ينعت نفسه لولى الله- تعالى".

قال ابن عباس:"يخْطر على قلبه لحمُ الطير، فيصير مُمثّلًا بين يديه على ما اشتهى".

قال الحسن:"لا يشتهي منها شيئًا إلا صار بين يديه، فيصيب منه حاجته، ثم يطير فيذهب.

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن طير الجنة كأمثال البخت، يرعى في شجر الجنة". فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة فقال: "أكلتها أنعم منها- قالها ثلاثا- وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها".

وقال قتادة في قوله: {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}: "ذكر لنا أن أبا بكر قال: يا رسول

=

الله، إني أرى طيرها ناعمة كما أهلها ناعمون. قال: "من يأكلها- والله يا أبا بكر- أنعم منها، وإنها لأمثال البخت، وإني لأحتسب على الله أن تأكل منها يا أبا بكر".

عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: "نهر أعطانيه ربي، ﷻ، في الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعني كأعناق الجزر". فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: "آكلها أنعم منها".

عن كعب الأحبار قال: "إن طائر الجنة أمثال البخت، يأكل مما خلق من ثمرات الجنة، ويشرب من أنهار الجنة، فيصطففن له، فإذا اشتهى منها شيئا أتاه حتى يقع بين يديه، فيأكل من خارجه وداخله ثم يطير لم ينقص منه شيء".

قوله تعالى: {وَحُورٌ عِينٌ} [الواقعة: ٢٢]، أي:"ولهم نساء ذوات عيون واسعة".

قال ابن عباس:"الحُور: سُود الحَدَق".

عن مجاهد: " {وَحُورٌ عِينٌ}، قال: يحار فيهنّ الطرف.

قال مجاهد:"خلق الحُور العين من الزعفران".

وقال الحسن البصري:"الحُور: صوالح نساء بني آدم".

عن ليث بن أبي سليم، قال: "بلغني أن الحور العين خُلقن من الزعفران".

وفي «العين»، وجهان:

أحدهما: أنهن بيض عين، عظام الأعين، قاله الضحاك قال الشاعر:

إذا كبرت عيون من النساء... ومن غير النساء فهن عين

الثاني: أنهن اللاتي سواد أعينهن حالك، وبياض أعينهن نقي، وهو معنى قول الحسن كما قال الشاعر:

إذا ما العين كان بها احورار... علامتها البياض على السواد

قال الحسن:"شديدة السواد: سواد العين، شديدة البياض: بياض العين".

وقال مقاتل:"يعني: البيضاء العيناء حسان الأعين".

=

وقوله: {وَحُورٌ عِينٌ} قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ}، كَمَا قَالَ {وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ} [المائدة: ٦]، وكما قال: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ} [الإنسان: ٢١].

الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك في القصور، لا بين بعضهم بعضا، بل في الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين.

قوله تعالى: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة: ٢٣]، أي:"كأمثال اللؤلؤ المصون في أصدافه صفاءً وجمالا".

وفي قوله تعالى: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} [الواقعة: ٢٣]، وجهان:

أحدهما: معناه: هنّ في صفاء بياضهنّ وحسنهن، كاللؤلؤ المكنون الذي قد صين في كِنٍّ. به قال الطبري.

عن أمّ سلمة قالت: "قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، قال: «صفاؤُهُن كَصَفاء الدُّرّ الَّذي فِي الأصْدَافِ الَّذي لا تَمُسُّهُ الأيْدي»".

قال ابن كثير:"أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه".

قال مقاتل:"فشبههم في الكنّ كأمثال اللؤلؤ المكنون في الصدف المطبق عليه، لم تمسه الأيدي، ولم تره الأعين، ولم يخطر على قلب بشر، كأحسن ما يكون".

الثاني: أنهن كأمثال اللؤلؤ في تشاكل أجسادهن في الحسن من جميع جوانبهن، =

=

حكاه الماوردي وأنشد قول الشاعر:

كَأَنَّمَا خُلِقَتْ فِي قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ... فَكُلُّ أَكْنَافِهَا وَجْهٌ لِمِرْصَادِ

قوله تعالى: {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الواقعة: ٢٤]، أي:"جزاء لهم بما كانوا يعملون من الصالحات في الدنيا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ثوابا لهم من الله بأعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، وعوضا من طاعتهم إياه".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي اتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل".

قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا} [الواقعة: ٢٦]، أي:"لا يسمعون في الجنة باطلا ولا ما يتأثمون بسماعه".

قال الطبري:"يقول: لا يسمعون فيها باطلا من القول ولا تأثيما، يقول: ليس فيها ما يُؤثمهم".

قال ابن كثير:"أي: لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيا، أي: غثا خاليا عن المعنى، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف، كما قال: {لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً} [الغاشية: ١١]، أي: كلمة لاغية {وَلا تَأْثِيمًا}، أي: ولا كلامًا فيه قبح".

وفي قوله تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا} [الواقعة: ٢٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: لا يسمعون فيها خُلفًا، أي: لا يتخالفون عليها كما يتخالفون في الدنيا، ولا يأثمون بشربها، كما يأثمون في الدنيا، قاله الضحاك.

الثاني: لا يسمعون فيها شتمًا ولا مأثمًا، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لا يَسْتَبُّون".

الثالث: لا يسمعون مانعًا لهم منها، ولا مشنعًا لهم على شربها. حكاه الماوردي.

الرابع: لا يسمعون في الجنة باطلًا ولا كذبًا، قاله ابن عباس ومجاهد-أيضا-.

=

=

عن مجاهد:"{لغوا}، باطلًا، {تأثيما}: كذبًا".

وقال الضحاك:"{لَغْوًا}، قال: الهذْرُ من القول، والتأثيم الكذب".

قال السمعاني:"أي: كلاما باطلا، وكلاما يأثم به قائله، واللغو كل ما يلغى".

قال ابن عطية:"اللغو: سقط القول من فحش وغيره. والتأثيم: مصدر، بمعنى: لا يؤثم أحد هناك غيره ولا نفسه بقول. فكان يسمع ويتألم بسماعه".

قوله تعالى: {إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: ٢٦]، أي:"إلا قولا سالمًا من هذه العيوب، وتسليم بعضهم على بعض".

قال الطبري: أي: " ولكنهم يسمعون سلاما سلاما".

قال عطاء:"يُحيي بعضهم بعضًا بالسلام".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: ٢٦]، وجوه:

أحدها: لكن يسمعون قولًا سارًا وكلامًا حسنًا.

الثاني: يريد: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام. رواه عطاء عن ابن عباس.

قال ابن كثير:"أي: إلا التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال: {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ} [إبراهيم: ٢٣] وكلامهم أيضًا سالم من اللغو والإثم".

وحكي الماوردي:"لكن يتداعون بالسلام على حسن الأدب وكريم الأخلاق".

قال الماوردي:"معناه: إلا قولهم السلام بعد السلام، والتحية بعد التحية".

الثالث: يعني: قولًا يؤدي إلى السلامة.

الرابع: أن يقال لهم: هنيئًا. أفاده الماوردي.

الخامس: إلا خيرا خيرا. حكاه ابن أبي زمنين وقال:"المعنى على هذا التفسير: لا يسمعون فيها إلا قيلا يسلم فيه من اللغو والإثم".

الخامس: يعني: كثرة السلام من الملائكة، ومنه قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار} [الرعد: ٢٣-

=

=

٢٤]. قاله مقاتل.

قال الزجاج:"{قِيلًا}، منصوب بقوله: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: ٢٥- ٢٦]. فالمعنى: لا يسمعون إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا، مَنصوبٌ من جهتين:

إحداهما: أن يكون من نعت لـ {قِيلًا}، فيكون المعنى: لا يَسْمَعون إلا قيلًا يسلم فيه من اللغو والإِثم.

والوجه الثاني: أن يكونَ {سَلاَمًا} منصوبًا على المصدر، فيكون المعنى: لا يسمعون فيها إلا أن يَقولَ بعضهُم لبعض: سَلَامًا سَلَامًا. ودليل هذا قوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ}".

قال الواحدي:"فالمفسرون: جعلوا السلام هاهنا بمعنى التحية والوجه ما قال الزجاج من أن المراد بالسلام أن قولهم يسلم من اللغو، ويدل على ذلك أن مسموع أهل الجنة لا يكون مقصورًا على التحية فقط، بل يسمعون غيرها مما لا لغو فيه ولا تأثيم".

قال العثيمين: قوله تعالى: {إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة إذا رجت الأَرض رجًا} حذف الله جواب الشرط في هذه الآيات من أجل أن يذهب الذهن في تقديره كل مذهب، يعني إذا وقعت الواقعة صارت الأهوال العظيمة، وصار انقسام الناس، وحصل ما حصل مما أخبر به الله ورسوله مما يكون في يوم القيامة، وقوله: {إذا وقعت الواقعة} كقوله: {الحاقة ما الحآقة} والمراد بذلك يوم القيامة {ليس لوقعتها كاذبة} أي: ليست لوقعتها كذب، بل وقعتها حق ولابد، والإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأله عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره» وكثيرًا ما يقرن الله

=

=

الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر، لأن الإيمان باليوم الآخر يحدو بالإنسان أن يعمل العمل الصالح، وأن يبتعد عن العمل السيء لأنه يؤمن أن هناك يومًا آخر يجازى فيه الإنسان المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته {خافضة رافعة} يعني هي خافضة رافعة، أي: يخفض فيها الناس ويرفع فيها آخرون. ولكن من الذي يرفع؟ قال الله ﷻ: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات} فأهل العلم والإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان والعلم، وتخفض أهل الجهل والعصيان، وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظم عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، والجبارون المتكبرون يحشرون يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم- مع أنهم في الدنيا متبخترون مستكبرون عالون على عباد الله، لكنهم يوم القيامة موضوعون مهينون قد أخزاهم الله ﷻ {إذا رجت الأَرض رجًا} يعني زلزلت زلزلة عظيمة، ولهذا قال: {رجًا} أي: رجًّا عظيمًا، وأنت تصور أنك ترج إناء فيه ماء كيف يكون اضطراب الماء فيه، فالأرض يوم القيامة ترج بأمر الله ﷻ، وهذا كقوله تعالى: {إذا زلزلت الأَرض زلزالها} وقوله تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم}- {وبست الجبال بسًا} أي: بعثرت وهبطت وصارت كثيبًا مهيلًا، ولهذاقال: {فكانت هباءً منبثًا} كالهباء الذي نراه حينما تنعكس أنوار الشمس في حجرة مظلمة، ترى هذا الهباء من خلال ضوء الشمس منبثًّا متفرقًا، هذه الجبال الصم الصلبة التي يكون الصخر فيها أكبر من الجبال، بل ربما يكون الجبل الواحد صخرة واحدة يكون يوم القيامة هباء منبثًّا بأمر الله ﷻ، فتبقى الأرض ليس فيها جبال ولا شجر ولا أودية ولا رمال، كما قال الله ﷻ: {ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا ينسفها ربي نسفًا فيذرها} أي الأرض {قاعًا صفصفًا لا تريفيها عوجًا ولا أمتًا} {وكنتم} الخطاب للآدميين

=

=

عمومًا {أزواجًا ثلاثة} أي أصنافًا، كما قال الله ﷻ: {احشروا الذين ظلموا وأزواجهم} أي: أصنافهم، وقال تعالى: {وءاخر من شكله أزواج} أي: أصنافًا، فمعنى أزواجًا يعني أصنافًا (ثلاثة) لا رابع لها: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، فينقسم الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام لا رابع لها {فأصحاب الميمنة مآ أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة مآ أصحاب المشئمة والسابقون السابقون} ذكرهم الله تعالى غير مرتبين في الفضل، فبدأ الله بأصحاب الميمنة ثم ثنَّى بأصحاب الشمال، ثم ثلَّث بالسابقين، لكن عند التفصيل بدأ بهم مرتبين على حسب الفضل فبدأ بالسابقين، ثم بأصحاب اليمين، ثم بأصحاب الشمال، وهذا التفصيل المرتب خلاف الترتيب المجمل، وهو من أساليب البلاغة، {فأصحاب الميمنة مآ أصحاب الميمنة}. يعني أنه ﷻ أخبر بأن أحد الأصناف أصحاب الميمنة، ثم قال {مآ أصحاب الميمنة} من هم، وسيأتي إن شاءالله ذكرهم مفصلًا، {وأصحاب المشئمة} أي: ذوو الشؤم، وسيأتي أيضًا ذكرهم مفصلًا، {والسابقون السابقون} هؤلاء أفضل الأصناف، وقوله {والسابقون السابقون}.

أصح الأعاريب فيها أن قوله {والسابقون} مبتدأ، وخبره {السابقون}ـ يعني أن السابقين إلى الأعمال الصالحة هم السابقون إلى الثواب في الآخرة، فكأنه قال: السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحة هم السابقون في الآخرة بالثواب {أولئك المقربون}ـ أي: إلى الله- ﷻ فهم في أعلى الجنان، وأعلى الجنان أقرب إلى الرحمن ﷻ، لأن الفردوس وهو أعلى درجات الجنة فوقه عرش الله ﷻ، {أولئك المقربون} ذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم، وكما يقال: الجار قبل الدار، وكما قالت امرأة فرعون: {رب ابن لى عندك} بدأت بالجوار {بيتًا في الجنة} وهنا قال: {أولئك المقربون} قبل أن يبدأ بذكر الثواب؛ لأن قربهم من الله ﷻ فوق كل شيء، جعلنا الله منهم {أولئك المقربون في جنات النعيم} أي في هذا المقر العظيم

=

=

الذي فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأضاف الجنات إلى النعيم، لأن ساكنها منعم في بدنه، ومنعم في قلبه، كما قال ﷻ في سورة الإنسان: {إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرةً وسرورًا} نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب، فهم في نعمتين: هما نعيم البدن، ونعيم القلب، {يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤًا ولباسهم فيها حرير} هذا من نعيم البدن أيضًا {ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون} هذا من نعيم البدن إلى غير ذلك مما ذكره الله ﷻ من النعيم في الجنة، ولو لم يكن فيها إلا أن الإنسان يخلد فيها لا يموت، ويصح فلا يسقم، ويشب يكون شابًّا دائمًا فلا يهرم، وفوق ذلك كله النظر إلى وجه الله ﷻ، كما قال الله تعالى: {للذين أحسنوا الحسنى وزيادة} يعني فوق الحسنى وفسر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الزيادة بأنها النظر إلى وجه اللهـ اللهم اجعلنا ممن ينظرون إليك في جنات النعيم {ثلة من الأَولين} قيل: إن المراد بذلك الأمم السابقة {وقليل من الأَخرين} يعني أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعلى هذا القول تكون قلة هذه الأمة باعتبار كثرة الأمم السابقة، وليس المعنى أن الذين يدخلون الجنة من الأمم السابقين باعتبار كل نبي أكثر من الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة، وقيل: المراد بالأولين أول هذه الأمة، أي: ثلة من أول هذه الأمة، وقليل من آخرها، وهذا القول هو الصحيح، بل هو المتعين، لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «إني أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» أي نصفهم، وفي حديث آخر: «إن أهل الجنة مائة وعشرون صفًّا منهم ثمانون من هذه الأمة».

وعلى هذا لا يصح أن نقول قليل من هذه الأمة، وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ثلة أي كثير من هذه الأمة من أولها، وقليل من آخرها، {على سرر موضونة} سرر جمع سرير، وهو ما يتخذه الإنسان للجلوس والنوم، {موضونة}

=

=

قال العلماء: منسوجة من الذهب، {متكئين عليها} أي: معتمدين على أيديهم وعلى ظهورهم، فهم في راحة في اليد وفي الظهر {متقابلين} أي: يقابل بعضهم بعضًا، وهذا يدل على سعة المكان، لأن المكان إذا كان ضيقًا لا يمكن أن يكون الناس متقابلين، وهذه الآية تدل على أن الأمكنة واسعة وهو كذلك، ولهذا كان أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه ألفي عام ـ ينظر أقصاه كما ينظر أدناه، والله على كل شيء قدير، والجنة عرضها كعرض السماوات والأرض، ومن يحيط بسماء واحدة، كيف وهي عرض السماوات السبع، والسماوات السبع بعضها من فوق بعض؟! وكلما كان الشيء فوق كانت دائرته أوسع، فمن يحيط بهذا إلا الله ﷻ، إذن هم متقابلون لأن أمكنتهم واسعة، ولأن لديهم من كمال الأدب ما لا يمكن أن يستدبر أحدهم الآخر، كلهم مؤدبون، كلهم قلوب صافية، قال الله تعالى: {ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين} ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن التدابر.

والتدابر يشمل التدابر القلبي بحيث يكون كل واحد متجه إلى وجه، والتدابر البدني إلا عند الحاجة أو الضرورة، وإلا فمتى أمكن التقابل فهو أفضل، فلو أن أحدًا يكلمك وقد ولَّاك ظهره هل يكون سماعك له ومحبتك له كما لو كان يحدثك مستقبلًا إياك؟ وهذا شيء مشاهد معلوم، فأهل الجنة على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين، وفي حال الاتكاء {يطوف عليهم ولدان مخلدون} الولدان جمع ولد، أو جمع وليد: كغلمان جمع غلام.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ـ مخلدون: أي: على حالة واحدة ـ مخلدون عليها لا يتغيرون عنها؛ لا تزيد أعمارهم عن تلك السن. قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: غلمان لا يموتون.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون: لا يهرمون ولا يتغيرون؛

=

=

قال: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد- وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل: هو مخلد.

وقوله تعالى في وصفهم- في سورة الإنسان: (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة- وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم- حسبتهم لؤلؤا منثورا- ولا يكون التشبيه أحسن من هذا- ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة. وفي كونه منثورا فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين- بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

الثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منثورا- ولاسيما على بساط من ذهب أو حرير- كان أحسن لمنظره وأبهى- من كونه مجموعا في مكان واحد.

وقد اختلف العلماء فيمن يكون هؤلاء الولدان:

فروي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- والحسن البصري أن المراد بالولدان هنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة.

وروي عن سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة.

قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يجزون بها- ولا سيئات يعاقبون عليها- فوضعوا في هذا الموضع.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا أصل لهذا القول.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد روى في ذلك حديث لا يثبت.

وقيل: إن هؤلاء الولدان أنشأهم الله لأهل الجنة- يطوفون عليهم كما شاء- من غير ولادة.

=

=

وهذا القول الأخير هو الذي ارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى. فقد سئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن الولدان: هل هم ولدان أهل الجنة ؟

فأجاب: الولدان الذين يطوفون على أهل الجنة خلق من خلق الجنة ؛ ليسوا بأبناء أهل الدنيا بل أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة يكمل خلقهم كأهل الجنة؛ على صورة آدم أبناء ثلاث وثلاثين سنةـ في طول ستين ذراعا. وقد روي أيضا أن العرض سبعة أذرع.

واستظهر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا القول أيضا. قال: والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنةـ كالحور العينـ خدما لهم وغلمانا...ـ وهؤلاء غير أولادهم؛ فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهمـ ولا يجعلهم غلمانا لهم.

قوله: {يطوف عليهم} يتردد عليهم، {ولدان مخلدون} أي: خلقوا ليخلدوا، وهم غلمان شباب إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، لجمالهم وصفائهم وكثرتهم وانتشارهم في أملاك أسيادهم، إذا رأيتهم أي: إذا رأيت الولدان، فإذا كان الولدان تحسبهم لؤلؤًا منثورًا، فكيف بالسادة؟ أعظم وأعظم {يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين} أكواب هي عبارة عن كؤوس لها عرى، والأباريق أيضًا أواني لها عرى {وكأس من معين} ليس له عروة، قوله: {من معين} أي: من خمر معين {لا يصدعون عنها ولا ينزفون} يعني لا يوجع بها الرأس، ولا ينزف بها العقل، بخلاف خمر الدنيا فإنها تؤلم الرأس وتذهب العقل، {وفاكهة} معطوفة على قوله بأكواب، أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة {مما يتخيرون} لطيبها منظرًا، وطيبها مشمًّا، وطيبها مأكلًا، وهذه الفاكهة طيبة في منظرها، وطيبة في رائحتها، وطيبة في مأكلها ومذاقها؛ لأن الله قال: {مما يتخيرون} والإنسان لايعاف الشيء إلا لقبح منظره، أو لقبح رائحته، أو لقبح

=

=

مأكله، والفاكهة في الجنة طيبة في لونها، وحجمها، وريحها، ومذاقها، وسبحان الله يؤتون بها متشابهة في اللون والحجم والرائحة، لكن في المذاق مختلفة، وهذا مما يزيد الإنسان فرحًا وسرورًا وإيمانًا بقدرة الله ﷻ {ولحم طير مما يشتهون} أي: ويطوف عليهم هؤلاء الولدان بلحم

طير، وذكر لحم الطير؛ لأن لحوم الطير أنعم اللحوم وألذها، وهذا الطير من أين يتغذى؟ الجواب: ليس لنا أن نسأل عن هذا، لأن أمور الغيب يجب علينا أن نؤمن بها بدون سؤال، فنقول: إن كانت هذه الطيور تحتاج إلى غذاء فما أكثر ما تتغذى به، لأنها في الجنة، وإن كان لا تحتاج إلى غذاء، فالله على كل شيء قدير.

{وحور عين} الحور هن البيض، وعين: أي حسنات الأعين، وهن ذات العيون الواسعة الجميلة {كأمثال اللؤلؤ المكنون} أي: المغطى حتى لا تفسده الشمس ولا الهواء ولا الغبار فيكون صافيًا من أحسن اللؤلؤ {جزاءً بما كانوا يعملون} أي: يجزون بهذا الثواب الجزيل {جزاءً بما كانوا يعملون} أي: بعملهم، أو بالذي كانوا يعملونه لأن (ما) في قوله {بما كانوا يعملون} يصح أن تكون مصدرية، ويصح أن تكون اسمًا موصولًا، والباء هنا للسببية، والباء لها معانٍ كثيرة بحسب السياق فتكون للعوض كقولهم: بعت الثوب بدينار، وتكون للسببية كما في قوله تعالى: {فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات} فقوله: {فأخرجنا به} أي: بسببه، ولا يصح أن تكون الباء في قوله تعالى: {جزاءً بما كانوا يعملون} للعوض؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»

فالباء في قوله: {جزاءً بما كانوا يعملون} أي: بسبب عملهم، وليس المعنى أنه عوض؛ لأن الله تعالى لو أراد أن يعاوضنا لكانت نعمة واحدة تحيط بجميع أعمالنا {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} فانتبه لهذا، ولذلك استشكل بعض

=

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧).

{وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين}.

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨).

{فِي سِدْر} شَجَر النَّبْق {مَخْضُود} لَا شَوْك فيه.

=

العلماء قوله تعالى: {جزاءً بما كانوا يعملون} والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «لن يدخل أحد الجنة بعمله» والجواب أن الباء في النفي باء العوض، والباء في الإثبات باء السببية {لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قيلًا سلاما سلاما} أي: أهل الجنة لا يسمعون كلامًا لا فائدة منه، ولا كلامًا يأثم به الإنسان، فالكلام الذي لا خير فيه، والكلام القبيح لا يوجد في الجنة {إلا قيلًا سلاما سلاما} الاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فالسلام ليس من اللغو ولا من التأثيم، وعلامة الاستثناء المنقطع أن تجعل بدل {إلا} (لكن) فيستقيم الكلام، وهنا لو قيل في غير القرآن: لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا ولكن قيلًا سلامًا سلامًا لاستقام الكلام. ومثل ذلك قوله تعالى: {فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر} فالاستثناء هنا {إلا من} منقطع؛ لأن ما بعد {إلا} ليس من جنس ما قبلها؛ لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ليس بمصيطر لا على الكافرين ولا على غيرهم، فتكون {إلا} بمعنى لكن، ولهذا جاءت الفاء {فيعذبه الله العذاب الأكبر} وعليه لو أن قارئًا وقف على قوله تعالى: {لست عليهم بمسيطر} فالوقف صحيح.

{سلاما سلاما} أي: إلا قول فيه السلامة وإدخال السرور والفرح بين أهل الجنة جعلنا الله منهم.

وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩).

{وَطَلْح} شَجَر الْمَوْز {مَنْضُود} بِالْحَمْلِ مِنْ أَسْفَله إلى أعلاه.

وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠).

{وَظِلّ مَمْدُود} دَائِم.

وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١).

{وماء مسكوب} جار دائما.

وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢).

{وفاكهة كثيرة}.

لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣).

{لَا مَقْطُوعَة} فِي زَمَن {وَلَا مَمْنُوعَة} بِثَمَنٍ

وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤).

{وَفُرُش مَرْفُوعَة} عَلَى السُّرَر.

إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥).

{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاء} أَيْ الْحُور الْعِين مِنْ غير ولادة.

فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦).

{فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا} عَذَارَى كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجهنَّ وَجَدُوهُنَّ عَذَارَى وَلَا وَجَع.

عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧).

{عُرُبًا} بِضَمِّ الرَّاء وَسُكُونهَا جَمْع عُرُوب وَهِيَ الْمُتَحَبِّبَة إِلَى زَوْجهَا عِشْقًا لَهُ {أَتْرَابًا} جَمْع تِرْب أَيْ مُسْتَوِيَات فِي السِّنّ.

لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨).

{لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ} صِلَةَ أَنْشَأْنَاهُنَّ أَوْ جَعَلْنَاهُنَّ وَهُمْ.

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩)

{ثلة من الأولين}.

وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠).

{وثلة من الآخرين}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عطاء ومجاهد؛ قالا: لما سأل أهل الطائف الوادي يُحمى لهم وفيه عسل؛ ففعل، وهو واد معجب، فسمعوا الناس يقولون: في الجنة كذا وكذا، قالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨)}.

أخرجه سعيد بن منصور في "سننه"؛ كما في "لباب النقول" (ص ٢٠٣)، و"الدر المنثور" (٨/ ١٢) -ومن طريقه البيهقي في "البعث" (ص ١٨٧ رقم ٢٧٧) -: ثنا عتاب بن بشير أنبأ خصيف الجزري عن عطاء ومجاهد به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: خصيف الجزري؛ قال عنه في "التقريب": "صدوق سيئ الحفظ، خلط بآخره".

الثالثة: عتاب بن بشير؛ لا بأس به إلا في روايته عن خصيف؛ فإنها منكرة؛ كما نص على هذا الإمام أحمد وابن عدي.

انظر: "التهذيب" (٧/ ٩٠، ٩١)، و"الكامل" (٥/ ١٩٩٤).

وزاد السيوطي في "الدر المنثور" نسبته لابن المنذر.

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ١٠٤)، والبيهقي في "البعث" (ص =

=

١٨٨ رقم ٢٧٨) من طرق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد؛ قال في قوله: {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩)}؛ يعني: الموز المتراكم، وذلك أنهم كانوا يعجبون بوج وظلاله من طلحه وسدره؛ فأنزل الله: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨)}. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وزاد السيوطي نسبته في "الدر المنثور" (٨/ ١٢) لعبد بن حميد.

* قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٢٧]، أي: "وأصحاب اليمين، ما أعظم مكانتهم وجزاءهم!!".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ} وهم الذين يؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين، الذي أعطوا كتبهم بأيمانهم يا محمد، {مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ}، أي شيء هم وما لهم، وماذا أعد لهم من الخير".

قال ابن كثير: "لما ذكر تعالى مآل السابقين- وهم المقربون- عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين- وهم الأبرار-.. فقال: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ}، أي: أي شيء أصحاب اليمين؟ وما حالهم؟ وكيف مآلهم؟".

قال مقاتل: "يقول: ما لأصحاب اليمين من الخير".

قال قتادة: "أي ماذا لهم، وماذا أعدّ لهم".

قال الماتريدي: "أصحاب اليمين هم المؤمنون".

وفي قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٢٧]، أقوال:

أحدها: أنهم أصحاب الحق، قاله السدي.

الثاني: أنهم دون منزلة المقربين، قاله ميمون بن مهران.

الثالث: أنهم من أعطي كتابه بيمينه، قاله يعقوب بن مجاهد.

الرابع: أنهم من يؤخذ بهم يوم القيامة ذات اليمين، وذلك أمارة من نجا. حكاه النحاس.

=

=

الخامس: أنهم التابعون بإحسان ممن لم يدرك الأنبياء من الأمم، قاله الحسن.

السادس: ما رواه أسباط عن السدي: "أن الله تعالى مسح ظهر آدم فمسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج ذرية كهيئة الذر بيضاء فقال لهم ادخلوا الجنة ولا أبالي، ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج ذرية كهيئة الذر سوداء، فقال لهم: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك هو قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ}، وقوله: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ}".

قال النحاس: وقيل:"أنهم الذين أقسم الله جل وعز أن يدخلهم الجنة".

السابع: ما رواه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أصحاب اليمين الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا ثم تابوا بعد ذلك وأصلحوا».

الثامن: أن أصحاب اليمين: أطفال المؤمنين. رواه عمرو عن علي بن أبي طالب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

قوله تعالى: {فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ} [الواقعة: ٢٨]، أي:"هم في سِدْر لا شوك فيه".

وفي «مخضود»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه اللين الذي لا شوك فيه، قاله قتادة وعكرمة، ومحمد بن عكرمة وقسامة بن زهير والسفر بن نُسَير وأبو الأحوص.

قال مقاتل:"يعني: الذي لا شوك له كسدر أهل الدنيا".

قال قسامة:"خُضِد من الشوك، فلا شوك فيه".

قال قتادة:"ليس فيه شوك". وفي رواية:"كنا نحدّث أنه المُوقَر الذي لا شوك فيه".

قال النحاس: " أصح ما قيل فيه أنه خضد شوكه، وقيل: هو مخلوق كذا، والعرب تعرف الطلح أنه الشجر كثير الشوك، يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل عنه الشوك".

=

=

الثاني: أنه الموقر حملًا، قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير.

عن مجاهد: " {فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ}، قال: الموقَر".

قال مجاهد:"يقولون هذا الموقَرُ حَمْل".

قال سعيد بن جبير:"ثمرها أعظم من القِلال".

قال ابن عباس:"خضده: وقره من الحمل، ويقال: خُضِد حتى ذهب شوكه فلا شوك فيه".

قال الطبري:"يعني: في ثمر سدر موقر حملا قد ذهب شوكه".

قال ابن كثير:"الظاهر أن المراد هذا وهذا فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر، وفي الآخرة على عكس من هذا لا شوك فيه، وفيه الثمر الكثير الذي قد أثقل أصله".

وحكي الماوردي: أنها "المدلاة الأغصان، وخص السدر بالذكر لأن ثمره أشهى الثمر إلى النفوس طعمًا وألذه ريحًا".

عن سليم بن عامر، قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم؛ قال: أقبل أعرابي يومًا فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: "وما هي؟". قال: السِّدر، فإن له شوكًا موذيًا، فقال رسول الله ﷺ: "أليس الله يقول: {فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ}، خَضَد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمرًا تَفَتَّق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر"».

عن عُتْبة بن عبد السلمي قال: «كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها؟ يعني: الطلح، فقال رسول الله ﷺ: "إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَة التيس الملبود، فيها سبعون لونًا من الطعام، لا يشبه لون آخر"».

=

=

قوله تعالى: {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} [الواقعة: ٢٩]، أي:"وموز متراكب بعضه على بعض".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ} [الواقعة: ٢٩]، أقوال:

أحدها: أن الطلح: الموز، قاله ابن عباس وعلي بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة، ومالك والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة وعطاء وقسامة بن زهير وأبو حرزة والكلبي.

قال مجاهد:"موزكم، لأنهم كانوا يُعجبون بوجٍّ وظلاله من طلحه وسدره".

قال ابن زيد:"الله أعلم، إلا أن أهل اليمن يسمون الموز الطلح".

قال النحاس: " وأهل التفسير يقولون: إن الطلح الموز. وسمعت علي بن سليمان يقول: يجوز أن يكون هذا مما لم ينقله أصحاب الغريب وأسماء النبت كثيرة حتى إن أهل اللغة يقولون: ما يعاب على من صحف في أسماء النبت لكثرتها".

الثاني: أنه الطلع، قاله علي وروي أنه كان يقرأ: «وَطَلْعٍ مَّنضُودٍ»".

عن قيس بن سعد، قال: "قرأ رجل عند عليّ: {وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ}، فقال عليّ: ما شأن الطلح، إنما هو: {وطَلْعٍ مَنْضُودٍ}، ثم قرأ: {طَلْعُهَا هَضِيمٌ}، فقلنا أولا نحوّلُها، فقال: إن القرآن لا يهاج اليوم، ولا يحوّل".

قال ابن كثير:"فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره، والله أعلم".

الثالث: أنها شجرة عظام كثير الشوك، تكون باليمن وبالحجاز كثيرًا تسمى طلحة، قاله عبد الله بن حميد والمعمر بن المثنى وأبو عبيدة وبه قال ابن كثير ومنه قول الحادي:

بَشَّرَها دَلِيلُها وَقالا... غَدًا تَرَيْنَ الطَّلْحَ والحبالا

قال ابن كثير:"الطلح: شجر عظام يكون بأرض الحجاز، من شجر العضَاه،

=

=

واحدته طلحة، وهو شجر كثير الشوك".

قال أبو عبيدة:"زعم المفسرون أنه الموز، وأما العرب، الطلح عندهم شجر عظيم كثير الشوك".

قال الماوردي:"قيل: إنها من أحسن الشجر منظرًا، ليكون بعض شجرهم مأكولًا وبعضه منظورًا".

وقال الزجاج:"«الطلح»: شجر أم غَيْلانَ أيضًا، وجائز أن يكون يعنى به ذلك الشجر، لأنَّ له نَوْرًا طيب الرائحة جدًّا، فخوطبوا ووعدوا بما يحبُّونَ مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا".

وفي «المنضود»، قولان:

أحدهما: المصفوف، قاله السدي.

قال ابن عباس:"يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل".

الثاني: متراكم الثمر، يذكر بذلك قريشًا؛ لأنهم كانوا يعجبون من وَجّ، وظلاله من طلح وسدر، قاله مجاهد.

قال ابن قتيبة:"المنضود»: الذي نضد بالحمل من أوله إلى آخره، أو بالورق والحمل، فليست له سوق بارزة".

قوله تعالى: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} [الواقعة: ٣٠]، أي:"وظلٍّ دائم لا يزول".

قال أبو عبيدة:"ولا تنسجه الشمس، دائم يقال: للدهر الممدود والعيش إذا كان لا ينقطع قال لبيد:

غَلَبَ العزاء وكنْتُ غَيْرَ مُغَلَّبَ... دَهْرٌ طَوِيلٌ دائم مَمْدُود".

قال الطبري:"يقول: وهم في ظلّ دائم لا تنسخه الشمس فتذهبه، وكل ما لا انقطاع له فإنه ممدود".

قال الزجاج:"معناه: تام دائم".

=

=

وقال الضحاك، والسُّدِّيّ، وأبو حَرْزَةَ في قوله: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} :"لا ينقطع، ليس فيها شمس ولا حر، مثل قبل طلوع الفجر".

قال الحسن: "لا ينقطع".

وقال ابن مسعود:"الجنة سَجْسَج لا حرّ فيها ولا برد.

وفي رواية:"" الْجَنَّةَ سَجْسَجٌ، لَا قَرَّ فِيهَا وَلَا حَر".

وقال ابن مسعود-في وراية-: "الجنة سَجْسَج كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس".

عن علقمة بن قيس قال: "إن الجنة سجسج لا حر فيها، ولا قر، وفيها ما اشتهت أنفسهم".

وفي رواية:"الْجَنَّةَ سَجْسَجٌ لَا قَرَّ فِيهَا وَلَا حَر".

وعن يحيى بن أبي كثير: أن ساعات الجنة تشبه الغداة الباردة في الصيف".

قال ابن عباس: "في الجنة شَجَر لا يحمل، يُستظَلُّ به".

عن عمرو بن ميمون: " {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}، قال: خمس مئة ألف سنة". وفي رواية:"مسيرة سبعين ألفَ سنة".

عن الحسن في قوله الله تعالى: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ} قال: "في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها".

عن أنس بن مالك، قال: "إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها".

عن أنس، أن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ فِي الجَنَّة لشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِئَةَ عامٍ لا يَقْطَعُها».

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّها مِئَةَ سَنَةٍ، اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}».

=

=

وفي رواية: «وإنَّ فِي الجَنَّة شَجَرَةً يَسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِئَةَ عامٍ لا يَقْطَعُها، اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}».

وفي رواية: "وإنَّ فِي الجَنَّة لشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِئَةَ عامٍ لا يَقْطَعُها، لا يَقْطَعُها، شَجَرَةُ الخُلْدِ».

وفي رواية: «وإنَّ فِي الجَنَّة لشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّهَا سَبْعِينَ أو مِئَةَ عامٍ، هيَ شَجَرَةُ الخُلْدِ».

عن أبي هريرة، قال: " إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام، اقرءوا إن شئتم: {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ}، فبلغ ذلك كعبا، فقال: صدق والذي أنزل التوراة على لسان موسى، والفرقان على لسان محمد، لو أن رجلا ركب حُقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها، حتى يسقط هَرِما، إن الله غرسها بيده، ونفخ فيها من روحه، وإن أفنانها لمن وراء سور الجنة وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب».

عن ابن عباس قال: الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق ظلها، قدر ما يسير الراكب في نواحيها مائة عام. قال: فيخرج إليها أهل الجنة؛ أهل الغرف وغيرهم، فيتحدثون في ظلها. قال: فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحًا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا.

قوله تعالى: {وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ} [الواقعة: ٣١]، أي:"وماء جار لا ينقطع".

قال أبو عبيدة:"مصبوب سائل".

قال النحاس: " أي: لا يتعب في استقائه".

قال الزجاج:"يعنى به: أنه ماء لا يتعبون فيه، ينسكب لهم كيف يحبون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره وفيه أيضا ماء مسكوب، يعني مصبوب سائل في

=

=

غير أخدود".

عن ابن عباس:"{وماءٍ مَسْكُوبٍ}، يقول: مصبوب".

عن مجاهد:"{مَسْكُوبٍ}: جارٍ". وروي عن ابن جريج مثله.

عن سفيان: " {وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ}، قال: يجري في غير أخدود".

قوله تعالى: {وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ} [الواقعة: ٣٢]، أي:"وفاكهة كثيرة متنوعة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وفيها {فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ}".

قال ابن كثير:"أي: وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، {كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} [البقرة: ٢٥] أي: يشبه الشكلُ الشكلَ، ولكن الطعم غيرُ الطعم. وفي الصحيحين في ذكر سدرة المنتهى قال: «فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلالَ هجر»".

عن ابن عباس قال: "خُسِفَت الشمس، فصلى رسولُ الله ﷺ والناس معه، فذكر الصلاة. وفيه: قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكع. قال: "إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا".

عن جابر قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في صفوفنا في الصلاة، صلاة الظهر، أو العصر، فإذا رسول الله ﷺ يتناول شيئا، ثم تأخر فتأخر الناس، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: شيئا صنعته في الصلاة لم تكن تصنعه قال: " عرضت علي الجنة بما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض، لا ينقصونه شيئا، ثم عرضت علي النار، فلما وجدت سفعها تأخرت عنها، وأكثر من رأيت فيها النساء اللاتي إن اؤتمن أفشين، وإن يسألن بخلن، وإن يسألن ألحفن- قال حسين: وإن

=

=

أعطين لم يشكرن- ورأيت فيها لحي بن عمرو يجر قصبه في النار، وأشبه من رأيت به معبد بن أكثم الكعبي "، قال معبد: يا رسول الله، أيخشى علي من شبهه وهو والد؟ فقال: «لا، أنت مؤمن، وهو كافر»، قال حسين: «وكان أول من حمل العرب على عبادة الأوثان»، قال حسين: «تأخرت عنها ولولا ذلك لغشيتكم»".

قوله تعالى: {لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٢]، أي:"لا تنفَد ولا تنقطع عنهم".

قال الطبري: أي:"لا ينقطع عنهم شيء منها أرادوه في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الصيف في الشتاء في الدنيا، ولا يمنعهم منها، ولا يحول بينهم وبينها شوك على أشجارها، أو بعدها منهم، كما تمتنع فواكه الدنيا من كثير ممن أرادها ببعدها على الشجرة منهم، أو بما على شجرها من الشوك، ولكنها إذا اشتهاها أحدهم وقعت في فيه أو دنت منه حتى يتناولها بيده".

قال ابن كثير:"أي: لا تنقطع شتاء ولا صيفًا، بل أكلها دائم مستمر أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء".

عن ابن عباس:"{لا مَقْطُوعَةٍ} قال: لا تنقطع حينًا وتجيء حينًا مثل فاكهة الدنيا، {ولا مَمْنُوعَةٍ} كما تُمنع في الدنيا إلا بثمن".

عن قتادة، قوله: " {لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ}، قال: لا يمنعه شوك ولا بعد".

قوله تعالى: {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٤]، أي:"وفرشٍ مرفوعة على السرر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولهم فيها فرش مرفوعة طويلة، بعضها فوق بعض، كما يقال: بناء مرفوع".

قال أبو عبيدة:"مجازها: طويلة، يقال: بناء مرفوع، أي طويل".

قال ابن كثير:"أي: عالية وطيئة ناعمة".

قال مجاهد:"بعضها فوق بعض".

=

=

علي بن أبي طالب: "مرفوعة على الأسِرّة".

قال الحسن:"ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة".

قال كعب الأحبار:"على مسيرة أربعين عامًا".

قال ابن عباس:"لو طُرِح مِن أعلاها شيءٌ ما بلغ قرارها مائة خريف".

عن أبي سهل- يعني: كثير بن زياد- عن الحسن ": {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} قال: ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة".

وفي قوله تعالى: {وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ} [الواقعة: ٣٤]، وجهان:

أحدهما: أنها الحشايا المفروشة للجلوس والنوم، مرفوعة بكثرة حشوها زيادة في الاستمتاع بها. حكاه الماوردي.

الثاني: أنهم الزوجات لأن الزوجة تسمى فراشا، ومنه قول النبي -ﷺ-: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ». قاله ابن بحر.

فعلى هذا يحتمل وجهين:

أحدهما: مرفوعات في القلوب لشدة الميل إليهن.

الثاني: مرفوعات عن الفواحش والأدناس.

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} [الواقعة: ٣٥]، أي:"إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إنا خلقناهن خلقا فأوجدناهن".

قال الزجاج:"يعني الحورَ، أنْشِئْنَ لأولياء الله ﷻ، لَيْسَ ممن وقعت عليه ولادة".

قال أبو عبيدة:"أعاد إلى النساء إلى حور العين".

قال الأخفش: " فأضمرهن ولم يذكرهن قبل ذاك".

قال ابن قتيبة:"ولم يذكر النساء قبل ذلك: لأن الفرش محل النساء؛ فاكتفى بذكر الفُرُش".

=

=

قال ابن كثير:"جرى الضمير على غير مذكور. لكن لما دل السياق، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجَعن فيها، اكتفى بذلك عن ذكرهن، وعاد الضمير عليهن، كما في قوله: {إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [ص: ٣١، ٣٢] يعني: الشمس، على المشهور من قول المفسرين".

عن الحسن:"{إنّا أنْشَأْناهُنَّ إنْشاءً}، قال: النساء".

عن قتادة:"{إنّا أنْشَأْناهُنَّ إنْشاءً}، قال: يعني: أزواج القوم".

عن قتادة، قوله: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} [الواقعة: ٣٥]، قال: "خَلَقْنَاهُنَّ خَلْقًا".

قال سعيد بن جبير:"خلقناهن خلْقًا جديدًا".

قال مجاهد:"خلَقهن خلْقًا غير خلْقهن الأول".

وفي إنشائهن في الجنة، قولان:

أحدهما: يعني: إنشاءهن في القبور، قاله ابن عباس.

الثاني: إعادتهن بعد الشمط والكبر، صغارًا أبكارًا. قاله صفوان بن محرز والضحاك.

قال ابن كثير:"أي: أعدناهن في النشأة الآخرة بعدما كُنَّ عجائز رُمْصًا، صرن أبكارًا عربًا، أي: بعد الثّيوبة عُدْن أبكارًا عُرُبًا، أي: متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة".

قال صفوان بن محرز:"واللهِ، إنّ منهنّ العُجُزَ الزُّحُفَ، صيَّرهنَّ الله كما تسمعون".

وروي عن الضحاك نحوه.

وفي رواية عن صفوان بن محرز، قال: "فهن العُجُز الرُّمْصُ".

قال قتادة:"كان صفوان بن محرز يقول: إن منهنّ العُجُزَ الرُّجَّف، صيرهنّ الله كما تسمعون".

=

=

قال قتادة:"إن منهن العُجُزَ الرُّجَّفَ، أنشأهن الله في هذا الخلق".

عن سلمة بن يزيد، "عن رسول الله ﷺ في هذه الآية: {إنا أنشأناهن إنشاء}، قال: «من الثيب والأبكار»". وفي رواية:"يعني: «الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا".

قال مقاتل:"خلقهن في الآخرة خلقا بعد الخلق الأول في الدنيا".

قال الفراء:"يَقُولُ: أنشأنا الصَّبية والعجوز، فجعلناهن أترابًا أبناء ثلاث وثلاثين".

قال ابن قتيبة:"يقول: أنشأنا الصبيَّةَ والعجوزَ إنشاءً جديدًا".

عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة العجوز» قال: «فبكت عجوز»، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروها ليست يومئذ بعجوز، وأنها يومئذ شابة، إن الله ﷻ يقول: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً} [الواقعة: ٣٥]»".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا} [الواقعة: ٣٦]، أي:"فجعلناهن عذارى".

قال ابن عباس:"هن من بني آدم، نساؤكنّ في الدنيا ينشئهنّ الله أبكارا عذارى عربا".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا} [الواقعة: ٣٦]، وجوه:

أحدها: عذارى بعد أن كن غير عذارى، قاله الضحاك ويعقوب بن مجاهد.

قال الزجاج:"لَمْ يُطْمِثْنَ".

عن الضحاك:"{أَبْكَارًا}، يقول: عذارى". وروي عن قتادة مثله.

عن الحسن البصري، قال: "أتتْ عجوزٌ، فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يُدخلني الجنة. فقال: «يا أُمّ فلان، إنّ الجنة لا يدخلها عجوز». فولّت تبكي، قال: «أخبِروها أنها لا تدخلها وهي عجوز. إنّ الله يقول: {إِنّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكارًا}".

الثاني: لا يأتيها إلا وجدها بكرًا، قاله ابن عباس.

قال ابن عطية:"قيل معناه: دائمات البكارة متى عاود الواطئ وجدها بكرا".

=

=

قال ابن عباس: "إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة، لا يملها ولا تمله، كلما أتاها وجدها بكرا، وكلما رجع إليها عادت إليه شهوته، فيجامعها بقوة سبعين رجلا، لا يكون بينهما مني، يأتي من غير مني منه ولا منها".

قال المسيّب بن شريك: "هنّ عجائز الدنيا، أنشأهنّ الله تعالى خلْقًا جديدًا، كلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجَدُوهُنَّ أبكارًا. وذكر المسيّب عن غيره: أنهنَّ فُضِّلن على الحُور العين بصلاتهنّ في الدنيا".

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال له: أَنَطأ في الجنة؟ قال: "نعم، والذي نفسي بيده دَحْمًا دحمًا، فإذا قام عنها رَجَعتْ مُطهَّرة بكرًا".

الثالث: أبكارًا من الزوجات، وهن الأوائل، لأنهن في النفوس أحلى والميل إليهن أقوى. ذكره الماوردي وأنشد قول الشاعر:

أَتَانِيْ هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى... فَصَادَفَ قَلْبَاً خَالِيَاً فَتَمَكَّنَا

قوله تعالى: {عُرُبًا أَتْرَابًا} [الواقعة: ٣٧]، أي:"متحببات إلى أزواجهن، في سنٍّ واحدة".

وفي قوله تعالى: {عُرُبًا} [الواقعة: ٣٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن العرب: اللاتي يشتهين أزواجهن. قاله سعيد بن جبير والحسن وعبد الله بن عبيدالله وعبيد بن عمير.

قال الحسن:"المشتهية لبعولّتهن".

قال عبد الله بن عبيد الله: "العرب: التي تشتهي زوجها".

قال عبيد بن عمير:"العَرِبة: التي تشتهي زوجها؛ ألا ترى أن الرجل يقول للناقة: إنها لعَرِبة؟".

الثاني: أن «العرب»: المتحببات المتودّدات إلى أزواجهنّ. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وبه قال الزجاج.

=

=

قال مجاهد-في رواية-:"العرب: المتحببات". وروي عن الضحاك مثله.

قال مجاهد:"متحببات إلى أزواجهن".

وحكي الماوردي عن عكرمة:"أنهن المتحببات من الضرائر ليقفن على طاعته ويتساعدن على إشاعته".

وحكي الماوردي عن سعيد بن جبير، والكلبي:"أن العرب المنحبسات على أزواجهن المتحببات إليهم".

قال الفراء:"واحدهن: عَروب، وهي المتحببة إلى زوجها الغَنِجة".

قال ابن قتيبة:"هي: المُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها".

قال ابن عطية:"هي المتحببة إلى زوجها بإظهار محبته".

وعن طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: "العرب: الملقة لزوجها". وفي رواية: "المَلَقَة".

الثالث: الشَّكِلة-بلغة أهل مكة-، والغِنجة -بلغة أهل المدينة-، قاله أبو بريدة وابن زيد.

وقال عكرمة:"العرب: المغنوجة". وفي رواية:"هي المغنوجة". وفي رواية:"غِنجات".

الرابع: هن الحسنات الكلام. قاله ابن زيد -أيضًا-.

قال ابن زيد:"العربة هي الحسنة الكلام".

الخامس: عواشق لأزواجهن وأزواجهن لهن عاشقون. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة.

قال قتادة:"عُشَّقا لأزواجهن".

قال قتادة:"يقول: عشَّق لأزواجهنّ، يحببن أزواجهنّ حبا شديدا".

قال الحسن:"العرب: العاشق".

=

=

عن عمرو بن أبي سلمة، قال: "سُئل الأوزاعيّ، عن {عُرُبًا}، قال: سمعت يحيى يقول: هنّ العواشق".

قال الماوردي:"لأن عشقها له يزيده ميلًا إليها وشغفًا بها".

عن أمّ سلمة، قالت: "قلت يا رسول الله، أخبرني عن قوله: {عُرُبًا أَتْرَابًا}، قال: «عُرُبا مُتَعَشِّقاتٍ مُتَحَببات، أترَابا على مِيلادٍ وَاحِدٍ»".

عن بلال بن أبي بُردة، أنه قال لجلسائه: "ما العَروب مِن النساء؟ فماجوا، وأقبل إسحاق بن عبد الله بن الحارث النَّوفَليّ، فقال: قد جاءكم مَن يخبركم عنها. فسألوه، فقال: الخَفِرة، المتبذّلة لزوجها. وأنشد:

يُعْرِبن عند بُعولهن إذا خَلوا... وإذا هم خرجوا فهن خِفار".

قال مقاتل:"يعني: شوابا كلهن على ميلاد واحد، بنات ثلاث وثلاثين سنة".

السادس: أنها الحسنة التبعُّل. قاله تميم بن حذلم وأبو عبيدة وأنشد قول لبيد:

وفي الخُدورِ عَروبٌ غيرُ فاحِشةٍ... رَيَّا الرَّوادِفِ يَعْشى دونَها البصَرُ

قال تميم بن حذلم:"العَرِبة: الحسنة التبعل. قال: وكانت العرب تقول للمرأة إذا كانت حسنة التبعل: إنها لعَرِبة".

قال الطبري: يقول:"فجعلناهنّ أبكارًا غنجات، متحببات إلى أزواجهنّ يحسن التبعل".

قال الماوردي:"لتكون ألذ استمتاعًا".

السابع: ما رواه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله -ﷺ-: «{عُرُبًا}: كَلامُهُنَّ عَرَبِّي».

الثامن: أن «العَرَب»: الشَّوْق. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وفي قوله تعالى: {أَتْرَابًا} [الواقعة: ٣٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسد، قاله السدي.

=

=

الثاني: الأتراب: المستويات. قاله ابن عباس والضحاك والحسن ومحمد وعطاء الخراساني والربيع بن أنس.

عن الحسن ومحمد: {عُرُبًا أَتْرَابًا}، قالا: المستويات الأسنان، يأتلفن جميعًا، ويلعبن جميعًا".

قال الحسن:"الأتراب: المستويات". وفي رواية:"أقرانًا".

قال قتادة:"يعني: سنًّا واحدة".

قال الربيع بن أنس:"على سِنٍّ واحد".

عن مجاهد، قوله: " {أَتْرَابًا}، قال: أمثالا".

وحكي الماوردي عن عطية، قال: "أقران".

قال ابن قتيبة:"أي: شيئًا واحدًا وسنًّا واحدًا".

قال ابن عباس:"في سن واحد ثلاثا وثلاثين سنة".

قال الطبري:"يعني أنهنّ مستويات على سنّ واحدة، واحدتهنّ تِرْب، كما يقال: شَبَه وأشْباه".

عن علي، رَضِوَاللَّهُعَنهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين، يرفعن أصواتًا لم تسمع الخلائق بمثلها، يقلن نحن الخالدات فلا نبِيد، ونحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكُنَّا له".

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "إن الحور العين ليغنين في الجنة، يقلن: نحن خَيِّرات حِسان، خُبِّئنا لأزواج كرام".

قوله تعالى: {لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٣٨]، أي:"خلقناهن لأصحاب اليمين".

قال الفراء:"أي: هذا لأصحاب اليمين".

قال ابن جرير الطبري:"يقول تعالى ذكره: أنشأنا هؤلاء اللواتي وصف صفتهنّ من

=

=

الأبكار للذين يؤخذ بهم ذات اليمين من موقف الحساب إلى الجنة".
قال ابن كثير:"أي: خلقنا لأصحاب اليمين، أو: ادخرن لأصحاب اليمين، أو: زوجن لأصحاب اليمين. والأظهر أنه متعلق بقوله: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً. فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا. عُرُبًا أَتْرَابًا. لأَصْحَابِ الْيَمِينِ} فتقديره: أنشأناهن لأصحاب اليمين. وهذا توجيه ابن جرير، ويحتمل أن يكون قوله: {لأَصْحَابِ الْيَمِينِ} متعلقًا بما قبله، وهو قوله: {أَتْرَابًا لأَصْحَابِ الْيَمِينِ}، أي: في أسنانهم. كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، من حديث جرير، عن عُمَارة بن القعقاع، عن أبي زُرْعَة، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرّيّ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألُوّة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء» ".
عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ جُردا مُردًا بيضًا جِعادًا مُكَحَّلين، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين، وهم على خَلْق آدم ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرع".
عن مُعَاذ بن جَبَل، أن رسول الله ﷺ قال: "يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ جُردًا مُردًا مكحلين أبناء ثلاثين، أو ثلاث وثلاثين سنة".
رُوِي عن أبي سليمان الدَّاراني- رَحِمَهُ اللهُ- قال: "صليتُ ليلة، ثم جلست أدعو، وكان البردُ شديدًا، فجعلت أدعو بيد واحدة، فأخذتني عيني فنمت، فرأيت حوراء لم ير مثلها وهي تقول: يا أبا سليمان، أتدعو بيد واحدة وأنا أُغذَّى لك في النعيم من خمسمائة سنة!".
قوله تعالى: {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)} [الواقعة: ٣٩- ٤٠]
=

=

قال ابن كثير:"أي: جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الذين لهم هذه الكرامة التي وصف صفتها في هذه الآيات ثُلَّتان، وهي جماعتان وأمتان وفرقتان: جماعة من الذين مضوا قبل أمة محمد ﷺ. وجماعة من أمة محمد ﷺ".

قال الزجاج:"معناه- والله أعلم- جماعة ممن تبع النبي- ﷺ- وعاينه، وجماعة ممن آمن به وكان بعده".

عن مجاهد، في قوله: {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ}، قال: "أمة".

عن الحسن: " {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ}، من الأمم. {وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ}: أمة محمد ﷺ".

عن محمد ن سيرين:"{ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ}، قال: كانوا يقولون: كلّهم من هذه الأُمّة".

قال ميمون بن مهران:"كثير من الأوّلين، وكثير من الآخرين".

عن بديل بن كعب أنه قال: "أهل الجنة عشرون ومئة صف، ثمانون صفا منها من هذه الأمة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وأصحاب اليمين مآ أصحاب اليمين} هذه الطبقة الثانية وهي دون الأولى، والاستفهام في قوله: {مآ أصحاب اليمين} استفهام تعجب وتفخيم، يعني: أي قوم هؤلاء؟! {في سدر مخضود} السدر شجر معروف ظله بارد ومنشط، ولكن السدر الذي في الجنة ليس كالسدر الذي في الدنيا، الاسم واحد والمعنى مختلف، كما قال تعالى: {فلا تعلم نفس مآ أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون} ولو كان ما في الجنة كالذي في الدنيا لكنا نعلم. والمخضود الذي لا شوك فيه {وطلح منضود} الطلح قيل: إنه شجر الموز، والمنضود الذي ملىء ثمرة {وظل ممدود} أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها

=

=

شمس بل هي ظل، وصفها بعض السلف بأنها كالنور الذي يكون قرب طلوع الشمس، تجد الأرض مملوءة نورًا ولكن لا تشاهد شمسًا، فهو ظل ممدود في المساحة والزمن {وماء مسكوب} أي: ماء مستمر دائمًا، كما قال تعالى: {فيهما عينان تجريان} وغير الماء أنهار أخرى من عسل ولبن وخمر، فالأنواع أربعة، وقد ورد أن هذه الأنهار تجري في غير أخدود، قال ابن القيم- رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضان

فإذا قال قائل: هل هذا ممكن؟!

فالجواب: نقول لا تتحدث هل هذا ممكن، بل صدق، وأخبار الغيب لا يمكن أن يرد عليها هذا السؤال، أليس النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر أن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ؟ الجواب: بلى، والواجب التصديق، وأن لا نقول: كيف؟ ولِمَ؟ لأن أمور الغيب ثابتة في القرآن والسنة فلا تسأل مثل هذا السؤال، لأنه لا يمكن الإحاطة بها، بل قل: آمنت بالله ورسوله، واستقم.

{وفاكهة كثيرة} الفاكهة كل طعام أو شراب يتفكه به الإنسان؛ لأن الطعام والشراب يكون أحيانًا ضروريًا معتادًا لا تتفكه به بل هو ضروري للبقاء، وأحيانًا يكون الطعام والشراب فاكهة يتفكه به الإنسان {كثيرة} أي: في أي وقت من الأوقات تجد هذه الفاكهة بينما في الدنيا الفواكه لها أوقات معينة تنقطع، ولهذا قال تعالى: {لا مقطوعة} أي: لا تقطع أبدًا في كل الأوقات {ولا ممنوعة} أي: لا أحد يمنعها، بل قد قال الله تعالى: {قطوفها دانية} أي: ما يقطفه الإنسان من الثمرة داني، حتى إنه إذا اشتهى الإنسان الثمرة وهي فوق تدلى الغصن حتى يكون بين يديه بدون تعب، وفاكهة الدنيا مقطوعة تأتي في وقت دون وقت، وممنوعة فلا يمكن أن تدخل بستان أحدٍ إلا بإذنه، أما في الآخرة فلا {وفرش مرفوعة} الفراش

=

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١).

{وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال}.

فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢).

{فِي سَمُوم} رِيح حَارَّة مِنْ النَّار تَنْفُذ فِي الْمَسَامّ {وَحَمِيم} مَاء شَدِيد الْحَرَارَة.

=

ما ينام عليه الإنسان {مرفوعة} أي عالية، ولما كان الذي مع الإنسان في الفراش الحور العين، قال الله تعالى: {إنآ أنشأناهن إنشاءً} أي: أنشأناهن إنشاءً عجيبًا غريبًا بديعًا، وفسر هذا الإنشاء بقوله تعالى: {فجعلناهن أبكارًا} أي: هؤلاء الزوجات أبكار مهما أتاها زوجها عادت بكرًا {إنمآ أمره إذآ أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} ونساء الدنيا إذا افتض الزوج بكارة الزوجة لا تعود، ولكن في الآخرة تعود بكرًا {عربًا أترابًا} العرب المتحببات إلى أزواجهن، وهذا يدل على كمال المتعة أن تكون الزوجة تتحبب إلى زوجها وتتقرب إليه وتغريه بنفسها، وتفعل كل ما يوجب محبته لها، {أترابًا} أي: على سن واحدة لا تختلف {لأصحاب اليمين} أي: ذلك المذكور من النعيم النفسي والبدني لأصحاب اليمين.

{ثلة من الأَولين وثلة من الأَخرين} هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين هم في المرتبة الثانية، والمرتبة الأولى السابقون السابقون، قال الله تعالى فيهم: {ثلة من الأَولين وقليل من الأَخرين} يعني ثلة من الأولين من هذه الأمة، وقليل من الآخرين، فإن خير قرون الأمة القرن الأول الذي هو قرن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تتناقص، أما أصحاب اليمين فقال الله تعالى فيهم: {ثلة من الأَولين وثلة من الأَخرين} أي: جماعة من هؤلاء وجماعة من هؤلاء.

وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣).

{وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم} دُخَان شَدِيد السَّوَاد.

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤).

{لَا بَارِد} كَغَيْرِهِ مِنْ الظِّلَال {وَلَا كَرِيم} حَسَن المنظر.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥).

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْل ذَلِك} فِي الدُّنْيَا {مُتْرَفِينَ} مُنَعَّمِينَ لَا يَتْعَبُونَ فِي الطَّاعَة.

وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦).

{وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْث} الذَّنْب {الْعَظِيم} أَيْ الشرك.

وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧).

{وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَبْعُوثُونَ} فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيق وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ.

أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨).

{أو آباؤنا الأولون} بفتح الواو للعطف والهمزة للاستفهام وهو في ذلك وفيما قبله للاستبعاد وفي قراءة بسكون الواو عطفا بأو والمعطوف عليه محل إن واسمها.

قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩).

{قل إن الأولين والآخرين}.

لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠).

{لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَات} لِوَقْتِ {يَوْم مَعْلُوم} أَيْ يوم القيامة.

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١).

{ثم إنكم أيها الضالون المكذبون}.

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّوم (٥٢).

{لآكلون من شجرة مِنْ زَقُّوم} بَيَان لِلشَّجَرِ.

فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣).

{فمالئون منها} من الشجر {البطون}.

فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤).

{فشاربون عليه} أي الزقوم المأكول {من الحميم}.

فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥).

{فَشَارِبُونَ شَرْب} بِفَتْحِ الشِّين وَضَمّهَا مَصْدَر {الْهِيم} الْإِبِل الْعِطَاش جَمْع هَيْمَان لِلذَّكَرِ وَهَيْمَى لِلْأُنْثَى كعطشان وعطشى.

هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦).

{هَذَا نُزُلهمْ} مَا أُعِدَّ لَهُمْ {يَوْم الدِّين} يوم القيامة[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ} [الواقعة: ٤١]، أي:"وأصحاب الشمال ما أسوأ حالهم جزاءهم!!".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره معجبا نبيه محمدا من أهل النار {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ} الذين يؤخذ بهم ذات الشمال من موقف الحساب إلى النار {مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ} ماذا لهم، وماذا أعدّ لهم".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال، فقال: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ}، أي: أي شيء هم فيه أصحاب الشمال؟".

قال مقاتل:"يقول: ما لأصحاب الشمال من الشر".

قال ابن عباس:"ما لهم، وما أعدّ لهم".

=

=

قال قتادة:"أي: ماذا لهم، وماذا أعدّ لهم".

قوله تعالى: {فِي سَمُومٍ} [الواقعة: ٤٢]، أي:"هم في ريح حارة من حَرِّ نار جهنم تأخذ بأنفاسهم".

قال الطبري:"يقول: هم في سّموم جهنم".

قال ابن كثير:"وهو: الهواء الحار".

قال مقاتل:"يعني: ريحا حارة تخرج من الصخرة التي في جهنم، فتقطع الوجوه وسائر اللحوم".

قال ابن عباس:"فيح نار جهنم".

عن الحسن:"{السَّمُومِ} اسم من أسماء النار، وطبقة من طبقات جهنم".

قوله تعالى: {وَحَمِيمٍ} [الواقعة: ٤٢]، أي:"وماء حار يغلي".

قال الطبري:"يقول: هم في حميم جهنم".

قال ابن كثير:"وهو: الماء الحار".

قال مقاتل:"يعني: الحار الشديد الذي قد انتهى حره".

قال ابن عباس:"الماء: الجار الذي قد انتهى حره فليس فوقه حر".

قال ابن عباس:"الحميم الحار الذي يحرق".

عن الحسن:"{إلّا حَمِيمًا وغَسّاقًا}، قال: شَرابَيْن في النار؛ يقال لأحدهما: حميم، والآخر: غسّاق".

قوله تعالى: {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} [الواقعة: ٤٣]، أي:"وظلٍّ من دخان شديد السواد".

وفي قوله تعالى: {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} [الواقعة: ٤٣]، وجوه:

أحدهما: أن «اليحموم»: الدخان، والمعنى: أنهم في ظل من دخان جهنم. قاله ابن عباس- وأبو مالك- ومجاهد- وعكرمة- وأبو صالح- وقتادة- والسدي- وابن زيد-

=

=

وغيرهم.

قال مجاهد:"من دخان حميم".

قال مجاهد:"يقول: ظل من دخان جهنم أسود هو اليحموم".

عن عكرِمة، {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}، قال: "الدخان".

عن ابن عباس: " {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}، قال: هو الدخان".

قال ابن عباس:"من دخان أسود". وفي لفظ: "من دخان جهنم". وفي لفظ:"من دخان حَميم".

مجاهد: {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}، قالا: "الدخان".

قال قتادة:"من دخان".

قال قتادة:"كنا نحَدَّث أنها ظلّ الدخان".

قال ابن زيد:"ظلّ الدخان دخان جَهنم، زعم ذلك بعض أهل العلم".

قال الفراء:"اليحموم: الدخان الأسود".

قال أبو عبيدة:"من شدة سواده يقال: أسود يحموم".

قال ابن قتيبة:"اليحموم: الدّخان وهو سرادق أهل النار فيما ذكر المفسرون".

قال ابن قتيبة:"أي: دخَانٍ أسودَ. واليحموم: الأسْود".

قال الطبري: يعني: "وظل من دُخان شديد السواد. والعرب تقول لكلّ شيء وصفته بشدّة السواد: أسود يَحْموم".

قال السمعاني:"أي: دخان أسود يغشي أهل النار، ويصيبهم من حره ما يغلي دماغهم".

قوله تعالى: {لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} [الواقعة: ٤٤]، أي:"لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ليس ذلك الظلّ ببارد، كبرد ظلال سائر الأشياء،

=

ولكنه حارّ، لأنه دخان من سعير جهنّم، وليس بكريم لأنه مؤلم من استظلّ به، والعرب تتبع كلّ منفيّ عنه صفة حمد نفي الكرم عنه، فتقول: ما هذا الطعام بطيب ولا كريم، وما هذا اللحم بسمين ولا كريم وما هذه الدار بنظيفة ولا كريمة".

قال ابن كثير:"أي: ليس طيب الهبوب ولا حَسَن المنظر".

قال مقاتل: " {لا بارد} المقيل، {ولا كريم}، يعني: ولا حسن المنزل".

قال مجاهد:"لا بارد المدخل ولا كريم".

قال قتادة:"لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر".

قال الضحاك:"كلّ شراب ليس بعذب فليس بكريم".

قال السعدي:"أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥)} [الواقعة: ٤٥]

إنهم كانوا في الدنيا متنعِّمين بالحرام، معرِضين عما جاءتهم به الرسل.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء الذين وصف صفتهم من أصحاب الشمال، كانوا قبل أن يصيبهم من عذاب الله ما أصابهم في الدنيا مترفين، يعني: منعمين".

قال ابن كثير:"ذكر تعالى استحقاقهم لذلك، فقال تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ}، أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل".

قال السعدي:"أي: قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} [الواقعة: ٤٥]، وجهان:

أحدهما: منعمين، قاله ابن عباس.

=

الثاني: مشركين، قاله السدي.

ويحتمل وصفهم بالترف وجهين:

أحدهما: التهاؤهم عن الإعتبار وشغلهم عن الإزدجار.

الثاني: لأن عذاب المترف أشد ألمًا.

قوله تعالى: {وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦)} [الواقعة: ٤٦]

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: وكانوا يقيمون على الذنب العظيم".

عن مجاهد: " {يُصِروّن} : يدمنون". وفي لفظ:"يدهنون".

قال ابن زيد:"لا يتوبون ولا يستغفرون، والإصرار عند العرب على الذنب: الإقامة عليه، وترك الإقلاع عنه".

وفي تفسير قوله تعالى: {عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} [الواقعة: ٤٦]، وجوه:

أحدها: أنه الشرك بالله، قاله الحسن والضحاك وعكرمة وقتادة-في رواية-ـ وابن زيد والسدي.

قال الطبري:"يعني: على الذنب العظيم، وهو الشرك بالله".

قال ابن قتيبة:"أي يُقيمون على الحنث العظيم، ولا يتوبون عنه، و «الحنث»: الشِّرك؛ وهو: الكبير من الذنوب أيضًا".

قال ابن كثير:"أي: يُصَمِّمون ولا ينوون توبة {عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} وهو الكفر بالله، وجعل الأوثان والأنداد أربابًا من دون الله".

عن قتادة، قوله: " {وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} ، وهو الشرك".

قال ابن زيد:"الحنث العظيم: الذنب العظيم، قال: وذلك الذنب العظيم الشرك لا يتوبون ولا يستغفرون".

الثاني: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه، قاله قتادة ومجاهد.

عن مجاهد: " {عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ} ، قال: على الذنب". وفي لفظ: "الذنب

=

=

العظيم".

وروي عن الحسن:"{عَلى الحِنْثِ} على الذَّنب".

وقال قتادة:"على الذَّنب العظيم".

قال السعدي:"أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة غير مغفورة".

الثالث: هو اليمين الغموس، قاله الشعبي.

الرابع: الكبائر من الذنوب. قاله الشعبي.

قال الشعبي:"هي الكبائر".

الخامس: أن الحنث العظيم نقض العهد المحصن بالكفر. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧)} [الواقعة: ٤٧]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكانوا يقولون كفرا منهم بالبعث، وإنكارًا لإحياء الله خلقه من بعد مماتهم: أئذا كنا ترابا في قبورنا من بعد مماتنا، وعظاما نخرة، أئنا لمبعوثون منها أحياء كما كنا قبل الممات".

قال ابن كثير: " يعني: أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه".

قال السعدي:"وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعادا لوقوعه: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا ترابا وعظاما؟ هذا من المحال".

عن قتادة: " {أإذا مِتْنا وكُنّا تُرابًا وعِظامًا أإنّا لَمَبْعُوثُونَ} : تكذيبًا بالبعث".

قوله تعالى: {أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨)} [الواقعة: ٤٨]

قال الطبري: أي:"أو آباؤنا الأوّلون الذين كانوا قبلنا، وهم الأوّلون".

قال السمعاني:"أي: أو يبعث آباؤنا الأولون بعد أن صاروا ترابا ورمما".

=

=

قال أبو السعود: قالوا ذلك" لتأكيد النكير".

قال القشيري: أي" يبعثون كذلك؟ قالوه على جهة الاستبعاد فالمعرفة لهم مفقودة، والبصائر لهم مسدودة، وقلوبهم عن التوحيد مصدودة".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠)} [الواقعة: ٤٩- ٥٠]

عن ابن عباس:" {قُلْ}، يا محمد {إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}، قال: يوم القيامة".

قال الطبري: " يقول الله لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء إن الأوّلين من آبائكم والآخرين منكم ومن غيركم، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم، وذلك يوم القيامة".

قال الشوكاني:"أي: قل لهم يا محمد إن الأولين من الأمم والآخرين منهم الذين أنتم من جملتهم لمجموعون بعد البعث إلى ميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة".

قال السعدي:"أي: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف".

قال ابن كثير: " أي: أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عَرَصات القيامة، لا نغادر منهم أحدًا، كما قال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ. يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٣- ١٠٥]. ولهذا قال هاهنا: {لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}، أي: هو موقت بوقت مُحَدَّد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص".

قال الزمخشري: أي: " إلى ما وقتت به الدنيا من يوم معلوم، والميقات: ما وقت

=

=

به الشيء، أي: حدّ. ومنه مواقيت الإحرام: وهي الحدود التي لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما".

قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ} [الواقعة:٥١- ٥٢]، أي:"ثم إنكم أيها الضالون عن طريق الهدى المكذبون بوعيد الله ووعده، لآكلون من شجر من زقوم، وهو من أقبح الشجر".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لأصحاب الشمال: ثم إنكم أيها الضالون عن طريق الهدى، المكذّبون بوعيد الله ووعده، لآكلون من شجر من زقوم".

قال السعدي:"{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ} عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، {الْمُكَذِّبُونَ} بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد. {لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ} وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحا، وأبشعها منظرا".

قال الزمخشري: الخطاب: لأهل مكة ومن في مثل حالهم".

قال الشوكاني:"وصفهم سبحانه بوصفين قبيحين، وهما الضلال عن الحق والتكذيب".

قال ابن عباس:"الزقوم نابتة في أصل الجحيم- وكان ابن عباس يقول: إن الجحيم سقر، وفيه شجرة الزقوم -".

قال الحسن:"أصلها في قَعْر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دَركاتها.

قال قتادة:"غُذِّيَتْ بالنار، ومنها خُلِقَتْ".

عن أبي عمران الجوني، قال: "بلغنا: أنّ ابنَ آدم لا ينهش مِن شجرة الزقوم نهشةً إلا نهشَتْ مِنه مثلَها".

قوله تعالى: {فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} [الواقعة: ٥٣]، أي:"فمالئون منها بطونكم ؛ لشدة الجوع".

قال ابن عباس:"يملؤون من الزَّقوم بطونهم".

=

=

قال الطبري: " يقول: فمالئون من الشجر الزَّقوم بطونهم".

قال السعدي:"والذي أوجب لهم أكلها -مع ما هي عليه من الشناعة- الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع".

قال ابن كثير: " وذلك أنهم يقبضون ويُسَجَرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم، حتى يملؤوا منها بطونهم".

قوله تعالى: {فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ} [الواقعة: ٥٤]، أي:"فشاربون عليه ماء متناهيًا في الحرارة لا يَرْوي ظمأ".

قال ابن عباس:"يقول: على الزّقوم الحميم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: فشاربٌ أصحابُ الشمال على الشجر من الزَّقوم إذا أكلوه، فملئوا منه بطونهم من الحميم الذي انتهى غليه وحرّه، وقد قيل: إن معنى قوله: {فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ}: فشاربون على الأكل من الشجر من الزقوم".

قال السعدي:"وأما شرابهم، فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون".

قال الشوكاني:"الحميم: الماء الذي قد بلغ حره إلى الغاية، والمعنى: فشاربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار".

قوله تعالى: {فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ} [الواقعة: ٥٥]، أي:"فشاربون منه بكثرة، كشرب الإبل العطاش التي لا تَرْوى لداء يصيبها".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ} [الواقعة: ٥٥]، وجوه:

أحدها: أنها الأرض الرملة التي لا تروى بالماء، وهي هيام الأرض، قاله ابن عباس-في رواية عمرو بن دينار- والضحاك وسفيان والكلبي وابن كيسان.

عن سفيان: " {فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ}، قال: السِّهْلَةُ".

=

=

قال الفراء:"يقول: يشرب أهل النار كما تشرب السهلة".

قال الطبري:"يقال: إن الهيم: الرمل، بمعنى أن أهل النار يشربون الحميم شرب الرمل الماء".

الثاني: أنها الإبل التي يواصلها الهيام وهو داء يحدث عطشًا فلا تزال الإبل تشرب الماء حتى تموت، قاله عكرمة ابن عباس -أيضا- وعكرمة والسدي ومنه قول قيس بن الملوح:

يُقَالُ بِهِ دَاءُ الْهُيَامِ أَصَابَهُ... وَقَدْ عَلِمَتْ نَفْسِيْ مَكَانَ شِفَائِيَا

قال عكرمة:"الإبل يأخذها العُطاش، فلا تزال تشرب حتى تهلك". وفي لفظ:"هي الإبل يأخذها العطاش".

قال ابن عباس:"الإبل يأخذها داء يقال له الهيام فلا تروى من الماء. قال: فشبه شرب أهل النار من الحميم بشرب الإبل الهيم".

قال ابن عباس:"يقول: شرب الإبل العطاش". وفي لفظ:"الإبل الظماء". وفي لفظ:"هي الإبل العطاش".

قال الضحاك:"الهيم: الإبل العطاش، تشرب فلا تروى يأخذها داء يقال له الهُيام".

قال قتادة:"داء بالإبل لا تَرْوَى معه".

وعن مجاهد قال:"الإبل الهيم". وفي لفظ:"الهيم: «الإبل الظمأى»".

عن الحسن، قال: " {الهِيمِ} الإبل العِطاش".

قال عكرمة:"هي الإبل المِراضى، تَمُصّ الماء مَصًّا ولا تَرْوَى".

وعن أبي مجلز:"{فَشارِبُونَ شُرْبَ الهِيمِ}، قال: كان المِراض تمصّ الماء مصًّا، ولا تَروى"".

قال مقاتل:"يعنى بـ «الهيم»: الإبل يأخذها داء يقال له: الهيم، فلا تروى من

=

=

الشراب، وذلك أنه يلقى على أهل النار العطش كل يوم مرتين حتى يشربوا الشراب الهيم".

قال الفراء:"الإبل التي يصيبها داء فلا تروى من الماء، واحدها: أهيم، والأنثى: هيماء".

الثالث: أن الهيم: الإبل الضوال، لأنها تهيم في الأرض لا تجد ماءً فإذا وجدته فلا شيء أعظم منها شربًا. حكاه الماوردي.

الرابع: أن شرب الهيم هو أن تمد الشرب مرة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثًا، وهذا قول خالد بن معدان.

وعن خالد بن معدان: "أنه كان يكره أن يشرب شُرْبَ الهيم عَبَّة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثًا".

قال الماوردي:"فوصف شربهم الحميم بأنه كشرب الهيم، لأنه أكثر شربًا فكان أزيد عذابًا".

قرأ نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ: «شرب الهيم»، بضم الشين، وباقي السبعة بفتحِها.

قوله تعالى: {هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)} [الواقعة: ٥٦]

عن ابن عباس: {هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ}، قال: " كرامة يوم الحساب".

عن قتادة: {يَوْمِ الدِّينِ}، قال: " يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم".

وقال مجاهد: "يوم الحساب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي وصفت لكم أيها الناس، أن هؤلاء المكذّبين الضالين يأكلونه من شجر من زقوم، ويشربون عليه من الحميم، هو نزلهم الذي ينزلهم ربهم يوم الدين، يعني: يوم يدين الله عباده".

قال ابن قتيبة:"أي: رزقُهم وطعامهم".

قال الزجاج:"أي: هذا غذاؤهم يوم الجزاء أي يوم يجازَوْنَ بأعمالهم".

=

=

قال النحاس:"أي: الذي ينزلهم الله إياه يوم القيامة وهو يوم الدين الذي يجازي الناس فيه بأعمالهم".

قال ابن أبي زمنين:"{نزلهم}، أي: رزقهم وطعامهم".

قال الثعلبي:"رزقهم وغذاؤهم وما أعدّ لهم {يَوْمَ الدِّين}".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال في حق المؤمنين: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نزلا} [الكهف: ١٠٧] أي: ضيافة وكرامة".

قال السعدي:"{هَذَا} الطعام والشراب {نزلُهُمْ} أي: ضيافتهم {يَوْمَ الدِّينِ} وهي [ص:٨٣٥] الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه".

قال السمعاني:"فإن قيل: «النزل» إنما يستعمل في الإكرام والإحسان؟

الجواب: أنه لما جعل هذا في موضع النزل لأهل الجنة سماه نزلا، وهو كما أنه سمى عقوبتهم ثوابا، ووعيدهم بشارة، والمعنى فيه ما بينا".

قال العثيمين: قوله تعالى: {وأصحاب الشمال مآ أصحاب الشمال} وهم الكفار والمنافقون {في سموم وحميم} هذا القسم في سموم، أي: حرارة شديدة- والعياذ بالله -، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة كيفيتها، فقال الله تعالى: {إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارًا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزًا حكيمًا} وأخبر أنه {يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد} والآيات في هذا المعنى كثيرة، وقوله: {حميم}ـ الحميم هو الماء الحار الشديد الحرارة، فهم- والعياذ بالله- محاطون بالحرارة من كل وجه، ومن كل جانب {وظل من يحموم} اليحموم هو الدخان المحض، وقد وصفه الله بأنه {لا بارد ولا كريم}

=

=

يعني ليس باردًا يقيهم الحر، ولا كريم حسن المنظر يتنعمون به، ويستريحون فيه فهو لا بارد كما هو الشأن في الظل، ولا كريم، أي: حسن المظهر لأنه دخان كريه منظره حار مخبره- نسأل الله العافية -، ثم بين حالهم من قبل فقال: {إنهم كانوا قبل ذلك مترفين}ـ وذلك في الدنيا، قد أترف الله أبدانهم، وهيأ لهم من نعيم البدن ما وصلوا فيه إلى حد الترف، لكن هذا لم ينفعهم- والعياذ بالله- ولم ينجهم من النار، {وكانوا

يصرون على الحنث العظيم}ـ يصرون أي: يستمرون عليه، والحنث العظيم هو الشرك؛ لأن الأصل في الحنث الإثم، والعظيم هو الشرك، قال الله تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} وكانوا أيضًا ينكرون البعث: {وكانوا يقولون أءذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أءنا لمبعوثون أو ءاباؤنا الأولون} ينكرون هذا إنكارًا عظيمًا، يقولون: أإذا بليت عظامنا وصارت رفاتًا هل نبعث؟ وأيضًا هل يبعث آباؤنا الأولون؟ ولهذا يحتجون يقولون: {ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين}ـ وهذه حجة باطلة؛ لأنه لا يقال لهم: إنكم ستبعثون اليوم، وإنما تبعثون يوم القيامة، فكيف تتحدون وتقولون هاتوا آباءنا؟ فاليوم الآخر ليس هو اليوم الحاضر حتى يتحدوا ويقولوا هاتوا آباءنا نقول: إن هذا يكون يوم القيامة، قال الله ﷻ: {قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم} الأولون من المخلوقين والآخرون كلهم سيبعثون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، لا جبال ولا أشجار، ولا كروية بل تمد الأرض مسطحة، يرى أقصاهم كما يرى أدناهم، والآن لما كانت الأرض كروية فإن البعيد لا تراه؛ لأنه منخفض، لكن إذا كان يوم القيامة سطحت الأرض، وصارت كالأديم، أي: كالجلد الممدود، فيبعث الخلائق كلهم على هذا الصعيد، وقوله: {إلى ميقات يوم معلوم} أي: عند الله ﷻ لقول الله: {يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي} {ثم إنكم} أي بعد

=

=

البعث {أيها الضآلون المكذبون} الضالون في العمل فهم لا يعملون، المكذبون للخبر فهم لا يصدقون- والعياذ بالله- {لأكلون من شجر من زقوم} أي: آكلون من شجر، وهذا الشجر نوعه من زقوم، كما تقول: خاتم من حديد، وباب من خشب، وجدار من طين، فقوله {من شجر من زقوم} من شجر متعلقة بأكلهم، ومن زقوم بيان للشجر، وسمي زقومًا لأن الإنسان- والعياذ
بالله- إذا أكله يتزقمه تزقمًا، لشدة بلعه لا يبتلعه بسهولة {فمالئون منها البطون} أي: أنهم يملأون البطون من هذا الشجر، مع أن هذا الشجر مرّ خبيث الرائحة، كريه المنظر، لكن لشدة جوعهم يأكلونه كما يأكل الجائع المضطر، فهم يأكلونه على تكره، كما قال الله ﷻ: {ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت}ـ فهم يأكلون من هذا الشجر، ويملأون البطون منها، يأتيهم شغف عظيم جدًا للأكل، حتى يملأوا بطونهم مما يكرهونه، وهذا أشد في العذاب- نسأل الله العافية- ثم إذا ملأوا بطونهم من هذا الطعام اشتدت حاجتهم إلى الشرب، فكيف يشربون؟ قال الله تعالى: {فشاربون عليه من الحميم} الحميم: هو الماء الحار، يشربون ماءً حارًّا بعد أن يستغيثوا مدة طويلة، وقد وصف الله هذا الماء بقوله: {بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقًا} وقال الله ﷻ: {وسقوا ماءً حميمًا فقطع أمعاءهم} فتأمل يا أخي هذا: إذا قربوه من الوجه يشويه وإذا دخل بطونهم قطع أمعاءهم، ومع ذلك يشربونه بشدة: {شرب الهيم}ـ أي: شرب الإبل، والهيم: جمع هائمة، أو جمع هيماء، يعني أنها شديدة العطش لا يرويها الشيء القليل، فيملأون بطونهم- والعياذ بالله- من الشجر الزقوم، ويشربون من الحميم شرب الهيم، أسأل الله أن يجيرني وإياكم من النار.

{هذا نزلهم يوم الدين} أي: هذه ضيافتهم، بخلاف المؤمنين فإن ضيافتهم جنات

=

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧).

{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} أَوَجَدْنَاكُمْ مِنْ عَدَم {فَلَوْلَا} هَلَّا {تُصَدِّقُونَ} بِالْبَعْثِ إِذْ الْقَادِر عَلَى الْإِنْشَاء قَادِر على الإعادة.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨).

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} تُرِيقُونَ مِنْ الْمَنِيّ فِي أرحام النساء.

أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩).

{أَأَنْتُمْ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال أَلِف بَيْن الْمُسَهَّلَة وَالْأُخْرَى وَتَرْكه فِي المواضع الأخرى {تخلقونه} أي المني بشرا {أم نحن الخالقون}.

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠).

{نَحْنُ قَدَّرْنَا} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {بَيْنكُمْ الْمَوْت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} بِعَاجِزِينَ.

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١).

{عَلَى} عَنْ {أَنْ نُبَدِّل} نَجْعَل {أَمْثَالكُمْ} مَكَانكُمْ {وَنُنْشِئكُمْ} نَخْلُقكُمْ {فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} مِنْ الصُّوَر كَالْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِير.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢).

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَة الْأُولَى} وَفِي قِرَاءَة بِسُكُونِ الشِّين {فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} فِيهِ إدْغَام التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِي الذَّال.

=

الفردوس {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلًا خالدين فيها لا يبغون عنها حولًا}.

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣).

{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} تُثِيرُونَ فِي الْأَرْض وَتُلْقُونَ البذر فيها.

أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤).

{أأنتم تزرعونه} تنبتونه {أم نحن الزارعون}.

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥).

{لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} نَبَاتًا يَابِسًا لَا حَبّ فِيهِ {فَظَلْتُمْ} أَصْله ظَلِلْتُمْ بِكَسْرِ اللَّام حُذِفَتْ تَخْفِيفًا أَيْ أَقَمْتُمْ نَهَارًا {تَفَكَّهُونَ} حُذِفَتْ مِنْهُ إحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الْأَصْل تَعْجَبُونَ مِنْ ذلك وتقولون.

إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦).

{إنَّا لَمُغْرَمُونَ} نَفَقَة زَرْعنَا.

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧).

{بل نحن محرومون} ممنوعون رزقنا.

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨).

{أفرأيتم الماء الذي تشربون}.

أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩).

{أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْن} السَّحَاب جَمْع مُزْنَة {أم نحن المنزلون}.

لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠).

{لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا} مِلْحًا لَا يُمْكِن شربه {فلولا} هلا {تشكرون}.

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١).

{أَفَرَأَيْتُمْ النَّار الَّتِي تُورُونَ} تُخْرِجُونَ مِنْ الشَّجَر الأخضر.

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢).

{أأنتم أنشأتم شجرتها} كالمرخ والعفار والكلخ {أم نحن المنشئون}.

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣).

{نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَة} لِنَارِ جَهَنَّم {وَمَتَاعًا} بِلُغَةٍ {لِلْمُقْوِينَ} لِلْمُسَافِرِينَ مِنْ أَقْوَى الْقَوْم أَيْ صَارُوا بالقوا بِالْقَصْرِ وَالْمَدّ أَيْ الْقَفْر وَهُوَ مَفَازَة لَا نَبَات فِيهَا وَلَا مَاء.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤).

{فَسَبِّحْ} نَزِّهْ {بِاسْمِ} زَائِدَة {رَبّك الْعَظِيم} الله[1].

---

(١) قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧)} [الواقعة: ٥٧]

قوله تعالى: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} [الواقعة: ٥٧]، أي:"نحن خلقناكم -أيها الناس- ولم تكونوا شيئًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لكفار قريش والمكذّبين بالبعث: نحن خلقناكم أيها الناس ولم تكونوا شيئًا، فأوجدناكم بشرا".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مُقررًا للمعاد، ورداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد، من الذين قالوا: {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} [الصافات: ١٦]، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد، فقال: {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ}، أي: نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى".

روي عن مجاهد: {ولقد خلقناكم} [الأعراف: ١١] يعني: «خلق آدم»". وروي عن قتادة مثله.

قوله تعالى: {فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ} [الواقعة: ٥٧]، أي:"فهلا تصدِّقون بالبعث".

قال الطبري: يقول:"فهلا تصدّقون من فعل ذلك بكم في قيله لكم: إنه يبعثكم بعد مماتكم وبِلاكم في قبوركم، كهيأتكم قبل مماتكم".

=

قال ابن كثير:"أي: فهلا تصدقون بالبعث!".

قال ابن عباس:"يقول: أفلا تُصدِّقون".

قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ} [الواقعة: ٥٨]، أي:"أفرأيتم النُّطَف التي تقذفونها في أرحام نسائكم".

قال ابن عباس:"هذا ماء الرجل".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لهؤلاء المكذّبين بالبعث: أفرأيتم أيها المُنكرون قُدرة الله على إحيائكم من بعد مماتكم- النطف التي تمنون في أرحام نسائكم-؟".

قال مقاتل:"ثم أخبر عن صنعه ليعتبروا فقال: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ}، يعني: النطفة الماء الدافق".

قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} [الواقعة: ٥٩]، أي:"هل أنتم تخلقون ذلك بشرًا أم نحن الخالقون؟".

قال الطبري: يقول:"أنتم تخلقون تلك أم نحن الخالقون؟".

قال ابن كثير:"أي: أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها، أم الله الخالق لذلك؟".

عن حُجْر المَدَريّ، قال: "بتُّ عند عليٍّ، فسمعتُه وهو يُصلّي بالليل يقرأ، فمرّ بهذه الآية: {أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالِقُونَ}. قال: بل أنتَ، يا ربّ. ثلاثًا. ثم قرأ: {أأنتم تزرعونه}. قال: بل أنتَ، يا ربّ. ثلاثًا. ثم قرأ: {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ}. قال: بل أنتَ، يا ربّ. ثلاثًا. ثم قرأ: {أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها}. قال: بل أنت، يا ربّ. ثلاثًا".

قوله تعالى: {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ} [الواقعة: ٦١]، أي:"نحن قضينا وحكمنا عليكم بالموت وساوينا بينكم".

قال ابن كثير:"أي: صرفناه بينكم".

=

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: نحن قدرنا بينكم أيها الناس الموت، فعجَّلناه لبعض، وأخَّرناه عن بعض إلى أجل مسمى".

قال مقاتل:"فمنكم من يموت صغيرا، ومنكم من يموت كبيرا، أو يموت شابا، أو شيخا، أو يبلغ أرذل العمر".

عن مجاهد، قوله: " {قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ}، قال: المستأخر والمستعجل". وفي لفظ:"يعني: المتأخر منكم والمستعجل".

قال الضحاك: "ساوى فيه بين أهل السماء والأرض".

قوله تعالى: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} [الواقعة: ٦٠-٦١]، أي:"وما نحن بعاجزين عن أن نغيِّر خلقكم يوم القيامة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} أيها الناس في أنفسكم وآجالكم، فمفتات علينا فيها في الأمر الذي قدّرناه لها من حياة وموت بل لا يتقدم شيء من أجلنا، ولا يتأخر عنه. وقوله: {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ} يقول: على أن نُبَدّل منكم أمْثالَكَمْ بعد مهلككم فنجيء بآخرين من جنسكم".

قال الزجاج:"أي: إن أردنا أن نخلق خلقًا غيركم لم يسبقنا سابق ولا يفوتنا ذلك".

عن ابن عباس:"{عَلى أنْ نُبَدِّلَ أمْثالَكُمْ} فيقول: نذهب بكم، ونجيء بغيركم".

قوله تعالى: {وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الواقعة: ٦١]، أي:"ولسنا بعاجزين أيضًا وننشئكم فيما لا تعلمونه من الصفات والأحوال".

قال الطبري: " يقول: ونبدلكم عما تعلمون من أنفسكم فيما لا تعلمون منها من الصور".

قال أبو عبيدة:"نبدّلكم عما تعلمون من أنفسكم".

قال الزجاج:"أي: إن أردنا أن نجعل منكم القردة والخنازير لم نسبق ولَا فَاتَنا

=

=

ذَلك".

قال ابن كثير:"أي: من الصفات والأحوال".

عن مجاهد، قوله: " {وَنُنْشِئَكُمْ}: في أي خلق شئنا".

قال السدي:"{ونُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ} نخلُقكم في سوء خلقكم".

عن ابن عباس:"{ونُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ} يقول: نخلقكم فيما لا تعلمون؛ إن نشأ خلقناكم قِردة، وإن نشأ خلقناكم خنازير".

قال سعيد بن المسيّب: " {ونُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ} يعني: في حواصل طير، تكون بِبَرَهُوت، كأنها الخطاطيف. وبَرَهُوت: وادٍ باليمن".

قال الحسن:"{ونُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ} أي: نبدّل صفاتكم، ونجعلكم قِردة وخنازير كما فعلنا بمن كان قبلكم".

قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى} [الواقعة: ٦٢]، أي:"ولقد علمتم أن الله أنشأكم النشأة الأولى ولم تكونوا شيئًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولقد علمتم أيها الناس الإحداثة الأولى التي أحدثناكموها، ولم تكونوا من قبل ذلك شيئًا".

قال ابن كثير:"أي: قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة".

قال الزجاج:"أي: قد علمتم ابتداء الخلق فلم أنكرتم البعث".

عن مجاهد، قوله: {النَّشْأَةَ الأولَى}، قال: "إذ لم تكونوا شيئًا".

قال قتادة وأبو عمران الجوني:"هو خلق آدم".

قال قتادة:"يعني: خلق آدم لستَ سائلا أحدًا من الخلق إلا أنبأك أن الله خلق آدم من طين".

عن أبي عمران الجَوْني -من طريق جعفر بن سليمان- يقرأ هذه الآية: {ولَقَدْ

=

=

عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى}، قال: هو خلْق آدم".

عن الضحاك:"{ولَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولى} قال: خلْق آدم وخلْقكم".

قال مقاتل:"يعنى: الخلق الأول حين خلقتم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ولم تكونوا شيئا".

قوله تعالى: {فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} [الواقعة: ٦٢]، أي:"فهلا تذكَّرون قدرة الله على إنشائكم مرة أخرى".

عن الضحاك:"{فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ}، فهلّا تصدّقون".

قال الزجاج: أي: " هلَّا تذكرون".

قال مقاتل:"في البعث أنه قادر على أن يبعثكم، كما خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فهلا تذكرون أيها الناس، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى، ولم تكونوا شيئا، لا يتعذّر عليه أن يعيدكم من بعد مماتكم وفنائكم أحياء".

قال ابن كثير: أي:"فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة- وهي البَداءة- قادر على النشأة الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، وكما قال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]، وقال: {أَوَلا يَذْكُرُ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [مريم: ٦٧]، وقال: {أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: ٧٧- ٧٩]، وقال تعالى: {أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}؟ [القيامة: ٣٦- ٤٠]".

=

قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ} [الواقعة: ٦٣]، أي:"أفرأيتم الحرث الذي تحرثونه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أفرأيتم أيها الناس الحرث الذي تحرثونه".

قال ابن كثير: " وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها".

قال السعدي: " وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإنابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفواكه، ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم، التي لا يقدرون أن يحصوها، فضلا عن شكرها، وأداء حقها".

قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} [الواقعة: ٦٤]، أي:"هل أنتم تُنبتونه في الأرض؟ بل نحن نُقِرُّ قراره وننبته في الأرض؟".

قال الطبري:"يقول: أأنتم تصيرونه زرعًا، أم نحن نجعله كذلك؟".

قال ابن كثير: " {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ}، أي: تنبتونه في الأرض {أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، أي: بل نحن الذين نُقِرُّه قراره وننبته في الأرض".

قال مقاتل:"يعنى: نحن الحافظون. يقول: أنتم تنبتونه أم نحن المنبتون له".

قال السعدي: "أي: أأنتم أخرجتموه نباتا من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حبا حصيدا وثمرا نضيجا؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر، ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإبقاؤه لكم بلغة ومتاعا إلى حين".

عن مجاهد:"{أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ}، قال: تُنبِتونه".

قال مجاهد:"لا تقُلْ: زرعتُ. ولكن قل: حرثتُ. إنّ الله هو الزارع".

=

قال أبو عبد الرحمن السلمي: "لا تقولوا: زرعنا ولكن قولوا: حرثنا".

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تَقُولَنَّ زَرَعْتُ ولَكنْ قُلْ حَرَثْتُ" قال أبو هريرة ألم تسمع إلى قول الله: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}".

وروي عن حُجْر المدَرِيّ:"أنه كان إذا قرأ: {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} وأمثالها يقول: بل أنت يا رب".

قوله تعالى: {لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا} [الواقعة: ٦٥]، أي:"لو نشاء لجعلنا ذلك الزرع هشيمًا، لا يُنتفع به في مطعم".

قال عطاء:"تِبنًا لا قمح فيه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لو نشاء جعلنا ذلك الزرع الذي زرعناه هشيما لا يُنْتفع به في مطعم وغذاء".

قال ابن كثير: " أي: نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا، وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لجعلناه حطامًا، أي: لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده".

قال مقاتل:"{لَوْ نَشَاءُ} إذا أدرك وبلغ، {لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا}، يعني: هالكا".

قال الزجاج: " أي: لو جعلنا ما تزرعون حطامًا، أي: أبطلناه حتى يكون متحطمًا لا حنطة فيه ولا شيء مما تَزْرَعُون".

قال أبو عبيدة:"الحطام الهشيم والرّفات والرّخام: واحد، ومتاع الدنيا حطام".

قوله تعالى: {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} [الواقعة: ٦٥]، أي:"فأصبحتم تتعجبون مما نزل بزرعكم".

وفي قوله تعالى: {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} [الواقعة: ٦٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: فظلتم تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم من المصيبة باحتراقه وهلاكه. قاله ابن عباسـ ومجاهدـ وقتادة.

=

=

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد، في قوله: {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}، قال: تعجبون حين صنع بحرثكم ما صنع به، وقرأ قول الله ﷻ: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، وقرأ قول الله: {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ}، قال: هؤلاء ناعمين، وقرأ قول الله جل ثناؤه {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ}... إلى قوله: {كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ}".

اللحياني: "تفكّهتُ من كَذَا وفكِهْت- أَي: عجِبت".

الثاني: فظلتم تلاومون بينكم في تفريطكم في طاعة ربكم جلّ ثناؤه، حتى نالكم بما نالكم من إهلاك زرعكم. وهذا قول عكرمة.

الثالث: فظلتم تندمون على ما سلف منكم في معصية الله التي أوجب لكم عقوبته، حتى نالكم في زرعكم ما نالكم. وهذا قول الحسن وقتادة-في رواية- والسدي.

قال الزجاج: "أي تَنَدّمُون".

قال ابن كثير:"معناه: إما على ما أنفقتم، أو على ما أسلفتم من الذنوب".

وقال ابن الأعرابي: "تفكهت، وتفكنت، أي: تندمت".

الرابع: تحزنون، قاله ابن كيسان.

الخامس: تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم. قاله مجاهد.

قال ابن كثير:"وهذا يرجع إلى الأول، وهو التعجب من السبب الذي من أجله أصيبوا في مالهم".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى {فَظَلْتُمْ}: فأقمتم تعجبون مما نزل بزرعكم وأصله من: التفكه بالحديث إذا حدّث الرجلُ الرجلَ بالحديث يعجب منه، ويلهى به، فكذلك ذلك. وكأن معنى الكلام: فأقمتم تتعجبون يُعَجِّب بعضكم بعضا مما نزل بكم".

قال ابن كثير: " {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ}. ثم فسر ذلك بقوله: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ

=

=

مَحْرُومُونَ}، أي: لو جعلناه حطاما لظَلْتُم تفكهون في المقالة، تنوعون كلامكم".
قال السعدي:"أي: فصرتم بسبب جعله حطاما، بعد أن تعبتم فيه وأنفقتم النفقات الكثيرة {تَفَكَّهُونَ} أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم".
قال الكسائي: " «تفكه»: من الأضداد، تقول العرب: تفكهت، أي: تنعّمت، وتفكهت، أي: حزنت".
قوله تعالى: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} [الواقعة: ٦٦]، أي:"وتقولون: إنا لمحمَّلون الغرم في إنفاقنا حيث ذهب زرعنا وغرمنا الحبَّ الذي بذرناه".
قال ابن كثير: " فتقولون تارة: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ}، أي: لَمُلْقَون، وتاره تقولون: بل نحن محرومون".
وفي قوله تعالى: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} [الواقعة: ٦٦]، وجوه من التفسير:
أحدها: إنا لمولع بنا. قاله مجاهد- وعكرمة- ومنه قول النمر بن تولب:
سلا عن تذكره تكتما... وكان رهينًا بها مغرمًا
أي: مولع.
قال مقاتل:"يعني: إنا لمولع بنا الغرم".
الثاني: إنا لمعذّبون. قاله قتادة- وأبو عبيدة- وأنشد قول بشر بن أبى خازم:
ويومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفَا... رِ كانا عذابًا وكانا غرامًا
الثالث: إنا لملقون للشرّ. قاله مجاهد-أيضا-.
الرابع: إنا مجدودون، يعني: لا حظ لنا. قاله مجاهد-أيضا-- وأنشد له الماوردي البيت السابق.
قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: إنا لمعذّبون، وذلك أن الغرام عند العرب: العذاب، ومنه قول الأعشى:

=

=

يُعاقِبْ يَكُنْ غَرَاما وَإنْ يعـ... ط جَزيلا فإنَّهُ لا يُبالي

يعني بقوله: يكن غرامًا: يكن عذابًا".

قال الزجاج: " أي: يقولون قد غرمنا وذهب زرعنا".

قال السعدي: " أي: إنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا".

قوله تعالى: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} [الواقعة: ٦٧]، أي:"بل نحن محرومون الرزق، غرمنا قيمة البذر، وحُرمنا خروج الزرع".

قال مقاتل:"ولقلتم: بل حرمنا خيرها".

قال الطبري:"يعني بذلك تعالى ذكره أنهم يقولون: ما هلك زرعنا وأصبنا به من أجل {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ}، ولكنا قوم محرومون، يقول: إنهم غير مجدودين، ليس لهم جَد".

قال السعدي: " ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب دهيتم، فتقولون: {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكمله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره".

عن مجاهد: " {بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، قال: حُورِفنا فحرمنا". وفي لفظ:"أي: محدودون".

قال قتادة:"أي: محارَفون".

قال ابن كثير:"أي: لا يثبت لنا مال، ولا ينتج لنا ربح".

قال محمد بن كعب القرظي:"المحروم: الذي تصيبه الجائحة".

قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ} [الواقعة: ٦٩]، أي:"أفرأيتم الماء الذي تشربونه لتحْيَوا به".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أفرأيتم أيها الناس الماء الذي تشربون؟".

قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ} [الواقعة: ٦٩]،

=

=

أي:"أأنتم أنزلتموه من السحاب إلى قرار الأرض، أم نحن الذين أنزلناه رحمة بكم؟".

قال الطبري: يقول:"أأنتم أنزلتموه من السحاب فوقكم إلى قرار الأرض، أم نحن منزلوه لكم؟".

قال أبو عبيدة:"{الْمُزْنِ}: السّحاب. واحدها: مزنة".

عن مجاهد، في قوله:"{مِنَ الْمُزْنِ}، قال: السحاب".

قال قتادة:"أي: من السَّحاب".

قال ابن زيد:"المزن: السحاب اسمها، {أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ}، قال: السحاب".

قال ابن عباس:"المزن: السماء والسحاب".

قال السعدي: " لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر، ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة".

قوله تعالى: {لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا} [الواقعة: ٧٠]، أي:"لو نشاء جعلنا هذا الماء شديد الملوحة، لا يُنتفع به في شرب ولا زرع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لو نشاء جعلنا ذلك الماء الذي أنزلناه لكم من المزن مِلحًا، وهو الأجاج، والأجاج من الماء: ما اشتدّت ملوحته، يقول: لو نشاء فعلنا ذلك به فلم تنتفعوا به في شرب ولا غرس ولا زرع".

قال مقاتل:"{لَوْ نَشَاءُ} بعد العذوبة، {جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا}، يعني: مالحا مرا من شدة الملوحة".

قال الفراء: {أُجَاجًا} " وهو الملح المر الشديد المرارة من الماء".

=

=

قال أبو عبيدة:" {أُجاجًا} : أشدّ الملوحة".

قال ابن كثير:"أي: زُعاقًا مُرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع".

عن مجاهد، وقتادة:" {أُجاجًا} : منصبًّا".

قال الحسن البصري: {لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجًا} مُرًّا".

قال قتادة:"الأجاج: المرّ".

قال السعدي: " ومن نعمته أن جعله عذبا فراتا تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحا أجاجا مكروها للنفوس".

قوله تعالى: {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} [الواقعة: ٧٠]، أي:"فهلا تشكرون ربكم على إنزال الماء العذب لنفعكم".

قال مقاتل:"رب هذه النعم فتوحدونه حين سقاكم ماء عذبا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فهلا تشكرون ربكم على إعطائه ما أعطاكم من الماء العذب لشربكم ومنافعكم، وصلاح معايشكم، وتركه أن يجعله أجاجًا لا تنتفعون به".

قال ابن كثير:"أي: فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله المطر عليكم عذبًا زلالا! {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ١٠، ١١]".

عن أبي جعفر، عن النبي ﷺ: أنه إذا شرب الماء قال: "الحمد لله الذي سقانا عذبًا فراتًا برحمته، ولم يجعله ملحًا أجاجًا بذنوبنا".

قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ} [الواقعة: ٧١]، أي:"أفرأيتم النار التي توقدون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أفرأيتم أيها الناس النار التي تستخرجون من

=

=

زَنْدكم".

قال ابن كثير:"أي: تقدحون من الزناد وتستخرجونها من أصلها".

قال مقاتل:"توقدون من الشجر والحجارة والقصب إلا العناب".

قال أبو عبيدة:"{تُورُونَ}: تستخرجون، من: أوريت. وأكثر ما يقال: وريت، وأهل نجد يقولون ذلك".

قال ابن عباس:"يقول: تَقدَحون".

قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ} [الواقعة: ٧٢]، أي:"أأنتم أوجدتم شجرتها التي تقدح منها النار، أم نحن الموجدون لها؟".

قال الطبري: " يقول: أأنتم أحدثتم شجرتها واخترعتم أصلها، أَمْ نحن اخترعنا ذلك وأحدثناه؟".

قال ابن كثير:"أي: بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها، وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العَفَار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحُك أحدهما بالآخر، تناثر من بينهما شرر النار".

قال السعدي: " وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوائجهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم، أطفأوها وأخمدوها".

قوله تعالى: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً} [الواقعة: ٧٣]، أي:"نحن جعلنا ناركم التي توقدون تذكيرًا لكم بنار جهنم".

قال الطبري: " يقول: نحن جعلنا النار تذكرة لكم تذكرون بها نار جهنّم، فتعتبرون وتتعظون بها".

=

=

قال السعدي: أي:"للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطا يسوق به عباده إلى دار النعيم".

عن قتادة، قوله:: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً}، قال:"للنار الكبرى".

قال مجاهد:"تذكرة النار الكبرى". وفي رواية:"للنار الكبرى التي في الآخرة".

وفي رواية:"هذه النار تذكرةٌ للنار الكبرى".

قال عكرمة:"تذكرةٌ للنار الكبرى؛ إذا رآها الرائي ذَكر جهنم".

عن عطاء:"{تَذْكِرَةً} موعظة يتّعظ بها المؤمن.

قال مجاهد:"تذكرة النار الكبرى". وفي رواية:"للنار الكبرى التي في الآخرة".

عن أبي هريرة، عن النبي -صلي الله عليه وسلم -، وعمرو عن يحِيى بن جَعْدَة: "إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، وضُرِبتْ بالبحر مرَّتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعةً لأحدٍ".

عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ، قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا، من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية، يا رسول الله قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا، كلها مثل حرها».

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سوادًا من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفًا".

قوله تعالى: {وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ} [الواقعة: ٧٣]، أي:"ومنفعة للمسافرين".

وفي قوله تعالى: {وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ} [الواقعة: ٧٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: منفعة للمسافرين. قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والنضر بن عربي.

قال قتادة:"للمُرْمل: المسافر".

قال الفراء:"يعني منفعة للمسافرين إذا نزلوا بالأرض القي، يعنى: القفر".

=

=

قال أبو عبيدة:"المقوي: الذي لا زاد معه ولا مال وكذلك الدار التي قد أقوت من أهلها".

قال السعدي: " وخص الله المسافرين، لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعا للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده".

الثاني: المستمتعين بها من حاضر ومسافر، قاله مجاهد وعكرمة.

قال مجاهد:"للمستمتعين الناس أجمعين". وفي لفظ:"للمستمتعين المسافر والحاضر".

وقال خصيف: للخلق".

وقال مقاتل:"يعني: متاعا للمسافرين لمن كان بأرض فلاة وللأعراب".

واختاره ابن كثير، فقال:"وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات. فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عامًّا في حق الناس كلهم".

وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبي خِدَاش حَبَّان بن زَيد الشَّرعَبي الشَّامي، عن رجل من المهاجرين من قَرَن، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلأ والماء».

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لا يُمْنَعْنَ: الماء

=

=

والكلأ والنار».

وله من حديث ابن عباس مرفوعًا مثل هذا وزيادة: "وثمنه حرام".

الثالث: للجائعين في إصلاح طعامهم، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"المقوي: الجائع: في كلام العرب، يقول: أقويت منه كذا وكذا: ما أكلت منه كذا وكذا شيئًا".

الرابع: الضعفاء والمساكين، مأخوذ من قولهم قد أقوت الدار إذا خلت من أهلها، حكاه ابن عيسى.

والعرب تقول: قد أقوى الرجل. إذا ذهب ماله، قال النابغة:

يقوى بها الركب حتى ما يكون لهم... إلا الزناد وقدح القوم مقتبس

الخامس: أن المقوي: الكثير المال، مأخوذ من: القوة، فيستمتع بها الغني والفقير. ذكره أبو عبيدة.

قال أبو عبيدة:"يقال: أكثر من مال فلان، فإنه مقو".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عُنِي بذلك للمسافر الذي لا زاد معه، ولا شيء له، وأصله من قولهم: أقوت الدار: إذا خلت من أهلها وسكانها كما قال الشاعر:

أَقْوَى وأَقْفَرَ مِنْ نُعْمٍ وغَيَّرَها... هُوجُ الرّياح بهابي التُّرْبِ مَوَّارِ

يعني بقوله «أقوى»: خلا من سكانه، وقد يكون المقوي: ذا الفرس القويّ، وذا المال الكثير في غير هذا الموضع".

قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)} [الواقعة: ٧٤]

قال ابن عباس:"يقول: فَصَلِّ لربّك العظيم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فسبح يا محمد بذكر ربك العظيم، وتسميته".

=

=

قال السعدي:"أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحمده بقلبك ولسانك، وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ويطاع فلا يعصى".

قال ابن كثير:"أي: الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة الماء العذب الزلال البارد، ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا كالبحار المغرقة. وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم، وزاجرًا لهم في المعاد".

قال العثيمين: قوله تعالى: {نحن خلقناكم فلولا تصدقون} وهذا أمر لا أحد ينكره: أن خالقنا هو الله، حتى المشركون الذين يشركون مع الله إذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: الله، {نحن خلقناكم فلولا تصدقون} أي: أول مرة {فلولا تصدقون} أي: في إعادتكم ثاني مرة، ولولا هنا بمعنى هلا تصدقون، كان الواجب عليهم وهم يصدقون بأن خالقهم أول مرة هو الله، أن يصدقوا بالخلق الآخر؛ لأن القادر على الخلق الأول قادر على الخلق الآخر من باب أولى، كما قال ﷻ: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}. وقال ﷻ: {وأن عليه النشأة الأُخرى} ثم ضرب الله تعالى أمثالًا بما فيه وجودنا، وما فيه بقاؤنا، وما فيه استمتاعنا، فقال: {أفرءيتم ما تمنون أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون} أي: أخبروني عن هذا المني الذي يخرج منكم: هل أنتم تخلقونه أم الله؟ والجواب: الله ﷻ هو الذي يخلقه، فيخرج من بين الصلب والترائب، وهو الذي يخلقه في الرحم خلقًا من بعد خلق، فنحن لا نوجد هذا المني ولا نطوره في الرحم، بل ذلك إلى الله ﷻ {أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون} الجواب: بل أنت يا ربنا. {نحن قدرنا بينكم الموت} أي: قضيناه بينكم، {كل نفس ذآئقة الموت} ـ ولابد حتى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: {وما جعلنا لبشر من

=

=

قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون} {وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون} أي: لا أحد يسبقنا فيمنعنا أن نبدل أمثالكم، بل نحن قادرون على ذلك، وسوف يبدل الله تعالى أمثالنا أي ينشئنا خلقًا آخر وذلك يوم القيامة.

{وننشئكم في ما لا تعلمون} وذلك يوم القيامة {ولقد علمتم النشأة الأُولى} وهي أنكم نشأتم في بطون أمهاتكم، وأخرجكم الله ﷻ من العدم {فلولا تذكرون} أي: فهلا تذكرون وتتعظون، وهذا دليل عقلي من الله ﷻ يعرضه على عباده ومعناه: إنا بدأناكم أول مرة فإذا بدأناكم أول مرة، فلسنا بمسبوقين على أن نعيدكم ثاني مرة.

{أفرءيتم ما تحرثون أءنتم تزرعونه أم نحن الزارعون} أي: أخبروني أيها المكذبون بالبعث عن الذي تزرعونه بالحرث: هل أنتم الذين تخرجونه زرعًا بعد الحب أم نحن الزارعون؟ الجواب: بل أنت يا ربنا، أنت الذي تزرعه، أي تنبته حتى يكون زرعًا، كما قال- جل وعلا -: {إن الله فالق الحب والنوى} فلا أحد يستطيع أن يفلق هذه الحبة حتى تكون زرعًا، ولا هذه النواة حتى تكون نخلًا، إلا الله ﷻ {لو نشاء لجعلناه حطامًا} ولم يقل ﷻ لو نشاء لم نخرجه بل قال: {لجعلناه حطامًا} أي: بعد أن يخرج ويكون زرعًا وتتعلق به النفوس يجعله الله تعالى حطامًا، وهذا أشد ما يكون سببًا للحزن والأسى؛ لأن الشيء قبل أن يخرج لا تتعلق به النفوس، فإذا خرج وصار زرعًا ثم سلط الله عليهم آفة، فكان حطامًا، أي: محطومًا لا فائدة منه، فهو أشد حسرة {فظلتم تفكهون} أي: تتفكهون بالكلام تريدون أن تذهبوا الحزن عنكم، فتقولون {إنا لمغرمون} أي لحقنا الغرم بهذا الزرع الذي صار حطامًا، ثم تستأنفون فتقولون: {بل نحن محرومون} أي: حرمنا هذا الزرع، وصار حطامًا ففقدناه، ثم انتقل الله ﷻ إلى مادة أخرى، وهي مادة الحياة، وهي الماء فقال: {أفرءيتم الماء الذي تشربون} أي: أخبرونا عنه من

=

=

الذي خلقه؟ من الذي أوجده {أءنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون} ؟ والجواب: بل أنت يا ربنا، والمعنى: هل أنتم أنزلتم الماء الذي تشربونه من المزن أي من السحاب أم نحن المنزلون؟ الجواب: هو الله ﷻ، لأنه يرسل إلينا السحاب فينزل المطر فمنه ما يبقى على الأرض، وما شربته الأرض يسلكه الله تعالى ينابيع في الأرض، ويستخرج من الآبار، ويجري من العيون، فأصل الماء الذي نشرب من المزن، من السحاب، ولذلك إذا قلَّ المطر في بعض الجهات قل الماء وغار، واحتاج الناس إلى الماء.

{لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون} أي: جعلناه مالحًا، كريه الطعم لا يمكن أن يشرب، وهنا يقول: {لو نشاء جعلناه أجاجًا فلولا تشكرون} ولم يقل: لو نشاء لغورناه، أو منعنا إنزاله؛ لأن كونهم ينظرون إلى الماء رأي العين ولكن لا يمكنهم شربه، أشد حسرة مما لو لم يكن موجودًا، والله ﷻ يريد أن يتحداهم بما هو أعظم شيء في حسرة نفوسهم {فلولا تشكرون} أي فهلا تشكرون الله ﷻ على إنزاله من المزن، وعلى كونه سائغًا عذبًا لذيذ الطعم سريع الهضم، ثم انتقل الله تعالى إلى أمر ثالث يصلح به الطعام والشراب وهو النار، فقال: {أفرءيتم النار التى تورون} أي: توقدون {أءنتم أنشأتم شجرتهآ أم نحن المنشئون} والجواب: بل أنت يا ربنا، وشجرة النار هي شجر معروف في الحجاز، وربما يكون معروفًا غيره، يسمى المرخ والعفار، وهذا الشجر له خاصية إذا ضرب بالمرو أو بشيء ينقدح مع المماسة، اشتعل نارًا يوقد منه وهو معروف، ولهذا يقال:

في كل شجر النار واستنجد المرخ والعفار

يعني صار أعظمها، هذه النار التي نوقدها، ونطبخ عليها طعامنا، ونسخن مياهنا وننتفع بها أنشأها الله ﷻ {نحن جعلناها تذكرةً} أي: تذكر هذه النار بنار الآخرة، مع أن نار الآخرة فضلت بتسعة وستين جزءًا على نار الدنيا كلها، لما فيها من

=

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥).

{فَلَا أُقْسِم} لَا زَائِدَة {بِمَوَاقِع النُّجُوم} بِمَسَاقِطِهَا لغروبها.

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦).

{وَإِنَّهُ} أَيْ الْقَسَم بِهَا {لَقَسَم لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيم} لَوْ كُنْتُمْ مِنْ ذَوِي الْعِلْم لَعَلِمْتُمْ عِظَم هَذَا الْقَسَم.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧).

{إنه} أي المتلو عليكم {لقرآن كريم}.

=

النيران الحارة الشديدة {ومتاعا للمقوين} أي: للمسافرين يتمتعون بالنار بالتدفئة، والدلالة على المكان، لأنهم في ذلك الوقت، وإلى وقت قريب كان الناس يستدلون على الأمكنة بنار يضعونها على مكان مرتفع تهدي الضال، ويضرب المثل في الدلالة بالعلم عليه النار، كما قالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

{فسبح باسم ربك العظيم} أي: سبح الله ﷻ بهذا الاسم، فقل: سبحان ربي العظيم، والتسبيح يعني أن الله تعالى منزه عن كل نقص وعيب، فإذا قلت: سبحان الله، فالمعنى أني أنزهك يا ربي من كل نقص وعيب، وقوله: {العظيم} أي: ذو العظمة البالغة، ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اجعلوها في ركوعكم». ولما نزلت {سبح اسم ربك الأعلى} قال: «اجعلوها في سجودكم»ـ ولهذا ينبغي للإنسان إذا كان يصلي وقال: سبحان ربي العظيم. أن يستحضر أمر الله في قوله: {فسبح باسم ربك العظيم} وأمر الرسول ﷺ في قوله: «اجعلوها في ركوعكم» حتى يجمع بين الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨).

{فِي كِتَاب} مَكْتُوب {مَكْنُون} مَصُون وَهُوَ الْمُصْحَف.

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩).

{لَا يَمَسّهُ} خَبَر بِمَعْنَى النَّهْي {إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} الَّذِينَ طَهَّرُوا أَنْفُسهمْ مِنْ الْأَحْدَاث.

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠).

{تنزيل} منزل {من رب العالمين}[١].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر؛ قالوا: هذا رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا"، قال: فنزلت هذه الآية: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)} حتى بلغ: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (١/ ٨٤ رقم ٧٣).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله -تعالى-: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}؛ قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ سافر في حر شديد، فنزل الناس على غير ماء، فعطشوا؛ فاستسقوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: "فلعلي لو فعلت فسقيتم قلتم: هذا بنوء كذا وكذا"، قالوا: يا نبي الله! ما هذا بحين أنواء؛ فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ، ثم قام فصلى، فدعا الله -تعالى-؛ فهاجت ريح، وثابت سحاب؛ فمطروا حتى سال كل واد، فزعموا أن رسول الله ﷺ مر برجل يغرف بقدحه ويقول: هذا نوء فلان؛ فنزل: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٨، ٢٩) ونسبه لابن مردويه.

وعن أبي حرزة؛ قال: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار في غزوة تبوك، ونزلوا =

=

بالحجر، فأمرهم رسول الله ﷺ أن لا يحملوا من ماءها شيئًا، ثم نزل منزلًا آخر وليس معهم ماء؛ فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؛ فقام يصلي ركعتين، ثم دعا؛ فأرسل سحابة فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالنفاق: ويحك أما ترى ما دعا النبي ﷺ فأمطر الله علينا السماء. فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا فأنزل الله -تعالى-: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٤)، و"الدر المنثور" (٨/ ٢٩) ونسبه لابن أبي حاتم.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: مطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: "أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر؛ قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا"؛ فنزلت هذه الآية: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥)} حتى بلغ: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٩) ونسبه لابن عساكر.

وعن قتادة في قوله: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}؛ فقال: أما الحسن؛ فقال: بئس ما أخذ القوم لأنفسهم؛ لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب، قال: وذكر لنا أن الناس أمحلوا على عهد نبي الله ﷺ، فقالوا: يا نبي الله! لو استسقيت لنا؟ فقال: "عسى قوم إن سقوا أن يقولوا: سقينا بنوء كذا وكذا"، فاستسقى نبي الله ﷺ؛ فمطروا، فقال رجل: إنه قد كان بقي من الأنواء كذا وكذا؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٣٠) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

=

(٧٦)} [الواقعة: ٧٥- ٧٦]

عن ابن عباس، قال: "مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال: النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا». قال: فنزلت هذه الآية: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [الواقعة: ٧٥]، حَتَّى بَلَغَ: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: ٨٢]".

عن زيد بن خالد الجهني، قال:"صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب".

قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [الواقعة: ٧٥]، أي:"أقسم الله تعالى بمساقط النجوم في مغاربها في السماء".

في قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} [الواقعة: ٧٥]، وجهان:

أحدهما: أنه إنكار أن يقسم الله بشيء من مخلوقاته.

قال جوبير، عن الضحاك: "إن الله لا يقسم بشئ من خلقه ولكنه استفتاح يفتتح به كلامه".

قال ابن كثير:"وهذا القول ضعيف. والذي عليه الجمهور أنه قسم من الله ﷻ، يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته".

الثاني: أنه يجوز أن يقسم الخالق بالمخلوقات تعظيمًا من الخالق لما أقسم به من مخلوقاته.

فعلى هذا في قوله: {فَلاَ أُقْسِمُ} [الواقعة: ٧٥]، وجهان:

أحدهما: أن «لا» صلة زائدة، ومعناه: أقسم. وهذا قول سعيد بن جبير.

=

عن سعيد بن جبير: " {فَلا أُقْسِمُ}، قال: أقسم".

وقرأ الحسن والثقفي: «فلأقسم»بغير ألف. قال الزمخشري:"ومعناه: فلأنا أقسم: اللام لام الابتداء دخلت على جملة من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أقسم، كقولك «لزيد منطلق» ثم حذف المبتدأ".

الثاني: أن قوله: {فَلاَ} ليست زائدة لا معنى لها، بل راجع إلى ما تقدم ذكره، وفي تقدير الكلام وجهان:

الوجه الأول: أن المعنى: فلا تكذبوا ولا تجحدوا ما ذكرته من نعمة وأظهرته من حجة، ثم استأنف كلامه، فقال: {أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}.

الوجه الثاني: معناه: فليس الأمر كما تقولون كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة. ثم استأنف القسم بعد، فقيل: {أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}

وبذلك لا تكون «لا» زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، كقول عائشة رضي الله عنها: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط».

وفي «مواقع النجوم»، أقوال:

أحدها: أنها مساقطها. قاله قتادة. وحكي مجاهد أنه: مطالعها ومساقطها.

قال أبو عبيدة:"أقسم بمواقع النجوم، ومواقعها: مساقطها ومغايبها".

عن قتادة، قوله: " {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، أي: مساقطها".

عن مجاهد، قوله: " {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، قال: في السماء، ويقال: مطالعها ومساقطها".

قال الفراء:"يقال: فلا أقسم بموقع النجوم، بمسقط النجوم إذا سقطن".

الثاني: أنه منازل النجوم. قاله قتادةوعطاء.

قال عطاء:"أراد: منازلها.

=

=

الثالث: أنه انكدار النجوم وانتثارها يوم القيامة. قاله الحسن.

الرابع: أنه مواقع النجوم السماء، قاله مجاهد-أيضا-وابن جريج.

قال مجاهد:"يعني: بمواقع النجوم في السماء".

الخامس: أن مواقع النجوم الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، قاله الضحاك. ويكون قوله: {فَلا أُقْسِمُ}، مستعملًا على حقيقته في نفي القسم بها. حكاه الماوردي.

السادس: أنها نجوم القرآن أنزلها الله من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد -ﷺ- عشرين سنة، فهو ينزله على الأحداث في أمته. قاله ابن عباس وعكرمة والسدي ويحيى بن سلام وابن قتيبة.

قال الفراء:"قوله: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}، يدل على أنه القرآن".

قال ابن عباس:"نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرق في السنين بعد. قال: وتلا ابن عباس هذه الآية {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، قال: نزل متفرّقًا".

قال ابن عباس:"" نجوم القرآن، وذلك أنه نزل القرآن إلى السماء الدنيا جميعا جملة واحدة، ثم نجم على النبي ﷺ نجوما: فرقا: قطعا، الآية، والآيتان وأكثر".

قال عكرمة:"أنزل الله القرآن نجومًا ثلاث آيات وأربع آيات وخمس آيات".

قال عكرمة:"إن القرآن نزل جميعًا، فوضع بمواقع النجوم، فجعل جبريل يأتي بالسورة، وإنما نزل جميعًا في ليلة القدر".

عن ابن عباس، قوله: " {فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}، قال: مستقرّ الكتاب أوّله وآخره".

قال مقاتل:"يعني: بمساقط النجوم من القرآن كله أوله وآخره في ليلة القدر نزل

=

=

من اللوح المحفوظ من السماء السابعة إلى السماء الدنيا إلى السفرة، وهم الكتبة من الملائكة نظيرها في {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [عبس: ١]: «{بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ} [عبس: ١٥- ١٦]".

السادس: أن مواقع النجوم هو محكم القرآن، وكان ينزل على النبي صلى الله عليه نجوما. حكاه الفراء عن ابن مسعود. وبه قال مجاهد.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقع، والموقع المفعل، من وقع يقع موقعًا، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيه به".

وقرأ عبد الله بن مسعود: «فلا أقسم بموقع النجوم». والقراء جميعا على: «مواقع».

قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} [الواقعة: ٧٦]، أي:"وإنه لَقَسم لو تعلمون قَدَره عظيم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره وإن هذا القسم الذي أقسمت لقسم لو تعلمون ما هو، وما قدره، قسم عظيم، من المؤخر الذي معناه التقديم، وإنما هو: وأنه لقسم عظيم لو تعلمون عظمه".

قال ابن كثير:"أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه".

وفي تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} [الواقعة: ٧٦]، وجوه:

أحدها: أن القرآن قسم عظيم، قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"يقول: هذا القرآن قسم عظيم". وفي لفظ، قال:"القرآن".

قال البغوي:"يعني هذا الكتاب وهو موضع القسم. {لقرآن كريم} عزيز مكرم

=

=

لأنه كلام الله".

الثاني: أن الشرك بآياته جرم عظيم، قاله ابن عباس والضحاك.

الثالث: أن ما أقسم الله به عظيم. ذكره الماوردي.

قال السمعاني:"قال ذلك لان قسم الله عظيم، وكل ما أقسم به. ويقال: إن تخصيصه هذا القسم بالعظم؛ لأنه أقسم بالقرآن على القرآن؛ قاله القفال الشاشي".

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ}، تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهم به، وإنما الاعتراض قوله: {لَوْ تَعْلَمُونَ} وقد قال قوم: إن قوله: {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ اعتراض}، وإن {لَوْ تَعْلَمُونَ} اعتراض في اعتراض والتحرير هو الذي ذكرناه".

قوله تعالى: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} [الواقعة: ٧٧]، أي:"إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لقرآن عظيم المنافع، كثير الخير، غزير العلم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فلا أقسم بمواقع النجوم أن هذا القرآن لقرآن كريم".

قال ابن كثير:"أي: إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم".

قال الماوردي:"لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه".

قال الثعلبي:"قيل: سمي كريما لأن يسره يغلب عسره".

قال الأزهري: "الكرمُ اسم جامع لما يُحمد، والله كريم حميد الفعال".

قال مقاتل:"أقسم بأنه قرآن كريم، ثم قال في «حم السجدة»: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} [فصلت: ٤١]، كرمه الله وأعزه".

قوله تعالى: {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ} [الواقعة: ٧٨]، أي:"في كتاب مَصُون مستور عن أعين الخلق، وهو الكتاب الذي بأيدي الملائكة".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هو في كتاب مصون عند الله لا يمسه شيء من أذى من غبار ولا غيره".

عن ابن عباس، عن النبيّ - ﷺ -: {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ}، قال: «عند الله في صُحف مُطهّرة»".

وفي قوله تعالى: {فِي كِتَابٍ} [الواقعة: ٧٨]، وجهان:

أحدها: أنه كتاب في السماء، وهو اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس وجابر بن زيد.

عن جابر بن زيد وأبي نهيك، في قوله: " {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، قال: هو كتاب في السماء".

الثاني: أنه المصحف الذي في أيدينا، قاله مجاهد وقتادة.

عن مجاهد، في قوله: " {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، قال: القرآن، في كتابه المكنون الذي لا يمسه شيء من تراب ولا غبار".

وفي «المكنون» قولان:

أحدهما: مستور من الخلق، قاله مقاتل وهذا على القول الأول بأنه في اللوح المحفوظ.

قال مقاتل:"أقسم بأنه قرآن كريم، ثم قال في «حم السجدة»: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} [فصلت: ٤١]، كرمه الله وأعزه، فقال هذا القرآن: {فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، يعني: مستور من خلقه، عند الله في اللوح المحفوظ عن يمين العرش".

الثاني: مصون، في السماء في اللوح المحفوظ. قاله الزّجّاج.

قال البغوي:"مصون عند الله في اللوح المحفوظ، محفوظ من الشياطين".

قال ابن كثير:"أي: معظّم في كتاب معظم محفوظ موقر".

قوله تعالى: {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} [الواقعة: ٧٩]، أي:"لا يَمَسُّ القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله من الآفات والذنوب، ولا يَمَسُّه أيضًا إلا

=

=

المتطهرون من الشرك والجنابة والحدث".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يمسّ ذلك الكتاب المكنون إلا الذين قد طهَّرهم الله من الذنوب".

اختلف أهل العلم في معنى: {لَا يَمَسُّهُ}، هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف في: {الْمُطَهَّرُونَ} من هم؟ وفيه أقوال:

أحدها: معناه: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة. قاله ابن عباس- وأنس- وسعيد بن جبير- ومجاهد- وعكرمة- وأبو العالية- وجبار بن زيد- وأبي نهيك.

وقال الكلبي: "هم السفرة الكرام البررة".

قال مالك: "أحسن ما سمعت في هذه الآية: {لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ}، أنها بمنزلة الآية، التي في: {عَبَسَ وَتَوَلَّى}، قال الله تبارك وتعالى: {كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ}".

قال ابن عباس:"إذا أراد الله أن ينزل كتابا نسخته السفرة، فلا يمسه إلا المطهرون، قال: يعني: الملائكة".

عن ابن عباس: {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، الكتاب الذي في السماء".

عن سعيد بن جبير: " {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، قال: الملائكة الذين في السماء".

عن عكرِمة: " {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، قال: الملائكة".

عن مجاهد:"{لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، قال: الملائكة".

عن أبي العالية: " {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، قال: الملائكة".

عن أبي العالية الرياحي، في قوله: {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، قال: ليس أنتم. أنتم أصحاب الذنوب".

عن قتادة، قوله: " {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، ذاكم عند ربّ العالمين، فأما عندكم

=

=

فيمسه المشرك النجس، والمنافق الرَّجِس".

قال قتادة:"لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسيّ النجس، والمنافق الرجس. وقال في حرف ابن مسعود: «ما يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُون»".

عن جبار بن زيد وأبي نهيك في قوله: " {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، يقول: الملائكة".

قال مقاتل:"لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب، وهم الملائكة السفرة في سماء الدنيا، ينظر إليه الرب- جل وعز- كل يوم". يريد أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة «عبس».

الثاني: أن معنى {لا يَمَسُّهُ}: لا ينزل به، {إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وهذا قول ابن زيد.

قال ابن زيد:"الملائكة والأنبياء والرسل التي تنزل به من عند الله مطهرة، والأنبياء مطهرة، فجبريل ينزل به مُطَهَّر، والرسل الذين تجيئهم به مُطَهَّرون فذلك قوله: {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، والملائكة والأنبياء والرسل من الملائكة، والرسل من بني آدم، فهؤلاء ينزلون به مطهرون، وهؤلاء يتلونه على الناس مطهرون، وقرأ قول الله: {بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ}، قال: بأيدي الملائكة الذين يحصون على الناس أعمالهم".

قال الضحاك:"زعموا أن الشياطين تنزلت به على محمد، فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك، ولا تستطيعه، ما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا، وهو محجوب عنهم، وقرأ قول الله: {وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}".

قال ابن كثير:"وهذا القول قول جيد، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله".

وروي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: "لا يمس ذلك اللوح المحفوظ إلا

=

=

المطهرون يقول: الملائكة الذين طهروا من الشرك".

الثالث: أن قوله: {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ}، أيَ: من الجنابة والحدث، ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب، والمراد بالقرآن هاهنا المصحف. كما روى عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو، مخافة أن يناله العدو.

قال القرطبي: "وقيل: "المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر".

وروي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم؛ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله لعمرو بن حزم: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر». وهو حديث مختلف في صحته.

عن حكيم بن حزام، أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر». وهو حديث ضعيف.

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة:"يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر»، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: "طه" فقرأها..". وهو حديث ضعيف.

وعلى هذا المعنى: أنهم المطهرون من الأحداث، فيكون ظاهر الكلام النفي، ومعناه النهي. حكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

وقال الكلبي: "المطهرون من الشرك".

وقال الربيع بن أنس: "من الذنوب والخطايا".

الرابع: معنى {لا يَمَسُّهُ}: لا يقرؤه، {إِلا الْمُطَهَّرُونَ}: إلا الموحدون، قاله محمد بن فضيل. وعبدة.

قال عكرمة: "وكان ابن عباس ينهى أن يمكن اليهود والنصارى من قراءة القرآن".

وقال الفراء: "لا يجد طعمه ونفعه إلا المطهرون من آمن به".

عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله ﷺ، يقول: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا».

=

=

وقال الحسين بن الفضل: "لا يعرف تفسيره وتأويله إلّا من طهّره الله من الشرك والنفاق".

وقال أبو بكر الوراق: "لا يوفق للعمل به إلا السعداء".

قال جنيد: هم الذين طهر سرّهم عما سوى الله".

وقيل: المعنى لا يمس ثوابه إلا المؤمنون.

قال ابن العربي:"أما قول من قال: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فهو باطل؛ لأن الملائكة لا تناله في وقت، ولا تصل إليه بحال؛ فلو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه محل، وأما من قال: أنه الذي بأيدي الملائكة من الصحف فإنه قول محتمل، وهو الذي اختاره مالك".

وقال الطبري:"الصواب من القول من ذلك عندنا، أن الله جلّ ثناؤه، أخبر أنه لا يمس الكتاب المكنون إلا المطهرون فعمّ بخبره المطهرين، ولم يخصص بعضًا دون بعض؛ فالملائكة من المطهرين، والرسل والأنبياء من المطهرين وكل من كان مطهرًا من الذنوب، فهو ممن استثني، وعني بقوله: {إِلا الْمُطَهَّرُون}".

قوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠)} [الواقعة: ٨٠]

قال الطبري:"يقول: هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، نزله من الكتاب المكنون".

عن جابر بن زيد وأبي نهيك، في قوله: " {تَنزيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قال: القرآن من ذلك الكتاب".

واختُلِف أهل العلم في معنى «العالم»، على أقوال:

أحدها: أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهذا قول قتادة ومجاهد.

الثاني: أنّه الإنس، والجنّ، وهذا قول سعيد بن جبير ومجاهد.

=

=

الثالث: أن «العالم»: الدنيا وما فيها. حكاه الماوردي.

الرابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء: هم الروحانيّون.

الخامس: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق.

السادس: أن «العالمين»: ألف أمة، فستمائة في البحر وأربعمائة في البر. رواه مغيث بن شمس عن تبيع.

والظاهر أن {العالَمين}: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و (العالَم) جمع لا واحدَ له من لفظه، و (العوالم) أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم. والله أعلم.

قال العثيمين: قوله تعالى: {فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} يخبر الله تبارك وتعالى أنه يقسم بمواقع النجوم، ولا في قوله {فلا أقسم} للتنبيه والتوكيد وليست للنفي؛ لأن المراد إثبات القسم وليس نفيه وهذا كقوله تعالى: {لا أقسم بهذا البلد} وقوله تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة} وقوله تعالى: {فلا وربك لا يؤمنون} وأمثال ذلك يؤتى بـ (لا) بصورة النفي، والمراد بذلك التوكيد والتنبيه. والقسم تأكيد الشيء بذكر معظم بأدوات مخصوصة، وهي الواو والباء والتاء، وقوله: {بمواقع النجوم} اختلف فيها العلماء رحمهم الله، فمنهم من قال: إن المراد بذلك أوقات نزول القرآن؛ لأن القرآن نزل مفرقًا، والشيء المفرق يسمى منجمًا، كما يقال في الدين المقسط على سنوات أو أشهر، يقال: إنه دين منجم، وقيل: المراد بمواقع النجوم مواقع الطلوع والغروب؛ لأن مواقع غروبها إيذان بالنهار، ومواقع طلوعها إيذان بالليل، وتعاقب الليل والنهار من آيات الله العظيمة الكبيرة التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ فيكون الله تبارك وتعالى أقسم بما يدل على إقبال الليل وإدباره، وقيل المراد بمواقع النجوم: الأنواء،

=

=

وكانوا في الجاهلية يعظمونها حتى إنهم يقولون: إن المطر ينزل بالنوء.

ويقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، والمهم أن الله تعالى أقسم بمواقع النجوم على أمر من أعظم الأمور، وهو قوله: {وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرءان كريم} لكن الله بين عظم هذا القسم قبل أن يبين المقسم عليه، فقال {وإنه لقسم لو تعلمون عظيم} وأتى بالجملة الاعتراضية في قوله: {لو تعلمون} إشارة على أنه يجب أن نتفطن لهذا القسم وعظمته حتى نكون ذوي علم به {إنه لقرءان كريم} أي: إن الذي نزل على محمد ﷺ {لقرءان كريم}- والكرم يراد به الحسن والبهاء والجمال، كما في قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن وأمره أن يبين للناس أن عليهم زكاة في أموالهم قال: «إياك وكرائم أموالهم» والكرائم جمع كريمة، والمراد بها الشاة الحسنة الجميلة، وهو كريم أعني القرآن كريم في ثوابه، فالحرف بحسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، وهو كريم في آثاره على القلوب وصلاحها، فإن قراءة القرآن تلين القلوب، وتوجب الخشوع لله عز وجل وكريم في آثاره بدعوة الناس إلى شريعة الله كما قال تعالى: {فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا} فالمهم أن القرآن كريم بكل معنى الكرم {في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون} اختلف العلماء رحمهم الله في الكتاب المكنون، فقيل: إنه اللوح المحفوظ لقوله تعالى: {بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ}.

وقيل: المراد به الكتب التي بأيدي الملائكة كما قال تعالى: {فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة} وهذا القول رجحه ابن القيم رحمه الله في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» وأكثر المفسرين على أن المراد به اللوح المحفوظ.

{لا يمسه} أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون {إلا المطهرون} وهم الملائكة

=

=

طهرهم الله تعالى من الشرك والمعاصي، ولهذا لا تقع من الملائكة معصية، بل هم ممتثلون لأمر الله قائمون به على ما أراد الله، وذهب بعض المفسرين إلى قول غريب، وقالوا: المراد بقوله: {لا يمسه إلا المطهرون} أي لا يمس القرآن إلا طاهر، ولكن هذا قول ضعيف لا تدل عليه الآية. لأنه لو كان المراد ذلك لقال (إلا المتطهرون) يعني المتطهرين ولكنه قال: {المطهرون} أي من قبل الله ﷻ، فهذا القول ضعيف، ولولا أنه يوجد في بعض التفاسير التي بأيدي الناس ما تعرضنا له، لأنه لا قيمة له، والصواب أن المراد بذلك الملائكة، فإن قلنا: إن المراد بالكتاب المكنون الصحف التي بأيديهم فواضح في قوله: {لا يمسه إلا المطهرون} وإذا قيل المراد به اللوح المحفوظ فكذلك المطهرون قد يمسونه بأمر الله ﷻ، وقد لا يمسونه {تنزيل من رب العالمين} أي: هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، نزل من عند الله ﷻ، لأنه كلامه، وكلام الله تعالى منزل غير مخلوق، ويستفاد من هذه الآية الكريمة أن القرآن ليس بمخلوق، لأنه نزل من الله فهو كلامه، وكلامه من صفاته تعالى، وصفاته غير مخلوقة، وفي قوله: {تنزيل من رب العالمين} إشارة إلى أنه يجب علينا أن نعمل به؛ لأن الذي أنزله هو الرب المطاع الخالق الرازق، الذي يجب أن نطيعه بما أمر، وننتهي عما نهى عنه وزجر و {العالمين} كل من سوى الله، وسموا عالمين؛ لأنهم علم على خالقهم، فإن هذا الخلق إذا تأمله الإنسان دله على ما لله ﷻ من عظمة وسلطان ورحمة وغير ذلك من صفاته.

مسألة: لا يختلف المفسرون من الصحابة والتابعين ممن صح عنه النقل أن المراد بقوله: {لا يمسه إلا المطهرون} الكتاب الذي في السماء، وهذا جاء عن ابن عباس وأبي العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وجابر بن زيد وقتادة. ومنهم: من أدخل في حكمه غيره، فجعل حكم القرآن المنزل بين أيدينا يأخذ الحكم الذي تضمنه الخبر في قوله: {لا يمسه إلا المطهرون}.

=

=

وهذه الآية نظير قوله تعالى: {فمن شاء ذكره (١٢) في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة} [عبس: ١٢- ١٦].

* الطهارة عند القراءة ومس المصحف: لا يختلف العلماء في مشروعية التطهر عند ذكر الله، وأعظم الذكر كلام الله، ومثل ذكر الله مس كتابه، وكذلك فإن قراءة القرآن بلا طهارة من الحدث الأصغر ولا مس للمصحف جائزة عند السلف، ولا يكادون يختلفون إلا في كراهتها، وقد روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس وابن عمر؛ قال: كانا يقرأان أجزاءهما من القرآن بعدما يخرجان من الخلاء قبل أن يتوضأ.

وصح مثله عن قتادة، عن سعيد بن المسيب؛ أن أبا هريرة كان يخرج من المخرج ثم يحدر السورة.

وبمثله كان يرخص ابن مسعود وأصحابه كعلقمة والأسود وعبد الرحمن بن يزيد. وكذلك جاء عن سعيد بن جبير. أخرجه ابن أبي شيبة عنهم.

وأما صاحب الحدث الأكبر، فأكثرهم على أنه لا يقرأ القرآن، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود، وصح عن ابن عباس جواز ذلك، ورخص عكرمة له بقراءة الآية والآيتين.

وأمر الحائض أخف وأيسر من الجنب؛ لأنه يطول عليها حيضها، وليس بيدها رفعه، بخلاف الجنب؛ فإنه يملك رفع جنابته؛ فشدد في أمره، فيجوز للحائض أن تقرأ القرآن؛ حتى لا تنساه، وتذكر وردها، وتحصن نفسها في ذكرها ليومها وليلتها.

ويختلف العلماء في وجوب التطهر عند مس المصحف؛ سواء قصد القراءة أو غير القراءة؛ وذلك لاختلافهم في المعنى الذي تحتمله هذه الآية: هل يتعدى إلى مس المصحف الذي بأيدي الناس، أو هو خبر عما في اللوح لا يقتضي حكما؟:

=

=

القول الأول: أن الآية تحتمل معنى المصحف؛ وعليه نص الشافعي، فقال: وهذا المعنى تحتمله الآية.

وهو الذي عليه جمهور العلماء وعامتهم؛ أنه يجب التطهر عند مس المصحف، وألا يمس القرآن إلا طاهر، وهذ مروي عن الأئمة الأربعة، وقد شدد في ذلك مالك، وقال: "إنه لا يمس ولو بحائل كعلاقة ووسادة وقماش".

وعلى هذا الصحابة وفقهاء الحجاز كالفقهاء السبعة وغيرهم:

فقد جاء عن سلمان الفارسي أنه قضى حاجته، فقيل له: لو توضأت؛ لعلنا نسألك عن آي من القرآن؟ فقال: سلوني؛ فإني لا أمسه، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، قال: فسألناه، فقرأ علينا قبل أن يتوضأ. أخرجه ابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي؛ من حديث عبد الرحمن بن يزيد، عنه؛ وهو صحيح.

وروى مالك في "الموطأ"؛ من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقاص؛ أنه قال: "كنت أمسك المصحف على سعد بن أبي وقاص، فاحتككت، فقال سعد: لعلك مسست ذكرك؟! قال: فقلت: نعم، فقال: قم، فتوضأ، فقمت فتوضأت، ثم رجعت". وهو صحيح.

وروي في قصة إسلام عمر ﵁ أنه قال حين دخل على أخته: فإذا بصحيفة وسط الباب، فقلت: ما هذه الصحيفة هاهنا؟ فقالت لي: دعنا عنك يا بن الخطاب؛ فإنك لا تغتسل من الجنابة، ولا تتطهر؛ وهذا لا يمسه إلا المطهرون". أخرجه الحاكم والبزار، ثم قال البزار: "وهذا الحديث لا نعلم رواه عن أسامة بن زيد، عن أبيه، عن جده، عن عمر، إلا إسحاق بن إبراهيم الحنيني، ولا نعلم يروى في قصة إسلام عمر إسناد أحسن من هذا الإسناد". قلت: وإسحاق وأسامة ضعيفان في الحديث.

وقد رواه الدارقطني وغيره؛ من حديث القاسم بن عثمان، عن أنس، والقاسم

=

=

ليس بالقوي.

ورواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في "تاريخه"، وعنه أبو نعيم؛ من حديث إسحاق بن عبد الله، عن أبان بن صالح، عن مجاهد، عن ابن عباس به؛ وإسحاق متروك الحديث.

وقد روى عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عمن أدرك من فقهاء أهل المدينة الذين ينتهى إلى قولهم؛ أنهم كانوا يقولون: "لا يمس القرآن إلا طاهر".

القول الثاني: قالوا بعدم احتمال الآية لمعنى مس المصحف، وجوزوا مسه بلا طهارة؛ وروي هذا عن أبي حنيفة وداود الظاهري، وهو مروي عن الحكم وحماد.

القول الثالث: جواز مس حواشي المصحف لا مس حروفه؛ وهو قول لأبي حنيفة.

والأظهر: أن القرآن لا يمس إلا عن طهارة؛ تعظيما له، وإن لم تحتمل الآية هذا المعنى، فيحتمله عمل الصحابة والتابعين؛ فبه يقول سلمان الفارسي وسعد، ولا مخالف لهما من الصحابة، وإن لم يقطع بإثم من مسه بغير طهارة؛ لعدم وجود النص الصريح في ذلك، وإنما يكتفى بالأمر بالطهارة؛ تعظيما للقرآن وتطهيرا له، والسلف كانوا يأمرون بأشياء ولا ينصون على نوع الأمر وشدته؛ لأنهم يريدون الامتثال، حتى توسع الفقهاء في النظر، فأخذوا يفصلون في مجمل ألفاظهم وأوامرهم وما ينهون عنه؛ حتى ينسب للواحد منهم أكثر من رأي والقول عنه واحد، وسنده إليه واحد، وحكاية الأمر لشيء على سبيل الإجمال لا ينافي الرفق وتحرير الفقه، وقد يكون جملة تعظيما للشريعة، وكثيرا ما يكون تفصيل الأوامر تهوينا في نفوس الناس فيتركونها زهدا فيها؛ لأنهم يريدون فعل الواجب وترك المحرم والاقتصار عليه.

=

=

وإطلاق الأمر والنهي من غير تمييز لمرتبة المأمور به والمنهي عنه: من الأساليب النبوية والصحابية، ولو كان مستقرا عند عامة الصحابة مرتبة المقصود من السياق، إلا أنه ليس مستقرا عند كثير من التابعين ولا عند أكثر أتباعهم، وما كان الصحابة يتكلفون التمييز في ذلك.

وقد جاء في السنة الأمر بالتطهر عند مس المصحف؛ كما روى مالك في "موطئه"، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم؛ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: (أن لا يمس القرآن إلا طاهر).

وروى أبو داود في "المراسيل"؛ من حديث الزهري؛ قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم؛ أن رسول الله ﷺ قال: (ولا يمس القرآن إلا طاهر).

وكتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم ثابت في أصله؛ وإنما الخلاف في ثبوت بعض نصوصه وحروفه، وصحح أصل الكتاب ابن معين وأحمد والشافعي ويعقوب بن سفيان.

وقد روى الدارقطني؛ من حديث سالم، عن ابن عمر مرفوعا: (لا يمس القرآن إلا طاهر).

وقد احتج أحمد بحديث ابن عمر هذا؛ كما قاله الأثرم.

وأما ما رواه الشيخان، عن ابن عمر: "أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن الى أرض العدو". فذلك مخافة أن يناله العدو.

وقد كان بعض السلف يرخص في تحويل المصحف من موضع إلى موضع بلا طهارة، ولم يجعلوه كالمس الطويل؛ كما صح عن ابن سيرين فيما رواه هشام عنه، أنه لم يكن يرى بأسا أن يحول الرجل المصحف وهو غير طاهر. وجوز مثل هذا بعض الفقهاء من الشافعية.

=

=

وكتب التفسير ليست قرآنا، فيجوز مسها بلا طهارة، ومن باب أولى كتب الفقه، والمراسلات التي تتضمن قرآنا؛ فقد روى البخاري ومسلم؛ أن في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل آية من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: {ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} [آل عمران: ٦٤].

(فائدة): قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: ومن ذلك قوله تعالى: {فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦) إنه لقرآن كريم (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨) لا يمسه إلا المطهرون (٧٩) تنزيل من رب العالمين (٨٠)} [الواقعة: ٧٥- ٨٠].

ذكر- سبحانه- هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى، وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته على المعاد بالنشأة الأولى، وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار. ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة "الروح" للبدن.

وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن، وأنه تنزيله.

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها:

فقيل: هي آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئا بعد شيء. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء، وقول: سعيد بن جبير، والكلبي، ومقاتل، وقتادة.

وقيل: النجوم هي الكواكب، ومواقعها: مساقطها عند غروبها. هذا قول أبي عبيدة وغيره.

وقيل: مواقعها انتثارها وانكدارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن.

ومن حجة هذا القول أن لفظ "مواقع" يقتضيه، فإنه (مفاعل) من الوقوع وهو السقوط، فلكل نجم موقع، وجمعها: مواقع.

=

=

ومن حجة قول من قال: هي مساقطها عند الغروب؛ أن الرب- تعالى- يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما تقدم في قوله تعالى: {فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦)} [التكوير: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: {والنجم إذا هوى (١)} [النجم: ١]، وقال تعالى: {فلا أقسم برب المشارق والمغارب} [المعارج: ٤٠].

ويرجح هذا القول- أيضا- أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها: الكواكب، كقوله تعالى: {وإدبار النجوم (٤٩)} [الطور: ٤٩]، وقوله تعالى: {والشمس والقمر والنجوم} [الأعراف: ٥٤].

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه- وهو القرآن- من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي. فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن هداية في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين.

مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة للعالم، وفي إنزال القرآن من الزينة الباطنة.

ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن.

والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية. مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ "بموقع النجوم" على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، و"الموقع": اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدا أفردت، قال الله تعالى: {إن أنكر الأصوات لصوت الحمير (١٩)} [لقمان: ١٩]، فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد "صوت الحمير" لوحدته.

=

=

فإفراد "موقع النجوم" لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

فصل: والمقسم عليه قوله تعالى: {إنه لقرآن كريم (٧٧)}، ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: {وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦)}، ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: {لو تعلمون عظيم (٧٦)}، فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعا.

وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدا أو تنبيها أو احترازا، كقوله تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون (٤٢)} [الأعراف: ٤٢]، فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: {لا نكلف نفسا إلا وسعها} لما تضمنه ذلك من الاحتراز الرافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: {لا نكلف نفسا إلا وسعها}.

وهذا أحسن من قول من قال: "إنه أخبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد"، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يختص [بـ] الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق، مع ما في هذا التقدير من إخلاء جملة الخبر عن الرابط، وتقدير صفة محذوفة- أي: نفسا منهم -، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: {ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون} [النحل: ٥٧]، فاعترض بقوله: {سبحانه} بين الجعلين.

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم، وسياق الكلام، من قصد الاعتناء، والتقرير، والتوكيد، وتعظيم المقسم به، والمخبر عنه، ورفع توهم

=

=

خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر، وغير ذلك.

فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لو أن الباخلين- وأنت منهم- ... رأوك تعلموا منك المطالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فلا هجره يبدو- وفي اليأس راحة- ... ولا وصله يصفو لنا فنكارمه

فقوله: "وفي اليأس راحة" جواب لتقدير سؤال سائل: وما يغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي: المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف.

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو جعد بأني ...- وقد كذبوا- كبير السن فاني

ومنه قول نصيب:

فكدت- ولم أخلق من الطير- إن بدا ... سنا بارق نحو الحجاز أطير

فقوله: "ولم أخلق من الطير" لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار لو قال: فكدت أطير، فيقال له: وهل خلقت من الطير؟ فاحترز بهذا الاعتراض.

وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه؛ فتأمله.

ومن مواقع الاعتراض: الاعتراض بالدعاء، كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية ... حذار هذا الصدود والغضب

إن تم ذا الهجر يا ظلوم- ولا ... تم- فما لي في العيش من أرب

وكقول الآخر:

=

=

إن سليمى- والله يكلؤها- ... ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وكقول الآخر:

إن الثمانين- وبلغتها- ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ومنه الاعتراض بالقسم، كقوله:

ذاك الذي- وأبيك- يعرف مالكا ... والحق يدفع ترهات الباطل

ومن الاعتراض: الاستعطاف؛ كقوله:

فمن لي بالعين التي كنت مرة ... إلي بها- نفسي فداؤك- تنظر

فاعترض بقوله: "نفسي فداؤك" استعطافا.

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تبارك وتعالى: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر} [النحل: ١٠١]، فقوله: {والله أعلم بما ينزل} اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورا:

١ - منها الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل، وما فائدته؟

٢- ومنها أن الذي بدل وأتي بغيره منزل محكم نزوله قبل الإخبار بقولهم.

٣- ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلا منهما منزل فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى: {ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك} [لقمان: ١٤]، فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

ومنه قوله تعالى: {وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون (٧٢) فقلنا اضربوه ببعضها} [البقرة: ٧٢، ٧٣]، فاعترض بقوله: {والله مخرج ما كنتم

=

=

تكتمون (٧٢)} بين الجمل المعطوف بعضها على بعض، إعلاما بأن تدارؤهم وتدافعهم في شأن القتيل ليس نافعا لهم في كتمانه، فإن الله يظهره ولا بد.

ولا تستطل هذا الفصل وأمثاله؛ فإنه يعطيك ميزانا، وينهج لك طريقا يعينك على فهم الكتاب، والله المستعان.

فصل: ثم قال تعالى: {إنه لقرآن كريم (٧٧)} [الواقعة: ٧٧]، فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره ومنافعه، وجلالته؛ فإن "الكريم" هو: البهي، الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

والله- سبحانه- وصف نفسه بـ "الكرم"، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره، وحسن منظره من النبات وغيره.

وكذلك فسر السلف "الكريم" بـ: الحسن، قال الكلبي: {إنه لقرآن كريم} أي: حسن كريم على الله".

وقال مقاتل: "كرمه الله وأعزه؛ لأنه كلامه".

وقال الأزهري: "الكريم: اسم جامع لما يحمد، والله كريم حميد الفعال. وإنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة".

وبالجملة فـ "الكريم" الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده "اللئيم" الذي لا يستخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة. وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

فصل: ثم قال تعالى: {في كتاب مكنون (٧٨)} [الواقعة: ٧٨]، اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ.

والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: {في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة} [عبس: ١٣- ١٦].

=

قال مالك: "أحسن ما سمعت في هذه الآية- يعني قوله: {لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)} - أنها مثل التي في "عبس": {في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦)}".

ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: {لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)}، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه. وهذا هو الصحيح في معنى الآية.

ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله- وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: {وما تنزلت به الشياطين (٢١٠) وما ينبغي لهم وما يستطيعون} [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، فنفى الفعل وتأتيه منهم، وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه. فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفى عنهم الأمور الثلاثة.

وكذلك قوله- تعالى- في سورة "عبس": {في صحف مكرمة (١٣) مرفوعة مطهرة (١٤) بأيدي سفرة (١٥) كرام بررة (١٦)} [عبس: ١٣- ١٦]، فوصف محله بهذه الصفات بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به.

وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد، والمعاد، والنبوة. وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنته السور المدنية.

الثالث: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر.

=

وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي؛ فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار، يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: {في كتاب مكنون (٧٨)}، و"المكنون": المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: {كأنهن بيض مكنون (٤٩)} [الصافات: ٤٩]، وهكذا قال السلف.

قال الكلبي: "مكنون من الشياطين".

وقال مقاتل: "مستور".

وقال مجاهد: "لا يصيبه تراب ولا غبار".

وقال أبو إسحاق: "مصون في السماء". يوضحه:

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه "مكنونا" نظير وصفه بكونه "محفوظا"، فقوله ﷻ: {لقرآن كريم (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨)} كقوله: {بل هو قرآن مجيد (٢١) في لوح محفوظ (٢٢)} [البروج: ٢١، ٢٢]، يوضحه:

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: {لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)} بالرفع، فهذا خبر لفظا ومعنى، ولو كان نهيا لكان مفتوحا.

ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ها هنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: {إلا المطهرون (٧٩)} ولم يقل: إلا المتطهرون. ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢٢٢)} [البقرة: ٢٢٢]، وفي الحديث: "اللهم

=

=

اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين"ـ فـ "المتطهر" فاعل التطهير، و"المطهر" الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونا في كتاب لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا في كتاب؟

وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقت لبيان مدحه وتشريفه وما اختص به من الخصائص التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في "سننه": حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: {لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)} قال: "المطهرون: الملائكة".

وهذا- عند طائفة من أهل الحديث- في حكم المرفوع. قال الحاكم: "تفسير الصحابة- عندنا- في حكم المرفوع"ـ ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم.

وقال حرب في "مسائله": "سمعت إسحاق في قوله: {لا يمسه إلا المطهرون (٧٩)} قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون. قال: الملائكة".

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخرـ فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، وإذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر، والحديث مشتق من هذه الآية، وهو قوله: "لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر" رواه أهل "السنن" من حديث: الزهري، عن أبي بكر بن

=

=

محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه، عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والديات: "أن لا يمس القرآن إلا طاهر".
قال أحمد: "أرجو أن يكون صحيحا".
وقال أيضا: "لا أشك أن رسول الله ﷺ كتبه".
وقال أبو عمر: "هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة". ثم قال: "وهو كتاب معروف عند العلماء، وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا".
وقد رواه ابن حبان في "صحيحه"، ومالك في "موطئه" وفي المسألة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع.
فصل: ودلت الآية- بإشارتها وإيمائها- على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة الباع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي.
قال البخاري في "صحيحه" في هذه الآية: "لا يجد طعمه إلا من آمن به".
وهذا- أيضا- من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم به حقا، وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.
فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه أعظم حرج.
ومن لم يؤمن بأن الله- سبحانه- تكلم به حقا، وليس مخلوقا من جملة مخلوقاته؛ ففي قلبه منه حرج.
ومن قال: إن له باطنا يخالف ظاهره، وإن له تأويلا يخالف ما يفهم منه؛ ففي قلبه منه حرج.

=

=

ومن قال: إن له تأويلا لا نفهمه، ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه؛ ففي قلبه حرج منه.

ومن سلط عليه آراء الآرائيين، وهذيان المتكلمين، وسفسطة المتسفسطين، وخيالات المتصوفين؛ ففي قلبه منه حرج.

ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه، وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها؛ ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يحكمه ظاهرا وباطنا في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد لحكمه أين كان؛ ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه؛ ففي قلبه منه حرج.

وكل هؤلاء لا تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: {لا يمسه إلا المطهرون} [الواقعة: ٧٩]، وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ، وإيمائه، وإشارته، وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله- سبحانه- وربطها بين الظاهر والباطن = فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

فصل: ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله ﷻ: {تنزيل من رب العالمين (٨٠)} [الواقعة: ٨٠]، وهذا كما أنه لازم لكونه قرآنا كريما في كتاب مكنون؛ فهو ملزوم له. فهو دليل عليه، ومدلول له.

وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين هما أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم به، وأنه منه نزل، ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به. ومن هنا قال السلف: "منه بدأ".

=

=

ونظيره قوله تعالى: {ولكن حق القول مني} [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: {قل نزله روح القدس من ربك بالحق} [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله- سبحانه- فوق خلقه، فإن "النزول" و"التنزيل"- الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر- هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، والرب- تعالى- إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم.

وذكر "التنزيل" مضافا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملا، ويخلقهم عبثا، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم. فمن أقر بأنه رب العالمين؛ أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله.

واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ﷺ، وصحة ما جاء به. وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

وقد أشار- سبحانه- إلى الطريقين في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق} [فصلت: ٥٣]، فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: {أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد (٥٣)}، فهذا استدلال بكمال ربوبيته، وكمال أوصافه؛ على صدق رسوله فيما جاء به.

وهذه الطريق أخص، وأقوى، وأكمل، وأعلى. والأولى أعم وأشمل، وقد تقدم بيانها عند قوله تعالى: {ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤)} [الحاقة: ٤٤].

وأين الاستدلال بأوصاف الرب- تعالى- وكماله المقدس على ثبوت النبي وبعثه، من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

=

أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١).

{أَفَبِهَذَا الْحَدِيث} الْقُرْآن {أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ} مُتَهَاوِنُونَ مُكَذِّبُونَ.

وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢).

{وَتَجْعَلُونَ رِزْقكُمْ} مِنْ الْمَطَر أَيْ شُكْره {أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} بِسُقْيَا الله حَيْثُ

=

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بصفات الرب تعالى، وصفات محمد ﷺ، واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته وأنه رسول الله حقا، وأن من كانت هذه صفاته فصفات ربه وخالقه تأبى أن يخزيه، وأنه لا بد أن يؤيده، ويعليه، ويتم نعمته عليه.

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفى.

وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال، والطرائق، والمذاهب، والعقائد = أعظم انتفاع وأتمه. وقد بينا في كتابنا "المعالم" بطلان التحليل وغيره من الحيل الربوية بأسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل على الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد على فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات.

فأين ذلك الوعيد الشديد، وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد؟! إذ ليست حكمة الرب- تعالى- وكمال علمه وأسمائه وصفاته؛ تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه.

فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات على الفقه العملي في باب الأمر والنهي.

وهذا باب حرام على الجهمي المعطل أن يلجه، وجنة حرام عليه ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة. والله العزيز الوهاب، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وبه التوفيق.

قُلْتُمْ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا.

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣).

{فَلَوْلَا} فَهَلَّا إِذَا بَلَغَتْ الرُّوح وَقْت النَّزْع {الْحُلْقُوم} هُوَ مَجْرَى الطَّعَام.

وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤).

{وأنتم} يا حاضري الميت {حينئذ تنظرون} إليه.

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥).

{وَنَحْنُ أَقْرَب إلَيْهِ مِنْكُمْ} بِالْعِلْمِ {وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} مِنْ الْبَصِيرَة أَيْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦).

{فَلَوْلَا} فَهَلَّا {إنْ كُنْتُمْ غَيْر مَدِينِينَ} مَجْزِيِّينَ بِأَنْ تُبْعَثُوا أَيْ غَيْر مَبْعُوثِينَ بِزَعْمِكُمْ.

تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧).

{تَرْجِعُونَهَا} تَرُدُّونَ الرُّوح إلَى الْجَسَد بَعْد بُلُوغ الْحُلْقُوم {إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فِيمَا زَعَمْتُمْ فَلَوْلَا الثَّانِيَة تَأْكِيد لِلْأُولَى وَإِذَا ظَرْف لِتَرْجِعُونَ الْمُتَعَلِّق بِهِ الشَّرْطَانِ وَالْمَعْنَى هَلَّا تَرْجِعُونَهَا إنْ نَفَيْتُمْ الْبَعْث صَادِقِينَ فِي نَفْيه أَيْ لِيَنْتَفِيَ عَنْ مَحِلّهَا الْمَوْت كَالْبَعْثِ.

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨).

{فأما إن كان} الميت {من المقربين}.

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩).

{فروح} أي فله استراحة {وريحان} رِزْق حَسَن {وَجَنَّة نَعِيم} وَهَلْ الْجَوَاب لِأَمَّا أو لإن أو لهما أقوال.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠).

{وأما إن كان من أصحاب اليمين}.

فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١).

{فَسَلَام لَك} أَيْ لَهُ السَّلَامَة مِنْ الْعَذَاب {مِنْ أَصْحَاب الْيَمِين} مِنْ جِهَة أَنَّهُ مِنْهُمْ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢).

{وأما إن كان من المكذبين الضالين}.

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣).

{فنزل من حميم}.

وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤).

{وتصلية جحيم}.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥).

{إنَّ هَذَا لَهُوَ حَقّ الْيَقِين} مِنْ إضَافَة الْمَوْصُوف إلَى صِفَته.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦).

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبّك الْعَظِيم} تَقَدَّمَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١)} [الواقعة: ٨١]

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أفبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره، وقصصت عليكم أمره أيها الناس أنتم تلينون القول للمكذّبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر".

وقد تعددت عبارات أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {مُدْهِنُونَ} [الواقعة: ٨١]، على وجوه:

=

=

أحدها: معناه: مكذّبون غير مصدّقين، قاله ابن عباس والضحاك.

قال الزجاج:"أي: أفبالقرآن تكذِبُونَ، والمدْهِن: المدَاهِنَّ والكذاب المنافق".

قال ابن أبي زمنين:"أي: تاركون للقرآن، يقوله للمشركين، يقال: أدهن في أمره وداهن؛ وهو الكذاب المنافق".

الثاني: يعني: تكفرون، مثل قوله: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} [القلم: ٩]. قاله مقاتل بن حيان ومقاتل بن سليمان.

قال الفراء:"مكذبون وكافرون، كل قد سمعته".

قال الزمخشري:"مخاطبة للكفار، و «الْحَدِيثِ» المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث، وإن الله تعالى خالق الكل وإن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه وغير ذلك و: {مُدْهِنُونَ}، معناه: يلاين بعضكم بعضا ويتبعه في الكفر، مأخوذ من «الدهن» للينه وإملاسه".

الثالث: معرضون، قاله الضحاك-أيضا-.

الرابع: تريدون أن تمالئوهم فيه، وتركنوا إليهم، قاله مجاهد.

الخامس: منافقون في التصديق به حكاه ابن عيسى ومنه قول الشاعر:

لبعض الغشم أبلغ في أمور... تنوبك من مداهنة العدو

السادس: أن المدهن، الذي لا يفعل ما يحق عليه ويدفعه بالعلل. قال ابن كيسان.

السابع: أن المدهن، المنافق الذي ليّن جانبه ليخفي كفره. قاله المؤرخ.

قال السمعاني:"المداهن هو ذو الوجهين، وهو الذي يكون قلبه خلاف لسانه، ولسانه خلاف قلبه".

قال المبرد: "أدهن الرجل في دينه، وداهن في أمره، إذا خان وأظهر خلاف ما يضمر".

قال أبو عبيدة:"واحدها: مدهن، وهو: المداهن".

=

=

قال ابن قتيبة:"أي مداهِنون. يقال: أدْهَن في دِينه وداهن".

وقال قوم: "داهنت بمعنى: داريت، وأدهنت، بمعنى: غششت".

قال ابن العربي:"قال المفسرون: يعني مكذبون، وحقيقته ما قدمناه أي أفبهذا الحديث أنتم مقاربون في الظاهر مع إضمار الخلاف في الباطن، يقولون: الله، الله. ثم يقولون: مطرنا بنجم كذا، ونوء كذا، ولا ينزل المطر إلا الله سبحانه غير مرتبط بنجم ولا مقترن بنوء".

قوله تعالى: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)} [الواقعة: ٨٢]

للمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أن «الرزق» -هاهنا- بمعنى: الشكر.

روي علي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قال: شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ، قال: ويقولون مطرنا بنوء كذا وكذا»". وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس.

قال الفراء:"جاء في الأثر: «تجعلون رزقكم: شكركم»، وهو في العربية حسن أن تقول: جعلت زيارتي إياك أنك استخففت بي، فيكون المعنى: جعلت ثواب الزيارة- الجفاء. كذلك جعلتم شكر الرزق- التكذيب".

وقال الفراء:"معناه: رزقي إياكم أنكم تكذبون، والعرب تضيف أفعالها إلى أنفسها وإلى ما أوقعت عليه، فيقولون: قد ندمت على ضربي إياك وندمت على ضربك فهذا من ذلك والله أعلم".

عن عليّ -رضي الله عنه-: " {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قال: شكركم".

وكان علي يقرأ: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُم».

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه كان يقرأ: «وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تَكْذِبُون».

=

=

عن ابن عيينة ، قال:"سمعت رجلا، من أهل الكوفة كان " يقرؤها ويقول: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون».

عن عليّ رفعه: " {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قال: «شكركم، تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا»".

عن عليّ، عن النبي ﷺ قال: «{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قال: شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ، قال: ويقولون مطرنا بنوء كذا وكذا»".

عن عليّ: " {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قال: كان يقرؤها: «وتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ»، يقول: جعلتم رزق الله بنوء النجم، وكان رزقهم في أنفسهم بالأنواء أنواء المطر إذا نزل عليهم المطر، قالوا: رُزقنا بنوء كذا وكذا، وإذا أمسك عنهم كذّبوا، فذلك تكذيبهم".

الثاني: أن المعنى: وتجعلون شكر رزقكم تكذيبكم، وذلك أنهم كانوا يمطرون، فيقولون: مطرنا بنوء كذا. قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وعطاء. وهو قول الأكثرين.

قال ابن قتيبة:"أي: جعلتم شكرَ الرزقِ التكذيبَ".

قال يحيي:"يقول: تجعلون مكان الشكر التكذيب".

قال الزجاج:"كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا، ولا ينسبون السقيا إلى الله- ﷻ- فقيل لهم: أتجعلون رِزقكم، أي: شكركم بما رزقتم، التكذيب، وقد قالوا إن تفسير رزقكم ههنا الشكر، ورووا أنه يقال: «وتجعلون رزقي في معنى شكري»، وليس بصحيح. إنما الكلام في قوله: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} يدل على معنى: وتجعلون شكركم أنكم تكذَبُون، أي: تجعلون شكر رزقكم أن تقولوا: مطرنا بنوء كذا، فَتَكْذِبُونَ في ذلك".

قال عطاء الخراساني:"كان ناس يمطرون فيقولون: مُطرنا بنوء كذا، مُطرنا بنوء

=

=

كذا".

عن مجاهد، قوله: " {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}، قال: قولهم في الأنواء: مُطرنا بنوء كذا ونوء كذا، يقول: قولوا هو من عند الله وهو رزقه".

قال الضحاك:"جعل الله رزقكم في السماء، وأنتم تجعلونه في الأنواء".

عن ابن عباس، في قوله: " {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ}، يقول: شكركم على ما أنزلت عليكم من الغيث والرحمة تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا؛ قال: فكان ذلك منهم كفرًا بما أنعم عليهم".

قال ابن عباس:"ما مُطر الناس ليلة قطّ، إلا أصبح بعض الناس مشركين يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، قال: وقال وتجعلون شكركم أنكم تكذّبون".

قال ابن عباس:"ما مُطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافرًا، يقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذَا، وقرأ ابن عباس: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}".

عن عكرمة، في قوله تعالى: " {فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} [الفرقان: ٥٠]، قال: قيل له ما كفرهم؟ قال: يقولون: مطرنا بالأنواء، فأنزل الله في الواقعة: {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ} [الواقعة: ٨٢]".

عن أبي سعيد: " لو أمسك الله القطر عن الناس سبع سنين، ثم أرسله لأصبحت طائفة به كافرين، يقولون: مطرنا بنوء المجدح".

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "إِنَّ اللهَ لَيُصَبِّحُ القَوْمَ بالنِّعْمَةِ، أَوْ يُمَسِّيهِم بِهَا، فَيُصْبِحُ بِهَا قَوْمٌ كَافِرِينَ يَقُولُونَ: مُطِرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا" قال محمد: فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب، فقال: ونحن قد سمعنا من أبي هريرة، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو يستسقي فلما استسقى التفت إلى العباس فقال: يا عباس يا عمَّ رسول الله ﷺ، كم بقي من نوء الثريا؟ فقال: العلماء بها يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعًا، قال: فما مضت سابعة حتى

=

=

مُطروا".

قال ابن كثير:"وهذا مَحمول على السؤال عن الوقت الذي أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر، لا أن ذلك النوء يؤثر بنفسه في نزول المطر؛ فإن هذا هو المنهي عن اعتقاده".

الثالث: أن «الرزق» بمعنى: الحظ. فالمعنى: وتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قاله الحسن وذكره الثعلبي.

قال الحسن:"بئسما أخذ قوم لأنفسهم لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به".

وفي لفظ:"خسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب".

وحكي الماوردي-في معنى الآية-:"أنه ما يأخذه الأتباع من الرؤساء على تكذيب النبي- ﷺ- والصد عنه".

وحكي عن عكرمة في تفسير الآية-:"أنه الاكتساب بالسحر".

مسألة: حكم الاستسقاء بالأنواء.

الاستسقاء لغة: طلب السقيا ومجيء المطر.

والنوء: سقوط نجم من النازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته. والنوء جمعه أنواء.

قال ابن الأثير: "ناء. ينوء نوءا: أي نهض وطلع".

وفي قول الرسول ﷺ: "ولا نوء" يقول الإمام البغوي: "أراد به ما كانت العرب تنسب المطر إلى أنواء الكواكب الثمانية والعشرين التي هي منازل القمر، وتقول: مطرنا بنوء كذا، فأبطل الشرع أن يكون بنوء النجم شيء إلا بإذن الله، كما أخبر الرسول ﷺ عن ربه ﷻ قال: "من قال: مطرنا بفضل الله وبرحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، ومن قال: مطرنا بنوء كذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب"".

=

=

وقال النووي: "وأما النوء ففيه كلام طويل قد لخصه الشيخ أبو عمرو بن الصلاح- رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- فقال: النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوءا، أي سقط وغاب، وقيل: أي نهض وطلع.

وبيان ذلك: أن ثمانية وعشرين نجما معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، وهي المعروفة بمنازل القمر الثمانية والعشرين، يسقط في كل ثلاث عشرة ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته.

وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منهما، وقال الأصمعي: "إلى الطالع منهما"، قال أبو عبيد: "ولم أسمع أحدا ينسب النوء للسقوط إلا في هذا الموضع، ثم إن النجم نفسه قد يسمى نوءا تسمية للفاعل بالمصدر". وقال أبو إسحاق الزجاج في بعض أماليه: "الساقطة في المغرب هي الأنواء والطالعة في المشرق هي البوارج"".

قال ابن الأثير: "وإنما يسمى نوءا لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق. وقيل: أراد بالنوء الغروب وهو من الأضداد".

قال أبو بكر الرازي: "وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها. وقيل إلى الطالع منها لأنها في سلطانه".

والخلاصة أن الاستسقاء بالأنواء: يراد به نسبة الحوادث إليها نسبة إيجاد أو جعلها سببا لوجود الحوادث كالمطر والرياح والحر والبرد. والنسبة قد تكون إلى طلوع النجم أو غروبه على ما كانت الجاهلية تعتقده.

* الدليل من الكتاب: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (٨٢)} [الواقعة: ٨٢].

جاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} قال شكركم تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا".

* الدليل من السنة: عن زيد بن خالد الجهني أنه قال صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

=

=

صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل على الناس فقال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب".

جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا"، قال فنزلت هذه الآية: {فلا أقسم بمواقع النجوم} [الواقعة: ٧٥] حتى بلغ: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} [الواقعة: ٨٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله عز وجل ليبيت القوم بالنعمة ثم يصبحون وأكثرهم كافرون يقولون مطرنا بنجم كذا كذا".

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أخوف ما أخاف على أمتي في آخر زمانها النجوم وتكذيب بالقدر وحيف السلطان".

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة".

* حكم الاستسقاء بالأنواء:

ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء وهو من باب نسبة الفعل

=

=

للكوكب وادعاء أنه هو الذي ينشئ السحاب ويأتي بالمطر وهذا كفر أكبر وكذلك من اعتقد أنها فاعلة له وحدها بما جعل الله فيها من القدرة على ذلك ثم تركها فهو كافر أيضا؛ لأن الخلق والأمر لله وحده.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: "ما هو كفر بإجماع المسلمين وهو القول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات وأن الكواكب فاعلة مختارة وهذا كفر بإجماع المسلمين".

الثاني: أن يعتقد أن هذه الأنواء سببا والله هو الخالق الفاعل وهذا شرك أصغر لأن كل من اعتقد سببا لم يجعله الله سببا لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركا أصغر.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولا: نسبة إيجاد وهذا شرك أكبر.

ثانيا: نسبة سبب وهذه شرك أصغر.

ثالثا: نسبة وقت وهذه جائزة بأن يريد بقوله مطرنا بنوء كذا أي جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته.

ولهذا قال العلماء: يحرم أن يقول "مطرنا بنوء كذا"، ويجوز "مطرنا في نوء كذا"، وفرقوا بينهما أن "الباء" للسببية و "في" للظرفية ... والحاصل أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقا، ولا يظن أنها تأتي سببية، فهذا جائز، ومع ذلك فالأولى أن يقال لهم: قولوا: في نوء كذا".

وقال الشافعي: "من قال مطرنا بنوء كذا على معنى مطرنا في وقت كذا، فلا يكون كفرا، وغيره من الكلام أحب إلي منه".

قال في جامع الأصول: "وإنما غلظ النبي ﷺ في أمر الأنواء؛ لأن العرب كانت تنسب المطر إليها. فأما من جعل المطر من فعل الله عَزَّوَجَلَّ وأراد بقوله: "مطرنا

=

=

بنوء كذا". أي: في وقت كذا، وهو هذا النوء الفلاني. فإن ذلك جائز" فهذه نسبة وقت جائزة.

قال ابن الأثير: "أي أن الله قد أجرى العادة أن يأتي المطر في هذه الأوقات".

* تنبيهات:

الأول: التغييرات الجوية مثل الحر والبرد وهبوب الرياح حكمها حكم نزول المطر الحكم واحد يجري عليها الأقسام التي ذكرنا.

الثاني: قال الشيخ ابن عثيمين: "يذكر في بعض كتب التوقيت "وقل أن يخلف نوؤه" أو "هذا نوؤه صادق" وهذا لا يجوز، وهو الذي أنكره الله ﷻ على عباده، وهذا شرك أصغر". ا.هـ من معجم التوحيد.

قوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ} [الواقعة: ٨٣]، أي:"فهلاً إذا بلغت الروح الحلقوم عند معالجة سكرات الموت".

عن ابن عباس:"{فَلَوْلا إذا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ}، يقول: النّفس".

قال مقاتل:"يعني: فهلّا {إذا بَلَغَتِ} هذه النّفس {الحُلْقُومَ} يعني: التراقي".

قال الطبري:"فهلا إذا بلغت النفوس عند خروجها من أجسادكم أيها الناس حلاقيمكم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ}، أي: الروح {الْحُلْقُومَ}، أي: الحلق، وذلك حين الاحتضار، قال: {كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ. وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ. وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ. وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة: ٢٦، ٣٠]".

قوله تعالى: {وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ} [الواقعة: ٨٤]، أي:"وأنتم في ذلك الوقت تنظرون إلى المحتضر وما يكابده من شدائد وأهوال".

قال الطبري:"يقول: ومن حضرهم منكم من أهليهم حينئذ إليهم ينظر".

=

=

قال ابن كثير:"أي: إلى المحتضر وما يُكابده من سكرات الموت".

قال ابن عباس:"يريد: مَن حَضر الميت مِن أهله ينظرون إليه متى تخرج نفسه".

قال الكلبي: "تنظرون إليه متى تخرج نفسه".

قال مقاتل:"{تنظرون} إلى أمري وسلطاني".

وعن قال عطاء: " {وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ}، إلى ما كنتم تكذبون به".

حكي عن مسروق بن الأجدع:"أنه بكى حين حضرته الوفاة، فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي، وإنما هي ساعة، ثم لا أدري إلى أين يسلك بي".

قوله تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ} [الواقعة: ٨٥]، أي:"ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا، ولكنكم لا ترونهم".

قال مقاتل:"يعني: ملك الموت وحده إذا أتاه ليقبض روحه".

قال الطبري:"يقول: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، {وَلَكِنْ لا تُبْصِرُون}".

قال ابن كثير:"{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ}، أي: بملائكتنا {وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ}، أي: ولكن لا ترونهم. كما قال في الآية الأخرى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦١، ٦٢]".

عن عمر بن الخطاب، قال: "احضُروا موتاكم، وذكِّروهم؛ فإنهم يَرون ما لا تَرون".

عن عمر بن الخطاب، قال: "احضُروا موتاكم، ولقِّنوهم: لا إله إلا الله. فإنهم يَرون، ويُقال لهم".

=

=

عن عمر بن الخطاب، قال: لقِّنوا موتاكم: "لا إله إلا الله. واعقلوا ما تسمعون من المطيعين منكم؛ فإنه يُجلّى لهم أمور صادقة".

قال عامر بن عبد قيس: "ما نظرت إلى شيء إلّا رأيت الله سبحانه أقرب إليّ منه".

قوله تعالى: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ} [الواقعة: ٨٦]، أي:"فهلاًّ إن كنتم غير مجزيين بأعمالكم كما تزعمون".

قال الطبري:"جواب قوله: {فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ}، وجواب قوله: {فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ} جواب واحد وهو قوله: {تَرْجِعُونَهَا}، وذلك نحو قوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، جعل جواب الجزاءين جوابًا واحدًا".

وفي قوله تعالى: {غَيْرَ مَدِينِينَ} [الواقعة: ٨٦]، وجوه:

أحدها: غير محاسبين، قاله ابن عباس والحسن-في رواية- ومجاهد-في رواية- وعكرمة وقتادة والسدي وأبو حَزْرَة وابن زيد.

قال ابن زيد:"كانوا يجحدون أن يُدانوا بعد الموت، قال: وهو مالك يوم الدين، يوم يُدان الناس بأعمالهم، قال: يدانون: يحاسبون.

قال مقاتل:"يعني: غير محاسبين، نظيرها في فاتحة الكتاب: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]، يعني: يوم الحساب، وقال في: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} [الماعون: ١]، يعني: بالحساب، وقال في «الذاريات»: {وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} [الذاريات: ٦]، يعني: الحساب لكائن، وقال أيضا في «الصافات»: {أَإِنَّا لَمَدِينُونَ} [الصافات: ٥٣]، يعني: إنا لمحاسبون".

الثاني: غير مبعوثين يوم القيامة، قاله الحسن-في رواية أخرى-.

الثالث: غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون، قاله سعيد بن جبير والحسن البصري.

=

=

الرابع: غير معذبين مقهورين، قاله ميمون بن مهران.

الخامس: غير موقنين، قاله مجاهد.

السادس: غير مجزيّين بأعمالكم، ومنه يقال: دِنته، وكما تدين تدان. قاله أبو عبيدة والأخفش وحكاه الفراء والطبري دون نسبة.

قال الأخفش:"أيْ: غيرَ مَجْزِيِّينَ مقهورين".

قال أبو عبيدة:"والعبد مدين، قال الأخطل:

ربت وربا في كرمها ابن مدينة... يظلّ على مسحاته يتركّل".

السابع: غير مملوكين، قاله الفراء وابن قتيبة والزجاج.

قال ابن قتيبة:"أي: غير مملوكين أذلاءَ. من قولك: دِنْتُ له بالطاعة".

قال الزجاج:"معناه: هلَّا ترجعون الروح إن كنتم غير مَدِينين، أي: غير مَمْلوكين مُدَبَّرين ليس لكم في الحياة والموت قدرة، فهلَّا إن كنتم كما زعمتم ومثل قولكم الذي جاء في القرآن: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: ١٦٨]، كما قال: {أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا} [آل عمران: ١٥٦]. فالمعنى: إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلًا فهلَّا تَرْجِعُون الروح إذا بلغت الحلقوم، وهلَّا تدرأون عن أنفسكم الموت".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: غير محاسبين فمجزيين بأعمالكم من قولهم: كما تدين تدان، ومن قول الله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]".

قوله تعالى: {تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة: ٨٧]، أي:"تردون نفس هذا الميت إلى جسده بعد ما بلغت الحلقوم، إن كنتم صادقين؟".

قال الطبري:"يقول: تردّون تلك النفوس من بعد مصيرها إلى الحلاقيم إلى

=

=

مستقرّها من الأجساد إن كنتم صادقين، إن كنتم تمتنعون من الموت والحساب والمجازاة".

قال ابن الجوزي:"المعنى: إن جحدتم الإله الذي يحاسبكم ويجازيكم، فهلاَّ تردُّون هذه النَّفْس؟! فإذا لم يمكنكم ذلك، فاعلموا أن الأمر لغيركم".

قال ابن قتيبة:"{تَرْجِعُونَهَا}، أي: تردون النفْس".

قال الأخفش: أي: " ترجعون تلك النفس وانتم ترون كيف تخرج عند ذلك {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أنكم تمتنعون من الموت".

قال ابن كثير:"معناه: فهلا تَرجعُون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول، ومقرها في الجسد".

قال النحاس:"مخاطبة لمن حضر ميتا: فالتقدير: فلا ترجعونها إن كنتم صادقين".

عن ابن عباس:"{تَرْجِعُونَها} يقول: ترجعوا النّفس {إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ}".

عن مجاهد:"{تَرْجِعُونَها}، قال: النّفس".

عن ابن زيد، قوله:"{تَرْجِعُونَهَا}، قال: لتلك النفس، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}".

قوله تعالى: {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الواقعة: ٨٨]، أي:"فأما إن كان الميت من السابقين المقربين".

عن ابن عباس:"{فَأَمّا إنْ كانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ}: مثل النّبيّين، والصِّدّيقين، والشهداء بالأعمال.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأما إن كان الميت من المقرّبين الذين قرّبهم الله من جواره في جنانه".

قال ابن كثير:"هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم: إما أن يكون من المقربين، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين. وإما أن يكون من المكذبين الضالين عن الهدى، الجاهلين بأمر الله؛ ولهذا قال تعالى: {فَأَمَّا إِنْ

=

=

كَانَ}، أي: المحتضر، {مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات، {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}، أي: فلهم روح وريحان، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: " إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، واخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح له، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ. فإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي منه ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، {وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٨]. فما يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر..". الحديث.

عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد قال: فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير، وفي يده عود ينكت به قال: فرفع رأسه وقال:"استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن الرجل المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، وكأن وجوههم الشمس معهم حنوط من حنوط الجنة، وكفن من كفن الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك

=

=

الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج نفسه فتسيل كما تسيل القطرة من فم السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذها فيجعلها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة ريح مسك، وجدت على ظهر الأرض فلا يمرون بملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه الذي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله ﷻ: اكتبوا عبدي في عليين في السماء السابعة، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول الله، فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب الله ﷻ فآمنت به وصدقت، قال: فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا من الجنة فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح فيقول له: أبشر بالذي يسرك فهذا يومك الذي كنت توعد فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال وأما العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ومعهم المسوح حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يأتيه ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط الله وغضبه". قال:"فتفرق في جسده فينتزعها، ومعها العصب والعروق كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذونها فيجعلونها في

=

=

تلك المسوح". قال:"ويخرج منها أنتن من جيفة وجدت على وجه الأرض فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ} [الأعراف: ٤٠] إلى آخر الآية قال: فيقول الله تبارك وتعالى: اكتبوا [ص:٦١٢] كتابه في سجين في الأرض السابعة السفلى، وأعيدوه إلى الأرض فإنا منها خلقناهم، وفيها نعيدهم، ومنها نخرجهم تارة أخرى". قال:"فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ} [الحج: ٣١] الآية، ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابا من النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه". قال:"ويأتيه رجل قبيح الوجه منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد". قال:"فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجي بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة رب لا تقم الساعة".

ورواه عيسى بن المسيب، عن عدي بن ثابت، عن البراء، عن النبي ﷺ وذكر فيه اسم الملكين فقال في ذكر المؤمن:"فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر، ونكير يثيران الأرض بأنيابهما، ويلحقان الأرض بأشفاههما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه، ثم يقال له: يا هذا من ربك؟ فذكره وقال في ذكر الكافر:"فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويلحقان الأرض بأشفاهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه،

=

=

ثم يقولان له: يا هذا من ربك؟ فيقول: لا أدري فينادى من جانب القبر: لا دريت ويضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم يقلوها يشتعل منها قبره نارا ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه"».

عن ربعي بن حراش قال: "أتيت فقيل لي: قد مات أخوك ، فجئت سريعا وقد سجي بثوبه ، فأنا عند رأس أخي أستغفر له وأسترجع، إذ كشف الثوب عن وجهه، فقال: السلام عليكم ، فقلنا: وعليك السلام، سبحان الله ، قال: سبحان الله " إني قدمت على الله بعدكم فتلقيت بروح وريحان، ورب غير غضبان ، وكساني ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، ووجدت الأمر أيسر مما تظنون ، ولا تتكلوا ، وإني أستأذنت ربي أخبركم وأبشركم ، احملوني إلى رسول الله ﷺ فإنه عهد إلي أن لا أبرح حتى آتيه ، ثم طفئ مكانه ، قال: وأخذ حصاة فرمى بها ، قال: فما أدري أهو كان أسرع أم هذه".

قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]، أي:"فله عند موته الرحمة الواسعة والفرح وما تطيب به نفسه".

قال الطبري:"يقول: فله روح وريحان".

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَرَوْحٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]، أقوال:

أحدها: الفرح، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وبه قال سعيد والسدي.

الثاني: الراحة، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال مجاهد.

وقال أبو حَزْرَة: "الراحة من الدنيا".

قال الزجاج:"معناه: فاستراحة وبرد".

الثالث: المغفرة والرحمة، رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال الضحاك.

وقال قتادة: الرحمة".

الرابع: جنة ورخاء، قاله مجاهد.

=

=

الخامس: رَوْحٌ من الغَمّ الذي كانوا فيه، قاله محمد بن كعب.

السادس: رَوْح في القبر، أي: طيب نسيم، قاله ابن قتيبة.

وقرأ أبو بكر الصديق، وأبو رزين، والحسن، وعكرمة، وابن يعمر، وقتادة، ورويس عن يعقوب، وابن أبي سُريج عن الكسائي: «فَرُوْحٌ»، برفع الراء.

عن عَائِشَةَ، أن رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه قَرَأَ: «{فَرُوحٌ وَرَيْحَانٌ}»".

وفي معنى هذه القراءة، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناها: فرحمة، قاله قتادة.

الثاني: بقاء روحه بعد موت جسده. حكاه الماوردي.

الثالث: فحياة وبقاء في الجنة. قاله الفراء- وأبو عبيدة- وابن قتيبة.

وقال الفراء:"حَيَاةٌ لَا مَوْتَ فِيهَا".

وقال الزجاج: معناه: " فحياة دائمة لا موت بعدها".

وفي معنى قوله تعالى: {وَرَيْحَانٌ} [الواقعة: ٨٩]، أقوال:

أحدها: أنه الرزق، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس- وبه قال سعيد بن جبير- ومجاهد- ومنه قول النمر بن تولب:

سلامُ الإلهِ ورَيْحَانُهُ... ورَحْمَتُه وسَماءٌ دِرَر

قال مقاتل: يعني: الرزق في الجنة، بلسان حمير".

قال ابن قتيبة:"{وَالرَّيْحَانُ} الرزق؛ يقال: خرجت أطلب ريحان الله".

الثاني: يعني: المستريح من الدنيا، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس- وبه قال الضحاك.

قال الضحاك:"الرَّيحان: الاستراحة".

الثالث: الرحمة، قاله الضحاك.

الرابع: أنه الخير، قاله قتادة.

=

=

الخامس: أنه الجنة، قاله مجاهد وقتادة.

السادس: أنه الريحان المشموم، يتلقى به العبد عند الموت. قاله قتادة.

قال أبو العالية: "لم يكن أحد من المقرّبين يفارق الدنيا، والمقربون السابقون، حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيشمه، ثم يُقبض".

عن الربيع بن خثيم: " {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، قال: هذا عند الموت، {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ}، قال: يُجاء له من الجنة".

عن الحسن:"{فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ}، قال: تخرج روحه في ريحانة".

عن الحسن، في قوله: " {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}، قال: ذلك في الآخرة، فقال له بعض القوم قال: أما والله إنهم ليرون عند الموت".

قال أبو عمران الجوني: "بلغنا أن المؤمن إذا قبض روحه تلقى بضبائر الريحان من الجنّة، فتجعل روحه فيه".

قال ابن كثير:"وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقربًا حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن، {وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي: قول من قال: عني بالرَّوْح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت روحا: إذا وجد نسيما يستروح إليه من كرب الحرّ. وأما الريحان، فإنه عندي الريحان الذي يتلقى به عند الموت، كما قال أبو العالية والحسن، ومن قال في ذلك نحو قولهما، لأن ذلك الأغلب والأظهر من معانيه".

وقال محمد بن كعب: "لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلم: أمن أهل الجنة هو أم من أهل النار؟".

قوله تعالى: {وَجَنَّتُ نَعِيمٍ} [الواقعة: ٨٩]، أي:"وله جنة النعيم في الآخرة".

=

=

قال الطبري:"يقول: وله مع ذلك بستان نعيم يتنعم فيه".

عن ابن وهب، قال: قال ابن زيد: «وجنة نعيم»، قال: قد عُرِضت عليه".

عن الربيع بن خيثم في قوله: " {فأما إن كان من المقربين فروح وريحان} قال: هذا له عند الموت {وجنة نعيم} قال: تخبأ له الجنة إلى يوم يبعث".

عن أم هانئ: عن أم هانئ، أنها سألت رسول الله ﷺ أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضا؟ فقال رسول الله ﷺ: " تكون النسم طيرا تعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها".

عن عبد الله بن مسعود، قال: «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة في العرش».

عن عبد الله بن مسعود، في قوله: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] قال: أما إنا سألنا عن ذلك، فقال: " أرواحهم كطير خضر تسرح في الجنة في أيها شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، فبينما هم كذلك، إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة، فيقول: " سلوني ما شئتم، قالوا: ربنا، ماذا نسألك ونحن نسرح في الجنة في أيها شئنا؟ فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نسألك أن ترد أرواحنا في أجسادنا إلى الدنيا حتى نقتل في سبيلك، فلما رأى أنهم لا يسألون إلا ذلك، تركوا".

عن عطاء بن السائب، قال: "كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبي ليلى: رأيت شيخًا أبيض الرأس واللحية على حمار، وهو يتبع جنازة، فسمعته يقول: حدثني فلان بن فلان، سمع رسول الله ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قال: فأكب القوم يبكون فقال: "ما يُبكيكم؟ " فقالوا: إنا نكره الموت. قال: "ليس ذاك، ولكنه إذا حُضِر {فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ}، فإذا بُشِّر بذلك أحب لقاء الله ﷻ، والله،

=

=

ﷻ، للقائه أحب {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنزلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ}، فإذا بُشِّر بذلك كره لقاء الله، والله للقاءه أكره".

قوله تعالى: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٩٠]، أي:"وأما إن كان الميت من أصحاب اليمين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ} الميت {مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} الذين يؤخذ بهم إلى الجنة من ذات أيمانهم".

قال النحاس:"أي: ممن أخذ به ذات اليمين إلى الجنة".

قال ابن كثير:"أي: وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، {فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ}، أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين".

عن ابن عباس:"{إمّا إنْ كانَ مِن أصْحابِ اليَمِينِ}، يقول: جمهور أهل الجنة".

قوله تعالى: {فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٩١]، أي:"فيقال له: سلامة لك وأمن؛ لكونك من أصحاب اليمين".

وفي قوله تعالى: {فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: ٩١]، أقوال:

أحدها: فسلامة لك من العذاب، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

وقال ابن قتيبة:"يريد: فسلامةٌ لك منهم؛ أي: يُخبِرُك عنهم بسلامة".

الثاني: معناه: سلم مما يكره. قاله ابن زيد.

الثالث: سلام من عند الله وسلمت عليه ملائكة الله. قاله قتادة.

الرابع: تسلِّم عليه الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين، قاله عكرمة وعطاء.

وقال عطاء:"يسلم عليه الملائكة وجيرانه من أصحاب اليمين".

قال ابن كثير:"وهذا معنى حسن ويكون ذلك كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي

=

=

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ. نزلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: ٣٠- ٣٢]".

الخامس: سلم الله ذنوبهم وغفرها فتجاوز عن سيئاتهم وتقبل حسناتهم. قاله مقاتل.

السادس: أن المعنى: أنك ترى فيهم ما تحب من السَّلاَمَةِ وقد علمت ما أُعِدَّ لهم من الجزاء، قاله الزجاج.

السابع: لك من أصحاب اليمين سلام، أي: يسلمون عليك. حكاه النحاس.

قال النحاس:"وهذا قول نظري لأن المخاطبة للنبي ﷺ فلا يخرج إلى غيره إلا بدليل قاطع".

الثامن: أن المعنى: فذلك مسلّم لَكَ أنك من أصحاب اليمين. قاله الفراء والبخاري.

وقال الفراء:"وقد يكون كالدعاء لَهُ، كقولك: فسقيا لَكَ من الرجال، وإن رفعت «السلامَ» فهو دعاء".

قوله تعالى: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ} [الواقعة: ٩٢]، أي:"وأما إن كان الميت من المكذبين بالبعث، الضالين عن الهدى".

قال الطبري:"يقول تعالى: وأما إن كان الميت من المكذّبين بآيات الله، الجائرين عن سبيله".

قال ابن كثير:"أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق، الضالين عن الهدى".

عن ابن عباس:"{وأَمّا إنْ كانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضّالِّينَ}: وهم المشركون".

قوله تعالى: {فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ} [الواقعة: ٩٣]، أي:"فله ضيافة من شراب جهنم المغلي المتناهي الحرارة".

=

=

قال الطبري: يقول:"فله نزل من حميم قد أغلي حتى انتهى حرّه، فهو شرابه".

قال ابن كثير:"أي: فضيافة {مِنْ حَمِيمٍ} وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود".

قال الزجاج:"معناه: فغذاء من حميم".

قال ابن عباس:"لا يخرج الكافر من دار الدنيا حتى يشرب كأسا من حميم".

قوله تعالى: {وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} [الواقعة: ٩٤]، أي:"والنار يحرق بها، ويقاسي عذابها الشديد".

قال الطبري: " يقول: وحريق النار يحرق بها؛ والتصلية: التفعلة من صلاة الله النار فهو يصليه تصلية، وذلك إذا أحرقه بها".

قال ابن كثير:"أي: وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته".

قال الزجاج:"أي: إقامةً في جحيم، فأَعلم الله- ﷻ- أن الجحيم ههنا للمكذبين الضالين".

عن ابن عباس:"{وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ}، يقول: في الآخرة".

روي عن الضحاك -في الآية-، قال: "من مات وهو يشرب الخمر، شج في وجهه من جمر جهنم".

عن أبي قتادة الأنصاري، قال: كُنّا مع رسول الله- ﷺ- إذ مرّتْ جنازةٌ، فقال: «مُستريحٌ، ومُستَراحٌ منه». فقلنا: يا رسول الله، ما المُستريح؟ وما المُستَراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يَستَريح من نَصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يَستَريح منه العباد والبلاد والشّجر والدّواب».

عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله- ﷺ -: «مَن أحبّ لقاءَ اللهِ أحبّ اللهُ لقاءه، ومَن كرِه لقاءَ اللهِ كره اللهُ لقاءه». فقالت عائشة: إنّا لنكره الموت! فقال: «ليس ذاك، ولكنّ المؤمن إذا حَضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس

=

=

شيء أحبّ إليه مما أمامه، وأَحَبّ لقاء الله، وأَحَبّ اللهُ لقاءَه، وإنّ الكافر إذا حُضر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكرَه إليه مما أمامه، وكره لقاءَ الله، وكره اللهُ لقاءه».

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله- ﷺ -: «إنّ الميت تَحضُره الملائكة؛ فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرُجي، أيّتها النفس الطّيّبة كانت في الجسد الطّيّب، اخرُجي حميدةً، وأَبْشري بروح وريحان وربّ غير غضبان. فيقال لها ذلك حتى تَخْرج، فيُصعَد بها إلى السماء، فيُستفتَح لها؛ فيقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: مرحبًا بالنفس الطّيّبة كانت في الجسد الطّيّب، ادخُلي حميدة، وأَبْشري برَوح وريحان وربٍّ غير غضبان. فيُقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله -تبارك وتعالى-، وإذا كان الرجل السّوء قالوا: اخرُجي، أيّتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرُجي ذميمةً، وأَبْشِري بحميمٍ وغسّاق، وآخر مِن شَكْله أزواج، فيقولون ذلك له حتى تَخْرج، ثم يُعرج بها إلى السماء، فيُستفتَح لها، فيُقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلان. فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمةً، فإنّه لن يُفتَح لك. فتُرمى مِن السماء إلى الأرض، ثم تصير في القبر».

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} [الواقعة: ٩٥]، أي:"إن هذا الذي قصصناه عليك -أيها الرسول- لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إن هذا الذي أخبرتكم به أيها الناس من الخبر عن المقرّبين وأصحاب اليمين، وعن المكذّبين الضالين، وما إليه صائرة أمورهم: لهو الحقّ من الخبر اليقين لا شكّ فيه".

قال ابن كثير:"أي: إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه، ولا محيد لأحد عنه".

=

=

عن ابن عباس، قوله: " {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}، قال: ما قصصنا عليك في هذه السورة".

قال ابن عباس:"يقول: هذا القولُ الذي قَصَصنا عليك لَهُو حقّ اليقين. يقول: القرآن الصادق".

عن مجاهد: " {إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}، قال: لهو الخبر اليقين".

وقال مجاهد:"الجزاء المُبين".

عن قتادة: {وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)} [الواقعة: ٩٢- ٩٥]، حتى ختم، إن الله تعالى ليس تاركا أحدا من خلقه حتى يوقفه على اليقين من هذا القران. فأما المؤمن فأيقن في الدنيا، فنفعه ذلك يوم القيامة. وأما الكافر، فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه".

قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} [الواقعة: ٩٦]، أي:"فسبِّح باسم ربك العظيم، ونزِّهه عما يقول الظالمون والجاحدون، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فسبح بتسمية ربك العظيم بأسمائه الحسنى".

عن ابن عباس، قوله: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}، قال: فصل لربك".

قال ابن عطية:"يحتمل أن يكون الاسم هنا واحدا مقصودا، ويكون «العظيم» صفة له، فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم وإن كان لم ينص عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه إيصال سورة الحديد أولها ففيه التسبيح وجملة من أسماء الله تعالى، وقد قال ابن عباس: «اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد»، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر، ولله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدركها".

=

=

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".
عن الحسن قال: " {سبحان الله}: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".
عن عقبة بن عامر الجهني قال: "لما نزلت على رسول الله ﷺ: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} قال: «اجعلوها في ركوعكم». ولما نزلت: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى: ١]، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»".
عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِسَتْ له نخلة في الجنة".
عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".
قال العثيمين: قوله تعالى: {أفبهذا الحديث أنتم مدهنون} يعني أبعد هذا البيان لعظمة القرآن الكريم تدهنون به الكفار وتسكتون عن بيانه وعن العمل به، وهذا الاستفهام للإنكار، لأن الواجب على من آمن بأنه {تنزيل من رب العالمين}- وأنه قرآنًا كريمًا، وأنه لا يمسه إلا المطهرون الواجب أن يصارح ويصرح ولا يدهن، وقد قال الله تعالى في آيات أخرى: {ودوا لو تدهن فيدهنون} ولكن هذا ليس بحاصل، فالواجب على المؤمن أن يبرز بدينه ويفتخر به ويظهره، خلاف ما كان عليه كثير من الناس اليوم مع الأسف، تجد الرجل منهم إذا قام ليصلي يستحي أن يصلي، وربما يداهن ويؤخر الصلاة عن وقتها موافقة لهؤلاء الذين لا يصلون، وهذا غلط عظيم، بل الواجب أن يكون الإنسان صريحًا فلا يداهن في دين الله ﷻ {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} أي: تجعلون عطاء الله إياكم تكذيبًا له كما قال ﷻ: {يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها} ومن ذلك أن ينسب الإنسان نعمة الله ﷻ إلى السبب متناسيًا المسبب سبحانه وتعالى، كقوله مثلًا: مطرنا بنوء كذا فينسب المطر إلى النوء لا إلى الخالق ﷻ، فهذا نوع من الشرك، كما جاء ذلك صريحًا في

=

=

حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلى بهم صلاة الصبح ذات يوم في الحديبية وقد نزل مطر، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي، وكافر» يعني انقسموا إلى قسمين مؤمن وكافر، «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

{فلولا إذا بلغت الحلقوم} أي: الروح، والذي يعين المرجع هنا السياق كما في قول الله تبارك وتعالى: {فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب} أي: الشمس، ولم يسبق لها ذكر، ولكن السياق يدل على ذلك، فمرجع الضمير تارة يكون مذكورًا، وتارة يكون معلومًا: إما بالسياق وإما بشيء آخر، والحلقوم هو مجرى النفس، وفي جانب الرقبة الأسفل مجريان: مجرى الطعام والشراب، ويسمى المريء، ومجرى النفس وهو الحلقوم، وهو عبارة عن خرزات دائرية لينة منفتحة، أما المريء فإنه بالعكس فإنه كواحد من الأمعاء، ووجه ذلك أن مجرى النفس لابد أن يكون مفتوحًا، لأن النفس لو كان مجراه مغلقًا لكان التنفس شديدًا، لكن برحمة الله جعل الله هذا مثل الأنبوب، لكنه لين، خرزات مستديرة، حتى يهون على المرء رفع رأسه وخفضه، أما المريء فهو مثل الأمعاء العادية، والطعام والشراب قوي يفتحه عند النزول إليه، وذكر الله الحلقوم دون المريء، لأن الحلقوم مجرى النفس، وبانقطاعه يموت الإنسان، فإذا بلغت الروح الحلقوم وهي صاعدة من أسفل البدن إلى هذا الموضع، حينئذ تنقطع العلائق من الدنيا، ويعرف الإنسان أنه أقبل على الآخرة وانتهى من الدنيا {وأنتم حينئذ تنظرون} أي تنظرون إلى الميت وما يعانيه من المشاق والسكرات، ولا تستطيعون أن تردوا ذلك عنه، ولو كنتم أقرب قريب إليه، وأحب حبيب إليه فإنه

=

=

لا يقدر أحد على منع الروح إذا بلغت الحلقوم {ونحن أقرب إليه منكم} يعني أن الله تعالى أقرب إلى الحلقوم من أهله، ولكن المراد أقرب بملائكتنا، ولهذا قال: {ولكن لا تبصرون} والله تعالى يضيف الشيء إلى نفسه إذا قامت به ملائكته، لأن الملائكة رسله عليهم السلام، وليس هذا من باب تحريف الكلم عن مواضعه، ولكنه من باب تفسير الشيء بما يقتضيه السياق، لأنه ربما يقول قائل: إن ظاهر الآية

{ونحن أقرب إليه منكم} أن الأقرب هو الله ﷻ فلماذا تحرفونه؟ فنقول: نحن لا نحرفها، بل فسرناها بما يقتضيه ظاهرها، لأن الله قال: {ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون} وهذا يدل على أن هذا القريب في نفس المكان ولكن لا نبصره، وهذا يعين أن يكون المراد قرب الملائكة لاستحالة ذلك في حق الله تعالى، وأيضًا فإن القرب مقيد بحال الاحتضار، والذي يحضر الميت عند موته هم الملائكة لقوله تعالى: {حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون}. فإن قيل: كيف يضيف الله الشيء إلى نفسه والمراد الملائكة؟

قلنا: لا غرابة في ذلك، فإن الله يضيف الشيء إلى نفسه وهو من فعل الملائكة لأنهم رسله، ففعلهم فعله، ألم تر إلى قول الله تبارك وتعالى: {لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه فإذا قرأناه فاتبع قرءانه} والمراد قراءة جبريل عليه السلام لا قراءة الله، لكنه أضاف فعل جبريل إليه لأنه بأمره، وهو الذي أرسله به، إذن {ونحن أقرب إليه منكم} يعني ملائكتنا أقرب إليه منكم، لأنهم حضروا لقبض الروح، والله تبارك وتعالى قد حفظ الإنسان في حياته وبعد مماته، ففي حياته هناك ملائكة يحفظونه من أمر الله، وبعد مماته ملائكة يقبضون الروح ويحفظونها لا يفرطون فيها إطلاقًا، فهم قريبون من الميت ولكننا نحن لا نبصرهم، لأن الملائكة عالم غيبي لا يُرون.

=

=

(تنبيه): التقرب أو القرب والدنو من صفات الله الفعلية الاختيارية، ثابتة له بالكتاب والسنة. و (القريب) اسم من أسمائه تعالى.

قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية (٨/ ١٨٩) بعد أن نقل كلام الأشعري هذا: وهو صريح في أن قربه إلى خلقه عنده -أي الأشعري- من الصفات الفعلية حيث قال كيف يشاء والقرب بالعلم والقدرة لا يجوز تعليقه بالمشيئة لأن علمه وقدرته من لوازم ذاته فهذا من اتفاق عامة الصفاتية على إثبات قرب الخلق إلى الله ﷻ وقربهم إليهم وهذا الذي قاله الأشعري وحكاه عن أهل السنة تلقاه عن زكريا بن يحيى الساجي وغيره من أئمة البصريين وهذا اللفظ الذي ذكره في القرب محفوظ عن حماد بن زيد إمام أهل السنة في عصر مالك والثوري والأوزاعي.

اعلم أن أهل السنة والجماعة من السلف وأهل الحديث يعتقدون أن الله ﷻ قريب من عباده حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته، وهو مستو على عرشه، بائن من خلقه، وأنه يتقرب إليهم حقيقة، ويدنو منهم حقيقة، ولكنهم لا يفسرون كل قرب ورد لفظه في القرآن أو السنة بالقرب الحقيقي؛ فقد يكون القرب قرب الملائكة، وذلك حسب سياق اللفظ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٥/ ٤٦٦): وأما دنوه وتقربه من بعض عباده؛ فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر. اهـ.

وقال في موضع آخر من الفتاوي (٦/ ١٤):... ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يراد به قربه بنفسه، بل يبقى هذا من الأمور الجائزة، وينظر في النص الوارد، فإن دل على هذا؛ حمل عليه، وإن دل على هذا؛ حمل عليه، وهذا كما تقدم في لفظ الإتيان والمجيء.

=

=

وقال العلامة ابن باز في مجموع فتاواه (٣/ ٦٧): وأما قوله سبحانه: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} وقوله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ} فقد فسره جماعة بقرب الملائكة لأن قربهم من العبد حين يتلقى المتلقيان وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده، وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته وإحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد، تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أنه سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عال عليهم وعلمه في كل مكان.

{فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونهآ} أي: فهلا إن كنتم غير مجزيين: أي غير مبعوثين ومجازين على أعمالكم ترجعونها إن كنتم صادقين، الجواب: لا يمكن، وحينئذ يجب أن تصدقوا بالبعث والجزاء، لأنكم لا تقدرون على رد الروح حتى لا تجازى، فأيقنوا بالبعث.

ثم قسم الله تعالى المحتضرين إلى ثلاثة أقسام فقال في القسم الأول: {فأمآ إن كان من المقربين فروح وريحان وجنت نعيم} - اللهم اجعلنا منهم- وهم الذين أتوا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وأتوا بالمستحبات، وتنزهوا عن المكروهات، أي: أكملوا دينهم، والمقربون هم السابقون، الذين ذكروا في أول السورة، السابقون إلى الخيرات {فروح وريحان وجنت نعيم} اختلف المفسرون رحمهم الله في قوله: {فروح} ـ فقيل: فراحة، لأن المؤمن وإن كان يكره الموت لكنه يستريح به، لأنه يبشر عند النزع بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيسر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ بل يحب لقاء الله ﷻ، وهذا لا شك راحة له من نكد الدنيا ونصبها وهمومها، وقيل: الروح بمعنى الرحمة، كما قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام حين قال لبنيه: {يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تاييسوا من

=

=

روح الله} أي: من رحمته، وهذا المعنى أعم من الأول، لأن الرحمة أعم من أن تكون راحة، أو راحة مع حصول المقصود، وإذا كان المعنى أعم كان حمل الآية عليه أولى، إذن {فروح} أي: رحمة، ومن الرحمة الراحة {وريحان} قيل: المراد بالريحان كل ما يسر النفس، وليس خاصًّا بالريحان ذي الرائحة الطيبة، بل كل ما فيه راحة النفس ولذتها من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح ومشموم، فهو شامل، وقيل: المراد بالريحان الرائحة الطيبة كالريحان المعروف، والأول: أشمل. فتحمل الآية عليه {وجنت نعيم} أي: جنة ينعم بها، وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه- جعلنا الله منهم- ينعم الإنسان فيها ببدنه وقلبه، فهو لا يتعب ولا ينصب، ولا يمرض ولا يحزن، ولا يهتم ولا يغتم، بل هو في نعيم دائم، والدنيا فيها نعيم لكنه نعيم منغص على حد قول الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

وهكذا الدنيا إذا سرَّت يومًا فاستعد للإساءة من غد، وإذا أساءت يوم فقد تنعم في الثاني، أو لا تنعم، أما الجنة في الآخرة فهي دار نعيم في القلب ونعيم في البدن {وأمآ إن كان من أصحاب اليمين} وهم الذين أتوا بالواجبات وتركوا المحرمات، لكنَّ فيهم نقصًا في المستحبات والتنزه عن المكروهات {فسلام} أي: سلامة {لك} أي: أيها المحتضر {من أصحاب اليمين} أي: أنت من أصحاب اليمين، والمعنى: فسلام لك حال كونك من أصحاب اليمين، والأولون هم المقربون إليهم، وأصحاب اليمين لا سابقين ولا مخذولين، بين بين، لكنهم ناجون من العذاب، ولهذا قال: {فسلام لك من أصحاب اليمين} وهذا القسم الثاني، أما القسم الثالث: {وأمآ إن كان من المكذبين الضآلين} بالخبر {الضآلين} في العمل فلا تصديق ولا التزام، فكل كافر داخل في هذه الآية حتى المنافق {فنزل من حميم} أي: فله نزل من حميم، والنزل بمعنى الضيافة التي تقدم للضيف أول

=

=

ما يقدم، فهؤلاء- والعياذ بالله- حظهم هذا النزل نزل من حميم، والحميم هو شديد الحرارة {وتصلية جحيم} أي يصلون الجحيم فيخلدون فيها، والجحيم من أسماء النار- اعاذنا الله وإياكم منها- {إن هذا لهو حق اليقين} أي: إن هذا المذكور لكم، وهو انقسام الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة {لهو حق اليقين} أي: اليقين المتحقق المتأكد وصدق الله ﷻ لا يمكن أن يخرج الناس عن هذه الأقسام الثلاثة.

وهم المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون الضالون، لا يمكن يخرجوا عن هذا {فسبح باسم ربك العظيم} سبح بمعنى نزه، والذي ينزه الله ﷻ عنه كل نقص وعيب، أو مماثلة للمخلوق، فهو منزه عن كل نقص لكمال صفاته وعن مماثلة المخلوق، قال الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وقال: {ولقد خلقنا السماوات والأَرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} أي: من تعب وإعياء، وقوله: {باسم ربك} قيل: إن الباء زائدة، وأن المعنى سبح اسم ربك، كما قال الله تعالى: {سبح اسم ربك الأَعلى} وقيل: إنها ليست بزائدة، وأن المعنى سبح الله باسمه فلابد من النطق بالتسبيح، فتقول: سبحان الله، أما لو نزهته بقلبك فهذا لا يكفي، فعلى هذا تكون الباء للمصاحبة يعني سبح الله تسبيحًا مصحوبًا باسمه {باسم ربك العظيم} الرب هو الخالق المالك المدبر، والعظيم ذو العظمة والجلال- جل وعلا -.

قال ابن القيم في التبيان في أيمان القرآن: فصل: ثم وبخهم- سبحانه- على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب

=

=

العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة؟ وإنما أنزل بالحق وللحق.

والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟

ثم قال سبحانه: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (٨٢)} [الواقعة: ٨٢]، لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق- فرزق البدن: الطعام، والشراب. ورزق القلب: الإيمان، والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه، والابتهاج بذكره -، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب = أنعم الله- على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما.

ثم فاوت- سبحانه- بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته؛ فمنهم من وفر حظه من الرزقين، ووسع عليه فيهما، ومنهم من قتر عليه في الرزقين، ومنهم من وسع عليه رزق البدن، وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس.

وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر. و"الشكر" مادة زيادته، وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإن الله- تعالى- تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها.

فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان؛ جعلوا رزقهم- نفسه- تكذيبا، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق- وهما رزق القلب حقيقة -، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب.

=

=

وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال: التقدير: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون.

وقال آخرون: التقدير: وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معا.

وهؤلاء أطالوا اللفظ، وقصروا بالمعنى.

ومن بعض معنى الآية قولهم: "مطرنا بنوء كذا وكذا"ـ فهذا يصلح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى. والله أعلم.

فصل: ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة أقسام.

وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره فقال تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم (٨٣)} [الواقعة: ٨٣]، أي: وصلت "الروح" إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي في برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، وملائكة الرب تبارك وتعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرونهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مبعوثين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مملوكون مربوبون عبيد لمالك، قادر، متصرف فيهم، قاهر، آمر لهم، ناه؛ أو لا يقرون بذلك.

فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم، وشكره، وتعظيمه، وإجلاله، وأن لا

=

=

يجعلوا له ندا، ولا شريكا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليهم به كتابه.
وإن أنكروا ذلك وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد، ولا مملوكين، ولا مربوبين، وإن الأمر إليهم؛ فهلا يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم؟ فإن المتصرف في نفسه، الحاكم على روحه؛ لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه، المتصرف فيه غيره، المدبر له سواه، الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات.
وهذا الاستدلال لا محيد عنه، ولا مدفع له، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية، والإقرار بالعبودية.
ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، مع الاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية، والتوحيد، والبعث، وفصل النزاع في معرفة "الروح" وأنها تصعد، وتنزل، وتنتقل من مكان إلى مكان.
وما أحسن إعادة "لولا" ثانيا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحدا، وذكر الشرط بين "لولا" الثانية وما تقتضيه من الفعل، ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابطة بين "لولا" الأولى والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يسجد العقل والسمع لمعناه ولفظه.
فتضمنت الآيتان تقريرا، وتوبيخا، واستدلالا على أصول الإيمان: من وجود الخالق- سبحانه- وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينها تارة، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته وتقرير عبودية

=

=

الخلق.

وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين، منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل، متعلقا بعضها ببعض. وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه.

قال الفراء: "وأجيبت {فلولا إذا بلغت} و {فلولا إن كنتم غير مدينين (٨٦)} بجواب واحد وهو: {ترجعونها} "، قال: "ومثله قوله تعالى: {فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣٨)} [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، وهما شرطان".

وقال الجرجاني: "قوله تعالى: {ترجعونها} جواب لقوله: {فلولا} المتقدمة والمتأخرة، على تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون؟ يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذ لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهلا دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك، قادر، قاهر، متصرف فيكم، وهو الله الذي لا إله إلا هو؟".

وقال أبو إسحاق: "معناه: فهلا ترجعون "الروح" إن كنتم غير مملوكين مدبرين؛ فهلا إن كان الأمر كما زعمتم فيما يقول قائلكم: {لو أطاعونا ما قتلوا} [آل عمران: ١٦٨]، و {لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا} [آل عمران: ١٥٦]، أي: إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلا؛ فهلا ترجعون "الروح" إذا بلغت الحلقوم؟ وهلا تدرؤون عن أنفسكم الموت".

قلت: وكأن هذا يلتفت إلى قوله تعالى: {قل كونوا حجارة أو حديدا (٥٠) أو خلقا مما يكبر في صدوركم} [الإسراء: ٥٠، ٥١]؛ أي: إن كنتم كما تزعمون لا

=

=

تبعثون بعد الموت خلقا جديدا، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة، أو من حديد، أو أكبر من ذلك.

ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربا متصرفا فيكم، مالكا لكم، تنفذ فيكم مشيئته، وبقدرته يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم؟

وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر، قاهر، مالك، نافذ المشيئة والقدرة فيكم؛ فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا؛ أن يحييكم بعدما أماتكم؟

فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت، والذي في "الواقعة" استدلال يعجزهم عن رد "الروح" إلى مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد، أو الكفر والعناد.

فصل: فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون، مربوبون، مجزيون، محاسبون ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى. وهي ثلاثة:

١ - طبقة المقربين.

٢- وطبقة أصحاب اليمين.

٣- وطبقة المكذبين.

فجعل تحية المقربين عند الموافاة: الروح، والريحان، والجنة. وهذه الكرامات الثلاث التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاثة التي يعطونها يوم القيامة.

فـ "الروح": الفرح، والسرور، والابتهاج، ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم "الروح" ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها.

و"الريحان": الرزق، وهو الأكل والشرب.

=

=

و"الجنة": المسكن الجامع لذلك كله.

فيعطون هذه الثلاثة في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين. ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم ثمة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين فقال تعالى: {وأما إن كان من أصحاب اليمين (٩٠) فسلام لك من أصحاب اليمين (٩١)} [الواقعة: ٩٠، ٩١].

و"السلام": مصدر من سلم، أي: فلك السلامة. والخطاب له نفسه، أي يقال له: لك السلامة، كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ. كما يقولون: خير مقدم، ونحو ذلك، فهذه تحيته عند اللقاء.

قال مقاتل: "يسلم الله لهم أمرهم، بتجاوزه عن سيئاتهم، وتقبله حسناتهم".

وقال الكلبي: "يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك".

وعلى هذا فقوله: {من أصحاب اليمين (٩١)}، أي: هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك.

وفي الآية أقوال أخر، فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها.

ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم.

ثم أكد هذا الخبر بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال ﷻ: {إن هذا لهو حق اليقين (٩٥)} [الواقعة: ٩٥]، فرفع شأنه عن درجة الظن إلى العلم، وعن درجة العلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون.

=

=

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) (الواقعة: ٥٨- ٥٩)، وبعد ذلك: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) (الوقعة: ٦٣- ٦٤)، وبعده: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ) (الوقعة: ٦٨)، ثم قال: (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ) (الواقعة: ٧١)، للسائل أن يسأل عن وجه هذا الترتيب؟ وهل كان يمكن تقديم أحد هذه النعم المنعم بها على ما وقع في الآية متقدمًا عليه؟

والجواب عن هذه أن ذكر المتنعم متقدم في الرتبة على ما ذكر من النعم، لأن النعم إنما خلقت للمتنعم بها ومن أجله، فذكره أولًا بين اللزوم، فلهذا تقدم ذكر خلق الإنسان المتنعم بالنعم فقال تعالى: (أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ)، وأما تقديم الأكل على الشرب فمعقول الرتبة وبحسب ذلك ورد المقول المنقول فقال تعالى: (كُلُوا وَاشْرَبُوا) (الطور: ١٩)، فالشرب في الغالب للاستمراء وليس أوليًا في الغذاء ولا متعمدًا في الجسوم الحيوانية للنماء، وإنما ورد ذكره مع الأكل تاليًا لكونه في الرتبة ثانيًا فقال تعالى: (كُلُوا وَاشْرَبُوا). وأما النار فللمنافع من الإنضاج والإسخان والإضاءة فهي متممة وليست كالأكل والشرب مدعمة، إذ لم تكن كالأولى في الغذاء والنماء فليس من المناسبة تقدم ذكرها على الماء.

وورد عقب الآية الأولى قوله: (فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) (الواقعة: ٦٢) وعقب الثانية (فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) (الواقعة: ٧٠)، ووجه المناسبة أن الآية الأولى لمن تدبرها تذكرة بالعودة الأخراوية قال تعالى: (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) (الأعراف: ٢٩)، فأعقب بالتخصيص على التذكر بالبداءة على العودة. وأما الآية الثانية فمستدعية الشكر على عذوبة الماء ولو شاء لجعله أجاجًا، فخلقة وجعله عذبًا فوجب شكره تعالى على النعمة بذلك. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٦٦).

سُورَةُ الحَدِيد(١)

(١) السّورة مدنية، قاله ابن عباس وابن الزبير والحسن ومجاهد وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة ومقاتل. وقيل: مكّيّة، قاله ابن السّائب الكلبي.
قال ابن عطية: "ولا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا، لكن يشبه صدرها أن يكون مكيا والله أعلم".
* آياتها تسع وعشرون فى عدّ الكوفة والبصرة، وثمان فى عدّ الباقين. وكلماتها خمسمائة وأَربع وأَربعون. وحروفها أَلفان وأَربعمائة وستّ وسبعون. المختلف فيها آيتان: {مِن قِبَلِهِ العذاب} و {الإنجيل} مجموع فواصل آياتها (من بزَّ ردّ) على الزاءِ {إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ} وعلى الدّال {هُوَ الغني الحميد}.
* هذه السورة تسمى من عهد الصحابة «سورة الحديد» وسميت بسورة «الحديد» لوقوع لفظ «الحديد» فيها في قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} [الحديد: ٢٥].
قال ابن عاشور: "وهذا اللفظ وإن ذكر في سورة الكهف في قوله تعالى: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} [الكهف: ٩٦]، وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسمَ به؛ لأنها سميت باسم الكهف؛ للاعتناء بقصة أهل الكهف؛ ولأن الحديد الذي ذُكِرَ هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخوذ، تنويهًا به، إذ هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته، وإلهام الناس صنعه؛ لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفع المعتدين، كما قال تعالى: {فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: ٢٥]".
* معظم مقصود السّورة: الإشارة [إلى] تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات فى الأَرض والسّماوات، وتنزيهُ الحقّ تعالى فى الذّات والصفات، وأَمر المؤمنين بإِنفاق النفقات والصّدقات، وذكر حيرة المنافقين فى صحراءِ العَرَصَات وبيان =

=

خِسّة الدّنيا وعزّ الجَنَّات، وتسلية الخَلْق عند هجوم النكبات والمصيبات، فى قوله: {وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله} بهذه الآيات.

* المتشابهات: قوله تعالى: {سَبَّحَ للهِ} وكذلك فى الحَشْر، والصَّفِّ، ثمّ {يُسَبِّحُ} فى الجمعة والتَّغابن. هذه كلمة استأْثر الله بها، فبدأ بالمصدر فى بنى إِسرائيل؛ لأَنه الأَصل، ثمّ بالماضى؛ لأَنَّه أَسبق الزَّمانين، ثمَّ بالمستقبل، ثم بالأَمر فى سورة الأَعلى؛ استيعابًا لهذه الكلمة مِن جميع جهاتها. وهى أَربع: المصدر، والماضى، والمستقبل، والأَمر للمخاطب.

قوله: {مَا فِي السماوات والأرض} وفى السّور الخمس {مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض} إِعادة (ما) هو الأَصل. وخُصّت هذه السّورة بالحذف؛ موافقة لما بعدها. وهو {خَلْقُ السماوات والأرض} وبعدها {لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض}، لأَنَّ التَّقدير فى هذه السّورة: سبّح لله خَلْق السماوات والأَرض. ولذلك قال فى آخر الحشر بعد قوله: {الخالق البارئ المصور} {يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السماوات والأرض} أَى خَلْقُها.

قوله: {لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض} وبعده: {لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض} ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأُولى فى الدّنيا؛ لقوله: {يُحْيِي وَيُمِيتُ} والثَّانية فى العقبى؛ لقوله: {وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور}.

قوله: {ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم} بزيادة {هُوَ} لأَن {بُشْرَاكُمُ} مبتدأ {جَنَّاتٌ} خبره {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار} صفة لها {خَالِدِينَ فِيهَا} حال {ذَلِكَ} إِشارة إِلى ما قبله. و {هُوَ} تنبيه على عظم شأْن المذكور {الفوز العظيم} خبره.

قوله: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات} ابتداء كلام {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا} عَطْف عليه.

{ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} سبق.

قوله: {مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ}، وفى التَّغابن {مِن مُّصِيبَةٍ

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١).

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض} أَيْ نَزَّهَهُ كُلّ شَيْء فَاللَّام مَزِيدَة وَجِيءَ بِمَا دُون مِنْ تَغْلِيبًا لِلْأَكْثَرِ {وَهُوَ الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه.

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)

{له ملك السماوات والأرض يحيي} بالإنشاء {ويميت} بعده {وهو على كل شيء قدير}.

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣).

{هُوَ الْأَوَّل} قَبْل كُلّ شَيْء بِلَا بِدَايَةٍ {وَالْآخِر} بَعْد كُلّ شَيْء بِلَا نِهَايَة {وَالظَّاهِر} بالأدلة عليه {والباطن} عن إدراك الحواس {وهو بكل شيء عليم.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤).

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام} مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا أَوَّلهَا الْأَحَد وَآخِرهَا الْجُمُعَة {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش} الْكُرْسِيّ اسْتِوَاء يَلِيق بِهِ {يَعْلَم مَا يَلِج} يَدْخُل {فِي الْأَرْض} كَالْمَطَرِ وَالْأَمْوَات {وَمَا يَخْرُج مِنْهَا} كَالنَّبَاتِ

=

إِلاَّ بِإِذْنِ الله} فصّل في هذه السّورة، وأَجمل هناك؛ موافقة لما قبلها في هذه السّورة، فإِنَّه فصّل أَحوال الدّنيا والآخرة فيها، بقوله: {اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا} الآية.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَالْمَعَادِن {وَمَا يَنْزِل مِنْ السَّمَاء} كَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَاب {وَمَا يَعْرُج} يَصْعَد {فِيهَا} كَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَة وَالسَّيِّئَة {وهو معكم} بعلمه {أين ما كنتم والله بما تعملون بصير}.

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥).

{لَهُ مُلْك السَّمَاوَات وَالْأَرْض وَإِلَى الله تُرْجَع الْأُمُور} الْمَوْجُودَات جَمِيعهَا

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦).

{يُولِج اللَّيْل} يُدْخِلهُ {فِي النَّهَار} فَيَزِيد وَيَنْقُص اللَّيْل {وَيُولِج النَّهَار فِي اللَّيْل} فَيَزِيد وَيَنْقُص النَّهَار {وَهُوَ عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِيهَا مِنْ الْأَسْرَار وَالْمُعْتَقَدَات[1].

---

(١) قوله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ١]، أي:"نزَّه الله عن السوء كلُّ ما في السموات والأرض من جميع مخلوفاته".

قال الطبري: يعني: "أن كلّ ما دونه من خلقه يسبحه تعظيما له، وإقرارا بربوبيته، وإذعانا لطاعته، كما قال جلّ ثناؤه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض أي: من الحيوانات والنباتات، كما قال في الآية الأخرى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤]".

وعن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: "صلى لله {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} ممن خلق، وهم الملائكة".

=

=

عن الضحاك، وسفيان:"{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} " أنه الصلاة، سميت تسبيحا لما تتضمنه من التسبيح".

قال النحاس:"{سَبَّحَ}: عظم ورفع. مشتق من: السباحة، وهي الارتفاع، والتقدير: ما في السموات وما في الأرض".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحديد: ١]، أي:"وهو العزيز على خلقه، الحكيم في تدبير أمورهم".

قال الطبري: " يقول: ولكنه جلّ جلاله العزيز في انتقامه ممن عصاه، فخالف أمره مما في السموات والأرض من خلقه، {الْحَكِيمُ} في تدبيره أمرهم، وتصريفه إياهم فيما شاء وأحب".

قال النحاس:"أي: العزيز في انتقامه ممن عصاه الذي لا ينتصر منه من عاقبه من أعدائه، الحكيم في تدبره خلقه الذي لا يدخل في تدبيره خلل".

قال ابن كثير:"{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، أي: الذي قد خضع له كل شيء {الحكيم} في خلقه وأمره وشرعه".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"ـ الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

قوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ٢]، أي:"له ملك السموات والأرض وما فيهما، فهو المالك المتصرف في خلقه".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: له سلطان السموات والأرض وما فيهنّ ولا

=

=

شيء فيهنّ يقدر على الامتناع منه، وهو في جميعهم نافذ الأمر، ماضي الحكم".
قال ابن كثير:"أي: هو المالك المتصرف في خلقه".
عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".
قوله تعالى: {يُحْيِي وَيُمِيتُ} [الحديد: ٢]، أي:"يحيي من يشاء، ويُميت من يشاء".
قال الطبري: يقول جلّ ثناؤه: وهو على كل شيء ذو قدرة، لا يتعذّر عليه شيء أراده، من إحياء وإماتة، وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من الأمور".
قال ابن كثير:"فيحيي ويميت، ويعطي من يشاء ما يشاء".
عن محمد بن إسحاق:"{والله يحيي ويميت} " أي: يعجل من يشاء، ويؤخر من يشاء في ذلك من آجالهم بقدرته".
قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحديد: ٢]، أي:"لا يتعذَّر عليه شيء أراده، فما شاءه كان، وما لم يشأ لم يكن".
قال الطبري: " يقول: يحيي ما يشاء من الخلق، بأن يوجده كيف يشاء، وذلك بأن يحدث من النطفة الميتة حيوانا، بنفخ الروح فيها من بعد تارات يقلبها فيها، ونحو ذلك من الأشياء، ويميت ما يشاء من الأحياء بعد الحياة بعد بلوغه أجله فيفنيه".
قال ابن كثير:"أي: ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن".
عن ابن إسحاق: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ،" أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".
قوله تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} [الحديد: ٣]، أي:"هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء".
قال الفراء:"{هُوَ الْأَوَّلُ} ، يريد: قبل كل شيء. {وَالْآخِرُ} ، بعد كل شيء".

=

قال الزجاج: " {هُوَ الْأَوَّلُ}، قبل كل شيء، {وَالْآخِرُ}، بعد كل شيء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {هُوَ الأَوَّلُ} قبل كل شيء بغير حدّ، {وَالآخِرُ}، يقول: والآخر بعد كل شيء بغير نهاية. وإنما قيل ذلك كذلك، لأنه كان ولا شيء موجود سواه، وهو كائن بعد فناء الأشياء كلها، كما قال جلّ ثناؤه: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ}".

قال الثعلبي:"يعني: {هُوَ الْأَوَّلُ} قبل كل شيء بلا حد ولا ابتداء، كان هو ولا شيء موجود، {وَالْآخِرُ} بعد فناء كل شيء.. وهذا معنى قول ابن عباس".

وقال يمان: " {هُوَ الأَوَّلُ}: القديم، {وَالآخِرُ}: الرحيم".

وقال ابن عمر: {الأَوَّلُ} بالخلق، {وَالآخِرُ} بالرزق".

وقال الضحاك: "هو الذي أول الأول وآخر الآخر".

ومقاتل بن حيان: "هو الأول بلا تأويل أحد، والآخر بلا تأخير أحد".

وقال السدي: " {هُوَ الأَوَّلُ} ببره إذ عرفك توحيده، {وَالآخِرُ} بجوده إذ عرفك التوبة على ما جنيت".

وقال محمد بن الفضل: "الأول ببره والآخر بعفوه".

وقال أبو بكر الوراق: " {هُوَ الأَوَّلُ} بالأزلية، {وَالآخِرُ} بالأبدية".

وقال الحسين بن الفضل: " {هُوَ الأَوَّلُ} بلا ابتداء، {وَالآخِرُ} بلا انتهاء".

وقال الجنيد: {هُوَ الأَوَّلُ} بشرح القلوب، {وَالآخِرُ} بغفران الذنوب".

وقال ابن عطاء: " {الأَوَّلُ} بكشف أحوال الدنيا حتى لا يرغبوا فيها، {وَالآخِرُ} بكشف أحوال العقبى حتى لا يشكوا فيها".

قوله تعالى: {وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} [الحديد: ٣]، أي:"والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء".

قال الفراء:"{وَالظَّاهِرُ} على كل شيء علما، وكذلك {الْبَاطِنُ} على كل شيء =

=

علما".

قال الزجاج: " {وَالظَّاهِرُ}، العالم بما ظهر، {وَالْبَاطِنُ}: العالم بما بطن، كما تقول: فلان يُبْطُنُ أمر فُلانٍ، أي: يعلم دِخْلَةَ أمْرِه".

قال الطبري:"يقول: وهو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه، وهو الباطن جميع الأشياء، فلا شيء أقرب إلى شيء منه، كما قال: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}".

قال النحاس:"قيل: معنى «الظاهر»: الذي ظهرت صنعته وحكمته، وقيل: العالم بما ظهر وما بطن. ومن أحسن ما قيل فيه أنه من: «ظهر»، أي: قوي وعلا، فالمعنى: الظاهر على كل شيء العالي فوقه، فالأشياء دونه. «الباطن»: جميع الأشياء فلا شيء أقرب إلى شيء منه، ومثله: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [ق: ١٦]، ويدل على هذا أن بعده {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم} [الحديد: ٣]، أي: لا يخفى عليه شيء".

قال السمعاني:"أي: الظاهر بالدلائل والآيات، والباطن لأنه لا يرى بالأبصار، ولا يدرك بالحواس. وقيل: الظاهر هو الغالب؛ وهذا يحكى عن ابن عباس. والباطن المحتجب عن خلقه. وعن بعضهم: العالم بما ظهر وما بطن".

قال الثعلبي:"{وَالظَّاهِرُ}: الغالب العالي على كل شيء، وكل شيء دونه، {وَالْباطِنُ}: العالم بكل شيء، فلا أحد أعلم منه. وهذا معنى قول ابن عباس".

وقال ابن عمر: " {وَالظَّاهِرُ} بالإحياء، {وَالْبَاطِنُ} بالإماتة".

وقال الضحاك: هو الذي "أظهر الظاهر وأبطن الباطن".

وقال يمان: " {وَالظَّاهِرُ}: الحليم، {وَالْبَاطِنُ}: العليم".

وقال مقاتل بن حيان: هو " والظاهر بلا إظهار أحد، والباطن بلا إبطان أحد".

وقال محمد بن الفضل: " {وَالظَّاهِرُ} بإحسانه {وَالْبَاطِنُ} بسره".

=

=

وقال السدي: " {وَالظَّاهِرُ} بتوفيقه إذ وفقك للسجود له، {وَالْبَاطِنُ} بستره إذ عصيته فستر عليك".

وسأل عمر -رضي الله تعالى عنه -كعبا عن هذه الآية فقال: "معناها إن علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن".

وقال الواسطي: "لم يدع للخلق نفسا بعد ما أخبر عن نفسه أنه الأول والآخر والظاهر والباطن".

قال ابن كثير:"قوله: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ} وهذه الآية هي المشار إليها في حديث العرباض بن سارية: «أنها أفضل من ألف آية» ".

قال عبد العزيز بن يحيى: هذه «الواوات» مقحمة، والمعنى: هو الأول الآخر الظاهر الباطن، لأن من كان منا أولا لا يكون آخرا، ومن كان ظاهرا لا يكون باطنا".

عن عكرمة بن عمار، حدثني أبو زميل سماك الحنفي، ثنا ابن عباس:"وقلت له: إني أجد في نفسي شيئا لا أستطيع أن أتكلم به قال: لعله شك أو شيء مما شك قلت: نعم قال: ما نجى من هذا أحد حتى نزل على النبي ﷺ: {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ} [يونس: ٩٤]، ثم قال: إذا وجدت من ذلك فقل: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنِ} [الحديد: ٣]".

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: "اللهم، رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء وأنت الباطن ليس دونك شيء. اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر".

=

=

عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه فيفرش له مستقبل القبلة، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى، ثم همس- ما يدرى ما يقول- فإذا كان في آخر الليل رفع صوته فقال: "اللهم، رب السموات السبع ورب العرش العظيم، إله كل شيء، ورب كل شيء، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللهم، أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر".

قوله تعالى: {وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الحديد: ٣]، أي:"لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو بكل شيء عليم".

قال الطبري: يقول:"وهو بكلّ شيء ذو علم، لا يخفى عليه شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، إلا في كتاب مبين".

قال الزجاج: "لا يخفى عليه شيء".

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} [الحديد: ٤]، أي:"هو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: هو الذي أنشأ السموات السبع والأرضين، فدبرهنّ وما فيهنّ".

قال مجاهد:"بدءُ الخلق العرشُ والماء والهواء، وخلقت الأرض من الماء، وكان بدء الخلق يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، وجُمع الخلق في يوم الجمعة، وتهوَّدت اليهودُ يوم السبت. ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدّون".

قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: ٤]، أي:"ثم استوى -أي: علا

=

=

وارتفع- على عرشه فوق جميع خلقه استواء يليق بجلاله من غير تمثيلٍ ولا تكييف".

قال الطبري: يقول:"ثم استوى على عرشه، فارتفع عليه وعلا".

قال ابن عباس:"وإنما سمي العرش عرشا لارتفاعه".

قال سعد الطائي: "العرش ياقوتة حمراء".

قال وهب بن منبه:"إن الله خلق العرش من نوره".

عن قتادة، قوله: " {ثم استوى على العرش}، قال: اليوم السابع".

ومنهج السلف الصالح إزاء صفة الاستواء، وغيرها من صفات الباري تعالى: أن تمر كما جاءت، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تحريف، ولا تعطيل؛ فيثبتون له الأسماء والصفات، وينفون عنه مشابهة المخلوقات، إثباتًا منزهًا عن التشبيه، منزهًا عن التعطيل، فمن نفى حقيقة الاستواء فهو مُعطّل، ومَنْ شبهه باستواء المخلوق على المخلوق، فهو مُمَثِّل. وقد قال الإمام مالك بن أنس، لَمَّا سُئل عن كيفية الاستواء، فقال: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، وقد وَرَدَ مثلُ ذلك عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وربيعة الرأي.

قال الشوكاني:"مذهب السلف الصالح أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف على الوجه الذي يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه".

قال القرطبي- بعد أن ذكر مذهب المتكلمين-: "وقد كان السلف الأول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا يقولون بنفي الجهة، لا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة، بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه، وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم المخلوقات، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته. قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الاستواء معلوم- أي في اللغة-

=

=

والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة. وكذا قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا".

قال الإمام ابن كثير:"وأما قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة- منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري -: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر". وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى".

قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} [الحديد: ٤]، أي:"يعلم ما يدخل في الأرض من حب ومطر وغير ذلك، وما يخرج منها من نبات وزرع وثمار".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: مخبرا عن صفته، وأنه لا يخفى عليه خافية من خلقه، {يَعْلَمُ} {مَا} يدخل {فِي الأرْضِ} من خلقه، {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}".

قال الزجاج: أي: " يعلم ما يدخل في الأرض من مَطَرٍ وَغَيْرِه. {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} من نبات وغيره".

قال ابن كثير:"أي: يعلم عدد ما يدخل في الأرض من حب وقطر {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا} من زرع ونَبات وثمار، كما قال: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ

=

=

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]".

عن السدي:"{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ}، قال: من المطر، {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}، قال: من النبات".

قوله تعالى: {وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [الحديد: ٤]، أي:"وما ينزل من السماء من مطر وغيره، وما يعرج فيها من الملائكة والأعمال".

قال الطبري:"يقول: ويعلم{مَا يَنزلُ مِنَ السَّمَاءِ} إلى الأرض من شيء قطّ، {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}، فيصعد إليها من الأرض".

قال الزجاج:"{وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} من رزق ومطر وملك. {وَمَا يَعْرُجُ فِيها}، أي: ما يصعد إليها من أعمال العباد، وما يَعْرُج مِنَ الملائكة".

قال ابن كثير:"{وَمَا يَنزلُ مِنَ السَّمَاءِ}، أي: من الأمطار، والثلوج والبرَد، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام، وقد تقدم في سورة "البقرة" أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء تعالى. وقوله: {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}، أي: من الملائكة والأعمال، كما جاء في الصحيح: «يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل» ".

عن السدي:"{وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ} قال: الملائكة، {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}، قال: الملائكة".

قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤]، أي:"وهو سبحانه معكم بعلمه أينما كنتم".

قال ابن عباس:"عالمٌ بكم أينما كنتم".

عن سفيان الثوري:"أنه سئل عن قوله: {وهو معكم}، قال: علمه".

قال الطبري:"يقول: وهو شاهد لكم أيها الناس أينما كنتم يعلمكم، ويعلم

=

=

أعمالكم، ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سمواته السبع".

قال النحاس:"أي: وهو شاهد معكم حيث كنتم".

قال ابن كثير:"أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم حيث أنتم، وأين كنتم، من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو القفار، الجميع في علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم، كما قال: {أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود: ٥]. وقال {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه".

قال السعدي: وهذه المعية، معية العلم والاطلاع".

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال لجبريل، لما سأله عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

عن عبد الرحمن بن عائذ قال: قال عمر: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: زودني كلمة أعيش بها فقال: «اسْتَحِ الله كما تستحي رجلا من صَالِح عشيرتك لا يفارقك»".

عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: " إن من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان".

عبد الله بن معاوية الغاضري، أن رسول الله ﷺ قال: " ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده فإنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه في كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا الشرط اللائمة ولا المريضة ولكن من أوسط أموالكم ، فإن الله ﷻ لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره ، وزكى عبد نفسه " فقال رجل: ما تزكية المرء نفسه يا رسول الله؟ قال: "

=

=

يعلم أن الله معه حيث ما كان". وقال غيره: " ولا الشرط اللئيمة".

قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]، أي:"والله بصير بأعمالكم التي تعملونها، وسيجازيكم عليها".

قال الطبري:"يقول: والله بأعمالكم التي تعملونها من حسن وسيئ، وطاعة ومعصية، ذو بصر، وهو لها محص، ليجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون}".

قال النحاس:"أي: بما تعملونه من حسن وسيئ وطاعة ومعصية حتى يجازيكم عليها".

قال السعدي: " أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم".

قوله تعالى: {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ٥]، أي:"لله تعالى وحده ملك السموات والأرض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: له سلطان السموات والأرض نافذ في جميعهنّ، وفي جميع ما فيهنّ أمره".

قال السعدي: أي:"ملكا وخلقا وعبيدا، يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية".

قال ابن كثير:"أي: هو المالك للدنيا والآخرة كما قال: {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأولَى} [الليل: ١٣]، وهو المحمود على ذلك، كما قال: {وَهُوَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ} [القصص: ٧٠]، وقال {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [سبأ: ١]. فجميع ما في السماوات والأرض ملك له، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ

=

=

وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣- ٩٥]".

قوله تعالى: {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [الحديد: ٥]، أي:"وإلى الله مصير أمور الخلائق في الآخرة، وسيجازيهم على أعمالهم".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: وإلى الله مصير أمور جميع خلقه، فيقضي بينهم بحكمه".

قال ابن كثير:"أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، {وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٤٠] وكما قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء: ٤٧]".

قال السعدي: " {وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته".

عن ابن جريج:"{وإليه يُرجع الأمر كله}، قال: فيقضي بينهم بحُكْمِه العَدْل".

عن يحيى بن وثاب:"أنه قرأ كل شيء في القرآن {وإلى الله ترجع الأمور} بنصب التاء وكسر الجيم".

قرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن مُحيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف (تَرْجِعُ) بفتح التاء وكسر الجيم، وقراء الباقون: {تُرْجَعُ} بضم التاء وفتح الجيم وقد تقدَّم هذا".

قوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [الحديد: ٦]، أي:"يُدْخِل ما نقص من ساعات الليل في النهار فيزيد النهار، ويُدْخِل ما نقص من ساعات النهار في الليل فيزيد الليل".

قال الطبري: أي: " يدخل ما نقص من ساعات الليل في النهار، فيجعله زيادة في

=

=

ساعاته، ويدخل ما نقص من ساعات النهار في الليل، فيجعله زيادة في ساعات الليل".

قال الزجاج:"معناه: يدخل الليل في النهار بأن ينقص من الليل ويزيد في النَّهَارِ، وكذلك {وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، ينقص من النهارَ ويزيد في الليْلِ وهو مثل قوله: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ}".

قال ابن كثير:"أي: هو المتصرف في الخلق، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين. وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعًا ثم قيظًا ثم خريفًا، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه".

قال السعدي: " أي: يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدأون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويداول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة".

قال عكرمة:"قصر هذا في طول هذا، وطول هذا في قصر هذا".

قال إبراهيم: " دخول الليل في النهار، ودخول النهار في الليل".

قال إبراهيم:"قصر أيام الشتاء في طول ليله، وقصر ليل الصيف في طول نهاره".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الحديد: ٦]، أي:"وهو سبحانه عليم بالسرائر وما تكنُّه الصدور، لا يخفى عليه من ذلك خافية".

قال الطبري:"يقول: وهو ذو علم بضمائر صدور عباده، وما عزمت عليه نفوسهم

=

=

من خير أو شرّ، أو حدّثت بهما أنفسهم، لا يخفى عليه من ذلك خافية".

قال السعدي: " أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته".

قال ابن كثير:"أي: يعلم السرائر وإن دقت، وإن خفيت".

عن الحسن: " {إنه عليم بذات الصدور} : يعلم تلك الساعة".

عن محمد بن إسحاق -من طريق سلمة- قال: {والله عليم بذات الصدور}، أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم مِمّا اسْتَخْفَوْا به منكم".

قال العثيمين: وله تعالى: {سبح لله ما في السماوات والأَرض وهو العزيز الحكيم} معنى سبح أي نزه الله ﷻ عن كل عيب ونقص، وعن مماثلة المخلوقين، ودليل تنزهه عن كل عيب ونقص قول الله تبارك وتعالى: {ولقد خلقنا السماوات والأَرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} واللغوب يعني التعب والإعياء، وهذا يدل على كمال قوته ﷻ وقال تعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون} وقال تعالى: {وما الله بغافل عما تعملون} فنزه الله تعالى نفسه عن الغفلة، وقال تعالى: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأَرض إنه كان عليمًا قديرًا} فنزه نفسه عن العجز، ودليل تنزهه عن مماثلة المخلوقين، قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} وأثبت الله لنفسه وجهًا في قوله تعالى: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}. وأثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، والإنسان يستوي على البعير، أي يركب البعير ويستقر عليه ويعلو عليه، ليس استواؤه سبحانه وتعالى على العرش كاستواء الإنسان على البعير، والدليل: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} فكل صفة يثبتها الله لنفسه وللمخلوق مثلها فإن ذلك موافقة للاسم فقط، أما في الحقيقة فليس كمثله شيء، مثال ذلك: أثبت الله لنفسه علمًا،

=

=

وأثبت للمخلوق علمًا، فقال الله تعالى: {فإن علمتموهن مؤمنات} فأثبت الله لنا علمًا، وأثبت لنفسه علمًا {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم} وليس العلم الذي أثبته لنفسه كعلم المخلوق والدليل قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} فالله- عزوجل- لا يمكن أن يماثله شيء من المخلوقات لا في ذاته، ولا في صفاته، ولهذا لا يمكننا أن ندرك الله ﷻ نعلمه بآياته وصفاته وأفعاله، لكنا لا ندرك حقيقته- عز

وجل- لأنه مهما قدرت من شيء فالله تعالى مخالف له غير مماثل، وقوله: {ما في السماوات والأَرض} أي: كل ما في السماوات والأرض، فإنه يسبح الله ﷻ وينزهه، ويشمل الآدمي، والجن، والملائكة، والحشرات، والحيوانات، وكل شيء، فكل ما في السماوات والأرض يسبح الله، وهل يسبحه بلسان المقال بمعنى يقول: سبحان الله، أو بلسان الحال، بمعنى أن تنظيم السماوات والأرض والمخلوقات على ما هي عليه يدل على كمال الله ﷻ وتنزهه عن كل نقص، الجواب: أنه يسبح الله بلسان الحال وبلسان المقال، إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الكافر يصف الله بكل نقص، يقول: اتخذ الله ولدًا، ويقول: إن معه إلهًا، وربما ينكر الخالق أصلًا، لكن حاله وخلقته وتصرفه تسبيح لله ﷻ. وهل الحشرات والحيوانات تسبح الله بلسان المقال؟ الجواب: نعم، قال الله تعالى: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم} الحشرات كلها تسبح الله بلسان المقال، والحصى يسبح الله كما كان ذلك بين يدي رسول الله ﷺ {وهو العزيز الحكيم} العزيز يعني ذو العزة، والعزة هي الكبرياء والغلبة والسلطان وما أشبه ذلك، فالعزيز هو ذو السلطان الكامل والغلبة الكاملة، فلا أحد يغلبه ﷻ يقول الشاعر الجاهلي:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

=

=

والحكيم لها معنيان: المعنى الأول: ذو الحكمة، والمعنى الثاني: ذو الحكم التام، فهي مشتقة من شيئين: من الحكمة والحكم، فالحكمة هي أن جميع أفعاله وأقواله وشرعه حكمة، وليس فيه سفه بأي حال من الأحوال، ولهذا قيل في تعريف الحكمة: (إنها وضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها)ـ فما من شيء من أفعال الله، أو من شرع الله إلا وله حكمة، فإذا قدر الله الحر الشديد الذي يهلك الثمار فهو حكمة لا شك، وإذا منع الله المطر فهو حكمة، وإذا ألقى الله الموت بين الناس فهو حكمة، وكل شيء فهو حكمة، والشرائع كلها حكمة فإذا أحل الله البيع وحرم الربا فهو حكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم، ففرق الله ﷻ بين البيع والربا، فالبيع أحله الله، والربا حرمه، فإذا قال قائل: لماذا؟ قلنا: الله أعلم، الله حكيم ﷻ، ولهذا لما قالت المرأة لعائشة رضي الله عنها يا أم المؤمنين ما بال الحائض تقضي الصوم- يعني إذا حاضت في رمضان- ولا تقضي الصلاة؟ سؤال فيه إشكال، لماذا الحائض إذا أفطرت في رمضان يلزمها قضاء الصوم، وإذا تركت الصلاة لا يلزمها قضاء الصلاة، وكلاهما فرض، قالت لها رضي الله عنها: «كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة» فاستدلت – رضي الله عنها – بالحكم على الحكمة، لأنا نعلم أن الله حكيم ﷻ فلم يوجب عليها قضاء الصوم دون قضاء الصلاة إلا لحكمة، لكن أحيانًا نعرف الحكمة وأحيانًا لا نعرفها، لماذا أحل الله البيع وحرم الربا؟ نقول: لأن الله أحل البيع وحرم الربا، ولذلك لما قال أهل الربا: إنما البيع مثل الربا.

رد الله قولهم فقال: {وأحل الله البيع وحرم الربا}ـ فإذا حكم الله بشيء شرعًا، أو حكم بشيء قدرًا فلا يشكل عليك، إن وفقك الله لمعرفة الحكمة فهذا خير، وإن لم تعرف فاعلم أن الله حكيم وله أيضًا الحكم ﷻ قال الله تعالى: {إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه} من يستطيع أن يرفع حكم الله ﷻ فيما إذا نزل به

=

=

الموت؟ لا أحد، قال الله تعالى: {فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونهآ إن كنتم صادقين} لا يمكن، لأن الله حكم بهذا، وإذا حكم ﷻ بحروب وفتن من يرفع هذا إلا الله ﷻ، والله تعالى له الحكم في الأمور الشرعية قال الله تعالى: {وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله} فالحكم لله ﷻ فإذا عرفت أن الله تعالى له الحكمة فيما شرع، وفيما خلق، وقدر، حينئذ تستسلم ولا تجادل، لأن الذي حكم بذلك هو الله، وإذا علمت أن الحكم لله ﷻ بين العباد فترجع الأمور الشرعية، إلى الكتاب والسنة، وفي الأمور القدرية ترجع إلى الله، فإذا حكم عليك بالمرض تفزع إلى الله ﷻ، وإذا حكم عليك بالفقر تفزع إلى الله، اللهم أغنني من الفقر، واقضِ عني الدين، فإذا آمن الإنسان بأن الحكم كله لله إن كان حكمًا قدريًا استسلم، وقال: هذا أمر الله، وأنا عبد الله ولا يمكن أن يكون سوى ما كان، وإذا كان شرعيًّا. قال الله ﷻ أعلم وأحكم بما يصلح العباد.

{له ملك السماوات والأرض} أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله عزوجل {يحي ويميت} أي: يجعل الجماد حيًا، ويميت ما كان حيًا، فبينما نرى الإنسان ليس شيئًا مذكورًا إذا به يكون شيئًا مذكورًا كما قال تعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا} ثم يبقى في الأرض ثم يعدم ويفنى، فإذا هو خبر من الأخبار {وهو على كل شيء قدير} هذه جملة خبرية عامة في كل شيء من موجود ومعدوم، والقدرة صفة تقوم بالقادر حيث يفعل الفعل بلا عجز.

{هو الأول والأخر والظاهر والباطن} أربعة أشياء {الأول} أي الذي ليس قبله شيء، لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقًا، وهو ﷻ الخلق، ولهذا فسر النبي ﷺ {الأول} الذي ليس قبله شيء. فكل الموجودات بعد الله فليس معه أحد ولا

=

=

قبله {والأَخر} الذي ليس بعده شيء، لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله، والمخلوقات كلها مخلوقة لله ﷻ، فهو الأول لا ابتداء له، والآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء {والظاهر}ـ قال النبي ﷺ: تفسيرها: «الذي ليس فوقه شيء» فكل المخلوقات تحته جل وعلا، فليس فوقه شيء {والباطن} قال النبي ﷺ «الذي ليس دونه شيء» أي: لا يحول دونه شيء، خبير عليم بكل شي، لا يحول دونه جبال، ولا أشجار، ولا جدران ولا غير ذلك، ليس دونه شيء، {الأَول والأَخر} اشتملا على عموم الزمان، {والظاهر والباطن} على عموم المكان.

(تنبيه): قول المصنف (الظاهر: بالأدلة عليه، والباطن عن إدراك الحواس)، هو تأويل والصواب تفسير هذين الاسمين "الظاهر والباطن" بما فسرهما النبي ﷺ كما تقدم.

{وهو بكل شيء عليم}ـ كل شيء فالله عليم به، {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأَرض ولا في السماء} فلو عمل الإنسان في جوف بيته في حجرة مظلمة فإن الله تعالى يعلم عمله، بل زد على ذلك أنه يعلم ما توسوس به نفسك كما قال الله ﷻ: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه} . وأنت إذا فكرت في شيء فالله يعلم به قبل أن يكون، ويعلم الماضي البعيد، ويعلم المستقبل البعيد ويعلم بكل شيء، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام لما سأله فرعون: {فما بال القرون الأُولى} يعني شأنها قصها علينا {قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى} لا يضل معناه لا يجهل، لأن الضلال معناه الجهل، كما قال الله ﷻ في نبيه: {ووجدك ضآلا فهدى} ضال ليس معناها فاسق، بل معناه أنه جاهل لا يدري كما قال تعالى: {وكذلك أوحينآ إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} وقال تعالى: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا

=

=

لارتاب المبطلون} إذن الله بكل شيء عليم، وإذا علمت أن الله بكل شيء عليم هل يمكنك أن تقدم على معصية الله وأنت في خفاء عن الناس؟ لا، لأنك تعلم أن الله يعلمك، قال الله – عز وجل –: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم} الجواب: بلى، {ورسلنا لديهم يكتبون}. فإذن إذا آمنت بأن الله- جل وعلا- عليم بكل شيء فإنه يستلزم أن لا تقوم بمعصيته ولو في الخفاء، وأن لا تترك طاعته ولو في الخفاء، ولقد قال الله ﷻ عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال: {وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في ءاذانهم} لأجل أن لا يسمعوا، {واستغشوا ثيابهم} لئلا يبصروا بها- والعياذ بالله- لأنهم يكرهون الحق وقوله: {وهو بكل شيء عليم} يشمل أفعال العباد وأقوال العباد، بل إنه يعلم سبحانه وتعالى ما في قلب الإنسان وإن لم يظهره، كما قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد} فإياك أن تضمر في قلبك شيئًا يحاسبك الله عليه، لكن الوساوس التي تطرأ على القلب ولا يميل الإنسان إليها بل يحاربها، ويحاول البعد عنها بقدر إمكانه لا تضره شيئًا، بل هي دليل على إيمانه لأن الشيطان إنما يأتي إلى القلب فيلقي عليه الوساوس إذا كان قلبًا سليمًا، أما إذا كان قلبًا غير سليم فإن الشيطان لا يوسوس له، لأنه قد انتهى. {هو الذي خلق السماوات والأَرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأَرض} خلق السماوات والأرض أي: أوجدها ﷻ بكل نظام وتقدير، والسماوات سبع والأرضون سبع، والأرض سابقة على السماء، لأن الله تعالى قال في سورة فصلت لما ذكر خلق الأرض قال: {ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأَرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتآ أتينا طآئعين}. لكن الله يبدأ بالسماوات لأنها أشرف من الأرض وأعلى من الأرض، والسماوات بينها مسافة بعيدة جدًا جدًا، وهذا يلزم أن يكون أصغر

=

=

السماوات سماء الدنيا ويليها الثانية والثالثة، كل واحدة أوسع من الأخرى سعة عظيمة، وهي طباق متطابقة بعضها فوق بعض، وفي حديث المعراج أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كلما صعد إلى سماء استفتح ففتح له، والأرض جعلها تعالى في القرآن بصيغة الإفراد، لكن الله تعالى أشار إلى أنها متعددة في قوله: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأَرض مثلهن} أي: مثلهن في العدد لا في الصفة، لأن التماثل في الصفة بين الأرض والسماء بعيد جدًا، لكن مثلهن في العدد، وصرحت بذلك السنة في قول النبي ﷺ «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله يوم القيامة به من سبع أراضين» وخلقها الله عزوجل في ستة أيام، والأيام أطلقها الله ﷻ ولم يبين أن اليوم خمسين ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه، وقد جاء في الحديث أنها الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، فالجمعة منتهى خلق السماوات والأرض ومبتدئه الأحد، والسبت ليس فيه خلق لا ابتداء ولا انتهاء.

فإذا قال قائل: أليس الله قادرًا على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن. فيكون، وإنما خلقها في ستة أيام- والله أعلم- لحكمتين: الحكمة الأولى: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله تعالى بعضها على بعض حتى أحكمها، وانتهى منها في ستة أيام. الحكمة الثانية: أن الله علّم عباده التؤدة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه، حتى يتأنى الإنسان فيما يصنعه، فعلم الله سبحانه عباده التأني في الأمور التي هم قادرون عليها، وكلا الأمرين وجيه، وقد تكون هناك حكم أخرى لا نعلمها، ومع هذا لا نجزم به ونقول: الله أعلم {ثم استوى على العرش}- استوى عليه يعني على وجه يليق بجلاله، ولا يمكن أن نمثله بخلقه لأن الله ليس كمثله شيء، والعرش مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الذي خلقه ﷻ، وقد جاء في

=

=

الحديث: أن السماوات السبع، والأرضين السبع في الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، الحلقة حلقة الدرع المكون من حلق من الحديد، فالحلقة من الحديد من الدرع تكون بالنسبة للفلاة لا شيء، فلاة من الأرض واسعة ضاع فيها حلقة من حلق الدرع ماذا تكون نسبتها وماذا تشغل من الأرض؟! لا شيء، قال ﷺ: «ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة» إذن لا يعلم قدره إلا الله ﷻ وليس لنا أن نسأل: من أين مادة الكرسي؟ من ذهب، من فضة، من لؤلؤ؟ ليس لنا الحق في أن نتكلم في هذا.

هو عرش عظيم كما وصفه الله {رب العرش العظيم} {ذو العرش المجيد}- عرش عظيم جدًا جدًا، لا يعلم قدره إلا الله، استوى الله عليه لكمال سلطانه- جل وعلا- و (ثم) في قوله: {ثم استوى على العرش} تدل على الترتيب، أي أن خلق السماوات والأرض سابق على الاستواء على العرش، ومعنى {استوى} أي: على؛ لأن الاستواء في اللغة العربية إذا تعد بـ (على) كان معناها العلو، مثاله قول الله تبارك وتعالى: {وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين}- ومن ذلك قوله تعالى عن نوح: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظلمين}.

فقوله: {استويت أنت ومن معك على الفلك} يعني علوت عليه، إذن {استوى على العرش} يعني على العرش، وإذا رأيت من يقول استوى على العرش أي استولى على العرش، فقد كذب على الله ﷻ لأن الله تعالى نزل هذا القرآن العظيم باللغة العربية، واللغة العربية تدل على أن استوى إذا تعدت بعلى فهي بمعنى العلو لا غيره، فيكون الذي يفسرها باستولى كاذب على الله ﷻ جانيًا على

=

=

نصوص الكتاب، محرفًا لها، وجنايته عليها من وجهين:
الوجه الأول: صرفها عن ظاهرها.
والوجه الثاني: إحداث معنى لا يدل عليه الظاهر، وهذا قد يوجد كثيرًا في كتب الأشاعرة، سواء كانوا مفسرين أو غير مفسرين لكنهم بهذا والله والله قد ضلوا ضلالًا مبينًا، نسأل الله العافية، فمن الذي استولى على العرش حين خلق السماوات والأرض؟! إذا كان الله لم يستولِ عليه إلا بعد خلق السماوات والأرض فهو لمن من قبل؟! نعم يلزمهم أن يقولوا لغير الله، وإلا فقد أخطأوا يعني تبين خطأهم وهم مخطئون والحمد لله، {يعلم ما يلج في الأَرض} أي: ما يدخل فيها من جثث الموتى، ومن الحبوب التي تنبت بإذن الله، ومن المياه التي يسلكها الله ينابيع في الأرض ثم يخرجها، وغير ذلك من الحشرات وغيرها، فكل ما يلج في الأرض يعلمه الله.
{وما يخرج منها} أي: من النبات والمياه والمعادن وغيرها، {وما ينزل من السماء} أي: من الملائكة والأمطار والشرائع وغير ذلك، {وما يعرج فيها} أي: إليها، لكن جاءت بلفظ {فيها} بدل إليها لنستفيد فائدتين:
الفائدة الأولى: العروج يعني الصعود.
الفائدة الثانية: الدخول، لأن {في} يناسبها من الأفعال الدخول، تقول: دخل في المكان، أما عرج ويعرج فالذي يناسبها إلى، لكن الله ﷻ عدل عن قوله (يعرج إليها) إلى قوله {يعرج فيها} ليفيد الصعود، والدخول.
وضمن يعرج معنى يدخل. والتضمين موجود في القرآن الكريم، وفي اللغة العربية قال الله تعالى: {عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا} المناسب ليشرب (من) كما قال تعالى: {يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون} يعني منه، {فشربوا منه إلا قليلًا منهم} وهنا قال: {يشرب بها} قال العلماء: الحكمة أن يشرب هنا

=

=

ضمنت معنى يروى، أي: يروى بها. ومعلوم أنك إذا قلت: يروى بها. فقد تضمن معنى يشرب، وزيادة. والتضمين فن مهم في باب البلاغة، ينبغي لطالب العلم أن يدرسه ويحققه، حتى يستفيد إذا اختلفت الحروف مع عواملها، {يعرج فيها} من الأشياء ما يصل إلى السماء الدنيا ويقف، ومنها ما يعرج في السماء الدنيا حتى يصل إلى الله- عزوجل- {وهو معكم} هو الضمير يعود إلى الله ﷻ {معكم} أي: مصاحب لكم، كما قال النبي ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل» لكن هذه الصحبة ليست صحبة مكان. بمعنى أننا إذا كنا في مكان كان الله معنا. حاشا وكلا، لا يمكن هذا، وكيف يتصور عاقل أن الله معنا في مكاننا، وكرسيه وسع السماوات والأرض؟! هذا مستحيل، والكرسي موضع القدمين، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا كان كذلك هل يعقل أن رب السماوات والأرض الذي يوم القيامة تكون السماوات مطويات بيمينه، والأرض جميعًا قبضته هل يمكن أن يكون معنا في أماكننا الضيقة والواسعة؟ لا يمكن، إذا {معكم} أي: مصاحب لكم، والمصاحب قد يكون بعيد عنك، يقول العرب في أسلوبهم: ما زلنا نسير والقمر معنا، مازلنا نسير والقطب معنا. ما زلنا نسير والجبل الفلاني معنا، وليس معهم في مكانهم. ومعلوم أن القمر في السماء، والنجم في السماء، والجبل قد يكون بينك وبينه مسافة أيام، ومع ذلك فالعرب تطلق عليه المعية مع البعد في المكان، وكوننا نؤمن بأن الله معنا إذن هوعالم بنا، سميع لأقوالنا، بصير بأفعالنا، له القدرة علينا والسلطان، ومدبر لنا بكل معنى تقتضيه المعية، واعلم أن من الضلال من يقول: إن الله معنا في أمكنتنا، نسأل الله العافية، وينكرون أن الله في السماء عاليًا فأتوا داهيتين عظيمتين، الأولى: إنكار علو الله. والثانية: اعتقاد أنه في الأرض.

سبحان الله! هل يعقل أن يعتقد عاقل فضلًا عن مؤمن أنه إذا كان في المرحاض

=

=

كان الله معه؟ أعوذ بالله، الذي يعتقد هذا أشهد بالله أنه كافر، لأن أعظم استهزاء بالله وأعظم حط من قدر الله هو هذا، ثم نقول: إذا كان الله- كما يقولون- في كل مكان يعني أنه في الحجرة، وفي السوق، وفي المسجد، ثم من الذي يكون مع أناس في الحجرة، وأناس في الشارع؟ أهما إلهان؟ لا يمكن أن يقولوا إنه متعدد، هل هو متجزء؟ إذن بطل أن يكون معنا بذاته في أمكنتنا لأنه إما أن يكون متعددًا، وإما أن يكون متجزءًا، وكلاهما باطل، قررت هذا لأنه يوجد من يعتقد أن الله في كل مكان فنقول: المعية هي المصاحبة، ولا يلزم من المصاحبة المقارة في المكان، وكيف يمكن أن يكون الله معك في مكانك وهو سبحانه وتعالى وسع كرسيه السماوات والأرض، ولكن هؤلاء الذين يعتقدون أنه في كل مكان ما قدروا الله حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، ولا عرفوا عظمته وجلاله قال الله تعالى: {وما قدروا الله حق قدره والأَرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويت بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون} فكيف يعتقد أن الله معنا في مكاننا، فيجب على الإنسان أن يعرف نعمة الله عليه بكونه يؤمن بالقرآن الكريم ظاهره معظمًا لله حق تعظيمه {أين ما كنتم} أي: في أي مكان، لأن أين ظرف مكان {والله بما تعملون بصير} أي: بما تعملون من الأعمال كلها بصير، والبصر هنا يشمل بصر الرؤية قال النبي ﷺ عن ربه: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» ويشمل بصر العلم، فمن المعلوم أن أعمالنا قد تكون مرئية الحركة، وقد تكون مسموعة كالأقوال، فرؤية المسموع العلم.

{له ملك السماوات والأَرض} أي: لله تعالى وحده ملك السماوات والأرض خلقًا وتدبيرًا، فلا يملك السماوات والأرض أحد إلا الله ﷻ لا استقلالًا ولا مشاركة، قال تعالى: {لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأَرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} فنفى الاستقلال ونفى المشاركة {وما له}

=

أي: ما لله {من ظهير} أي: من مساعد ساعده على خلق السماوات والأرض، فله ملك السماوات والأرض وعددها سبع، قال الله تعالى: {قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم} والأرضون أيضًا عددهم سبع كما جاء ذلك ظاهرًا في القرآن وصريحًا في السنة، قال الله تعالى: {الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأَرض مثلهن} يعني في العدد، وثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه يوم القيامة من سبع أراضين»

{وإلى الله ترجع الأُمور}ـ كل الأمور أي الشؤون العامة والخاصة، الدينية، والدنيوية، والأخروية كلها ترجع إلى الله ﷻ يتصرف كما شاء يحكم بما شاء ولا معقب لحكمه ﷻ فكل أمور الإنسان الخاصة ترجع إلى الله، ولذلك يجب عليك إذا ألمَّت بك ملمة أن ترجع إلى الله ﷻ لأن المشركين وهم مشركون- إذا ألمت بهم الملمات التي يعجزون عنها يرجعون إلى الله ﷻ فإذا عصفت بهم الرياح في أعماق البحار على السفن يلجئون إلى الله ﷻ، ويرجعون إلى الله، ويسألونه أن ينجيهم وهم مشركون، فكيف بك أنت أيها المسلم، فالجأ إلى الله في كل صغير أو كبير، ديني أو دنيوي خاص بك أو بأهلك، لا تلجأ لغير الله، فمن أنزل حاجته بالله قُضيت، ومن أنزل حاجته بغير الله وُكل إليه، فنقول: إلى الله ترجع الأمور عامة: الأمور الدينية والدنيوية والأخروية، والخاصة والعامة، وإذا آمنت بهذا ويجب أن تؤمن به صرت لا تلجأ إلا إلى الله ﷻ {يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل}ـ يولج أي يُدخل الليل في النهار، ويولج النهار أي يُدخله في الليل، وهذا يعني اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر، أحيانًا يبدأ الليل في الزيادة فيدخل على النهار، فهذا {يولج الليل في النهار}.

وأحيانًا يبدأ الليل ينقص ويزيد النهار، فيدخل النهار على الليل، ولا أحد يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى، لو اجتمع الخلق كلهم إنسهم وجنهم،

=

والملائكة ما استطاعوا أن يولجوا دقيقة واحدة من الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، والله ﷻ يولج الليل في النهار أو من النهار في الليل، ثم هذا الإيلاج لا يأتي دفعة واحدة، ولكنه يأتي تدريجيًا شيئًا فشيئًا، أول ما يبدأ بالزيادة تجده يأخذ قليلًا في اليومين أو الثلاثة دقيقة واحدة، ثم يبدأ يزداد حتى يكون عند تساوي الليل والنهار يأخذ حوالي دقيقتين في اليوم تدريجيًّا، أرأيتم لو جاء دفعة واحدة، كنا مثلًا في أطول يوم في السنة وإذا بنا في اليوم الثاني إلى أقصر يوم في السنة، فيترتب على ذلك مفاسد عظيمة؛ لأن الناس سينقلبون من حر مزعج إلى برد مؤلم في خلال أربع وعشرين ساعة، وهذا لا شك أنه مضر بالأبدان والنبات والجو، ولكنه ﷻ يولجه على تنظيم موافق للحكمة تمامًا، ولا أحد يستطيع أن يفعل هذا أبدًا مهما بلغ من القوة، {وهو عليم بذات الصدور} ـ أي: صاحبة الصدور يعني القلوب، والدليل أنها القلوب قول الله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} إذن هو عليم بما في القلب، وإذا كنت تصدق بذلك فهل يمكن أن تضمر في قلبك ما لا يرضاه الله، إن كنت مؤمنًا؟ لا يمكن، فطهِّر قلبك من الرياء والنفاق، والغل على المسلمين والحقد والبغضاء، لأن قلبك معلوم عند الله ﷻ، اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا، اللهم طهر قلوبنا.

فطهر القلب من هذا، واملأه محبة لله تعالى وتعظيمًا، كما يليق به ومحبة للرسول ﷺ وتعظيمًا، كما يليق به، ومحبة للمؤمنين، ومحبة لشريعة الله تعالى، فلا تضمر في هذا القلب شيئًا يكرهه الله، فإن فعلت فالله عليم به لا يخفى عليه، فطهر قلبك حتى يكون نقيًا سليمًا، لأنه لا ينفع يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم كما قال ﷻ: {يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم} وتغيرات القلب تغيرات سريعة وعجيبة، ربما ينتقل من كفر إلى إيمان، أو من إيمان إلى كفر في لحظة، نسأل الله الثبات، وتغير القلب يكون على حسب تفسير سورة الحديد.

=

=

(تنبيه): قال العلامة العثيمين في شرح لمعة الاعتقاد عن دعوى أن أهل السنة أوَّلوا صفة المعية: قال أهل التأويل: أنتم يا أهل السنة أولتم قوله تعالى: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ. فقلتم: وهو معكم بعلمه. وهذا تأويل؛ فإن الله تعالى يقول: وَهُوَ مَعَكُمْ، والضمير في قوله وَهُوَ مَعَكُمْ يعود إلى الله. فأنتم يا أهل السنة أولتم هذا النص وقلتم: إنه معكم بالعلم. فإذن كيف تنكرون علينا التأويل؟

قلنا: نحن لم نؤول الآية، بل إنما فسرناها بلازمها وهو العلم؛ وذلك لأن قوله: وَهُوَ مَعَكُمْ لا يمكن لأي إنسان يعرف قدر الله ﷻ ويعرف عظمته، أن يتبادر إلى ذهنه أنه هو ذاته مع الخلق في أمكنتهم، فإن هذا أمر مستحيل، كيف يكون الله معك في البيت، ومع الآخر في المسجد، ومع الثالث في الطريق، ومع الرابع في البر، ومع الخامس في الجو، ومع السادس في البحر... إلخ. لو قلنا بهذا فكم إلهًا يكون؟ لو قلنا بهذا لزم أن يكون الله إما متعددًا أو متجزئًا- تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- وهذا أمر لا يمكن، ولهذا نقول: من فهم هذا الفهم فهو ضال في فهمه، ومن اعتقده فإنه ضال إن قلد غيره بذلك، وكافر إذا بلغه العلم وأصر على قوله، ومن نسب إلى أحد من السلف أن ظاهر الآية أن الله معهم بذاته في أمكنتهم فإنه بلا شك كاذب عليهم. إذن أهل السنة والجماعة يقولون: نحن نؤمن بأن الله تعالى فوق عرشه، وأنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته، وأنه مع خلقه كما قال في كتابه، ولكن مع إيماننا بعلوه. ولا يمكن أن يكون مقتضى معيته إلا الإحاطة بالخلق علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وسمعًا، وبصرًا، وتدبيرًا، وغير ذلك من معاني الربوبية.

أما أن يكون حالًا في أمكنتهم، أو مختلطًا بهم كما يقول أهل الحلول والاتحاد؛ فإن هذا أمر باطل لا يمكن أن يكون هو ظاهر الكتاب والسنة، وعلى هذا فنحن لم نؤول الآية ولم نصرفها عن ظاهرها؛ لأن الذي قال عن نفسه: وَهُوَ مَعَكُمْ، هو

=

=

الذي قال عن نفسه: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. وهو الذي قال عن نفسه: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. إذن فهو فوق عباده، ولا يمكن أن يكون في أمكنتهم. ومع ذلك فهو معهم محيط بهم علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وتدبيرًا وغير ذلك.

وإذا أضيفت المعية إلى من يستحق النصر من الرسل وأتباعهم اقتضت مع الإحاطة علمًا وقدرة، اقتضت نصرًا وتأييدًا؛ فنحن- ولله الحمد- ما خرجنا بهذا اللفظ عن ظاهره حتى يلزمونا بذلك.

وقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتبه المختصرة والمطولة أنه لا تعارض بين معنى المعية حقيقة وبين علو الله سبحانه وتعالى. قال:

لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء في جميع صفاته؛ فهو عليٌّ في دنوه، قريب في علوه. وقال: إن الناس يقولون: ما زلنا نسير والقمر معنا، مع أن القمر في السماء وهم يقولون: معنا، فإذا كان هذا ممكنًا في حق المخلوق كان في حق الخالق من باب أولى.

والمهم أننا نحن معشر أهل السنة ما قلنا أبدًا ولا نقول إن ظاهر الآية هو ما فهمتموه، وأننا صرفناها عن ظاهرها، بل نقول: إن الآية معناها أنه سبحانه مع خلقه حقيقة، معية تليق به، محيط بهم علمًا، وقدرة، وسلطانًا، وتدبيرًا، وغير ذلك؛ لأنه لا يمكن الجمع بين نصوص المعية وبين نصوص العلو إلا على هذا الوجه الذي قلناه، والله سبحانه وتعالى يفسر كلامه بعضه بعضًا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١/ ٢٤٦): المثال الثاني والثالث: قوله تعالى في سورة الحديد: {وهو معكم أين ما كنتم}. وقوله في سورة المجادلة: {ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا}. ذكر فضيلتكم أن السلف أولوا المعية إلى معنى العلم، ثم ذكرتم تعليل ذلك في آية سورة الحديد بأنه كيف يكون الله تعالى على عرشه وهو مع كل إنسان في كل مكان، وذكرتم في آية المجادلة أن

=

=

السلف لم يفسروها بمعية الذات لئلا تتعدد الذات الإلهية.

ولا ريب أن السلف فسروا معية الله تعالى لخلقه في الآيتين بالعلم وحكى بعض أهل العلم إجماع السلف عليه، وهم بذلك لم يئولوها تأويل أهل التعطيل، ولم يصرفوا الكلام عن ظاهره وذلك من وجوه ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى ذكرها في سورة المجادلة بين علمين فقال في أول الآية: {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض}. وقال في آخرها: {أن الله بكل شيء عليم} فدل ذلك على أن المراد أنه يعلمهم ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

الثاني: أن الله تعالى ذكرها في سورة الحديد مقرونة باستوائه على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات فقال: {هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش} إلى قوله: {وهو معكم أين ما كنتم}. فدل على أن المراد معية الإحاطة بهم علما وبصرا، لا أنه معهم بذاته في كل مكان وإلا لكان أول الآية وآخرها متناقضا.

الثالث: أن العلم من لوازم المعية، ولازم اللفظ من معناه فإن دلالة اللفظ على معناه من وجوه ثلاثة: دلالة مطابقة، ودلالة تضمن، ودلالة التزام ولهذا يمكن أن نقول: هو سبحانه معنا بالعلم، والسمع، والبصر، والتدبير والسلطان وغير ذلك من معاني ربوبيته كما قال تعالى لموسى وهارون: {إنني معكما أسمع وأرى}. وقال هنا في سورة الحديد: {وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير}. فإذا كان العلم من لوازم المعية صح أن نفسرها به وبغيره من اللوازم التي لا تنافي ما ثبت لله تعالى من صفات الكمال ولا يعد ذلك خروجا بالكلام عن ظاهره.

على أن من المحققين من علماء أهل السنة من فسر المعية بظاهرها على الحقيقة اللائقة بالله تعالى وقال: لا يمتنع أن يكون الله تعالى معنا حقيقية وهو على عرشه

=

=

حقيقة كما جمع الله تعالى بينهما في آية سورة الحديد. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية ص ١٤٢ من المجلد الثالث من مجموع الفتاوى لابن قاسم: "وكل هذا الكلام الذي ذكره الله سبحانه من أنه فوق العرش وأنه معنا، حق على حقيقته، لا يحتاج إلى تحريف، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة" وقال قبيل ذلك: "وليس معنى قوله: {وهو معكم} أنه مختلط بالخلق فإن هذا لا توجبه اللغة، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته هو موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيمن عليهم مطلع إليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته. وقال في الفصل الذي يليه ص ١٤٣: "وما ذكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته، لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو علي في دنوه قريب في علوه". اهـ.

وقال في الفتوى الحموية ص ١٠٢ من المجلد الخامس من مجموع الفتاوى لابن القاسم: "ولا يحسب الحاسب أن شيئا من ذلك (يعني مما جاء في الكتاب والسنة) يناقض بعضه بعضا البتة، مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: {وهو معكم أين ما كنتم} وقوله ﷺ: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه». ونحو ذلك فإن هذا غلط وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة كما جمع بينهما في قوله: {هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير} . فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال: «والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه» وذلك أن كلمة "مع" في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة

=

=

المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك بالمعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا أو النجم معنا، ويقال: "هذا المتاع معي لمجامعته لك وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة". اهـ.

وليس تفسير المعية بمعناها الحقيقي اللائق بالله تعالى بمناف لما فسرها به السلف من العلم، فإن العلم من لوازم معناها، ولازم المعنى منه فلا يناقض حقيقته.

وتفسير المعية بمعناها الحقيقي لا يقتضي أن الله تعالى حال مع خلقه في أمكنتهم، ولا يدل على ذلك بأي وجه من وجوه الدلالة، ولا يفهم ذلك منه إلا من غلظ طبعه عن معرفة اللغة، وحجب قلبه عن تعظيم الله تعالى ومعرفة ما يجب له من الكمال والجلال، ولم يفهم أحد من السلف عن معية الله لخلقه هذا الفهم الخاطئ الضال، وإنما فهمه الحلولية الذين لم يقدروا الله حق قدره من قدماء الجهمية وغيرهم، ولا ريب أن من اعتقد ذلك في الله تعالى فهو كافر أو ضال، ومن نقله عن غيره من السلف أو الأئمة فهو كاذب.

(فائدة): في قوله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) مسألة من أصعب المباحث التي تعرض للدارس في دراسة العقيدة، وهي مسألة التسلسل، وقبل الخوض فيها ننبه على أن البحث في هذه المسألة من دقائق العلم فلو مات الإنسان من غير بحث فيه لما كان آثمًا إلا إذا خشي من عدم المعرفة أن يعتقد في الله نقصًا فإنه يجب عليه أن يحقق كما قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويجب الاعتقاد قطعًا بأن كل ما سوى الله حادث مخلوق وما ثم قديم أزلي إلا الله وحده كما هو معلوم من الدين بالضرورة، وليعلم أيضا إن هذه المسألة من المباحث العويصة والصعبة حتى قال شيخ الإسلام هنا فيما تقدم: ويدخل في ذلك الكلام

=

=

في حدوث العالم والكلام في كلام الله وأفعاله، والكلام في هذين الأصلين من محارات العقول ا. هـ وقال في درء التعارض (١/ ٢٧٥): فمن تدبر هذه الحقائق، وتبين له ما فيها من الاشتباه والالتباس: تبين له محارات أكابر النظار في هذه المهامه التي تحار فيها الأبصار، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ا. هـ.

وينبغي أن يعلم أن أساس هذه المسألة والمدخل لتصورها وفهمها على حقيقتها وإدراك أهمية الخلاف فيها هو: هل يقال بدوام فاعلية الرب وأنه لم يزل فاعلًا؛ ولم يأت يوم وهو معطل عن الفعل أم لا سبحانه، فمن قال بذلك كان قائلًا بالقدم النوعي أو وجوب تسلسل الحوادث أي أفعال الرب ومن ثم بجواز تسلسل الحوادث أي المخلوقات أو الآثار، ومن نفى دوام فاعلية الرب قال بعدم التسلسل إلا أنهم اختلفوا فمنهم من قال ان الفعل كان ممتنعًا عليه كالجهمية، ومنهم من قال ان الفعل كان ممتنعًا منه كالكلابية والأشعرية كما سيأتي، والدليل على أن هذا هو أساس المسألة واضح من كلام شيخ الإسلام وكلام المخالفين له.

ولتوضيح المسألة نقول: لقد اختلف أهل القبلة في اتصاف الله بصفاته هل هو متصف بها بعد ظهور آثارها، وأسماء الرب هل سمي بها بعد ظهور آثارها أم هو متصف بصفاته ومسمى بأسمائه قبل ذلك على مذاهب:

المذهب الأول: مذهب الجهمية والمعتزلة وهؤلاء ذهبوا إلى ان الفعل كان ممتنعًا على الله ثم انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، وحقيقة هذا المذهب هو أن الله تعالى لم يصر له صفات ولا أسماء إلا بعد أن ظهرت آثارها، فلما خلق صارت له صفة الخلق، وصار من أسمائه الخالق. وذلك على أصل عندهم، وهو أن أسماء الله مخلوقة، فلما خلق سمي الخالق، وخلق له اسم الخالق. فعندهم أن الزمان لما ابتدأ فيه الخلق أو الرزق أو الإنشاء صار بعده له

=

=

اسم الخالق، وقبل ذلك لم يكن له هذا الاسم ولم تكن له هذه الصفات.

فقبل أن يكون ثم سامع لكلامه فليس هو سبحانه متكلما، فلما خلق سامعا لكلامه، خلق كلاما- عند المعتزلة والجهمية- فأسمعهم إياه، فصار له اسم المتكلم أو صفة الكلام، لما خلق من يسمع كلامه.

كذلك صفة الرحمة على تأويلهم الذي يؤولونه، والمنعم والمحيي والمميت كل هذه لا تطلق على الله عندهم إلا بعد أن وجد الفعل منه على أصلهم أن الأسماء عندهم والصفات مخلوقة.

المذهب الثاني: مذهب الكلابية والأشعرية والماتريدية ومذهب طوائف من أهل الكلام وقد ذهبوا إلى ان الفعل كان ممتنعًا منه لا عليه أي يثبت له القدرة لكن لا يثبت له الفعل لأن المقدور ممتنع منه. وهذا يعني أن أن الرب سبحانه كان متصفا بالصفات وله الأسماء، ولكن لم تظهر آثار صفاته ولا آثار أسمائه بل كان زمنا طويلا طويلا معطلا عن الأفعال، له صفة الخلق وليس ثم ما يخلقه، له صفة الفعل ولم يفعل شيئا، له صفة الإرادة وأراد أشياء كونية مؤجلة غير منجزة وهكذا.

فمن أسمائه عند هؤلاء الخالق، ولكنه لم يخلق، ومن أسمائه عندهم أو من صفاته الكلام ولم يتكلم، ومن صفاته الرحمة بمعنى -إرادة الإنعام على تأويلهم المذموم- وليس ثم منعم عليه، ومن أسمائه المحيي وليس ثم من أحيا، ومن أسمائه الباري وليس ثم برأ، وهكذا حتى أنشأ الله سبحانه وخلق تعالى هذا الخلق المنظور الذي تراه من الأرض والسموات وما قص الله علينا في كتابه، ثم بعد ذلك ظهرت آثار أسمائه وصفاته، فعندهم أن الأسماء والصفات متعلقة بهذا العالم المنظور أو المعلوم دون غيره من العوالم التي قد تكون قد سبقته.

والسبب الذي أوقع المتكلمين في تعطيل الرب عن الفعل أزلًا هو إن القوم لما

=

=

أسسوا لهم أصلًا، وبنوا عليه جميع قواعدهم، فقادهم هذا الأصل الفاسد رغمًا عنهم إلى التعطيل والإنكار وهذا الأصل هو امتناع قيام الحوادث بذاته سبحانه، وقد ابتدعت الجهمية هذا الدليل، ثم أخذته المعتزلة، تم تبعهم على ذلك الكلابية والأشعرية والماتريدية وغيرهم، وأصل هذه المسألة تطورت عند الجهمية وعند جهم بخصوصه فأصل لها أصلا، وهو أنه نظر في أصل الدين فوجد أنه مبني على إثبات وجود الله سبحانه، ويقال أن جهم ابتلي بطائفة من منكري وجود الإله، وحيروه فيما أوردوا عليه من الأسئلة. فقالوا له: أقم لنا برهانا عقليا على أن الله سبحانه أو على أن هذا الخلق له رب وله خالق وأنه موجود. فتحير ونظر في هذه المسألة، ثم قال لهم: وجدتها. فأقام البرهان بما يسمى عند أهله بحلول الأعراض في الأجسام. وهو أصل الانحراف في مذهب الجهمية ثم المعتزلة ثم الأشاعرة والماتريدية. ولهذا السلف ينسبون كل من انحرف في الصفات إلى جهم فيقولون هو جهمي؛ لأنه ما انحرف إلا بموافقته لجهم في هذا الأصل الذي أصله وانحرف به عن منهج السلف. وهذا البرهان ليس ببرهان بل هو دليل باطل، قال في تقريره: إن الجسم تحل فيه الأعراض -الجسم هو المتحيز: كتاب متحيز، كرسي متحيز، مبنى متحيز، إلى آخره- الأجسام تحل فيها الأعراض.

والأعراض مثل البرودة، الحرارة، مثل الارتفاع، الانخفاض، مثل الطول العرض العمق، مثل الحركة فيه والتحرك إلى آخره، هذه الأشياء معلوم أنها لا توجد بنفسها وإنما وجدت بالجسم. والجسم حلت فيه هذه الأعراض دون اختياره، فبهذا صار هذا الجسم جسما محتاجا إلى العرض، لأن العرض وحده لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالأجسام. وحلول الأعراض بالأجسام دل على أنها مخلوقة وعلى أنها محتاجة لهذه الأشياء التي تميزها عن غيره وتصلح معها للوجود. فلهذا صار الجسم قابلا لحلول الأعراض أي الصفات فيه. وصار إذا الجسم محتاجا

=

=

لغيره فصار إذا مخلوقا. إذا تبين هذا، قالوا له هذا دليل صحيح في أن الجسم لم يوجد نفسه- يعني الجسم المعين، العين المعينة هذه- لم يوجد نفسه وأنه موجود واقتنعوا بهذا البرهان مع أنه في حقيقته غير مقنع وغير مستقيم، فأثبت لهم وجود خالق، وجود رب لهذه الأشياء. فلما نظروا في هذا قالوا له: هذا دليل صحيح، فصف لنا ربك.

فلما سألوه هذا السؤال، نظر في الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة فتحير في أنه لو أثبت هذه الصفات لعادت على هذا الدليل الذي لم يجد غيره في إثبات وجود الله عادت عليه بالإبطال.

لأنه وجد في الكتاب والسنة أن من الصفات الاستواء، من الصفات العلو، من الصفات الرحمة، من الصفات الانتقام، من الصفات الإعطاء، من الصفات الغضب، من الصفات الرضا إلى آخره، وهذه كلها معاني لا تقوم بنفسها، وهي تأتي وتذهب يعني من حيث آحادها. فلهذا قال إنه لو قال لهم إن صفات الرحمن ؟ هي التي جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها فإنه يعود إلى أن سيقال له: إذا فالذي يتصف بهذه الصفات هو محتاج، إذا هو مثل الجسم فهو جسم كالأجسام.

فلهذا قال لهم إن الله سبحانه لا صفة له إلا صفة الوجود المطلق.

وعلى هذا الأصل مشى جهم في نفي الكلام ونفي جميع الصفات، حتى أسماء الرحمن سبحانه يفسرها بالآثار المخلوقة.

ثم جاء بعده المعتزلة فقالوا هذا البرهان صحيح، ولكن ثم صفات دل عليها العقل لا يمكن أن يكون الرب سبحانه موجودا دون هذه الصفات.

ثم جاء الأشاعرة وقالوا كلام المعتزلة صحيح لكن الصفات أكثر من الثلاث التي أثبتها المعتزلة فهي سبع وتؤول إلى عشرين عندهم.

ثم بعد ذلك جاء الماتريدية وقالوا الصفات ثمان، لابد من زيادة على السبع صفة

=

=

التكوين وهكذا.

إذن منشأ الضلال في هذه المسألة هو هذا البرهان الباطل على وجود الله سبحانه الذي جعل فيه دليل الأعراض هو الدليل على حدوث الأجسام، ومنه أبطل وصف الله سبحانه بصفاته.

المذهب الثالث: مذهب أهل السنة والجماعة أهل الحديث والأثر وقد ذهبوا إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال: صفات الذات وصفات الفعل. ما زال بصفاته قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، كما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته- سبحانه- صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده. ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها، كالخلق والتصوير، والإحياء والإماتة، والقبض والبسط والطي، والاستواء والإتيان والمجيء والنزول، والغضب والرضا، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما سئل عن قوله تعالى: {ثم استوى على العرش} كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وإن كانت هذه الأحوال تحدث في وقت دون وقت، كما في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»؛ لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن، ألا ترى أن من تكلم اليوم وكان متكلما بالأمس لا يقال: أنه حدث له الكلام، ولو كان غير متكلم لآفة كالصغير والخرس، ثم تكلم يقال: حدث له الكلام، فالساكت لغير آفة يسمى متكلما بالقوة، بمعنى أنه يتكلم إذا

=

=

شاء، وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل، وكذلك الكاتب في حال الكتابة هو كاتب بالفعل، ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته للكتابة.

وحلول الحوادث بالرب تعالى، المنفي في علم الكلام المذموم، لم يرد نفيه ولا إثباته في كتاب ولا سنة. وفيه إجمال: فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة، ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن- فهذا نفي صحيح. وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية، من أنه لا يفعل ما يريد، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته- فهذا نفي باطل.

ونسوق هنا بعض ما ورد عن السلف مما يدل على دوام فاعلية الرب فمن ذلك:

١- قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (أنه سأله سائل عن قوله: {وكان الله غفورًا رحيمًا} {عزيزًا حكيمًا} {سميعًا بصيرًا} فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس: {وكان الله غفورًا رحيمًا} سمى نفسه ذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك) هذا لفظ البخاري وهو رواه مختصرًا، ولفظ البوشنجي محمد بن إبراهيم الإمام، عن شيخ البخاري الذي رواه من جهته البرقاني في صحيحه: • (فإن الله سمى نفسه ذلك ولم ينحله غيره، فذلك قوله: (وكان الله) أي: لم يزل كذلك) هكذا رواه البيهقي عن البرقاني.

وذكر الحميدي لفظه: (فإن الله جعل نفسه وسمى نفسه، وجعل نفسه ذلك ولم ينحله أحد غيره (وكان الله) أي: لم يزل كذلك).

ولفظ يعقوب بن سفيان عن يوسف بن عدي شيخ البخاري: (فإن الله سمى نفسه ذلك، ولم يجعله غيره (وكان الله) أي: لم يزل كذلك، فقد أخبر ابن عباس أن معنى القرآن: أن الله سمى نفسه بهذه الأسماء لم ينحله ذلك غيره، وقوله: {وكان

=

=

الله} يقول: إني لم أزل كذلك. ومن المعلوم أن الذي قاله ابن عباس هو مدلول الآيات، ففي هذا دلالة على فساد قول الجهمية من وجوه:

أحدها: أنه إذا كان عزيزًا حكيمًا، ولم يزل عزيزًا حكيمًا، والحكمة تتضمن كلامه ومشيئته، كما أن الرحمة تتضمن مشيئته، دل على أنه لم يزل متكلمًا مريدًا، وقوله: {غفورًا} أبلغ، فإنه إذا كان لم يزل غفورًا فأولى أنه لم يزل متكلمًا، وعند الجهمية بل لم يكن متكلمًا ولا رحيمًا ولا غفورًا، إذ هذا لا يكون إلا بخلق أمور منفصلة عنه، فحينئذ كان كذلك.

والثاني: قول ابن عباس: فإن الله سمى نفسه ذلك، يقتضي أنه هو الذي سمى نفسه بهذه الأسماء، لا أن المخلوق هو الذي سماه بها، ومن قال: إنها مخلوقة في جسم، لزمه أن يكون ذلك الجسم هو الذي سماه بها.

الثالث: قوله: ولم ينحله ذلك غيره، وفي اللفظ الآخر: ولم يجعله ذلك غيره، وهذا يتبين بجعله ذلك في الرواية أي: هو الذي حكم لنفسه بذلك لا غيره، ومن جعله مخلوقًا لزمه أن يكون الغير هو الذي جعله كذلك ونحله ذلك.

الرابع: أن ابن عباس ذكر ذلك في بيان معنى قوله: {وكان الله غفورًا رحيما}، {عزيزًا حكيمًا}، {سميعًا بصيرًا}، ليبين حكمة الإتيان بلفظ كان في مثل هذا، فأخبر في ذلك أنه هو الذي سمى نفسه ذلك ولم ينحله ذلك غيره. ووجه مناسبة هذا الجواب، أنه إذا نحل ذلك غيره كان ذلك مخلوقًا بخلق ذلك الغير، فلا يخبر عنه بأنه كان كذلك، وأما إذا كان هو الذي سمى به نفسه ناسب أن يقال: إنه كان كذلك وما زال كذلك، لأنه هو لم يزل- سبحانه وتعالى- وهذا التفريق إنما يصح إذا كان غير مخلوق، ليصح أن يقال: لما كان هو المسمي لنفسه بذلك، كان لم يزل كذلك ا • هـ من التسعينية لشيخ الإسلام (٢/ ٥٧٨).

٢- الإمام الدارمي: فقد قال ان الفعل لازم للحياة، فكل حي لابد أن يكون فعالًا،

=

=

وما ليس بفعال فهو ليس بحي، فالحياة والفعل متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في الوجود. انظر شرح هراس على النونية (١/ ١٧٠).

٣- الإمام أحمد بن حنبل: قال في رده على الجهمية (ص٣٤): وقلنا للجهمية من القائل يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، أليس الله هو القائل؟ قالوا: فيكون الله شيئًا فيعبر عن الله، كما يكون شيئًا فعبر لموسى. قلنا: فمن القائل {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين. فلنقصن عليهم بعلم} أليس الله هو الذي يسأل؟ قالوا هذا كله إنما يكون شيئًا فيعبر عن الله. فقلنا قد أعظمتم على الله الفرية حين زعمتم أنه لا يتكلم. فشبهتموه بالأصنام التي تعبد من دون الله، لأن الأصنام لا تتكلم ولا تتحرك ولا تزول من مكان إلى مكان فلما ظهرت عليه الحجة قال: إن الله يتكلم ولكن كلامه مخلوق. قلنا: وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم أن كلامه مخلوق. ففي مذهبكم قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم كانوا ولا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلامًا. فقد جمعتم بين كفر وتشبيه، فتعالى الله عن هذه الصفة، بل نقول: إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولا تقول إنه كان ولا يتكلم حتى خلق الكلام. ولا نقول أنه قد كان ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة ولا نقول أنه قد كان ولا عظمة له حتى خلق لنفسه، عظمة، فقالت الجهمية لنا لما وصفنا الله بهذه الصفات: إن زعمتم أن الله ونوره والله وقدرته والله وعظمته فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ولم يزل وقدرته. قلنا لا نقول: عن الله لم يزل وقدرته ولم يزل ونوره ولكن نقول لم يزل بقدرته ونوره، لا متى قدر، ولا كيف قدر فقالوا: لا تكونن موحدين أبدًا حتى تقولوا: قد كان الله ولا شيء. قلنا: نحن نقول قد كان الله ولا شيء. ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها. أليس إنما يصف إلهًا واحدًا بجميع صفاته

=

=

وضربنا لهم في ذلك مثلًا.

فقلنا: أخبرنا عن هذه النخلة، أليس لها جذع وكرب وليف وسعف وخوص وجمار، واسمها اسم شيء واحد وسميت نخلة. بجميع صفاتها؟ فكذلك الله وله المثل الأعلى بجميع صفاته إلاه واحد لا نقول أنه قد كان في وقت من الأوقات ولا بقدرة حتى خلق قدرة والذي ليس له قدرة هو عاجز ولا نقول قد كان في وقت من الأوقات، ولا يعلم حتى خلق له علمًا فعلم، والذي لا يعلم هو جاهل، ولكن نقول لم يزل الله عالمًا قادرًا. لا متى ولا كيف.

٤- الإمام ابن المبارك: قال: لم يزل لله متكلمًا إذا شاء، نقله شيخ الإسلام في منهاج السنة (٢/ ٣٨٣).

٥- الإمام البخاري: قال في كتابه خلق أفعال العباد (ص١٠٧): ولقد بين نعيم بن حماد أن كلام الرب ليس بخلق وأن العرب لا تعرف الحى من الميت إلا بالفعل، فمن كان له فعل فهو حى ومن لم يكن له فعل فهو ميت، وأن أفعال العباد مخلوقة.

بعد فهم هذه المقدمة نعود لمسألة التسلسل فنقول: وليعلم أيضا أن الحوادث لها معنيان: المعنى الأول: تطلق ويراد بها المخلوقات ومنه قول النحراوي: الصفة الرابعة الواجبة له تعالى المخالفة للحوادث أي المخلوقات.

المعنى الثاني: تطلق ويراد بها التجدد. وبهذا نعلم أنه ليس كل حادث مخلوقًا. وتسلسل الحوادث يراد بها تسلسل أفعال الرب التي نفاها أهل الكلام بحجة أن لا تحل في الذات الإلهية، وأما أهل السنة فيقولون بإثبات هذه الأفعال ويقولون إن نوع الحوادث قديم أي أن صفة الفعل وهو نوع أو جنس الصفات الفعلية قديم، أما أفرادها أو آحادها فهي حادثة وهذا الذي بمعنى التجدد، وهذا التسلسل للحوادث واجب التسلسل. أما الحوادث التي بمعنى المخلوقات وهو تسلسل

=

=

الأعيان التي هي المفعولات وهي قديمة النوع أيضًا لا قديمة الأعيان، لأنه نتيجة القول بدوام فاعلية الرب، أما أفرادها فلا شك أنها مسبوقة بالعدم، وجائز أن يقال ما من زمن يفترض فيه خلق العالم إلا وجائز أن يقع قبله ذلك لأن الله أزلي وهو من التسلسل الجائز لا الواجب.

قال شيخ الإسلام في درء التعارض (٨/ ٢٧٩): والمقصود هنا أن هؤلاء المتكلمين الذين جمعوا في كلامهم بين حق وباطل. وقابلوا الباطل بباطل، وردوا البدعة ببدعة، لما ناظروا الفلاسفة وناظروهم، في مسألة حدوث العالم ونحوها، استطال عليهم الفلاسفة لما رأوهم قد سلكوا تلك الطريق، التي هي فاسدة عند أئمة الشرع والعقل، وقد اعترف حذاق النظار بفسادها، فظن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة أنهم إذا أبطلوا قول هؤلاء بامتناع حوادث لا أول لها، وأقاموا الدليل على دوام الفعل، لزم من ذلك قدم هذا العالم، ومخالفة نصوص الأنبياء. وهذا جهل عظيم، فإنه ليس للفلاسفة ولا لغيرهم دليل واحد عقلي صحيح يخالف شيئًا من نصوص الأنبياء وهذه مسألة حدوث العالم وقدمه، لا يقدر أحد من بني آدم يقيم دليلًا على قدم الأفلاك أصلًا، وجميع ما ذكروه ليس فيه ما يدل على قدم شيء بعينه من العالم أصلًا، وإنما غايتهم أن يدلوا على قدم نوع الفعل، وأن الفاعل لم يزل فاعلًا، وأن الحوادث لا أول لها، ونحو ذلك مما لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم، وهذا لا يخالف شيئًا من نصوص الأنبياء، بل يوافقها.

وأما النصوص المتواترة عن الأنبياء بأن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأن الله خالق كل شيء، فكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن، فلا يمكن أحدًا أن يذكر دليلًا عقليًا يناقض هذا، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ا٠هـ

وقال في الفتاوى (٩/ ٢٨٠): ولكن موضع النظر والنزاع (نوع الحوادث) وهو انه

=

=

هل يمكن أن يكون النوع دائمًا فيكون الرب لا يزال يتكلم أو يفعل بمشيئته وقدرته أم يمتنع ذلك؟ ا. هـ

وقال في منهاج السنة: وعمدة الفلاسفة على قدم العالم هو قولهم: يمتنع حدوث الحوادث بلا سبب حادث، فيمتنع تقدير ذات معطلة عن الفعل لم تفعل ثم فعلت من غير حدوث سبب. وهذا القول لا يدل على قدم شيء بعينه من العالم لا الأفلاك ولا غيرها، إنما يدل على أنه لم يزل فعالًا وإذا قدر أنه فعال لأفعال تقوم بنفسه أو مفعولات حادثة شيئًا بعد شيء، كان ذلك وفاء بموجب هذه الحجة، مع القول بأن كل ما سوى الله محدث مخلوق بعد أن لم يكن، كما أخبرت الرسل أن الله خالق كل شيء، وإن كان النوع لم يزل متجددًا، كما في الحوادث المستقبلة: كل منها حادث مخلوق، وهي لا تزال تحدث شيئًا بعد شيء. ا. هـ

وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص١٥٦): وأجابت طائفة أخرى من أهل السنة والحديث عن هذا بالتزام التسلسل، وقالوا: ليس في العقل ولا في الشرع ما ينفي دام فاعلية الرب سبحانه؛ وتعاقب أفعاله شيئًا قبل شيء إلى غير غاية، كما تتعاقب شيئًا بعد شيء إلى غير غاية، فلم يزل فعالًا.

قالوا: والفعل صفة كمال ومن يفعل أكمل ممن لا يفعل.

قالوا: ولا يقتضي صريح العقل إلا هذا، ومن زعم أن الفعل كان ممتنعًا عليه سبحانه في مدد [غير مقدرة] لا نهاية لها، ولا يقدر أن يفعل، ثم انقلب الفعل من الاستحالة الذاتية إلى الإمكان الذاتي، من غير حدوث سبب ولا تغير في الفاعل، فقد نادى على عقله بين الأنام.

قالوا: وإذا كان هذا في العقول، جاز أن ينقلب العالم من العدم إلى الوجود من غير فاعل، وإن امتنع هذا في بداية العقول، فكذلك تجدد إمكان الفعل وانقلابه من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي بلا سبب، وأما أن يكون هذا ممكنًا، وذاك

=

=

ممتنعًا، فليس في العقول ما يقتضي بذلك.

قالوا: والتسلسل لفظ مجمل لم يرد بنفيه ولا إثباته كتاب ناطق، ولا سنة متبعة فيجب مراعاة لفظه، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن، فالتسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته، وهو أن يكون بين مؤثرين كل واحد منهما استفاد تأثيره ممن قبله لا إلى غاية. والتسلسل الواجب ما دل عليه العقل والشرع من دوام أفعال الرب تعالى في الأبد وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيمًا آخر لا نفاد له، وكذلك التسلسل في أفعاله سبحانه من طرف الأزل وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر فهذا واجب في كلامه، لأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، ولم تحدث له صفة الكلام في وقت، وهكذا أفعاله التي هي من لوازم حياته، فإن كل حي فعال، والفرق بين الحي والميت بالفعل، ولهذا قال غير واحد من السلف: الحي الفعال وقال عثمان بن سعيد: كل حي فعال، ولم يكن ربنا تبارك وتعالى قط في وقت من الأوقات المحققة او المقدرة معطلًا عن كماله من الكلام [والإرادة والفعل].

وأما التسلسل الممكن فالتسلسل في مفعولاته من هذا الطرف، كما يتسلسل في طرف الأبد، فإنه إذا لم يزل حيًا قادرًا مريدًا متكلمًا، وذلك من لوازم ذاته، فالفعل ممكن له بوجوب هذه الصفات له، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه، فإنه سبحانه متقدم على كل فرد فرد من مخلوقاته تقدمًا لا أول له، فلكل مخلوق أول، والخالق سبحانه لا أول له، فهو وحده الخالق، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن.

قالوا: وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده، ويقضي ببطلانه، وكل من اعترف بأن الرب سبحانه لم يزل قادرًا على الفعل لزمه أحد أمرين لابد له منهما، إما بأن يقول بأن الفعل لم يزل ممكنًا، وإما ان يقول لم يزل واقعًا، وإلا تناقض تناقضًا

=

=

بينًا، حيث زعم أن الرب سبحانه لم يزل قادرًا على الفعل، والفعل محال ممتنع لذاته لو أراده لم يمكن وجوده، بل فرض إرادته عنده محال، وهو مقدور له، وهذا قول يناقض بعضه بعضا. ا. هـ

وقال الشنقيطي في كتابه رحلة الحج إلى بيت الله الحرام (ص٥١): وهذا الكلام كله في استحالة تسلسل تأثير بعض أفراد الهيولي في بعض اما بالنظر إلى وجود حوادث لا أول لها بايجاد الله، فذلك لا محال فيه ولا يلزمه محذور لأنها موجودة بقدرة وإرادة من لا أول له جل وعلا. وهو في كل لحظة من وجوده يحدث ما يشاء كيف يشاء فالحكم عليه بأن احداثه للحوادث له مبدأ يوهم أنه كان قبل ذلك المبدأ عاجزًا عن الايجاد سبحانه وتعالى عن ذلك. وإيضاح المقام انك لو فرضت تحليل زمن وجود الله في الماضي إلى الأزل إلى أفراد زمانية أقل من لحظات العين أن تفرض ان ابتداء ايجاد الحوادث مقترن بلحظة من تلك اللحظات فإنك ان قلت هو مقترن باللحظة الأولى قلنا ليس هناك أولى البتة، وإن فرضت اقترانه بلحظة أخرى فإن الله موجود قبل تلك اللحظة بجميع صفات الكمال والجلال بما لا يتناهى من اللحظات وهو في كل لحظة يحدث ما شاء كيف شاء فالحكم عليه بأن لفعله مبدأ، لم يكن فعل قبله شيئًا يتوهم أن له مانعًا من الفعل قبل ابتداء الفعل، فالحاصل أن وجوده جل وعلا لا أول له وهو في كل لحظة من وجوده يفعل ما يشاء كيف يشاء فجميع ما سوى الله كله مخلوق حادث بعد عدم، إلا أن الله لم يسبق عليه زمن هو فيه ممنوع الفعل سبحانه وتعالى عن ذلك. فظهر أن وجود حوادث لا أول لها إن كانت بإيجاد من لا أول له لا محال فيه وكل فرد منها كائنًا ما كان فهو حادث مسبوق بعدم لكن محدثه لا أول له وهو في كل وقت يحدث ما شاء كيف شاء سبحانه وتعالى ا. هـ

وقال العلامة العثيمين في شرح السفارينية (ص٣١٥): بعد أن لم تكن، والسماء

=

=

مخلوقة بعد أن لم تكن، والأرض مخلوقة بعد أن لم تكن، وكل شيء مخلوق من العدم بعد أن لم يكن. وهذه المسالة ضل فيها من ضل من الناس، وزعموا أن المخلوقات قديمة النوع، وأن المادة أزلية، كما أنها أبدية، ولهذا يقولون: إن المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم؛ فليست معدومة من قبل، ولا تفنى من بعد. وكل هذا ضلال؛ لأنك إذا قلت: بقدم الأشياء وأنها لم تكن حادثة، أشركت بالله وجعلت له شريكًا في القدم وهذا شرك. ولكن هل الله ﷻ أتى عليه وقت لم يكن يفعل شيئًا؟

قال بعض العلماء: نعم، أتى عليه وقت لم يكن يفعل شيئًا، ثم حدث الفعل، لأنك إن لم تقل بذلك لزم أن تجعل المفعول قديمًا، فإنك إذا اثبت لله فعلًا- فلا فعل إلا بمفعول- وحينئذٍ يلزمك أن تقول بِقِدم المفعولات، فتقع في الضلال.

ولهذا اختلف الناس في هذه المسالة، فمنع قوم التسلسل في الماضي، كان منعوه في المستقبل، وقالوا: إن الله تعالى في الأول لم يكن يفعل، وفي النهاية أيضًا لا يفعل، وبنوا على ذلك أن الجنة تفنى، والنار تفنى، أي ينعدمان بالكلية، بل ولا يبقى شيء أبدًا؛ لا سماء ولا أرض، ولا نجوم، ولا شمس، ولا قمر، ولا يبقى إلا الله ﷻ، وهذا مذهب الجهمية، حيث قالوا: بأن الأشياء لا تدوم فكما أن لها ابتداء فلها انتهاء.

وقال بعض منهم بل تفنى الحركات دون الذوات، فحركات الحي تفنى دون ذاته، فيبقى الناس كأنهم أصنام، وهذا مذهب العلاف وهو من المعتزلة، وقد سخر به ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النونية، فقال: على زعمه: أن الإنسان من أهل الجنة إذا رفع إلى فمه فاكهة وجاء وقت الفناء جمع على ما هو عليه، وبقيت الفاكهة بيده لم تصل إلى فمه إلى أبد الآبدين، وإذا كان على أهله من الحور العين أو من نساء الدنيا وأتى وقت فناء الحركات بقي على ما هو عليه إلى أبد الآبدين. وهذا كلام غير

=

=

معقول، بل أنه ضلال والعياذ بالله، وغالبًا ما يكون من لا يبني على علم من الشرع ضحكة. وقال قوم بعكس القول السابق حيث قالوا بالتسلسل في الابتداء والانتهاء، وأن الخلق قديم كما أنه لا نهاية له، فطردوا المسالة من الوجهين، فقالوا: إذا كنا نقول بإمكان تسلسل الحوادث في المستقبل، وأن الجنة والنار باقية إلى أبد الآبدين، فكذلك في الماضي.

وقال آخرون -وزعموا أنهم أهل السنة- بأن التسلسل في المستقبل واجب وفي الماضي مستحيل، ومعنى ذلك أنه في الزمن الآتي لا تفنى الجنة، ولا تنفى النار ولا يفنى ما فهما، وأما في الماضي فالتسلسل مستحيل لأنه يلزم منه أن تكون الحوادث قديمة كقِدم الله، وهذا شرك.

وهنا قول رابع: وهو أن التسلسل في المستقبل ممكن في الذوات نفسها، وفي ذوات أخرى تستجد فيما بعد، وأما التسلسل في الماضي ففي الذوات مستحيل، ومعنى ذلك أن قولنا: إن هذه الذات لم تزل ولا تزال موجودة وهذا مستحيل؛ لأنه ليس هناك شيء من المخلوقات يوصف بالقِدم كقِدم الله.

لكن ليكن معلومًا أن الله لم يزل ولا يزال خلاقًا، وأن هناك مخلوقات غير السماء والأرض؛ لأن المصلي يقول: ((ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد))، فهناك مخلوقات قبل السموات وقبل العرش لا نعرف ما هي؛ لأن الله لم يزل ولا يزال فعالا، ولا يلزم من هذا أن قدم المفعول كقدم الفاعل؛ لأنه باتفاق العقلاء أن المفعول مسبوق بالفاعل؛ لأن المفعول نتيجة فعل الفاعل، وفعل الفاعل وصف له، ولابد أن يكون الموصوف سابقا على الصفة، ثم المفعول بعد الصفة.

يعني لما كان عندنا مفعول وفعل وفاعل، فالمفعول لا شك أنه متأخر عن فعل الفاعل، وفعل الفاعل متأخر عن الفاعل، وعلى ذلك فلا يلزم من قولنا بقدم

=

الحوادث أن تكون قديمة كقدم الله، وأن تكون شريكة لله في الوجود.

وهذا هو الحق الذي ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد شنع عليه خصومه تشنيعًا عظيمًا، وقالوا: هذا قول الفلاسفة، وهذا قول باطل، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تخلص منهم بأنه لا يلزم من قدم المفعول أن يكون مساويًا للفاعل، لأنه بضرورة العقل أن المفعول لابد أن يكون مسبوقًا بفعل، والفعل لابد أن يكون مسبوقًا بفاعل، وهذا هو الحق.

وقول المؤلف: (وضل من أثنى عليها بالقدم) إن أراد من أثنى عليها بالنوع فليس بصحيح، وإن أراد من أثنى عليها بالعين فهذا صحيح؛ لأن ما من شيء من المخلوقات يكون قديما ليس له أول أبدا.

وخلاصة القول في ذلك أنه ليس في الوجود إلا خالق ومخلوقا، وأن الخالق جل وعلا لم يزل ولا يزال موجودًا، وأما المخلوق فالأزل في حقه ممتنع، فليس هناك شيء من المخلوقات يكون أزليًا أبدًا، بل ما من مخلوق إلا وهو حادث بعد أن لم يكن؛ فالسموات والأرض والجبال والشجر والدواب والعرش والكرسي والقلم وغير ذلك كله مخلوق من العدم، ولم يقل أحد بقدمه إلا الفلاسفة.

فالفلاسفة هم الذين قالوا بقدم العالم، وأن العالم لم يزل ولا يزول، ولهذا يقولون: إن المادة لا تفنى كما أنها ليست حادثة، وهذا لا شك أنه شرك مخرج عن الملة، ومن ادعى أن مع الله شريكًا في الوجود فهو مشرك.

وهذه المخلوقات منها شيء أبدي خلقه الله للبقاء، ومنها شيء أمدي يعني له مدة ثم ينتهي، فمن الأشياء الأبدية الروح، فإن الله خلق أرواح للأبد، ولا يقال: إن الحيوان يموت فتفقد روحه؛ لأن موت الحيوان ليس فقدًا لروحه، بل مفارقة الروح للبدن.

اللهم إلا روح من لم يخلق للأبد فهذه قد تفنى، وليس عندي في ذلك أثارة من
=

=

علم، لكن هذا هو الظاهر، فأرواح الحيوان سوف تعاد في أجسادها يوم القيامة، كما قال الله تعالى: (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (التكوير: ٥) ولكن يأمرها الله ﷻ بعد أن يقضي بينها بعدله أن تكون ترابا فتكون ترابا، وظاهر هذا أنها تفنى الأرواح والأجساد، لأن بقاء الأرواح بعد هذا الفصل والحكم لا فائدة منه فيما يظهر لنا.
إذا فالذي خلق للبقاء من الأرواح هو أرواح المكلفين؛ يعني بني آدم والجن، وكذلك الحور والولدان الذين في الجنة، فهؤلاء خلقوا للبقاء فلا يموتون.
إذا فمن جهة الأزلية ليس هناك مخلوق يكون أزليا أبدا، ومن جهة الأبدية ففيه تفصيل منه ما خلق على أنه أبدي، ومنه ما خلق على انه أمدي؛ يفنى ويزول ا. هـ
(تنبيه) لقد خالف شيخ الإسلام في هذه المسألة بعضهم مثل السبكي في السيف الصقيل (ص٨٦)، والحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٤٢١)، وابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية (ص١١٦)، وتقي الدين الحصني في كتابه دفع شبه من شبه وتمرد (ص ٦٠)، وزاهد الكوثري في حاشيته على السيف الصقيل (ص٨١)، وفي حاشيته على الإجماع لابن حزم (ص١٦٩) وغيرهم، ولكن الإشكال في خلاف العلامة الألباني حيث قال في الصحيحة (رقم ١٣٣): وفيه رد أيضًا على من يقول بحوادث لا أول لها، وأنه ما من مخلوق، إلا ومسبوق بمخلوق قبله، وهكذا إلى ما لا بداية له، بحيث لا يمكن أن يقال: هذا أول مخلوق، فالحديث يبطل هذا القول ويعين أن القلم هو أول مخلوق فليس قبله قطعًا أي مخلوق. ولقد أطال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ الكلام في رده على الفلاسفة محاولًا إثبات حوادث لا أول لها، وجاء في أثناء ذلك بما تحار فيه العقول، ولا تقبله أكثر القلوب، حتى اتهمه خصومه بأنه يقول بأن المخلوقات قديمة لا أول لها، مع أنه يقول ويصرح بأن ما من مخلوق إلا وهو مسبوق بالعدم، ولكنه مع ذلك يقول بتسلسل الحوادث إلى ما لا بداية له. كما يقول هو وغيره بتسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية، فذلك القول
=

=

منه غير مقبول، بل هو مرفوض بهذا الحديث، وكم كنا نود أن لا يلج ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ هذا المولج، لأن الكلام فيه شبيه بالفلسفة وعلم الكلام الذي تعلمنا منه التحذير والتنفير منه، ولكن صدق الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: " ما منا من أحد إلا رد ورد عليه إلا صاحب هذا القبر- ﷺ- ا.هـ

وقال في تعليقه على الطحاوية (ص٥٣) طبعة المكتب الإسلامي الثانية: قلت ذكر الشارح هنا أن العلماء اختلفوا هل القلم أول المخلوقات، أو العرش؟ على قولين لا ثالث لهما وأنا وإن كان الراجح عندي الأول، كما كنت صرحت به في تعليقي عليه فإني أقول الآن: سواء كان الراجح هذا أم ذاك، فالاختلاف المذكور يدل بمفهومه على أن العلماء اتفقوا على أن هناك أول مخلوق، والقائلون بحوادث لا أول لها، مخالفون لهذا الاتفاق، لأنهم يصرحون بأن ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، وهكذا إلى ما لا أول له، كما صرح بذلك ابن تيمية في بعض كتبه، فإن قالوا: العرش أول مخلوق، كما هو ظاهر كلام الشارح، نقضوا قولهم بحوادث لا أول لها وإن لم يقولوا بذلك خالفوا الاتفاق! فتأمل هذا فإنه مهم والله الموفق) اهـ.

وبالرجوع إلى أصل كلام الشارح نجد:

١- إنه قال (على قولين ذكرهما الحافظ أبوالعلاء.....) فجمله " لا ثالث لهما " من كلام الشيخ ناصر رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢- أنه لم يقل إن العرش أول مخلوق بل قال (أصحهما أن العرش قبل القلم).

٣- أن هذا الكلام إنما هو في الفقرة الخاصة بالإيمان باللوح والقلم أما في الفقرة التي تعرض فيها الشارح للموضوع نفسه أي هل للحوادث أول فكلامه صريح في التقييد بهذا العالم المشهود لا جنس المخلوقات وذلك في جمل كثيرة منها: -

أ- قوله (واختلفوا في أول هذا العالم ما هو)

=

=

ب- قوله عن حديث كتابة المقادير (فأخبر -ﷺ- أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه السموات بخمسين الف سنة).

ج- قوله عن حديث عمران بن حصين (وقد أجابهم النبي -ﷺ- عن بدء هذا العالم المشهود لا عن جنس المخلوقات".

وأوضح من هذا كله وأهم أن الشارح إنما نقل كلامه عن شيخ الإسلام من منهاج السنة، والشيخ أجل من أن يتناقض بل صرح بأن المراد هو هذا العالم لا جنس الخلق. وإنما أوردنا هذا لأن شبهة أهل البدع في تكفير شيخ الإسلام أو تضليله هي دعوى مخالفة الإجماع وربما اعتضدوا بكلام الشيخ الألباني- رَحِمَهُ اللَّهُ- كما فعل السقاف. والذي يبدو أن الشيخ الألباني لم يقرأ كلام شيخ الإسلام بتدبر وأجزم أنه لو قرأه بتدبر مع ما أوتي من التجرد ودقة الفهم لأقره وأيده لا سيما شرحه حديث عمران بن حصين. وعلى أي حال فالشيخ الألباني نقل (ص٤١) من الكتاب نفسه قول الشارح (أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء. وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا وهذا المأثور عن أئمة السنة والحديث) وقد أقر الشيخ هذا القول وهو حق وهذا بعينه قول شيخ الإسلام عن صفة الخلق فنوع المخلوقات قديم قدم نوع الكلام وإن لم يكن شي من المخلوقات المعينة قديمًا ومخلوقاته هي أثر كلماته قال تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} وقال {ألا له الخلق والأمر} فمن سلم بمذهب أهل السنة في الكلام فليسلم بكلامهم في الخلق كما ذكره شيخ الإسلام مؤيدًا كلامه بأقوال أئمة السنة فيه كالإمام أحمد والبخاري وابن المبارك والدارمي ومن قبلهم من الصحابة والتابعين.

ومما يجلي ذلك ان شيخ الإسلام قد نص على أن أشباه النوع بالعين وقع لكثير من الناس في الخلق كما وقع في الكلام انظر مجموع الفتاوى (١٢/ ١٨٤-

=

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧).

{آمِنُوا} دَاوِمُوا عَلَى الْإِيمَان {بِاَللهِ وَرَسُوله وَأَنْفَقُوا} فِي سَبِيل الله {مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} مِنْ مَال مَنْ تَقَدَّمَكُمْ وَسَيَخْلُفُكُمْ فِيهِ مَنْ بَعْدكُمْ نَزَلَ فِي غَزْوَة الْعُسْرَة وَهِيَ غَزْوَة تَبُوك {فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا} إشَارَة إلَى عثمان

=

١٩١و١٥٤- ١٥٧)، والشيخ الألباني- رَحِمَهُ اللهُ- لم يقع له الاشتباه في الكلام بل نقل قول الشارح كما ذكرنا عارفًا بمضمونه مقرًا له لكن وقع له الاشتباه في الخلق كما رأيت.

ولا ريب أن المسألة بتفصيلاتها ولوازمها دقيقة المنزع وعرة المسلك بعيدة الغور إلا أننا نذكر خلاصة ما يجب على المسلم- لا سيما طالب العلم- معرفته في هذا الشأن وهو هذه الأمور:

١- أن الله تعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء.

٢- أن الله تعالى متصف بصفات الكمال أزلًا وأبدلًا ومنها كونه خالقًا لما يشاء متى شاء فعال لما يريد فلم يأت عليه زمن كان معطلًا فيه عن الخلق او الكلام أو غير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

٣- أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق له مربوب كائن بعد أن لم يكن.

وبعد هذا إن أمكنه أن يفهم الفرق بين النوع والآحاد وبين حكم الواحد وحكم المجموع فقد انكشف له أصل المسألة، وإن لم يفهمه فلا يضيره الوقوف بالساحل وإنما الضير في التخبط بلا هدى، وأسوأ منه الجهل المركب الذي اشترك فيه من كفروا الشيخ أو خطأوه ومن دافع عنه بنفي ما يعلم كل مطلع على كتبه أنه من مشهور أقواله.

رَضِّوَاللَّهُعَنْهُ {لهم أجر كبير}.

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨).

{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ} خِطَاب لِلْكُفَّارِ أَيْ لَا مَانِع لَكُمْ مِنْ الْإِيمَان {بِاَللهِ وَالرَّسُول يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أُخِذَ} بِضَمِّ الْهَمْزَة وَكَسْر الْخَاء وَبِفَتْحِهَا وَنَصْب مَا بَعْده {مِيثَاقكُمْ} عَلَيْهِ أَيْ أَخَذَهُ الله فِي عَالَم الذَّرّ حين أشهدهم على أنفسهم {ألست بربكم قالوا بلى} {إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} أَيْ مُرِيدِينَ الْإِيمَان بِهِ فبادروا إليه.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩).

{هُوَ الَّذِي يُنَزِّل عَلَى عَبْده آيَات بَيِّنَات} آيَات الْقُرْآن {لِيُخْرِجكُمْ مِنْ الظُّلُمَات} الْكُفْر {إِلَى النور} الإيمان {وإن الله بكم} في إخراجكم من الكفر إلى الإيمان {لرؤوف رحيم}.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠).

{وما لكم} بَعْد إيمَانكُمْ {أَلَّا} فِيهِ إدْغَام نُون أَنْ فِي لَام لَا {تُنْفِقُوا فِي سَبِيل الله وَلِلَّهِ مِيرَاث السَّمَاوَات وَالْأَرْض} بِمَا فِيهِمَا فَتَصِل إلَيْهِ أَمْوَالكُمْ مِنْ غَيْر أَجْر الْإِنْفَاق بِخِلَافِ مَا لَوْ أَنْفَقْتُمْ فَتُؤْجَرُونَ {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْل الْفَتْح} لِمَكَّة {وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَم دَرَجَة مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْد وَقَاتَلُوا وَكُلًّا} مِنْ الْفَرِيقَيْنِ وَفِي قِرَاءَة بِالرَّفْعِ مُبْتَدَأ {وَعَدَ الله الْحُسْنَى} الْجَنَّة {وَالله بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِير} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١).

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِض الله} بِإِنْفَاقِ مَاله فِي سَبِيل الله {قَرْضًا حَسَنًا} بِأَنْ يُنْفِقهُ لِلَّهِ {فَيُضَاعِفهُ} وَفِي قِرَاءَة فَيُضَعِّفهُ بِالتَّشْدِيدِ {لَهُ} مِنْ عَشْر إلَى أَكْثَر مِنْ سَبْعِمِائَةٍ كَمَا ذُكِرَ فِي الْبَقَرَة {وَلَهُ} مَعَ الْمُضَاعَفَة {أَجْر كَرِيم} مُقْتَرِن بِهِ رِضَا وَإِقْبَال[1].

---

(١) قوله تعالى: {آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [الحديد: ٧]، أي:"آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: آمنوا بالله أيها الناس، فأقرّوا بوحدانيته، وبرسوله محمد ﷺ، فصدقوه فيما جاءكم به من عند الله واتبعوه".

قال الزجاج:"معناه: صَدقوا بأن الله واحد وأن محمدًا رسوله".

قال مقاتل:"يعني: صدقوا بتوحيد الله- تعالى- ورسوله محمد- ﷺ".

قال ابن كثير:"أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار".

عن سعيد بن جبير:"قوله: {آمِنُوا بِاللهِ}، يعني: بتوحيد الله".

قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} [الحديد: ٧]، أي:"وأنفقوا مما رزقكم الله من المال واستخلفكم فيه".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: وأنفقوا مما خوّلكم الله، من المال الذي أورثكم عمن كان قبلكم، فجعلكم خلفاءهم فيه في سبيل الله".

قال ابن كثير:"وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه =

=

وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه. وقوله: {مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان".

عن مجاهد: {مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}، قال: "المعمرين فيه بالرزق".

قال الفراء:"{مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}: مملّكين فِيهِ، وهو رزقه وعطيته".

قال الزجاج:"أي: أنفقوا مما مَلككم، فأنفقوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا يُقَربُ مِنْهُ".

قال الماتريدي: "حضهم على الإنفاق لأنهم يفنون كما فني الذين من قبلهم ويورثون".

قال سهل بن عبد الله:"يعني: ورثكم من آبائكم وملككم، فأنفقوا عيش أنفسكم الطبيعية من الدنيا في طاعته وطاعة رسوله".

عن مُطَرِّف- يعني بن عبد الله بن الشّخّير- عن أبيه قال: "انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر: ١]، يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟» "، وزاد مسلم: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

قوله تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} [الحديد: ٧]، أي:"فالذين آمنوا منكم أيها الناس، وأنفقوا من مالهم، لهم ثواب عظيم".

قال الطبري:"يقول: فالذين آمنوا بالله ورسوله منكم أيها الناس، وأنفقوا مما خولهم الله عمن كان قبلهم، ورزقهم من المال في سبيل الله لهم ثواب عظيم".

قال ابن كثير:"قوله: {فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة".

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ} [الحديد:

=

=

٨]، أي:"وأيُّ عذر لكم في أن لا تصدقوا بوحدانية الله وتعملوا بشرعه، والرسول يدعوكم إلى ذلك".

قال الطبري: يقول: " وما شأنكم أيها الناس لا تقرّون بوحدانية الله، ورسوله محمد ﷺ يدعوكم إلى الإقرار بوحدانيته، وقد أتاكم من الحجج على حقيقة ذلك، ما قطع عذركم، وأزال الشكّ من قلوبكم".

قال ابن كثير:"أي: وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به".

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ «أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟»، قالوا: الملائكة، قال: «وما لهم لا يؤمنون، وهم عند ربهم ﷻ؟»، قالوا: فالنبيون، قال: «وما لهم لا يؤمنون، والوحي ينزل عليهم؟»، قالوا: فنحن، قال: «وما لكم لا تؤمنون، وأنا بين أظهركم؟»، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إلي إيمانا لقوم يكونون من بعدكم، يجدون صحفا فيها كتب يؤمنون بما فيها».

قوله تعالى: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ} [الحديد: ٨]، أي:"وقد أخذ الله ميثاقكم على ذلك".

وفي قوله تعالى: {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ} [الحديد: ٨]، وجهان من التفسير:

أحدهما: يعني بذلك: بيعة الرسول ﷺ. قاله ابن كثير.

الثاني: أنه الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم. وهذا قول مجاهد وبه قال الطبري.

عن مجاهد، قوله: " {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ}، قال: في ظهر آدم".

قال الطبري: يقول: " وقد أخذ منكم ربكم ميثاقكم في صُلب آدم، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه".

=

=
وقرأ أبو عمرو: «وَقَدْ أُخَذَ مِيثاقُكُمْ» بضمّ الألف ورفع الميثاق، على وجه ما لم يسمّ فاعله.

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الحديد: ٨]، أي:"إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم؟".

قال الطبري:"يقول: إن كنتم تريدون أن تؤمنوا بالله يوما من الأيام، فالآن أحرى الأوقات، أن تؤمنوا لتتابع الحجج عليكم بالرسول وإعلامه، ودعائه إياكم إلى ما قد تقرّرت صحته عندكم بالإعلام، والأدلة والميثاق المأخوذ عليكم".

قال الماتريدي: " المعنى: إن كنتم عازمين على الإيمان فهذا أوانه لما ظهر لكم من البراهين والدلائل".

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الحديد: ٩]، أي:"هو الذي ينزل على عبده محمد ﷺ آيات مفصلات واضحات من القرآن".

قال الطبري: يقول: " الله الذي ينزل على عبده محمد {آيَاتٍ} مفصلات".

قال ابن كثير:"أي: حججًا واضحات، ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات".

قوله تعالى: {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الحديد: ٩]، أي:"ليخرجكم بذلك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان".

قال الطبري: يقول: "ليخرجكم أيها الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن الضلالة إلى الهُدى".

قال ابن كثير:"أي: من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان".

عن مجاهد، قوله: {مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، قال: "من الضلالة إلى الهدى".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحديد: ٩]، أي:"إن الله بكم في إخراجكم من الظلمات إلى النور لَيَرْحمكم رحمة واسعة في عاجلكم وآجلكم،
=

=

فيجازيكم أحسن الجزاء".

قال الطبري: يقول:"وإن الله بإنزاله على عبده ما أنزل عليه من الآيات البيِّنات لهدايتكم، وتبصيركم الرشاد، لذو رأفة بكم ورحمة، فمن رأفته ورحمته بكم فعل ذلك".

قال مقاتل:"حين هداكم لدينه وبعث فيكم محمدا- ﷺ- وأنزل عليكم كتابه".

قال ابن كثير:"أي: في إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه".

قال الماتريدي: " أي: حين بين لكم هداكم".

قوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ١٠]، أي:"وأيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله؟ ولله ميراث السموات والأرض يرث كلَّ ما فيهما، ولا يبقى أحد مالكًا لشيء فيهما".

قال الطبري: يقول: " وما لكم أيها الناس أن لا تنفقوا مما رزقكم الله في سبيل الله، وإلى الله صائرٌ أموالكم إن لم تنفقوها في حياتكم في سبيل الله، لأن له ميراث السموات والأرض، وإنما حثهم جل ثناؤه بذلك على حظهم، فقال لهم: أنفقوا أموالكم في سبيل الله، ليكون ذلكم لكم ذخرًا عند الله من قبل أن تموتوا، فلا تقدروا على ذلك، وتصير الأموال ميراثًا لمن له السموات والأرض".

قال الزجاج:"وأي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرب من الله وأنتم ميتون تاركون أموالكم".

قال ابن كثير:"ولما أمرهم أولا بالإيمان والإنفاق، ثم حثهم على الإيمان، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه، حثهم أيضًا على الإنفاق. فقال: أنفقوا ولا تخشَوا فقرًا وإقلالا فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض، وبيده مقاليدهما، وعنده خزائنهما، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ

=

=

فَهُوَ
يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]، وقال {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق، ولم يخش من ذي العرش إقلالا وعلم أن الله سيخلفه عليه".

قال مقاتل:"فالعباد يرث بعضهم بعضا والرب يبقى فيرثهم".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠]، أي:"لا يستوي في الأجر والمثوبة منكم مَن أنفق من قبل فتح «مكة» وقاتل الكفار".

وفي قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ} [الحديد: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: لا يستوي منكم أيها الناس من آمن قبل فتح مكة وهاجر. وهذا قول مجاهد.

قال مجاهد:"آمن فأنفق، يقول: من هاجر ليس كمن لم يهاجر".

قال مجاهد:"يقول: ليس من أنفق وهاجر كمن لم ينفق ولم يهاجر".

الثاني: عني بالفتح فتح مكة، وبالنفقة: النفقة في جهاد المشركين. وهذا قول قتادة.

عن قتادة وابن زيد، في قوله: {مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ}، قالا: "فتح مكة".

قال قتادة:"كان قتالان، أحدهما أفضل من الآخر، وكانت نفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كانت النفقة والقتال من قبل الفتح "فتح مكة" أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك".

قال ابن كثير:"أي: لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة

=

=

كان الحال شديدًا، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا، ودخل الناس في دين الله
أفواجا؛ ولهذا قال: {أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى} . والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة".
قال الثعلبي:"يعني: فتح مكة في قول أكثر المفسرين".
عن أنس قال: "كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي ﷺ فقال: " دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد- أو مثل الجبال- ذهبًا، ما بلغتم أعمالهم".
ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة، وكانت هذه المشاجرة بينهما في بني جَذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: "صبأنا، صبأنا"، فلم يحسنوا أن يقولوا: "أسلمنا"، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمر وغيرهما. فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك.
والذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: " لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه".
الثالث: عني بالفتح في هذا الموضع: صلح الحديبية. وهذا قول الشعبي واختيار الطبري.
عن عامر، في هذه الآية، قوله: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}، قال: "فتح الحديبية، قال: "فصل ما بين العمرتين فتح الحديبية".
قال عامر:"فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية، يقول تعالى ذكره: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ...}، الآية".

=

=

عن عامر، قال: "فصل ما بين الهجرتين فتح الحديبية". وأُنزلت: {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ} .... إلى {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فقالوا: يا رسول الله فتحٌ هو؟ قال: «نَعَمْ عَظِيمٌ»".

عن أبي سعيد الخدريّ، قال، قال لنا رسول الله ﷺ عام الحديبية: "يُوشكُ أنْ يأتي قَوْمٌ تَحْقِرُونَ أعمالَكُمْ مَعَ أعمالِهِمْ، قلنا: من هم يا رسول الله، أقريش هم؟ قال: لا وَلَكِنْ أهْلُ اليَمَن أرَقُّ أفْئِدَةً وألْيَنُ قُلُوبا، فقلنا: هم خير منا يا رسول الله، فقال: لَوْ كانَ لأحَدِهِمْ جَبَلٌ مِنْ ذَهَب فأنْفَقَهُ ما أدْرَكَ مُدّ أحَدِكُمْ وَلا نَصيفَهُ، ألا إنَّ هَذَا فَصْلُ ما بَيْنَنَا وَبَينَ النَّاس، {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ}... الآية، إلى قوله: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}".

وفي رواية عن أبي سعيد التمار: أن رسول الله ﷺ قال: "يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم". قلنا: من هم يا رسول الله؟ قريش؟ قال: "لا ولكن أهل اليمن، لأنهم أرق أفئدة، وألين قلوبًا". وأشار بيده إلى اليمن، فقال: "هم أهل اليمن، ألا إن الإيمان يمان، والحكمة يمانية". فقلنا: يا رسول الله، هم خير منا؟ قال: "والذي نفسي بيده، لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مُدّ أحدكم ولا نصيفه". ثم جمع أصابعه ومد خنصره، وقال: "ألا إن هذا فضلُ ما بيننا وبين الناس، {لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى}".

قال ابن كثير: "فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية فإن كان ذلك محفوظا كما تقدم، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخبارا عما بعده، كما في قوله تعالى في سورة "المزمل"- وهي مكية، من أوائل ما نزل -: {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} الآية [المزمل: ٢٠] فهي بشارة بما يستقبل، وهكذا هذه والله أعلم".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا} [الحديد:

=

=

١٠]، أي:"أولئك أعظم درجة عند الله من الذين أنفقوا في سبيل الله من بعد الفتح وقاتلوا الكفار".

قال الطبري: يقول:"هؤلاء الذين أنفقوا في سبيل الله من قبل فتح الحديبية، وقاتلوا المشركين، أعظم درجة في الجنة عند الله من الذين أنفقوا من بعد ذلك وقاتلوا".

قال الزجاج:"لأن من تقدم في الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وصدق به فهو أفضل ممن أتى بعده بالإيمان والتصديق، لأن المتقدمين نالهم من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، فكانت بصائرهم أيضا أنفذ".

قال ابن عطية:"حكم هذه الآية باق غابر الدهر من أنفق في وقت حاجة السبيل أعظم أجرا ممن أنفق مع استغناء السبيل".

قوله تعالى: {وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى} [الحديد: ١٠]، أي:"وكلا من الفريقين وعد الله الجنة".

قال الطبري: يقول:"يقول تعالى ذكره: وكلّ هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وعد الله الجنة بإنفاقهم في سبيله، وقتالهم أعداءه".

قال البغوي:"أي: كلا الفريقين وعدهم الله الجنة".

قال ابن كثير:"يعني: المنفقين قبل الفتح وبعده، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء كما قال: {لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٥]. وهكذا الحديث الذي في الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير». وإنما نَبَّه بهذا لئلا يُهدرَ جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر، فيتوهم

=

=

متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه، مع تفضيل الأول عليه".
عن مجاهد، وقتادة، في قوله تعالى: " {مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}، قالا: "الجنة".
قال مجاهد:"يعني: الحسنة، والحسنى هي الجنة".
قال عطاء: "درجات الجنة تتفاضل، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها".
قال الزجاج:"إلا أنه أعلم فضل السابق إلى الإيمان على المتأخر".
قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [الحديد: ١٠]، أي:"والله بأعمالكم خبير لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم عليها".
قال مقاتل:"بما أنفقتم من أموالكم".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله بما تعملون من النفقة في سبيل الله، وقتال أعدائه، وغير ذلك من أعمالكم التي تعملون خبير، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميع ذلك يوم القيامة".
قال ابن كثير:"أي: فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل، ومن فعل ذلك بعد ذلك، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق. وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف»ـ ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر، رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله، عز وجل، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها".
قال ابن عطية:"قوله تعالى: {وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، قول فيه وعد ووعيد".
قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد: ١١]، أي:"من ذا الذي ينفق في سبيل الله محتسبًا من قلبه بلا مَنٍّ ولا أذى".
وفي قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد: ١١]، وجوه من

=

=

التفسير:

أحدهما: أنه الإنفاق في سبيل الله، قال عمر بن الخطاب وبه قال الطبري.

قال الطبري:"من هذا الذي ينفق في سبيل الله في الدنيا، محتسبا في نفقته، مبتغيًا ما عند الله، وذلك هو القرض الحسن".

الثاني: أنه النفقة على العيال. حكاه ابن كثير.

قال ابن كثير:"والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية".

قال الحسن البصري: "كلّ ما في القرآن مِن القرْض الحسن فهو التطُّوع".

عن أبي حيان، عن أبيه:"عن شيخ لهم أنه كان إذا سمع السائل يقول: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا}، فقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، هذا القرض".

قوله تعالى: {فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} [الحديد: ١١]، أي:"فيضاعف له ربه الأجر والثواب".

قال الطبري:"يقول: فيضاعف له ربه قرضه ذلك الذي أقرضه، بإنفاقه في سبيله، فيجعل له بالواحدة سبع مئة".

قوله تعالى: {وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: ١١]، أي:"وله جزاء كريم، وهو الجنة".

قال الطبري:"يقول: وله ثواب وجزاء كريم، يعني بذلك الأجر: الجنة".

قال ابن كثير:"أي: جزاء جميل ورزق باهر- وهو الجنة- يوم القيامة".

عن ابن جريج، في قوله: " {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، قال: كل شيء في القرآن: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ}، {ورِزْقٌ كَرِيمٌ} فهو الجنة.

قال العثيمين: قوله تعالى: {آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه} {آمنوا}ـ الخطاب للعباد كلهم، {بالله} رب العالمين {ورسوله} محمد

=

=

صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والأمر هنا للوجوب الذي هو أشد أنواع الوجوب تحتمًا، والإيمان بالله أن تؤمن بأنه رب العالمين، وأن تؤمن بأنه الإله المعبود حقًّا الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأن تؤمن بأن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، وأن تؤمن بأنه الفعال لما يريد، وأن تؤمن أنه لا معقب لحكمه وهو السميع العليم، وأن تؤمن أن مرجع الخلائق إليه في الأحكام الشرعية والأحكام الكونية، فمن يدبر الخلق إلا الله ﷻ والذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون هو الله ﷻ {ورسوله} محمد عليه الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى إلى جميع الخلق والإنس والجن. وختم به النبوات، فلا نبي بعده، والدليل {ما كان محمد أبآ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليمًا}.

يعني كان رسول الله خاتم النبيين فلا نبي بعده، فمن ادعى النبوة بعده فهو كافر، يجب أن يقص عنقه إلا أن يتوب ويرجع، {وأنفقوا} ـ الإنفاق البذل، {مما جعلكم مستخلفين فيه} يعني المال؛ لأن الله جعلنا مستخلفين في المال فهو الذي ملكنا إياه، فلا منة لنا على الله بما ننفق، بل المنة لله علينا بما أعطى، والمنة له علينا بما شرع لنا من الإنفاق، ولولا أن الله شرع لنا أن ننفق لكان الإنفاق ضياعًا وبدعة، ولكن شرع لنا أن ننفق، فلله تعالى المنة أولًا فيما ملكنا من المال، وله المنة ثانيًا بما شرع لنا من إنفاقه، وله المنة ثالثًا بالإثابة عليه {فالذين آمنوا منكم} أي: آمنوا بالله ورسوله؛ لأنه قال: {آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا} أي مما جعلهم مستخلفين فيه، {لهم أجر كبير} ـ والآيات في هذا كثيرة {لهم أجر كبير} ـ {ولهم أجر عظيم} {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها} ـ فوصف الله الأجور على العمل بأنه كبير عظيم كثير، الكثير نأخذه من قوله: {من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها} وبهذا نعرف منة الله علينا: يأمرنا بالعمل ونعمل به ويأجرنا عليه أجرًا كثيرًا، أجرًا عظيمًا، أجرًا كبيرًا، منة عظيمة كبيرة، فعلينا أن نشكر الله، وأن ننفق مما جعلنا مستخلفين

=

=

فيه، فهل ننفق كل ما نملك أو بعض ما نملك؟ قال الله تعالى: {وأنفقوا مما} ومن هذه هل هي للتبعيض أو هي لبيان ما ينفق منه إذا كانت للتبعيض فالمعنى أنفقوا بعض ما رزقكم وليس كله.

إذا جعلناها للبيان، فالمعنى أنفقوا مما جعلكم حسب ما تقتضيه المصلحة: إما الكل وإما البعض، والأحسن أن تجعل {مما} للبيان، وإذا جعلناها للبيان صار الإنسان مخيرًا ينفق كل ماله، أو بعض ماله، أكثره أو أقله، حسب ما تقتضيه المصلحة، ومعلوم أنه كلما كان المعنى أوسع كان الأخذ به كان أولى، والقرآن الكريم العظيم معانيه واسعة عظيمة، ولذلك حث النبي ﷺ مرة على الصدقة، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتسابقون إلى الخير، كل واحد يحب أن يكون هو السابق، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اليوم أسبق أبا بكر؛ لأن هذين الرجلين هما أخص الصحابة بالرسول عليه الصلاة والسلام، وأحب الصحابة إلى الرسول ﷺ، والنبي ﷺ يحب أبا بكر أشد من حب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن عمه وزوج ابنته، لكن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحبه أشد وأكثر، فقد سئل: من أحب الناس إليك؟ قال: «أبو بكر » وقال: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر »

والمهم أن عمر كان هو وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كفرسي رهان، يحب أن يسبقه لا حسدًا لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولكن حبًّا للفضل لنفسه، قال: اليوم أسبق أبا بكر، فجاء بنصف ماله لينفقه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: يا عمر، «ماذا تركت لأهلك» ؟ قال: تركت لهم الشطر، يعني النصف، وجاء أبو بكر فقال: «ما تركت لأهلك» ؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، أي أتى بكل ماله، فقال عمر: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والله لا أسابقك على شيء بعد هذا. عرف أنه يعجز أن يسبق أبا بكر، والشاهد من هذا الحديث أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تصدق بجميع ماله، فإذا رأى الإنسان المصلحة في أن يتصدق بجميع

=

=

ماله، وأن عنده من قوة التوكل والاعتماد على الله واكتساب الرزق ما يمكنه أن يسترد شيئًا من المال لأهله ونفسه، فحينئذ نقول: تصدق بجميع مالك، وإذا كان الأمر بالعكس فكان رجلًا أخرق لا يعرف أن يكتسب، وليس هناك داع أن ينفق كثيرًا، فهنا نقول: الأولى أن تنفق بعض المال، وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحقق إيمانه ويثبته، وكلما رأى فيه تزعزعًا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ومضى إلى سبيله، وأن ينفق من المال، والمال محبوب قال الله تعالى: {وتحبون المال حبًا جمًا} وقال ﷻ: {وإنه لحب الخير لشديد} ولا يمكن أن يبذل الإنسان شيئًا محبوبًا إليه إلا لما هو أحب، فإذا بذل الإنسان المحبوب إليه ابتغاءً لرضوان الله، علمنا أن الرجل يحب رضوان الله أكثر من المال، وبذلك يتحقق الإيمان، أسأل الله تعالى أن يجعلنا من ذوي العلم الراسخ والإيمان الثابت، إنه على كل شيء قدير.

{وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين} هذا معطوف على الآية التي قبلها وهي {آمنوا بالله ورسوله} {وما لكم لا تؤمنون بالله} يعني أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان به، وذلك بدعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال ﷻ: {والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم} يعني أخذ الله تعالى العهد أن تؤمنوا به وبرسوله، فصار هناك سببان للإيمان، الأول: دعوة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إليه، والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا، وذلك بما أعطانا ﷻ من الفطرة والعقل والفهم الذي ندرك به ما ينفعنا ويضرنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صح الحديث الوارد في ذلك

المهم أن الله تعالى ينكر على من لم يؤمن فيقول: ما الذي حملك على أن لا

=

=

تؤمن، وقد تمت أسباب وجوب الإيمان بدعوة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وبأخذ الميثاق {إن كنتم مؤمنين} يعني إن كنتم مؤمنين فالزموا الإيمان بالله ورسوله، {هو الذي ينزل على عبده ءايات بينات} لما ذكر أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو إلى الإيمان بين أنه نزل عليه ﷺ {ءايات} أي: علامات دالة على صدقه، وأن ما جاء به هو الحق، {بينات} ظاهرات بما اشتملت عليه من القصص النافعة، والأخبار الصادقة، والأحكام العادلة، والفصاحة التامة، والبيان العجيب، حتى إن العرب وهم أئمة البلاغة وأمراؤها تحداهم الله ﷻ عدة مرات أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطيعوا، {ليخرجكم من الظلمات إلى النور} قوله: {ليخرجكم} يحتمل أن يكون المراد بذلك الرسول ﷺ أي يكون سببًا في إخراجكم من الظلمات إلى النور، ويحتمل أن يعود إلى الله ﷻ أي ليخرجكم الله تعالى بهذه الآيات من الظلمات إلى النور، وكلا المعنيين حق، قال الله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} وقال الله تعالى: {الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} فالنبي ﷺ سبب في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأما المخرج حقيقة فهو الله ﷻ، والمراد بالظلمات: ظلمات الجهل، وظلمات الشرك، وظلمات العدوان، وظلمات العصيان، وكل ما خالف الحق فهو ظلمة، وكل ما وافقه فهو نور، {وإن الله بكم لرءوف رحيم}ـ هذه الجملة خبرية مؤكدة بإن، واللام {لرءوف رحيم} الرأفة أرق الرحمة، والرحمة أعم، فهو ﷻ رؤوف رحيم، أي ذو رحمة بالمؤمنين كما قال تعالى: {وكان بالمؤمنين رحيمًا} ورحمة الله سبحانه وتعالى إما

عامة وإما خاصة، فالعامة الشاملة لجميع الناس، والخاصة بالمؤمنين، كما قال ﷻ: {وكان بالمؤمنين رحيمًا} فإذا قال قائل: أي رحمة من الله للكافر؟

=

=

فالجواب: أمده بأنعام وبنين، وعقل، وأمن، ورزق، بل الكفار قد عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا قال الله ﷻ: {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دآبة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى} فإذا سألك سائل: هل لله رحمة على الكافر؟ لا تقل: نعم ولا لا، أما بالمعنى العام فنعم رحمة، ولولا رحمة الله به لهلك، وأما بالمعنى الخاص فلا، الرحمة الخاصة للمؤمنين فقط قال ﷻ: {وكان بالمؤمنين رحيمًا} {وإن الله بكم لرءوف رحيم} ولما أمرنا أن ننفق مما جعلنا مستخلفين قال: {وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله} يعني أي شيء يمنعهم، والإنفاق في سبيل الله يشمل كل شيء أمر الله بالإنفاق فيه، ففي سبيل الله هنا عامة، وعليه يدخل في ذلك الإنفاق على النفس، والإنفاق على الزوجة، والإنفاق على الأهل، والإنفاق على الفقراء واليتامى، والإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فكل ما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه فهو داخل في هذه الآية حتى إنفاقك على نفسك صدقة، وإنفاقك على زوجك صدقة، ولكن لاحظ النية، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها».

فلزم هذا القيد، لابد أن تبتغي بها وجه الله إلا أجرت، أي: أثبت عليها، {ولله ميراث السماوات والأرض} يعني كيف لا تنفق والذي سيرث السماوات والأرض هو الله، ومن جملة ذلك مالك الذي بخلت به سيرثه الله ﷻ وترجع الأمور كلها لله سبحانه وتعالى. قال أهل العلم: إن الشح في إنفاق المال سفه في العقل، لأن هذا المال إما أن يفنى في حياتك فتعدمه، وإما أن يبقى بعد موتك فإذا ورث مالك من بعدك فإما أن يرثه صالح فيكون أسعد به منك، وإما أن يرثه مفسد فتكون خلفت له ما يستعين به على إفساده، فإذا خلفت المال فإما أن تخلفه إلى من ينفقه في سبيل الله فيكون هو أسعد بمالك منك، وإما أن تخلفه لمفسد يستعين

=

=

به على معصية الله فتكون أعنته على معصية الله، بما خلفت له من المال، إذن اللائق بك أن تنفقه في سبيل الله حتى يكون لك غنم وتسلم من غائلته لو ورثه من يفسد به، فتذكر يا أخي عندما تفكر في الإنفاق فيأتيك الشيطان فيأمرك بالبخل ويعدك الفقر، فكر أنك إذا خلفت هذا المال فلابد أن يورث، لن يدفن معك، لابد أن يورث ويكون الإرث دائرًا بين الأمرين السابقين.

{لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل} دين الإسلام دين العدل في العمل والجزاء، وانتبه دين العدل في العمل والجزاء وليس كما يقول المحدَثون: «إنه دين المساواة»- هذا غلط عظيم، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة، حتى يقول: المرأة والرجل، والمؤمن والكافر سواء، ولا فرق، وسبحان الله إنك لن تجد في القرآن كلمة المساواة بين الناس، بل لابد من فرق، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} وآيات كثيرة، فاحذر أن تتابع فتكون كالذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، بدل من أن تقول: (الدين الإسلامي دين مساواة) قل: (دين العدل الذي أمر الله به، يعطي كل ذي حق حقه)- أرأيت المرأة مع الرجل في الإرث، وفي الدية، وفي العقيقة، وفك الرهان يختلفون. وفي الدين: المرأة ناقصة إذا حاضت لم تصل ولم تصم، وفي العقل المرأة ناقصة: شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهلم جرا، والذين ينطقون بكلمة مساواة إذا قررنا هذا وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية ألزمونا بالمساواة في هذه الأمور، وإلا لصرنا متناقضين، فنقول: دين الإسلام هو دين العدل يعطي كل إنسان ما يستحق، حتى جاء في الحديث: «أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود» يعني إذا أخطا الإنسان الشريف الوجيه في غير الحدود فاحفظ عليه كرامته وأقله، هذا الذي تقيله إذا كان من الشرفاء، إقالتك إياه أعظم تربية من أن تجلده ألف جلدة، لأنه كما قيل: الكريم إذا أكرمته ملكته، لكن

=

لو وجد إنسان فاسق ماجن فهذا اشدد عليه العقوبة وأعزره، ولهذا لما كثر شرب الخمر في عهد عمر بن الخطاب ﵁ ضاعف العقوبة بدل أربعين جعلها ثمانين ـ كذلك الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن: «من شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاجلدوه، ثم إن شرب فاقتلوه» ـ لأن لا فائدة في جلده، ثلاث مرات نعاقبه ولا فائدة إذن خير له ولغيره أن يقتل، وإذا قتلناه استراح من الإثم، كما قال الله ﷻ: {ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأَنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين} والخلاصة أن التعبير بأن دين الإسلام دين ااساواة غلط وليس بصحيح، بل هو دين العدل ولا شك، والعجب أن هؤلاء الذين يقولون هذا الكلام، يقولون إن النبي ﷺ قال: «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فيتناقضون، والحديث لم ينف مطلقًا، وإنما قال: «إلا بالتقوى» فهم يختلفون بالتقوى، ثم إن هذا الحديث لا يصح عن النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه قال: «إن الله اصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم » ففضل، ولا شك أن جنس العرب أفضل من جنس غير العرب لا شك عندنا في هذا، والدليل على هذا أن الله جعل في العرب أكمل نبوة ورسالة، محمد ﷺ، وقد قال الله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} فالأجناس تختلف، وقال عليه الصلاة والسلام: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » فاحذر أن تتابع في العبارات التي ترد من المحدِثين المحدَثين حتى تتأملها وما فيها من الإيحاءات التي تدل على مفاسد ولو على المدى البعيد، أسأل الله أن يهدينا صراطه المستقيم وأن يتولانا في الدنيا والآخرة، إنه على كل شيء قدير.

{لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا} أي: لا يكونوا سواء، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية

=

الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين قريش، وذلك في ذي القعدة من عام ستة من الهجرة، وسمي فتحًا، لأنه صار فيه توسيع للمسلمين وتوسيع أيضًا للمشركين. واختلط الناس بعضهم ببعض، وأمن الناس بعضهم بعض حتى يسر الله ﷻ أن نقضت قريش العهد، فكان من بعد ذلك الفتح الأعظم، فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان قال الله ﷻ: {أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا} وذلك لأن الأولين أنفقوا وقاتلوا وسبقوا إلى الإسلام وكان الإسلام في حاجة لهم ولإنفاقهم، فكانوا أفضل ممن أنفق من بعد وقاتل، والله سبحانه وتعالى يجزي بالعدل بين عباده، ولكن لما كان تفضيل السابقين قد يفهم منه أن لا فضل للاحقين قال: {وكلا وعد الله الحسنى} أي: كل من الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، والذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وعدهم الله الحسنى، يعني الجنة، {والله بما تعملون خبير} أي: عليمببواطن أموركم كظواهركم لا يخفى عليه شيء، وإذا كان عالمًا بها فسوف يجازي- جل وعلا- كل عامل بما عمل، قال الله تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره}.

ثم قال ﷻ: حاثًّا ومرغبًا في الإنفاق في سبيله، فقال: {من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له} أي: أين الذين يقرضون الله قرضًا حسنًا، أي: ينفقون فيما أمرهم بالإنفاق فيه، وأشار الله في هذا إلى شيئين: إلى الإخلاص في قوله، {من ذا الذي يقرض الله} يعني لا يرى سوى الله ﷻ والمتابعة في قوله: {حسنًا}؛ لأن العمل الحسن ما كان موافقًا للشريعة الإسلامية، والإخلاص والمتابعة هما شرطان في كل عمل: أن يكون مخلصًا لله، وأن يكون متابعًا فيه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ووصف الله تعالى الإنفاق في سبيله بالقرض تشبيهًا بالقرض الذي يقرضه الإنسان غيره، لأنك إذا أقرضت غيرك فإنك واثق من أنه

=

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢).

اُذْكُرْ {يَوْم تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَات يَسْعَى نُورهمْ بَيْن أَيْدِيهمْ} أَمَامهمْ {و} يَكُون {بِأَيْمَانِهِمْ} وَيُقَال لهم {بشراكم اليوم جنات} أي ادخلوها {تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣).

{يَوْم يَقُول الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَات لِلَّذِينَ آمَنُوا اُنْظُرُونَا} أَبْصِرُونَا وَفِي قِرَاءَة بِفَتْحِ الْهَمْزَة وَكَسْر الظَّاء أَمْهِلُونَا {نَقْتَبِس} نَأْخُذ الْقَبَس وَالْإِضَاءَة {مِنْ نُوركُمْ قيل} لهم استهزاء بهم {ارجعوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} فَرَجَعُوا {فَضُرِبَ بَيْنهمْ} وَبَيْن الْمُؤْمِنِينَ {بِسُورٍ} قِيلَ هُوَ سُور الْأَعْرَاف {لَهُ بَاب بَاطِنه فِيهِ

=

سيرده عليك، هكذا أيضًا العمل الصالح سيرد على الإنسان بلا شك، بل {فيضاعفه له} والمضاعفة هنا الزيادة، وقد بين الله تبارك وتعالى قدرها في سورة البقرة، فقال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء} فأنت إذا أنفقت درهمًا فجزاؤه سبعمائة درهم، ثوابًا من عند الله ﷻ والله فضله أكثر من عدله وأوسع، ورحمته سبقت غضبه، فيضاعفه له إلى سبعمائة بل إلى أكثر كما جاء في الحديث إلى أضعاف كثيرة، {وله أجر كريم}- أي: حسن واسع، وذلك فيما يجده في الجنة، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الرَّحْمَة} مِنْ جِهَة الْمُؤْمِنِينَ {وظاهره} من جهة المنافقين {من قبله العذاب}.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (١٤).

{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} عَلَى الطَّاعَة {قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسكُمْ} بِالنِّفَاقِ {وَتَرَبَّصْتُمْ} بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِر {وَارْتَبْتُمْ} شَكَكْتُمْ فِي دِين الْإِسْلَام {وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيّ} الْأَطْمَاع {حَتَّى جَاءَ أَمْر الله} الْمَوْت {وَغَرَّكُمْ بِاَللهِ الْغَرُور} الشَّيْطَان.

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥).

{فَالْيَوْم لَا يُؤْخَذ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء {مِنْكُمْ فِدْيَة وَلَا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمْ النَّار هِيَ مَوْلَاكُمْ} أَوْلَى بِكُمْ {وَبِئْسَ الْمَصِير} هِيَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: ١٢]، أي:"يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم على الصراط بين أيديهم وعن أيمانهم، بقدر أعمالهم".

قال الطبري: أي:"وكلا وعد الله الحسنى، يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يمضي ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم تتطاير".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم في عَرصات القيامة، بحسب أعمالهم".

قال الزمخشري:"وإنما قال بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ لأنّ السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم، فجعل النور في الجهتين شعارا لهم وآية، لأنهم هم الذين

=

=

بحسناتهم سعدوا وبصحائفهم البيض أفلحوا، فإذا ذهب بهم إلى الجنة ومروا على الصراط يسعون، سعى بسعيهم ذلك النور جنيبا لهم ومتقدما".

عن الحسن في قوله: {يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} يعني: "على الصراط".

عن جُنَادة بن أمية قال: "إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم، وسيماكم وحُلاكم، ونجواكم ومجالسكم، فإذا كان يوم القيامة قيل: يا فلان، هذا نورك. يا فلان، لا نور لك. وقرأ: {يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}".

وفي قوله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [الحديد: ١٢]، وجهان من التفسير:

أحدهما: معناه: يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يضيء نورهم بين أيديهم وبأيمانهم. وهذا قول عبد الله بن مسعود وقتادة.

قال قتادة:"ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: "من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين فصنعاء، فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه".

قال عبد الله:"عن عبد الله، قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نورا على إبهامه يطفأ مرة ويقد مرة".

الثاني: معناه: يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى إيمانهم وهداهم بين أيديهم، وبأيمانهم: كتبهم. وهذا قول الضحاك.

عن الضحاك في قوله: " {يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} : كتبهم، يقول الله: فأما من أوتي كتابه بيمينه، وأما نورهم فهداهم".

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك، وذلك أنه لو عنى بذلك النور الضوء المعروف، لم يخص عنه الخبر بالسعي بين

=

=

الأيدي والأيمان دون الشمائل، لأن ضياء المؤمنين
الذي يؤتونه في الآخرة يضيء لهم جميع ما حولهم، وفي خصوص الله جلّ ثناؤه الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم دون الشمائل، ما يدلّ على أنه معنّى به غير الضياء، وإن كانوا لا يخلون من الضياء".

قوله تعالى: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الحديد: ١٢]، أي:"ويقال لهم: بشراكم اليوم دخول جنات واسعة تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يقال لهم: بشارتكم اليوم أيها المؤمنون التي تبشرون بها، جنات تجري من تحتها الأنهار، فأبشروا بها".

قال ابن كثير: " أي: يقال لهم: بشراكم اليوم جنات، أي: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار".

قال الزمخشري:"ويقول لهم الذين يتلقونهم من الملائكة. {بُشْراكُمُ الْيَوْم}".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا} [الحديد: ١٢]، أي:"لا تخرجون منها أبدًا".

قال الطبري:"يقول: ماكثين في الجنات، لا ينتقلون عنها ولا يتحولون".

قال ابن كثير: " أي: ماكثين فيها أبدًا".

عن سعيد بن جبير: " {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

=

=

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الحديد: ١٢]، أي:"ذلك الجزاء هو الفوز العظيم لكم في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: خلودهم في الجنات التي وصفها، هو النجح العظيم الذي كانوا يطلبونه بعد النجاة من عقاب الله، ودخول الجنة خالدين فيها".

عن أبي مالك، قوله: " {ذلك}، يعني: هذا".

قال سعيد بن جبير: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} [الحديد: ١٣]، أي:"يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا، وهم على الصراط: انتظرونا نستضئ من نوركم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هو الفوز العظيم في يوم يقول المنافقون والمنافقات، للذين آمنوا بالله ورسله: انظرونا نستصبح من نوركم".

قال ابن كثير: " هذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله، وعمل بما أمر الله، به وترك ما عنه زجر".

قال الزمخشري:"{انْظُرُونا}، أي: انتظرونا، لأنهم يسرع بهم إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم. وهؤلاء مشاة. وانظروا إلينا، لأنهم إذا نظروا اليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به".

عن سليم ابن عامر قال: "خرجنا على جنازة في باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلي، فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها، قال أبو أمامة: أيها الناس، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر، وهو هذا يشير إلى القبر- بيت الوحدة، وبيت الظلمة، وبيت الدود، وبيت الضيق، إلا ما وسع الله، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم

=

=

القيامة، فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس في أمر من الله، ف تبيض وجوه وتسود وجوه، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر تغشى الناس ظلمة شديدة، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورا، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئا وهو المثل الذي ضربه الله في كتابه قال: أو كظلمات في بحر لجي إلى قوله: فما له من نور فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن، كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون... للذين آمنوا: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم} [الحديد: ١٣]، {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} [الحديد: ١٣]، وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم} [النساء: ١٤٢]، فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور. فلا يجدون شيئا، فينصرفون إليهم وقد ضرب {بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَاب} [الحديد: ١٣].. الآية، يقول سليم بن عامر: فما يزال المنافق مغترا حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق".

وقرئ: «أنظرونا»، من النظرة وهي الإمهال: جعل اتئادهم في المضي إلى أن يلحقوا بهم إنظارا لهم.

قوله تعالى: {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} [الحديد: ١٣]، أي:"فتقول لهم الملائكة -على وجه السخرية منهم-: ارجعوا وراءكم فاطلبوا نورًا".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: فيجابون بأن يقال لهم: ارجعوا من حيث جئتم، واطلبوا لأنفسكم هنالك نورًا، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا".

قال الزمخشري:"طرد لهم وتهكم بهم، أي: ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنالك، فمن ثم يقتبس. أو ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا نورا بتحصيل سببه وهو الإيمان. أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا، فالتمسوا نورا آخر، فلا سبيل لكم إلى هذا النور، وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو تخييب

=

=

وإقناط لهم".

قال ابن عباس:"بينما الناس في ظلمة، إذ بعث الله نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة؛ فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا، تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انظرونا نقتبس من نوركم، فإنا كنا معكم في الدنيا؛ قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور".

قوله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ} [الحديد: ١٣]، أي:"فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجزٍ له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار".

وفي قوله تعالى: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ} [الحديد: ١٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أنه حائط بين الجنة والنار، قاله الحسن وقتادة. وبه قال الطبري.

قال الطبري:"فضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بسُور، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار".

قال قتادة:"السور: حائط بين الجنة والنار".

الثاني: أنه حجاب في الأعراف، قاله مجاهد وابن زيد. وبه قال ابن كثير.

قال يحيى: "والأعراف جبل أحد فيما بلغني يمثل يوم القيامة بين الجنة والنار".

عن مجاهد، في قوله: {بِسُورٍ لَهُ بَابٌ}، قال: "كالحجاب في الأعراف".

عن مجاهد: " {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ} تفسيره: السُّور: الأعراف".

قال مجاهد:"إن المنافقين كانوا مع المؤمنين أحياء في الدنيا يناكحونهم ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة فيطفأ نور المنافقين إذا بلغوا السور يماز بينهم يومئذ، والسور كالحجاب في الأعراف، فيقولون: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}

=

=

[الحديد: ١٣]".

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد، في قوله: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ}، قال: هذا السور الذي قال الله: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ}".

الثالث: أنه سور المسجد الشرقي، بيت المقدس. قاله عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وكعب الأحبار.

روي عن علي بن عبد الله بن عباس:"عند وادي جهنم، فحدث عن أبيه قال: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَاب} [الحديد: ١٣] فقال: «هذا موضع السور عند وادي جهنم»".

عن شريح:"أن كعبا كان يقول في الباب الذي في بيت المقدس: إنه الباب الذي قال الله {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}".

عن أبي العوّام مؤذّنِ بيت المقدس، قال: "سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن السور الذي ذكره الله في القرآن: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}، هو السور الشرقيّ، باطنه المسجد، وظاهره وادي جهنم".

قال ابن كثير:"وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالا لذلك، لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم؛ فإن الجنة في السموات في أعلى عليين، والنار في الدركات أسفل سافلين. وقول كعب الأحبار: إن الباب المذكور في القرآن هو باب الرحمة الذي هو أحد أبواب المسجد، فهذا من إسرائيلياته وتُرّهاته. وإنما المراد بذلك: سورٌ يُضْرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دُخولهم أغلق

=

=

الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة".

قوله تعالى: {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣]، أي:"في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمةُ وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النارُ".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لذلك السور باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبل ذلك الظاهر العذاب: يعني النار".

عن الحسن:"{باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ} قال: الجنة، {وظاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذابُ} قال: النار".

عن قتادة: " {وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}، أي: النار".

عن ابن زيد، في قوله: {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ}، قال: الجنة وما فيها".

عن أبي فاخِتة، قال: "يجمع اللهُ الخلائقَ يوم القيامة، ويُرسل الله على الناس ظُلمةً، فيستغيثون ربَّهم، فيؤتي الله كلَّ مؤمن يومئذ نورًا، ويؤتي المنافقين نورًا، فينطلِقون جميعًا متوجّهين إلى الجنة معهم نورهم، فبينما هم كذلك إذ طفَأ الله نور المنافقين، فيتردّدون في الظّلمة، ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم، فينادونهم: {انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ}، {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ} حيث ذهب المؤمنون {فِيهِ الرَّحْمَةُ} ومن قِبَله الجنة، ويناديهم المنافقون: {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}. قالوا: {بَلى ولَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أنْفُسَكُمْ وتَرَبَّصْتُمْ وارْتَبْتُمْ}. فيقول المنافقون بعضهم لبعض، وهم يَتَسَكَّعُون في الظُّلمة: تعالوا نلتمسْ إلى المؤمنيين سبيلًا، فيَسْقُطون على هُوّةٍ، فيقول بعضهم لبعض: إنّ هذا ينفُقُ بكم إلى المؤمنين. فيتهافتون فيها، فلا يزالون يهوون فيها حتى ينتهوا إلى قَعْرِ جهنم، فهنالك خُدع المنافقون كما قال الله: {وهُوَ خادِعُهُمْ} [النساء: ١٤٢]".

=

=

قوله تعالى: {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} [الحديد: ١٤]، أي:"ينادي المنافقون المؤمنين قائلين: ألم نكن معكم في الدنيا، نؤدي شعائر الدين مثلكم؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ينادي المنافقون المؤمنين حين حُجز بينهم بالسور، فبقوا في الظلمة والعذاب، وصار المؤمنون في الجنة، ألم نكن معكم في الدنيا نصلي ونصوم، ونناكحكم ونوارثكم؟".

قال ابن كثير:"أي: ينادي المنافقون المؤمنين: أما كنا معكم في الدار الدنيا، نشهد معكم الجمعات، ونصلي معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدي معكم سائر الواجبات".

قال الشوكاني:"أي: موافقين لكم في الظاهر، نصلي بصلاتكم في مساجدكم، ونعمل بأعمال الإسلام مثلكم، والجملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قال المنافقون بعد ضرب السور بينهم وبين المؤمنين؟ فقال: ينادونهم".

قال السعدي: أي:"نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟".

قال الزمخشري:"يريدون موافقتهم في الظاهر".

قوله تعالى: {قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ} [الحديد: ١٤]، أي:"قال المؤمنون لهم: بلى قد كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق والمعاصي".

قال الطبري:"يقول: قال المؤمنون: بلى، بل كنتم كذلك، ولكنكم فَتَنْتمْ أنفسكم، فنافقتم، وفِتْنَتهم أنفسَهم في هذا الموضع كانت النفاق".

قال الزمخشري:"محنتموها بالنفاق وأهلكتموها".

قال بعض السلف: "أي: فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات".

قال أبو سنان [سعيد بن سنان البرجمي]: " {فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ} : بالمعاصي".

=

=

عن مجاهد، قوله: {فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ}، قال: "النفاق، وكان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم، ويغشَوْنهم، ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتًا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة، فيطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ".

قوله تعالى: {وَتَرَبَّصْتُمْ} [الحديد: ١٤]، أي:"وتربصتم بالنبي الموت وبالمؤمنين الدوائر".

قال الطبري:"يقول: وتلبثتم بالإيمان، ودافعتم بالإقرار بالله ورسوله".

قال الزمخشري:"بالمؤمنين الدوائر".

عن ابن زيد، قوله: {وَتَرَبَّصْتُمْ}، قال: "بالإيمان برسول الله ﷺ، وقرأ: {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ}".

عن قتادة: " {وَتَرَبَّصْتُمْ}، يقول: تربصوا بالحق وأهله".

قال أبو سنان [سعيد بن سنان البرجمي]::"{وَتَرَبَّصْتُمْ} بالتوبة".

قوله تعالى: {وَارْتَبْتُمْ} [الحديد: ١٤]، أي:"وشككتم في البعث بعد الموت".

قال الطبري:"يقول: وشككتم في توحيد الله، وفي نبوّة محمد ﷺ".

قال ابن كثير:"أي: بالبعث بعد الموت".

قال السعدي: " أي: شككتم في خبر الله الذي لا يقبل شكا".

عن ابن زيد، قوله: {وَارْتَبْتُمْ}، قال:"شكوا".

قال أبو سنان [سعيد بن سنان البرجمي]::"{وَارْتَبْتُمْ} شككتم".

قال قتادة:"كانوا في شكّ من الله".

قوله تعالى: {وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ} [الحديد: ١٤]، أي:"خدعتكم الأماني الفارغة بسعة رحمة الله".

قال الطبري:"يقول: وخدعتكم أمانيّ نفوسكم، فصدتكم عن سبيل الله، وأضلتكم".

=

=

قال الزمخشري:"طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار".

قال ابن كثير:"أي: قلتم: سيغفر لنا. وقيل: غرتكم الدنيا".

قال السعدي: " حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين".

عن عكرمة: {وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ}، قال: " التَّسْوِيف".

قال أبو سنان [سعيد بن سنان البرجمي]:"قلتم: سيُغفر لنا".

قوله تعالى: {حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ} [الحديد: ١٤]، أي:"وبقيتم على ذلك حتى جاءكم الموت".

قال الطبري:"يقول: حتى جاء قضاء الله بمناياكم، فاجتاحتكم".

قال ابن كثير:"أي: ما زلتم في هذا حتى جاء الموت".

قال السعدي: " أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة".

عن أبي سنان [سعيد بن سنان البرجمي]:"{حَتّى جاءَ أمْرُ اللهِ} قال: الموت".

عن شريك بن عبد الله -من طريق فضيل بن عبد الوهاب- في قوله- ﷻ -: {حَتّى جاءَ أمْرُ اللهِ}، قال: الموت".

قال قتادة:"كانوا على خدعة من الشيطان، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار".

قوله تعالى: {وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ} [الحديد: ١٤]، أي:"وخدعكم بالله الشيطان".

قال الطبري:"يقول: وخدعكم بالله الشيطان، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته، والسلامة من عذابه".

قال الزمخشري:"وغرّكم الشيطان بأنّ الله عفوّ كريم لا يعذبكم".

قال السعدي: " الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأننتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره".

=

=

عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد، في قوله: {وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُور}، أي: "الشيطان".

عن أبي سنان:"{وغَرَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ}، قال: الشيطان". وروي عن شريك بن عبد الله مثله.

عن عكرمة -من طريق يحيى بن يمان، عن شيخ- في قوله تعالى: " {وغركم بالله الغرور}، قال: الشيطان".

قال ابن كثير:"ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين: إنكم كنتم معنا أي: بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تُراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلا، وهذا القول من المؤمنين لا ينافي قولهم الذي أخبر الله به عنهم، حيث يقول- وهو أصدق القائلين -: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} [المدثر: ٣٨- ٤٧]، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ".

قال الحسن:"يعطى المؤمن يوم القيامة نورا ويعطى المنافق نورا يمشون به حتى ينتهوا إلى الصراط، فإذا انتهوا إلى الصراط مضى المؤمنون بنورهم ويطفي نور المنافقين، ف {ينادونهم ألم نكن معكم}؟ {قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور}، قال الحسن: فتلك خديعة الله إياهم".

قوله تعالى: {فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحديد: ١٥]، أي:"فاليوم لا يُقبل من أحد منكم -أيها المنافقون- عوض؛ ليفتدي به من عذاب الله، ولا من الذين كفروا بالله ورسوله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل المؤمنين لأهل النفاق، بعد أن ميز

=

=

بينهم في القيامة: {فَالْيَوْمَ} أيها المنافقون لا يؤخذ منكم عوضا منكم بدلا من عقابكم وعذابكم، فيخلصكم من عذاب الله، ولا تؤخذ الفدية أيضا من الذين كفروا".

قال ابن كثير:"أي: لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله، ما قبل منه".

عن قتادة: " {فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يعني: المنافقين، ولا من الذين كفروا".

عن ابن زيد:"{فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ}: من المنافقين، {وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}: معكم، {مَأْوَاكُمُ النَّار}".

قوله تعالى: {مَأْوَاكُمُ النَّارُ} [الحديد: ١٥]، أي:"مصيركم جميعًا النار".

قال الطبري:"يقول: مثواكم ومسكنكم الذي تسكنونه يوم القيامة النار".

قال ابن كثير:"أي: هي مصيركم وإليها منقلبكم".

قال الشوكاني:"أي: منزلكم الذي تأوون إليه النار".

قال السعدي: " أي: مستقركم".

قوله تعالى: {هِيَ مَوْلَاكُمْ} [الحديد: ١٥]، أي:"هي أولى بكم من كل منزل".

قال ابن عباس: "هي مصيركم".

وقال الكلبي: "هي أولى بكم".

قال الطبري:"يقول: النار أولى بكم".

قال ابن كثير:"أي: هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم".

قال السعدي: " التي تتولاكم وتضمكم إليها".

قال الشوكاني:"أي: هي أولى بكم، والمولى في الأصل من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن يلازمه، وقيل: معنى مولاكم: مكانكم عن قرب، من

=

=

الولي وهو القرب. وقيل: إن الله يركب في النار الحياة والعقل، فهي تتميز غيظا على الكفار، وقيل: المعنى: هي ناصركم".

قال الزمخشري:"قيل: هي أولى بكم، وحقيقة مولاكم: محراكم ومقمنكم «٢». أى: مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم، كما قيل: هو مئنة للكرم، أي مكان، لقول القائل: إنه لكريم. ويجوز أن يراد: هي ناصركم، أي: لا ناصر لكم غيرها. والمراد: نفى الناصر على البتات. ونحوه قولهم: أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع. ومنه قوله تعالى: {يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ}، وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الحديد: ١٥]، أي:"وبئس المرجع والمنقلب نار جهنم".

قال الطبري:"يقول: وبئس مصير من صار إلى النار".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يوم ترى المؤمنين والمؤمنات} أي: أذكر للأمة يوم ترى أيها الإنسان {المؤمنين والمؤمنات} يوم القيامة {يسعى نورهم بين أيديهم} أي: أمامهم {وبأيمانهم} يكون من الأمام ومن اليمين، أما من الأمام فلأجل أن يقتدي الإنسان به، وأما عن اليمين فتكريمًا لليمين يكون بين أيديهم وبأيمانهم، وقوله: {يسعى نورهم} يفيد أن هذا النور على

حسب الإيمان، لأن الحكم إذا علق بوصف كان قويًا بقوة ذلك الوصف، وضعيفًا بضعفه، إذن نورهم على حسب إيمانهم الذكر والأنثى.

{بشراكم اليوم جنات} تقول الملائكة لهم {بشراكم} أي: ما تبشرون به {اليوم} يعني يوم القيامة {جنات تجرى من تحتها الأنهار} هذه الجنات فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما يشاءون، كما قال الله ﷻ: {لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد}

=

=

وجمعها لأنها جنات متعددة متنوعة، ودرجات مختلفة حسب قوة الإيمان والعمل وقوله {تجرى من تحتها الأنهار} أي: تسير، وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة القتال أنها أربعة {أنهار من ماء غير ءاسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى} وهذه الأنهار لا تحتاج إلى حفر ساقية ولا إلى جدول، بل تسير على سطح الأرض، حيث شاء أهلها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أنهارها من غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

فلا تذهب يمينًا ولا شمالًا إلا حيث أراد أهلها، وقوله {من تحتها} إشارة إلى علو قصورها وأشجارها، يعني تكون هذه الأنهار من تحت هذه القصور العالية والأشجار الرفيعة {خالدين فيها} أي: ماكثين فيها، وقد جاءت آيات متعددة بأن هذا المكث دائم ليس فيه زوال ولا انقطاع ولا تغير، {ذلك هو الفوز العظيم} المشار إليه ما وعدهم الله به الجنات التي تجري من تحتها الأنهار هو الفوز العظيم، و {هو} يسميها العلماء ضمير فصل، وهو مفيد للتوكيد والاختصاص، أي هذا الذي ذكر هو الفوز العظيم، لأنه لا فوز مثله، كما أنه لا فوز أعظم منه، نسأل الله أن يجعلنا من أهله إنه على كل شيء قدير.

{يوم يقول المنافقون والمنافقت للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب} {يوم يقول} أي: اذكر يوم يقول، فكلمة {يوم يقول} ظرف زمان، ولابد للظرف الزماني والمكاني، والجار والمجرور من شيء تتعلق به، والعلماء يقدرون المحذوف في كل مكان بما يناسب، وهنا المناسب أن يكون التقدير: اذكر أيها الإنسان يوم يقول المنافقون، هذا اليوم هو يوم القيامة، والمنافقون هم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر {يقولون بألسنتهم ما ليس في

=

=

قلوبهم} ولم يظهر النفاق إلا بعد أن قويت شوكة المسلمين بعد غزوة بدر، وكانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، انتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا على الكفار، فلما بزغ فجر الإسلام وقويت شوكته ظهر النفاق. والنفاق هو أن الإنسان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فظهر ذلك في المسلمين، فكانوا يأتون إلى الناس ويحضرون الجماعة لكنها ثقيلة عليهم، «وأثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر».

لأنه ليس هناك أضواء يشاهدون فيها، وهم إنما يصلون يراءون الناس، وفي يوم القيامة يظهر نور للمؤمنين والمنافقين، ثم ينطفيء نور المنافقين، وأنت تعلم أيها الإنسان أن انطفاء النور بعد ظهوره يكون أشد ظلمة مما لو لم يكن هناك نور، ولهذا لو أطفأت النور القوي ثم فتحت عينيك لم تر شيئًا إلا بعد برهة من الزمن، فيكون انطفاء النور بعد وجوده أشد عليهم مما لو لم يكن هناك نور، ثم تكون الحسرة أشد، فيقول المنافقون للذين آمنوا: {انظرونا نقتبس من نوركم} - أي: نأخذ شيئًا قليلًا بقدر الحاجة، {قيل ارجعوا وراءكم} - والقيل هذا إما من المؤمنين، أو من الملائكة، فالله أعلم لا ندري.

{ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا} وهل هو حقيقة يريدون أن يذهبوا إلى مكان النور، الذي انطفأ فيه النور لعله يتجدد النور، أو أن هذا من الاستهزاء بهم والسخرية؟ الآية محتملة هذا وهذا {فضرب بينهم} أي بين المنافقين والمؤمنين {بسور له باب} هذا سور عظيم، له باب يمنع من القفز، له باب يدخل منه المؤمنون ويمنع منه المنافقون، {باطنه فيه الرحمة} أي: باطن هذا السور فيه الرحمة للمؤمنين، {وظاهره من قبله العذاب} للمنافقين، وأنت لا تستطيع أن تتصور هذه الحال، لأن الحال أعظم من أن نتصورها، حال عظيمة {ينادونهم} - المنادى المنافقون، والمنادى المؤمنون، {ألم نكن معكم} يعني في الدنيا كنا

=

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦).

{أَلَمْ يَأْنِ} يَحِنْ {لِلَّذِينَ آمَنُوا} نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ لَمَّا أَكْثَرُوا الْمِزَاح

=

نصلي معكم ونتصدق ونذكر الله، {قالوا بلى} يعني أنتم معنا، ولكن في الظاهر دون الباطن، ولهذا قالوا: {ولكنكم فتنتم أنفسكم} يعني أضللتموها {وتربصتم}- انتظرتم بنا الدوائر {وارتبتم} شككتم في الأمر، فليس عندكم إيمان {وغرتكم الأماني} أي: ظننتم أنكم محسنون لأنكم تقولون إن أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا، نوفق بين المؤمنين والكافرين، وبين الإيمان والكفر، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا فهم مع المؤمنين، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، فهم مع الكفار، ظنوا أنهم بهذه المداهنة كسبوا المعركة، فغرتهم الأماني {حتى جاء أمر الله}- وذلك بموتهم {وغركم بالله الغرور}.

الغرور هو الشيطان ودليل هذا قول الله تبارك وتعالى عنه حين وسوس إلى أبوينا قال الله عنه {فدلاهما بغرور}- فالغرور هو الشيطان، {فاليوم لا يؤخذ منكم فدية} الأسير في الدنيا يمكن أن يفدي نفسه ويبذل المال فيسلم، لكن في الآخرة ليس فيه فدية، {فاليوم لا يؤخذ منكم فدية} أيها المنافقون، {ولا من الذين كفروا} الذين أعلنوا الكفر وصاروا أشجع من هؤلاء المنافقين فلا فدية لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، {مأواكم النار} أي: مثواكم ومآلكم النار {هي مولاكم} الذي تتولونه، والتي تتولاكم، فهم يتولون النار بعمل أهلها، والنار تتولاهم لأنهم مستحقون لها {وبئس المصير} أي: المرجع وهذا تقبيح لها، أعاذنا الله منها، نسأل الله أن يجعلنا ممن زحزح عن النار وأدخل الجنة، ومن الفائزين المتقين المفلحين.

{أَنْ تَخْشَع قُلُوبهمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَّلَ} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {مِنْ الْحَقّ} الْقُرْآن {وَلَا يَكُونُوا} مَعْطُوف عَلَى تَخْشَع {كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب مِنْ قَبْل} هُمْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى {فَطَالَ عَلَيْهِمْ الْأَمَد} الزَّمَن بَيْنهمْ وَبَيْن أَنْبِيَائِهِمْ {فَقَسَتْ قُلُوبهمْ} لَمْ تَلِنْ لِذِكْرِ الله {وكثير منهم فاسقون}.

اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧).

{اعْلَمُوا} خِطَاب لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورِينَ {أَنَّ الله يُحْيِي الْأَرْض بَعْد مَوْتهَا} بِالنَّبَاتِ فَكَذَلِكَ يَفْعَل بِقُلُوبِكُمْ يَرُدّهَا إلَى الْخُشُوع {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَات} الدالة على قدرتنا بهذا وغيره {لعلكم تعقلون.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨).

{إنَّ الْمُصَّدِّقِينَ} مِنْ التَّصَدُّق أُدْغِمَتْ التَّاء فِي الصَّاد أَيْ الَّذِينَ تَصَدَّقُوا {وَالْمُصَّدِّقَات} اللَّاتِي تَصَدَّقْنَ وَفِي قِرَاءَة بِتَخْفِيفِ الصَّاد فِيهِمَا مِنْ التَّصْدِيق وَالْإِيمَان {وَأَقْرَضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا} رَاجِع إلَى الذُّكُور وَالْإِنَاث بِالتَّغْلِيبِ وَعَطَفَ الْفِعْل عَلَى الِاسْم فِي صِلَة أَلْ لِأَنَّهُ فِيهَا حَلَّ مَحَلّ الْفِعْل وَذَكَرَ الْقَرْض بِوَصْفِهِ بَعْد التَّصَدُّق تَقْيِيد لَهُ {يُضَاعَف} وَفِي قِرَاءَة يُضَعَّف بِالتَّشْدِيدِ أَيْ قرضهم {لهم ولهم أجر كريم}.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩).

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاَللهِ وَرُسُله أُولَئِكَ هُمْ الصِّدِّيقُونَ} الْمُبَالِغُونَ فِي التَّصْدِيق {وَالشُّهَدَاء عِنْد رَبّهمْ} عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنْ الْأُمَم {لَهُمْ أَجْرهمْ وَنُورهمْ وَالَّذِينَ

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الدَّالَّة عَلَى وَحْدَانِيّتنَا {أُولَئِكَ أَصْحَاب الْجَحِيم} النَّار[(١)].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد العزيز بن أبي رواد: أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك؛ فأنزل الله -تعالى-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (١٤/ ٦٠ رقم ١٧٥٦٤): ثنا محمد بن عبد الله الأسدي ثنا عبد العزيز به. وهذا سند ضعيف؛ لإعضاله.

وعن الأعمش؛ قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من العيش ما أصابوا بعدما كان بهم من الجهد؛ فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه؛ فنزلت: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)}.

أخرجه عبد الله بن المبارك في "الزهد" (١/ ٢٧٤، ٢٧٥ رقم ٢٥٠)، وعبد الرزاق في "تفسيره"- بنحوه- (٢/ ٢٧٦) عن الثوري عن الأعمش به. وهذا- أيضًا- معضل.

وعن مقاتل بن حيان؛ قال: كان أصحاب النبي ﷺ قد أخذوا في شيء من المزاح؛ فأنزل الله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٤)، و"الدر المنثور" (٨/ ٥٨) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإعضاله.

=

=

وعن القاسم؛ قال: ملّ أصحاب النبي ﷺ؛ فقالوا: حدثنا يا رسول الله! فأنزل الله -تعالى-: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف: ٣]، ثم ملوا ملة؛ فقالوا: حدثنا يا رسول الله! فأنزل الله ﷻ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)}.

ذكره السيوطي في "اللباب"، وقال: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن القاسم به. وسنده ضعيف؛ لإرساله، إن صح السند إلى السدي.

وعن عائشة ﵂؛ قالت: خرج رسول الله ﷺ على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون، فسحب رداءه محمرًا وجهه؛ فقال: "أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم؟ ولقد أنزل عليّ في ضحككم آية: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦)}، قالوا: يا رسول الله! فما كفارة ذلك؟ قال: "تبكون قدر ما ضحكتم".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٧) ونسبه لابن مردويه.

وعن أنس بن مالك ﵁ لا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ قال: "استبطأ الله قلوب المهجرين بعد سبع عشرة من نزول القران؛ فأنزل الله: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ} الآية".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٥٧) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد: ١٦]، أي:"ألم يحن الوقت للذين صدّقوا الله ورسوله واتّبعوا هديه، أن تلين قلوبهم عند ذكر الله وسماع القرآن".

=

=

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: ألم يحن للذين صدقوا الله ورسوله أن تلين قلوبهم لذكر الله، فتخضع قلوبهم له، ولما نزل من الحقّ، وهو هذا القرآن الذي نزله على رسوله ﷺ".

قال ابن كثير:"يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه".

قال ابن قتيبة:" {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا}، أي: ألم يَحِن. يقال: أَنَى الشيءُ يأنِي؛ إذا حان".

قال سهل:"ألم يحن لهم أوان الخشوع عند سماع الذكر، فيشاهدوا الوعد والوعيد مشاهدة الغيب".

عن عكرمة:" {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا}، قال: يقول: ألم يتبيّن للذين آمنوا".

عن ابن عباس: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ}، " تطيع قلوبهم".

قال محمد بن كعب القُرَظيّ: " {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ} كانت الصحابة بمكة مُجْدِبين، فلما هاجروا أصابوا الرّيف والنّعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقَسَتْ قلوبهم، فوعظهم الله، فأفاقوا".

قوله تعالى: {وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ} [الحديد: ١٦]، أي:"ولا يكونوا في قسوة القلوب كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم -من اليهود والنصارى-".

قال الطبري: يقول: " ألم يأن الذين آمنوا من أمة محمد ﷺ أن لا يكونوا {كَالَّذِينَ أُوتُوا} التوراة والإنجيل من بني إسرائيل".

قال ابن كثير:"نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا

=

=

قليلا ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد".

قال الزمخشري:"يجوز أن يكون نهيا لهم عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا، وذلك أنّ بنى إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره".

قوله تعالى: {فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [الحديد: ١٦]، أي:"فطال عليهم الزمان فبدَّلوا كلام الله، فقست قلوبهم".

قال الزجاج:"أي: لا تكونوا كالذين لما طالت عليهم المدة قست قلوبهم".

قال الطبري: {طَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ}، يعني: " ما بينهم وبين موسى ﷺ، وذلك الأمد الزمان، {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ} عن الخيرات، واشتدّت على السكون إلى معاصي الله".

عن مجاهد قوله: {الأمَدُ}، قال: "الدهر".

قال ابن أبي زمنين:"{فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ}: بقاؤهم في الدنيا، {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}: غلظت".

قال سهل:"{فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}، يعني: باتباع الشهوة".

قال ابن كثير:"فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد".

قال مقاتل بن حيّان: "إنما يعني بذلك: مؤمني أهل الكتاب قبل أن يُبعَث النبيُّ- ﷺ- طال عليهم الأمد، واستبطؤوا خروجَ النبي- ﷺ -، فقست قلوبهم".

قوله تعالى: {وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦]، أي:"وكثير منهم خارجون

=

=

عن طاعة الله".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: وكثير من هؤلاء الذين أوتوا الكتاب، من قبل أمة محمد ﷺ فاسقون".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: من ثبت منهم على الشرك".

قال النسفي: أي:"خارجون عن دينهم رافضون لما في الكتابين، أي: وقليل منهم مؤمنون".

قال ابن كثير:"أي: في الأعمال، فقلوبهم فاسدة، وأعمالهم باطلة. كما قال: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣]، أي: فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه، وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهو عنه؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية".

وأخرج الطبري بسنده عن إبراهيم، قال: "جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود، فقال: يا عبد الله هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال عبد الله: هلك من لم يعرف قلبه معروفا، ولم ينكر قلبه منكرا، إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم اخترعوا كتابا من بين أيديهم وأرجلهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وقالوا: نعرض بني إسرائيل على هذا الكتاب، فمن آمن به تركناه، ومن كفر به قتلناه، قال: فجعل رجل منهم كتاب الله في قرن، ثم جعل القرن بين ثندوتيه؛ فلما قيل له: أتؤمن بهذا؟ قال: آمنت به، ويومىء إلى القرن الذي بين ثندوتيه، ومالي لا أومن بهذا الكتاب، فمن خير مللهم اليوم ملة صاحب القرن".

قال ابن مسعود: "أوشك بكم إن بقيتم، أو بقي من بقي منكم، أن تروا أمورا تنكرونها لا تستطيعون لها غيرا، فحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها

=

=
كاره".
قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [الحديد: ١٧]، أي:"اعلموا أن الله سبحانه وتعالى يحيي الأرض بالمطر بعد موتها، فتُخرِج النبات، فكذلك الله قادر على إحياء الموتى يوم القيامة، وهو القادر على تليين القلوب بعد قسوتها".
قال الطبري: " يقول تعالى ذكره {اعْلَمُوا} أيها الناس {أَنَّ اللهَ يُحْيِي الأَرْضَ} الميتة التي لا تنبت شيئا، بعد دثورها ودروسها، يقول: وكما نحيي هذه الأرض الميتة بعد دروسها، كذلك نهدي الإنسان الضَّالَّ عن الحقّ إلى الحق، فنوفِّقه ونسدِّده للإيمان حتى يصير مؤمنا من بعد كفره، ومهتديا من بعد ضلاله".
قال الزجاج:"معناه: أن إحياء الأرض بعد موتها دليل على توحيد الله، ومن آياته الدالة على ذلك".
قال النحاس:"قيل: فالذي فعل هذا هو الذي يهدي ويسدد من أراد هدايته ومن ضل عن طريق الحق".
قال الزمخشري:"هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب، وأنه يحييها كما يحيى الغيث الأرض".
قال الشوكاني: أي:"قادر على أن يبعث الأجسام بعد موتها، ويلين القلوب بعد قسوتها".
قال ابن كثير:"فيه إشارة إلى أنه، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها، ويَهدي الحَيَارى بعد ضَلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو
=

=

لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال".

عن ابن عباس: {اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}،" يعني: أنه يُلِين القلوب بعد قسوتها.

وقال جعفر بن محمد: "يحييها بالعدل بعد الجور".

قوله تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الحديد: ١٧]، أي:"قد بينَّا لكم دلائل قدرتنا؛ لعلكم تعقلونها فتتعظوا".

قال الطبري: " يقول: قد بيَّنا لكم الأدلة والحجج لتعقلوا".

قال النحاس:"أي: بالحجج والبراهين لتكونوا على رجاء من أن تعقلوا ذلك".

قال الشوكاني: " أي: كي تعقلوا ما تضمنته من المواعظ وتعملوا بموجب ذلك".

قال مقاتل:"يعني: بـ «الْآيَاتِ»: النبت. {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، يقول: لكي تعقلوا وتتفكروا في أمر البعث".

عن ابن جريج: في قوله {ومن آياته}، قال: "كل شيء في القرآن آيات، بذلك تعرفون الله إنكم لن تروه فتعرفونه على رؤية ولكن تعرفون بآياته وخلقه".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {لعلكم}، يعني: لكي".

عن ابن زيد:"في قول الله: {يعقلون}، قال: يتفكرون".

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ} [الحديد: ١٨]، أي:"إن المتصدقين من أموالهم والمتصدقات".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدقين والمُصَّدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة".

وقرأ ابن كثير وعاصم: «إِنَّ الْمُتَصَدّقِينَ والمُتَصدّقاتِ»، بتخفيف الصاد وتشديد الدال، ومعناه: إن المؤمنين والمؤمنات ممن صدق الله ورسوله فآمن بما أتى به

=

=

النبي - ﷺ -.

قوله تعالى: {وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد: ١٨]، أي:"وأنفقوا في سبيل الله نفقات طيبة بها نفوسهم؛ ابتغاء وجه الله تعالى".

قال الزجاج:"أي: تصدقوا من مال طيب".

قال مقاتل:"يعني: محتسبا طيبة بها نفسه".

قال الطبري:"يعني: بالنفقة في سبيله، وفيما أمر بالنفقة فيه، أو فيما ندب إليه".

قال ابن كثير:"أي: دفعوه بنية خالصة ابتغاء وجه الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورًا".

قال الزمخشري:"القرض الحسن: أنّ يتصدق من الطيب عن طيبة النفس وصحة النية على المستحق للصدقة".

قال الحسن:"كلّ ما في القرآن مِن القرْض الحسن فهو التطُّوع".

قوله تعالى: {يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ} [الحديد: ١٨]، أي:"يضاعف لهم ثواب ذلك، ولهم فوق ذلك ثواب جزيل، وهو الجنة".

قال الطبري:"يقول: يضاعف الله لهم قروضهم التي أقرضوها إياه، فيوفيهم ثوابها يوم القيامة، ولهم ثواب من الله على صدقهم، وقروضهم إياه كريم، وذلك الجنة".

قال الزجاج:"أي: يضاعف لهم ما عملوا، ويكون ذلك التضعيف أجرا كريما".

قال ابن كثير:"أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك {وَلَهُمْ} ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب {كَرِيمٌ}".

عن ابن جريج، في قوله: " {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ} ، قال: كل شيء في القرآن: {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ} ، {ورِزْقٌ كَرِيمٌ} فهو الجنة".

قال محمد بن كعب القرظي: "إذا سمعت الله يقول: {رزق كريم} ، فهي الجنة".

=

=

قرئ: يضعف، ويضاعف، بكسر العين، أي: يضاعف الله.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} [الحديد: ١٩]، أي:"والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرِّقوا بين أحد منهم، أولئك هم الصديقون الذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرسل، اعتقادًا وقولا وعملا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والذين أقرّوا بوحدانية الله وإرساله رسله، فصدقوا الرسل وآمنوا بما جاءوهم به من عند ربهم، أولئك هم الصدّيقون".

قال الزجاج:"{الصِّدِّيقُونَ} على وزن «الفعيلين»، وأحدهم: صديق. وهو اسم للمبالغة في الفعل تقول: رجل صديق. كثير التصديق، وكذلك: رجل سكيت. كثير السكوت. فالمعنى إن المؤمن المصدق بالله ورسله هو المبالغ في الصدق".

قوله تعالى: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} [الحديد: ١٩]، أي:"والشهداء عند ربهم لهم ثوابهم الجزيل عند الله، ونورهم العظيم يوم القيامة".

قال ابن كثير:"{وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ}، {لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}، أي: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم، وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال".

قال مسروق: "سألنا عبد الله عن هذه الآية: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩]، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة»، فقال: " هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس

=

=

لهم حاجة تركوا".

واختلفوا في نظم الآية على قولين:

أحدهما: أن قوله {وَالشُّهَدَاءُ} من صفة {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ}، فالذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وهم الشهداء عند ربهم، قاله مجاهد وزيد بن أسلم.

عن مجاهد: " {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}، قال: كلّ مؤمن شهيد، ثم قرأها".

عن مجاهد، في قوله: {الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}، قال: "بالإيمان على أنفسهم بالله".

عن معن أبي قيس:"أنه سمع هذيلا يحدّث، قال: ذكروا الشهداء، فقال عبد الله: الرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، والرجل يقاتل للدنيا، والرجل يقاتل للسمعة، والرجل يقاتل للمغنم؛ قال شعبة شيئا هذا معناه: والرجل يقاتل يريد وجه الله، والرجل يموت على فراشه وهو شهيد، وقرأ عبد الله هذه الآية: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}".

قال الزمخشري:"يريد: أنّ المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء: وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله، {لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}، أي: مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم، فإن قلت: كيف يسوّى بينهم في الأجر ولا بدّ من التفاوت؟ قلت: المعنى أنّ الله يعطى المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله، حتى يساوى أجرهم مع أضعافه أجر أولئك".

الثاني: أن تمام الكلام عند قوله ﷻ: {أَوْلئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}. ثم ابتدأ فقال ﷻ: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}. هذا قول ابن عباس ومسروق وأبي الضحى والفراء.

قال ابن كثير:"قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} هذا تمام لجملة، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون".

=

=

قال مقاتل: " {وَالشُّهَدَاءُ}، يعني: من استشهد منهم".

وقال الفراء:" {وَالشُّهَدَاءُ}، يعني: النبيين".

عن ابن عباس، في قوله: " {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}، قال: هذه مفصولة، {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}".

عن أبي الضحى: " {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}، ثم استأنف الكلام فقال: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}".

عن مسروق: {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}، قال: هي للشهداء خاصة". وفي لفظ:"هي خاصة للشهداء".

عن أبي الضحى: " {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}، ثم استأنف الكلام فقال: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ}".

عن مسروق: {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}، قال: هي للشهداء خاصة". وفي لفظ:"هي خاصة للشهداء".

عن مكحول الشامي -من طريق برد- قال: " {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ والشُّهَدَاءُ} للشهداء خاصة".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول: في قوله: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} هذه مفصولة، سماهم الله صدّيقين بأنهم آمنوا بالله وصدّقوا رسله، ثم قال: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}. هذه مفصولة".

قال الضَّحّاك: " {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ} هم ثمانية نفرٍ مِن هذه الأُمّة، سبقوا أهل الأرض في زمانهم إلى الإسلام: أبو بكر، وعلي، وزيد، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وحمزة، وتاسعهم عمر بن الخطاب".

وروي عن مسروق، عن عبد الله في قوله:" {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ

=

=

رَبِّهِمْ} قال: هم ثلاثه أصناف".

قال ابن كثير:"يعني: المصدقين، والصديقين، والشهداء، كما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: ٦٩] ففرق بين الصديقين والشهداء، فدل على أنهما صنفان. ولا شك أن الصديق أعلى مقامًا من الشهيد".

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

قال الزجاج:"يصلح أن يكون كلاما مستأنفا مرفوعا بالابتداء، فيكون المعنى: «والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم». و «الشهداء»: هم الأنبياء، ويجوز أن يكون {وَالشُّهَدَاءُ} نسقا على ما قبله، فيكون المعنى: أولئك هم الصديقون وأولئك هم الشهداء عند ربهم، ويكون: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} للجماعة من الصديقين والشهداء".

قال الطبري: "والذي هو أولى الأقوال عندي في ذلك بالصواب قول من قال: الكلام والخبر عن الذين آمنوا، متناه عند قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}، وإن قوله: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ} خبر مبتدأ عن الشهداء، وإنما قلنا: إن ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن ذلك هو الأغلب من معانيه في الظاهر، وأنّ الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم شهيد لا بمعنى غيره، إلا أن يُراد به شهيد على ما آمن به وصدّقه، فيكون ذلك وجها، وإن كان فيه بعض البعد، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه، إذا أطلق بغير وصل، فتأويل قوله:
{وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} إذن: والشهداء الذين قُتلوا في سبيل

=

=

الله، أو هلكوا في سبيله عند ربهم، لهم ثواب الله إياهم في الآخرة ونورهم".

قال أبو إسحاق، عن عمرو بن ميمون في قوله:" {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ}، قال: يجيؤون يوم القيامة معًا كالإصبعين".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [الحديد: ١٩]، أي:"والذين كفروا وكذَّبوا بأدلتنا وحججنا أولئك أصحاب الجحيم، فلا أجر لهم، ولا نور".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: والذين كفروا بالله وكذّبوا بأدلته وحججه، أولئك أصحاب الجحيم".

قال ابن كثير:"لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم".

قال الشوكاني:"أي: جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات، {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} يعذبون بها، ولا أجر لهم ولا نور، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة".

قال السعدي:"فكذبوا بها بعد ما أبانت الحقائق. {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه".

عن أبي مالك:"{الجحيم}، قال: ما عظم من النار".

و «الجحيم»: "النار الشديدة الإيقاد، ويقال جحم فلان النار: إذا شدد إيقادها، ويقال أيضا لعين الأسد: جحمة لشدة اتقادها".

قال العثيمين: قوله تعالى: {ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله} أي: ألم يحق لهؤلاء المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: أن تذل وتنقاد غاية الانقياد لذكر الله تعالى في القلوب واللسان والجوارح {وما نزل من الحق}- يعني القرآن الكريم، وهو من ذكر الله، وذكره بخصوصه لأهميته، {ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون}-

=

=

الذين أوتوا الكتاب من قبل هم اليهود والنصارى {فطال عليهم الأَمد} يعني طال بهم الزمن ونسوا حظهم مما ذكروا به فقست قلوبهم- والعياذ بالله- وكثير منهم فاسقون وبعضهم مستقيم، ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تبارك وتعالى انه قد حق للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ولكتاب الله، وأن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم لبعدهم عن زمن الرسالات، وفي هذا إشارة إلى أن أول الأمة خير من آخرها، وأخشع قلوبًا؛ وذلك لقربهم من عهد الرسالة، وقد صح بذلك الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»

وفي هذا التنديد التام باليهود والنصارى لأنها قست قلوبهم لما طال عليهم الأمد، وفيه العدالة التامة في حكم الله ﷻ حيث قال: {وكثير منهم فاسقون} ولم يعمم، وهذا هو الواجب على من تحدث عن قوم أن يبين الواقع؛ لأن بعض الناس إذا رأى من قوم زيغًا في بعضهم عمم الحكم على الجميع، والواجب العدل إن كان الأكثر هم الفاسقون، فقل: أكثرهم، وإن كان كثير منهم فاسقين فعبر بالكثير على حسب ما تقتضيه الحال، لأن الواجب أن يقوم الإنسان بالعدل ولو على نفسه أو والديه والأقربين.

{اعلموا أن الله يحي الأَرض بعد موتها قد بينا لكم الأيات لعلكم تعقلون} اعلموا: فعل أمر، فأمر بالعلم بهذه القضية الهامة، وهي أن الله يحيي الأرض بعد موتها، يعني أن الأرض تجدها يابسة ليس بها نبات فينزل الله عليها المطر فتنبت وتحيا وتنمو، إذا علمنا هذا ونحن عالمون به ونشاهده، فإننا نستدل به على قدرة الله تبارك وتعالى على إحياء الموتى، فإن الناس أحياء الآن، ثم يموتون، ثم يبعثون يوم القيامة، فالقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها من أجل الحساب والجزاء؛ لأنه ليس من الحكمة أن يخلق الله تبارك

=

=

وتعالى خلقًا يأمرهم وينهاهم ويبيح دماء من لم يستجب وأموالهم ثم تكون النتيجة أن يموت الإنسان فقط، بل لابد من حياة، هي الحياة الحقيقية، كما قال ﷻ: {وإن الدار الأخرة لهي الحيوان} ومعنى الحيوان، أي: الحياة الحقيقية التامة الكاملة التي ليس بعدها موت، وليس المراد بالحيوان الحيوانات الدواب، فالقادر على أن يجعل العيدان اليابسة خضراء نامية، قادر على أن يحيي الموتى وبكلمة واحدة، قال الله تعالى: {فإنما هي زجرة واحدة ... فإذا هم بالساهرة} وقال ﷻ: {إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} وقال- ﷻ:.

{إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون} {قد بينا لكم الأيات لعلكم تعقلون} أي: أظهرناها لكم، والآيات هي العلامات الدالة على كمال قدرة الله- جل وعلا- وعلى كمال رحمته وسلطانه، وأضرب لذلك مثلًا: إذا أنزل الله المطر ونبتت الأرض، وشبعت البهائم، وطابت الأجواء فهذا من آثار رحمته، فنستدل بهذا على رحمة الله، ونستدل بما خلق الله في الكون من الشمس والقمر والنجوم، وما خلق الله تعالى في الأرض من الجبال والأنهار وغيرها على كمال حكمة الله ﷻ لأنك إذا تدبرتها وجدت فيها من الحكمة ما يبهر العقل، {لعلكم تعقلون} لعل هنا للتعليل وليست للرجاء، مع أنها في اللغة العربية تأتي للرجاء كثيرًا، لكنها هنا للتعليل؛ لأن الرجاء لا يمكن في حق الله، إذ إن الرجاء طلب شيء فيه نوع من العسر، لكن الله ﷻ لا يتصور في حقه الرجاء، لكن تأتي لعل للتعليل، أي لأجل أن تعقلوا، والمراد بالعقل هنا: عقل الرشد، أي: تعقلوا عقلًا ترشدون به، ويكون دليلًا لكم على ما فيه الخير {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعف لهم ولهم أجر كريم}ـ {إن المصدقين} أصلها: إن المتصدقين، لكن قلبت التاء صادًا لعلة تصريفية معروفة عند أهل النحو، {وأقرضوا الله قرضًا

=

=

حسنًا} أي: أنفقوا في سبيل الله إنفاقًا حسنًا، والإنفاق الحسن ما جمع شرطين، الأول: الإخلاص لله ﷻ.

والثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فالمرائي الذي ينفق رياء لم يقرض الله قرضًا حسنًا، ومثال ذلك: إنسان تصدق على فقير من أجل أن يراه الناس، فيقولون: إن فلانًا كثير الصدقة، فهذا مرائي وصدقته لا تنفعه، ولا تقبل منه؛ لأن كل عمل يراد به غير الله فهو غير مقبول، قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» وإنسان آخر يتعبد لله تعالى بعبادات غير مشروعة، صاحب بدعة لكنه مخلص، لو سألته لِمَ فعلت هذا؟ قال: أريد ثواب الله، وأريد التقرب إلى الله، فلا تنفعه هذه العبادة، لعدم المتابعة، فقوله ﷻ: {وأقرضوا الله قرضًا حسنًا} أي: مخلصين فيه لله، متبعين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فإن قال قائل: لماذا عبر الله تعالى بالقرض وهو الغني سبحانه وتعالى؟

فالجواب: يقول هذا- جل وعلا- ليبين أن أجرهم مضمون، كما أن القرض مضمون، وسيرد عليه الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لكن كيف تكون الواحدة بعشرة وهي ربا في القرض، كيف يكون هذا؟ الجواب: أولًا: لا ربا بين العبد وبين ربه. ثانيًا: القرض إذا أعطاك المقترض شيئًا بدون شرط فهو حلال؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم استقرض بكرًا، والبكر يعني بعيرًا صغيرًا، وردَّ خيرًا منه وقال: «خيركم، أحسنكم قضاء»ـ ولهذا عبارة الفقهاء: (كل شرط جر نفعًا للمقرض فهو ربا)ـ ولم يقولوا كل زيادة، {يضاعف لهم} هذا خبر (إن) يعني إن المتصدقين والمتصدقات وأقرضوا قرضًا حسنًا يضاعف لهم، أي: يعطون أجرهم مضاعفًا، عشرة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، {ولهم أجر كريم} أي: ثواب كريم، والكريم هو الحسن الطيب،

=

=

وذلك أن الجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأصل الكرم الحسن، ودليل ذلك قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه لليمن: «إياك وكرائم أموالهم» يعني إذا أخذت الزكاة اجتنب كرائم الأموال، يعني أحاسنه، «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» ثم قال عز وجل: {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء:

الأول: الإيمان بوجوده.

الثاني: الإيمان بربوبيته.

الثالث: الإيمان بألوهيته.

والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

والإيمان بوجود الله لا ينكره إلا مكابر في الواقع، لأن كل إنسان يعرف أن هذا الكون المستقر المنظم لابد له من موجد ومنظم، والموجد والمنظِّم هو الله عز وجل لأن كل إنسان يعلم أنه لا يستطيع أحد من البشر أن يتصرف بهذا الكون، مَن الذي يأتي بالليل مع وجود النهار؟ ومن الذي يأتي بالنهار مع وجود الليل؟ لا أحد يقدر، إذن كل إنسان عاقل فهو مؤمن بقلبه وإن أنكر بلسانه، مؤمن بوجود الله عز وجل، وجه ذلك أن هذه الخليقة العظيمة لابد لها من مدبر، لو قال قائل: إنها جاءت هكذا صدفة، فنقول: إن الشيء إذا جاء صدفة لا يكون منظمًا، ولو قال قائل: هي أوجدت نفسها، نقول: هذا أيضًا محال عقلًا، كيف توجد نفسها وهي عدم، هذا لا يمكن، إذن لابد لها من موجد، ولهذا قال الله تعالى في سورة الطور: {أفرءيتم ما تمنون أءنتم تخلقونه أم نحن الخالقون} والجواب: بل أنت يا ربنا، نحن لا نقدر أن نخلق جنينًا في بطن أمه أبدًا، قال الله عز وجل: {يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له} استمعوا يا أيها الناس، خطاب للناس كلهم: الكافر والمؤمن،

=

=

ولهذا إذا قرأت الآية يجب أن تستمع {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا} هذا الذباب المهين لا يمكن أن يخلقوه {ولو اجتمعوا له}.كل المعبودات لا يمكن أن تخلق ذبابًا وهو من أصغر الحيوان وأذلها، زد على هذا، {وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه} يعني لو أن الذباب أخذ من هذه الأصنام شيئًا ما استطاعت أن تستنقذه منه، قال أهل العلم: المعنى لو وقع الذباب على أحد هذه الأصنام وامتص من الطيب الذي فيها، لأنهم يطيبون أصنامهم، ما استطاعت الأصنام أن تستنقذه، {ضعف الطالب والمطلوب}.فلا يمكن لأحد أن ينكر من صميم قلبه وجود الله ﷻ أبدًا، لأنه باتفاق العقلاء أن كل حادث لابد له من مُحدث، ولا أحد

يحدث هذا الكون إلا الله ﷻ.

الثاني: الإيمان بربوبيته، أي أنه وحده الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، فلا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون إلا الله، ولا مالك للكون إلا الله ﷻ حتى ملك الإنسان ما في يده ليس ملكًا حقيقيًّا، والدليل أنه لا يمكن أن يتصرف فيما في يده كما يشاء، لو أردت أن أحرقه منعت شرعًا، وحرام عليَّ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن إضاعة المال.إذن ملك الإنسان ما بيده ليس ملكًا حقيقيًا، بل إنه يختص به عن غيره فقط.

الثالث: الألوهية: هي أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله ﷻ وعبادة الأصنام غير حق، كما قال ﷻ: {ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل} إذن الألوهية أن تؤمن بأنه لا إله إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله ﷻ وما عبد من دونه فهو باطل، وعليه فلا تصرف العبادة إلا لله.

الرابع: الإيمان بالأسماء والصفات: قال الله ﷻ: {ولله الأسماء الحسنى} وصفاته كذلك عليا ليس فيها صفة نقص، قال الله تبارك وتعالى: {للذين لا يؤمنون

=

=

بالأخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى} أي الوصف الأعلى، وأسماء الله تعالى كثيرة لا يمكن حصرها مهما أردت، والدليل على ذلك حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «ما من إنسان يصيبه هم أو غم أو حزن ثم يقول: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك». فجعل الله الأسماء ثلاثة أقسام، ما أنزله في كتابه، مثال الاسم الذي جاء في القرآن (الرحمن) أو علمته أحدًا من خلقك مثل (الرب، الشافي)ـ جاء في السنة، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب». وقال عليه الصلاة والسلام: «أما الركوع فعظِّموا فيه الرب» فهذا مما علمه أحدًا من خلقه.

«أو استأثرت به في علم الغيب عندك» هذا القسم الثالث ما استأثر الله به في علم الغيب، واستأثر بمعنى انفرد، وما انفرد الله بعلمه فلم ينزله في الكتاب ولم يعلمه أحدًا من الخلق لا يمكن الإحاطة به إذن أسماء الله لا يمكن الإحاطة بها ولا هي محصورة بعدد، لأننا لا نعلمها، وأما قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة» فالمعنى أن من الأسماء تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة هذا المعنى، ومعنى (أحصاها) أي: عرفها لفظًا، وعرفها معنى، وتعبد لله بمقتضاها، وليس المراد أن تحفظها فقط، بل لابد من حفظ اللفظ وفهم المعنى، والتعبد لله بها بمقتضاها، فمثلًا: إذا علمت أن الله سبحانه وتعالى غفور فتعرض للمغفرة، لا تقل: الله غفور، وتفعل الذنب متى شئت، بل تعرض للمغفرة واستغفر الله تجد الله غفورًا رحيمًا، وإذا علمت أن الله عزيز فتتعبد الله بمقتضى هذا وتخاف منه وتحذر، وهلم جرا.

أما الإيمان بالرسل فإنه يتضمن تصديقهم كلهم من أولهم إلى آخرهم بما أخبروا

=

=

به، إذا صح عنهم، وأما العمل بشرائعهم فإننا لا يلزمنا العمل إلا بشريعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك لأن الشرائع السابقة كلها نسخت بهذه الشريعة، لقول الله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا} وقوله: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه} وقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة- يعني أمة الدعوة- يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بما جئت به إلا كان من أصحاب النار» {أولئك}ـ أي: الذين آمنوا بالله ورسله {هم الصديقون} أي: البالغون في الصدق مبلغًا كبيرًا، لأن الصديق صيغة مبالغة، والصدق يكون بالقصد وبالقول وبالفعل، فأما الصدق بالقصد فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله تبارك وتعالى لا يقصد غيره، وإذا قصد بعبادته شيئًا غير الله فقد أشرك ولا يقبل عمله، لقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث القدسي عن الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

الثاني: الصدق في القول بأن يكون الإنسان صادقًا فيما يخبر به، وقد أثنى الله تعالى على الصادقين، وأمرنا أن نكون معهم، فقال- جل وعلا -: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} وأثنى على المهاجرين الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، وأمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالصدق وحث عليه، ورغَّب فيه، فقال: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولايزال الرجل يصدق ويتحرَّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولايزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا».

=

=

أما الصدق بالفعل فمتابعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن من كان صادقًا فيما يدعي من محبة الله تعالى ورسوله ﷺ فليتبع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقوله تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم} وقد سمى بعض السلف هذه الآية آية المحنة، يعني الامتحان، فمن ادعى حب الله ورسوله قلنا له: عليك باتباع الرسول ﷺ، فإن اتبعه فهو صادق، وإن خالفه فليس بصادق، {والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم} الشهداء جمع شهيد، والمراد بهم من قُتلوا في سبيل الله، والقتال في سبيل الله: أن يقاتل الإنسان عدو الله لتكون كلمة الله هي العليا، قال ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليُرى مكانه: أي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

فالشجاع يحب القتال، كالصياد يحب أن يصيد، ويخرج ويتجشم المصائب ليصيد الصيد، وإذا صادها صارت عنده أرخص من كل شيء، فهذا يقاتل شجاعة، لأنه شجاع يحب أن يقاتل، ويقاتل حمية يعني عصبية لقومه، ويقاتل ليُرى مكانه، أي: رياء كما جاء في اللفظ الآخر، «ويقاتل رياء» قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» ومن قاتل ليسترد أرضه المغصوبة فهو من باب الحمية إلا إذا قال: أريد أن أستردها لأقيم عليها شعائر الإسلام، فهذا في سبيل الله، أما من قاتل لأن هذه أرضه ويريد أن ترد إليه، فهذا حمية ليس له أجر الشهداء إذا قتل، هؤلاء الشهداء {لهم أجرهم عند ربهم} أي: ثوابهم العظيم كما قال تعالى: {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بمآ ءاتهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع

=

=

أجر المؤمنين} ولما ذكر ﷺ أهل الإيمان وثوابهم ذكر أصحاب الشمال بعد ذلك قال: {والذين كفروا وكذبوا بآياتنا} لأن القرآن مثاني، تثنى فيه الأمور والمعاني، ولهذا تجد القرآن الكريم في الغالب إذا ذكر الله الجنة ذكر النار، وإذا ذكر أولياء الله ذكر أعداء الله، والحكمة من ذلك أن لا يمل الإنسان، لأنه كلما تنقل المعنى إلى معنى آخر نشط الإنسان، وحكمة أخرى أن يكون الإنسان سائرًا إلى الله، أي متعبدًا إلى الله بين الخوف والرجاء؛ لأنه إذا مرت به صفات المؤمنين قوي جانب الرجاء، وإذا ذكرت أحوال الكافرين غلب جانب الخوف.

{والذين كفروا وكذبوا بآياتنا} عطف التكذيب على الكفر وهو نوع منه؛ لأنه أشد، فالذي يكفر ولم يكذب أهون من الذي يكفر ويكذب، فعطف كذبوا بآياتنا على كفروا من باب عطف الخاص على العام، كعطف الروح على الملائكة وهو منهم، قال الله تعالى: {تنزل الملائكة والروح فيها} والروح جبريل وهو من الملائكة، {أولئك أصحاب الجحيم}. الجحيم اسم من أسماء النار، وأصحابها يعني الملازمين لها، ولهذا إذا مرت آية فيها (أصحاب) فالمعنى أنهم ملازمون لها مخلدون فيها، نسأل الله العافية، وفي هذه الآيات الترغيب بالأوصاف التي توصل إلى الجنات، لأن الله تعالى لم يذكر لنا هذه الأمور لنتطلع عليها فقط، ولكن لنسعى لها، وفيها التحذير من الكفر والتكذيب؛ لئلا يقع الإنسان في هذا العقاب الأليم.

(فائدة): لا شك أن الإيمان بالرسل ركن عظيم ودعامة ينبنى عليه أساس كل العبادات التي جاء بها الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كما أنه من لوازم ربوبية الله تعالى لخلقه؛ لأنه لا يحسن أن يترك عباده سدى هملًا لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: "وبالجملة فينبغي للعاقل أن يعلم أن قيام

=

دين الله في الأرض إنما هو بواسطة المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، فلولا الرسل لما عبد الله وحده لا شريك له، ولما علم الناس أكثر ما يستحقه سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العُلا، ولا كانت له شريعة في الأرض"ـ وقال الشيخ السعدي- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " زبدة ما أُرسِل به المُرسَلين؛ أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبيان المبشِّر والمبشَّر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذِّر والمنذَّر به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة".

كما أن "تفاوت العقول والمدارك وتباين الأفكار واختلاف الأغراض والمنازع ينشأ عنه تضارب الآراء وتناقض المذاهب، وذلك مما يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، والاعتداء على الأعراض، وانتهاك الحرمات، وبالجملة ينتهي بالناس إلى تخريب وتدمير، لا إلى تنظيم وحسن تدبير، ولا يرتفع هذا إلا برسول يبعثه الله بفصل الخطاب؛ ليقيم به الحجة، ويوضح به المحجة؛ فاقتضت حكمة الله أن يرسل رسله بالهدى ودين الحق رحمة منه بعباده، وإقامة للعدل بينهم، وتبصيرًا لهم بما يجب عليهم من حقوق خالقهم وحقوق أنفسهم وإخوانهم، وإعانةً لهم على أنفسهم، وإعذارًا إليهم؛ فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله".

أولًا: التعريف بالنبي والرسول:

أ- النبي لغة يأتي على ثلاثة معانٍ يرجع أصل اشتقاقه إليها وهي:

١- بمعنى النبأ: أي: الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به العلم، كما في قوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} النبأ: ١- ٢ـ فيكون اشتقاق الكلمة من الفعل نَبَأَ، ونَبَّأَ، وأنبأ أي: أخبر.

٢- بمعنى النَبْوة والنَّبَاوة: أي: العلو والارتفاع، فيكون اشتقاق الكلمة من الفعل "نَبَا" بدون همز أي: علا وارتفع.

=

٣- بمعنى الطريق الواضح.
ويظهر مما سبق أن معاني النبي في اللغة تختلف باختلاف جهة الاشتقاق، إلا أن كل هذه المعاني موافقة للمفهوم الشرعي للنبوة، إذ إنها إخبار عن الله، وهي مقام رفيع ومكانة منيفة لصاحبها، وكذا فهي طريق موصل إليه -سبحانه وتعالى-. قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " والتحقيق أن... من أنبأه الله، وجعله مُنْبِئًا عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر عليًا".
وبصرف النظر عن جهة اشتقاق كلمة (نبي) في اللغة، فإنه يحظر تمامًا استعمالها في الشريعة الإسلامية إلا للدلالة على النبوة بمعناها الشرعي، لذا فإن معنى النبي في الشرع: هو الذي أوحى الله إليه بأن يعمل بشريعة من قبله، وأن يبلغها إلى قوم موافقين له في التوحيد.
وأما الرسول لغة: فمشتق من (الإرسال) بمعنى البعث والتوجيه، يقال: أرسلت فلانًا في رسالة: أي: بعثته، فهو مرسل ورسول، قال تعالى عن ملكة سبأ: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)} النمل: ٣٥، ويجمع الرسول على أرْسُل، ورُسُل ورُسْل، ورُسَلاءَ، وسُمُّوا الرُّسُل بذلك؛ لأنهم مبعوثون وموجهون من قبل الله- عَزَّ وَجَلَّ -، لتبليغ الخلق أمر الله ووحْيهـ كما أن الرَّسل تأتي بمعنى التتابع؛ أخذًا من قولهم: رَسَل اللبن إذا تتابع دَرُّه، فيكون الرسول هو من تتابَع عليه الوحي.
والرسول في الاصطلاح: هو من أوحى اللهُ إليه بشرع، وأمر بتبليغه إلى قوم مخالفين، سواءٌ دعاهم بشرع جديد أو بشرع مَن قبله.
وقد اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا في بيان الفرق بين النبي والرسول، وذلك بسبب اختلاف ضبطهم للتعريف الاصطلاحي، وبيان الفرق بينهما، والراجح أن بينهما عموم وخصوص مطلقًا، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها

=

=

وأخص من جهة أهلها، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولًا، فالأنبياء أعم، والنبوة نفسها جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة.

كما أنه لا يصح قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبي، ويدل على بطلان هذا القول ما ورد في عدد الأنبياء والرسل، فقد ذكر الرسول- ﷺ- أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وعدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولًا. ويدل أيضا ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} الحج: ٥٢.

وعليه فالنبي والرسول بينهما عموم وخصوص مطلق، وكذا النبوة والرسالة، فالرسالة أعم من جهة نفسها؛ إذ النبوة داخلة في الرسالة، كما أنها أخص من جهة أهلها؛ إذ كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا، والرسالة أفضل من النبوة، والرسول أفضل من النبي.

ثانيًا: الإيمان بالرسل وما يتضمنه:

وعليه فالإيمان بالرسل: هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما سواه؛ فقد اتفقت دعوتهم من أولهم إلى آخرهم في أصل الدين -وهو توحيد الله- ﷻ- بإلهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته-، ونفي ما يضاد ذلك أو ينافي كماله، قال- ﷻ -: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل: ٣٦، فنؤمن بمن سمى الله في كتابه منهم، وقص علينا من أنبائهم ونبَّأنا من أخبارهم ما فيه كفاية وعبرة وموعظة إجمالًا وتفصيلًا، ثم قال: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)} النساء: ١٦٤، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ

=

=

عَلَيْكَ} غافر: ٧٨، فنؤمن بجميعهم تفصيلًا فيما فصل وإجمالًا فيما أجمل، ونؤمن بمحمد- ﷺ -، وإيماننا به غير إيماننا بسائر الرسل.

لذلك كان مذهب السلف الصالح- رضي الله عنهم - في باب الإيمان بالرسل يقوم على أربعة قواعد هي:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه، ومن لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا فإن لله رسلًا وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا هو سبحانه.

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد عليه السلام المرسل إلى جميع الناس.

كما أن الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، يتضمن ما يلي:

١ - يتضمن الإيمان بالرسل إثبات صفة الرحمة لله- عز وجل- بعباده؛ فإن الله- سبحانه وتعالى- لم يخلق الناس عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل بيَّن لهم سبحانه أنه ما خلق الخلق إلا لحكمة عظيمة، وغاية جليلة، وهي عبادته سبحانه دون ما سواه، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} الذاريات: ٥٦.

٢ - الإيمان بأن الله- عز وجل- أرسل رسلًا لكل أمة من الأمم، مبلِّغين توحيده وشرائعه، منذرين عقابه ووعيده، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} النحل: ٣٦. وهذه المهمة السامية هي المقصود من إرسال الأنبياء والرسل؛ لأن غاية بعثتهم: إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال- عز وجل -: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} إبراهيم: ٥، كما أن هداية الرسل للبشر لم تكن بأهواء أنفسهم؛ بل بأمر الله ودينه واتباع مرضاته، قال

=

=

سبحانه: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا} الأنبياء: ٧٣.

٣- يتضمن الإيمان بالرسل الإيمان بأسماء الرسل الذين سماهم الله- ﷻ -: آدم وإدريس ويوسف وعيسى وإبراهيم واليسع ذو النون وإلياس ومحمد- ﷺ- وغيرهم من المرسلين الذين ذكروا في القرآن الكريم؛ لأن الله اصطفاهم لحمل رسالته وتبليغ وحيه و {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} الأنعام: ١٢٤، قال سبحانه: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ} الأحزاب: ٣٩، وقال جل شأنه: {اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} الحج: ٧٥.

٤- يتضمن الإيمان بأن منهم من كلمهم الله- ﷻ- مباشرة كما حصل مع موسى، ومنهم من كان يرسل إليهم رسولًا ويأتيهم الوحي من السماء، ومنهم من أوحى الله- ﷻ- إليهم بالإلهام، والنبي- ﷺ- أوحى الله إليه بهذه الطرق جميعًا.

٥- ويتضمن كذلك الإيمان بجميع ما جاءوا به -عليهم السلام- من الكتب والتوحيد، والمعجزات التي جعلها الله لهم علامة على صدقهم فيما يدعونه ويقولونه، قال النبي- ﷺ -: ((ما من الأنبياء نبي، إلا أعطي من الآيات، ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)). وما أخبروا به مما غاب عنا، وكذلك الملائكة والكتب والأنبياء والبعث والقدر وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا به من صفات اليوم الآخر كالصراط والميزان والجنة والنار.

٦- أن من أنكر رسالة رسول أو نبوة نبي واحد فقد كفر كفرًا مطلقًا مخرجًا من الملة، وكأنه كفر بالجميع، لأن تكذيب واحد منهم يعتبر تكذيبًا للكل.

٧- إن الإيمان بالرسل يتضمن محبة الله- ﷻ -؛ لأن محبته- ﷻ- لا تتم إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بمتابعة رُسِوله- ﷺ -، كما قال تعالى: {قُلْ إِنْ

=

=

كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ} آل عمران: ٣١، وباتباعهم ينال الإنسان سعادة الدنيا والآخرة -فمن أحبه الله أسعده-، وبمخالفتهم والعدول عن طريقهم، تتحقق الخسارة والخذلان والعياذ بالله.

٨- يتضمن الإيمان بالرسل الإيمان بالمقصد الأعظم من بعثهم وهو: تحقيق التوحيد والدعوة إليه والجهاد فيه؛ لأن تحقيق عبودية الله لا تكون إلا عن طريق إرسال رسله، كما أن "الإيمان بالنبوة والرسالة ينبني على الإيمان بالربوبية والإلهية"؛ لأنها "شأن من شؤونه سبحانه ومتعلق صفاته في النوع البشري، فإنها من مقتضى الحكمة، وأجل آثار الرحمة".

وبهذا تتبين لنا تلك الرابطة القوية والمتينة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل، فمعرفة الله والإيمان به لا تكون ولا تحصل إلا عن طريق أولئك الذين بعثهم الله لهداية الناس، مبينين لهم هذا الأمر العظيم، وموضحين الطريق الموصل إلى ذلك.

* قال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان حاجة العالم إلى الرسالات: " الرسالة ضرورية للعباد لا بدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق على قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، كما قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} الأنعام: ١٢٢، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات".

كما بين ابن القيم- رَحِمَهُ اللهُ- حاجة العبادة إلى الأنبياء والرسل، فقال:"... ومن

=

=

هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم... فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير...".

قال العثيمين- رَحِمَهُ اللَّهُ -: "قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)} الذاريات: ٥٦... ولهذا أعطى الله البشر عقولًا، وأرسل إليهم رسلًا، وأنزل عليهم كتبًا، ولو كان الغرض من خلقهم كالغرض من خلق البهائم؛ لضاعت الحكمة من إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ لأنه في النهاية يكون كشجرة نبتت، ونمت، وتحطمت، ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} القصص: ٨٥، فلابد أن يردك إلى معادٍ تجازى على عملك إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر".

هذا بعض صور الحاجة إلى إرسال الرسل، والأمر أكبر من ذلك بكثير، والأدلة على ذلك كثيرة معلومة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله- ﷺ -.

* أرسل الله الرسل لهداية الناس إلى سعادة الدارين، ولكن تباينت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم ورسلهم ما بين مؤمن بهم متبع لهم، وبين غالٍ فيهم منزِّلهم فوق منازلهم التي أنزلهم الله إياها، فعبدوهم من دون الله، كاليهود الذين جعلوا عزيرًا ابن الله، والنصارى الذين جعلوا عيسى ابن الله، وحذا حذوهم الفرق الضالة كالشيعة والصوفية وغيرهم، وقلما تجد فرقة إلا وتجد فيها هذه الصفة من عبادة الأنبياء والرسل، وخاصة الرسول- ﷺ- وما يوجه له من الدعاء والاستعانة والاستغاثة أكبر دليل على ذلك.

وبين كافر بهم جافٍ لهم منكر للرسالات السماوية، كالملاحدة واليهود وغيرهم،

=

=

أو زاعمٍ بأن الرسل ومنهم محمد- ﷺ- لم يبلغوا البلاغ المبين، ولم يفصحوا فيما جاءوا به مما يتعلق بالله تعالى وأسمائه وصفاته العلا، كالفلاسفة وأهل التخييل والتأويل والتجهيل، ومن مظاهر الجفاء عند أهل البدع تكذيب الرسول- ﷺ- أو بعض ما جاء به، أو بغضه أو بغض ما جاء به، أو المسرة بانخفاض دين الرسول -عليه الصلاة والسلام-، أو الكراهية لانتصار دين الرسول عليه الصلاة والسلام وسبه وشتمه عليه الصلاة والسلام، كما هو موجود عند المرجئة والجهمية. كما أن البراهمة؛ تطرفوا فأحالوا أن يصطفي الله رسولًا من عباده ويرسل إليهم رسولًا، وزعموا أن إرسالهم عبث؛ إما لعدم حاجة الناس إليهم اعتمادًا على العقل في التمييز بين المصالح والمفاسد، واكتفاءً به في إدراك ما يحتاجه الناس من المعاش والمعاد، وإما لاستغناء الله عن عباده؛ لعدم حاجته إلى أعمالهم إن كان خيرًا، وعدم تضرره بها إن كانت شرًا، إذ هو سبحانه لا ينتفع بطاعتهم ولا يتضرر بمعصيتهم. كما أننا نجد في العصر الحديث من جعل النبوة صفة لا تزيد على مرتبة العبقرية، كما عند بعض الكتّاب والأدباء والفلاسفة. بل إن موقف الفرق عمومًا من هذا الركن قد حصل فيه خلل من قريب أو بعيد. ويمكن إجمال أسباب انحراف الفرق في الإيمان بالرسل، إلى سببين رئيسين هما:

١- الخلل في توحيد الربوبية، وعدم تعظيم الله- ﷻ -، ما أدى بقوم إلى صرف الربوبية للرسل، وبقوم آخرين إلى إنكار حكمة الله- ﷻ- من إرساله لرسله عليهم السلام.

٢- الاشتباه الحاصل في معنى تجريد المتابعة للرسل.

واعتمادهم على العقل في ذلك، ولا ريب أنه نحى ببعضهم إلى الغلو فيما نحى بآخرين إلى الجفاء.

ومن أجل هذا فقد، انقسم الناس إلى طرفين متقابلين، طرف انتهج الغلو

=

=

والإفراط والزيادة! ! وطرف سلك طريق التقصير والتفريط والنقصان!. وبيان ذلك في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: الانحراف المؤدي إلى التفريط في الإيمان بالرسل.

إذا كان الناس في القدم يجادلون الرسل، ويرفضون علومهم، ويعرضون عنهم، ويكذبونهم بعد وضوح الحق، ويظهرون لهم التعنت بطلبهم أمورا ليست من قدرة البشر لتعجيزهم، ويؤذونهم -عليهم الصلاة والسلام-ـ مع توافر الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الإيمان بهم، فإن البشر اليوم في القرن العشرين - حيث بلغت البشرية ذروة التقدم المادي، فغاصت في أعماق البحار، وانطلقت بعيدًا في أجواز الفضاء، وفجرت الذرة، وكشفت كثيرًا من القوى الكونية الكامنة في هذا الوجود- أشد جدالًا للرسل، وأكثر رفضًا لعلومهم، وأعظم إعراضًا عنهم، بحجة أن في شريعة الله حجرًا على عقولهم، وتوقيفًا لركب الحياة، وتجميدًا للحضارة والرقيـ وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل، بل إن بعض الدول تضع الإلحاد مبدأ دستوريًا، وهو الذي يسمى بالعلمانية.

وهذا كله شطط بل خروج عن منهج القصد والحق في الاعتقاد بهم.

ونأتي للوقوف على طرق الانحراف المؤدية إلى التفريط في الإيمان بالرسل، وهي:

أولًا: إنكار أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنّة من يشاء من عباده:

من نظر في الكتب المنزلة، وتصفح ما رواه علماء الأخبار، اتضح له اعترافهم بإمكان الوحي وحاجتهم إليه، حتى الكفار؛ فإنهم إنما استبعدوا أن يختار الله لوحيه رسولًا من البشر.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا

=

=
إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)} هود: ٢٥- ٢٧، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار التي تدل على أن إنكار الرسل لم يكن لأصل الرسالة ولا المطلب الأول: الانحراف المؤدي إلى التفريط في الإيمان بالرسل.

إذا كان الناس في القدم يجادلون الرسل، ويرفضون علومهم، ويعرضون عنهم، ويكذبونهم بعد وضوح الحق، ويظهرون لهم التعنت بطلبهم أمورا ليست من قدرة البشر لتعجيزهم، ويؤذونهم -عليهم الصلاة والسلام- مع توافر الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الإيمان بهم، فإن البشر اليوم في القرن العشرين - حيث بلغت البشرية ذروة التقدم المادي، فغاصت في أعماق البحار، وانطلقت بعيدًا في أجواز الفضاء، وفجرت الذرة، وكشفت كثيرًا من القوى الكونية الكامنة في هذا الوجود- أشد جدالًا للرسل، وأكثر رفضًا لعلومهم، وأعظم إعراضًا عنهم، بحجة أن في شريعة الله حجرًا على عقولهم، وتوقيفًا لركب الحياة، وتجميدًا للحضارة والرقي وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل، بل إن بعض الدول تضع الإلحاد مبدأ دستوريًا، وهو الذي يسمى بالعلمانية.

وهذا كله شطط بل خروج عن منهج القصد والحق في الاعتقاد بهم.

ونأتي للوقوف على طرق الانحراف المؤدية إلى التفريط في الإيمان بالرسل، وهي:

أولًا: إنكار أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنّة من يشاء من عباده:

من نظر في الكتب المنزلة، وتصفح ما رواه علماء الأخبار، اتضح له اعترافهم بإمكان الوحي وحاجتهم إليه، حتى الكفار؛ فإنهم إنما استبعدوا أن يختار الله
=

=

لوحيه رسولًا من البشر.

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)} هود: ٢٥- ٢٧، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار التي تدل على أن إنكار الرسل لم يكن لأصل الرسالة ولا لحاجتهم إليها، وإنما كان لبعث رسول الله إليهم من جنسهم ـ ولم يقفوا عند هذا الحد، بل وصفوا بعض الخلق بالقداسة ورفعوهم فوق منزلة الأنبياء والرسل، فجعلوا هذه المنزلة تنال بالكسب لا بالاصطفاء.

والذي جلب لهم هذا الخلط والاضطراب، توهمهم: " استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم... "ـ وقريبًا من موقف العرب، يقف اليهود "الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده، وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده ... ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد...".

ونحى نحوهم الشيعة في تقديس أئمتهم ـ والصوفية في تقديس أوليائهم وتفضيلهم على الأنبياء ـ وادعى الفضيلية من الخوارج أنهم أفضل من الأنبياء، حيث أجازوا الكفر على الأنبياء، باعتبار تجويزهم للذنوب عليهم، وكل ذنب فإنه كفر عندهم، والأزارقة من الخوارج، أجازوا أن يبعث الله نبيًا يعلم أنه يكفر بعد نبوته، حكي عن أبي جعفر السمناني

أنه يقول بجواز الكفر على الأنبياء، حكاه عنه ابن حزم ـ كما أجازت الرافضة على الأنبياء إظهار كلمة الكفر تقية إذا خافوا على أنفسهم، احترازًا من إلقاء النفس إلى

=

=

التهلكة. بل ظهر من يدعي النبوة، ومن يزعم بأن النبوة لم تختم بالنبي - ﷺ - كالقاديانية.

وقد نقل شيخ الإسلام وغيره الاتفاق على أن الأنبياء عليهم السلام هم أفضل الخلق، فقد حفظهم الله تعالى "من تغير الفطرة، ومن الخطأ فيما يبلغون عنه من وحي، ومن اقتراف كبائر الذنوب، وما يستقذر من صغائرها، وعدم إقرارهم على ما يمكن وقوعه منهم من المعاصي". لذلك اجتباهم - ﷻ - واصطفاهم على سائر البشر و {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} الأنعام: ١٢٤، فهم أعلم وأتقى من عبد الله من الخلق، كما أنهم أعلم الناس بالحقائق. وهذا معلوم بالاضطرار من دين الله، ولا يجهله عامة الناس فضلا عن علمائهم.

ثانيًا: ادعاء كفاية العقل في إدراك الحسن والقبح:

تكلف المبتدعة تقديس العقل، فردوا به نصوص الوحي، زاعمين أنهم ليسوا بحاجة للرسل؛ لأن عقولهم تفرق بين الحسن والقبيح، ومما يدلك على ضرورة بطلان هذا الادعاء، ما يلي:

١ - أن العقل محدود في عمله:

العقل له مجال معين يعمل فيه، وهو عالم الماديات دون الغيبيات، فهو لا يزال يعمل في هذا الجانب ويكتشف الاكتشافات ويبتكرها وليست معلومة لديه دفعة واحدة، لذا فإن العقل ليس المصدر الوحيد للمعرفة، فمن المعلوم أن مصادر المعرفة متعددة. وكما أن سائر الآلات في الإنسان محدودة ويصيبها الضعف، فهكذا العقل محدود ويصاب بالضعف.

٢ - عجز العقل عن إدراك عالم الغيب:

إن العقل لا يمكنه أن يدرك عالم الغيب وما يحصل في المستقبل، وهل هناك مخلوقات أخرى كالجن والملائكة، ومعرفة حقيقة الروح في جسم الإنسان، وما

=

=

الذي يحصل للإنسان في قبره، وماذا يكون للبشرية بعد الموت من الحساب والجزاء والجنة والنار، وكذلك معرفة الخالق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، كل ذلك وغيره كثير مما لا يمكن للعقل مهما كان ذكاؤه أن يدركه على حقيقته إدراكًا تامًا، فكان لابد من إرسال الرسل من عند الخالق سبحانه لتعريف الإنسان بذلك.

٣- عجز العقل عن إدراك ألوهية الله وعبادته:

إن العقل عاجز عن الوصول إلى المعبود الحق ومعرفة أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنه لا يجوز صرف العبادة لغير الله جل وعلا، ولذا تجد أن العقل يتخبط في هذا الجانب ويحتار، وهنا اختلفت العقول وتباينت معبوداتها قديمًا وحديثًا.

ورغم ما وصلت إليه البشرية من التطور الهائل، ومع ذلك فلا يزال كثير من سكان الأرض يعبدون غير الله- ﷻ -، فمنهم من لا يزال يعبد التماثيل والأحجار ومنهم من يعبد الأبقار والشيطان، بل عَبَدَ بعض الناس فروج النساء وتخبطت البشرية في هذا الجانب.

٤- تفاوت العقول واختلافها:

ومما يجعل العقول عاجزة عن هداية الخلق وإرشادهم أن العقول مختلفة ومتفاوتة ولكل عقل منها رأي في القضايا المطروحة عليه، فما هو العقل الذي نعتمد عليه في حسم الخلافات، وما هو المعيار في كون عقل فلان صوابًا، وعقل فلان خطأ؟ إنه لا جواب لمثل هذه الأسئلة إلا ببعثة الرسل فهم الذين يرشدون البشر ويهدون العقول ويحكمون بالخطأ والصواب على معتقدات الناس وأفعالهم.

٥- عجز العقل عن وضع منهج صحيح للحياة:

=

=

إن العقل يدرك الحسن والقبح في بعض الجوانب من حيث الجملة ولكنه عاجز عن إدراك جميع جوانب الحسن والقبح، كما أنه أيضًا عاجز عن إدراك الأحكام الجزئية ووضع التشريعات المناسبة الصحيحة لتلك الجزئيات.

وكذلك لا يستطيع العقل أن يدرك تفاصيل العبادة التي يريدها الله من خلقه ولأجلها خلقهم، مثل تفاصيل الصلاة والصيام والزكاة والذكر وغيره من أنواع العبادات. وهكذا في جانب التشريعات التي يحتاج إليها البشر في حياتهم مثل جانب السياسة والاقتصاد والاجتماع وأمور السلم والحرب والعلاقات بين الدول، كل ذلك مما يعجز العقل عن إدراكه.

والذي جلب لهم هذا الخلط والاضطراب: توهمهم أن هناك معارضة بين العقل والنقل، وذلك لِما اعتقدوه من أن العقل مقدس ومنزه عن الخطأ، فنفوا وعطلوا وأولوا ما أتت به الرسل من النقل، ولم يرفعوا به رأسًا، بل ركنوا إلى قواعدهم العقلية وأصولهم الفلسفية، وجعلوها عمدة في ردّ ما ورد به الشرع بدعوى معارضته لها.

وهكذا نلحظ أن كثيرًا من انحراف هؤلاء، إنما هو نتيجة التزامهم بما اعتمدوه من كليات عقلية وقواعد منطقية، أدت بهم إلى التفريط في باب الإيمان بالرسل.

ثالثًا: بسبب البدع التي شيّدت عليها الفرق مذاهبها:

نجد الموقف الحائر والمتردد في أمر النبوة والرسالة منتشر سائد بين أهل الأهواء. فنجد أن الفلاسفة متناقضون في أمر النبوة فلا هم كذبوا بهم تكذيب المكذبين الذين كذبوا بالنبوات مطلقًا ولا صدقوهم تصديق المؤمنين الذين آمنوا بهم مطلقًا، بل كانوا كمن آمن ببعض وكفر ببعض، وهؤلاء من الكافرين حقًا وهم من المنافقين المذبذبين، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، وفيهم من يكثر نفاقه وزندقته، وفيهم من يكون نفاقه أقل من نفاق غيره.

=

=

ومنهم الذين يقفون من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- موقف الإنكار، ويسمون أنفسهم المجددين والعصرانيين والصحيح أنهم ليسوا بمجددين، وإنما ابتدعوا أمورًا جديدة فأطلقوا على أنفسهم هذا اللقب، وهو في الحقيقة تجديد بدعي، حيث أن المراد عندهم هو التلفيق بين ما جاء به الإسلام وبين الأفكار البشرية المنحرفة المتمثلة عند قدماء المبتدعة المتكلمين "الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة" في الفلسفة والمنطق اليوناني والرماني ونحوهما، وأما العصرانيون فحقيقة أمرهم التلفيق بين الدين وبين الحضارة المادية الحديثة أو التوفيق بين الدين والعصر الحديث، بإعادة تأويل الدين وتفسير تعاليمه في ضوء متطلبات العصر.

كذلك نجد أن المعتزلة والجهمية ومن يسمون أنفسهم بالعقلانيين وقفوا موقفًا متناقضًا من الإيمان بالرسول- ﷺ -، فبعض الأحيان يأخذون بالسنة وفي البعض الآخر يردوها زاعمين وجوب الأخذ بالأحاديث المتواترة دون الآحاد، وعند التطبيق نجدهم يردون كثيرًا من الأحاديث المتواترة ويأخذون بأحاديث الآحاد، وما ذلك إلا وقوع في نقيض المعتقد، ومع ذلك يقولون: إن الصحابة أو معظمهم لا يوثق بقولهم والأخذ منهم بعد حصول الفتنة، فلذلك يردون الرواية التي لا تروق لهم بهذه الحجة الفاسدة الواهية، فمرة يقولون بالتأويل ومرة بالمجاز ومرة بمخالفة المنقول لصريح المعقول.

يقول ابن القيم- رَحِمَهُ اللهُ -: " ولما أصلت القدرية أن الله سبحانه لم يخلق أفعال عباده ولم يقدرها عليهم أولوا كل ما خالف أصولهم"ـ وبذلك جعلوا سنة الرسول- ﷺ- خاضعة لهم ولمعتقداتهم، ومن الخلل عندهم في هذا الركن، أن المعتزلة والجهمية ينفون كرامات الأولياء بحجة أنه لو جاز ظهور الخوارق على أيديهم لالتبس النبي بغيره، إذ الفرق بين النبي وغيره هو المعجزة التي هي

=

=

الخارق للعادة، والصحيح أن قولهم مردود حيث إن الولي لا يأتي بالخارق لادعاء النبوة. ولم يقف المعتزلة عند هذا الحد، بل أنكروا معجزات الرسول- ﷺ- التي تؤدي إلى إنكار نبوته، ونبوة غيره من الرسل والأنبياء.

أما المرجئة فموقفها من هذا الركن متناقض كذلك، فما وافق أصولها تمسكت به وعضت عليه، وما ناقضها ضربت به عرض الحائط. يقول ابن القيم- رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: " ولما أصلت المرجئة أن الإيمان هو المعرفة وأنها لا تزيد ولا تنقص أولوا ما خالف أصولهم، ولما أصلت الكلابية أن الله سبحانه لا يقوم به ما يتعلق بقدرته ومشيئته وسموا ذلك حلول الحوادث أولوا كل ما خالف هذا الأصل"،. وفي المقابل يزعمون محبة الرسول عليه الصلاة والسلام، ويفسرون هذه المحبة بأفعالهم الشركية إما بالاستغاثة أو التوسل غير المشروع زاعمين أن هذه التصرفات تدل على محبته وتكريمه، وفي المقابل لا يرون سب الرسول- ﷺ- كفرًا، بل يعتقدون أنه لا يضر مع التصديق شيء.

رابعًا: تعظيم غير الأنبياء والمرسلين:

وفي معنى الجفاء الذي يقطع الصلة المتولدة في القلب من المحبة والتعظيم لرسل الله، ما جعله الأتباع لمشايخهم وأئمتهم من الفضائل والمناقب ما لم يكن للأنبياء والمرسلين ولا لسيد البشر- ﷺ -، فهذا من الجفاء إذ إن النبي- ﷺ- فاق في فضله جميع الأنبياء والمرسلين بل هو سيدهم وإمامهم فلا شك أن تقديم غيره عليه- ﷺ- في الفضائل من أعظم الجفاء؛ لأن بذلك التعظيم للغير تنشأ المحبة التي تفوق محبة النبي- ﷺ- التي لا يبقى منها إلا الادعاءات التي يُعبرون عنها بالمولد والاحتفالات، ويدخل في الجفاء أيضًا ترك التأسي به- ﷺ- في هديه والتأسي بغيره، والجفاء في كل ذلك تختلف درجته، فمنه ما يكون كفرًا والعياذ بالله ومنه ما هو دون ذلك، وأكثر من يتصف بالجفاء هم الفلاسفة المنتسبون إلى

=

=

الإسلام ومدعو النبوة عمومًا والصوفية. وبالجملة فقد أصاب النبوة مثل ما أصاب الربوبية في العصر الحديث، فالنبوة في هذا العصر لا تزيد على مرتبة العبقرية. لذا ظهر التعظيم لغير الأنبياء.

المطلب الثاني: الانحراف المؤدي إلى الإفراط في الإيمان بالرسل.

من جملة المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذا الباب، الغلاة المنحرفون كالنصارى الذين غلوا في عيسى عليه السلام فجعلوه ثالث ثلاثة -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-، وكالغلاة في نبينا محمد- صلى الله عليه وسلم- الذين ادعوا أنه يعلم ما كان وما يكون، وأن الكون ما خلق إلا من أجله، وأن الكائنات خلقت من نوره، وأنه أول الموجودات، وأنه يكشف الكرب ويغفر الذنب، ويجيب المضطر إذا دعاه، ويذهب الهم والغم ويكشف الحزن، ويعلم الغيب، وغيرها من الصفات التي ليست إلا لله وحده لا شريك له.

متجاوزين حقيقة أن رسل الله- عز وجل- بشر كسائر البشر فلا يملكون جلب النفع لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا دفع الضر ولا كشفه إلا بشيء قد كتبه الله وقدره وأعانهم عليه، وليس لهم من علم الغيب شيء إلا ما أطلعهم الله عليه وخصهم به، وليس لهم من صفات الألوهية أو الربوبية شيء البتة، بل هم عبيد لله من أكمل عباد الله عبودية وأحسنهم طاعة. كما دل على ذلك القرآن الكريم وأكثر من وصفهم بالبشرية، واصطفائهم بالوحي.

ومن أجل هذا فإن الانحراف المؤدي إلى الإفراط في الإيمان بالرسل، يأتي من طريقتين، وهما:

أولًا: اعتقاد القداسة في ذوات الأنبياء والرسل:

لقد غلا اليهود في عزير، كما غلت النصارى في عيسى غلوًا عظيمًا، قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ

=

=
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠)} التوبة: ٣٠، ولم تكن الفرق البدعية منهم ببعيد، فقد أوصلهم غلوهم في نبينا- ﷺ- إلى:

* اعتقاد أن النبي- ﷺ- خلق من نور الله فقالوا بالاتحاد ووحدة الوجود.

فالنبي- ﷺ- عند أئمة الصوفية خُلق من نور الله تعالى، ثم خُلق من نور النبي- ﷺ- بقية المخلوقات، وهذا الذي ذهبوا إليه من خلق العالم أو صدوره عن ذات الله تعالى هو الذي يفسر لنا ما ذهب إليه هؤلاء الغلاة من القول بوحدة الوجود- والفناء أو الاتحاد بالله تعالى، كما زعمت الصوفية بأن حقيقة قوله تعالى: {ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} النجم: ٨، أي: أن رسول الله – عليه السلام- ليس مغايرًا لله تعالى فلا تزعم أنه كان هناك وجودان فما رأى عليه السلام إلا نفسه.

والقول بأنه ليس هناك وجودان، وأن محمدًا عليه السلام ما رأى في ذلك الوقت إلا نفسه (قول بوحدة الوجود) وذلك كفر صريح، بل يتبين أن من قال بهذا القول ليس بمؤمن فضلًا عن أن يكون من أهل السنة والجماعة، بل كافر مرتد عن ملة الإسلام إن كان قد زعم أنه مسلم.

* اعتقادهم أن النبي- ﷺ- خلق من نور، فأخرجوه من بشريته:

وغفل هؤلاء من أن النبي- ﷺ- من البشر، والأدلة متوافرة على ذلك، والبشر خلق من التراب لا من النور {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)} الروم: ٢٠، كما أنه أمره ربه- عز وجل- أن يقول -لما طلب المشركون منه- ﷺ- أمورا ليست من قدرة البشر على سبيل التعجيز -: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)} الإسراء: ٩٣.

* صرف الربوبية والألوهية للنبي- ﷺ -:

نجد من يستغيث به- ﷺ- بعد موته، بل منهم من زعم أنه يعطي ويمنع، ويضر
=

=
وينفع ووصفه بعضهم بأنه مالك الأرضين والناس والأمم والخلائق، وبيده مفاتيح النصر والمدد والجنة والنار، وهو الذي يكون صاحب القدرة والاختيار يوم القيامة، وهو الذي يكشف الكروب، ويدفع البلاء، وهو حافظ لأمته وناصر لها، وإليه ترفع الأيدي بالاستجداء، وأنه مبرء من كل سقم، وهو الذي أبرد على الخليل النار، وهو الذي يهب ويعطي، وحكمه نافذ وأمره جار في الكونين، ويعلم الغيب، بل زعم بعضهم أنه- ﷺ- نور خلق من نور الله، وليس ببشر.

ولا أدري ماذا أبقوا لله رب العالمين؟ !.

* التوسل بجاه النبي- ﷺ -.

التوسل بالحق والجاه والذات أمر محدث مبتدع لم يأذن الله تعالى به، قال شيخ الإسلام- رَحِمَهُ اللهُ -: " ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعًا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان".

ومن قالوا بجواز التوسل بحق النبي- ﷺ- في الخطوة الأولى، توسعوا وقالوا بجوازه بالأنبياء من قبلُ عليهم السلام، ثم توسعوا ففتحوا الباب على مصراعيه وقالوا بجواز التوسل بكل عبد مؤمن، ثم وقع كثير منهم في الشرك الأكبر، وذلك بأن صرفوا الاستغاثة وقضاء الحاجات، وكشف الضرر والكُربات، وشفاء الأسقام فيما عجز عن طبه الأنام، وغفران الذنوب والآثام التي هي من خصائص رب العزة والجلال، إلى الأنبياء والصالحين.

بقي أن يعلم أن كون أحاديث التوسل وجاه الرسول- ﷺ- ضعيفة، لا يعني بأنه- ﷺ- ليس له جاه عند ربه- عَزَّ وَجَلَّ -، ولا ينفي التوسل المشروع الذي جاء به الشرع الحنيف، فجاهه- ﷺ- أعظم الجاه بل لا يبلغ أحد من الخلق ما بلغه- ﷺ- من الجاه عند ربه- عَزَّ وَجَلَّ -.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رَحِمَهُ اللهُ -: " وجاهه عند الله تعالى أعظم من جاه
=

=

جميع الأنبياء والمرسلين، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله تعالى، فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا (٦٩)} الأحزاب: ٦٩، وقال تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)} آل عمران: ٤٥، فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله- ﷻ- فكيف بسيد ولد آدم، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب الكوثر والحوض المورود....وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حيث يتأخر عنها آدم وأولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا ذو الجاه العظيم- ﷺ-".

* الإطراء والمبالغة في المدح في يوم "الاحتفال بالمولد".

في" نظر الكثيرين من أهل السنة والجماعة أن الاحتفال بمولد الرسول عليه السلام بدعة منكرة... ويجب التسليم من كل منصف أن النبي عليه السلام لم يحتفل بمولد نفسه ولا بمولد غيره من الرسل والصحابة مع امتداد حياته بعد الرسالة ولا احتفل بمولده أحد من الصحابة وهم خير القرون المشهود لهم بالخير، ورسول الله عليه السلام أكرم الخلق على نفوسهم وأحب العالمين إلى قلوبهم ولو احتفلوا بمولده لنقل لتوفر الدواعي على نقله؛ فيكفي في الاستشهاد على أن ترك الاحتفال بمولده سنة وأن فعله بدعة لعدم نقلهم لفعله.. أما ما ذكر عن حسان بن ثابت وعلي بن أبي طالب والبراء بن عازب وأنس بن مالك- رضي الله عنهم - من الثناء على النبي عليه السلام فإنهم لم يلتزموا فيه وقتًا معينًا يتخذونه موسمًا ومجتمعًا وهذا متفق عليه ومندوب إليه لشرح سيرة النبي عليه السلام تدريسًا أو دفاعًا عنه عند وجود الدواعي لذلك دون التزام حال معينة أو زمان أو مكان معين وإنما البدعة التزام زمن أو مكان بعينه يعتبر

=

=

موسمًا ويعتاد الناس الاجتماع فيه شأنهم فيه كشأنهم في الأعياد بل هذا ربما أدى إلى الغلو في إعظام النبي ﷺ وإطرائه وقد نهى عن ذلك فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم) ".

قال شيخ الإسلام- رَحِمَهُ اللَّهُ -: " اتخاذ هذا اليوم عيدًا محدث لا أصل له فلم يكن في السلف لا من أهل البيت ولا من غيرهم من اتخذ ذلك عيدا حتى يحدث فيه أعمالا إذ الأعياد شريعة من الشرائع فيجب فيها الاتباع لا الابتداع وللنبي ﷺ خطب وعهود ووقائع في أيام متعددة مثل يوم بدر وحنين والخندق وفتح مكة ووقت هجرته ودخوله المدينة وخطب له متعددة يذكر فيها قواعد الدين ثم لم يوجب ذلك أن يتخذ أمثال تلك الأيام أعيادًا وإنما يفعل مثل هذا النصارى الذين يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعيادا أو اليهود وإنما العيد شريعة فما شرعه الله اتبع وإلا لم يحدث في الدين ما ليس منه وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيما له والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد لا على البدع من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيدا مع اختلاف الناس في مولده فإن هذا لم يفعله السلف مع قيام المقتضي له وعدم المانع منه ولو كان هذا خيرا محضا أو راجحا لكان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أحق به منا فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيما له منا وهم على الخير أحرص وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره وإحياء سنته باطنا وظاهرا ونشر ما بعث به والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان فإن هذه هي طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان".

ثانيًا: إرادة تنزيه الأنبياء والرسل:

قال ابن قتيبة – رَحِمَهُ اللَّهُ -: "يستوحش كثير من الناس من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوبًا، ويحملهم التنزيه لهم –صلوات الله عليهم– على مخالفة كتاب الله جل ذكره،

=

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠).

{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا لَعِب وَلَهْو وَزِينَة} تَزْيِين {وَتَفَاخُر بَيْنكُمْ وَتَكَاثُر فِي الْأَمْوَال وَالْأَوْلَاد} أَيْ الِاشْتِغَال فِيهَا وَأَمَّا الطَّاعَات وَمَا يُعِين عَلَيْهَا فَمِنْ أُمُور الْآخِرَة {كَمَثَلِ} أَيْ هِيَ فِي إعْجَابهَا لَكُمْ وَاضْمِحْلَالهَا كَمَثَلِ {غَيْث} مَطَر {أَعْجَبَ الْكُفَّار} الزُّرَّاع {نَبَاته} النَّاشِئ عَنْهُ {ثُمَّ يَهِيج} يَيْبَس {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُون حُطَامًا} فُتَاتًا يَضْمَحِلّ بِالرِّيَاحِ {وَفِي الْآخِرَة عَذَاب شَدِيد} لِمَنْ آثَرَ عَلَيْهَا الدُّنْيَا {وَمَغْفِرَة مِنْ الله وَرِضْوَان} لِمَنْ لَمْ يُؤْثِر عَلَيْهَا الدُّنْيَا {وَمَا الحياة الدنيا} ما التمتع فيها {إلا متاع الغرور}.

سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

=

واستكراه التأويل، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة".

لذلك ظهر القول بأن النبي - ﷺ- كان نبيًا قبل أن يوحى إليه- بل إن النصارى قالوا للنبي - ﷺ -، لما قال لهم: ((إن المسيح عبد الله)).

قالوا: تنقصت المسح وعبته، وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانًا تعبد، ومساجد تقصد- كما وجد من ينزه الأنبياء والرسل عن أن يكونوا قبل النبوة ممن ارتكب الذنوب- إلى غير ذلك من أوجه التنزيه التي لم يرد بها دليل شرعي.

(٢١).

{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَة مِنْ رَبّكُمْ وَجَنَّة عَرْضهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْض} لَوْ وُصِلَتْ إحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى وَالْعَرْض السِّعَة {أُعِدَّتْ للذين آمنوا بالله ورسله ذَلِكَ فَضْل الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء وَاَللَّه ذو الفضل العظيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [الحديد: ٢٠]، أي:"اعلموا -أيها الناس- أنما الحياة الدنيا لعب ولهو، تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: اعلموا أيها الناس إن متاع الحياة الدنيا المعجلة لكم، ما هي إلا لعب ولهو تتفكَّهون به".

قال النحاس:"أي: يفرح الإنسان بحياته فيها كما يفرح باللعب، ثم تزول حياته كما يزول لعبه".

قال السمعاني:"أي: هي ما يلعب به ويلهي.. والمراد به: كل ما أريد به غير الله، أو كل ما شغل عن الدين. ويقال: لعب ولهو: أكل وشرب. ويقال: اللعب الأولاد، واللهو النساء".

قال الثعلبي:"{لَعِبٌ}: لعب باطل لا حاصل له، {وَلَهْوٌ}: فرح ثم ينقضي".

قال الواحدي: أي: " في انقضائها وقلَّة حاصلها".

قال مقاتل:"زهدهم في الدنيا لكي لا يرغبوا فيها".

قال ابن عباس في هذه الآية: "يريد ما كان لغير الله فهو باطل وغرور".

قوله تعالى: {وَزِينَةٌ} [الحديد: ٢٠]، أي:"وزينة تتزينون بها".

قال الثعلبي:"منظر يتزينون به".

قال الواحدي:"يتزيَّنون بها".

قال ابن عباس: " يريد يتزين الناس بما لا يحب الله ولا يرضى".

قوله تعالى: {وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ} [الحديد: ٢٠]، أي:"وتفاخر بينكم بمتاعها".

=

=

قال الطبري: يقول:"يفخر بعضكم على بعض بما أولى فيها من رياشها".

قال الثعلبي:"يفخر به بعضكم على بعض".

قال ابن عباس: "يفاخر الرجل قريبه وجاره".

قوله تعالى: {وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ} [الحديد: ٢٠]، أي:"وتكاثر بالعدد في الأموال والأولاد".

قال الطبري: يقول:"ويباهي بعضكم بعضا بكثرة الأموال والأولاد".

قال الواحدي:"مباهاةٌ بكثرتها".

قال السمعاني:"أي: تطاول بكثرة الأولاد والأموال. والفرق بين التفاخر والتكاثر: أن التفاخر قد يكون ممن له ولد ومال مع من لا ولد له ولا مال، وأما التكاثر لا يكون إلا ممن له ولد ومال مع من له ولد ومال".

قال ابن عباس: " يجمع ما لا يحل له تكاثرًا به، ويتطاول على أولياء الله بماله وخدمه وولده".

قال علي بن أبي طالب لعمار بن ياسر: «لا تحزن على الدنيا، فإن الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح. فأكبر طعامها العسل وهي بزقة ذبابة، وأكبر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأكبر الملبوس الديباج وهي نسجة دود، وأكبر المشموم المسك، وهي دم فأرة ظبية، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأكبر المنكوح النساء وهو مبال في مبال. والله إن المرأة ليزين أحسنها يراد به أقبحها".

قوله تعالى: {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} [الحديد: ٢٠]، أي:"مثلها كمثل مطر أعجب الزُّرَّاعَ نباته".

قال الزجاج:"«الكفار» ههنا له تفسيران: أحدهما أنه الزرع، وإذا أعجب الزراع نباته مع علمهم به، فهو في غاية ما يستحسن. ويكون «الكفار» -ههنا-: الكفار

=

=

بالله، وهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين".

عن مجاهد:"{أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} يعني: الزراع".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} [الحديد: ٢٠]، أي:"ثم ييبس بعد خضرته ونُضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهيًا ناضرا".

قال الطبري: يقول:"ثم ييبس ذلك النبات، {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، بعد أن كان أخضرَ نضرا".

قال الزجاج:"معنى {يَهِيجُ}: يأخذ في الجفاف فيبتدئ به الصفرة".

قال الحسن بن مسلم بن يَنّاق:"ثم ييبس ذلك الزرع مِن بعد خضرته، يقال للأرض إذا يبس ما فيها من الخَضِرِ وذَوى: هاجت الأرض، وهاج الزرع".

وقرئ: «مصفارا».

قوله تعالى: {ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} [الحديد: ٢٠]، أي:"ثم يكون فُتاتًا يابسًا متهشمًا".

قال الطبري: "يقول: ثم يكون ذلك النبات حطاما، يعني به: أنه يكون نبتا يابسا متهشما".

قال الزجاج:"أي: متحطما متكسرا ذاهبا، وضرب الله هذا مثلا لزوال الدنيا".

قال السمعاني:"وقيل: يكون نبتا لا قمح فيه".

قال الزمخشري -في الآية:"شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث عليه العاهة فهاج واصفرّ وصار حطاما عقوبة لهم على جحودهم، كما فعل بأصحاب الجنة وصاحب الجنتين".

قوله تعالى: {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ} [الحديد: ٢٠]، أي:"وفي الآخرة عذاب شديد للكفار ومغفرة من الله ورضوان لأهل الإيمان".

=

=

قال الطبري: "يقول: وفي الآخرة عذاب شديد للكفار. {وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ} لأهل الإيمان بالله ورسوله".

قال الزجاج:"فمغفرة لأولياء الله، وعذاب لأعدائه".

قال السمعاني:"{وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، يعني: لمن آثر الدنيا على الآخرة. وقوله: {وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ} يعني لمن آثر الآخرة على الدنيا".

قال قتادة:"يقول: صار الناس إلى هذين الحرفين في الآخرة".

قال ابن عباس:"عذاب شديد لأعداء الله {وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ} لأوليائه وأهل طاعته".

قال الزمخشري -في الآية:"أراد أنّ الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور وهي اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر. وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام، وهي: العذاب الشديد والمغفرة ورضوان الله".

قوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد: ٢٠]، أي:"وما الحياة الدنيا لمن عمل لها ناسيًا آخرته إلا متاع الغرور".

قال الطبري: "يقول: وما زينة الحياة الدنيا المعجلة لكم أيها الناس، إلا متاع الغرور".

قال ابن كثير:"أي: هي متاع فانٍ غارٍّ لمن ركن إليه فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة".

قال السمعاني:"{مَتَاعُ الْغُرُورِ}: هو كل ما لا أصل له، أو كل ما لا بقاء عليه".

عن أبي هريرة، عن النبي-ﷺ-، قال:"موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها". وفي رواية الطبري:"اقرؤوا: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ}".

قال سهل:"الدنيا نفس نائمة، والآخرة نفس يقظانة. قيل: فما النجاة منها؟ قال: أصل ذلك العلم، ثم ثمرته مخالفة الهوى في اجتناب المناهي، ثم مكابدة النفس

=

=

على أداء الأوامر على الطهارة من الأدناس، فيورث السهولة في التعبد والحلول بعده في مقامات العابدين، ثم يذيقه الله ما أذاق أولياءه وأصفياءه وهي درجة المذاق".

عن أبي مالك:"{الغرور}: يعني: زينة الدنيا".

قال سعيد بن جبير: "متاع الغرور: هو ما يلهيك عن طلب الآخرة وما لم يلهك فليس بمتاع الغرور ولكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه".

عن الأعمش:"{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}، قال: زاد الراعي".

عن الأعمش: " {متاع الحياة الدنيا}، قال: مثل زاد الراعي".

عن الأعمش:"{متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل}، قال المتاع: زاد الراعي مخلاته فيها طعامه".عن قتادة: " {متاع الحياة الدنيا}، قال: هي متاع متروكة أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله".

عن هشام بن حسان، قال: سمعت الحسن يقول: "متاع الدنيا قليل، قال: رحم الله عبدا صاحبها على ذلك".

قال سفيان بن عيينة:"العلم قبل العمل، ألا تراه قال: {اعلموا أنما الحياة الدنيا} إلى قوله: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها}؟!".

قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [الحديد: ٢١]، أي:"سابقوا -أيها الناس- في السعي إلى أسباب المغفرة من التوبة النصوح والابتعاد عن المعاصي؛ لِتُجْزَوْا مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: {سَابِقُوا} أيها الناس {إِلَى} عمل يوجب لكم {مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأرْضِ}".

=

=

قال النحاس:"أي: سابقوا بالأعمال التي توجب المغفرة".
قال الزجاج:"المعنى: سابقوا بالأعمال الصالحة، وقيل إن الجنات سبع، وقيل أربع لقوله: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، وقوله بعد ذلك: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٦٢]. وقيل: {عَرْضُهَا} ولم يذكر طولها- والله أعلم- وإنما ذكر عرضها -ههنا- تمثيل للعباد بما يفعلونه ويقع في نفوسهم، وأكبر ما يقع في نفوسهم مقدار السماوات والأرض".
عن سعيد بن جبير:"{إلى مغفرة من ربكم}، قال: لذنوبكم".
قال سعيد بن جبير:"يعني: عرض سبع سموات وسبع أرضين لو لصق بعضهن إلى بعض فالجنة في عرضهن".
قال عطاء عن ابن عباس: "يريد لرجل واحد، يعني أن لكل واحد جنة بهذه السعة".
قال ابن كيسان: "عنى به جنة واحدة من الجنان".
عن رياح بن عبيدة -من طريق داود بن أبي هند- في قوله: " {سابقوا إلى مغفرة من ربكم}، قال: التكبيرة الأولى، والصّف الأول".
عن أنس بن مالك -من طريق ثابت البُناني- في قوله: " {سابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ}، قال: التكبيرة الأولى".
عن كريب، قال: "أرسلني ابن عباس إلى رجل من أهل الكتاب أسأله عن هذه الآية جنة عرضها السماوات والأرض قال: فأخرج أسفار موسى فجعل ينظر، قال: تلفق كما يلفق الثوب، وأما طولها فلا يقدر قدره إلا الله". وروي عن يزيد بن أبي مالك نحو ذلك.
عن يعلى بن مرة، قال: "لقيت التنوخيّ رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص، شيخًا كبيرًا قد فُنِّد. قال: قدمت على رسول الله ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة

=

=

رجلا عن يساره. قال قلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية. فإذا كتاب صاحبي: " إنك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ " فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله! فأين الليل إذا جاء النهار؟".

وعن طارق بن شهاب قال: "جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال: تقولون: {جنة عرضها السموات والأرض}، أين تكون النار؟ فقال له عمر: أرأيت النهار إذا جاء أين يكون الليل؟ أرأيت الليل إذا جاء، أين يكون النهار؟ فقال: إنه لمثلها في التوراة، فقال له صاحبه: لم أخبرته؟ فقال له صاحبه: دعه، إنه بكلٍّ موقنٌ".

قوله تعالى: {أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد: ٢١]، أي:"وهي مُعَدَّة للذين وحَّدوا الله واتَّبَعوا رسله".

قال الطبري:"يعني: الذين وحدَّوا الله، وصدّقوا رسله".

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "لَلْجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله، والنار مثل ذلك".

قال ابن كثير:"ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات".

قوله تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [الحديد: ٢١]، أي:"ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على من يشاء من عبادة من غير إيجاب".

قال الطبري: يقول: " هذه الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، التي أعدّها الله للذين آمنوا بالله ورسله، فضل الله تفضل به على المؤمنين، والله يؤتي

=

=

فضله من يشاء من خلقه".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم".

قال الزجاج:"وهذا دليل أنه لا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله".

عن السدي:" {يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} ، قال: يختص به من يشاء".

عن أبي هريرة:"أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم» قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «تسبحون، وتكبرون، وتحمدون، دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة». قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»".

قوله تعالى: {وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١]، أي:"والله ذو الإحسان والعطاء الكثير الواسع على عباده المؤمنين".

قال الطبري: يقول: " وهو ذو الفضل العظيم عليهم، بما بسط لهم من الرزق في الدنيا، ووهب لهم من النِّعم، وعرّفهم موضع الشكر، ثم جزاهم في الآخرة على الطاعة ما وصف أنه أعدّه لهم".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {العظيم} ، يعني: وافر".

قال العثيمين: لما ذكر الله أحوال المؤمنين وأحوال الكافرين وهم في الدنيا، كل يعمل على شاكلته، بين حقيقة الدنيا ما هي، وأمرنا أن نعلم من أجل أن يجتهد

=

=

الإنسان في التأمل والتفكر، فالأمر بالعلم بشيء واقع يعني أن المطلوب أن تتأمل كثيرًا حتى يتبين لك الأمر، {اعلموا أنما الحياة الدنيا} وهي حياتنا هذه {لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال}ـ خمسة أشياء: اللعب بالجوارح، بأن يعمل الإنسان أعمالًا تصده عن ذكر الله وعن الصلاة، وأما اللهو بالقلوب فهو الغفلة، وهذا أشد وأعظم، وغفلة القلب- اعاذنا الله منها وأحيا قلوبنا- الغفلة عظيمة تفقدك جميع لذات الطاعة، وتحرم من جميع آثارها لقول الله تعالى: {ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه} لم يقل: لا تطع من أسكتنا لسانه، بل قال: {من أغفلنا قلبه}ـ وما أكثر ذكرنا باللسان مع غفلة الجنان، وهذا لا شك أنه ينقص الثواب، وينقص الآثار المترتبة على الذكر من صلاح القلب، والاتجاه إلى الله، والإنابة إليه وغير ذلك: {وزينة} أي: زينة بالملابس، وزينة بالمراكب، وزينة بالمساكن، وزينة في كل شيء، ولذلك تجد الإنسان ولو كان فقيرًا يحب أن يزين بيته، وكذلك سيارته عند الزواج إذا أراد الزواج يركب سيارة يجعلون عليها عقودًا من الأزهار وغيرها من الزينة {وتفاخر بينكم} أي: كل واحد يفخر على الثاني، إما بالقبيلة، أو بالعلم، يكون هذاعنده علم بالطب، وهذا لا يعرف، وهذا علمه بالهندسة وهذا لا يعرف، فيفخر عليه، وأقبح من ذلك التفاخر بالعلم الشرعي، لأن العلم الشرعي يجب على الإنسان إذا اكتسبه ومنَّ الله عليه به أن يزداد تواضعًا، وأن يعرف نفسه وقدر نفسه، ومن ذلك ما يحصل بين الشعراء في بعض الأحيان من التطاول على الآخرين ومن التفاخر كما يوجد في بعض الأفراح وبعض المناسبات مما نسمع.

{وتكاثر في الأموال والأولاد} أي يحب أن يكون أكثر أموالًا وأكثر أولادًا. وهذا كقوله تعالى: {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا}

=

=

هـذه حقيقـة الـدنيا، ومـع هـذا اللهـو واللعـب والتفـاخر والزينـة لا تبقـى، فلابـد أن تزول، وإذا طال الزمان عاد الإنسان إلى الهـرم، وفي هـذا يقـول الـشاعر: لا طيـب للعيش ما دامت منغصة لذاته بادكار الموت.

والهرم كل إنسان إذا فكر في عيشه وأنه في نعيم يقـول: مـا بعـد ذلـك؟! مـا الـذي بعده، إما موت أو هرم، إما أن تموت وتنتهي من الدنيا، وإما أن تهرم، وتكون عالة على ابنك وبنتك حتى أهلك يملونك، ولهذا أشار الله ﷻ إلى هـذه الحالـة فقـال: {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهمآ أف} لأنهما إذا بلغاالكبر اختل تفكيرهما وصارا يتعبان، فأنت إما أن تموت وإلا تصل إلى حال الهرم، هـذا إن بقيت لك الدنيا، وإلا فقد تسلب إياها قبل أن تصل إلى الهرم وقبـل أن تمـوت، فنأخذ من هذا الحذر من فتنة الدنيا، وكم من إنسان أطغته الحياة الدنيا فهلك، وفي الحديث القدسي: «إن مـن عبـادي مـن إذا أغنيتـه أفسده الغنـى» بـل قـد قـال النبـي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى علـيكم أن تفتح الدنيا فتنافسوا فيها كمـا تنـافس فيهـا مـن قـبلكم فـتهلككم كمـا أهلكـتهم» وصـدق الرسـول عليـه الـصلاة والـسلام، فـأكثر الفسقة، وأكثـر الكفـرة مـن المـلأ والأشراف، واقرأوا القرآن، مَن يكـذب الرسـل؟ هـم المـلأ والأشـراف، واعتـبروا بـالواقع الآن، أكثـر مـن يفـسد الـدنيا هـم الأثريـاء والأغنيـاء، الـذين فتحـت علـيهم الدنيا، فليحذرها العاقل اللبيب، وليقتصر منها على ما ينفعه في الآخرة.

ثم ضرب الله لها مثلًا؛ لأن الأمثال تقرب المعاني، إذ إن المثل يعني قيـاس المعنـى على المحسوس {كمثل غيث} أي مطر تنبت به الأرض وتزول به الشدة، {كمثل غيث أعجب الكفـار نباتـه} أي النبـات الناشـيء عنـه، وأعجبهم: أي استحسنوه، والكفار هم الكافرون بالله ﷻ لأن الكافر تعجبه الدنيا ويفرح بها ويـسر بهـا، وقلبـه متعلق بها ليس له هم إلا ما يراه مـن زينتهـا ولهوهـا، فهـو قـد أعجـب الكفـار بـالله،

=

=

وخص الكفار لأن الكفار هم الذين يستحسنون الدنيا ويعجبون بها وتتعلق قلوبهم بها، أما المؤمنون فهم على العكس لا يهمهم إلا ما فيه مصلحة الآخرة، وقيل: إن المراد بالكفار هنا الزراع، ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأن إطلاق الكفار على الزراع نادر جدًا، هذا إن صح، والذين يقولون: إن المراد بهم الزراع يقولون: لأن الزارع يكفر الحب، أي: يستره في الأرض، ولكن ما قررناه أولًا هو الصواب: أن المراد بالكفار، هم الكفار بالله، يعجب الكفار نباته ثم بعدما يظهر ويعجب الكفار ويستحسنونه ويتعجبون منه {يهيج} أي: ييبس ويجف، {فتراه مصفرًا} بعد أن كان أخضر ناميًا يكون مصفرًّا دائمًا، {ثم يكون حطامًا} يعني: يتحطم ويتكسر؛ لأنه يبس، فماذا كانت النتيجة لهذا الزرع؟ التلف، والزوال، هذه حال الدنيا، تزهو للإنسان بنعيمها وقصورها ومراكبها وأموالها وأولادها وغير ذلك، وإذا بها تتحطم، كم من غني كان مسرورًا في أهله، منعمًا في بيته وفي مركوبه وفي ثيابه، وفي كل أحواله، وإذا به يعود فقيرًا، فتتحطم دنياه، فإن لم تكن مات وتحطمت دنياه بفراق هذه الدنيا، فلابد من أحد أمرين: فإما أن تفارقك الدنيا، وإما أن تفارقها، هذه حال الدنيا، وهذا أمر لا يشك فيه في الواقع، لكن النفوس معها غفلة يسهو بها الإنسان عن مثل هذا الأمر الواقع، فيظن أن كل شيء على ما يرام، ويستبعد زوال الدنيا،

أو زواله هو عن الدنيا، أما الآخرة فاستمع إليها، قال: {وفي الأَخرة عذاب شديد} للكافرين، {ومغفرة من الله ورضوان} للمؤمنين، فأيما أحق أن يؤثر الإنسان؟ الدنيا التي مآلها الفناء والزوال، أو الآخرة؟! يؤثر الآخرة هذا العقل، لأنك إن آثرت الدنيا ففي الآخرة عذاب شديد، وإن آثرت الآخرة ففيها مغفرة من الله ورضوان، {ومغفرة} للذنوب {ورضوان} بالحسنات، {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور} هذه الجملة فيها حصر طريقة النفي والإثبات، وهو أعلى طرق الحصر،
=

=

{وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}ـ يغتر بها الإنسان، فيلهو ويلعب ويفرح ويبطر ثم تزول، كل هذه الجمل وهذه الأوصاف يريد الله ﷻ وهو أعلم- أن يزهد الإنسان في الدنيا ويرغبه في الآخرة، ومن زهد بالدنيا ورغب في الآخرة لم يفته شيء من نعيم الدنيا حتى وإن افتقر، فإنه لا يفوته نعيم الدنيا، ودليل هذا من القرآن والسنة، قال الله ﷻ: {من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبةً} لم يقل لنكثرن ماله وأولاده وقصوره {فلنحيينه حياة طيبةً} مطمئنة مستريح البال فيها، {ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}ـ وبين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك في قوله: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء فصبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له».

ثم قال ﷻ: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم} أمر بالمسابقة، وقد جاء الأمر في آية أخرى بالمسارعة فيجمع الإنسان بين المسابقة وهي شدة العدو في حال السير، وبين المسارعة يعني المبادرة إلى فعل الخير {إلى مغفرة من ربكم} وذلك بفعل أسباب المغفرة، ومن أسباب المغفرة أن تسأل الله المغفرة، تقول: اللهم اغفر لي، أو تقول: أستغفر الله وأتوب إليه، ومن أسباب المغفرة فعل ما تكون به المغفرة كقول النبي ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله ما تقدم من ذنبه» وكقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فيمن توضأ فأسبغ الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث بهما نفسه، غفر الله بهما ما تقدم من ذنبهـ وكقوله ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده، مائة مرة غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»

والأمثلة على هذا كثيرة، {وجنة} هي دار النعيم التي أعدها الله ﷻ للمتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيها فاكهة ونخل ورمان، وعسل ولبن وغير ذلك، لكن لا تظن أن ما فيها يشابه ما في الدنيا؛ لأن الله

=

=

يقول: {فلا تعلم نفس مآ أخفي لهم من قرة أعين} وليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط، اسم رمان لكن يختلف عن رمان الدنيا، فاكهة تختلف عن فاكهة الدنيا، فرش يختلف عن فرش الدنيا، وهلم جرا، وفي الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» {عرضها كعرض السماء والأَرض}ـ وفي سورة آل عمران: {عرضها السماوات والأَرض} ولا منافاة لأن الأول: عرضها كعرض السماء تشبيه. والثاني: عرضها السماوات والأرض أيضًا تشبيه، لكن يسميه أهل البلاغة تشبيه بليغ {كعرض السماء والأَرض}ـ ومَن يستطيع أن يقدر عرض السماء والأرض؟ لا أحد يستطيع، السماوات بسعتها، السماء الدنيا واسعة جدًّا، كم بينها وبين الأرض من مسافة وهي محيطة بها، والسماء الثانية فوقها وهي أوسع منها، والثالثة أوسع وهلم جرا، إلى أن تصل إلى الكرسي. والكرسي يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «ما السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض» حلقة المغفر صغيرة، ألقها في فلاة في الأرض ماذا تكون بالنسبة للفلاة؟ لا شيء، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة»

فلن نستطيع أن ندرك عرض السماوات والأرض، والجنة عرضها كعرض السماء والأرض، ولذلك كان أقل أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه مسافة ألفي سنةـ وإنما ذكر الله تعالى أن عرضها عرض السماوات والأرض من أجل أن نحرص على ملء هذه الأرض أرض الجنة، وفي الحديث: «أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: اقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة قيعان، وإن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فاحرص يا أخي على أن تملأ ما تستحقه من هذه الجنة بذكر الله،

=

=

وتلاوة كتابه، وغير ذلك مما يقرب إلى الله {أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} أعدها الله ﷻ كما قال ﷻ {أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار} ـ ومعنى الإعداد التهيئة للشيء، {للذين آمنوا بالله ورسله} آمنوا بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وقوله {ورسله} يشمل جميع الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، لكن إيماننا بالرسل يختلف عن إيماننا بمحمد عليه الصلاة والسلام، فإيماننا بالرسل بأن نؤمن بأنهم صادقون مبلغون عن الله، ونؤمن بكل ما صح من أخبارهم، أما اتباعهم فلا اتباع إلا للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهم يشتركون مع الرسول بأن نؤمن بأنهم صادقون، وأن كل ما أخبروا به صدق، وأن كل ما جاءوا به فهو عدل ومناسب لأحوال أممهم في وقتهم، أما الاتباع فلا نتبع إلا واحدًا منهم وهو محمد ﷺ، وقوله: {آمنوا بالله ورسله} يدل على أن أهل الكتاب اليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة، لأنهم لم يؤمنوا برسل الله، والدليل أنهم كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام، والكافر برسول من الرسل كافر بالجميع، كيف وقد جاء محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بنسخ جميع الشرائع السابقة، قال الله ﷻ: {كذبت قوم نوح المرسلين} مع أنه لم يسبق نوحًا أحد من الرسل؛ لأن من كذب رسولًا من الرسل فقد كذب جميع الرسل، فكيف بمن كذب محمدًا ﷺ الذي نسخت شريعته جميع الشرائع، والذي قال الله فيه: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لمآ ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به} أخذ ميثاق النبيين كلهم.

{قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا} وهذا الرسول هو محمد ﷺ، الرسل كلهم يؤمنون بالرسول عليه الصلاة والسلام، ولهذا في ليلة الإسراء كان محمد ﷺ إمامهم في صلاتهم، فاليهود والنصارى ليسوا من أهل الجنة بعد

=

=

بعثة الرسول ﷺ، لأنهم لم يؤمنوا برسله، لأنهم كفروا بمحمد، بل هم كفروا برسلهم أيضًا، لقوله تعالى: {كذبت قوم نوح المرسلين} ولأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بشرهم بمحمد، قال الله ﷻ في سورة الصف {وإذ قال عيسى ابن مريم يبني إسرءيل إني رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} فلما جاءهم هذا الرسول الذي بشر به عيسى، قالوا: هذا سحر مبين، وكفروا به، فهم كفروا بعيسى وردوا بشارته وأنكروها، ولا يجوز لنا أبدًا أن نقول أو نعتقد أن أديان اليهود والنصارى اليوم أديان صحيحة أبدًا، بل هي أديان باطلة، غير مقبولة عند الله، كما قال الله ﷻ: {ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه} {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء} أي ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين بالله ورسله فضل الله في أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسله واتبعوا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أثيبوا بهذه الجنات، {يؤتيه من يشاء} المشيئة هنا مقترنة بالحكمة، يعني من كان أهلًا للفضل آتاه الله الفضل، ومن لم يكن أهلًا له لم يؤته، والدليل قول الله تبارك وتعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته} فلن يجعل رسالته إلا فيمن هو أهل لها، وقال الله ﷻ {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم} وقال ﷻ: {فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرًا من الناس لفاسقون} فلا تظن أن الله يعطي الفضل لمن شاء بدون سبب، لابد من سبب، فمتى

علم الله في قلب الإنسان خيرًا آتاه الخير، قال الله تعالى: {يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم} فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخير كله، {والله ذو الفضل العظيم}- أي: صاحب الفضل العظيم ﷻ، فلا أحد أعظم منة من الله تعالى، أوجدك من العدم، وأعدك وأمدك بالنعم، يسر لك الهدى، فلا أحد أعظم

=

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢).

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَة فِي الْأَرْض} بِالْجَدْبِ {وَلَا فِي أَنْفُسكُمْ} كَالْمَرَضِ وَفَقْد الْوَلَد {إِلَّا فِي كِتَاب} يَعْنِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ {مِنْ قَبْل أَنْ نَبْرَأهَا} نَخْلُقهَا وَيُقَال فِي النِّعْمَة كَذَلِكَ {إن ذلك على الله يسير.

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣).

{لِكَيْلَا} كَيْ نَاصِبَة لِلْفِعْلِ بِمَعْنَى أَنْ أَيْ أَخْبَرَ تَعَالَى بِذَلِكَ لِئَلَّا {تَأْسَوْا} تَحْزَنُوا {عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا} فَرَح بَطَر بَلْ فَرَح شُكْر عَلَى النِّعْمَة {بِمَا آتَاكُمْ} بِالْمَدِّ أَعْطَاكُمْ وَبِالْقَصْرِ جَاءَكُمْ مِنْهُ {وَاَللَّه لَا يُحِبّ كُلّ مُخْتَال} مُتَكَبِّر بِمَا أُوتِيَ {فَخُور} بِهِ على الناس.

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

=

منة من الله، ولهذا قال الله ﷻ: {يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان} ولما جمع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الأنصار في غزوة حنين حين قسم الغنائم بين المؤلفة قلوبهم كان يقرر عليهم قال لهم: «ألم أجدكم ضلَّالًا فهداكم الله بي» قالوا: الله ورسوله أمن. قال: «ألم أجدكم متفرقين فألف الله قلوبكم بي» ؟ قالوا: الله ورسوله أمن. كلما قال قولًا قالوا: الله ورسوله أمن، يعني أعظم منة، فالحاصل أن الله تعالى ذو الفضل العظيم، ولكن يؤتي فضله من هو مستحق له، كما قال ﷻ: {ويؤت كل ذي فضل فضله} اللهم إني أسألك من فضلك العظيم أن تهدي قلوبنا وتصلح أعمالنا، وتختم لنا بخير إنك على كل شيء قدير.

(٢٤).

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ} بِمَا يَجِب عَلَيْهِمْ {وَيَأْمُرُونَ النَّاس بِالْبُخْلِ} بِهِ لَهُمْ وَعِيد شَدِيد {وَمَنْ يَتَوَلَّ} عَمَّا يَجِب عَلَيْهِ {فَإِنَّ الله هُوَ} ضَمِير فَصْل وَفِي قِرَاءَة بِسُقُوطِهِ {الْغَنِيّ} عَنْ غَيْره {الحميد} لأوليائه(١).

---

(١) قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [الحديد: ٢٢]، أي:"ما أصابكم -أيها الناس- من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم من الأمراض والجوع والأسقام إلا هو مكتوب في اللوح المحفوظ من قبل أن تُخْلَق الخليقة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في الأرض بجدوبها وقحوطها، وذهاب زرعها وفسادها، {وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ} بالأوصاب والأوجاع والأسقام، إلا في أمّ الكتاب، من قبل أن نخلق الأنفس. يقال: قد برأ الله هذا الشيء، بمعنى: خلقه فهو بارئه".

قال السعدي:"وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها".

قال أبو عبيدة:"الخالق: البارئ".

قال ابن عباس:"هو شيء قد فرغ منه من قبل أن نبرأ النفس".

قال قتادة:"أما مصيبة الأرض: فالسنون. وأما في أنفسكم: فهذه الأمراض والأوصاب، {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}: من قبل أن نخلقها".

وقال قتادة:"وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خَدْش عود، ولا نَكْبة قدم، ولا خَلجَانُ عِرْقٍ إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر".

قال الحسن:"كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة".

=

=

قال الضحاك:"هو شيء قد فرغ منه، {من قبل أن نبرأها}: من قبل أن نبرأ الأنفس".

قال ابن زيد:"المصائب والرزق والأشياء كلها مما تحبّ وتكره فرغ الله من ذلك كله، قبل أن يبرأ النفوس ويخلقها".

وعن ابن عباس، في قوله: " {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، يقول: في الدين والدنيا. {إلا في كتاب}: من قبل أن نخلقها".

وفي عود الضمير في قوله تعالى {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [الحديد: ٢٢]، وجوه:

أحدها: الضمير عائد على المصيبة. قاله ابن عباس.

عن ابن عباس: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها}، " يعني: المصيبة".

الثاني: على الْأَرْضِ. حكاه ابن عطية.

وقيل: على الأنفس، قاله ابن عباس وأبو العالية وقتادة والضحاك وابن زيد.

عن أبي العالية: {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها}، يعني: النسمة".

قال ابن كثير:"الأحسن عوده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها".

قال ابن عطية:"وذكر المهدوي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر، وهي كلها معان صحاح، لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها".

قوله تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [الحديد: ٢٢]، أي:"إن إثبات ذلك على كثرته سهلٌ هيّنٌ على الله ﷻ وإن كان عسيرًا على العباد".

قال الطبري: يقول:"إن خلق النفوس، وإحصاء ما هي لاقية من المصائب على الله سهل يسير".

قال ابن الجوزي:"أي: إنّ إثبات ذلك على كثرته هيِّن على الله ﷻ".

قال ابن عطية:"يريد: تحصيل الأشياء كلها في الكتاب".

=

=

قال ابن كثير:"أي: أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله، ﷻ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون".

قال السعدي:"وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير".

قال ابن كثير:"وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق- قبحهم الله -".

قال عبد الله بن عَمرو بن العاص: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة".

قوله تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٣]، أي:"لكي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما آتاكم فرحَ بطر وأشر".

قال الطبري: يقول:"ما أصابكم أيها الناس من مصيبة في أموالكم ولا في أنفسكم، إلا في كتاب قد كتب ذلك فيه، من قبل أن نخلق نفوسكم، لكيلا تحزنوا، {عَلَى مَا فَاتَكُمْ} من الدنيا، فلم تدركوه منها، {وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} منها".

قال ابن عطية:"معناه: فعل الله ذلك كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلة اكتراثكم بأمر الدنيا، فلا تحزنوا على ما فات، ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم منها".

قال ابن كثير:"أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان {وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}، أي: جاءكم، وتفسير: "آتاكُم" أي: أعطاكم. وكلاهما

=

=

متلازمان، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: {وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}، أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره".

قال السعدي:"أخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم".

قال ابن زيد:"لا تأسوا على ما فاتكم من الدنيا، ولا تفرحوا بما أتاكم منها".

عن ابن عباس: " {لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلَى مَا فاتكم}: من الدنيا، {وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}: منها".

عن ابن عباس: " {لِكَيْ لا تَأْسَوْا عَلَى مَا فاتكم}، قال: الصبر عند المصيبة، والشكر عند النعمة".

قال ابن عباس:"ليس أحد إلا يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبرا، ومن أصابه خير فجعله شكرا".

وقال عكرمة: "ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفَرَح شكرًا والحزن صبراً".

قرأ أبو عمرو وحده: «أتاكم» على وزن مضى، وهذا ملائم لقوله: فاتَكُمْ. وقرأ الباقون من السبعة: «آتاكم»، على وزن أعطاكم، بمعنى آتاكم الله تعالى، وهي قراءة الحسن والأعرج وأهل مكة.

=

=

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: ٢٣]، أي:"والله لا يحب كل متكبر بما أوتي من الدنيا فخور به على غيره".

قال الطبري:"يقول: والله لا يحبّ كلّ متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس".

قال ابن كثير:"أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره".

قال السعدي:"أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: {ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بل هي فتنة}".

عن مجاهد: " {إن الله لا يحب كل مختال فخور} [لقمان: ١٨]، يعني: «كل متكبر»".

عن مجاهد، في قوله: " {فخور} [لقمان: ١٨] قال: «هو الذي يعدد ما أعطاه، وهو لا يشكر الله»".

عن جعفر بن برقان، قال:"سمعت يزيد بن الأصم، وتلا هذه الآية: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} قال: هو أن يكلمك الرجل فتلوي وجهك محقرة له".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ} [الحديد: ٢٤]، أي:"هؤلاء المتكبرون هم الذين يبخلون بمالهم، ولا ينفقونه في سبيل الله، ويأمرون الناس بالبخل بتحسينه لهم".

قال الطبري: يقول: " والله لا يحبّ كلّ مختال فخور، الباخلين بما أوتوا في الدنيا على اختيالهم به وفخرهم بذلك على الناس، فهم يبخلون بإخراج حق الله الذي أوجبه عليهم فيه، ويشِحُّون به، وهم مع بخلهم به أيضا يأمرون الناس بالبخل".

قال ابن كثير:"أي: يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه".

=

=

قال السعدي:"أي: يجمعون بين الأمرين الذميمين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثوهم على هذا الخلق الذميم، بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الحديد: ٢٤]، أي:"ومن يتولَّ عن طاعة الله لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا، فإن الله هو الغني عن خلقه، الحميد الذي له كل وصف حسن كامل، وفعل جميل يستحق أن يحمد عليه".

قال ابن عباس:"ومن يتول عن الإيمان فإن الله غني عن عبادته، حميد إلى أوليائه".

قال الطبري: يقول: " ومن يدبر معرضا عن عظة الله، تاركا العمل بما دعاه إليه من الإنفاق في سبيله، فرِحا بما أوتي من الدنيا، مختالا به فخورا يخيلا فإن الله هو الغنيّ عن ماله ونفقته، وعن غيره من سائر خلقه، الحميد إلى خلقه بما أنعم به عليهم من نعمه".

قال ابن كثير:"{وَمَنْ يَتَوَلَّ}، أي: عن أمر الله وطاعته {فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} كما قال موسى عليه السلام: {إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم: ٨]".

قال السعدي:"{وَمَنْ يَتَوَلَّ} عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئا، {فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم".

وقرئ: «فإِنَّ اللهَ الغَنِيُّ»، بحذف «هو» من الكلام.

=

قال العثيمين: قوله تعالى: {مآ أصاب من مصيبة في الأَرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأهآ إن ذلك على الله يسير} يعني جميع المصائب التي تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه قد كتبت من قبل. والمصيبة في الأرض كالجدب، وقلة الأمطار، وغور المياه وصعوبة منالها، وربما يقال أيضًا الفتن والحروب وغيرها {ولا في أنفسكم} أي: في نفس الإنسان ذاته من مرض، أو فقد حبيب، أو فقد مال، أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها {إلا في كتاب} ـ هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، لما خلق الله سبحانه وتعالى القلم قال له: اكتب قال: ربي وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. سبحان الله ما أعظم هذا اللوح الذي يسع كل شيء إلى يوم القيامة، ولكن ليس هذا بغريب على قدرة الله ﷻ، لأن أمر الله تعالى إذا أراد شيئًا، يقول له: كن. فيكون، ولقد كان الإنسان يتعجب من قبل ولكن لا يستبعد أن يكتب في هذا اللوح مقادير كل شيء، فقد ظهر الآن من صنع الآدمي قطعة صغيرة يسجل فيها آلاف الكلمات وهي عبارة عن لوحة صغيرة كالقرص تسجل فيها آلاف الكلمات، وقد يسجل فيها جميع كتب الحديث المؤلفة، أو جميع التفاسير، أو جميع كتب الفقهاء وهي من صنع الآدمي، فكيف بصنع من يقول للشيء كن فيكون، ولما قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمصائب التي تصيب الناس هي في أمر سابق، ولهذا قال: {إلا في كتاب من قبل أن نبرأهآ} ـ وقوله: {نبرأهآ} قيل: إنها تعود على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على النفس، وقيل: على الجميع، والصحيح أنها على الجميع، أي من قبل أن نبرأ كل هذه الأشياء، أي: أن نخلقها، وذلك لأن الله كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، {إن ذلك على الله يسير} يعني إن كتابة هذه المصائب يسير على الله ﷻ لأنه قال

=
للقلم اكتب فكتب وهذا يسير، كلمة واحدة حصل بها كل شيء {إن ذلك على الله يسير}- كل شيء فهو يسير على الله، لأن الأمر كلمة واحدة كن فيكون، أرأيتم الخلائق يوم القيامة تبعث بكلمة واحدة، قال الله ﷻ: {إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون} وقال ﷻ: {فإنما هي زجرة واحدة} أي: على وجه الأرض خرجوا من القبور، هذا يسير، ولما قال زكريا لله ﷻ حين بشره بالولد قال: {قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعآئك رب شقيًا} يعني من الكبر {وقد بلغت من الكبر عتيًا} قال الله ﷻ: {كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا} فالله ﷻ لا يعجزه شيء، ولا يستعصي عنه شيء، ولا يتأخر عن أمره الكوني شيء، {لكيلا تأسوا على ما فاتك} أي: أخبرناكم بأن كل مصيبة تقع فهي في كتاب، {لكيلا تأسوا} اللام للتعليل، وكي بمعنى أن، أي: لأن لا تأسوا، ومعنى تأسوا تندمواعلى ما فاتكم مما تحبون {ولا تفرحوا بما آتاكم} أي: لا تفرحوا فرح بطر واستغناء عن الله بما آتاكم من فضله، فإذا علمت أن الشيء مكتوب من قبل فلا تندم على ما فات لأنه مكتوب، والمكتوب لابد أن يقع، ولا تفرح فرح بطر واستغناء إذا آتاك الله الفضل، لأنه من الله مكتوب من قبل، فكن متوسطًا لا تندم على ما مضى، ولا تفرح فرح بطر واستغناء بما آتاك الله من فضله، لأنه من الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». القوي في إيمانه وليس القوي في بدنه، وأصحاب الرياضة يجعلون هذا عنوانًا: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» ويقول: المراد بالمؤمن القوي في بدنه. وهذا غلط، (المؤمن القوي) هنا وصف يعود إلى ما سبقه وهو الإيمان، «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»- وهذا يسميه البلاغيون الاحتراس،
=

=

بمعنى أنه قد يظن الظان أن الضعيف لا خير فيه، قال: «وفي كل خير» ثم قال: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» والإنسان إذا علم أن كل شيء مقدر ولابد أن يقع رضي بما وقع، وعلم أنه لا يمكن رفع ما وقع أبدًا، ولهذا يقال: دوام الحال من المحال، وتغيير الحال- بمعنى رفع الشيء بعد وقوعه- من المحال، {والله لا يحب كل مختال فخور}ـ مختال في فعله، فخور في قوله، ومن الاختيال في الفعل أن يجر ثوبه، أو مشلحه، أو عباءته، أو غير ذلك مما يدل على الخيلاء، حتى وإن لبس ثوبًا وإن لم يكن نازلًا لكنه يعد خيلاء فهو خيلاء، الفخور هو المعجب بنفسه الذي يقول: فعلت وفعلت وفعلت، يفخر به على الناس، لأنك مادمت فاعلًا الشيء تريد ثواب الله فلا حاجة أن تفخر به على الناس، بل اشكر الله عليه، وحدِّث به على أنه من نعمة الله عليك.

ثم ذكر الله تعالى أوصافهم فيما بعد فقال {الذين يبخلون} أي: يمنعون ما يجب عليهم بذله من مال، أو جاه، أو علم، مثال الأول: الذي يبخل بالزكاة وهي أعظم وأوجب ما ينفق، والإنفاق على من تجب نفقته من الأقارب والزوجات. ومثال الثاني: أن يجد الإنسان شخصًا مسلمًا واقعًا في مظلمة يتطلب المقام أن يشفع فيها، ليرفع عنه هذا الظلم ولكنه يبخل، فهذا بخل بجاه. ومثال الثالث: أن يبخل بتعليم الناس مما علمه الله ﷻ وأن يبخل بالجواب والفتوى إذا استفتي عن مسألة دينية وتعين عليه أن يفتي فيها، وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «البخيل من إذا ذكرت عنده ولم يصلِّ عليَّ» اللهم صلِّ وسلم عليه، وهذا نوع من البخل، لأنه بخل بما يجب عليه، إذ إن القول الراجح أنه إذا ذكر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجب على من سمعه أن يصلي عليه،

=

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥).

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلنَا} الْمَلَائِكَة إلَى الْأَنْبِيَاء {بِالْبَيِّنَاتِ} بِالْحِجَجِ الْقَوَاطِع {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَاب} بِمَعْنَى الْكُتُب {وَالْمِيزَان} الْعَدْل {لِيَقُومَ النَّاس بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيد} أَخْرَجْنَاهُ مِنْ الْمَعَادِن {فِيهِ بَأْس شَدِيد} يُقَاتِل بِهِ {وَمَنَافِع لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَم الله} عِلْم مُشَاهَدَة مَعْطُوف عَلَى لِيَقُومَ النَّاس {مَنْ يَنْصُرهُ} بِأَنْ يَنْصُر دِينه بِآلَاتِ الْحَرْب مِنْ الْحَدِيد وَغَيْره {وَرُسُله بِالْغَيْبِ} حَال مِنْ هَاء يَنْصُرهُ أَيْ غائبا عنهم في الدنيا قال بن عَبَّاس يَنْصُرُونَهُ وَلَا يُبْصِرُونَهُ {إنَّ

=

بدليل الحديث الذي في السنن أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «رغم أنف امرء ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك. قل: آمين. فقال: آمين»

{ويأمرون الناس بالبخل} أي: يقولون للرجل: لا تنقص من مالك، لا تتعب نفسك في الشفاعة لفلان، لا تتعب نفسك في تعليم العلم، فهؤلاء أمروا بالبخل فصاروا- والعياذ بالله- فاسدين مفسدين، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: {ومن يتول} أي: يعرض عن طاعة الله، {فإن الله هو الغنى الحميد}- من يتول فإن الله ليس بحاجة إليه فهو عَزَّ وَجَلَّ غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهوالحميد، أي: المحمود على غناه، لأنه ليس كل غني يكون محمودًا، فالغني البخيل غير محمود، لكن الله عَزَّ وَجَلَّ غني حميد يحمد على غناه؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ واسع العطاء، كثير العطاء، وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان الذي يتولى عن طاعة الله إنما يضر نفسه، ولا يضر الله شيئًا، فإن الله غني، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا».

الله قَوِيّ عَزِيز} لَا حَاجَة لَهُ إلَى النُّصْرَة لَكِنَّهَا تَنْفَع مَنْ يَأْتِي بِهَا.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتهمَا النُّبُوَّة وَالْكِتَاب} يَعْنِي الْكُتُب الْأَرْبَعَة التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل والزبور والفرقان فإنها في ذرية إبراهيم {فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧).

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارهمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بن مَرْيَم وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيل وَجَعَلْنَا فِي قُلُوب الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَة وَرَحْمَة وَرَهْبَانِيَّة} هِيَ رَفْض النِّسَاء وَاتِّخَاذ الصَّوَامِع {ابْتَدَعُوهَا} مِنْ قِبَل أَنْفُسهمْ {مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ} مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهَا {إلَّا} لَكِنْ فَعَلُوهَا {ابْتِغَاء رِضْوَان} مَرْضَاة {الله فَمَا رَعَوْهَا حَقّ رِعَايَتهَا} إذْ تَرَكَهَا كَثِير مِنْهُمْ وَكَفَرُوا بِدِينِ عِيسَى وَدَخَلُوا فِي دِين مَلِكهمْ وَبَقِيَ عَلَى دِين عِيسَى كَثِير مِنْهُمْ فَآمَنُوا بِنَبِيِّنَا {فآتينا الذين آمنوا} به {منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: كانت ملوك بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، =

=

فقيل لملوكهم: ما نجد شتمًا أشد من شتم يشتمونا هؤلاء، إنهم يقرؤون: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]، وهؤلاء الآيات مع ما يعيبونا به في أعمالنا في قراءتهم؛ فادعهم فليقرؤوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا؛ فدعاهم، فجمعهم، وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ دعونا، فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئًا نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش، فإن قدرتم علينا في أرضكم؛ فاقتلونا، وقالت طائفة منهم: ابنوا لنا دورًا في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول؛ فلا نرد عليكم، ولا نمر بكم، وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم، قال: ففعلوا ذلك؛ فأنزل الله ﷻ: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}، والآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دورًا كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا به، فلما بعث الله النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل؛ انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب الدير من ديره، فآمنوا به وصدقوه؛ فقال الله تبارك وتعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}: أجرين؛ بإيمانهم بعيسى ابن مريم، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم، قال: {وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}: القرآن واتباعهم النبي ﷺ، قال: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ} الذين يتشبهون بكم {أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

أخرجه النسائي في "المجتبى" (٨/ ٢٣١- ٢٣٣)، و"التفسير" (٢/ ٣٨٤- ٣٨٧ رقم ٥٨٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ١٣٨) من طريق سفيان الثوري عن

=

=

عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وهذا إسناد حسن؛ رجاله ثقات، وفي عطاء كلام وكان قد اختلط؛ لكن سماع الثوري منه قديم.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٥) وزاد نسبته للحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" وابن المنذر وابن مردويه.

* قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} [الحديد: ٢٥]، أي:"لقد أرسلنا رسلنا بالحجج الواضحات".

قال الطبري: يقول:"لقد أرسلنا رسلنا بالمفصَّلات من البيان والدلائل".

قال ابن كثير:"أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات".

قال السعدي:"وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيقته".

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥]، أي:"وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، وأنزلنا الميزان؛ ليتعامل الناس بينهم بالعدل".

قال الطبري: يقول:"وأنزلنا معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، والميزان، ليعمل الناس بينهم بالعدل".

قال السعدي:"{وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ}، وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، {وَالْمِيزَانَ} وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك {لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} قياما بدين الله، وتحصيلا لمصالحهم التي لا يمكن حصرها

وعدها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط،
=

=

وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال".

قال ابن كثير:" {وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ} وهو: النقل المصدق {وَالْمِيزَانَ} وهو: العدل. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ} [هود: ١٧]، وقال: {فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: ٣٠]، وقال: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} [الرحمن: ٧]؛ ولهذا قال في هذه الآية: {لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا} [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الإخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} [الأعراف: ٤٣]".

عن قتادة: " {الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ}، قال: الميزان: العدل".

قال ابن زيد:"الميزان: ما يعمل الناس، ويتعاطون عليه في الدنيا من معايشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان، ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي. قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للآخرة، والميزان للدنيا".

قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [الحديد: ٢٥]، أي:"وأنزلنا لهم الحديد، فيه قوة شديدة، ومنافع للناس متعددة".

قال الطبري: يقول:"وأنزلنا لهم الحديد فيه بأس شديد، يقول: فيه قوّة شديدة، ومنافع للناس، وذلك ما ينتفعون به منه عند لقائهم العدوّ، وغير ذلك من منافعه".

قال ابن كثير:"أي: وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة

=

=

عليه؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين، وبيان وإيضاح للتوحيد، وتبيان ودلائل، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة، وأمرهم بالقتال بالسيوف، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده.. {فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ} يعني: السلاح كالسيوف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها. {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، أي: في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك".

عن الحسن: " {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ}: خلقناه".

عن مجاهد: قوله: {وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، وجنُة وسلاح، وأنزله ليعلم الله من ينصره".

قال ابن زيد:"البأس الشديد: السيوف والسلاح الذي يقاتل الناس بها، {وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} بعد، يحفرون بها الأرض والجبال وغير ذلك".

قال ابن عباس:"ثلاثة أشياء نزلت مع آدم صلوات الله عليه: السندان، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة".

عن عكرمة في قوله: " {وأنزلنا الحديد} الآية قال: إن أول ما أنزل الله من الحديد الكلبتين والذي يضرب عليه الحديد".

عن الحسن:"أنه سئل عن شرب خبث الحديد فكرهه، فقيل له: أليس الله- ﷻ- قال في كتابه: {وأَنْزَلْنا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ومَنافِعُ لِلنّاسِ}؟ قال: لم يجعل الله منافعه في بطونهم، ولكن جعله في أبوابهم وسروجهم".

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "بُعِثتُ بالسيف بين يَدَي الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له، وجُعِل رزقي تحت ظِلّ رُمْحي، وجعل الذلة والصِّغار

=

=

على من خالف أمري، ومن تَشبَّه بقوم فهو منهم".

قال السعدي:"وقرن تعالى في هذا الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله".

قوله تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: ٢٥]، أي:"وليعلم الله علمًا ظاهرًا للخلق من ينصر دينه ورسله بالغيب".

قال الطبري: يقول:"أرسلنا رسلنا إلى خلقنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدلوا بينهم، وليعلم حزب الله من ينصر دين الله ورسله بالغيب منه عنهم".

قال ابن كثير:"أي: من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسله".

قال السعدي:"أي: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضروريا".

قال الحسن: " الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحديد: ٢٥]، أي:"إن الله قوي لا يُقْهَر، عزيز لا يغالَب".

قال الطبري: يقول:"إن الله قويّ على الانتصار ممن بارزه بالمعاداة، وخالف أمره ونهيه، عزيز في انتقامه منهم، لا يقدر أحد على الانتصار منه مما أحلّ به من العقوبة".

قال ابن كثير:"أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض".

قال السعدي:"أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل

=

الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتلي أولياءه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب".

قال قتادة:"قويا في أمره، عزيزا في نقمته".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ} [الحديد: ٢٦]، أي:"ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم إلى قومهما".

قال الطبري: يقول:"ولقد أرسلنا أيها الناس نوحا إلى خلقنا، وإبراهيم خليله إليهم رسولا".

قال أبو حيان:"لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة، أفرد منهم في هذه الآية نوحا وإبراهيم، عليهما السلام، تشريفا لهما بالذكر. أما نوح، فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض وأما إبراهيم، فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء عليهم السلام، وهو معظم في كل الشرائع".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [الحديد: ٢٦]، أي:"وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتب المنزلة".

قال الطبري: " وكذلك كانت النبوّة في ذرّيتهما، وعليهم أنزلت الكتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وسائر الكتب المعروفة".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحًا، عليه السلام، لم يرسل بعده رسولا ولا نبيًّا إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم، عليه السلام، خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتابًا ولا أرسل رسولا ولا أوحى إلى بشر من بعده، إلا وهو من سلالته كما قال في الآية الأخرى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} يعني حتى كان آخر أنبياء بني

=

إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما".

قال ابن عباس:"الكتاب قال: الخط بالقلم.

قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ} [الحديد: ٢٦]، أي:"فمِن ذريتهما مهتدٍ إلى الحق".

قال الطبري: " يقول: فمن ذرّيتهما مهتد إلى الحقّ مستبصر".

قال القرطبي:"أي: من ائتم بإبراهيم ونوح، وقيل: من ذريتهما مهتدون".

قال السعدي:"{مُهْتَدٍ} بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم".

قوله تعالى: {وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ٢٦]، أي:"وكثير منهم خارجون عن طاعة الله".

قال الطبري: " يعني: من ذرّيتهما ضُلال، خارجون عن طاعة الله إلى معصيته".

قال القرطبي: أي: "كافرون خارجون عن الطاعة".

قال السعدي:"أي: خارجون عن طاعة الله وطاعة الرسل والأنبياء، كما قال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]".

قوله تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا} [الحديد: ٢٧]، أي:"ثم أتبعنا على آثار نوح وإبراهيم برسلنا الذين أرسلناهم بالبينات".

قال الطبري: يقول:"ثم أتبعنا على آثارهم برسلنا الذين أرسلناهم بالبينات على آثار نوح وإبراهيم برسلنا، وأتبعنا بعيسى ابن مريم".

قال القرطبي:"أي: أتبعنا على آثار الذرية. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم {بِرُسُلِنَا} موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم".

قوله تعالى: {وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ} [الحديد: ٢٧]، أي:"وجعلنا عيسى ابن مريم بعد أولئك الرسل، وأنزلنا عليه الإنجيل".

عن أبي مالك، قوله: " {وقفينا} ن يعني- أتبعنا".

=

=

قال الطبري: يقول:"وأتبعنا بعيسى ابن مريم".

قال القرطبي:"فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه".

قال أبو حيان:"ذكره تشريفا له، ولانتشار أمته، ونسبه لأمه على العادة في الإخبار عنه".

قال السعدي:"خص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام".

قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} [الحديد: ٢٧]، أي:"وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه على دينه لينًا وشفقة، فكانوا متوادِّين فيما بينهم".

قال الطبري: يقو:"{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ} الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته، {رَأْفَةً} وهو أشدّ الرحمة، {وَرَحْمَةً}".

قال ابن كثير:"{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ} وهم الحواريون {رَأْفَةً وَرَحْمَةً}، أي: رأفة وهي الخشية {وَرَحْمَةً} بالخلق".

عن قتادة:"{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً}، فهاتان من الله".

قال السعدي:"ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوبا، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام".

قال القرطبي:"فكان يواد بعضهم بعضا. وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه. والرأفة اللين، والرحمة الشفقة. وقيل: الرأفة تخفيف الكل، والرحمة تحمل الثقل. وقيل: الرأفة أشد الرحمة".

قوله تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ} [الحديد: ٢٧]، أي:"وابتدعوا رهبانية بالغلوِّ في العبادة ما فرضناها عليهم، بل هم الذين

=

=

التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قَصْدُهم بذلك رضا الله".

قال الطبري: يقو: "{وَرَهْبَانِيَّةً} أحدثوها، ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم، لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله".

قال ابن كثير: "{وَرَهْبَانِيَّةً} ابتدعتها أمة النصارى، ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم".

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: "لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ﷻ". وفي رواية: "لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله".

عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، أن رجلا جاءه فقال: أوصني فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك، أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ} [الحديد: ٢٧]، وجهان من التفسير:

أحدهما: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

قال الزجاج: "معناه: لم نكتبها عليهم ألبتة، ويكون {إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ} بدلا- من الهاء والألف، فيكون المعنى: ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وابتغاء رضوان الله اتباع ما أمر به".

الثاني: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير- وقتادة- وابن زيد.

قال القرطبي: "وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع، وذلك أن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتلوا".

عن الحسن: "{ورَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها} ففرضها الله عليهم حين ابتدعوها".

=

=

قال قتادة:"لم تُكتب عليهم، ابتدعوها ابتغاء رضوان الله".

قال قتادة:"والرهبانية ابتدعها قوم من أنفسهم، ولم تُكتب عليهم، ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله، فما رعوها حقّ رعايتها، ذُكر لنا أنهم رفضوا النساء، واتخذوا الصوامع".

قال الضحاك:"كان الله- ﷻ- كتب عليهم القتال قبل أن يبعَث محمدًا- ﷺ -، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبقَ منهم إلا القليل، وكثر أهل الشّرك، وانقطعت الرسل؛ اعتزلوا الناس، فصاروا في الغِيران، فلم يزالوا كذلك حتى غيّرت طائفةٌ منهم، فتركوا دين الله وأمره وعهْده الذي عَهده إليهم، وأخذوا بالبدع، فابتدعوا النصرانية واليهودية، فقال الله- ﷻ -: {فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها}، وثبتت طائفةٌ منهم على دين عيسى، حتى بعَث الله محمدًا- ﷺ -، فآمنوا به".

قال ابن زيد:"ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوّعا، فما رَعوها حقّ رعايتها".

قوله تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد: ٢٧]، أي:"فما قاموا بها حق القيام".

قال ابن عباس:"يقول: ما أطاعوني فيها، وتكلَّموا فيها بمعصية الله".

وفي المشار إليهم في قوله تعالى: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد: ٢٧]،، قولان:

القول الأول: أنهم الذين ابتدعوا الرهبانية، تهود منهم قوم وتنصروا. وهذا مذهب الضحاك وقتادة. وهو مروي عن أبي أمامة. وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

ثم في معنى الكلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم ما رَعَوْها لتبديل دينهم وتغييرهم له قبل مبعث الرسول الله -ﷺ-، قاله عطية العوفي.

الثاني: لتقصيرهم فيما ألزموه أنفسهم. ذكره الزجاج.

=

=

قال القرطبي:"أي: فما قاموا بها حق القيام. وهذا خصوص، لأن الذين لم يرعوها بعض القوم، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [التوبة: ٣٤]، وهذا في قوم أداهم الترهب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر".

قال ابن كثير:"أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام. وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله. والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله، ﷻ".

قال الزجاج:"فلما ألزمرا أنفسهم ذلك التطوع ودخلوا فيه لزمهم إتمامه، كما أن الإنسان إذا جعل على نفسه صوما لم يفترض عليه لزمه أن يتمه".

الثالث: لكفرهم برسول الله ﷺ لما بُعث، فكانوا تاركين لطاعة الله، فما رعوا تلك الرهبانية حق رعايتها، ذكره الزجاج.

واختاره الزجاج، وقال:"ودليل ذلك قوله ﷻ: {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ} [الحديد: ٢٧]، أي: الذين آمنوا منهم بالنبي -عليه السلام-".

والقول الثاني: أنهم الذين اتبعوا مبتدعي الرهبانية في رهبانيتهم، ما رَعوها بسلوك طريق أوليهم، روى هذا المعنى سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال ابن عباس:"كانت ملوك بعد عيسى بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل، فقيل لملكهم: ما نجد شيئا أشدّ علينا من شتم يشتُمناه هؤلاء، أنهم يقرءون {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} هؤلاء الآيات، مع ما يعيبوننا به في قراءتهم، فادعهم فليقرءوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا به، قال: فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك فدعونا؛ قال: فقالت

=

=

طائفة منهم: ابنوا لنا اسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نردّ عليكم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض، ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش، فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دورا في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونحترث البقول، فلا نردّ عليكم، ولا نمرّ بكم، وليس أحد من أولئك إلا وله حميم فيهم؛ قال: ففعلوا ذلك، فأنزل الله جلّ ثناؤه: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}، الآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دورًا كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم؛ قال: فلما بعث النبيّ ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، انحطّ رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا به وصدّقوه، فقال الله جلّ ثناؤه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، قال: أجرين لإيمانهم بعيسى، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد ﷺ، وتصديقهم به. قال: {وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}: القرآن، وإتباعهم النبيّ ﷺ وقال: {لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}".

وقال ابن عباس:"وذلك أن الله ﷻ كتب عليهم القتال قبل أن يبعث محمدا ﷺ، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا قليل، وكثر أهل الشرك، وذهب الرسل وقهروا، اعتزلوا في الغيران، فلم يزل بهم ذلك حتى كفرت طائفة منهم، وتركوا أمر الله ﷻ ودينه، وأخذوا بالبدعة وبالنصرانية وباليهودية، فلم يرعوها حقّ رعايتها، وثبتت طائفة على دين عيسى ابن مريم صلوات الله عليه، حين جاءهم بالبينات، وبعث الله ﷻ محمدا رسولا ﷺ وهم كذلك، فذلك قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ} ... إلى {وَاللهُ

=

=

غَفُورٌ رَحِيمٌ}".

قال الضحاك:"كان الله ﷻ كتب عليهم القتال قبل أن يبعث محمد ﷺ فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا القليل، وكثر أهل الشرك، وانقطعت الرسل، اعتزلوا الناس، فصاروا في الغيران، فلم يزالوا كذلك حتى غيرت طائفة منهم، فتركوا دين الله وأمره، وعهده الذي عهده إليهم، وأخذوا بالبدع، فابتدعوا النصرانية واليهودية، فقال الله ﷻ لهم: {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}، وثبتت طائفة منهم على دين عيسى صلوات الله عليه، حتى بعث الله محمدا ﷺ، فآمنوا به".

قوله تعالى: {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ} [الحديد: ٢٧]، أي:"فآتينا الذين آمنوا منهم بالله ورسله أجرهم حسب إيمانهم".

قال الطبري: يقول:"فأعطينا الذين آمنوا بالله ورسله من هؤلاء، الذين ابتدعوا الرهبانية ثوابهم على ابتغائهم رضوان الله، وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة".

عن ابن زيد:" {فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ}، قال: الذين رعوا ذلك الحقّ".

قوله تعالى: {وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ٢٧]، أي:"وكثير منهم خارجون عن طاعة الله مكذبون بنبيه محمد ﷺ".

قال الطبري: يقول:"وكثير منهم أهل معاص، وخرج عن طاعته، والإيمان به".

قال مقاتل:"يعني: الذين تهودوا، وتنصروا".

عن مجاهد: {وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} " يعني: أهل الرهبانية والبدعة".

قال العثيمين: قوله تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات} هذه جملة مؤكدة باللام وقد، والقسم المقدر، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، ولعل قائلًا يقول: كيف يقسم الله ﷻ؟ وكيف يؤكد الله خبره بالقسم وهو الصادق بدون ذلك؟

والجواب أن يقال: القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، واللسان العربي المبين يؤكد الأشياء الهامة، أو الأشياء المنكرة بأنواع المؤكدات حتى يطمئن المخاطب

=

=

ولا يرتاب المرتاب، وهذا يذكر في القرآن كثيرًا، والتوكيد هنا ليس منصبًا على إرسال الرسل، لأن إرسال الرسل معلوم {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} لكنه منصب على قوله بالبينات أي أن الرسل جاءوا بالبينات، والبينات صفة لموصوف محذوف، والتقدير بالآيات البينات أي العلامات البينة الدالة على صدق رسالتهم وصحتها، فإن الله تعالى ما بعث نبيًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا من الحكمة والرحمة، أما كونه من الحكمة فليس من الحكمة أن يأتي رجل من بني آدم ويقول للناس: أنا رسول الله إليكم بدون آية، بدون بينة، ولو كلف الناس بالإيمان برسل الله بدون بينة لكان في ذلك مشقة عظيمة، ومن رحمة الله أن الله أيد الرسول بالآيات البينات الظاهرة، قال العلماء: والله تعالى من حكمته ورحمته جعل لكل نبي من الآيات ما يتبين به رسالتهم، مثال ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون وأعطاه آيات بينات، قال الله تعالى: {ولقد ءاتينا موسى تسع ءايات بينات} منها العصا العجيبة، عصا عادية فيها آيات من آيات الله، منها أنه لما اجتمع السحرة الفجار بأمر فرعون ومساندته وألقوا حبالهم وعصيهم، وصارت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين أرهبت الناس حتى موسى عليه الصلاة والسلام أوجس في نفسه خيفة، لأنها فوق ما يتصور، سحرة مهرة أتوا بكل قوتهم وألقوا فملؤوا الأرض حبالًا وعصيًا، فجعلت هذه الحبال والعصي كأنها حيات وثعابين، {فلمآ ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءو بسحر عظيم}- أوحى الله إليه أن يلقي العصا، فانقلبت هذه العصا حية، وجعلت تلقف ما يأفكون.

كل الحبال التي جاءوا بها أكلتها هذه الحية، فهذه من آيات الله العظيمة، كيف تكون هذه الحية تأكل كل هذه الحبال والعصي، أين تذهب؟ لكنها- والله أعلم- بمجرد ما تأكلها تكون كالبخار، وإلا فبطن هذه الحية لا يسعها، لكن هذه آية،

=

=

ونحن نتصور هذه الواقعة خبرًا، ولكن لو رأيناها نظرًا كان الأمر أشد وأعظم، فنحن الآن لا نتصورها إلا في الخبر وفي الذهن فقط، ولكن لو شاهدت عرفت أن الآية عظيمة. والآية الثانية في هذه العصا أن موسى استسقاه قومه وطلبوا منه الماء فضرب حجرًا من الحجارة فتفجر عيونًا، اثنتا عشرة عينًا، لأن بني إسرائيل كانوا اثنتي عشرة قبيلة، والآية الثالثة: أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أدركه فرعون وحشره إلى البحر أيقن أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام أنهم هالكون، وقالوا: إنا لمدركون، ليس لنا مفر، البحر أمامنا، إن خضناه غرقنا، وفرعون وجنوده خلفنا سيقضون علينا، قال أصحابه: إنا لمدركون. ولكن انظر إلى الإيمان واليقين، قال: {كلا} لن ندرك، {إن معى ربي سيهدين} أي: سيدلني على ما فيه النجاة. فأوحى الله إليه بأن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فضرب البحر مرة واحدة بالعصا فانفلق اثني عشر طريقًا على عدد قبائل بني إسرائيل، وكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل، وانظر إلى الإيمان أيضًا كيف دخلوا في هذه الطرق والمياه على أيمانهم وعلى شمائلهم ولكنه الإيمان، لأنهم عرفوا أنهم ناجون ولابد. وعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أعطاه الله تعالى آيات بينات، كان يبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله، وهذان المرضان لا حيلة للأطباء فيهما إلى الآن، اللهم إلا الأكمه، وكان يحيي الموتى بإذن الله، يقول للجنازة أمام الناس: احيي.

فتحيا بإذن الله، وكان يخرج الموتى من قبورهم، يقف على القبر ويأمر صاحب القبر بأن يخرج ويخرج حيًّا، من يستطيع هذا إلا الله -ﷻ- وجعله آية لهذا النبي ﵇. وكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخه فيطير، قال الله ﷻ: {فيكون طيرًا بإذن الله} وفي قراءة ثانية: (يكون طائرًا)ـ وإذا جمعت بين القراءتين صار المعنى طيرًا بإذن الله يطير، لأنه ما كل طير يطير، فالنعامة لها جناح ولكنها لا تطير، لكن

=

=

يكون طيرًا يطير يشاهد في الجو وهو خلقه من طين، وهذا لا يقدر عليه إلا الله، وجعله الله آية لعيسى.

فإن قال قائل: لماذا خص الله موسى بالعصا وخص عيسى بإحياء الموتى وخلق الطيور؟

قال أهل العلم: إن الله ﷻ حكيم يجعل لكل نبي من الآيات ما يناسب الوقت، وحال الناس حتى يعجزهم، فالسحر ترقى إلى حد بعيد في عهد موسى عليه الصلاة والسلام فأراهم الله آية يعجزون عنها بالسحر، ولهذا السحرة في قصة موسى العارفون بالسحر ما ملكوا أنفسهم إلا أن يؤمنوا، ألقي السحرة ساجدين، كأنهم بغير اختيار، فسجدوا وقالوا إعلانًا: {قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون} وعيسى عليه الصلاة والسلام ترقى في عهده الطب ترقيًا عظيمًا فأعطاه الله آية لا يستطيع الأطباء أن يأتوا بمثلها، أما محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنه بعث في زمن البلاغة العظيمة التي ترقت إلى أعلى ما يكون في العرب واللسان العربي المبين أفصح الألسنة وأدلها على ما في الضمير، فبعثه الله ﷻ بقرآن كريم أعجز العرب أن يأتوا بمثله، ولن يأتي أحد بمثله لا الجن ولا الإنس، قال الله – ﷻ –: {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا} وصدق الله ﷻ فالقرآن كلام الله فكما أن الله ليس كمثله شيء، فكلامه ليس مثله كلام، وفي الحديث عن النبي ﷺ أن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر حتى تقوم الحجة، قال: «وإنما الذي أوتيته وحي أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا».

وحصل ما توقع والحمد لله، لأن آيته الكبرى هي القرآن العظيم، والقرآن العظيم باق، وكل الناس يقرأونه ويستنتجون منه من الآيات ما يزدادون به إيمانًا، ويعلمون به صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فإن قال قائل: ما الحاجة

=

=

إلى إعطاء الأنبياء آيات؟ فنقول: الحاجة واقعة بل للضرورة، بل العقل أيضًا، لأنه ليس من العقل أن يأتي شخص ويقول: إنه رسول ثم يتبع، لابد أن يكون هناك بينة تدل على أنه رسول، ولو جاء إنسان في غير أمة محمد عليه الصلاة والسلام وقال: إنه رسول ولم يأت بآية، فالناس معذورون إذا لم يتبعوه، وإلا لكان كل واحد يدعي أنه رسول، أما بعد النبي ﷺ فالنبوة انقطعت؛ لأنه كان خاتم النبيين، لذلك لابد أن يكون مع الأنبياء آيات تدل على صدقهم وعلى صحة ما جاءوا به من الشريعة {وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} الكتاب: هو الوحي الذي أوحاه الله تعالى إليهم وما من رسول إلا معه كتاب، بخلاف النبي، فالنبي قد لا يكون معه كتاب، لكن الرسول لابد أن يكون معه كتاب، لأن الرسول لابد أن يعطي الناس الذين يدعوهم ما يشاهدونه بأعينهم. وفيه الأمر والنهي، والخبر والقصص وغير ذلك مما تقتضيه الحال.

وقوله: {الكتاب} المراد الجنس، يعني الكتب، وقوله: {والميزان} أي: العدل الذي توزن به الأشياء ويعرف قدرها وحالها، وهذا يدل دلالة واضحة على أن القياس الصحيح مما بعث به الرسل، لأن القياس تسوية فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، وقد قال الله ﷻ: {وأنزلنا معهم الكتاب والميزان} أي: العدل والمقايسة بين الأمور {ليقوم الناس بالقسط} أي ليقوم الناس في الدين والدنيا بالقسط بالعدل في حق الله، وفي حق العباد، والعدل في حق الله ما ذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين قال له: «أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا». يعني أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئًا، أما حق المخلوق، فقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة

=

=

فلتأت منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» هذا الشاهد، أي: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولو أننا عاملنا الناس بهذا لاستقام العدل ولم يتجرأ أحد على ظلم أحد، ولو أننا شعرنا للناس بما نشعر به لأنفسنا لحلت في قلوبنا الرحمة والتواضع، لأن كل إنسان يحب أن يعامله الناس بالرحمة والتواضع، فعامل الناس أيضًا بالرحمة والتواضع.

فاللام في قوله {ليقوم} للتعليل يعني أرسلنا الرسل وأنزلنا معهم الكتاب، وأنزلنا معهم الميزان لهذه الحكمة، ليقوم الناس بالقسط، ولهذا لا تجد أعدل من دين الله ﷻ في كل زمان ومكان، وكل ما خالف دين الله ﷻ فهو جور وظلم، ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أظلم الظلم أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك. ثم سئل: أي الظلم أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» فلو مشى الناس على شريعة الله لقاموا بالقسط، لكن كل من لم يتمش على شريعة الله فهو جائر، قال الله تعالى: {وعلى الله قصد السبيل ومنها جآئر} يعني من السبيل ما هو جائر وهو سبيل الظالمين، ثم ذكر الله تبارك وتعالى ما يحصل به النصر من جهة أخرى، لأن النصر يكون بالوحي ويكون بالبأس وهو ما ذكره في قوله: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس} أنزلنا الحديد يعني خلقناه لهم من المعادن واستنبط بعض العلماء من قوله: {وأنزلنا الحديد} على أن المعدن إذا كان في قمم الجبال فهو أقوى وأنفع مما إذا كان في أسفل، لأن النزول إنما يكون من أعلى، فالله أعلم هذا يرجع إلى علم الجيولوجيا، لكن أنزلنا بمعنى وضعنا لهم الحديد، وهو معدن معروف من أقوى المعادن {فيه بأس شديد} أي: في الحرب، تصنع منه السيوف والخناجر وجميع آلات الحرب، وإنما ذكره بعد ذكر الكتب، لأن الدين لا يقوم إلا بهذا: بالدعوة والقتال.

فإذا أبى الكفار أن يكون دين الله هو العالي فحينئذ يقاتلون، بالحديد {ومنافع

=

=

للناس} جمع المنافع لأنها لا تحصى أجناسها، فضلًا عن أنواعها وأفرادها، فمن يحصي المنافع التي تحصل بالحديد؟! ولهذا جاءت بالجمع المعروف بصيغة منتهى الجموع، {ومنافع للناس} دينية ودنيوية، فردية وجماعية {وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب} معطوفة على {ليقوم الناس بالقسط} والمراد علم الظهور الذي يترتب عليه الثواب أو العقاب، أما علم أنه سيكون، فهذا سابق على إرسال الرسل وإنزال الكتب، لأنه سبحانه لم يزل ولايزال عالمًا بكل شيء، ولكن لا يشكل عليك الأمر، لا تقل: إن الله لا يعلم إلا بعد هذا، نقول: العلم علمان: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم بالشيء بعد وجوده. والعلم السابق لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب حتى يمتحن للناس، {من ينصره} ـ أي: ينصر دينه، وليس المعنى ينصر نفس الله، لأن الله غني عن العالمين، ولهذا قال الله تعالى: {ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم}. فلو قال قائل: كيف تفسر الآية ينصر دينه والله يقول: {من ينصره} هذا تفسير مخالف للفظ وأنتم تنكرون على من يفسر القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ، فما الجواب؟ فالجواب: نحن لا ننكر على الناس إذا فسروا القرآن بما يخالف ظاهر اللفظ إذا كان ذلك بدليل، ولهذا إذا قال قائل في قوله تعالى: {فإذا قرأت القرءان فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} المعنى إذا قرأت القرآن أي أردت قراءته، فهذا فسره بخلاف ظاهره، ولكنه تفسير صحيح، لأن الإنسان يستعيذ بالله إذا أراد أن يقرأ، وليس إذا تم القراءة.

بدليل فعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولأن هذا هو الذي يفيد أن يستعيذ الإنسان بالله قبل أن يقرأ ليقرأ والشيطان بعيد عنه، على كل حال إذا قال لك قائل: كيف تفسر قوله تعالى: {من ينصره} أي من ينصر دينه وأنت تنكر على من يفسر القرآن بخلاف ظاهره، فالجواب: أننا لا ننكر على من يفسر القرآن

=

=

بخلاف ظاهره إذا كان في ذلك دليل صحيح، والدليل على أن المراد ينصر دينه قوله: {إن الله قوى عزيز} ليس به حاجة، ولا يحتاج إلى أحد، فهو قوي عزيز غالب، غالب بقوة، لا يلحقها ضعف، وقوله ﷻ: {ورسله} نصر الرسل، إذا كان الرسول حيًّا فالمراد ينصر الرسول نفسه وشريعته، وبعد موته ينصر شريعته، وفي هذا دليل على أن نصر الشريعة نصر لمن جاء بها، فلا يشكل على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد يميت الرسول قبل أن يرى النصر الواسع له، لأننا نقول: نصر شريعته نصر له، وقوله: {بالغيب} أي: أنه ينصر الله- ﷻ وينصر رسله وهو لم ير الله، لأن الله تعالى ينصر ولا يُبصَر في الدنيا، ولهذا قال بعض السلف: (ينصرونه ولا يبصرونه) تفسيرًا لقوله: {بالغيب} ينصرونه ولا يبصرونه، فالمراد لا يبصرونه في الدنيا، أما في الآخرة فنظر الله تعالى حق ثابت بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة ﵃ إذن بالغيب، أي: ينصرون الله وهو غائب، ويحتمل أن يكون المعنى بالغيب، أي: بغيبتهم عن الناس، فيكون في هذا دليل على إخلاصهم، وأنهم ليسوا ممن يعبدون الله إذا كانوا بين الناس، بل يعبدون الله تعالى في الغيب والشهادة {إن الله قوى عزيز} هذه الجملة استئنافية لبيان أن نصر الله ﷻ ليس عن ضعف ولا عن قهر، بل هو قوي عزيز لا يحتاج إلى أحد ينصره بنفسه، ولكن النصر لدينه، نسأل الله أن يجعلنا من أنصار دينه إنه على كل شيء قدير.

{ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب} هذه الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات، الأول: القسم المحذوف. والثاني: اللام. والثالث: قد، ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل عليه الصلاة والسلام من أولي العزم الخمسة، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أبو الأنبياء من بعده، وإليه يرجع الأنبياء، أي: إلى ملته، ولهذا يتنازع فيه المسلمون واليهود والنصارى، فاليهود يقولون: إنه يهودي، والنصارى يقولون: إنه نصراني، والمسلمون يقولون: إنه

=

=

حنيف مسلم، وهذا هو الحق، والعجب أن اليهود والنصارى يقولون: إنه يهودي أو نصراني، وما كانوا يهودًا ونصارى إلا من بعده، ولكنهم ليس لهم عقول، {وجعلنا في ذريتهما} أي: ذرية نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام النبوة والكتاب، يعني الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفي هذا دليل على أن آدم ليس برسول، وأن إدريس ليس قبل نوح كما ذكره بعض المؤرخين، وهو خطأ مخالف للقرآن الكريم، فليس قبل نوح رسول، وآدم نبي مكلم كلمه الله ﷻ بما شاء من وحيه، ثم سار على نهجه بنوه من بعده، فلما انتشر الناس وكثروا صار بينهم اختلاف، كما قال ﷻ: {كان الناس أمةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}. وقوله: {الكتاب}ـ المراد الجنس، لأن كل رسول معه كتاب، كما قال ﷻ: {لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب} {فمنهم مهتد} أي: بعضهم مهتد، وحذفت الياء كما هي القاعدة في اللغة العربية، وأصلها مهتدي بالياء، لكن حذفت للتخفيف {وكثير منهم فاسقون} أي: غير مهتدين، وهذا هو الواقع أن بني آدم أكثرهم ضال، كما قال ﷻ: {وإن تطع أكثر من في الأَرض يضلوك عن سبيل الله}. {ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وءاتينه الإنجيل} قفينا بمعنى اتبعنا، مأخوذ من القفا، لأن من يمشي من قفاك هو تابع لك {على آثارهم} أي: آثار نوح وإبراهيم ومن كان من الرسل الآخرين عليهم الصلاة والسلام {برسلنا} أي: التابعين لهم، {وقفينا بعيسى ابن مريم} نص على عيسى عليه السلام لأنه ليس بينه وبين محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسول، بل ولا نبي أيضًا، ليس بينه رسول ولا نبي، وما يقال: إن خالد بن معادن وغيره له النبوة فكله كذب، {وءاتينه الإنجيل} هو كتاب أنزله الله ﷻ على عيسى، ويعتبر مكملًا للتوراة، لأن التوراة هي أم الكتب في بني إسرائيل، {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} بِعِيسَى {اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ} مُحَمَّد ﷺ وَعِيسَى {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ} نَصِيبَيْنِ {مِنْ رَحْمَته} لِإِيمَانِكُمْ بِالنَّبِيِّينَ {وَيَجْعَل لَكُمْ نُورًا

=

ورهبانيةً ابتدعوها}ـ ثلاثة أشياء جعلها الله في قلوب النصارى الذين اتبعوا عيسى {رأفةً} الرأفة نوع من الرحمة ولكنها أرق وألطف {ورحمةً} فهم من أرق الناس قلوبًا، وأرحمهم بالخلق لما كانوا على شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن بعد أن كفروا بمحمد صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية وغيرها {ورهبانيةً} الانقطاع عن الدنيا للعبادة، {ابتدعوها} يعني من عند أنفسهم، كما فعلت بعض فرق المسلمين، ابتدعوا رهبانية ما أنزل الله بها من سلطان، لكن معهم رقة ورحمة {ما كتبنها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله} يعني أنا لم نفرضها عليهم، ولكن هم طلبوا رضوان الله، ولهذا نقول: {إلا ابتغاء رضوان الله} استثناء منقطع، ولكن مع كونهم ابتدعوها واختاروا بأنفسهم {فما رعوها حق رعايتها} يعني ما قاموا برعايتها الواجبة من إحسان هذه الرهبانية التي ابتدعوها، وإنما تصرفوا فيها كما يشاؤون، {فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم} أي: ثوابهم {وكثير منهم فاسقون} أي: كثير من هؤلاء النصارى فاسق، أي: خارج عن طاعة الله ﷻ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا ابتدع بدعة فإنه لا يوفق لإقامتها، فيكون ضالًا في الأصل، وضالًا في الفرع، حتى لو اجتهد، حتى لو خشع، إنك تجد كثيرًا من الناس الذين ابتدعوا أذكارًا، أو صلوات، أو أدعية، أو ما أشبه ذلك تجدهم خاشعين، قلوبهم باكية، قلوبهم خاشعة لكن لا ينفعهم ذلك، لأنهم على ضلال، نسأل الله السلامة والعافية.

تَمْشُونَ بِهِ} عَلَى الصراط {ويغفر لكم والله غفور رحيم}.

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩).

{لِئَلَّا يَعْلَم} أَيْ أَعْلَمَكُمْ بِذَلِكَ لِيَعْلَم {أَهْل الْكِتَاب} التَّوْرَاة الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ {أَنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا ضَمِير الشَّأْن وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ {لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْء مِنْ فَضْل الله} خِلَاف مَا فِي زَعْمهمْ أَنَّهُمْ أَحِبَّاء الله وَأَهْل رِضْوَانه {وَأَنَّ الْفَضْل بِيَدِ الله يُؤْتِيه} يُعْطِيه {مَنْ يَشَاء} فَآتَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَجْرهمْ مَرَّتَيْنِ كَمَا تقدم {والله ذو الفضل العظيم}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن أربعين من أصحاب النجاشي قدموا على النبي ﷺ، فشهدوا معه أُحُدًا وكانت فيهم جراحات، ولم يقتل منهم أحد، فلما رأوا ما بالمؤمنين من الحاجة؛ قالوا: يا رسول الله! إنا أهل ميسرة فائذن لنا نجيء بأموالنا نواسي بها المسلمين؛ فأنزل الله عز وجل فيهم: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢)} [القصص: ٥٢] {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: ٥٤]؛ فجعل لهم أجرين، قال: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} [الرعد: ٢٢]؛ قال: تلك النفقة التي واسوا بها المسلمين حتى نزلت هذه الآية، قال: ففخر أهل الكتاب على المسلمين حتى نزلت هذه الآية، فقالوا: يا معشر المسلمين! أما من آمن منا بكتابكم؛ فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم؛ فله أجر كأجوركم؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)}؛ فزادهم النور والمغفرة، وقال: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ}.
=

=

أخرجه الطبراني في "المعجم الأوسط" (٧/ ٣٣٦، ٣٣٧ رقم ٧٦٦٢): ثنا محمد بن موسى الإصطخري ثنا أبو أسامة عبد الله بن أسامة الكلبي ثنا علي بن ثابت الدهان ثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه به.

قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن جعفر بن أبي المغيرة إلا يعقوب القمي تفرد به علي بن ثابت".

وهذا سند ضعيف؛ شيخ الطبراني لم نجد له ترجمة.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢١): "رواه الطبراني في "الأوسط"؛ وفيه من لم أعرفه".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٥): "بسند فيه من لا يعرف".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ١٤٠، ١٤١): ثنا ابن حميد ثنا مهران ثنا يعقوب به مرسلًا لم يذكر ابن عباس. وسنده ضعيف جدًا؛ فيه علل:

الأولى: ابن حميد؛ ضعيف متهم بالكذب.

الثانية: مهران؛ صدوق له أوهام سيئ الحفظ.

الثالثة: الإرسال.

قال الزيلعي في "تخريج الكشاف" (٣/ ٤١٩): "وهذا مرسل".

وعن مقاتل بن حيان؛ قال: لما نزلت: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: ٥٤]؛ فَخَرَ مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: لنا أجران ولكم أجر؛ فاشتد ذلك على الصحابة؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)}؛ فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب وسوّى بينهم في الأجر.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٥)، و"الدر المنثور" (٨/ ٦٧) ونسبه

=

=

لابن أبي حاتم.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن قتادة في قوله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)}؛ قال: لما نزلت هذه الآية؛ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها؛ فأنزل الله -تعالى-: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٧٦)، والطبري في "جامع البيان" (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣) من طريقين عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وعن مجاهد؛ قال: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب؛ كفروا؛ فأنزل الله -تعالى-: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ}؛ يعني بالفضل: النبوة.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٥)، و"الدر المنثور" (٨/ ٦٨) ونسبه لابن المنذر وعبد بن حميد.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قسم العمل وقسم الأجر، وفي لفظ: وقسم الأجل، فقيل لليهود: اعملوا؛ فعملوا إلى نصف النهار، فقيل: لكم قيراط، وقيل للنصارى: اعملوا؛ فعملوا من نصف النهار إلى العصر، فقيل: لكم قيراط، وقيل للمسلمين: اعملوا؛ فعملوا من العصر إلى غروب الشمس، فقيل: لكم قيراطان، فتكلمت اليهود والنصارى في ذلك، فقالت اليهود: أنعمل إلى نصف النهار فيكون لنا قيراط؟ وقالت النصارى: أنعمل من نصف النهار إلى العصر فيكون لنا قيراط؟ ويعمل هؤلاء من العصر إلى غروب الشمس

=

=

فيكون لهم قيراطان؟ "؛ فأنزل الله -تعالى-: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ} إلى آخر الآية، ثم قال: "إن مثلكم فيمن قبلكم من الأمم كما بين العصر إلى غروب الشمس".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٦٨) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ} [الحديد: ٢٨]، أي:"يا أيها الذين آمنوا، امتثلوا أوامر الله واجتنبوا نواهيه وآمنوا برسوله".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين التوراة والإنجيل، خافوا الله بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، وآمنوا برسوله محمد ﷺ".

قال ابن الجوزي:"عامة المفسرين على أن هذا الخطاب لليهود والنصارى، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله، وآمنوا برسوله محمد ﷺ".

قال أبو حيان:"الظاهر أنه نداء لمن آمن من أمة محمد ﷺ، فمعنى {آمنوا}: دوموا واثبتوا، وهكذا المعنى في كل أمر يكون المأمور ملتبسا بما أمر به".

عن ابن عباس، والضحاك: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}، قالا:"يعني: الذين آمنوا من أهل الكتاب".

قوله تعالى: {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ} [الحديد: ٢٨]، أي:"يؤتكم ضعفين من رحمته".

قال ابن الجوزي: أي:"{يُؤْتِكُمْ} نصيبين، وحظَّين {مِنْ رَحْمَتِهِ}".

قال القرطبي:"أي: مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، وهذا مثل قوله تعالى: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: ٥٤]، والكفل الحظ والنصيب".

=

=

قال الطبري: يقول:"يُعطكم ضعفين من الأجر، لإيمانكم بعيسى ﷺ، والأنبياء قبل محمد ﷺ، ثم إيمانكم بمحمد ﷺ حين بعث نبيا. وأصل الكفل: الحظّ، وأصله: ما يكتفل به الراكبُ، فيحبسه ويحفظه عن السقوط؛ يقول: يُحَصِّنكم هذا الكِفْل من العذاب، كما يُحَصِّن الكِفْل الراكب من السقوط".

قال الفراء:"الكفل: الحظ، وهو فِي الأصل ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عَنِ السقوط، يَقُولُ: يحصنكم الكِفل من عذاب الله، كما يحصّن هَذَا الراكب الكفلُ من السقوط".

قال الزجاج:"معناه: يؤتكم نصيبين من رحمته، وإنما اشتقاقه في اللغة من: «الكفل»، وهو كساء يجعله الراكب تحته إذا ارتدف لئلا يسقط، فتأويله: يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي".

عن ابن عباس: " {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، قال: أجرين، لإيمانهم بعيسى ﷺ، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد ﷺ، وتصديقهم به".

وفي لفظ:"أجرين: إيمانهم بمحمد ﷺ، وإيمانهم بعيسى ﷺ، والتوراة والإنجيل".

قال الضحاك:"يقول: أجرين بإيمانكم بالكتاب الأوّل، والذي جاء به محمد ﷺ".

قال ابن زيد:"أجرين: أجر الدنيا، وأجر الآخرة".

عن أبي موسى: " {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، قال: الكفلان: ضعفان من الأجر -بلسان الحَبَشة-".

قال ابن عباس:"الكفلان: أجران بإيمانهم الأوّل، وبالكتاب الذي جاء به محمد ﷺ".

عن ابن عباس، ومجاهد، في قوله: " {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، قالا:

=

=

"ضعفين".

عن الشعبيّ، قال: "إن الناس يوم القيامة على أربع منازل: رجل كان مؤمنا بعيسى، فآمن بمحمد ﷺ، فله أجران. ورجل كان كافرا بعيسى، فأمن بمحمد ﷺ، فله أجر. ورجل كان كافرا بعيسى، فكفر بمحمد ﷺ، فباء بغضب على غضب. ورجل كان كافرا بعيسى من مشركي العرب، فمات بكفره قبل محمد فباء بغضب".

عن العباس بن الوليد، قال: "أخبرني أبي، قال: سألت سعيد بن عبد العزيز، عن الكفل كم هو؟ قال: ثلاث مئة وخمسون حسنة، والكفلان: سبع مئة حسنة. قال سعيد: سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حبرا من أحبار اليهود: كم أفضل ما ضعفت لكم الحسنة؟ قال: كفل ثلاث مئة وخمسون حسنة؛ قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين، ثم ذكر سعيد قول الله عز وجل في سورة الحديد {يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ}، فقلت له: الكفلان في الجمعة مثل هذا؟ قال: نعم".

عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه، قال، قال رسول الله ﷺ: " ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران "، ثم قال عامر: أعطيناكها بغير شيء، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة".

عن عبد الله بن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّمَا آجالُكُم فِي آجال مَن خَلا مِنَ الأُمَم، كَما بَينَ صَلاةِ العَصْرِ إلى مَغْرِبِ الشَّمْس، وإنما مَثَلُكُم وَمَثَلُ اليَهُودِ والنَّصَارى كَمَثَل رَجُل اسْتأجَرَ عُمَّالا فَقَالَ: مَن يَعْمَل مِن بُكْرَةٍ إلى نِصفِ النَّهَارِ على قِيرَاطٍ قيراط، ألا فَعَمِلَتِ اليَهُودُ ثُمَّ قَالَ: مَن يَعْمَلُ مِنْ نِصفِ النَّهَارِ إلى صَلاةِ العَصْر على قِيراطٍ قيراط، ألا فَعَمِلَتِ النَّصَارِى، ثُمَّ قَالَ: مَن يعْمَل مِن صَلاةِ

=

=

العَصْر إلى مَغَارِبِ الشَّمْس على قِيراطَيْن قيراطين، ألا فَعَمِلْتُم".

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى. ثم قال من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذي عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء".

وفي صحيح البخاري عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: "مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا يعملون له عملا يومًا إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا فأبوا وتَرَكُوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال أكملوا بقية عملكم؛ فإن ما بقي من النهار شيء يسير. فأبوا، فاستأجر قومًا أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور".

عن أبي أُمامة الباهليّ، أنه قال: شهدت خطبة رسول الله ﷺ يوم حجة الوداع، فقال قولا كثيرا حسنا جميلا وكان فيها: "مَن أسْلَمَ مِن أهْل الكتَابَيْنِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَلَهُ مِثْلُ الَّذي لَنَا، وَعَلَيْهِ مِثْلُ الَّذي عَلَيْنَا، وَمَن أسْلَمَ مِنَ المُشْركينَ فَلَهُ أجْرُهُ، وَلَهُ الذي لَنا، وَعَلَيْهِ مِثْلُ الَّذي عَلَيْنا".

=

قوله تعالى: {وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [الحديد: ٢٨]، أي:"ويجعل لكم نورًا تهتدون به".

وفي قوله تعالى: {وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ} [الحديد: ٢٨]، على أربعة وجوه:

أحدها: أنه الفرقان واتباعهم النبيّ ﷺ، قاله ابن عباس.

وفي رواية عن ابن عباس: " {وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}، قال: القرآن".

الثاني: أنه الهدى، قاله مجاهد.

قال الزجاج:"يجعل لهم سبيلا واضحا من الهدى تهتدون به".

قال السعدي:"أي: يعطيكم علما وهدى ونورا تمشون به في ظلمات الجهل".

الثالث: ضياء {تَمْشُونَ بِهِ} في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس وبه قال مقاتل.

قال مقاتل:"يعني: تمرون به على الصراط إلى الجنة نورا تهتدون به".

قال الزجاج:"وهو علامة المؤمنين في القيامة، ودليل ذلك قوله: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم} [الحديد: ١٣]".

الرابع: أنه الدين المتبوع في مصالح الدنيا وثواب الآخرة. أفاده الماوردي.

قال القرطبي:"وقيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رئاسة كنتم فيها. وذلك أنهم خافوا أن تزول رئاستهم لو آمنوا بمحمد ﵇. وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقية في الدين".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره وعد هؤلاء القوم أن يجعل لهم نورا يمشون به، والقرآن، مع اتباع رسول الله ﷺ نور لمن آمن بهما وصدّقهما، وهدى؛ لأن من آمن بذلك، فقد اهتدى".

قوله تعالى: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [الحديد: ٢٨]، أي:"ويغفر لكم ذنوبكم".

=

قال الطبري:"يقول: ويصفح لكم عن ذنوبكم، فيسترها عليكم".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الحديد: ٢٨]، أي:"والله غفور لعباده، رحيم بهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله ذو مغفرة ورحمة".

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

عن قتادة:"قوله: {غفورا}، قال: للذنوب الكثيرة أو الكبيرة".

قال قتادة:"قوله: {رحيما}، بعباده".

قال سعيد بن جبير:"قوله: {رحيما} بهم بعد التوب".

قوله تعالى: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ} [الحديد: ٢٩]، أي:"أعطاكم الله تعالى ذلك كله؛ ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، أنهم لا يقدرون على شيء مِن فضل الله يكسبونه لأنفسهم أو يمنحونه لغيرهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبمحمد ﷺ من أهل الكتاب، يفعل بكم ربكم هذا لكي يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي آتاكم وخصكم به، لأنهم كانوا يرون أن الله قد فضّلهم على جميع الخلق، فأعلمهم الله جلّ ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة، ما لم يؤتهم، وأن أهل الكتاب حسدوا المؤمنين لما نزل قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فقال الله ﷻ: فعلت ذلك؛ ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله".

قال ابن كثير:"أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدّ ما أعطاه الله، ولا على إعطاء

=

=

ما منع الله، {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}".
قال السعدي:"أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانا عاما، واتقى الله، وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى} ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغما على أنوف أهل الكتاب".
قال أبو حيان:"ليعلم أهل الكتاب الذين لم يسلموا أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ، فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله، ولم يكسبهم فضلا قط. وإذا كان النداء لمؤمني هذه الأمة والأمر لهم، فروي أنه لما نزل هذا الوعد لهم حسدهم أهل الكتاب، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها، وتزعم أنهم أحباء الله وأهل رضوانه، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به. ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون".
قال ابن الجوزي:"المعنى: أنه جعل الأجرين لمن آمن بمحمّد ﷺ ليعلم من لم يؤمن به أنه لا أجر لهم ولا نصيب في فضل الله، وقيل: أن الخطاب للمسلمين، فيكون المعنى: يؤتكم أجرين ليعلم مؤمنو أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي خصّكم به فإنه فضّلكم على جميع الخلائق".
عن مجاهد، قال: "قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبيٌّ، فيقطع الأيدي والأرجل. فلمّا خرج من العرب كفروا؛ فأنزل الله: {لِئَلّا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ} الآية. يعني بالفضل: النّبوة".
عن ابن عباس: {لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ}: الذين يتسمعون، {أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى

=

=

شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ}".

وقيل:"{لِئَلا يَعْلَمَ}، إنما هو ليعلم: وذُكر أن ذلك في قراءة عبد الله: «لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ ألا يَقْدِرُونَ».

عن أبي المعلى، قال: "كان سعيد بن جُبَير يقول: «لِكَيْلا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتاب»".

قوله تعالى: {وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [الحديد: ٢٩]، أي:"وأن الفضل كله بيد الله وحده يؤتيه مَن يشاء من عباده".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وليعلموا أن الفضل بيد الله دونهم، ودون غيرهم من الخلق، يعطي فضله ذلك من يشاء من خلقه، ليس ذلك إلى أحد سواه".

قال السعدي: أي: " ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله".

قال ابن الجوزي:"فآتاه المؤمنين".

قال مقاتل: أي:"الإسلام".

قوله تعالى: {وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢٩]، أي:"والله ذو الإحسان والعطاء الكثير الواسع على خلقه".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {العظيم}، يعني: وافر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله ذو الفضل على خلقه، العظيم فضله".

قال السعدي: " الذي لا يقادر قدره".

قال مقاتل:"فأشرك المؤمنين في الكفلين مع أهل الإنجيل".

قال السعدي:"فلا يستكثر هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك".

قال العثيمين: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورًا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم} يا أيها

=

=

الذين آمنوا، المراد بهم هذه الأمة، فيكون قوله: {اتقوا الله وآمنوا برسوله} يعني اثبتوا على الإيمان، ولا تبدلوا الإيمان، لأن الإيمان قد حصل، حيث قال {يا أيها الذين آمنوا} ـ فيكون المعنى {يا أيها الذين آمنوا} بقلوبكم {اتقوا الله} بجوارحكم {وآمنوا برسوله} أي: حققوا الإيمان واثبتوا عليه، وليس كل من آمن يكون مؤمنًا حقًّا، وهذا هو ما يعنيه العلماء بقولهم، هذا نفي كمال الإيمان مثل قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

ليس المراد نفي مطلق الإيمان، بل نفي الإيمان المطلق الكامل، وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية في أهل الكتاب، لأنه قال: {وآمنوا برسوله} ـ ولكن هذا قول ضعيف جدًّا، ولا يمكن أن ينادي الله ﷻ أهل الكتاب وهم كفرة بوصف الإيمان أبدًا، لا يمكن أن يكون المراد بقوله: {يا أيها الذين آمنوا} يا أيها اليهود والنصارى، لأنهم حين نزول القرآن إذا بقوا على يهوديتهم ونصرانيتهم ليسوا بمؤمنين، والمراد برسوله هنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والإيمان بالرسول ﷺ يتضمن الإيمان بجميع الرسل، كما قال ﷻ: {آمن الرسول بمآ أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله} يعني في الإيمان به، لا في الاتباع، ففي الاتباع نفرق بين الرسل، فتبع منهم محمدًا ﷺ، لكن الإيمان كلهم على حد سواء، نؤمن بأنهم رسل الله حقًّا، {يؤتكم كفلين من رحمته}

الكفلين أي: الضعفين وهو مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، والضحاك، وابن زيد. وبه قال الطبري، وابن كثير. وبنحوه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى؛ فقد فسره بالمثلين.

وذهب الزمخشري، وابن عطية، والبغوي، والرازي إلى أن المراد بالكفلين: النصيبان.

=

=

وبنحوه قال الفراء؛ فقد فسره بالحظ.

وقال ابن الجوزي: (أي نصيبين وحظين).

والذي يظهر- والله أعلم- أن جميع الأقوال الواردة في معنى "الكفلين" صحيحة ومحتملة.

قال القرطبي: (وهذا مثل قوله تعالى: {أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} [القصص: ٥٤].

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: (ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين؛ رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها، ورجل من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد ﷺ، وعبد أحسن عبادة الله ونصح سيده). كما أن أهل اللغة ذكروا هذه المعاني عند بيانهم لمعنى الكفل مما يمكن من الجمع بينها عند تفسير الآية.

أما المغايرة بين الكفل والنصيب في قوله تعالى: {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها} [النساء: ٨٥] فليست للتفريق بينهما، وإنما لغلبة استعمال الكفل في الشر، والنصيب في الخير، وإلا فالكفل النصيب.

أي: نصيبين من رحمة الله، ولهذا مثل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، هذه الأمة بالنسبة لما قبلها كرجل استأجر أجراء، منهم طائفة من أول النهار إلى نصف النهار، وطائفة من نصف النهار إلى العصر، وطائفة من العصر إلى غروب الشمس، فالطائفة الأولى أعطى كل واحد منهم دينارًا، والطائفة الثانية أعطى كل واحد دينارًا، والثالثة أعطى كل واحد دينارين فاحتج الأولون: لماذا تعطي هؤلاء دينارين، وهم أقل منا عملًا؟ فأجابهم بقوله: «هل نقصتكم من أجركم شيئًا» ؟ قالوا: لا، قال: «ذلك فضلي أوتيه من أشاء».

فالحمد لله هذه الأمة لها مثل أجر الأمم السابقة مرتين، {ويجعل لكم نورًا

=

=

تمشون به}- أي: أنكم إذا آمنتم وحققتم الإيمان مع التقوى يثبكم ثوابين {ويجعل لكم نورًا تمشون به} أي: علمًا تسيرون به إلى الله- ﷻ على بصيرة، وفي هذا دليل على أن التقوى من أسباب حصول العلم، وما أكثر الذين ينشدون العلم، وينشدون الحفظ، ويطلبون الفهم، فنقول: إن تحصيله يسير، وذلك بتقوى الله ﷻ وتحقيق الإيمان، الذي هو موجب العلم، فاعمل بما علمت يحصل لك علم ما لم تعلم، فتقوى الله ﷻ من أسباب زيادة العلم ولا شك، ولهذا قال {ويجعل لكم نورًا تمشون به} أي: تسيرون به، أي: بسببه سيرًا صحيحًا يوصلكم إلى الله ﷻ {ويغفر لكم} أي: يسترها عليكم، ويعفو عنكم، فلا عقاب ولا فضيحة {والله غفور رحيم} أي: ذو مغفرة ورحمة، كما قال الله ﷻ: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم} وقال ﷻ: {وربك الغفور ذو الرحمة} فالغفور يعني ذا المغفرة، والرحيم يعني ذي الرحمة، وذلك أن الإنسان محتاج إلى مغفرة ذنوب وقعت منه، وإلى رحمة تسدده ويتجنب بها المعاصي، ويهتدي إلى التوبة إن عصى، ثم قال: {لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله} أي: جعل لكم هذا الثواب، ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم لا يستطيعون أن يحسدوكم على ما آتاكم اللهمن فضله، مع محاولتهم الشديدة أن يحسدوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، كما قال تعالى: {ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم} فيقول ﷻ هنا {لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله} لا إعطاء ولا منعًا {وأن الفضل بيد الله} – عز وجل- وهو المدبر لكل ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته {والله ذو الفضل العظيم} أي: صاحب الفضل العظيم، وما أعظم فضل الله ﷻ على عباده، فقد قال تعالى: {وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون}.

=

=

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها- قوله تعالى: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الحديد: ١)، وفي سائر المسبحات «وما في الأرض»، ثم في سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف: "سبح" بلفظ الماضي، وفي سورة الجمعة والتغابن " يسبح" بلفظ المضارع، فهذان سؤالان؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن كون " ما " لم تتكرر في هذه السورة إنما ذلك ليطابق بالكلام ما اتصل به من قوله تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الحديد: ٢)، فلما لم تكن هذه الآية مستدعية لفظة " ما " روعي ذلك فيما قبلها لتناسب الآيتين، مع حصول ما تعطيه " ما " من المعنى، فلو وردت لم تكن لتكون إلا تأكيدًا، وكان يسقط التناسب اللفظي، ثم قد ورد بعد هذا قوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) (الحديد: ٤)، فتناسب هذا كله على ما يجب. أما المسحبات فلم يرد فيها ما يستدعى هذه المناسبة، فوردت على ما هو أنسب لما يفهم لفظ المضارع في التمادي والتكرر، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثاني: أن لفظ الماضي في " سبح " ولفظ المضارع في " يسبح " يحرزان الاستمرار والدوام، ولا تحرز إحدى العبارتين ذلك بالتأويل والتقدير، فكان الجمع بين محرزي ذلك أولى. وإنما تقدم الماضي لثبات رتبته وجودًا قبل المضارع، ثم اتبع بما يقتضي الاستمرار، وكان ورود أكثرها على التعبير بالماضي لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده، فورد هذا كله على أنسب وجه.

الآية الثانية من سورة الحديد- قوله تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الحديد: ٢)، ثم ورد بعد قوله: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) (الحديد: ٥) للسائل أن يسأل عن إعادة قوله: " له ملك السموات والأرض" مع قرب هاتين الآيتين وعن تعقيب

=

=

الأولي بقوله " وهو على كل شئ قدير" والثانية بقوله: " وإلى الله ترجع الأمور".
والجواب الأول: أن إعادة قوله: " له ملك السموات والأرض " إنما أعيد ليبني عليه قوله: " وإلى الله ترجع الأمور". لما تقدم وصفه سبحانه أنه المسبح المتعالي ذو العزة والحكمة، وأنه الذي له ملك السماوات والأرض، والقدير على كل شئ والأول والآخر، والظاهر والباطن، العليم بكل شئ، والخالق للسماوات والأرض، والذي أستوي على العرض بالقهر والقدرة، (والعلمي بما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وأنه مع الكل بالعلم) والإحاطة والبصر (بأعمالهم)، أكد ما تقدم بإخباره تعالى بأنه له ملك السماوات والأرض (وإليه رجوع أمر الخلائق، فلا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يصدر شئ إلا منه وعن قضائه، فتكرر قوله: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الحديد: ٢) لبناء ما ذكر عليه أبين شئ لحصول الجمل المفصلة قبله تحت مفهومه، فقد تبين وجه التكرار ووجه تعقيب المكرر بقوله: (وهو على كل شئ قدير)، فلما تقدم متصلًا به قوله " يحي ويميت" فالمراد وهو على كل شئ قدير من الإماتة والإحياء وغير ذلك مما يدخل تحت حكم القدرة، فهذا التعقيب أنسب شئ وأوضحه، والله اعلم.
الآية الثالثة من سورة الحديد: غ قوله تعالى: (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) (الحديد: ١٢)، وفي سورة التحريم: (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى) (التحريم: ٨)، قدم الفعل في الأولى وأخر في الثانية؟
ووجه ذلك، والله أعلم: أن قوله في سورة التحريم (الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ) يفهم من حيث المعية قرب المنزلة وعلو الحال فتقدم ثبوته، فناسب ذلك ورود الجملة الاسمية هنا لما تقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه. أما قوله في سورة الحديد:
=

=

(يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) فبشارة للمؤمنين، ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم تمكن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم إنما هذه بشارة، فناسبها التجدد والحدوث، فناسب ذلك الفعل بما يعطيه من المعنى فقيل " يسعى نورهم بين أيديهم " ليفهم التكرر وحدوث الشئ بعد الشئ، فورد كل على ما يجب ويناسب.

الآية الرابعة: غ- قوله تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) (الحديد: ٢٢)، وفي سورة التغابن: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) (التغابن: ١١)، للسائل أن يسأل عما زيد في آية الحديد من قوله " في الأرض ولا في أنفسكم" إلى ما بعد مما خلت منه آية التغابن مع اتحادهما فيما انطوت عليه من المعنى؟

فأقول- وأسأل الله التوفيق- إن المسبحات الخمس وهي: سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف وسورة الجمعة وسورة التغابن، مع اشتراك خمستها في مطالعها لم تتلاق منها في عدة معان وترادف ألفاظ واحدة مع أخرى تلاقي هاتين السورتين أعنى سورة الحديد وسورة التغابن، ألا ترى اجتماع السورتين في ذكر خلق السماوات والأرض، والإعلام بإحاطة علمه سبحانه، وما يترتب على ذلك من الجزاء الأخراوي وذكر الأموال والأولاد والفتنة بهما، وتحقير أمر الدنيا وما انطوت عليه الإشارة إلى تفصيل أحوال الخلق وجزائهم الأخراوي، وإن كل واقع في الوجود واقع بإذنه سبحانه وتقديره وانطواء كل واحدة من هاتين السورتين على جملة من أسمائه سبحانه، ولم يرد في غيرهما من السور الخمس المذكورة من ذلك ما يجاريهما فيما اشتركتا فيه من الأسماء العلية، وإن كانت سورة الحشر قد انطوت من ذلك على نحو ما انطوت عليه سورة الحديد إلا أنها لم تلتق معهما في موافقة ما اجتمعتا عليه من تعيين عدة منهما (فلما) اتفقت السورتان فيما ذكر،

=

سورة المجادلة[1]

=

ولم يجتمع معهما غيرهما من المسبحات في ذلك ولا قارب، مع طول سورة الحشر ومجاراتها في الطول سورة الحديد، وكون سورة التغابن لا تقارب واحدة منهما في الطول)، ومع ذلك فقد شاركت سور ة الحديد في تلك الأغراض الجليلة والمقاصد العظيمة وجارتها في ذلك عددًا واستيفاء، وعريت سائر المسبحات عن التعرض لذلك أو الوفاء منه بما وفتا به وعرفتا من حاله. فلما اتفقتا في هذا كله، وكانت سورة الحديد أمعن في كل ضرب مما ذكر وأوفي تعريفًا وأمد تفصيلًا، وكانت هذه الآية المتكلم فيها من جملة ما اتفقت السورتان فيه ورودًا واتحاد معنى، أجريت في كل واحدة من السورتين من التفصيل في الأولى والاستيفاء والإجمال في الثانية والاكتفاء على ما جرت (به) سائر الآي فيما اشتركت فيه السورتان مما ذكر قبل، فناسب ذلك ما زيد فيها في الآية المذكورة فقيل: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) (الحديد: ٢٢) مناسبة لما بنيت عليه السورة من الوفاء بالأغراض المذكورة. وقيل في آية التغابن: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) (التغابن: ١١) مناسبة للإجمال الوارد فيها من ذلك المشترك. وتحصل نظم السورتين على أتم مناسبة وأجل تلاؤم، وجرى ذلك على مسلك العرب وتفننها في كلامها وتصرفها إذا أطالت لداع موجب وفصلت أو أوجزت لمقتضى من المعنى وأجملت: يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

ولا يمكن على ما تبين عكس الوارد في السورتين بوجه، والله أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٦٧-٤٦٩).

(١) السّورة مدنيّة.

=

=

* آياتها اثنتان وعشرون عند الجمهور، وإِحدى وعشرون عند المكِّيّين. وكلماتها أَربعمائة وثلاث وسبعون. وحروفها أَلف وسبعمائة واثنتان وتسعون. المختلف فيها آية واحدة: {فِي الأذلين} مجموع فواصل آياتها (من زرد) وعلى حرف الزّاءِ آية واحدة: {عَزِيْزٌ} فحسب.

* أسماء السورة:

سميت هذه السورة في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنة «سورة المجادلة»، لأنها افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس بن الصامت لدى النبي ﷺ في شأن مظاهرة زوجها في قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١].

ولم يذكر المفسرون ولا شارحو كتب السنة ضبط كلمة «المجادلة» بكسر الدال، أو فتحها. وذكر الخفاجي في «حاشية البيضاوي» أن كسر الدال هو المعروف.

قال ابن عاشور:"كسر الدال أظهر؛ لأن السورة اُفتتحت بذكر التي تجادل في زوجها، فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال، وهي التي ذكرها الله بقوله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: ١]".

وتسمى «سورة قد سمع» أورد هذه التسمية الخفاجي في حاشيتهـ والأوسي في تفسيرهـ قال ابن عاشور:"إن هذا الاسم هو الاسم المشتهر في الكتاتيب في التونس".

وإن صحت هذه التسمية فإن وجه تسميتها أنها افتتحت بهذا اللفظ: «قد سمع»، ولم تفتتح غيرها من سور القرآن بهذا اللفظ.

وتسمى «سورة الظهار» سميت في مصحف أُبي بن كعب: «سورة الظهار». ووجه تسميتها لما ذكر فيها من أحكام ظهار الزوج من زوجته وما يترتب عليه.

يرد فيهما من رسول الله -ﷺ- نص صريح.

=

=

* معظم مقصود السّورة: بيان حُكْم الظِّهار، وذكر النجوى والسّرار، والأَمر بالتَّوسع فى المجالس، وبيان فضل أَهل العلم، والشكاية من المنافقين، والفرق بين حِزب الرّحمن، وحزب الشيطان، والحكم على بعض بالفلاح، وعلى بعض بالخسران، فى قوله: {هُمُ الخَاسِرُونَ} و {هُمُ المُفْلِحُوْنَ}.

* المتشابهات: {الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ} وبعده: {والذين يُظَاهِرُونَ مِّن نِّسَآئِهِمْ} لأَنَّ الأَوّل خطاب للعرب؛ وكان طلاقهم فى الجاهلية الظِّهار، فقيّده بقوله: {مِنكُمْ} وبقوله: {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ القول وَزُورًا} ثمّ بيّن أَحكام الظِّهار للنَّاس عامّة، فعطف عليه فقال: {والذين يُظَاهِرُونَ} فجاءَ فى كلّ آية ما اقتضاه معناه.

قوله: {وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وبعده: {وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} لأَنَّ الأَوّل متَّصل بضدّه، وهو الإِيمان فتوعّدهم على الكفر بالعذاب الأَليم الَّذى هو جزاء الكافرين، والثَّانى متَّصل بقوله: {كُبِتُوا} فسر أبو عبيد القاسم بن سلام قوله تعالى: {كبتوا كما كبت الذين من قبلهم}: أي أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم. وإلى هذا المعنى ذهب أبو عبيدة معمر بن المثنى. ونسبه الطبري إلى بعض أهل اللغة بقوله: (وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يقول: معنى (كبتوا): أهلكوا).

وروي عن قتادة أن المعنى: خزوا كما خزي الذين من قبلهم. وإلى هذا المعنى ذهب الطبري.

وذكر البعض أن المعنى: لعنوا كما لعن الذين من قبلهم.

وذكر بعض المفسرين أكثر من معنى للكبت عند تفسيره للآية؛ يقول الفراء: (أي غيظوا وأحزنوا)، ويقول الزمخشري: (أي أخزوا وأهلكوا).

والظاهر أن جميع المعاني الواردة في معنى الكبت صحيحة ومحتملة، واختلافها من باب اختلاف التنوع لا التضاد، وهي معان صحيحة للكبت في اللغة.

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١).

{قَدْ سَمِعَ الله قَوْل الَّتِي تُجَادِلك} تُرَاجِعك أيها النبي {فِي زَوْجهَا} الْمُظَاهِر مِنْهَا وَكَانَ قَالَ لَهَا أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي وَقَدْ سَأَلَتْ النَّبِيّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَهَا بِأَنَّهَا حَرُمَتْ عَلَيْهِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْهُود عِنْدهمْ مِنْ أَنَّ الظِّهَار مُوجِبه فِرْقَة مُؤَبَّدَة وَهِيَ خَوْلَة بِنْت ثَعْلَبَة وَهُوَ أَوْس بْن الصَّامِت {وَتَشْتَكِي إِلَى الله} وَحْدتهَا وَفَاقَتهَا وَصَبِيَّة صِغَارًا إنْ ضَمَّتْهُمْ إلَيْهِ ضَاعُوا أَوْ إلَيْهَا جَاعُوا {وَاَللَّه يَسْمَع تَحَاوُركُمَا} تُرَاجِعكُمَا {إنَّ الله سميع بصير} عالم.

=

يقول الأزهري جامعا بين أكثر من معنى: (معنى: (كبتوا): أذلوا وأخذوا بالعذاب بأن غلبوا كما نزل بمن قبلهم ممن حاد الله). ولذا تجد من المفسرين من جمع بين عدة معان عند تفسيره للآية.

يقول البغوي: (أي أذلوا، وأخذوا، وأهلكوا).

ويقول ابن كثير: (أهينوا، ولعنوا، وأخزوا).

فهو الإِذْلال والإِهانة، وغيرهما فوصف العذاب بمثل ذلك فقال: {مُهِينٌ}.

قوله: {جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير} بالفاءِ؛ لما فيه من التعقيب، أى فبئس المصِيرُ ما صاروا إِليه، وهو جهنَّم.

قوله: {مِّنَ الله شَيْئًا أولائك} بغير واو، موافقة للجمل الَّتى قبلها، وموافقة لقوله: {أولائك حِزْبُ الله}.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

الَّـذِينَ يُظَـاهِرُونَ مِـنْكُمْ مِـنْ نِـسَائِهِمْ مَـا هُـنَّ أُمَّهَـاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِـي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢).

{الذين يظهرون} أَصْله يَتَظَهَّرُونَ أُدْغِمَتْ التَّاء فِي الظَّاء وَفِي قِرَاءَة بِأَلِفٍ بَيْن الظَّاء وَالْهَاء الْخَفِيفَة وَفِي أُخْرَى كَيُقَاتِلُونَ وَالْمَوْضِع الثَّانِي كَذَلِكَ {مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتهمْ إنْ أُمَّهَاتهمْ إلَّا اللَّائِي} بِهَمْزَةٍ وَيَاء وَبِلَا يَاء {وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ} بِالظِّهَارِ {لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْل وَزُورًا} كَذِبًا {وَإِنَّ الله لَعَفُوّ غَفُور} لِلْمُظَاهِرِ بِالْكَفَّارَةِ

وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣).

{والذين يظهرون مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} أَيْ فِيهِ بِأَنْ يُخَالِفُوهُ بِإِمْسَاكِ الْمُظَاهِر مِنْهَا الَّذِي هُوَ خِلَاف مَقْصُود الظِّهَار مِنْ وَصْف الْمَرْأَة بِالتَّحْرِيمِ {فَتَحْرِير رِقْبَة} أَيْ إعْتَاقهَا عَلَيْهِ {مِنْ قبل أن يتماسا} بالوطء {ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير}.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤).

{فَمَنْ لَمْ يَجِد} رَقَبَة {فَصِيَام شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْل أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ} أَيْ الصِّيَام {فَإِطْعَام سِتِّينَ مِسْكِينًا} عَلَيْهِ أَيْ مِنْ قَبْل أَنْ يَتَمَاسَّا حَمْلًا لِلْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّد لِكُلِّ مِسْكِين مُدّ مِنْ غَالِب قُوت الْبَلَد {ذَلِكَ} أَيْ التَّخْفِيف

فِي الْكَفَّارَة {لِتُؤْمِنُوا بِاَللهِ وَرَسُوله وَتِلْكَ} أَيْ الْأَحْكَام الْمَذْكُورَة {حُدُود الله وَلِلْكَافِرِينَ} بِهَا {عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم[1].

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-؛ قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة ابنة ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سنين وانقطع ولدي؛ ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قال: فما برحت حتى نزل جبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بهؤلاء الآيات: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير}؛ قال: زوجها: أوس بن الصامت.

وفي رواية -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-؛ قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إن خولة تشتكي زوجها إلى رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فيخفى علي أحيانا بعض ما تقول، قالت: فأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير}.

أخرجه أحمد (٦/ ٤٦)، والدارمي في الرد على المريسي (ص ٤٠٤)، وابن ماجه (٢٠٦٣)، وإسحاق بن راهوية (٧٣١)، والحاكم (٢/ ٤٨١)، وابن جرير (٢٨/ ٥)، وأبو يعلى (٤٧٨٠)، والنسائي في التفسير (٥٩٠)، والإسماعيلي في معجمه (١/ ٤٥١- ٤٥٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧٨، رقم ٦٢٥)، وأبو الشيخ في العظمة (١٩١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦٨٩)، والبيهقي في السنن (٧/ ٣٨٢)، وفي السنن الصغير (٣/ ١٣٨)، وفي معرفة السنن والآثار (١١/ ١١٥)، وفي الأسماء والصفات (٣٨٥)، وفي الاعتقاد والهداية (ص ٥١)، وعلقه البخاري بصيغة الجزم عن الأعمش، قبل الحديث (٧٣٨٦) والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال ابن منده في التوحيد (٣/ ٥١، رقم =

=

٤١٤): هذا حديث مجمع على صحته رواه جماعة عن الأعمش، وصححه ابن عساكر في معجم الشيوخ (١/ ١٦٣)، وقال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٨٠): إسناده ثابت، وصححه الحافظ في تغليق التعليق (٥/ ٣٣٩)، وصححه العلامة الألباني في الإرواء (٧/ ١٧٥)، وقال العلامة الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٥٨٣): إسناده صحيح على شرط مسلم، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٠/ ٢٢٨): إسناده صحيح على شرط مسلم.

وعن خويلة بنت ثعلبة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- وكانت عند أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -؛ قالت: (دخل علي ذات يوم فكلمني بشيء وهو فيه كالضجر، فرددته؛ فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه، ثم رجع، فأرادني على نفسي؛ فامتنعت منه؛ فشادني فشاددته، فغلبته بما تغلب به المرأة الرجل الضعيف، فقلت: كلا، والذي نفس خويلة بيده؛ لا تصل إليها حتى يحكم الله في وفيك حكمه، ثم أتيت النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أشكو ما لقيت منه، فقال رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "زوجك وابن عمك، فاتقي الله وأحسني صحبته". قالت: فما برحت حتى نزل القرآن: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله} حتى انتهى إلى الكفارة، ثم قال النبي- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: "مريه؛ فليعتق رقبة"، قلت: والله يا نبي الله! ما عنده من رقبة يعتقها، قال: "مريه؛ فليصم شهرين متتابعين"، فقلت: يا رسول الله! شيخ كبير ما به من صيام، قال: "فليطعم ستين مسكينا"، قلت: يا نبي الله! ما عنده ما يطعم، قال: "سنعينه بعرق من تمر" -والعرق: مكتل يسع ثلاثين صاعا-، قلت: وأنا أعينه بعرق آخر، قال: "قد أحسنت، فليتصدق به).

أخرجه أحمد (٦/ ٤١٠- ٤١١)، وأبو داود (٢٢١٤)، وابن حبان (٤٢٧٩)، وابن الجارود في المنتقى (٧٤٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٢٥٧)،

=

=

والطبري في تفسيره (٢٨/ ٥)، والطبراني في الكبير (١/ ٦١٦)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٨٩) من حديث خوله بنت مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والحديث صححه ابن حبان، وابن الجارود، وحسنه الحافظ في الفتح (٩/ ٣٨٢)، وقال العلامة الألباني في الإرواء (٧/ ١٧٤): فيه معمر بن عبد الله بن حنظلة وهو مجهول: ثم ذكر الشيخ بعض الشواهد ثم قال: وجملة القول أن الحديث بهذه الشواهد صحيح، وقال الحويني في الغوث (٧٤٦): إسناده ضعيف وهو حديث صحيح، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٣٢٩- ٣٣٠): حسن لغيره، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند (٤٥/ ٣٠٢): إسناده ضعيف لجهالة معمر بن عبد الله بن حنظلة، فلم يرو عنه سوى محمد بن إسحاق، وقال ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" ٤/ ٤٦٤: مجهول الحال، وقال الذهبي في "الميزان": لا يعرف، وذكره ابن حبان في "الثقات".

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن جميلة كانت امرأة أوس بن الصامت، وكان أوس امرؤ به لمم، فإذا اشتد لممه؛ ظاهر من امرأته؛ فأنزل الله فيه كفارة الظهار.

أخرجه أبو داود (٢٢٢٠)، والحاكم (٢/ ٤٨١)، والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٨٢)، وفي المعرفة (١١/ ١١٥) والحديث احتج به ابن حزم في المحلى، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه العلامة الألباني في صحيح أبي داود الأم (٦/ ٤٢١) وقال: هذا إسناد رجاله ثقات رجال مسلم كلهم؛ إلا أن محمد بن الفضل- وهو: أبو الفضل السَّدوسيُّ، الملقب بـ (عارم)- كان اختلط، كما قال أحمد وغيره، وقد خالفه موسى بن إسماعيل عن حماد... فأرسله كما في الرواية التي قبله. وهي أصح. والحديث أخرجه الحاكم (٢/ ٤٨١)، عنه البيهقي (٧/ ٣٨٢) من طريق علي ابن الحسن الهلالي: ثنا أبو النعمان محمد بن الفضل... به. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم! ووافقه الذهبي! وله طريق أخرى عن

=

=

عروة... به موصولًا نحوه. مما يدل على أن لـه أصلًا في الموصول، وهو مخرج في "الإرواء " (٢٠٨٧)، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٣/ ٥٤٠): إسناده صحيح.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن خولة أو خويلة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن زوجي ظاهر مني؛ فقال لها النبي ﷺ: "ما أراك إلا قد حرمت عليه"، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي؛ فأنزل الله -تعالى-: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٢) ونسبه لابن مردويه.

وعن محمد بن سيرين؛ قال: إن أول من ظاهر في الإسلام زوج خويلة، فأتت النبي ﷺ، فقالت: إن زوج ظاهر مني، وجعلت تشكو إلى الله؛ فقال لها النبي ﷺ: "ما جاءني في هذا شيء"، قالت: فإلى من يا رسول الله؟! إن زوجي ظاهر مني، فبينما هي كذلك؛ إذ نزل الوحي: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} حتى بلغ: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}، ثم حبس الوحي، فانصرف إليها رسول الله ﷺ فتلاها عليها، فقالت: لا يجد، فقال النبي ﷺ: "هو ذاك"، فبينما هو كذلك؛ إذ نزل الوحي: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}، ثم حبس الوحي فانصرف إليها رسول الله ﷺ، فتلاها عليها فقالت: لا يستطيع أن يصوم يومًا واحدًا، قال: "هو ذاك"، فبينما هو كذلك؛ إذ نزل الوحي: {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} فانصرف إليها رسول الله ﷺ فتلاها عليها، فقالت: لا يجد يا رسول الله! قال: "إنا سنعينه".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٣) ونسبه لعبد بن حميد وابن مردويه.

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا ظاهر من امرأته على عهد النبي ﷺ -وكان الظهار أشد من الطلاق وأحرم الحرام؛ إذا ظاهر من امرأته لم ترجع إليه أبدًا-، فأتت

=

=

النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله! إن زوجي وأبا ولدي ظاهر مني، وما يطلع إلا الله على ما يدخل علي من فراقه، فقال لها النبي ﷺ: "قد قال ما قال"، قالت: فكيف أصنع؟ ودعت الله واشتكت إليه؛ فأنزل الله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ} إلى آخر الآيات، فدعا رسول الله ﷺ زوجها، فقال: "تعتق رقبة"، قال: ما في الأرض رقبة أملكها، قال: "تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ "، قال: يا رسول الله! إني بلغت سنًا وبي دوران، فإذا لم آكل في اليوم مرارًا؛ أدير علي حتى أقع، قال: "تستطيع أن تطعم ستين مسكينًا؟ "، قال: والله ما أجد، فقال رسول الله ﷺ: "سنعينك".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٣، ٧٤) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن يزيد بن زيد الهمداني في قوله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}؛ قال: هي خولة بنت الصامت، وكان زوجها مريضًا؛ فدعاها، فلم تجبه وأبطأت عليه؛ فقال: أنت عليّ كظهر أمي، فأتت النبي ﷺ؛ فنزلت هذه الآية: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}؛ فقال له النبي ﷺ: "أعتق رقبة"، قال: لا أجد، قال: "فصم شهرين متتابعين"، قال: لا أستطيع، قال: "فأطعم ستين مسكينًا"، قال: لا، والله ما عندي إلا أن تعينني، فأعانه النبي ﷺ بخمسة عشر صاعًا، فقال: والله ما في المدينة أحوج إليها مني، فقال النبي ﷺ: "فكلها أنت وأهلك".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٤) ونسبه لعبد بن حميد.

وعن عكرمة: أن الرجل قال: والله يا نبي الله! ما أجد رقبة، فقال النبي ﷺ: "ما أنا بزايدك"؛ فأنزل الله -تعالى- عليه: {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}، فقال: والله يا نبي الله! ما أطيق الصوم؛ إني إذا لم آكل في اليوم كذا وكذا أكلة؛ لقيت ولقيت، فجعل يشكو إليه، فقال: "ما أنا بزايدك"؛ فنزلت: {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

=

=

فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٧٨) عن معمر عن أيوب عنه به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن خويلة ابنة ثعلبة وكان زوجها أوس بن الصامت قد ظاهر منها، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: ظاهر مني زوجي حين كبر سني ورق عظمي؛ فأنزل الله فيها ما تسمعون: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ} حتى بلغ: {لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣) من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عنه به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ} إلى قوله: {فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}: وذلك أن خولة بنت الصامت -امرأة من الأنصار- ظاهر منها زوجها، فقال: أنت عليّ مثلَ ظهر أمي، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن زوجي كان تزوجني وأنا أحب الناس إليه، حتى إذا كبرت ودخلت في السن؛ قال: أنت عليّ مثلَ ظهر أمي، فتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله! تنعشني وإياه بها؛ فحدثني بها، فقال رسول الله ﷺ: "ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن، ولكن ارجعي إلى بيتك؛ فإن أؤمر بشيء لا أغممه عليك إن شاء الله"، فرجعت إلى بيتها، وأنزل الله على رسول الله ﷺ في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} إلى قوله: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}؛ فأرسل رسول الله ﷺ إلى زوجها، فلما أتاه؛ قال له رسول الله ﷺ: "ما أردت إلى يمينك التي أقسمت عليها؟ "؛ فقال: وهل لها كفارة؟ فقال له رسول الله ﷺ: "هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ "،

=

=

قال: إذًا يذهب مالي كله؛ الرقبة غالية وأنا قليل المال، فقال له رسول الله ﷺ: "فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ "، قال: لا، والله لولا أني آكل في اليوم ثلاث مرات لَكَلَّ بصري، فقال له رسول الله ﷺ: "هل تستطيع أن تطعم ستين مسكينًا؟ "، قال: لا والله؛ إلا أن تعينني على ذلك بعون وصلاة، فقال رسول الله ﷺ: "إني معينك بخمسة عشر صاعًا، وأنا داع لك بالبركة"؛ فأصلح ذلك بينهما، قال: وجعل فيه تحرير رقبة لمن كان موسرًا لا يكفر عنه إلا تحرير رقبة إذا كان موسرًا من قبل أن يتماسا، فإن لم يكن موسرًا؛ فصيام شهرين متتابعين لا يصلح له إلا الصوم إذا كان معسرًا إلا أن لا يستطيع، فإن لم يستطع؛ فإطعام ستين مسكينًا، وذلك كله قبل الجماع.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن محمد بن كعب القرظي؛ قال: كانت خولة ابنة ثعلبة تحت أوس بن الصامت، وكان رجلًا به لمم، فقال في بعض هجراته: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم على ما قال، فقال لها: ما أظنك إلا قد حرمت عليّ، قالت: لا تقل ذلك؛ فوالله ما أحب الله طلاقًا، قالت: ائت رسول الله فسله، فقال: إني أجدني أستحيي منه أن أسأله عن هذا، فقالت: فدعني أن أسأله، فقال لها: سليه، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا نبي الله! إن أوس بن الصامت أبو ولدي وأحب الناس إليّ قد قال كلمة، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقًا؛ قال: أنت عليّ كظهر أمي، فقال النبي ﷺ: "إما أراك إلا قد حرمت عليه"، قالت: لا تقل ذلك يا نبي الله! والله ما ذكر طلاقًا، فرادّت النبيَّ ﷺ مرارًا، ثم قالت: اللهم إني أشكو اليوم شدة حالي ووحدتي وما يشق عليَّ فراقه، اللهم فأنزل على لسان نبيك؛ فلم ترم مكانها حتى أنزل الله {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ} إلى أن ذكر

=

=

الكفارات؛ فدعاه النبي ﷺ، فقال: "أعتق رقبة"، فقال: لا أجد، فقال: "صم شهرين متتابعين"، قال: لا أستطيع؛ إني لأصوم اليوم الواحد فيشق عليّ، قال: "أطعم ستين مسكينًا"، قال: أما هذا؛ فنعم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن أبي معشر المدني عن محمد به. وهذا سند ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: ابن حميد؛ متروك متهم بالكذب.

الثانية: مهران؛ صدوق له أوهام سيئ الحفظ.

الثالثة: أبو معشر المدني، اسمه نجيح؛ ضعيف أسن واختلط.

الرابعة: الإرسال.

وعن أبي إسحاق: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}؛ قال: نزلت في امرأة اسمها خولة، وقال عكرمة: اسمها خويلة ابنة ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت، جاءت النبي ﷺ، فقالت: إن زوجها جعلها عليه كظهر أمه، فقال النبي ﷺ: "ما أراك إلا قد حرمت عليه"، وهو حينئذ يغسل رأسه، فقالت: انظر جعلت فداك يا نبي الله! فقال: "ما أراك إلا قد حرمت عليه"، فقالت: انظر في شأني يا رسول الله! فجعلت تجادله، ثم حوّل رأسه ليغسله؛ فتحولت من الجانب الآخر، فقالت: انظر جعلني الله فداك يا نبي الله! فقالت الغاسلة: اقصري حديثك ومخاطبتك يا خويلة! أما ترين وجه رسول الله ﷺ متربدًا ليوحى إليه؛ فأنزل الله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} حتى بلغ: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}، قال قتادة: فحرمها ثم يريد أن يعود لها فيطأها؛ فتحرير رقبة، حتى بلغ: {بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، قال أيوب -أحسبه ذكره عن عكرمة-: إن الرجل قال: يا نبي الله! ما أجد رقبة، فقال النبي ﷺ: "ما أنا بزائدك"؛ فأنزل الله عليه: {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}؛ فقال: "والله يا نبي الله! ما أطيق الصوم؛ إني إذا لم

=

=

آكل في اليوم كذا وكذا أكلة لقيت ولقيت، فجعل يشكو إليه، فقال: "ما أنا بزائدك"؛ فنزلت: {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} .

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤، ٥) من طريق محمد بن ثور عن معمر عنه به. وسنده ضعيف.

وعن عطاء بن يسار: أن خويلة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت، فتظاهر منها وكان به لمم، فجاءت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أوسًا تظاهر مني، وذكرت أن به لممًا، فقالت: والذي بعثك بالحق؛ ما جئتك إلا رحمة له، إن له فيّ منافع؛ فأنزل الله ﷻ فيهما القرآن، فقال رسول الله ﷺ: "مريه؛ فليعتق رقبة"، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عنده رقبة ولا يملكها، فقال: "مريه؛ فليصم شهرين متتابعين"، فقالت: والذي بعثك بالحق لو كلفته ثلاثة أيام ما استطاع وكان الحر، فقال: "مريه؛ فيطعم ستين مسكينًا"، فقالت: والذي بعثك بالحق ما يقدر عليه، قال: "مريه؛ فليذهب إلى فلان بن فلان؛ فقد أخبرني أن عنده شطر تمر صدقة فليأخذه صدقة عليه، ثم ليتصدق به على ستين مسكينًا".

أخرجه البيهقي في "السنن الكبرى" (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠) من طريق إسماعيل بن جعفر ثنا محمد بن أبي حرملة عن عطاء به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وقال البيهقي عقبه: "هذا مرسل".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧١) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وذلك أن خولة امرأة من الأنصار ظاهر منها زوجها، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن زوجي كان تزوجني وأنا أحب الناس إليه، حتى إذا كبرت ودخلت في السنن؛ قال: أنت عليّ كظهر أمي، وتركني إلى

=

=

غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله! تنعشني وإياه بها؛ فحدثني بها، قال: "والله؛ ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن، ولكن ارجعي إلى بيتك؛ فأن أومر بشيء لا أعميه عليك إن شاء الله"، فرجعت إلى بيتها؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ في الكتاب رخصتها ورخصة زوجها؛ فقال: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} إلى قوله: {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فأرسل إلى زوجها، فقال: "هل تستطع أن تعتق رقبة؟ "، قال: إذن يذهب مالي كله؛ الرقبة غالية وأنا قليل المال، قال: "هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ "، قال: والله؛ لولا أني آكل كل يوم ثلاث مرات؛ لَكَلَّ بصري، قال: "هل تستطيع أن تطعم ستين مسكينًا؟ "، قال: لا والله؛ إلا أن تعينني، قال: "إني معينك بخمسة عشر صاعًا".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٢) ونسبه لابن مردويه.

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقالت: ظاهر مني زوجي حين كبر سني ودق عظمي؛ فأنزل الله آية الظهار، فقال رسول الله ﷺ: "أعتق رقبة"، قال: مالي بذلك يدان، قال: "فصم شهرين متتابعين"، قال: إني إذا أخطأني أن آكل في اليوم ثلاث مرات لَكَلَّ بصري، قال: "فأطعم ستين مسكينًا"، قال: ما أجد؛ إلا أن تعينني؛ فدعا رسول الله ﷺ خمسة عشر صاعًا حتى جمع الله له أهله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٢، ٧٣) ونسبه لابن مردويه.

وأخرجه في "أسباب النزول" (ص ٢٧٣، ٢٧٤) من طريق محمد بن بكار نا سعيد بن بشير؛ أنه سأل قتادة عن الظهار؛ قال: فحدثني: أن أنس بن مالك قال: فذكره بنحوه. وسنده ضعيف؛ لأن سعيد بن بشير ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن عكرمة: أن امرأة أخي عبادة بن الصامت جاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو زوجها؛ ظاهر منها، وامرأة تفلي رأس رسول الله ﷺ أو قال: تدهنه، فرفع رسول

=

=

الله ﷺ نظره إلى السماء؛ فقالت التي تفلي لامرأة أخي عبادة بن الصامت رضي الله عنه -واسمها خولة بنت ثعلبة-: يا خولة! ألا تسكتي؟ فقد ترينه ينظر إلى السماء؛ فأنزل الله فيها: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}؛ فعرض عليه رسول الله ﷺ عتق رقبة، فقال: لا أجد، فعرض عليه صيام شهرين متتابعين، فقال: لا أطيق؛ إن لم آكل كل يوم ثلاث مرات؛ شق بي، فقال له النبي ﷺ: "فأطعم ستين مسكينًا"، قال: لا أجد، فأتي النبي ﷺ بشيء من تمر، فقال له: "خذ هذا فاقسمه"، فقال الرجل: ما بين لابتيها أفقر مني؛ فقال له النبي ﷺ: "كله أنت وأهلك".

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٤) ونسبه لعبد بن حميد. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن أبي العالية، قال: إن خويلة ابنة الدليج أتت النبيَّ ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله! طالت صحبتي مع زوجي، ونفضت له بطني، وظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: "حرمت عليه"، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي، ثم قالت: يا رسول الله! طالت صحبتي، ونفضت له بطني؛ فقال رسول الله ﷺ: "حرمت عليه"، فجعل إذ قال لها: "حرمت عليه"؛ هتفت، وقالت: أشكو إلى الله فاقتي، قال: فنزل الوحي وقد قامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فأومأت إليها عائشة أن أسكتي، قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي أخذه مثل السبات، فلما قضى الوحي؛ قال: "ادعي زوجك"؛ فتلاها عليه رسول الله ﷺ: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} إلى قوله: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}؛ أي: يرجع فيه {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}؛ قال: "أتستطيع رقبة؟"؛ قال: لا، قال: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}، قال: يا رسول الله! إني إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات؛ خشيت أن يغشو بصري، قال: {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}

=

=

قال: أتستطيع أن تطعم ستين مسكينًا؟ "، قال: لا يا رسول الله! إلا أن تعينني، فأعانه رسول الله ﷺ؛ فأطعم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٢، ٣)، والبيهقي في "السنن الكبرى" (٧/ ٣٨٤، ٣٨٥) من طريقين عن داود بن أبي هند ثني أبو العالية به، وهذا لفظ الطبري. قال البيهقي عقبه: "هذا مرسل". وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٧٧) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن مردويه.

وعن عمران بن أبي أنس؛ قال: كان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت، وكان به لمم، وكان يفيق أحيانًا، فلاحى امرأته خولة بنت ثعلبة في بعض صحواته، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، ثم ندم، فقال: ما أراك إلا قد حرمت علي، قالت: ما ذكرت طلاقًا، فأتت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال، وجادلت رسول الله ﷺ مرارًا، ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شدة وحدتي وما يشق عليّ من فراقه، قالت عائشة: فلقد بكيت وبكى من كان في البيت؛ رحمة لها ورقة عليها، ونزل على رسول الله ﷺ الوحيُ فسري عنه وهو يتبسم، فقال: "يا خولة! قد أنزل الله فيك وفيه: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}، ثم قال: "مريه أن يعتق رقبة"، قالت: لا يجد، قال: "فمريه أن يصوم شهرين متتابعين"، قالت: لا يطيق ذلك، قال: "فمريه فليطعم ستين مسكينًا"، قالت: وأنّى له؟ قال: "فمريه فليأت أم المنذر بنت قيس فليأخذ منها شطر وسق تمر فليتصدق به على ستين مسكينًا"، فرجعت إلى أوس؛ فقال: ما وراءك؟ قالت: خير وأنت ذميم، ثم أخبرته، فأتى أم المنذر؛ فأخذ ذلك منها، فجعل يطعم مدين من تمر كل مسكين.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٣/ ٥٤٧، ٥٤٨) أخبرنا محمد بن عمر؛ قال: ثنا عبد الحميد بن عمران بن أبي أنس عن أبيه به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ فيه علتان:

=

=

الأولى: الإرسال.

الثانية: الواقدي شيخ ابن سعد؛ متروك الحديث، بل اتهم بالكذب.

* قوله تعالى: «قد» في قوله- تعالى-: قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ للتحقيق ولتوقع الإجابة من الله- تعالى- على ما جادلت فيه تلك المرأة النبي ﷺ.

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت ما معنى «قد» في قوله: قَدْ سَمِعَ؟

قلت: «معناه التوقع، لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله- تعالى- مجادلتها وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج كربها» ا.هـ

قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: ١]، أي:"قد سمع الله قول خولة بنت ثعلبة التي تراجعت في شأن زوجها أوس بن الصامت، وفيما صدر عنه في حقها من الظِّهار، وهو قوله لها: «أنت عليَّ كظهر أمي»، أي: في حرمة النكاح".

قال مقاتل:"يعني: تكلمك في زوجها".

قال البغوي: أي:"تخاصمك وتحاورك وتراجعك في زوجها".

قال مجاهد:"تجادل محمدا ﷺ، فهي تشتكي إلى الله عند كبره وكبرها، حتى انتفض وانتفض رحمها".

قال قتادة:"ذاك أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خويلة ابنة ثعلبة".

قال ابن كثير:"ظاهر السياق: أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خُويَلة بنت ثعلبة، كما دلّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى {قَدْ} في قوله: {قَدْ سَمِعَ}؟

قلت: معناه التوقع، لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها".

=

=

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: «قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُحَاوِرُكَ فِي زَوْجِهَا».

قوله تعالى: {وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ} [المجادلة: ١]، أي:"وهي تتضرع إلى الله تعالى؛ لتفريج كربتها".

قال مقاتل:"يعني: وتضرع إلى الله".

قال الطبري:"يقول: وتشتكي المجادلة ما لديها من الهمّ بظهار زوجها منها إلى الله، وتسأله الفرج".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} [المجادلة: ١]، أي:"والله يسمع تخاطبكما ومراجعتكما".

قال السمعاني: " أي: تراجعكما".

قال البغوي: أي:"مراجعتكما الكلام".

قال الطبري:"يعني: تحاور رسول الله ﷺ، والمجادلة خولة ابنة ثعلبة".

قال مقاتل:"يعني: خولة، امرأة أوس بن الصامت، والنبي- ﷺ".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، أي:"إن الله سميع لكل قول، بصير بكل شيء، لا تخفى عليه خافية".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الله سميع لما يتجاوبانه ويتحاورانه، وغير ذلك من كلام خلقه، بصير بما يعلمون ويعمل جميع عباده".

قال البغوي: أي:"سميع لما تناجيه وتتضرع إليه، بصير بمن يشكوا إليه، ثم ذم الظهار".

قال ابن عباس: "سميع لمن يناجيه ويتضرع إليه".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ} [المجادلة: ٢]، أي:"الذين يُظاهرون منكم من نسائهم، فيقول الرجل منهم لزوجته: «أنت عليَّ كظهر أمي» -أي: في حرمة النكاح- قد عصوا الله وخالفوا الشرع، ونساؤهم لَسْنَ

=

=

في الحقيقة أمهاتهم، إنما هن زوجاتهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الذين يحرّمون نساءهم على أنفسهم تحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم، فيقولون لهنّ: أنتن علينا كظهور أمهاتنا، وذلك كان طلاق الرجل امرأته في الجاهلية، {مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ}، يقول تعالى ذكره: ما نساؤهم اللائي يُظاهرن منهنّ بأمهاتهم، فيقولوا لهنّ: أنتن علينا كظهر أمهاتنا، بل هنّ لهم حلال".

قال ابن كثير:"أي: لا تصير المرأة بقول الرجل: «أنت عليَّ كأمي» أو «مثل أمي» أو «كظهر أمي» وما أشبه ذلك، لا تصير أمه بذلك".

عن أبي قلابة، قال: "كان الظهار طلاقا في الجاهلية، الذي إذا تكلم به أحدهم لم يرجع في امرأته أبدا، فأنزل الله ﷻ فيه ما أنزل".

وقرئ: «يَظَّاهُرونَ» و «يَتَظَاهَرونَ»، و «يَظَّهَّرونَ».

قوله تعالى: {إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ} [المجادلة: ٢]، أي:"ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم".

قال ابن كثير:"إنما أمه التي ولدته".

قال الطبري:"لا اللائي قالوا لهن ذلك".

قال الزمخشري:"يريد: أن الأمهات على الحقيقة إنما هنّ الوالدات وغيرهنّ ملحقات بهنّ لدخولهنّ في حكمهنّ، فالمرضعات أمّهات لأنّهنّ لما أرضعن دخلن بالرضاع في حكم الأمهات، وكذلك أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين، لأن الله حرّم نكاحهن على الأمة فدخلن بذلك في حكم الأمهات. وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة لأنهنّ لسن بأمّهات على الحقيقة. ولا بداخلات في حكم الأمهات".

قوله تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا} [المجادلة: ٢]، أي:"وإن

=

=

هؤلاء المظاهِرين ليقولون قولا كاذبًا فظيعًا لا تُعرف صحته".

قال الطبري:"وإن الرجال ليقولون منكرا من القول الذي لا تُعرف صحته؛ {وَزُورًا}، يعني: كذبا".

قال ابن عباس: "فظيعًا".

وقال مقاتل: "لا يعرف ذلك في الشرع".

قال ابن كثير:"أي: كلامًا فاحشًا باطلا".

قال قتادة:"الزور: الكذب".

قال الزمخشري:"فكان قول المظاهر: منكرا من القول تنكره الحقيقة وتنكره الأحكام الشرعية وزورا وكذبا باطلا منحرفا عن الحق".

قوله تعالى: {وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [المجادلة: ٢]، أي:"وإن الله لعفو غفور عمَّن صدر منه بعض المخالفات، فتداركها بالتوبة النصوح".

قال الطبري: يقول:"إن الله لذو عفو وصفح عن ذنوب عباده إذا تابوا منها وأنابوا، غفور لهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة".

قال الزمخشري:"لما سلف منه إذا تيب عنه ولم يعد إليه".

قال مقاتل:"{لَعَفُوٌّ}، حين لم يعاقبه، {غَفُورٌ} له لتحريمه الحلال".

قال ابن كثير:"أي: عما كان منكم في حال الجاهلية. وهكذا أيضًا عما خرج من سبق اللسان، ولم يقصد إليه المتكلم، كما رواه أبو داود: أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول لامرأته: «يا أختي. فقال: أختك هي؟»- فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك؛ لأنه لم يقصده، ولو قصده لحرمت عليه؛ لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك".

عن قتادة:"قوله: {غفورا}، قال: للذنوب الكثيرة أو الكبيرة".

=

=

قال سعيد بن المسيب:"ليس شيء أحب إلي من عفو".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ} [المجادلة: ٣]، أي:"والذين يحرِّمون نساءهم على أنفسهم بالمظاهَرة منهن".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: والذين يقولون لنسائهم: أنتنّ علينا كظهور أمهاتنا".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} [المجادلة: ٣]، أي:"ثم يرجعون عن قولهم ويعزمون على وطء نسائهم".

اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} [المجادلة: ٣]، على أقوال:

أحدهما: أنه العزم على الوطيء. وهذا قول قتادة.وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه.

عن قتادة: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}، قال: يريد أن يغشى بعد قوله".

قال قتادة:"حرّمها، ثم يريد أن يعود لها فيطأها".

قال سعيد بن جبير: " يعني: يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم".

وقال الحسن، وطاوس، والزهري: "العَود: هو الوطء".

قال ابن الجوزي:"اللام في «لما» بمعنى «إلى»، والمعنى: ثم يعودون إلى تحليل ما حرَّموا على أنفسهم من وطء الزوجة بالعزم على الوطء".

وروي عن مالك: "فإن عزم على وطئها كان عودا، وإن لم يعزم لم يكن عودا".

الثاني: العزم على الإمساك بعد التظاهر منها، قاله مالك.

=

=

الثالث: العزم عليهما، أي: الوطء والإمساك. وهو قول مالك في موطئه.
الرابع: أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عودا، قاله الحسن ومالك أيضا.
الخامس: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة. وهذا قول الإمام الشافعي.
السادس: أن الظهار يوجب تحريما لا يرفعه إلا الكفارة. ومعنى العود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد.
السابع: أنه تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود، وإن لم يكرر فليس بعود. وهذا اختيار بن حزم ـ وقول داود ـ ويسند ذلك إلى بكير بن الأشج وأبي العالية ـ وأبي حنيفة أيضا ـ وهو قول الفراء. وضعّفه ابن كثير: "وقال:"وهذا القول باطل".
وقال أبو العالية: "وظاهر الآية يشهد له، لأنه قال: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا} [المجادلة: ٣]، أي: إلى قول ما قالوا".
وأخرج الطبري بسنده عن أبي العالية في قوله: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}، قال: "أي: يرجع فيه".
قال الفراء:"يصلح فيها في العربية: ثم يعودون إلى ما قالوا، وفيما قَالُوا. يريد: يرجعون عما قَالُوا، وَقَدْ يجوز فِي العربية أن تَقُولُ: إن عاد لما فعل، يريد إن فعله مرة أخرى".
قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى اللام في قوله: {لِمَا قَالُوا} بمعنى: «إلى» أو «في»، لأن معنى الكلام: ثم يعودون لنقض ما قالوا

=

=

من التحريم فيحللونه، وإن قيل معناه: ثم يعودون إلى تحليل ما حرّموا، أو في تحليل ما حرّموا فصواب، لأن كلّ ذلك عود له، فتأويل الكلام: ثم يعودون لتحليل ما حرّموا على أنفسهم مما أحله الله لهم".

قوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} [المجادلة: ٣]، أي:"فعلى الزوج المظاهِر -والحالة هذه- كفارة التحريم، وهي عتق رقبة مؤمنة عبد أو أمة قبل أن يطأ زوجته التي ظاهر منها".

قال الطبري:"يقول: فعليه تحرير رقبة، يعني عتق رقبة عبد أو أمة، من قبل أن يماسّ الرجل المظاهر امرأته التي ظاهر منها أو تماسه".

قال ابن كثير:"أي: فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا، فها هنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان، فحمل الشافعي، رَحِمَهُ اللَّهُ، ما أطلق ها هنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب، وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده، عن معاوية بن الحكم السلمي، في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة» ".

قال الزمخشري:"تجزئ الرقبة المسلمة والكافرة جميعا، لأنها في الآية مطلقة، وعند الشافعي لا تجزى إلا المؤمنة. لقوله تعالى في كفارة القتل: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}، ولا تجزى أمّ الولد والمدبر والمكاتب الذي أدّى شيئا، فإن لم يؤدّ شيئا جاز. وعند الشافعي: لا يجوز".

واختلف في تفسير قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} [المجادلة: ٣]، على وجهين:

أحدهما: أنه كناية عن الجماع. فلا يجوز للمظاهر الوطيء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير. وهذا قول الحسن وعطاء بن أبي رباح وسفيان.

=

=

قال الزجاج: " كناية عن الجماع، ودليل ذلك قوله: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ} [البقرة: ٢٣٧]، فالمعنى: من قبل أن تدخلوا بهن".

وهذا القول يبيح:"للمظاهر التقبيل والمضاجعة والاستمتاع بأعلى المرأة كالحائض".

وحكي عن مجاهد: "أنه إذا وطئ قبل أن يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى".

وعن غيره: "أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلا، لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها".

قال القرطبي: "والصحيح ثبوت الكفارة، لأنه بوطئه ارتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة، ويأتي بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها".

عن ابن عباس، في قوله: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}، فهو الرجل يقول لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي، فإذا قال ذلك، فليس يحلّ له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر عن يمينه بعتق رقبة، {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} والمسّ: النكاح، {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}، وإن هو قال لها: أنت عليّ كظهر أمي إن فعلت كذا وكذا، فليس يقع في ذلك ظهار حتى يحنث، فإن حنث فلا يقربها حتى يكفِّر، ولا يقع في الظهار طلاق".

قال أبو مسلم: "وإنما كنى تعالى بقوله: {تَمَسُّوهُنَّ} [البقرة:٢٣٧] عن المجامعة، تأديبا للعباد في اختيار أحسن الألفاظ فيما يتخاطبون به".

عن الحسن:"أنه كان لا يرى بأسًا أن يغشى المظاهر دون الفرج".

عن سفيان: "إنما المظاهرة عن الجماع. ولم ير بأسًا أن يقضي حاجته دون الفرج أو فوق الفرج، أو حيث يشاء، أو يباشر".

=

=

عن عطاء بن أبي رباح-من طريق ابن جُرَيْج- أنّه سُئِل عن هذه الآية: " {مِن قَبْلِ أَنْ يَتَماسّا} . قال: هو الجماع".

الثاني: أن المراد كلّ معاني المسيس، والآية على العموم.

قال يونس، قال: بلغني عن الحسن أنه كره للمظاهر المسيس".

قال ابن عطية:"وقال جمهور أهل العلم قوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا}، عام في نوع المسيس الوطء والمباشرة، فلا يجوز لمظاهر أن يطأ ولا يقبل ولا يلمس بيده، ولا يفعل شيئا من هذا النوع إلا بعد الكفارة، وهذا قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ} [المجادلة: ٣]، أي:"ذلكم هو حكم الله -فيمن ظاهر مِن زوجته- توعظون به، أيها المؤمنون؛ لكي لا تقعوا في الظهار وقول الزور، وتُكَفِّروا إن وقعتم فيه، ولكي لا تعودوا إليه".

قال القرطبي: " أي تؤمرون به".

قال ابن كثير:"أي: تزجرون به".

قال الزجاج:"المعنى: ذلكم التغليظ في الكفارة توعظون به".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أوجب ربكم ذلك عليكم عظة لكم تتعظون به، فتنتهون عن الظهار وقول الزور".

قال ابن عطية:"ذلِكَ إشارة إلى التحرير، أي: فعل عظة لكم لتنتهوا عن الظهار".

قال الزمخشري:" {ذلِكُمْ الحكم تُوعَظُونَ بِهِ}، لأن الحكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية، فيجب أن تتعظوا بهذا الحكم حتى لا تعودوا إلى الظهار وتخافوا عقاب الله عليه".

قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ٣]، أي:"والله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو مجازيكم عليها".

قال الطبري: يقول: " والله بأعمالكم التي تعملونها أيها الناس ذو خبرة، لا يخفى

=

=

عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها، فانتهوا عن قول المنكر والزور".

قال ابن كثير:"أي: خبير بما يصلحكم، عليم بأحوالكم".

عن قتادة، قوله: " {خَبِيرٌ}، قال: " خبير بخلقه".

قوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} [المجادلة: ٤]، أي:"فمن لم يجد رقبة يُعتقها، فالواجب عليه صيام شهرين متواليين من قبل أن يطأ زوجه".

قال ابن عباس: والمسّ: النكاح".

قال الطبري: يقول:"فمن لم يجد منكم ممن ظاهر من امرأته رقبة يحرّرها، فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا؛ والشهران المتتابعان هما اللذان لا فصل بينهما بإفطار في نهار شيء منهما إلا من عذر".

وإذا كان الإفطار بالعذر ففيه اختلاف بين أهل العلم، على قولين:

أحدهما: إذا كان إفطاره لعذر فزال العذر، بنى على ما مضى من الصوم. قاله سعيد بن المسيب وآخرون.

عن سعيد بن المسيب أنه قال في رجل صام من كفارة الظهار، أو كفارة القتل، ومرض فأفطر، أو أفطر من عذر، قال: عليه أن يقضي يومًا مكان يوم، ولا يستقبل صومه".

عن سعيد بن المسيب:"في المظاهر، الذي عليه صوم شهرين متتابعين، فصام شهرًا، ثم أفطر، قال: يتمّ ما بقي".

عن الحسن وسعيد بن المسيب:"في رجل صام من كفارة الظهار شهرًا أو أكثر ثم مرض، قال: يعتدّ بما مضى إذا كان له عذر".

عن الحسن:"في الرجل يكون عليه الصوم في قتل أو نذر أو ظهار، فصام بعضه ثم أفطر، قال: إن كان معذورًا فإنه يقضي".

=

=

عن الحسن، قال: "إن أفطر من عذر أتمّ، وإن كان من غير عذر استأنف".

عن عطاء، قال: من كان عليه صوم شهرين متتابعين فمرض فأفطر، قال: يقضي ما بقي عليه".

عن عطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار:"في الرجل يفطر في اليوم الغيم، يظنّ أن الليل قد دخل عليه في الشهرين المتتابعين، أنه لا يزيد على أن يبدّله، ولا يستأنف شهرين آخرين".

عن عطاء قال: "إن جامع المعتكف، وقد بقي عليه أيام من اعتكافه، قال: يتمّ ما بقي، والمظاهر كذلك".

عن عامر الشعبي:"في رجل ظاهر، فصام شهرين متتابعين إلا يومين ثم مرض، قال: يتمّ ما بقي".

عن الشعبي في رجل عليه صيام شهرين متتابعين، فصام فمرض فأفطر، قال: يقضي ولا يستأنف".

الثاني: يستقبل من أفطر بعذر أو غير عذر،،لأنه لم يتابع صوم شهرين. وهذا قول إبراهيم.

عن إبراهيم:"في رجل عليه صيام شهرين متتابعين فأفطر، قال: يستأنف، والمرأة إذا حاضت فأفطرت تقضي".

عن إبراهيم، قال: "إذا مرض فأفطر استأنف، يعني من كان عليه صوم شهرين متتابعين فمرض فأفطر".

قال الطبري:"وأولى القولين عندنا بالصواب قول من قال: يبني المفطر بعذر، ويستقبل المفطر بغير عذر، لإجماع الجميع على أن المرأة إذا حاضت في صومها الشهرين المتتابعين بعذر، فمثله، لأن إفطار الحائض بسبب حيضها بعذر كان من قِبل الله، فكلّ عذر كان من قِبل الله فمثله".

=

قوله تعالى: {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} [المجادلة: ٤]، أي:"فمن لم يستطع صيام الشهرين لعذر شرعي، فعليه أن يطعم ستين مسكينًا ممن لا يملكون ما يكفيهم ويسد حاجتهم ما يشبعهم".

قال الطبري: يقول: " فمن لم يستطع منهم الصيام فعليه إطعام ستين مسكينًا".

عن عكرمة ، أن الرجل قال: "والله يا نبي الله ، ما أجد رقبة ، فقال النبي ﷺ: «ما أنا بزائدك» فأنزل الله: {فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا} [المجادلة: ٤] فقال: والله يا نبي الله، ما أطيق الصوم ، إني إذا لم آكل في اليوم كذا وكذا أكلة ولقيت، فجعل يشكو إليه ، فقال: «ما أنا بزائدك»، فنزلت: {فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا} [المجادلة: ٤]".

قوله تعالى: {ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [المجادلة: ٤]، أي:"ذلك الذي بينَّاه لكم من أحكام الظهار؛ من أجل أن تصدِّقوا بالله وتتبعوا رسوله وتعملوا بما شرعه الله، وتتركوا ما كنتم عليه في جاهليتكم".

قال الطبري: يقول:"هذا الذي فرضت على من ظاهر منكم، ما فرضت في حال القدرة على الرقبة، ثم خففت عنه مع العجز بالصوم، ومع فقد الاستطاعة على الصوم بالإطعام، وإنما فعلته كي تقر الناس بتوحيد الله ورسالة الرسول محمد ﷺ، ويصدّقوا بذلك، ويعملوا به، وينتهوا عن قول الزور والكذب".

قال الزمخشري:"{ذلِكَ} البيان والتعليم للأحكام والتنبيه عليها لتصدقوا {بِاللهِ وَرَسُولِهِ} في العمل بشرائعه التي شرعها من الظهار وغيره، ورفض ما كنتم عليه في جاهليتكم".

قال ابن كثير:"أي: شرعنا هذا لهذا".

قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ} [المجادلة: ٤]، أي:"وتلك الأحكام المذكورة هي أوامر الله وحدوده فلا تتجاوزوها".

=

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وهذه الحدود التي حدّها الله لكم، والفروض التي بينها لكم حدود الله فلا تتعدّوها أيها الناس".

قال الزمخشري:"{وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ} التي لا يجوز تعدّيها".

قال مقاتل:"يعني: سنة الله وأمره في كفارة الظهار".

قال ابن كثير:"أي: محارمه فلا تنتهكوها".

قال ابن عطية:"أي: فالتزموها وقفوا عندها".

قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المجادلة: ٤]، أي:"وللجاحدين والمكذبين بهذه الحدود عذاب مؤلم موجع".

قال ابن عباس:"لمن جحد هذا وكذب به".

قال الطبري: يقول:"{وَلِلْكَافِرِينَ} بها، وهم جاحدو هذه الحدود وغيرها -من فرائض الله أن تكون من عند الله-، عذاب مؤلم".

قال الزمخشري:"{وَلِلْكافِرِينَ} الذين لا يتبعونها ولا يعملون عليها {عَذابٌ أَلِيمٌ}".

قال ابن كثير:"أي: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم، أي: في الدنيا والآخرة".

قال ابن عطية:"توعد الكافرين بهذا الحديث والحكم الشرعي".

قال الألوسي:"وأطلق «الكافر» على متعدي الحدود تغليظا لزجره، ونظير ذلك قوله: تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ} [آل عمران: ٩٧]".

(تنبيه): قال تعالى {وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} فهاتين الصفتين- السمع والبصر- ثابتتان لله بالكتاب والسنة، وإجماع أتباع الرسل، وبالعقل، والفطرة، وبيان أن الله -تعالى- لم يزل بصفاته، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضل عن كتاب الله،

=

=

وسنة رسوله، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل.

قال القسطلاني: " وقد علم بالضرورة من الدين، وثبت في الكتاب والسنة، بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله، أن الباري -تعالى- حي سميع بصير، وانعقد إجماع أهل الأديان- بل جميع العقلاء- على ذلك" .

"فالسمع، والبصر، والحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، ونحوها، صفات كمال لا نقص فيها، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها، والنقص في انتفائها لا في ثبوتها بإجماع العقلاء، والقابل للاتصاف بها كالحيوان أكمل، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد"

قلت: الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله -تعالى- والقياس الفاسد؛ حيث قاسوا ذلك على ما يعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل.

قالوا: هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام.

فيقال لهم: هذه صفة أسماعكم وأبصاركم، أما رب العالمين فصفاته تابعة لذاته، وذاته ليس لها نظير أو شبيه، فكذلك صفاته تعالى.

وكيفية صفاته -تعالى- مجهولة للخلق، ويكفينا أن نعلم أنه -تعالى- متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة، وأنه في ذلك ليس له مثل، كما قال -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} .

قال الحافظ: " قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال: إن معنى "سميع بصير" عليم، قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء، ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتًا، ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر، أدخل في صفة الكمال، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر.

=

=

فصح أن كونه سميعًا بصيرًا، يفيد قدرًا زائدًا على كونه عليمًا.

وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعًا بصيرًا، وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السنة قاطبة"

وقال البيهقي: " السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، وكل منهما في حق الباري صفة قائمة بذاته" .

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله -تعالى- ومن سنة رسوله -ﷺ- على إثبات السمع والبصر صفتين لله -تعالى- حقيقتين على ما يليق بعظمته -تعالى- قال الله -تعالى-: {إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} ـ {وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} ـ {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ـ {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ـ {إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ـ {إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ـ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} ـ {فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ـ {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} .

في آيات كثيرة قد ذكر الله -تعالى- في القرآن السمع والبصر، واصفًا بهما نفسه، فيما يقرب من مائة آية، مرة يجمع بين السمع والبصر، ومرة بين السمع والعلم، ومرة يذكر البصر وحده متعلقًا بعمل العباد، كقوله: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ـ {وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} .

وقد تقرر في الفطر والعقول، أن عدم السمع والبصر، والأرجل والأيدي، نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك؛ لامتناع كونه إلهًا، إذ الإله يجب أن يكون سميعًا بصيرًا حيًا قادرًا، كاملًا، لا نقص فيه، ولا عيب، قال -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

=

=

{١٩٤} أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا} .

وقال -تعالى- عن خليله إبراهيم في دعوته أبيه إلى الله -تعالى- {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا} . وأما سنة رسول الله -ﷺ- فقد جاءت موافقة لما في كتاب الله ومبينة له، وهي كثيرة جدًا، نكتفي بذكر يسير منها بالإضافة إلى ما ذكره البخاري في الباب.

فمن ذلك ما رواه أبو داود بسنده على شرط مسلم، عن أبي هريرة أنه قرأ قول الله -تعالى-: {وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} فوضع إبهامه على أذنه، والتي تليها على عينه، وقال: " رأيت رسول الله -ﷺ- يقرأ ويضع إصبعيه" . قال البيهقي عقب روايته لهذا الحديث: " والمراد بالإشارة في هذا الخبر: تحقيق الوصف لله- ﷻ- بالسمع والبصر، فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله -تعالى-، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير، له سمع وبصر، لا على معنى أنه عليم، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب؛ لأنه محل العلوم منا" .

ثم ذكر البيهقي لحديث أبي هريرة هذا شاهدًا، من حديث عقبة بن عامر، سمعت رسول الله -ﷺ- يقول على المنبر: " إن ربنا سميع بصير، وأشار بيده إلى عينيه" قال الحافظ: سنده حسن ـ وروى اللالكائي عن ابن عباس أنه قرأ قوله -تعالى-: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} فأشار بيده إلى عينيه .

قال ابن خزيمة: " نحن نقول: لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى، وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات، وما بينهما من صغير وكبير، لا يخفى عليه خافية، فهو تعالى يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى عرشه الذي هو مستو عليه".

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله -تعالى- بقوله عن نفسه، ويقول رسوله -

=

=

ﷺ-، وبالعقل، والفطرة، وإجماع أهل العلم والإيمان، ولـم ينكـر ذلـك إلا شـواذ الطوائف المارقة من الحق، كالجهمية، وإخوانهم من بعض المعتزلة، وليس معهم على ذلك إلا التحذلق، والكلام الفارغ من الحق والمعنى الصحيح، أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضي التشبيه، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه، تعالى الله.

قوله -تعالى-: {وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}. "كان" هنا تدل على الدوام والاستمرار الذي يعم جميع الأوقات، كما قال علماء النحو: " إن "كان" تستعمل بمعنى: بقي على حاله، واستمر شأنه، وسيستمر من غير انقطاع، ولا تقيد بزمن، نحو: كان الله غفورًا رحيمًا" .

قال ابن جرير: " إن الله لم يزل {سميعًا} بما تقولون، وتنطقون، وهو سميع لذلك منك إذا حكمتم بين الناس، ولما تحاورونهم به، {بصيرًا} بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم، بعدل تحكمون أو جور، لا يخفى عليه شيء من ذلك، حافظ ذلك كله، حتى يجازي محسنكم بإحسانه، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله".

وقوله: تُجادِلُكَ من المجادلة، وهي المفاوضة على سبيل المغالبة والمنازعة، وأصلها من جدلت الحبل: إذا أحكمت فتله.

وقوله: تَشْتَكِي من الشكو، وأصله فتح الشّكوة- وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء- وإظهار ما فيها، ثم شاع هذا الاستعمال في إظهار الإنسان لما يؤلمه ويؤذيه، وطلب إزالته.

والمعنى: قد سمع الله- تعالى- سماعا تاما، قول هذه المرأة التي تجادلك- أيها الرسول الكريم- في شأن ما دار بينها وبين زوجها، وفيما صدر عنه في حقها من الظهار، وسمع- سبحانه- شكواها إليه، والتماسها منه- ﷻ حل قضيتها، وتفريج

=

=

كربتها، وإزالة ما نزل بها من مكروه.

وقال- سبحانه- الَّتِي تُجادِلُكَ بأسلوب الاسم الموصول للإشعار بأنها كانت في نهاية الجدال والشكوى، وفي أقصى درجات التوكل على ربها، والأمل في تفريج كربتها، رحمة بها وبزوجها وبأبنائها.

وقوله- سبحانه-: وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما جملة حالية، والتحاور: مراجعة الكلام من الجانبين. يقال: حاور فلان فلانا في الكلام إذا راجعه فيما يقوله.

أى: والحال أن الله- تعالى- يسمع ما يدور بينك- أيها الرسول الكريم- وبين تلك المرأة، من مراجعة في الكلام، ومن أخذ ورد في شأن قضيتها.

والمقصود بذلك، بيان الاعتناء بشأن هذا التحاور، والتنويه بأهميته، وأنه- تعالى- قد تكرم وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية.

وعبر- سبحانه- بصيغة المضارع، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور، واستحضار صورته في ذهن السامع، ليزداد عظة واعتبارا.

وجملة: إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ تذييل قصد به التعليل لما قبله بطريق التحقيق.

أى: أنه- سبحانه- يسمع كل المسموعات، ويبصر كل المبصرات، على أتم وجه وأكمله، ومن مقتضيات ذلك، أن يسمع تحاوركما، ويبصر ما دار بينكما.

ثم شرع- سبحانه- في بيان شأن الظهار في ذاته، وفي بيان حكمه المترتب عليه شرعا فقال: الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ، إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ.

وقوله: يَظْهَرُونَ من الظهار، وهو لغة مصدر ظاهر، وهو مفاعلة من الظهر.

قال الآلوسى: والظهار يراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى ولفظا باختلاف الأغراض، فيقال: ظاهر زيد عمرا، أى: قابل ظهره بظهره حقيقة، وكذا إذا غايظه ...

=

=

وظاهره إذا ناصره باعتبار أنه يقال: قوى ظهره إذا نصره» ا.هـ.

والمراد به هنا: أن يقول الرجل لزوجته: أنت على كظهر أمى، قاصدا بذلك تحريم زوجته على نفسه كتحريم أمه عليه.

وكان هذا القول من الرجل لامرأته يؤدى إلى طلاقها منه، بحيث لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، وقيل: إلى طلاقها منه طلاقا مؤبدا لا تحل له بعده.

وقيل: إن هذا القول لم يكن طلاقا من كل وجه، بل كانت الزوجة تبقى بعده معلقة، فلا هي مطلقة، ولا هي غير مطلقة.

و «من» في قوله مِنْ نِسائِهِمْ بيانية، لإفادة أن هذا تشريع عام، وليس خاصا بخولة بنت ثعلبة، التي نزلت في شأنها هذه الآيات.

وجملة: ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ قائمة مقام الخبر، ودالة عليه.

والمعنى: الذين يظاهرون منكم- أيها المؤمنون- من نسائهم بأن يقولوا لهن: أنتن علينا كظهر أمهاتنا، مخطئون فيما يقولون، فإن زوجاتهم لسن بأمهاتهم.

إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ أى: ليس أمهاتهم على سبيل الحقيقة والواقع إلا النساء اللائي ولدنهم وأرضعنهم، وقمن برعايتهم في مراحل الطفولة والصبا والشباب.

ثم أكد- سبحانه- هذا المعنى بقوله: وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا.

أى: وإن هؤلاء الرجال الذين يقولون لأزواجهم: أنتن علينا كظهور أمهاتنا في الحرمة، ليتفوهون بما هو منكر من القول، في حكم الشرع وفي حكم العقل، وفي حكم الطبع. وفضلا عن كل ذلك فهو قول كاذب وباطل إذ لم يحرم الله- تعالى- الزوجة على زوجها، كما حرم عليه أمه. فعلاقة الأزواج بأمهاتهم، تختلف اختلافا تاما عن علاقتهم بزوجاتهم.

وإذا فالمقصود بهذه الجملة الكريمة: التوبيخ على هذا القول، وهو قول الرجل

=

=

لزوجته:

أنت على كظهر أمى، وذم من ينطق به، لأنه يعرض مقام الأمهات- وهو مقام في أسمى درجات الاحترام والتبجيل- إلى تخيلات قبيحة تصاحب النطق بهذا الكلام.

وكعادة القرآن الكريم في قرن الترهيب بالترغيب، حتى لا تيأس النفوس من رحمة الله، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله- تعالى-.

فقال: وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ أى: وإن الله- تعالى- لكثير العفو والمغفرة، لمن تاب إليه- سبحانه- وأناب وأقلع عن تلك الأقوال والأفعال التي يبغضها- سبحانه-.

ثم أخذت السورة الكريمة في تفصيل حكم الظهار، بعد بيان كونه منكرا من القول وزورا، فقال- تعالى-: وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ، ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا، فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

وقد اختلف العلماء في معنى قوله- تعالى-: ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا.

فمنهم من يرى أن المراد منه، ثم يرجعون عما قالوا، قاصدين معاشرة زوجاتهم.. أو قاصدين تحليل ما حرموه على أنفسهم بالنسبة لزوجاتهم بسبب الظهار.

ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة: العودة إلى ما كانوا يقولونه في الجاهلية، بعد أن هداهم الله- تعالى- إلى الإسلام، فيكون المعنى: ثم يعودون إلى ما كانوا يقولونه في الجاهلية من ألفاظ الظهار، التي يبغضها الله- تعالى-.

وهذا القول يبدو عليه الضعف من جهة: جعله الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال وهو يَظْهَرُونَ، بمعنى الماضي المنقطع، ومن جهة جعلهم أن المظاهر بعد الإسلام، كان قد ظاهر في الجاهلية، مع أن هذا ليس بلازم. إذ لم يثبت أن «أوس بن الصامت» كان قد ظاهر من زوجته في الجاهلية، وهذا الحكم إنما هو حق المظاهر في الإسلام.

=

=

ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة: تكرار لفظ الظهار، فمعنى ثم يعودون لما قالوا: ثم يعودون إلى تكرار لفظ الظهار مرة أخرى.

وكان أصحاب هذا القول يرون، أن الكفارة لا تكون إلا بتكرار ألفاظ الظهار، وهو قول لا يؤيده دليل، لأنه لم يثبت أن خولة- أو غيرها- كرر عليها زوجها لفظ الظهار أكثر من مرة، بل الثابت أنه عند ما قال لها: أنت على كظهر أمى، ذهبت إلى الرسول ﷺ وقصت عليه ما جرى بينها وبين زوجها.

وقد رجح الإمام ابن جرير الرأى الأول كما تقدم.

والمعنى: والذين يظاهرون منكم- أيها المؤمنون- من نسائهم، ثم يندمون على ما فعلوا، ويريدون أن يعودوا عما قالوه، وأن يرجعوا إلى معاشرة زوجاتهم.

فعليهم في هذه الحالة إعتاق رقبة مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا أى: من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر، أى يحرم عليهما الجماع ودواعيه قبل التكفير.

والمراد بالرقبة: المملوك، من تسمية الكل باسم الجزء.

واسم الإشارة في قوله- سبحانه- ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ يعود إلى الحكم بالكفارة.

أى: ذلكم الذي شرعنا لكم- أيها المؤمنون- وهو الحكم بالكفارة إنما شرعناه من أجل أن تتعظوا به، وتنزجروا عن النطق بالألفاظ التي تؤدى إلى الظهار، والله- تعالى- خبير ومطلع على كل ما تقولونه من أقوال، وما تفعلونه من أفعال- وسيحاسبكم على ذلك حسابا دقيقا.

وما دام الأمر كذلك، فافعلوا ما أمركم به، واجتنبوا ما نهاكم عنه.

ثم بين- سبحانه- جانبا من مظاهر يسره في أحكامه فقال: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

أى، فمن لم يجد منكم- أيها المؤمنون- رقبة يعتقها، أو يجد المال الذي يشترى

=

=

به الرقبة فيعتقها.. فعليه في هذه الحالة، أن يصوم شهرين متتابعين من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر.

فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا أى: فمن لم يستطع أن يصوم شهرين متتابعين، لسبب من الأسباب كمرض أو غيره فعليه في هذه الحالة أن يطعم ستين مسكينا، بأن يقدم لهم طعاما يكفى لغدائهم وعشائهم بصورة مشبعة.

واسم الإشارة في قوله: ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ إشارة إلى ما سبق الحديث عنه، من تشريع يتعلق بالظهار. ومحله إما الرفع على الابتداء، أو النصب بمضمر معلل بما بعده.

أى: ذلك واقع، أو فعلنا ذلك ليزداد إيمانكم بالله ورسوله، وعملكم بشريعة الإسلام، وتنفيذكم للتكاليف التي كلفكم الله- تعالى- بها.

وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ أى: وتلك الأحكام التي ذكرناها لكم هي حدود الله- تعالى- التي لا يجوز تعديها، فالزموها وقفوا عندها، وللكافرين الذين يتعدونها ولا يقفون عندها، عذاب شديد الألم على من ينزل به.

(تتمة): في هذه الآية: تحريم لمظاهرة الرجل من امرأته، وهو أن يشبهها بظهر أمه التي تحرم عليه تحريما معظما لا يحله شيء؛ فيقول: (أنت علي كظهر أمي)؛ وهذا لأنه تحريم لما أحل الله، وإلحاق له بما حرمه الله تحريما مغلظا أبديا، وفيه تعد على حدود الله وشريعته؛ ولذا قال: {وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا}، وبين الله أن هذا القول لا يجعل من زوجاتهم أمهاتهم: {ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم}، ولا يختلف المسلمون في حرمة الظهار لأجل ذلك؛ فقد سماه الله منكرا وزورا، وهو شدة الكذب.

وكان الجاهليون يفارقون نساءهم بعبارات متعددة، منها الظهار، فيجعلونها فراقا مغلظا، فنهى الله عن ذلك، وأثبت المفارقة بالطلاق بحدوده.

=

=

* ألفاظ الظهار المتفق والمختلف فيها: لا يختلف السلف والخلف على أن قول الزوج لزوجه: (أنت علي كظهر أمي)؛ أنه ظهار، ولكنهم يختلفون فيمن ذكر شيئا غير ظهر أمه كبطنها وفرجها، والذي عليه الجماهير: أنه ظهار، وهو قول الأئمة الأربعة، وللشافعي قول: أنه ليس بظهار، وجاء عن أبي حنيفة: أنه يكون ظهارا في كل عضو من أمه يحرم نظره إليه، ومراده أنه إن قال لزوجته: أنت علي كيد أمي ووجهها، فإنها لا تحرم؛ لأنه لا يحرم عليه النظر إلى ذلك من أمه.

والأظهر؛ أن ذكر العضو ليس مقصودا لذاته؛ وإنما إن لم يذكر عضوا من أمه وحرمها كأمه، فهو ظهار، ولو ذكر لباس أمه الذي لا يظهر إلا لزوجها، وقصد به حرمة النكاح، فهو ظهار، والشريعة جاءت على ذكر قول عند العرب، والغاية من التحريم: عدم مشابهة الزوجة لحرمة الأم، والأم أغلظ المحرمات على الرجل؛ فكل ما دل على هذا المعنى وقصد به تحريم الزوجة كتحريم الأم، فهو ظهار.

واختلفوا فيما إذا جعل زوجته كأخته، فقال: أنت علي كظهر أختي أو عمتي أو خالتي، وغيرها من المحارم.

والذي عليه جمهور العلماء؛ أن ذلك كله ظهار؛ وهو الصواب؛ لأن الشريعة إنما حرمت الظهار الملفوظ في زمانهم لعلته، لا لمجرد ألفاظه؛ فلا فرق بين ظهر الأم وبطنها؛ بل لو قال: فرجها، لكان أغلظ من بطنها، لأن العلة فيه أظهر وأصرح، وكذلك أيضا فالعلة في جميع المحارم سواء كانت ابنته أو أخته أو عمته أو خالته.

ولا يصح مظاهرة المرأة لزوجها، كأن تقول: (أنت علي كأبي وأخي)؛ باتفاق الأئمة الأربعة؛ لأن الظهار يراد منه المفارقة والطلاق، والعصمة بيد الرجل لا بيد المرأة، وليس في مظاهرتها كفارة ظهار ولا يمين، على الصحيح.

ومن العلماء: من جعل ظهارها من زوجها يمينا عليها يجب عليها فيها الكفارة، وقد أوجب الكفارة عليها كفارة يمين: الأوزاعي.

=

=

* كفارة الظهار: قوله تعالى: {والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا}: في العود المذكور في الآية خلاف عند السلف ومن بعدهم من الفقهاء، على أقوال:

منهم من قال: إن المراد بالعود هو العودة إلى المظاهرة بعد تحريمها، فحملوا العود على الظهار؛ وهذا روي عن مجاهد وطاوس ورواية عن أبي حنيفة، ولازم هذا القول: أن كفارة الظهار تجب بمجرد المظاهرة ولو رغب الزوج في مفارقة زوجته بلا رجعة.

ومنهم من قال: إن العود هو تكرار الظهار أكثر من مرة، فجعلوا التكرار عودا؛ وهذا قول داود؛ وفيه نظر؛ لأن التكرار إنما هو تأكيد لا عود.

ومنهم من قال: إن المراد بالعود هو العودة إلى الزوجة والرغبة في إبقائها في عصمته وعدم مفارقتها؛ وهذا الأرجح، وهو قول مالك والشافعي وأحمد، وبه قال جماعة من السلف؛ كأبي العالية وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. ولازمه: أن الزوج إن ظاهر وأمضى ظهاره وفارقها، فلا شيء عليه.

ولكن منهم: من قيد العود بالوطء كمالك، ومنهم: من وسعه وجعله إرادة الوطء والإبقاء بالعصمة ولو من غير وطء، والأخير أظهر؛ وهو قول لأبي حنيفة وأحمد، وظاهر كلام الشافعي.

وأما الظهار المؤقت؛ كأن يقول: أنت علي كأمي شهرا كاملا، فيعتبر فيه التوقيت في قول جمهور العلماء؛ فمن فارق زوجته مدة توقيته، فظهاره ينتهي بتوقيته، وتسقط عنه الكفارة؛ وهو مذهب الحنفية والحنابلة والشافعية في القول الأظهر، ولا يكون المظاهر عائدا إلا بالوطء في المدة.

وذهب المالكية وبعض الشافعية في غير الأظهر: إلى أن الظهار لا يصح فيه التوقيت، فإن قيده بوقت، تأبد كالطلاق، ويصير مظاهرا أبدا؛ لوجود سبب

=

=

الكفارة.

ومنهم: من جعل الظهار المؤقت لغوا، فلم يرتب عليه شيئا، وهو قول لبعض الشافعية؛ وفيه نظر.

وحملت اللام في قوله: {ثم يعودون لما قالوا} على معنى (في)؛ وذلك نحو قوله تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة} [الأنبياء: ٤٧]؛ يعني: "فيه"، وقوله: {لا يجليها لوقتها إلا هو} [الأعراف: ١٨٧]؛ يعني: في وقتها.

وكفارة الظهار كما في الآية: {فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا}، والكفارة على الترتيب المذكور بلا خلاف.

ولا يجوز له قرب زوجته بجماع قبل تكفيره؛ وذلك لقوله تعالى: {من قبل أن يتماسا}، وصح عن ابن عباس أن المس الجماع وبه قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان وهو قول أحمد والشافعي.

وذهب جمهور العلماء: إلى أن المس هو المباشرة ولو دون الفرج، وهو قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في قول له، وقد قال الزهري: "ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر".

وقد جعل مالك النظر إلها بتلذذ في حكم المس.

ومن مس امرأته بعد ظهاره منها وقبل كفارته، فلا يسقط مسه وجوب الكفارة عليه، وهو بفعله ذلك آثم يجب عليه التوبة، وقد روى أهل السنن؛ من حديث عكرمة، عن ابن عباس؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت قبل أن أكفر؟ قال: (وما حملك على ذلك يرحمك الله؟)، قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر فقال: (لا تقربها حتى تفعل ما أمر الله ﷻ. والصواب إرساله عن عكرمة.

=

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥).

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ} يُخَالِفُونَ {الله وَرَسُوله كُبِتُوا} أُذِلُّوا {كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} فِي مُخَالَفَتهمْ رُسُلهمْ {وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَات بَيِّنَات} دَالَّة عَلَى صِدْق الرَّسُول {وَلِلْكَافِرِينَ} بِالْآيَاتِ {عَذَاب مُهِين} ذو إهانة.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦).

{يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد}

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧).

{أَلَمْ تَرَ} تَعْلَم {أَنَّ الله يَعْلَم مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض مَا يَكُون مِنْ نَجْوَى ثلاثة إلا هو رابعهم} بعلمه {ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله

=

وذهب بعضهم: إلى أن على من مس قبل الكفارة كفارتين.

والصحيح: أن عليه كفارة واحدة؛ وهو قول الأئمة الأربعة، وقد روى سليمان بن يسار، عن سلمة بن صخر البياضي، عن النبي ﷺ؛ في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، قال: (كفارة واحدة).

بكل شيء عليم}.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨).

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنْ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَان وَمَعْصِيَة الرَّسُول} هُمْ الْيَهُود نَهَاهُمْ النَّبِيّ ﷺ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ تَنَاجِيهمْ أَيْ تَحَدُّثهمْ سِرًّا نَاظِرِينَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيُوقِعُوا فِي قُلُوبهمْ الرِّيبَة {وَإِذَا جاءوك حيوك} أيها النبي {بِمَا لَمْ يُحَيِّك بِهِ الله} وَهُوَ قَوْلهمْ السَّام عَلَيْك أَيْ الْمَوْت {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسهمْ لولا} هلا {يعذبنا الله بِمَا نَقُول} مِنْ التَّحِيَّة وَأَنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيٍّ إنْ كَانَ نَبِيًّا {حَسْبهمْ جَهَنَّم يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير} هي[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كان ناس يأتون رسول الله ﷺ من اليهود، فيقولون: السام عليك، فيقول: "وعليكم"، ففطنت بهم عائشة؛ فسبتهم، وفي رواية: قالت عائشة: بل عليكم السام والذام؛ فقال رسول الله ﷺ: "مه يا عائشة! لا تكوني فاحشة؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"، قالت: فقلت: يا رسول الله! إنهم يقولون كذا وكذا؛ فقال: "أليس قد رددت عليهم؟ "؛ فأنزل الله ﷻ: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

أخرجه إسحاق بن راهويه في "مسنده" (٤/ ق ١٦٨/ أ) -وعنه مسلم في "صحيحه" (٤/ ١٧٠٧) -، وأحمد (٦/ ٢٢٩)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ =

=

٣٩٢، ٣٩٣ رقم ٥٩١) وغيرهم من طريق الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عائشة به.

وعن عبد الله بن عمرو ﵄؛ قال: إن اليهود سلموا على النبي ﷺ وقالوا في أنفسهم: لولا يعذبنا الله، قال: فنزلت: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

أخرجه أحمد في "مسنده" (٢/ ١٧٠، ٢٢١)، وابن أبي شيبة في "مسنده"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧١ رقم ٧٨٤٧)، والبزار في "مسنده" (٣/ ٧٥ رقم ٢٢٧١- "كشف")، والطبراني؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٢)، والبيهقي في "شعب الإيمان" (٦/ ٥١١، ٥١٢ رقم ٩١٠٠) من طرق عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله به.

وهذا سند ضعيف؛ عطاء بن السائب كان قد اختلط، وحماد روى عنه بعد الاختلاط وقبله. انظر: "الكواكب النيرات" (ص ٣٢٦)، و"التهذيب" (٧/ ٢٠٧).

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٢): "رواه أحمد والبزار والطبراني، وإسناده جيد؛ لأن حمادًا سمع من عطاء بن السائب في حالة الصحة".

قلنا: وسمع منه في حالة الاختلاط.

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القران العظيم" (٤/ ٣٤٦): "إسناده حسن ولم يخرجوه".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٦)، و"الدر المنثور" (٨/ ٨٠): "بسند جيد".

وعن مقاتل بن حيان؛ قال: كان بين يهود وبين النبي ﷺ موادعة، فكانوا إذا مر بهم

=

=

رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك؛ خشيهم؛ فترك طريقه عليهم؛ فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا؛ فأنزل الله ﷻ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٠، ٨١)، و"لباب النقول" (ص ٢٠٦، ٢٠٧)، ونسبه لابن أبي حاتم. وسندهما ضعيف؛ لإرساله.

وعن مقاتل بن حيان؛ قال: أنزلت هذه الآية يوم جمعة، وجلس رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال رسول الله ﷺ، فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته؛ فردّ النبي ﷺ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك؛ فردوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم؛ فشق ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: "قم يا فلان! وأنت يا فلان! "؛ فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه؛ فنزلت هذه الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٠، ٨١)، و"لباب النقول" (ص ٢٠٦، ٢٠٧)، ونسبه لابن أبي حاتم. وسندهما ضعيف؛ لإرساله.

وعن قتادة؛ قال: كان المسلمون إذا رأوا المنافقين؛ خلوا متناجين؛ شق عليهم؛ فنزلت: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٧٩): نا معمر عن قتادة به. وهذا مرسل

=

=

رجاله ثقات.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨١) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: (يُحَادُّونَ) من المحادة بمعنى المعاداة والمباغضة، وأصلها أن تكون أنت في حد- أى: في جانب- وعدوك في حد آخر، فكنى بها عن المعاداة لأنها لازمة لها.

وقوله: كُبِتُوا من الكبت بمعنى الخزي والذل، يقال: كبت الله العدو كبتا- من باب ضرب- إذا أهانه وأذله وأخزاه.

قال الجمل: والذين يحادون الله هم الكافرون، وهذه الآية وردت في غزوة الأحزاب.

والمقصود منها البشارة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، بأن أعداءهم المتحزبين القادمين عليهم، سيصيبهم الكبت والذل، وسيتفرق جمعهم.. ا.هـ.

والمعنى: إن الذين يحاربون دين الإسلام الذي شرعه الله- تعالى-. وجاء به رسوله ﷺ كُبِتُوا وأصابهم الخزي والذل كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من أعداء الحق.

وأوثر هنا الفعل يُحَادُّونَ لوقوعه عقب الكلام عن حدود الله- تعالى- في قوله- ﷻ وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم.

وقوله- تعالى-: كُبِتُوا بمعنى سيكبتون، وعبر عن ذلك بالماضي، للإشعار بتحقق الذل والخسران، لأولئك المتحزبين الذين جمعوا جموعهم لمحاربة الله ورسوله.

وقد حقق الله- تعالى- وعده، إذ ردهم بغيظهم دون أن ينالوا خيرا.

وجملة: وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ ... حال من الضمير في كُبِتُوا.. أى: كبتوا

=

=

لمجادلتهم للحق، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات، تدل على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند ربه، وتشهد بأن أعداءه على الباطل والضلال.

وَلِلْكافِرِينَ الذين أعرضوا عن دعوة الرسول ﷺ وحاربوها عَذابٌ مُهِينٌ أى عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم.

وقوله- تعالى-: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا يصح أن يكون متعلقا بقوله: مُهِينٌ كما يصح أن يكون منصوبا فعل مقدر.

أى: اذكر- أيها العاقل- لتتعظ وتعتبر، يوم يبعث الله- تعالى- هؤلاء الكافرين جميعا من قبورهم، فينبئهم ويخبرهم بما عملوا من أعمال سيئة.

والمراد بالإنباء في قوله: فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا المجازاة والمحاسبة وإنزال حكمه بهم.

وجملة: أَحْصاهُ اللهُ مستأنفة، لأنها بمنزلة الجواب عما قبلها، فكأن سائلا سأل وقال: كيف ينبئهم الله بأعمالهم؟ فكان الجواب: أحصى الله- تعالى- عليهم عملهم، وسجله عليهم تسجيلا تاما.

وجملة وَنَسُوهُ حال من مفعول أحصى أى: والحال أنهم قد نسوا ما عملوه، لتهاونهم به حين اقترفوه، ولاعتقادهم بأنهم لن يسألوا عنه يوم القيامة، فهم قد أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب.

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بقوله: وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أى: والله- تعالى- مشاهد لكل شيء في هذا الكون، ولا تخفى عليه خافية من أحوال خلقه.

ثم أقام- سبحانه- الأدلة على شمول علمه فقال: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ، ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ.

والاستفهام في قوله: أَلَمْ تَرَ.. للتقرير، والرؤية بمعنى العلم والإدراك القلبي.. والخطاب لكل من هو أهل له.

=

=

والنجوى: اسم مصدر بمعنى المسارة، يقال: نجوته نجوا ونجوى وناجيته مناجاة، أى:
ساررته بكلام على انفراد. وأصله: ان تخلو بمن تناجيه بسر معين في نجوة من الأرض، أى:
في مكان مرتفع منفصل عما حوله.
وقيل: أصله من النجاة، لأن الإسرار بالشيء فيه معاونة على النجاة.
وتطلق النجوى على القوم المتناجين، كما في الآية التي معنا.
قال الآلوسى: وقوله- تعالى-: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه- تعالى-، و «يكون» من كان التامة. و «من» مزيدة و «نجوى» فاعل، وإضافتها إلى ثلاثة من إضافة المصدر إلى فاعله.. والاستثناء في قوله إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ مفرغ من أهم الأحوال ... ا.هـ.
والمعنى: لقد علمت- أيها العاقل- علما لا يخالطه شك أو تردد، أن الله- تعالى- يعلم علما تاما، ما في السموات وما في الأرض من كائنات مختلفة الأجناس والأنواع.. وأنه- سبحانه- ما يقع من تناجى ثلاثة فيما بينهم إلا وهو تعالى- يعلمه، كأنه حاضر معهم، ومشاهد لهم، كما يعلمه الرابع حين يكون معهم في التناجي.
وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ أى: ولا يكون التناجي بين خمسة إلا وهو- سبحانه- معهم، يعلم ما يتناجون به كما يعلم ذلك سادسهم فيما لو كان التناجي بين ستة.
وقوله- تعالى- وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا بيان لشمول علمه لجميع الأحداث.
أى: ولا يقع التناجي بين ما هو أقل من ذلك العدد أو أكثر- كالاثنين والستة- إلا وهو- سبحانه- يعلم علما تاما ما يجرى بينهم في أى مكان كانوا، وعلى أية حالة

=

=

وجدوا.

ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ أى: ثم يخبرهم- سبحانه- يوم القيامة بما عملوه في الدنيا من أعمال كبيرة أو صغيرة، ويجازيهم عليها بما يستحقونه من ثواب أو عقاب.

إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فهو- سبحانه- لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

والمقصود بهذه الآية الكريمة، بيان شمول علم الله- تعالى- لكل شيء، وأنه- سبحانه- يحصى على الناس أعمالهم إحصاء الحاضر معهم، المشاهد لهم، الذي لا يعزب عنه شيء من حركاتهم أو سكناتهم، ولذا افتتح- سبحانه- الآية بالعلم، واختتمها بالعلم- أيضا-.

قال الرازي ما ملخصه: ذكر- سبحانه- الثلاثة والخمسة لوجوه: أحدها: أن هذه إشارة إلى كمال رحمته، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا، فإذا أخذ اثنان في التناجي والمشاورة بقي الواحد ضائعا وحيدا، فيضيق قلبه فيقول الله- تعالى- له: أنا جليسك وأنيسك.

وثانيها: أن العدد الفرد أشرف من الزوج، لأن الله وتر يحب الوتر، فخص الأعداد الفردية بالذكر للتنبيه على شرفها.

وثالثها: أن الآية نزلت في قوم من المنافقين، اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين، وكانوا على هذين العددين: أى كانوا في مرة ثلاثة وفي مرة أخرى خمسة- فنزلت الآية الكريمة بيانا للواقع ا.هـ.

ويبدو لنا أن ذكر العدد إنما هو من باب التمثيل، وأن المقصود الأصلى من الآية الكريمة، بيان أن علم الله- تعالى- يشمل كل كبير وصغير، وكثير وقليل، ولذا قال- سبحانه-:

=

=

وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا.

قال القرطبي: قال الفراء: المعنى غير مقصود، والعدد غير مقصود، لأنه- تعالى- إنما قصد- وهو أعلم- أنه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم ما يقولون سرا وجهرا، ولا تخفى عليه خافية، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد، دون بعض.. ا.هـ.

ثم عجّب الله- تعالى- نبيه ﷺ من حال قوم يؤثرون الغي على الرشد، وينصحون فلا يستجيبون للنصيحة، وينهون عن الشرور فيأبون إلا الانغماس فيها، فقال- تعالى-: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ، وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ.

قال الآلوسي: قال ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين، كانوا يتناجون دون المؤمنين، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم، يوهمونهم عند أقاربهم أنهم أصابهم شر، فلما كثر ذلك منهم. شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم عن التناجي دون المؤمنين، فعادوا لمثل فعلهم.

والخطاب للرسول ﷺ والهمزة للتعجب من حالهم، وصيغة المضارع للدلالة على تكرار فعلهم، وتجدده، واستحضار صورته الغريبة ا.هـ.

والمعنى: إن شئت أن تعجب- أيها الرسول الكريم- فاعجب من حال هؤلاء اليهود والمنافقين الذين نهيتهم أنت عن التناجي فيما بينهم، بما يقلق المؤمنين ويغيظهم ... ولكنهم لم يستجيبوا لنصحك ونهيك، بل استمروا على تناجيهم بما هو إثم وعدوان ومعصية لك، ولما جئتهم به من عند الله- تعالى-.

وعبر بقوله- تعالى-: ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ للإشعار بأنهم قوم لا تؤثر فيهم النصائح وإنما هم يستمعون إليها، ثم يهجرون العمل بها. ويعودون إلى فجورهم وفسقهم.

ووصف تناجيهم بأنه كان مشتملا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول، لا على

=

=

الإثم فقط أو على العدوان فقط.. لبيان أن تناجيهم مشتمل على كل أنواع السوء والفحشاء، فهم يتناجون بكلام هو إثم وشر في ذاته، وبأقوال مشتملة على ظلم المؤمنين والاعتداء على دينهم وعلى أعراضهم، وبأفعال هي معصية للرسول ﷺ، لأنهم لم يستجيبوا لنهيه إياهم عن المناجاة بما يؤذى المؤمنين ويحزنهم.. بل استمروا في طغيانهم يعمهون.

والباء في قوله: بِالْإِثْمِ للملابسة، أى يتناجون متلبسين بالإثم وبالعدوان وبمعصية الرسول ﷺ.

ثم بين- سبحانه- أن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم من اليهود، لم يكتفوا بتلك المناجاة القبيحة التي كانوا يديرونها فيما بينهم، لإغاظة المؤمنين، بل أضافوا إلى ذلك النطق أمام الرسول ﷺ بالكلام السيئ وبالعبارات التي تدل على سوء طويتهم، فقال- تعالى-: وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ.

أى: وإذا جاء هؤلاء المنافقون واليهود إلى مجلسك- أيها الرسول الكريم- ألقوا إليك بتحية، هذه التحية لم يأذن بها الله- تعالى- ولم يخاطبك بها.

وقد كان المنافقون عند ما يدخلون على الرسول ﷺ لا يقولون له كلمة: «السلام عليكم»- وهي تحية الإسلام، إنما يقولون له: أنعم صباحا أو مساء.. متجنبين النطق بتحية الإسلام، ومستعملين تحية الجاهلية.

روى الشيخان عن عائشة: أن ناسا من اليهود، دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السام- أى: الموت- عليك يا أبا القاسم. فقال ﷺ «وعليكم» قالت عائشة: وقلت: عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم فقال ﷺ يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش فقلت: ألا تسمعهم يقولون: السام؟ فقال ﷺ «أو سمعت قولي: عليكم» فأنزل الله- تعالى- وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ا.هـ.

ثم بين- سبحانه- رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال: وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ

=

=

لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ.

والمراد بأنفسهم هنا: أى فيما بينهم وفي مجامعهم، أو فيما بينهم وبين أنفسهم.

أى: إذا جاءك هؤلاء المنافقون ومن على شاكلتهم في الضلال، نطقوا أمامك بتحية لم يحيك بها الله- تعالى- ولا يكتفون بذلك، بل يقولون فيما بينهم على سبيل التباهي والجحود للحق لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ أى: هلا يعذبنا الله بسبب ما قلناه لو كان محمد ﷺ رسولا من عنده- تعالى- أى: أنهم ينكرون نبوته ﷺ لأنها- في زعمهم لو كانت حقا، لعذبهم الله- تعالى- بسبب إساءتهم إليه، وإعراضهم عن نهيه لهم.

وقد رد الله- تعالى- عليهم بما يكبتهم، وبما يسلى نبيه ﷺ فقال: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أى: لا تحزن- أيها الرسول الكريم- لمسالك هؤلاء المنافقين معك ومع أصحابك، فإن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم، كافيهم من العذاب جهنم يصلونها ويقاسون حرها، فبئس المصير جهنم لو كانوا يعلمون.

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: ٥]، أي:"إن الذين يشاقون الله ورسوله ويخالفون أمرهما".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين يخالفون الله في حدوده وفرائضه، فيجعلون حدودًا غير حدوده، وذلك هو المحادّة لله ولرسوله".

قال النحاس:"أي: يخالفون الله ورسوله ويصيرون في حد أعدائه".

قال الزجاج:"ومعنى: {يُحَادُّونَ اللهَ}: ويشاقون الله، أي: هم في غير الحد الذي يكون فيه أولياء الله، وكذلك يشاقون يكونون في الشق الذي فيه أعداء الله".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه".

وقال قتادة:"يعادون الله ورسوله".

=

=

قال ابن عطية:"المحادة: أن يعطي الإنسان صاحبه حد قوله أو سلاحه وسائر أفعاله. وقال قوم: هو أن يكون الإنسان في حد، وصاحبه في حد مخالف".

قوله تعالى: {كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [المجادلة: ٥]، أي:"خُذِلوا وأُهينوا، كما خُذِل الذين من قبلهم من الأمم الذين حادُّوا الله ورسله".

قال الطبري:"يعني: غيظوا وأخزوا كما غيظ الذين من قبلهم من الأمم الذين حادوا الله ورسوله، وخزُوا".

وفي قوله تعالى: {كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [المجادلة: ٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: خزوا كما خزي الذين من قبلهم. قاله قتادة.

قال مقاتل:"يعني: أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم من الأمم الخالية".

قال الزجاج:"معنى: {كُبِتُوا}: أذلوا وأخزوا بالعذاب وبأن غلبوا، كما نزل بمن قبلهم ممن حاد الله".

قال ابن كثير:"أي: أهينوا ولعنوا وأخزوا، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم".

قال الراغب:"الْكَبْتُ: الرّدّ بعنف وتذليل".

قال ابن عطية:"كبت الرجل: إذا بقي خزيان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه".

الثاني: معناه: أهلكوا كما أهلك الذين من قبلهم، قاله الأخفش وأبو عبيدة.

قال النحاس:"الأصل: كبدوا. من قولهم: كبده. إذا أصابه بوجع في كبده".

الثالث: غيظوا وأحزِنُوا يوم الخندق {كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، يريد: من قاتل الأنبياء من قبلهم. قاله الفراء.

الرابع: لعنوا كما لعن الذين من قبلهم، قاله السدي.

وقال القاسم بن سلام:"لعنوا، بلغة مذحج".

الخامس: ردوا مقهورين. حكاه الماوردي.

=

=

قوله تعالى: {وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [المجادلة: ٥]، أي:"وقد أنزلنا آيات واضحات الحُجَّة تدل على أن شرع الله وحدوده حق".

قال الطبري:"يقول: وقد أنزلنا دلالات مفصلات، وعلامات محكمات تدل على حقائق حدود الله.

قال ابن كثير:"أي: واضحات لا يخالفها ولا يعاندها إلا كافر فاجر مكاب".

قال الزمخشري:"تدل على صدق الرسول وصحة ما جاء به".

قال مقاتل:"يعني: القرآن، فيه البيان أمره ونهيه".

قوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ} [المجادلة: ٥]، أي:"ولجاحدي تلك الآيات عذاب مُذلٌّ في جهنم".

قال الطبري: يقول:"ولجاحدي تلك الآيات البيِّنَات التي أنزلناها على رسولنا محمد ﷺ، ومنكريها عذاب يوم القيامة، مهين: يعني: مذلّ في جهنم".

قال الزمخشري:"{وَلِلْكَافِرِينَ} بهذه الآيات {عَذَابٌ مُهِينٌ} يذهب بعزهم وكبرهم".

قال ابن كثير:"أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله، والانقياد له، والخضوع لديه".

قال مقاتل بن حيان: "يعني بالمهين الهوان".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا} [المجادلة: ٦]، أي:"واذكر -أيها الرسول- يوم القيامة، يوم يحيي الله الموتى جميعًا، ويجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وللكافرين عذاب مهين في يوم يبعثهم الله جميعًا، وذلك {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا} من قبورهم لموقف القيامة".

قال ابن كثير:"وذلك يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد".

=

=

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا} [المجادلة: ٦]، أي:"فيخبرهم بما عملوا من خير وشر".

قال الطبري:"{فَيُنَبِّئُهُمْ} الله {بِمَا عَمِلُوا}".

قال ابن كثير:"يخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر".

قوله تعالى: {أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ} [المجادلة: ٦]، أي:"أحصاه الله وكتبه في اللوح المحفوظ، وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، وهم قد نسوه".

قال الطبري: يقول: " أحصى الله ما عملوا، فعدّه عليهم، وأثبته وحفظه، ونسيه عاملوه".

قال ابن كثير:"أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عليه".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المجادلة: ٦]، أي:"والله على كل شيء شهيد، لا يخفى عليه شيء".

قال الطبري: " يقول: {وَاللهُ} جل ثناؤه {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} عملوه، وغير ذلك من أمر خلقه {شَهِيدٌ}، يعني: شاهد يعلمه ويحيط به، فلا يعزب عنه شيء منه".

قال ابن كثير:"أي: لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى ولا ينسى شيئًا".

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [المجادلة: ٧]، أي:"ألم تعلم أن الله تعالى يعلم كل شيء في السموات والأرض؟".

قال مقاتل:"يقول: أحاط علمه بذلك كله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قبلك فترى {أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} من شيء، لا يخفى عليه صغير ذلك وكبيره؛ يقول جلّ ثناؤه: فكيف يخفى على من كانت هذه صفته أعمال هؤلاء الكافرين وعصيانهم ربهم".

قوله تعالى: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} [المجادلة: ٧]، أي:"ما

=

=

يتناجى ثلاثة مِن خلقه بحديث سرٍّ إلا هو رابعهم بعلمه وإحاطته".

قال مقاتل:"يعني: نفر ثلاثة، {إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ}، يعني: علمه معهم إذا تناجوا".

قال الطبري:"وصف جلّ ثناؤه قربه من عباده وسماعه نجواهم، وما يكتمونه الناس من أحاديثهم، فيتحدثونه سرًا بينهم، فقال: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ} من خلقه، {إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ}، يسمع سرّهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء من أسرارهم".

قال الزجاج:"أي ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئا ويتناجون به إلا وهو رابعهم عالم به، وهو في كل مكان، أي: بالعلم".

قال الطبري:"وعني بقوله: {هُوَ رَابِعُهُمْ}، بمعنى: أنه مشاهدهم بعلمه، وهو على عرشه".

قال السمعاني:"يعني: بالعلم والقدرة".

عن الضحاك، في قوله: " {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ}... إلى قوله: {هُوَ مَعَهُمْ}، قال: هو فوق العرش وعلمه معهم {أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}".

قال الأصبهاني:"النجوى -هاهنا-: المتناجون، فأما قوله: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ}، فمعناه:

التناجي، وأصله السرّ".

و «نجوى»:"مشتق من: «النجوة». وهو ما ارتفع وتنحى، تقول: فلان من هذا المكان بنجوة. إذا كانت ناحية منه، ومعنى: تناجون: يتخالون بما يريدون".

قال السمعاني:"السرار: يكون بين اثنين، والنجوى تكون بين ثلاثة وأكثر إذا أخفي".

وقرئ: «مَا تَكُونُ»، بالتاء.

=

=

قوله تعالى: {وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ} [المجادلة: ٧]، أي:"ولا يكون من نجوى خمسة إلا هو سادسهم كذلك".

قال مقاتل:"يعني: علمه معهم".

وفِي قراءة عَبْد الله: «ولا أربعة إِلَّا هُوَ خامسُهم»، لأن المعنى غير مضمور لَهُ، فكفى ذكر بعض العدد من بعض.

قوله تعالى: {وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة: ٧]، أي:"ولا أقلُّ من هذه الأعداد المذكورة ولا أكثرُ منها إلا هو معهم بعلمه في أيِّ مكان كانوا، لا يخفى عليه شيء من أمرهم".

قال مقاتل:"يعني: ولا أقل من ثلاث نفر، وهما اثنان. ولا أكثر من خمسة نفر {إِلَّا هُوَ} يعني: إلا وعلمه {مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} من الأرض".

قال الطبري:"يقول: ولا أقل من ثلاثة {وَلا أَكْثَرَ} من خمسة، {إِلا هُوَ مَعَهُمْ} إذا تناجوا، في أيّ موضع ومكان كانوا".

قال ابن كثير:"أي: يطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ورسله أيضًا مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله وسمعه لهم، كما قال: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلامُ الْغُيُوبِ} [التوبة: ٧٨] وقال {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ولا شك في إرادة ذلك ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو، سبحانه، مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء".

قال الزجاج:"ذكر الله هذه الآية لأن المنافقين واليهود كانوا يتناجون، فيوهمون المسلمين أنهم يتناجون فيما يسوءهم ويؤذيهم فيحزنون لذلك، فنهي الله ﷻ- عق تلك النجوى فعاد المنافقون واليهود إلى ذلك".

=

=

قوله تعالى: {ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [المجادلة: ٧]، أي:"ثم يخبرهم تعالى يوم القيامة بما عملوا من خير وشر ويجازيهم عليه".

قال الطبري: يقول:"ثم يخبر هؤلاء المتناجين وغيرهم بما عملوا من عمل، مما يحبه ويسخطه يوم القيامة".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]، أي:"إن الله بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية".

قال الطبري: " يقول: إن الله بنجواهم وأسرارهم، وسرائر أعمالهم، وغير ذلك من أمورهم وأمور عباده عليم".

قال سعيد بن جبير:"{عليم} يعني: عالما بها".

عن محمد بن إسحاق: {عَلِيمٌ}:"عليم بما يخفون".

قال الإمام أحمد: "افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم".

قال الحارث المحاسبي:"أبان الله جل وعز في تلاوتها أنه لا يريد أنه كائن في الأشياء بنفسه إذ وصلها ولم يقطعها كما قطع الكلام الذي أراد به كونه فوق عرشه فقال ﷻ: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [المجادلة: ٧]، فبدأ بالعلم وأخبر أنه مع كل مناج حيث وجد وختم الآية بالعلم وقال: {إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧]، فبدأ بالعلم وختم بالعلم، فبيّن أنه أراد أنه يعلمهم حيث ما كانوا لا يخفون عليه ولا يخفى عليه مناجاتهم تفردوا أو اجتمعوا، ولو اجتمع قوم في السفل وناظر إليهم في العلو ويسمع كلامهم، فقال إني لم أزل معكم أراكم وأعلم مناجاتكم كان صادقا، ولله المثل الأعلى عن شبه الخلق".

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى} [المجادلة: ٨]، أي:"ألم تر -أيها الرسول- إلى اليهود الذين نُهوا عن الحديث سرًّا بما يثير الشك في نفوس

=

=

المؤمنين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى} من اليهود".

عن مجاهد، في قوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى}، قال: "اليهود".

وروي عن أبي سعيد الخدري، قال: "كنا نتناوب رسول الله ﷺ، نبيت عنده؛ يطرُقه من الليل أمر وتبدو له حاجة. فلما كانت ذات ليلة كَثُر أهل النّوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال: "ما هذا النجوى؟ ألم تُنْهَوا عن النجوى؟". قلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله، إنا كنا في ذكر المسيح، فَرقا منه. فقال: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي منه؟". قلنا: بلى يا رسول الله. قال: "الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل".

قوله تعالى: {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [المجادلة: ٨]، أي:"ثم يرجعون إلى ما نُهوا عنه".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ثم يرجعون إلى ما نهوا عنه من النجوى".

قوله تعالى: {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} [المجادلة: ٨]، أي:"ويتحدثون سرًّا بما هو إثم وعدوان ومخالفة لأمر الرسول".

قال الطبري: يقول:"ويتناجون بما حرّم الله عليهم من الفواحش والعدوان، وذلك خلاف أمر الله، ومعصية الرسول محمد ﷺ".

قال ابن كثير:"أي: يتحدثون فيما بينهم بالإثم، وهو ما يختص بهم، والعدوان، وهو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ومخالفته، يُصِرون عليها ويتواصون بها".

وقرأ يحيى وحمزة والأعمش: «وَيَنْتَجُونَ».

قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ} [المجادلة: ٨].

=

عـن عائـشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-؛ قالـت: كـان نـاس يـأتون رسـول الله- ﷺ- مـن اليهـود، فيقولـون: الـسام عليـك، فيقـول: "وعلـيكم"، ففطنـت بهـم عائـشة؛ فـسبتهم، وفي روايـة: قالـت عائـشة: بـل علـيكم الـسام والـذام؛ فقـال رسـول الله- ﷺ -: "مـه يـا عائشة! لا تكوني فاحشة؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"، قالت: فقلت: يا رسول الله! إنهم يقولون كذا وكذا؛ فقال: "أليس قد رددت عليهم؟ "؛ فـأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعـذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير} أخرجه مسلم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا جاءك يا محمد هؤلاء الـذين نهوا عن النجوى، الـذين وصـف الله جلّ ثنـاؤه صـفتهم، حيـوك بغيـر التحيـة التـي جعلها الله لك تحية، وكانت تحيتهم التي كـانوا يحيونـه بهـا، التـي أخبر الله أنـه لـم يحيه بها فيما جاءت به الأخبار، أنهم كانوا يقولون: السام عليك".

قال مجاهد:"يقولون: سام عليكم، قال: هم أيضًا يهود".

عـن قتـادة، في قولـه تعـالى: {حَيَّـوْكَ بِمَـا لَـمْ يُحَيِّـكَ بِـهِ اللهُ} ،قـال: «كانـت اليهـود يقولون: (سام عليك) للنبي ﷺ».

عن قتادة، في قوله: " {حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ} ، قال: اليهود كانت تقـول: سـام عليكم".

قال قتادة: «كانت اليهود يقولون: (سام عليك) للنبي ﷺ».

قال عطاء الخراساني:"كانوا يقولون إذا جاؤوا إلى النبي- ﷺ -: سامٌ عليك".

قال مسروق:"كانت اليهودُ يأتون النبيَّ- ﷺ -، فيقولون: السّام عليكم".

عن الزهري:"أن عائشة فطنت إلى قولهم، فقالت: وعليكم الـسّامة واللعنـة. فقـال النبي- ﷺ -: «مهلًا، يا عائشة، إنّ الله يحبّ الرِّفق في الأمـر كلّـه». فقالـت: يـا نبـي الله، ألم تسمع ما يقولون؟! قال: «أفلم تسمعي ما أردّ عليهم؟! أقول: عليكم»".

=

روي عن عروة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك، فقلت: بل عليكم السام واللعنة، فقال: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» قلت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال: " قلت: وعليكم".

عن أنس بن مالك:"أن نبي الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه، إذ أتى عليهم يهودي، فسلم عليهم، فردوا عليه، فقال نبي الله ﷺ: "هل تدرون ما قال؟ " قالوا: سلم يا رسول الله، قال: "بل قال: سأم عليكم، أي تسأمون دينكم، فقال النبي ﷺ: "أقلت سأم عليكم؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: "إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا وعليك": أي عليك ما قلت".

عن ابن زيد، في قوله: " {وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ}، قال: هؤلاء يهود، جاء ثلاثة نفر منهم إلى باب النبي ﷺ، فتناجوا ساعة، ثم استأذن أحدهم، فأذن له النبي ﷺ، فقال: السام عليكم، فقال النبي ﷺ: "عليك"، ثم الثاني، ثم الثالث قال ابن زيد: السام: الموت".

قوله تعالى: {وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ} [المجادلة: ٨]، أي:"ويقولون فيما بينهم: هلا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد إن كان رسولا حقًا".

قال عبد الله بن عمرو بن العاص:"يعنون: " ألا يعذبنا الله بما نقول حين نشتم محمدا.

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: ويقول محيوك بهذه التحية من اليهود: هلا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد ﷺ، فيعجل عقوبته لنا على ذلك".

قال السمعاني:"المعنى: أنهم كانوا يقولون: لو كان محمد نبيا لعذبنا الله بما نقول".

قال الفراء:"كانت اليهود تأتي النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، فيقولون: السام عليك، فيقول

=

=

لهم: وعليكم، فيقولون: لو كَانَ مُحَمَّد نبيًا لا ستجيب لَهُ فينا لأنّ السام: الموت، فذلك قوله: {لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ}، أي: هلَّا".

قال ابن كثير:"أي: يفعلون هذا، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام، وإنما هو شتم في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم: لو كان هذا نبيًا لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نسره، فلو كان هذا نبيًا حقًّا لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا".

قوله تعالى: {حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [المجادلة: ٨]، أي:"تكفيهم جهنم يدخلونها، ويقاسون حرها، فبئس المرجع هي".

قال الطبري: " يقول الله: حَسْب قائلي ذلك يا محمد جهنم، وكفاهم بها يصلونها يوم القيامة، فبئس المصير جهنم".

قال السمعاني:"أي: كافيهم عذاب جهنم، يدخلونها، {وبئس} المنقلب والمرجع".

قال ابن كثير:"أي: جهنم كفايتهم في الدار الآخرة {يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}".

(فائدة): كان اليهود إن مر بهم مسلم تناجوا؛ حتى يظن المسلم أنهم يقصدونه ويأتمرون عليه ليحزن ويخشى، وقد كانوا يحيون رسول الله ﷺ بغير تحية الإسلام، فيقولون: (السام عليك)؛ ليوهموه بأنهم يسلمون عليه، وهم يدعون عليه بالموت.

وفي "الصحيحين"؛ من حديث عائشة رضي الله عنها؛ أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك، فلعنتهم، فقال: (ما لك؟)، قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ ! قال: (فلم تسمعي ما قلت: وعليكم؟ !).

وقد وجه الله الخطاب بعد ذلك للمؤمنين محذرا من مشابهة اليهود بالتناجي على طريقتهم، بما يوغر الصدور ويوقع البغضاء؛ فلا يجوز أن يتناجى أحد مع أحد

=

=

بقصد إحزان أحد الحاضرين ولو لم يكن مقصودا بذلك؛ فما دام أنه يظن أنه المراد، فلا يجوز التناجي أمامه ولو كان في المجلس غيره؛ وذلك لظاهر الآية.

* أنواع النجوى المنهي عنها:

وقد نهى الله ونبيه عن النجوى والمسارة في الحديث في حالات ثلاث:

الحالة الأولى: التناجي بالإثم والعدوان، والغيبة والنميمة، والمكر والخديعة، فهذه مع كونها محرمة في ذاتها إلا أنه خص النهي عن التناجي بها؛ لأن الإسرار بالشر ينميه ويجسر النفوس على المزيد منه وفعله، ولا يجد فاعله منكرا عليه؛ لأن الناس لا يرونه، ولو قصد أحد بسوء بتلك النجوى، لم يحتط لنفسه من شرهم، وأما الجهر به، فمع كونه محرما إلا أن فاعله يجد منكرا ينكر عليه لو سمعه، والنفس تنفر من المجاهرة بالسوء بطبعها، والمنكر المعلن لا يدوم؛ لأن الفطرة والناس يقاومونه ويدفعونه، بخلاف المنكر الذي يستتر به، فيدوم وتتوطن عليه النفس؛ ولهذا تبدأ الشرور سرا في الناس حتى يتطبعوا عليها، ثم يعلنون بها، فالسر أصل كل شر.

الحالة الثانية: التناجي لإحزان أحد أو جماعة من المؤمنين وذلك بإظهار التآمر عليهم، وقصد عيبهم وغيبتهم؛ فهذا محرم ولو كان المتناجون في جمع من الناس، ما دام قصدهم هذا، وما دام يفهم منهم ذلك، ومن الناس من يناجي صاحبه وليس لديه قول سوء؛ وإنما ليشعر من يكرهه أنه يطعن يه عند أخيه، وهذا محرم، ومن النجوى المنهي عنها.

الحالة الثالثة: أن يتناجى اثنان عند وجود الثالث ولو لم يكن مقصودا بالنجوى، وقد ثبت في "الصحيحين"؛ من حديث ابن عمر؛ أن النبي ﷺ قال: (إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس؛ من أجل أن يحزنه).

وإذا كثر الناس، فالأمر أخف، ما لم يكن القصد معروفا عند واحد مهم، فيغلب

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩).

{يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون.

إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠).

{إنما النَّجْوَى} بِالْإِثْمِ وَنَحْوه {مِنْ الشَّيْطَان} بِغُرُورِهِ {لِيَحْزُن الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ} هُوَ {بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بإذن الله} أي إرادته {وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

=

على ظنه أنه المعني بالنجوى، وقد روى ابن حبان، عن أبي صالح، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه)، قال أبو صالح: فقلت لابن عمر: فأربعة؟ قال: لا يضرك.

وقد روى مالك في "موطئه"، عن عبد الله بن دينار؛ قال: كنت أنا وعبد الله بن عمر عند دار خالد بن عقبة التي بالسوق، فجاء رجل يريد أن يناجيه، فدعا عبد الله بن عمر أحد غيري وغير الرجل الذي يريد أن يناجيه، فدعا عبد الله بن عمر رجلا آخر حتى كنا أربعة، فقال لي وللرجل الذي دعاه: استأخرا شيئا! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول؛ (لا يتناجى اثنان دون واحد).

* ويدخل في حكم النجوى حديث الإنسان بلغة لا يفهمها إلا هو ومن يتحدث معه عند من يسمعها ولا يفهم المراد، ويعلم تكلفهم بقصد عدم إفهامه ما يقولون؛ كمن يتكلم بالفارسية والإنجليزية عند من لا يعرف إلا العربية، وهم يعرفون جميعا الكلام بالعربية مثله؛ ولكنهم تكلفوا تركها، لعدم فهمه لمرادهم.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا} تَوَسَّعُوا {فِي الْمَجْلِس} مَجْلِس النَّبِيّ ﷺ وَالذِّكْر حَتَّى يَجْلِس مَنْ جَاءَكُمْ وَفِي قِرَاءَة الْمَجَالِس {فَافْسَحُوا يَفْسَح الله لَكُمْ} فِي الْجَنَّة {وَإِذَا قِيلَ اُنْشُزُوا} قُومُوا إلَى الصَّلَاة وَغَيْرهَا مِنْ الْخَيْرَات {فَانْشُزُوا} وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ الشِّين فِيهِمَا {يَرْفَع الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ} بِالطَّاعَةِ فِي ذَلِكَ {وَ} يَرْفَع {الذين أوتوا العلم درجات} في الجنة {والله بما تعملون خبير}.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا نَاجَيْتُمْ الرَّسُول} أَرَدْتُمْ مُنَاجَاته {فَقَدِّمُوا بَيْن يَدَيْ نَجْوَاكُمْ} قَبْلهَا {صدقة ذلك خير لكم وَأَطْهَر} لِذُنُوبِكُمْ {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا} مَا تَتَصَدَّقُونَ بِهِ {فَإِنَّ الله غَفُور} لِمُنَاجَاتِكُمْ {رَحِيم} بِكُمْ يَعْنِي فَلَا عَلَيْكُمْ فِي الْمُنَاجَاة مِنْ غَيْر صَدَقَة ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ.

أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣).

{أَأَشْفَقْتُمْ} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة أَلِفًا وَتَسْهِيلهَا وَإِدْخَال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه أي خِفْتُمْ مِنْ {أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْن يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَات}

لِفَقْرٍ {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا} الصَّدَقَة {وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ} رَجَعَ بِكُمْ عَنْهَا {فَأَقِيمُوا الصَّلَاة وَآتُوا الزَّكَاة وَأَطِيعُوا الله وَرَسُوله} أَيْ دَاوِمُوا على ذلك {والله خبير بما تعملون}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن قتادة في قوله -تعالى-: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}: كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم؛ فأنزل الله في ذلك القرآن: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٢): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٧٩) عن معمر عن قتادة به.

وعن قتادة في قوله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)}: كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلًا ضنوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ؛ فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٣): ثنا بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عن قتادة به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨١) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

=

=

وعن عبد الله بن عباس ﵄؛ قال: كان النبي ﷺ إذا بعث سرية وأغزاها التقى المنافقون فانغضوا رؤوسهم إلى المسلمين، ويقولون: قتل القوم، وإذا رأوا رسول الله ﷺ؛ تناجوا وأظهروا الحزن، فبلغ ذلك من النبي ﷺ ومن المسلمين؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٢) ونسبه لابن مردويه.

عن علي بن أبي طالب ﵁؛ قال: لما نزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)}؛ قال لي النبي ﷺ: "ما ترى دينارًا؟ "، قال: لا تطيقونه، قال: "فنصف دينار؟ "، قلت: لا يطيقونه، قال: "فكم؟ "، قلت: شعيرة، قال: "إنك لزهيد"، قال: فنزلت: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)}، قال: فبي خفف الله عن هذه الآية.

أخرجه الترمذي (٣٣٠٠)، والنسائي في خصائص علي (١٥٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٨١)، وعبد بن حميد في المنتخب (٩٠)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١٥)، وأبو يعلى (٤٠٠)، والبزار (٦٦٨)، وابن حبان (٦٩٤١)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (٣/ ٢٤٣)، وابن عدي (٥/ ١٨٤٧)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (ص ٢٣٣)، والضياء في المختارة (٦٨٠) وغيرهم والحديث قال عنه الترمذي: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وصححه ابن حبان، وضعفه العقيلي، وقال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ (٤/ ١٩٩٠): فيه علي بن علقمة قال البخاري: علي هذا فيه نظر، وقال ابن العربي في الناسخ والمنسوخ (٢/ ٣٨١): لم يصح سنده، وضعفه الذهبي في الميزان (٣/ ١٤٦)، وضعفه العلامة

=

=

الألباني في ضعيف الترمذي، وكذا ضعفه صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٣٤٥- ٣٤٦)، وقال الأرنؤوط في تحقيق سنن الترمذي (٥/ ٤٩٥): إسناده ضعيف.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)}؛ قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ؛ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك؛ امتنع كثير من الناس وكفوا عن المسألة؛ فأنزل الله بعد هذا: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)}؛ فوسع الله عليهم ولم يضيق.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٥)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "لباب النقول" (ص ٢٠٧)، و"الدر المنثور" (٨/ ٨٣)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ٤٣٠) من طرق عن عبد الله بن صالح ثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس به. وهذا سند حسن.

وعن مجاهد في قوله -تعالى-: {فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}؛ قال: نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قدم دينارًا فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة بعد ذلك.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٤) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٤) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

=

=

وعن مقاتل بن حيان؛ قال: إن الأغنياء كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس؛ حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم، فأمر الله بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العسر؛ فلم يجدوا شيئًا، وكان ذلك عشر ليال، وأما أهل الميسر؛ فمنع بعضهم ماله وحبس نفسه إلا طوائف منهم جعلوا يقدمون الصدقة بين يدي النجوى، ويزعمون أنه لم يفعل ذلك غير رجل من المهاجرين من أهل بدر؛ فأنزل الله: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٤) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: نزلت فيَّ ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل: نزل تحريم الخمر، نادمت رجلًا فعارضته وعارضني فعربدت عليه؛ فشججته؛ فأنزل الله -تعالى-: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١)} [المائدة: ٩٠، ٩١]، ونزلت فيّ: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا} [الأحقاف: ١٥] إلى آخر الآية، ونزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} فقدمت شعيرة فقال رسول الله ﷺ: "إنك لزهيد" فنزلت الأخرى: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)}.

أخرجه الطبري في "المعجم الكبير" (١/ ١٤٧ رقم ٣٣١) من طريق سلمة بن الفضل ثنا ابن إسحاق عن أبي إسحاق السبيعي عن مصعب بن سعد عن سعد به.

=

=

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: ابن إسحاق؛ مدلس وقد عنعن.

الثانية: أبو إسحاق السبيعي؛ مدلس وقد عنعن -أيضًا-، وهو مع هذا مختلط -أيضًا-، وابن إسحاق روى عنه بعد الاختلاط.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٢): "في مسند الطبراني سلمة بن الفضل الأبرش وثقه ابن معين وغيره وضعفه البخاري وغيره".

وفي "التقريب": "صدوق كثير الخطأ" وهو الصواب أنه ضعيف؛ لكن استثنى بعض أهل العلم روايته عن ابن إسحاق، وحسن حديثه عنه.

* قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ) تعليم وإرشاد منه- سبحانه- للمؤمنين، لكي يكون حديثهم فيما بينهم، يقوم على الخير لا على الشر، وعلى الطاعة لا على المعصية، وعلى البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، حتى لا يتشبهوا بالمنافقين، الذين كانوا على النقيض من ذلك.

أى: يا من آمنتم بالله- تعالى- حق الإيمان، إِذا تَناجَيْتُمْ بأن أسر بعضكم إلى بعض حديثا فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ كما هو شأن المنافقين ومن على شاكلتهم في الكفر والضلال.

وَتَناجَوْا فيما بينكم بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى والبر ضد الإثم والعدوان، وهو يعم جميع أفعال الخير التي أمر الله- تعالى- بها.

والتقوى: الامتثال لأمر الله- تعالى- وصيانة النفس عن كل مالا يرضاه.

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بقوله: وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى: وراقبوا الله- تعالى- في كل أحوالكم، فإنه وحده يكون مرجعكم يوم القيامة، وسيبعثكم ويجمعكم للحساب والجزاء.

والمراد بالنجوى في قوله- تعالى- بعد ذلك: إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ

=

=

الَّذِينَ آمَنُوا..: نجوى المنافقين فيما بينهم، وهي التي عبر عنها- سبحانه- قبل ذلك بقوله: وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ.

فأل في قوله- تعالى-: النَّجْوى للعهد، أى: إنما النجوى المعهودة التي كان يتناجى المنافقون بها فيما بينهم، كائنة من الشيطان لا من غيره، لأنه هو الذي حرضهم وأغراهم، بأن يتساروا بالإثم والعدوان.

وقوله: لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا قرأ الجمهور: لِيَحْزُنَ- بفتح الياء وضم الزاى- مضارع حزن، فيكون الَّذِينَ آمَنُوا فاعل، والحزن: الهم والغم.

أى: زين الشيطان للمنافقين هذه النجوى السيئة، لكي يحزن المؤمنون ويغتموا، بسبب ظنهم أن من وراء هذه النجوى أخبارا سيئة تتعلق بهم أو بذويهم.

وقرأ نافع لِيَحْزُنَ- بضم الياء وكسر الزاى- فيكون الَّذِينَ آمَنُوا مفعولا.

أى: فعل الشيطان ما فعل مع المنافقين، لكي يدخل الحزن والغم على المؤمنين.

وأسند- سبحانه- النجوى إلى الشيطان، باعتبار أنه هو الذي يوسوس بها، ويزينها في قلوب هؤلاء المنافقين وأشباههم.

وجملة: وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ معترضة لتثبيت المؤمنين، وتسليتهم عما أصابهم من المنافقين.

واسم ليس: الشيطان أو التناجي، والاستثناء مفرغ من أهم الأحوال، و «شيئا» منصوب على المفعول المطلق.

أى: لا تحزنوا- أيها المؤمنون- لمسالك المنافقين معكم، ولا تخافوا من تناجيهم فيما بينهم، فإنها نجوى زينها لهم الشيطان، واعلموا أن كيد الشيطان لن يضركم شيئا من الضرر في حال من الأحوال إلا في حال إرادة الله- تعالى- ومشيئته.

وما دام الأمر كما بينت لكم، فاجعلوا توكلكم- أيها المؤمنون- على الله- تعالى-

=

=

وحده، ولا تبالوا بالمنافقين، ولا بتناجيهم، ولا بما يسوله الشيطان لهم من قبائح، فإن كل شيء بقضاء الله وقدره.

قال الآلوسى ما ملخصه: وحاصل هذا الكلام أن ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين. إن وقع فهو إرادة الله- تعالى- ومشيئته، ولا دخل للمنافقين فيه، وما دام الأمر كذلك، فلا يكترث المؤمنون بتناجيهم، وليتوكلوا على الله- ﷻ ولا يخافوا من تناجيهم.

ثم إن التناجي بين المؤمنين قد يكون منهيا عنه، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه».

ومثل التناجي في ذلك، أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث، إن كان يحزنه ذلك ا.هـ.

وروى الإمام مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه، فإن ذلك يحزنه» ا.هـ.

والخلاصة أن تعاليم الإسلام، تنهى عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة في القلوب، وتزعزع الثقة بين الأفراد والجماعات.

وهذا النهى لون من الأدب الحكيم الذي يحفظ للمؤمنين مودتهم ومحبتهم ويبعد عن نفوسهم الشكوك والريب، ويطرد عن قلوبهم نزغات الشيطان الذي يجرى من ابن آدم مجرى الدم.

ثم لفت- سبحانه- أنظار المؤمنين إلى أدب رفيع فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما روى عن قتادة أنه قال: نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا،

=

=

ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض.
وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية يوم الجمعة، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة، وفي المكان ضيق، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا في المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ فقالوا السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد النبي ﷺ عليهم ثم سلموا على القوم بعد ذلك، فردوا عليهم السلام، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم.
فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم، فشق ذلك عليه، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر: قم يا فلان، قم يا فلان.
فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف ﷺ الكراهة في وجوههم.
فقال المنافقون: ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء.. فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله رجلا يفسح لأخيه» فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا، ونزلت هذه الآية. وكلا السببين ضعيف لإرساله.
وقوله تَفَسَّحُوا من التفسح، وهو تفعل بمعنى التوسع، يقال: فسح فلان لفلان في المجلس- من باب نفع- إذا أوجد له فسحة في المكان ليجلس فيه.
والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، إذا قيل لكم توسعوا في مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا واستجيبوا. لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله- تعالى- لكم في رحمته، وفي منازلكم في الجنة، وفي كل شيء تحبونه.
وحذف- سبحانه- متعلق يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ ليشمل كل ما يرجو الناس أن يفسح الله لهم فيه من رزق، ورحمة، وخير دنيوي وأخروى.
والمراد بالمجالس: مجالس الخير، كمجالس الذكر، والجهاد، والصلاة، وطلب العلم، وغير ذلك من المجالس التي يحبها الله- تعالى-.

=

=

وقراءة الجمهور: «إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس»ـ بالإفراد على إرادة الجنس..

أى: قيل لكم تفسحوا في أى مجلس خير فافسحوا.. لأن هذا التوسع يؤدى إلى ازدياد المحبة والمودة بينكم. وقرأ عاصم بصيغة الجمع.

* ففي هذه الآية في آداب المجالس، وفيها حث على حفظ حق الداخلين بالجلوس، وفضل التوسعة لهم وإيوائهم؛ ففي ذلك من المودة والمحبة والرحمة ما يؤلف به بين القلوب، وعلى هذا كان يحرص السلف، وقد قال سعيد بن العاص: "لجليسي علي ثلاث خصال: إذا دنا رحبت به، وإذا جلس وسعت له، وإذا حدث أقبلت عليه".

* ويستحب للداخل أحكام؛ منها: الاستئذان، وبذل السلام، على ما تقدم في سورة النور وغيرها، ومنها: أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، وهكذا كان يفعل النبي ﷺ وأصحابه؛ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم عن جابر بن سمرة؛ قال: "كنا إذا أتينا النبي ﷺ، جلس أحدنا حيث ينتهي".

وقد روى الطبراني؛ من حديث شيبة بن عثمان مرفوعا، قال: (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس، فإن وسع له، فليجلس؛ وإلا فلينظر إلى أوسع مكان يرى، فليجلس).

ولا يقوم بالتفريق بين اثنين ليجلس بينهما؛ فقد يكون بينهما حديث أو مودة أو مصلحة، فيقطع ذلك؛ فيحملان في نفسيهما عليه! ففي "المسند"، و"السنن"؛ من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: (لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما).

ويستحب للداخل: ألا يضيق على جالس فيزاحمه وفي المكان سعة، ولا أن يجلس في مجلس من قام عنه ليجلس مكانه! فربما قام حياء فيجلس مكانه كبرا،

=

=

ما لم يتيقن أنه يفرح بإجابة دعوته لمكانه؛ لأنه يحب إكرامه ويدخل السرور عليه بذلك، وروى أحمد وأبو داود، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري؛ قال: أخبر أبو سعيد الخدري بحنازة، فعاد تخلف حتى إذا أخذ الناس مجالسهم، ثم جاء، فلما رآه القوم، تشذبوا عنه، فقام بعضهم ليجلس في مجلسه، فقال: لا؛ إني سمعت النبي ﷺ يقول: (إن خير المجالس أوسعها)، ثم تنحى وجلس في مجلس واسع.

وأما إقامة أحد للجلوس مكانه، فهذا لا يجوز بصريح السنة؛ فقد صح عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه؛ ولكن تفسحوا وتوسعوا).

وإن قام من مجلسه قريبا، فعاد إليه، فهو أحق به، ما لم يكن ذلك من المجالس العامة والمرافق والميادين، التي لا يتوطن الإنسان فيها موضعا خاصا، وقد روى مسلم، عن أبي هريرة؛ أن رسول الله قال: (إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه، فهو أحق به).

ومن السلف: من حمل الآية على صفوف الجهاد ومجالسها، فحمل التفسح على النفير في قوله: {تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم}، ويروى هذا عن ابن عباس وغيره (٢).

وقوله تعالى: {وإذا قيل انشزوا فانشزوا}؛ يعني؛ الإجابة لكل داع يدعو إلى خير وهدى، فيجب أن يجاب.

* ثم أرشدهم- سبحانه- إلى نوع آخر من الأدب السامي فقال: وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا.

والنشوز الارتفاع عن الأرض. يقال: نشز ينشز وينشز- من بابى نصر وضرب- إذا ارتفع من مكانه.

=

=

أى: وإذا قبل لكم- أيها المؤمنون- انهضوا من أماكنكم، للتوسعة على المقبلين عليكم، فانهضوا ولا تتكاسلوا.

وقوله: يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ جواب الأمر في قوله: فَانْشُزُوا.

وعطف «الذين أوتوا العلم» على «الذين آمنوا» من باب عطف الخاص على العام، على سبيل التعظيم والتنويه بقدر العلماء.

أى: وإذا قيل لكم ارتفعوا عن مواضعكم في المجالس فارتفعوا، فإنكم إن تفعلوا ذلك، يرفع الله- تعالى- المؤمنين الصادقين منكم درجات عظيمة في الآخرة، ويرفع العلماء منكم درجات أعظم وأكبر.

ويرى بعضهم أن المراد بالموصولين واحد، والعطف في الآية لتنزيل التغاير في الصفات، منزلة التغاير في الذات.

والمعنى: يرفع الله الذين آمنوا العالمين درجات عظيمة لا يعلم مقدارها إلا الله- تعالى-.

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه فقال: وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أى: والله- تعالى- مطلع اطلاعا تاما على نواياكم، وعلى ظواهركم وبواطنكم، فاحذروا مخالفة أمره، واتبعوا ما أرشدكم إليه من أدب وسلوك.

هذا: ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة: أن إفساح المؤمن لأخيه المؤمن في المجلس، من الآداب الإسلامية التي ينبغي التحلي بها، لأن هذا الفعل بجانب رفعه للدرجات فإنه سبب للتوادد والتعاطف والتراحم.

قال القرطبي ما ملخصه: والصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء أكان مجلس حرب، أم ذكر، أم مجلس يوم

=

=

الجمعة ... ولكن بدون أذى، فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه».

وعن ابن عمر- أن رسول الله ﷺ نهى ان يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه آخر، «ولكن تفسحوا وتوسعوا» ا.هـ.

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة ترشد المؤمنين في كل زمان ومكان، إلى لون من مكارم الأخلاق، ألا وهو التوسعة في المجالس، وتقديم أهل العلم والفضل، وإنزالهم منازلهم التي تليق بهم في المجالس.

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أنه يجوز القيام للقادم.

قال الإمام ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء- على أقوال:

فمنهم من رخص في ذلك محتجا بحديث: «قوموا إلى سيدكم».

ومنهم من منع من ذلك، محتجا بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياما. فليتبوأ مقعده من النار».

ومنهم من فضل فقال: يجوز القيام للقادم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقبله النبي ﷺ حاكما في بنى قريظة، فرآه مقبلا قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم»ـ وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه- والله أعلم-.

فأما اتخاذه- أى القيام- دينا، فإنه من شعار الأعاجم.. وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالبا عثمان وعلى لأنهما كانا ممن يكتب الوحى، وكان يأمرهما بذلك.. ا.هـ

=

=

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، فضل العلماء وسمو منزلتهم.

قال صاحب الكشاف: عن عبد الله بن مسعود أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: يا أيها الناس افهموا هذه الآية، ولترغبكم في العلم. وفي الحديث الشريف: «بين العالم والعابد مائة درجة» وفي حديث آخر: «فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم».

وعن بعض الحكماء أنه قال: ليت شعري أى شيء أدرك من فاته العلم، وأى شيء فات من أدرك العلم.

وعن الأحنف: كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير ا.هـ.

ثم أرشدهم- سبحانه- إلى لون ثالث من الأدب السامي، فناداهم للمرة الثالثة بقوله:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا، فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

والمراد بقوله- تعالى- إِذا ناجَيْتُمُ: إذا أردتم المناجاة، كما في قوله تعالى إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ.

والمراد بقوله: بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ أى: قبل مناجاتكم للرسول ﷺ بقليل، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية. حيث شبهت هيئة قرب الشيء من آخر. بهيئة وصول الشخص إلى من يريد الوصول إليه، على سبيل تشبيه المعقول بالمحسوس.

واسم الإشارة في قوله: ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ يعود إلى تقديم الصدقة، والجملة بمنزلة التعليل للأمر بتقديمها.

والمعنى: يا من آمنتم بالله- تعالى- حق الإيمان، إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ والحديث معه في أمر ما على سبيل السر، فقدموا صدقة للفقراء قبل مناجاته ﷺ فذلك التقديم خير لكم لما فيه من الثواب، وأكثر طهرا لنفوسكم، فإن لم تجدوا

=

=

شيئا تتصدقون به قبل مناجاتكم له ﷺ فلا تحزنوا فإن الله- تعالى- واسع المغفرة والرحمة.

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات، منها: ما جاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه قال: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله- تعالى- أن يخفف عن نبيه ﷺ فلما نزلت هذه الآية، كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها ا.هـ.

وقال بعض العلماء: إن هذا الأمر قد اشتمل على فوائد كثيرة:

منها: تعظيم أمر الرسول ﷺ وإكبار شأن مناجاته، كأنها شيء لا ينال بسهولة.

ومنها: التخفيف عن النبي ﷺ بالتقليل من المناجاة، حتى يتفرغ ﷺ للمهام العظمى التي كلفه- سبحانه- بها.

ومنها: تهوين الأمر على الفقراء الذين قد يغلبهم الأغنياء على مجلس الرسول ﷺ فإنهم إذا علموا أن قرب الأغنياء من الرسول ﷺ ومناجاتهم له، تسبقها الصدقة، لم يضجروا.

ومنها: عدم شغل الرسول ﷺ بما لا يكون مهما من الأمور، فيتفرغ للرسالة. فإن الناس وقد جبلوا على الشح بالمال، يقتصدون في المناجاة التي تسبقها الصدقة.

ومنها: تمييز محب الدنيا من محب الآخرة، فإن المال محك الدواعي.

ثم بين- سبحانه- جانبا من مظاهر لطفه بعباده فقال: أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ.

الإشفاق معناه: أن يتوقع الإنسان عدم حصوله على ما يريده والمراد به هنا: الخوف.

والاستفهام مستعمل فيما يشبه اللوم والعتاب، لتخلف بعضهم عن مناجاة الرسول ﷺ بسبب تقديم الصدقة.

=

=

و «إذ» في قوله: فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا ظرفية مفيدة للتعليل.

والمعنى: أخفتم- أيها المؤمنون- أن تقدموا قبل مناجاتكم للرسول ﷺ صدقة فيصيبكم بسبب ذلك الفقر، إذا ما واظبتم على ذلك.

قوله (فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ) أى: فحين لم تفعلوا ما كلفناكم به من تقديم الصدقة قبل مناجاتكم للرسول ﷺ، وتاب الله- تعالى- عليكم، بأن رخص لكم في هذه المناجاة بدون تقديم صدقة، وخفف عنكم ما كان قد كلفكم به- سبحانه- والفاء في قوله:

فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ. وَآتُوا الزَّكاةَ، وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ معطوفة على كلام محذوف.

أى: فحين خففنا عنكم الصدقة- بفضلنا ورحمتنا- فداوموا على إقامة الصلاة، وعلى إعطاء الزكاة لمستحقيها، وأطيعوا الله ورسوله، في كل ما أمركم به أو نهاكم عنه.

(تنبيه): آية المناجاة منسوخة بما بعدها، وهو المروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قول قتادة، والنحاس، ومكي، وابن الجوزي، وهذا ما ذهب إليه أكثر العلماء في القديم والحديث.

قال النحاس: (أكثر العلماء على أن هذه الآية منسوخة).

بل أثبت النسخ فيها كل من ألف في الناسخ والمنسوخ.

وذكر بعض العلماء أن هذه هي الآية الوحيدة المتفق على نسخها في القرآن.

وأشار الزرقاني إلى أنه قيل: لا نسخ فيها؛ بحجة أن الآية الثانية بيان للصدقة المأمور بها في الأولى، وأنه يصح أن تكون صدقة غير مالية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله.

ثم قال ردا على هذه الحجة: (وأنت خبير بأن هذا ضرب من التكلف في التأويل، يأباه ما هو معروف من معنى الصدقة حتى أصبح لفظها حقيقة عرفية في البذل

=

=

المالي وحده).

ويرد هذا أيضا: الأمر في آخر الآية عند عدم الفعل بالصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله، مما يثبت أن المراد بالصدقة قبل هذا الأمر غير الصلاة والزكاة والطاعة حيث يقول سبحانه: {أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون (١٣)} [المجادلة:١٣]. والله أعلم.

واعلموا أن الله- تعالى- خبير بما تعملون، ولا يخفى عليه شيء من أقوالكم أو أفعالكم، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها، لأنها أسقطت وجوب تقديم الصدقة الذي أمرت به الآية السابقة.

وقد لخص الآلوسى كلام العلماء في هذه المسألة تلخيصا حسنا فقال: «واختلف في أن الأمر للندب أو للوجوب، لكنه نسخ بقوله- تعالى-: أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا.

وهو وإن كان متصلا به تلاوة، لكنه غير متصل به نزولا. وقيل نسخ بآية الزكاة. والمعول عليه الأول.

ولم يعين مقدار الصدقة، ليجزئ القليل والكثير. أخرج الترمذي عن على بن أبى طالب قال: لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً....

قال لي النبي: ﷺ: «ما ترى في دينار» قلت: لا يطيقونه قال: «نصف دينار» قلت: لا يطيقونه، قال: «فكم» ؟ قلت: شعيرة. قال: «فإنك لزهيد».

فلما نزلت: أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا ... قال ﷺ: «خفف الله عن هذه الأمة» ولم يعمل بها- على المشهور- غير على- كرم الله وجهه.

واختلف في مدة بقاء هذا الأمر. أى: الأمر بتقديم الصدقة: فعن مقاتل: عشرة أيام.

=

=

وقال قتادة: ساعة من نهار ... ا.هـ.

قال بعض العلماء: «والآية الناسخة متأخرة في النزول، وإن كانت تالية للآية المنسوخة في التلاوة.

والظاهر- والله أعلم- أن الحادثة من باب الابتلاء والامتحان، ليظهر للناس محب الدنيا من محب الآخرة، والله بكل شيء عليم».

وقال أحد العلماء: «ولا يشتم من قوله- تعالى-: أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ.... أن الصحابة قد وقع منهم تقصير. فإن التقصير إنما يكون إذا ثبت أنه كانت هناك مناجاة لم تصحبها صدقة، والآية قالت: فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا أي: ما أمرتم به من الصدقة، وقد يكون عدم الفعل، لأنهم لم يناجوا، فلا يكون عدم الفعل تقصيرا.

وأما التعبير بالإشفاق من جانبهم، فلا يدل على تقصيرهم، فقد يكون الله- تعالى- علم- أن كثيرا منهم استكثر التصدق عند كل مناجاة في المستقبل لو دام الوجوب، فقال الله- تعالى- لهم أَأَشْفَقْتُمْ.

وكذلك ليس في قوله وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ ما يدل على أنهم قصروا، فإنه يحمل على أن المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفا، ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة ...".

(تتمة): قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المجادلة: ٩]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال عطاء: " {آمَنُوا} يريد: الذين آمنوا بزعمهم".

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله".

=

=

قال الزمخشري:"خطاب للمنافقين الذين آمنوا بألسنتهم. ويجوز أن يكون للمؤمنين، أي: إذا تناجيتم فلا تتشبهوا بأولئك في تناجيهم بالشر".

قال السمعاني:"إذا حملنا الآية على المنافقين فقوله: {يا أيها الذين آمنوا} أي: آمنوا بألسنتهم، والأصح أن الخطاب للمؤمنين، أمرهم الله تعالى ألا يكونوا كالمنافقين وكاليهود".

قال ابن كثير:"ثم قال الله مُؤدّبًا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}".

قال الشوكاني:"لما فرغ سبحانه عن نهي اليهود والمنافقين عن النجوى أرشد المؤمنين إذا تناجوا فيما بينهم أن لا يتناجوا بما فيه إثم وعدوان ومعصية لرسول الله كما يفعله اليهود والمنافقون، قيل: الخطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى، والأول أولى".

قوله تعالى: {إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ} [المجادلة: ٩]، أي:"إذا تحدثتم فيما بينكم سرًا، فلا تتحدثوا بما فيه إثم من القول، أو بما هو عدوان على غيركم، أو مخالفة لأمر الرسول".

قال الطبري: يقول:"{إِذَا تَنَاجَيْتُمْ} بينكم، {فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ}".

قال ابن كثير:"أي: كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مَالأهم على ضلالهم من المنافقين".

قوله تعالى: {وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المجادلة: ٩]، أي:"وتحدثوا بما فيه خير وطاعة وإحسان".

قال الطبري: يقول:"ولكن {وَتَنَاجَوْا} بطاعة الله، وما يقرّبكم منه، وباتقائه بأداء ما كلَّفكم من فرائضه واجتناب معاصيه".

=

قال سهل:"بذكر الله وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

قال الزجاج:"أي: إذا تخاليتم للسر، فلا تخالوا إلا بالبر والتقوى، ولا تكونوا كاليهود والمنافقين".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [المجادلة: ٩]، أي:"وخافوا الله بامتثالكم أوامره واجتنابكم نواهيه، فإليه وحده مرجعكم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجازيكم بها".

قال الطبري:"يقول: وخافوا الله الذي إليه مصيركم، وعنده مجتمعكم في تضييع فرائضه، والتقدّم على معاصيه أن يعاقبكم عليه عند مصيركم إليه".

قال ابن كثير:"أي: فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي أحصاها عليكم، وسيجزيكم بها".

عن صفوان بن مُحْرِز قال: "كنت آخذًا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قَرّره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يُعْطَى كتابَ حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين"

قوله تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [المجادلة: ١٠]، أي:"إنما التحدث خفية بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان، فهو المزيِّن لها، والحامل عليها؛ ليُدْخِل الحزن على قلوب المؤمنين".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: إنما المناجاة من الشيطان".

قال الزجاج:"أي: النجوى بالإثم والعدوان من الشيطان".

=

قال البغوي:"أي: من تزيين الشيطان، إنما يزين لهم ذلك ليحزن المؤمنين".
وقال السمعاني:"يعني: أن النجوى بينهم هي من الشيطان. ليحزنوا بما يسمعون من الإرجاف بالسرية".
قال ابن كثير:"أي: إنما النجوى- وهي المُسَارّة- حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا {مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} يعني: إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه، {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، أي: ليسوءهم".
وفي قوله تعالى: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [المجادلة: ١٠]، ثلاثة وجوه من التفسير:
أحدها: ما كان يتناجى به المنافقون بعضهم بعضا، وكان ذلك يغيظ المؤمنين، ويكبر عليهم. قاله قتادة ومعمر.
الثاني: أنها الأحلام التي يراها الإنسان في منامه فتحزنه. وهذا قول عطية.
الثالث: ما كان يتناجى به اليهود والمنافقون من الأراجيف بالمسلمين. حكاه الماوردي.
عن يحيى بن داود البلخي، قال: "سئل عطية -وأنا أسمع- الرؤيا، فقال: الرؤيا على ثلاث منازل، فمنها وسوسة الشيطان، فذلك قوله: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ}، ومنها ما يحدّث نفسه بالنهار فيراه بالليل، ومنها كالأخذ باليد".
قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي به مناجاة المنافقين بعضهم بعضًا بِالإِثْمِ والعدوان، وذلك أن الله جلّ ثناؤه تقدم بالنهي عنها بقوله: {إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ}، ثم عما في ذلك من المكروه على أهل الإيمان، وعن سبب نهيه إياهم عنه، فقال: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، فبيَّن بذلك، إذ كان النهي عن رؤية المرء في منامه كان كذلك، وكان عقيب نهيه عن النجوى بصفة أنه من صفة ما نهى

=

=

عنه".

قال سهل:"النجوى: إلقاء من العدو إلى نفس الطبع، كما قال النبي ﷺ: «للملك لمة وللشيطان لمة» ".

قوله تعالى: {وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [المجادلة: ١٠]، أي:"وليس ذلك بمؤذي المؤمنين شيئًا إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وليس التناجي بضارّ المؤمنين شيئا إلا بإذن الله، يعني بقضاء الله وقدره".

قال الزجاج:"أي: ليس يضر التناجي المؤمنين شيئا، ويجوز أن يكون وليس بضارهم الشيطان شيئا، وقوله: {إلا بإذن الله}، أي: لا يضرهم شيء إلا ما أراد الله".

قال البغوي:"وليس التناجي بضارهم شيئا، وقيل: ليس الشيطان بضارهم شيئا، إلا بإذن الله".

قال ابن كثير: أي:"وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن الله، ومن أحس من ذلك شيئًا فليستعذ بالله وليتوكل على الله، فإنه لا يضره شيء بإذن الله.

وقال السمعاني:"يعني: أن الإرجاف لا يضر السرية، {إلا بإذن الله} أي: بعلم الله".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف لا يضرهم الشيطان أو الحزن إلا بإذن الله؟ قلت: كانوا يوهمون المؤمنين في نجواهم وتغامزهم أن غزاتهم غلبوا وأنّ أقاربهم قتلوا، فقال: لا يضرهم الشيطان أو الحزن بذلك الموهم إلا بإذن الله، أي: بمشيئته، وهو أن يقضى الموت على أقاربهم أو الغلبة على الغزاة".

عن سفيان:"{وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله}، قال: بقضاء الله".

قوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [المجادلة: ١٠]، أي:"وعلى الله

=

=

وحده فليعتمد المؤمنون به".

قال محمد بن إسحاق: "وعلى الله لا على الناس فليتوكل المؤمنون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وعلى الله فليتوكل في أمورهم أهل الإيمان به، ولا يحزنوا من تناجي المنافقين ومن يكيدهم بذلك، وأن تناجيهم غير ضارّهم إذا حفظهم ربهم".

قال الزجاج:"أي: يكلون أمرهم إلى الله ويستعيذون به من الشيطان الرجيم".

قال الشوكاني:"أي: يكلون أمرهم إليه، ويفوضونه في جميع شؤونهم، ويستعيذون بالله من الشيطان، ولا يبالون بما يزينه من النجوى".

قال السمعاني:"أي: فليتق المؤمنون".

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المجادلة: ١١]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله".

قال الصابوني:"نداءٌ من الله تعالى للمؤمنين بأكرم وصفٍ وألطف عبارة، أي: يا من صدَّقتم الله ورسوله وتحليتم بالإيمان الذي هو زينة الإنسان".

قال ابن عباس:"ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قوله تعالى: {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا} [المجادلة: ١١]، أي:"إذا طُلب منكم أن يوسع بعضكم لبعض المجالس فأوسعوا".

قال الطبري:"يعني بقوله: تفسَّحوا: توسعوا، من قولهم مكان فسيح إذا كان واسعًا".

عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه».

=

=

عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: " لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة، ولكن ليقل: أفسحوا".

عن أبي بكرة، قال رسول الله ﷺ: «لا يقم الرجل الرجل من مجلسه، ثم يقعد فيه» أو قال: «إذا أقام الرجل الرجل من مجلسه فلا يجلس فيه، ولا يمسح الرجل يده بثوب من لا [ص:١٢٨] يملك".

وفي قوله تعالى: {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ} [المجادلة: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: مجلس النبي -ﷺ- خاصة، إذا جلس فيه قوم تشاحوا بأمكنتهم على من يدخل عليهم أن يؤثروه بها أو يفسحوا له فيها، فأمروا بذلك قاله مجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد.

قال الضحاك:"كان هذا للنبيّ ﷺ ومن حوله خاصة يقول: استوسعوا حتى يصيب كلّ رجل منكم مجلسًا من النبيّ ﷺ، وهي أيضًا مقاعد للقتال".

قال ابن زيد:"هذا مجلس رسول الله ﷺ، كان الرجل يأتي فيقول: افسحوا لي رحمكم الله، فيضنّ كلّ أحد منهم بقربه من رسول الله ﷺ، فأمرهم الله بذلك، ورأى أنه خير لهم".

قال قتادة:"كان الناس يتنافسون في مجلس النبيّ ﷺ، فقيل لهم: {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا}".

قال قتادة:"كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلا ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض".

الثاني: أنها في مجالس الذكر كلها، قاله قتادة-أيضا-.

قال قتادة:"نزلت هذه الآية في مجالس الذكر، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض".

=

=

الرابع: أن ذلك في مجلس القتال، قاله ابن عباس والحسن وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي ويزيد بن أبي حبيب.

عن الحسن، {فافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ}، وقال: في القتال".

قال الحسن:"كانوا يجيئون، فيجلسون رُكامًا؛ بعضهم خَلْف بعض، فأُمروا أن يتفسّحوا في المجلس، فأفسح بعضهم لبعض".

قال أبو العالية والقرظي:"هذا في مجالس الحرب ومقاعد القتال، كان الرجل يأتي القومَ في الصّف، فيقول: توسّعوا. فيَأبَون عليه؛ لحرصهم على القتال، ورغبتهم في الشهادة".

قال يزيد بن أبي حبيب:"أنزل ذلك على رسول الله في الحرب، في القتال ينشزوا للقتال ويفسحوا في المجلس أن يكمنوا للقتال؛ قال: وذلك من مكيدة الحرب".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين أن يتفسحوا في المجلس، ولم يخصص بذلك مجلس النبيّ ﷺ دون مجلس القتال، وكلا الموضعين يقال له مجلس، فذلك على جميع المجالس من مجالس رسول الله ﷺ، ومجالس القتال".

وقرئ: «في الْمجْلس».

قوله تعالى: {يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ} [المجادلة: ١١]، أي:"يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"يقول: يوسع الله منازلكم في الجنة".

قال ابن كثير:"وذلك أن الجزاء من جنس العمل، كما جاء في الحديث الصحيح: "من بَنَى لله مسجدًا بنى الله له بيتًا في الجنة». وفي الحديث الآخر: «ومن يَسَّر على مُعْسِر يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه». ولهذا أشباه كثيرة؛ ولهذا قال:

=

=

{فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ}".

قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا} [المجادلة: ١١]، أي:"وإذا طلب منكم - أيها المؤمنون- أن تقوموا من مجالسكم لأمر من الأمور التي يكون فيها خير لكم فقوموا".

قال الطبري: يقول: " وإذا قيل لكم قوموا إلى قتال عدوّ، أو صلاة، أو عمل خير، أو تفرّقوا عن رسول الله ﷺ، فقوموا".

وفي قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا} [المجادلة: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: وإذا قيل لكم انهضوا إلى القتال فانهضوا، قاله الحسن.

قال الحسن: "هذا كله في الغزو".

الثاني: إذا دعيتم إلى الخير فأجيبوا، قاله قتادة.

الثاني: إذا نودي للصلاة فاسعوا إليها، قاله الضحاك ومقاتل بن حيان.

قال الضحاك:"كان إذا نودي إلى للصلاة تثاقل رجال، فأمرهم الله إذا نودي للصلاة أن يرتفعوا إليها، يقوموا إليها".

الرابع: إذا دعيتم إلى الخير والصلاة. قاله ابن عباس.

قال ابن عباس:"إذا قيل: انشزوا فانشزوا إلى الخير والصلاة".

الخامس: إذا دعيتم إلى كلّ خير، قتال عدوّ، أو أمر بالمعروف، أو حقّ ما كان. وهذا قول مجاهد.

السادس: أنهم كانوا إذا جلسوا في بيت رسول الله -ﷺ- أطالوا ليكون كل واحد منهم هو الآخر عهدًا به، فأمرهم الله أن ينشزوا إذا قيل لهم انشزوا، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"انشزوا عن رسول الله ﷺ، قال: هذا في بيته إذا قيل انشزوا، فارتفعوا عن النبيّ ﷺ، فإن له حوائج، فأحبّ كلّ رجل منهم أن يكون آخر عهده برسول الله ﷺ، فقال: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا}".

=

=

قوله تعالى: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١]، أي:"يرفع الله مكانة المؤمنين المخلصين منكم، ويرفع مكانة أهل العلم درجات كثيرة في الثواب ومراتب الرضوان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يرفع الله المؤمنين منكم أيها القوم بطاعتهم ربهم، فيما أمرهم به من التفسح في المجلس إذا قيل لهم تفسحوا، أو بنشوزهم إلى الخيرات إذا قيل لهم انشزوا إليها، ويرفع الله الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين، الذين لم يؤتوا العلم بفضل علمهم درجات، إذا عملوا بما أمروا به".

قال ابن كثير:"أي: لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصا في حقه، بل هو رفعة ومزية عند الله، والله تعالى لا يضيع ذلك له، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة، فإن من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره، ونَشَر ذكره".

قال الزجاج:"والدليل على فضل أهل العلم ما روي عن النبي- ﷺ- أنه قال: «عبادة العالم يوما واحدا تعدل عبادة العابد الجاهل أربعين سنة»".

قال ابن زيد، في قوله: " {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به".

وعن ابن مسعود: "أيها الناس افهموا هذه الآية، لترغبكم في العلم".

قال قتادة:"إن بالعلم لأهله فضلا وإن له على أهله حقًا، ولعمري للحقّ عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله".

قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير: "فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع".

وكان عبد الله بن مطرف يقول: "إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صومًا وصلاة

=

=

وصدقة، والآخر أفضل منه بونًا بعيدًا، قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدّهما ورعًا لله عن محارمه".

عن عمران القصير قال: قال رسول الله ﷺ: " فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي".

عن ابن عباس قال: "معلم الخير يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر".

وعن ابن عباس: خير سليمان بين العلم والمال والملك، فاختار العلم فأعطى المال والملك معه".

وعن بعض الحكماء: "ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأى شيء فات من أدرك العلم. وعن الأحنف: كاد العلماء يكونون أربابا، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مّا يصير".

وعن الزبيري:"العلم ذكر، فلا يحبه إلا ذكورة الرجال".

قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١]، أي:"والله تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيكم عليها".

قال الطبري: يقول:"والله بأعمالكم أيها الناس ذو خبرة، لا يخفى عليه المطيع منكم ربه من العاصي، وهو مجاز جميعكم بعمله المحسن بإحسانه، والمسيء بالذي هو أهله، أو يعفو".

قال ابن كثير:"أي: خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه".

عن قتادة: " {خبيرا}، قال: خبير بخلقه".

عن عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت

عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن

=

=

نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين».

قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المجادلة: ١٢]

عن ابن عباس في قوله: {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ}، الآية قال: "إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك امتنع كثير من الناس وكفوا عن المسألة فأنزل الله بعد هذا: {أَأَشْفَقْتُمْ}، الآية، فوسع الله عليهم ولم يضيق".

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المجادلة: ١٢]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله".

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} [المجادلة: ١٢]، أي:"إذا أردتم أن تُكلِّموا رسول الله ﷺ سرًّا بينكم وبينه، فقدِّموا قبل ذلك صدقة لأهل الحاجة".

قال الطبري: يقول:"إذا ناجيتم رسول الله، فقدّموا أمام نجواكم صدقة تتصدقون بها على أهل المسكنة والحاجة".

قال الزجاج:"أي: إذا خاليتم الرسول بالسر فقدموا قبل ذلك صدقة وافعلوا ذلك".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ، أي: يساره فيما بينه وبينه، أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام".

=

=

قال مجاهد:"نهوا عن مناجاة النبيّ ﷺ حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا عليّ بن أبي طالب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قدم دينارًا فتصدق به، ثم أنزلت الرخصة في ذلك".

قال عليّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "إن في كتاب الله ﷻ لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}، قال: فُرِضت، ثم نُسخت".

عن قتادة: " {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}، قال: إنها منسوخة ما كانت إلا ساعة من نهار".

قال قتادة:"سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فوعظهم الله بهذه الآية، وكان الرجل تكون له الحاجة إلى نبيّ الله ﷺ، فلا يستطيع أن يقضيها، حتى يقدّم بين يديه صدقة، فاشتدّ ذلك عليهم، فأنزل الله ﷻ الرخصة بعد ذلك {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}".

عن ابن عباس، قوله: " {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}... إلى {فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، قال: كان المسلمون يقدّمون بين يدي النجوى صدقة، فلما نزلت الزكاة نُسخ هذا".

قال ابن عباس:"وذاك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ، حتى شقوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه؛ فلما قال ذلك صبر كثير من الناس، وكفوا عن المسألة، فأنزل الله بعد هذا: {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}، فوسع الله عليهم، ولم يضيق".

قال ابن زيد:"لئلا يناجي أهل الباطل رسول الله ﷺ، فيشُقّ ذلك على أهل الحقّ، قالوا: يا رسول الله ما نستطيع ذلك ولا نطيقه، فقال الله ﷻ: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ)، وقال: {لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

=

إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ}، من جاء يناجيك في هذا فاقبل مناجاته، ومن جاء يناجيك في غير هذا فاقطع أنت ذاك عنه لا تناجه. قال: وكان المنافقون ربما ناجوا فيما لا حاجة لهم فيه، فقال الله ﷻ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ} قال: لأن الخبيث يدخل في ذلك".

عن عكرِمة والحسن البصري قالا:"قال في المجادلة: {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فنسختها الآية التي بعدها، فقال: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}".

قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ} [المجادلة: ١٢]، أي:"ذلك خير لكم لما فيه من الثواب، وأزكى لقلوبكم من المآثم".

قال الطبري: " يقول: وتقديمكم الصدقة أمام نجواكم رسول الله ﷺ، خير لكم عند الله {وَأَطْهَرُ} لقلوبكم من المآثم".

قال ابن العربي: "في الآية دليل على أن الأحكام لا تترب بحسب المصالح فإن الله تعالى قال {ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ} ثم نسخ ذلك مع كونه خيرًا وأطهر. ولكن قد يقال إن ما قد نسخ من أجله قد يكون أكثر منفعة للمسلمين في دينهم ودنياهم. وإن كان خافيًا عن المسلمين لا يعلمونه".

قوله تعالى: {فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المجادلة: ١٢]، أي:"فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فلا حرج عليكم؛ فإن الله غفور لعباده المؤمنين، رحيم بهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فإن لم تجدوا ما تتصدّقون به أمام مناجاتكم

=

رسول الله ﷺ، فإن الله ذو عفو عن ذنوبكم إذا تبتم منها، رحيم بكم أن يعاقبكم عليها بعد التوبة، وغير مؤاخذكم بمناجاتكم رسول الله ﷺ قبل أن تقدّموا بين يدي نجواكم إياه صدقة".

قال ابن كثير:"{فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا}، أي: إلا من عجز عن ذلك لفقده {فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فما أمر بها إلا من قدر عليها".

قوله تعالى: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ} [المجادلة: ١٣]، أي:"أخشيتم الفقر إذا قدَّمتم صدقة قبل مناجاتكم رسول الله؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أشقّ عليكم وخشيتم أيها المؤمنون بأن تقدموا بين يدي نجواكم رسول الله ﷺ صدقات الفاقة، وأصل الإشفاق في كلام العرب: الخوف والحذر، ومعناه في هذا الموضع: أخشيتم بتقديم الصدقة الفاقة والفقر".

قال الثعلبي:"أبخلتم وخفتم بالصدقة الفاقة {أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ}".

قال السمعاني:"معناه: أأشفقتم على أموالكم وبخلتم بها؟".

قال ابن كثير:"أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول".

قال مقاتل:"يعني: أهل الميسرة".

عن ابن عباس:"{أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا} أَبَخِلْتُم؟".

عن مجاهد:"{أَأَشْفَقْتُمْ}، قال: شقّ عليكم تقديم الصدقة، فقد وُضِعت عنكم، وأمروا بمناجاة رسول الله ﷺ بغير صدقة حين شقّ عليهم ذلك".

عن قتادة: " {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}: فريضتان واجبتان لا رجعة لأحد فيهما، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر الصدقة في النجوى".

=

=

قال ابن جريج:"نهوا عن مناجاة النبي- ﷺ- حتى يتصدقوا، فلم يناجه أحد إلا علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- فقدّم دينارا تصدّق به ثم أنزلت الرخصة فقال: {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ} يقول: أشق عليكم تقديم الصدقة، قال: فوضعت عنهم وأمروا بمناجاة رسول الله- صلى الله عليه- بغير صدقة حين شق ذلك عليهم".

قوله تعالى: {فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ} [المجادلة: ١٣]، أي:"فإذا لم تفعلوا ما أُمرتم به وشقَّ ذلك عليكم، وعفا الله عنكم بأن رخَّص لكم مناجاته من غير تقديم صدقة".

قال الطبري: يقول:"فإذ لم تقدموا بين يدي نجواكم صدقات، ورزقكم الله التوبة من ترككم ذلك".

قال الثعلبي:"فتجاوز عنكم ولم يعاقبكم بترك الصدقة، وقيل: الواو صلة. مجازه «وإذ لم تفعلوا تاب الله عليكم»: تجاوز عنكم وخفف ونسخ الصدقة".

قال ابن كثير:"فنسخ وجوب ذلك عنهم، وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب، رضي الله عنه".

قوله تعالى: {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [المجادلة: ١٣]، أي:"فاكتفوا بالمحافظة على الصلاة ودفع الزكاة المفروضة".

قال الزهري: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

وعن عكرمة: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "زكاة المال من كل مائتي درهم خمسة دراهم".

وعن الحسن في قوله: {وَآتُوا الزَّكَاةَ}، قال: "فريضة واجبة، لا تنفع الأعمال إلا بها مع الصلاة". وروي عن قتادة نحو ذلك.

قال الطبري: يقول "فأدّوا فرائض الله التي أوجبها عليكم، ولم يضعها عنكم من

=

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤).

=

الصلاة والزكاة".

قال مقاتل:"فأقيموا الصلاة لمواقيتها وآتوا الزكاة لحينها.. فنسخت الزكاة الصدقة التي كانت عند المناجاة".

قال السمعاني:"نسخ ذلك الأمر بهذه الآية، كأنه قال: فإذا لم تفعلوا ونسخناه منكم {فأقيموا الصلاة} أي: حافظوا عليها {وآتوا الزكاة} أي: أدوها".

قال مقاتل بن حيان: "إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ".

وقال الكلبي: "ما كانت إلا ساعة من النهار".

قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: ١٣]، أي:"أطيعوا أمر الله وأمر رسوله في جميع أحوالكم".

قال الطبري: يقول: " وأطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه".

قال السمعاني: أي:"فيما يأمران من الأمر".

قال الزجاج:"أي: أطيعوه في كل أمر، ودخل في ذلك التفسح في المجلس لتقارب الناس في الدنو من النبي عليه السلام".

قال عطاء:"طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة.

قوله تعالى: {وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المجادلة: ١٣]، أي:"والله سبحانه خبير بأعمالكم، ومجازيكم عليها".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: والله ذو خبرة وعلم بأعمالكم، وهو محصيها عليكم ليجازيكم بها".

قال السمعاني: " أي: عليم بأعمالكم".

عن قتادة: " {خبيرا}، قال: خبير بخلقه".

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا} هُمْ الْمُنَافِقُونَ {قَوْمًا} هُمْ الْيَهُود {غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ مَا هُمْ} أَيْ الْمُنَافِقُونَ {مِنْكُمْ} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {وَلَا مِنْهُمْ} مِنْ الْيَهُود بَلْ هُمْ مُذَبْذَبُونَ {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِب} أَيْ قَوْلهمْ إنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيهِ.

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥).
{أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} مِنْ الْمَعَاصِي.

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦).
{اتَّخَذُوا أَيْمَانهمْ جُنَّة} سَتْرًا عَلَى أَنْفُسهمْ وَأَمْوَالهمْ {فَصَدُّوا} بِهَا الْمُؤْمِنِينَ {عَنْ سَبِيل الله} أَيْ الْجِهَاد فِيهِمْ بِقَتْلِهِمْ وَأَخْذ أَمْوَالهمْ {فَلَهُمْ عَذَاب مُهِين} ذُو إهَانَة.

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧).
{لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالهمْ وَلَا أَوْلَادهمْ مِنْ الله} من عذابه {شيئا} من الإغناء {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨).
اذكر {يَوْم يَبْعَثهُمْ الله جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ} أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ {كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْء} مِنْ نَفْع حَلِفهمْ فِي الْآخِرَة كَالدُّنْيَا {ألا إنهم هم الكاذبون}.

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩).

{اسْتَحْوَذَ} اسْتَوْلَى {عَلَيْهِمْ الشَّيْطَان} بِطَاعَتِهِمْ لَهُ {فَأَنْسَاهُمْ ذكر الله أولئك حزب الشيطان} أتباعه {ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظل حجرة قد كاد يقلص عليها الظل، فقال رسول الله ﷺ: "إنكم سيأتيكم رجل ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم؛ فلا تكلموه"، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل، فدعاه فقال: "علام تشتمني أنت وأصحابك؟ "، قال: ادعوهم، فدعاهم فجعلوا يحلفون بالله ما قالوا وما فعلوا؛ حتى تجاوز عنهم؛ فأنزل الله ﷻ: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)}.

أخرجه أحمد في "المسند" (١/ ٢٤٠، ٢٦٧، ٣٥٠)، وابن أبي شيبة وأحمد بن منيع في "مسنديهما"؛ كما في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٢ رقم ٧٨٥٠)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٧)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٦، ٧ رقم ١٢٣٠٧)، والبزار في "المسند" (٣/ ٧٤، ٧٥ رقم ٢٢٧٠ - "كشف")، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القران العظيم" (٤/ ٣٥١)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٨٢)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٢٨٢، ٢٨٣)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٧٧) من طرق عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وهذا سند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه =

=

الذهبي.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٢): "رواه الطبراني وأحمد والبزار؛ ورجال الجميع رجال الصحيح".

وقال الحافظ ابن كثير: "إسناد جيد ولم يخرجوه".

وقال البوصيري: "هذا إسناد صحيح".

وعن السدي؛ قال: بلغنا أنها نزلت في عبد الله بن نبتل، وكان رجلًا من المنافقين. ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٥٧)، و"الدر المنثور" (٨/ ٨٥) ونسبه لابن أبي حاتم.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

* قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا) الاستفهام في قوله- تعالى-: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا ... للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين، حيث اتخذوا اليهود حلفاء لهم، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين

أى: ألم ينته إلى علمك- أيها الرسول الكريم- حال أولئك المنافقين، الذين اتخذوا اليهود أولياء، يناصحونهم ويطلعونهم على أخباركم.

فالمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم: اليهود، ووصفهم بذلك للتنفير منهم، ولبيان أن المنافقين قد بلغوا النهاية في القبح والسوء، حيث والوا وناصروا من غضب الله عليهم، لا من رضى الله عنهم.

ثم دمغ- سبحانه- هؤلاء المنافقين برذيلة أخرى فقال: ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ أى: أن هؤلاء المنافقين بمسلكهم هذا، صاروا بمنزلة الذين ليسوا منكم- أيها المؤمنون- وليسوا- أيضا- منهم، أى: من اليهود.

وإنما هم دائما لا مبدأ لهم ولا عقيدة، فهم كما قال- سبحانه- مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ....

=

=

وفي الحديث الشريف: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين- أى المترددة بين قطيعين- لا تدرى أيهما تتبع».

قال الجمل: وقوله: ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ فيه أوجه. أحدها: أن هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، فقد أخبر عنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخلص، ولا من الكافرين الخلص، بل هم كقوله- تعالى-: مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ....

والضمير في قوله ما هُمْ يعود على المنافقين، وفي قوله مِنْهُمْ يعود على اليهود.

الثاني: أنها حال من فاعل «تولوا» والمعنى على ما تقدم.

الثالث: أنها صفة ثانية لقوله «قوما». وعليه يكون الضمير في قوله:

«ما هم» يعود على اليهود، والضمير في قوله: «منهم» يعود على المنافقين.

يعنى: أن اليهود ليسوا منكم- أيها المؤمنون- ولا من المنافقين. ومع ذلك تولاهم «المنافقون» ... إلا أن في هذا الوجه تنافرا بين الضمائر، فإن الضمير في «ويحلفون» عائد على المنافقين، وعلى الوجهين الأولين تتحد الضمائر» ا.هـ.

ثم دمغهم- سبحانه- برذيلة ثالثة أشد نكرا من سابقتيها فقال: وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

أى: أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين، مع أنهم لا تربطهم باليهود أية رابطة، لا من دين ولا من نسب ... وفضلا عن كل ذلك، فإن هؤلاء المنافقين يواظبون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع، والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون علما لا يخالطه شك أو ريب.

فأنت ترى أن الله- تعالى- قد ذم هؤلاء المنافقين. بجملة من الصفات القبيحة، التي على رأسها تعمدهم الكذب، وإصرارهم عليه.

قال صاحب الكشاف: «قوله: وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ أى: يقولون: والله إنا

=

=

لمسلمون، فيحلفون على الكذب الذي هو ادعاء الإسلام، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أن المحلوف عليه كذب بحت.

فإن قلت: فما فائدة قوله: وَهُمْ يَعْلَمُونَ؟ قلت: الكذب أن يكون لا على وفاق المخبر عنه، سواء علم المخبر أم لم يعلم.. فالمعنى أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه، وهم عالمون بذلك متعمدون له، كمن يحلف بالغموس ... » ا.هـ.

ومن الآيات الكثيرة التي صرحت بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة على سبيل التعمد قوله- تعالى-: وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ. يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ. وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ.

ثم بين- سبحانه- ما أعده لهم من عذاب فقال: أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذابًا شَدِيدًا ...

أى: هيأ الله- تعالى- لهؤلاء المنافقين عذابا قد بلغ النهاية في الشدة والألم.

وجملة إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ تعليل لنزول العذاب الشديد بهم، أى: إن هذا العذاب الشديد المهيأ لهم سببه سوء أعمالهم في الدنيا، واستحبابهم العمى على الهدى.

وقوله- سبحانه- اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ... بيان لرذيلة رابعة أو خامسة، لا تقل في قبحها عما سبقها من رذائل، وقوله: أَيْمانَهُمْ جمع يمين بمعنى الحلف.

وقوله: جُنَّةً من الجنّ بمعنى الستر عن الخاصة، وهذه المادة وما اشتق منها تدور حول الستر والخفاء. وتطلق الجنة على الترس الذي يضعه المقاتل على صدره أو على ذراعيه ليتقى به الضربات من عدوه. ومفعول فَصَدُّوا: محذوف للعلم به.

أى: أن هؤلاء المنافقين قد اتخذوا أيمانهم الكاذبة. وهي حلفهم للمسلمين بأنهم معهم، وبأنهم لا يضمرون شرا لهم.. اتخذوا من كل ذلك وقاية وسترة عن

=

المؤاخذة، كما يتخذ المقاتل الترس وقاية له من الأذى فَصَدُّوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللهِ أي: عن دينه الحق، وطريقه المستقيم.

فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أي: فترتب على تسترهم خلف الأيمان الفاجرة، وعلى صدهم غيرهم عن الحق، أن أعد الله- تعالى- لهم عذابا يهينهم ويذلهم.

وقوله- سبحانه-: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ... رد على ما كانوا يزعمونه من أنهم لن يعذبوا، لأنهم أكثر أموالا وأولادا من المؤمنين.

قال القرطبي: «قال مقاتل: قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذا فو الله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة، فنزلت» ا.هـ.

ومن المعروف أن عبد الله بن أبى بن سلول- زعيم المنافقين-، كان من أغنياء المدينة، وكان يوطن نفسه على أن يكون رئيسا للمدينة قبيل- الإسلام، وهو القائل- كما حكى القرآن عنه-: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ...

أي: أن هؤلاء المنافقين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الغناء.

أُولئِكَ المنافقون هم أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ خلودا أبديا، ثم بين- سبحانه- حالهم يوم القيامة، وأنهم سيكونون على مثل حالهم في الدنيا من الكذب والفجور.. فقال- تعالى- يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ.

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: كان رسول الله- صلى الله عليه وسلم- جالسا في ظل حجرة قد كاد يقلص عليها الظل، فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: "إنكم سيأتيكم رجل ينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم؛ فلا تكلموه"، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل،

=

فدعاه فقال: "علام تشتمني أنت وأصحابك؟ "، قال: ادعوهم، فدعاهم فجعلوا يحلفون بالله ما قالوا وما فعلوا؛ حتى تجاوز عنهم؛ فأنزل الله -ﷻ-: {يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون (١٨)}.

أي: اذكر- أيها الرسول الكريم- يوم يبعث الله- تعالى- هؤلاء المنافقين جميعا للحساب والجزاء «فيحلفون» لله- تعالى- في الآخرة بأنهم مسلمون «كما» كانوا «يحلفون لكم» في الدنيا بأنهم مسلمون.

«ويحسبون» في الآخرة- لغبائهم وانطماس بصائرهم «أنهم» بسبب تلك الأيمان الفاجرة «على شيء» من جلب المنفعة أو دفع المضرة.

أى يتوهمون في الآخرة أن هذه الأيمان قد تنفعهم في تخفيف شيء من العذاب عنهم.

أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ أى الذين بلغوا في الكذب حدا لا غاية وراءه.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن هؤلاء المنافقين في الدنيا، قد بعثوا والنفاق ما زال في قلوبهم، وسلوكهم القبيح لا يزال متلبسا بهم. فهم لم يكتفوا بكذبهم على المؤمنين في الدنيا، بل وفي الآخرة- أيضا- يحلفون لله- تعالى- بأنهم كانوا مسلمين.

قال الزمخشري: يعنى ليس العجب من حلفهم لكم- في الدنيا بأنهم مسلمون- فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر. ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة- بأنهم كانوا مسلمين في الدنيا.

والمراد وصفهم بالتوغل في نفاقهم، ومرونهم عليه، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل» ا.هـ.

وقال بعض العلماء ما ملخصه: وقوله: وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ حذفت صفة

=

=

شيء، لظهور معناها من المقام، أى: ويحسبون أنهم على شيء نافع.

وهذا يقتضى توغلهم في النفاق، ومرونتهم عليه، وأنه باق في أرواحهم بعد بعثهم، لأن نفوسهم خرجت من الدنيا متخلقة به، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثا في عالم التكليف.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: إن رجلا من أهل الجنة يستأذن ربه أن يزرع، فيقول الله له: أولست فيما شئت؟ قال: بلى يا ربي ولكن أحب أن أزرع، فأسرع وبذر، فيبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال.

وكان رجل من أهل البادية عند النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لا نجد هذا الرجل إلا قرشيا أو أنصاريا، فإنهم أصحاب زرع، فأما نحن- أى أهل البوادي- فلسنا بأصحاب زرع، فضحك النبي ﷺ إقرارا لما فهمه الأعرابى.

وفي حديث جابر بن عبد الله الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: يبعث كل عبد على ما مات عليه.

قال عياض: هو عام في كل حالة مات عليها المرء، وقال السيوطي: يبعث الزمار بمزماره، وشارب الخمر بقدحه.

قلت: «ثم تتجلى لهم الحقائق على ما هي عليه، إذ تصير العلوم على الحقيقة» «١».

ثم بين- سبحانه- الأسباب التي جعلت المنافقين ينغمسون في نفاقهم فقال: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ ...

وقوله: اسْتَحْوَذَ من الحوذ: وهو أن يتبع السائق حاذيى البعير، أى: أدبار فخذه ثم يسوقه سوقا عنيفا، لا يستطيع البعير الفكاك منه ... والمراد به هنا: شدة الاستيلاء والغلبة ... ومنه قول السيدة عائشة في عمر- رضي الله عنهما-: «كان أحوذيا» أى: كان ضابطا للأمور، ومستوليا عليها استيلاء تاما ...

=

=

والمعنى: إن هؤلاء المنافقين قد استولى عليهم الشيطان استيلاء تاما، بحيث صيرهم تابعين لوساوسه وتزيينه، فهم طوع أمره، ورهن إشارته، فترتب على طاعتهم له أن أنساهم طاعة الله- تعالى-، وحسابه، وجزاءه، فعاشوا حياتهم يتركون ما هو خير، ويسرعون نحو ما هو شر ...

أُولئِكَ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة حِزْبُ الشَّيْطانِ أى: جنوده وأتباعه أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ خسارة لا تقاربها خسارة، لأنهم آثروا العاجل على الآجل، والفاني على الباقي، والضلال على الهدى.

(تتمة): قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} [المجادلة: ١٤]، أي:"ألم تر إلى المنافقين الذين اتخذوا اليهود أصدقاء ووالوهم؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد -ﷺ-: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى القوم الذين {تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ}، وهم المنافقون تولّوا اليهود وناصحوهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى منكرا على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن، وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا} [النساء: ١٤٣] وقال ها هنا: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} يعني: اليهود، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن".

قال الزجاج:"هؤلاء المنافقون تولوا اليهود".

قال قتادة:"هم المنافقون تولّوا اليهود وناصحوهم".

قال قتادة:"هم اليهود تولاهم المنافقون".

قال ابن جريج:"هم اليهود والمنافقون".

قال ابن زيد:"هؤلاء كفرة أهل الكتاب اليهود والذين تولوهم المنافقون تولوا

=

=

اليهود، وقرأ قول الله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} حتى بلغ {وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، لئن كانَ ذلك لا يفعلُونَ وقال: هؤلاء المنافقون قالوا: لا ندع حلفاءنا وموالينا يكونوا معًا لنصرتنا وعزّنا، ومن يدفع عنا نخشى أن تصيبنا دائرة، فقال الله ﷻ: {فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ} حتى بلغ {فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ} وقرأ حتى بلغ {أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ}، قال: لا يبرزون".

قوله تعالى: {مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ} [المجادلة: ١٤]، أي:"والمنافقون في الحقيقة ليسوا من المسلمين ولا من اليهود".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما هؤلاء الذين تولَّوْا هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم، منكم يعني: من أهل دينكم وملتكم، ولا منهم ولا هم من اليهود الذين غضب الله عليهم، وإنما وصفهم بذلك منكم جلّ ثناؤه لأنهم منافقون إذا لقوا اليهود، قالوا: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون}".

قال ابن كثير:"أي: هؤلاء المنافقون، ليسوا في الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين تولوهم وهم اليهود".

قوله تعالى: {وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [المجادلة: ١٤]، أي:"ويحلفون كذبًا أنهم مسلمون، وأنك رسول الله، وهم يعلمون أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه".

قال ابن جريج:"{ويَحْلِفُونَ عَلى الكَذِبِ وهُمْ يَعْلَمُونَ} قال: حَلِفهم إنهم لمنكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويحلفون على الكذب، وذلك قولهم لرسول الله ﷺ: نشهد إنك لرسول الله وهم كاذبون غير مصدّقين به، ولا مؤمنين به، كما قال

=

=
جلّ ثناؤه: {وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، وقد ذُكر أن هَذِه الآية نزلت في رجل منهم عاتبه رسول الله ﷺ على أمر بلغه عنه، فحلف كذبًا ".
قال ابن كثير:"يعني: المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا، وهي اليمين الغموس، ولا سيما في مثل حالهم اللعين، عياذًا بالله منه فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله له أنهم مؤمنون، وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه، وإن كان في نفس الأمر مطابقًا؛ ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك".
قوله تعالى: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} [المجادلة: ١٥]، أي:"أعدَّ الله لهؤلاء المنافقين عذابًا بالغ الشدة والألم".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أعدّ الله لهؤلاء المنافقين الذين تولَّوا اليهود عذابًا في الآخرة شديدًا".
قال ابن كثير:"أي: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم".
قال السعدي:"فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذابا شديدا، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه".
قوله تعالى: {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [المجادلة: ١٥]، أي:"إنهم ساء ما كانوا يعملون من النفاق والحلف على الكذب".
قال الطبري: أي:"في الدنيا بغشهم المسلمين، ونصحهم لأعدائهم من اليهود".
قال ابن كثير: أي: "وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشهم".
قال السعدي:"حيث عملوا بما يسخط الله ويوجب عليهم العقوبة واللعنة".
قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً} [المجادلة: ١٦]، أي:"اتخذ المنافقون
=

=

أيمانهم الكاذبة وقاية لهم من القتل بسبب كفرهم، ولمنع المسلمين عن قتالهم وأخذ أموالهم".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: جعلوا حلفهم وأيمانهم جنة يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وذلك أنهم إذا أطلع منهم على النفاق، حلفوا للمؤمنين بالله إنهم لمنهم".

قال ابن كثير:"أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيمان الكاذبة".

قال القشيري:"أي: وقاية وسترا، ومن استتر بجنّة طاعته لتسلم له دنياه فإنّ سهام التقدير من ورائه تكشفه من حيث لا يشعر.. فلا دينه يبقى، ولا دنياه تسلم".

قال السعدي:"أي: ترسا ووقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين".

قال قتادة:"اتخذوا حَلِفهم جُنّة؛ ليَعصِموا بها دماءَهم وأموالهم".

قال الضحاك:"حَلِفهم بالله إنهم لمنكم جُنة".

قال مجاهد:"يَجْتنُّون بها".

قوله تعالى: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [المجادلة: ١٦]، أي:"فبسبب ذلك صدُّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله وهو الإسلام".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: فصدّوا بأيمانهم التي اتخذوها جنة المؤمنين عن سبيل الله فيهم، وذلك أنهم كفر، وحكم الله وسبيله في أهل الكفر به من أهل الكتاب القتل، أو أخذ الجزية، وفي عبدة الأوثان القتل، فالمنافقون يصدّون المؤمنين عن سبيل الله فيهم بأيمانهم إنهم مؤمنون، وإنهم منهم، فيحولون بذلك بينهم وبين قتلهم، ويمتنعون به مما يمتنع منه أهل الإيمان بالله".

قال ابن كثير:"فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس".

قال السعدي:"فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط

=

=

الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم".

عن السدي: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الحج: ٢٥]،" يعني: ويمنعون الناس عن دين الله الإسلام".

قال السدي:"أما {سبيل الله}: فمحمد- ﷺ-".

عن سعيد بن جبير:"{في سبيل الله}، قال: في طاعة الله".

قوله تعالى: {فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [المجادلة: ١٦]، أي:"فلهم عذاب مُذلٌّ في النار؛ لاستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله وصدِّهم عن سبيله".

قال الطبري:"يقول: فلهم عذاب مذِلّ لهم في النار".

قال ابن كثير:"أي: في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة".

قال السعدي ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، {فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي، الذي لا يفتر عنهم ساعة ولا هم ينظرون".

قوله تعالى: {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا} [المجادلة: ١٧]، أي:"لن تدفع عن المنافقين أموالهم ولا أولادهم مِن عذاب الله شيئًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لن تغني عن هؤلاء المنافقين يوم القيامة أموالهم، فيفتدوا بها من عذاب الله المهين لهم ولا أولادهم، فينصرونهم ويستنقذونهم من الله إذا عاقبهم".

قال ابن كثير:"أي: لن يدفع ذلك عنهم بأسا إذا جاءهم".

قال السمعاني:"هو قول الكافرين يوم القيامة: {شَغَلَتْنَا} عن الحق {أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} [الفتح: ١١]، يقول: لا عذر لهم فيه، ولا يغنيهم ذلك".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المجادلة: ١٧]،

=

=

أي:"أولئك أهل النار يدخلونها فيبقون فيها أبدا، لا يخرجون منها".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء الذين تولوا قومًا غضب الله عليهم، وهم المنافقون أصحاب النار، يعني أهلها الذين هم فيها خالدون، يقول: هم في النار ماكثون إلى غير النهاية".

قال مقاتل:"يعنى: مقيمين في النار لا يموتون".

عن أبي مالك، قوله: " {أصحاب النار}: يعذبون فيها".

عن السدي: " {هم خالدون}: خالدا أبدا".

عن سعيد بن جبير: " {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا} [المجادلة: ١٨]، أي:"يوم القيامة يبعث الله المنافقين جميعًا من قبورهم أحياء".

قال الطبري: يقول: " هؤلاء الذين ذكرهم هم أصحاب النار، يوم يبعثهم الله جميعًا من قبورهم أحياء كهيئاتهم قبل مماتهم، فيحلفون له كما يحلفون لكم كاذبين مبطلين فيها".

قال ابن كثير:"أي: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدًا".

قوله تعالى: {فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [المجادلة: ١٨]، أي:"فيحلفون له أنهم كانوا مؤمنين، كما كانوا يحلفون لكم -أيها المؤمنون- في الدنيا".

قال الطبري: يقول: " فيحلفون له كما يحلفون لكم كاذبين مبطلين فيها".

قال ابن كثير:"أي: يحلفون بالله ﷻ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه".

قال مقاتل:"وذلك أنهم كانوا إذا قالوا شيئا أو عملوا شيئا، وأرادوه، سألهم المؤمنون عن ذلك، فيقولون: والله لقد أردنا الخير فيصدقهم المؤمنون بذلك، فإذا كان يوم القيامة سئلوا عن أعمالهم الخبيثة فاستعانوا بالكذب كعادتهم في

=

=

الدنيا، فذلك قوله: يحلفون لله في الآخرة كما يحلفون لكم في الدنيا".

قال قتادة:"إن المنافق حلف له يوم القيامة كما حلف لأوليائه في الدنيا".

قال قتادة:"والله حالف المنافقون ربهم يوم القيامة، كما حالفوا أولياءه في الدنيا".

قال سعيد بن جبير:"كان النبيّ ﷺ في ظلّ حجرة قد كاد يَقْلِصُ عنه الظلّ، فقال: "إنَّهُ سيَأْتِيكُمْ رَجُلٌ، أو يَطْلُعُ رَجُلٌ بِعَيْنِ شَيْطَانٍ فَلا تُكَلِّمُوهُ" فلم يلبث أن جاء، فاطلع فإذا رجل أزرق، فقال له: "عَلام تَشْتُمُنِي أَنْت وَفُلانٌ وَفُلانٌ "؟ قال: فذهب فدعا أصحابه، فحلفوا ما فعلوا، فنزلت: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}".

قوله تعالى: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} [المجادلة: ١٨]، أي:"ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم في الدنيا عند المسلمين".

قال مقاتل: أي:"من الدين فان يغني عنهم ذلك من الله شيئا".

قال الطبري: " يقول: ويظنون أنهم في أيمانهم وحلفهم بالله كاذبين على شيء من الحقّ".

قال ابن كثير:"ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة؛ ولهذا قال: {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ}، أي: حلفهم ذلك لربهم، ﷻ".

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة: ١٨]، أي:"ألا إنهم هم البالغون في الكذب حدًا لم يبلغه غيرهم".

قال الطبري: أي: " فيما يحلفون عليه".

قال ابن كثير:"ثم قال منكرًا عليهم حسبانهم {أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} فأكد الخبر عنهم بالكذب".

قال القشيري:"عقوبتهم الكبرى ظنّهم أنّ ما عملوا مع الخلق يتمشّى أيضا في

=

=

معاملـة الحـقّ، ففـرط الأجنبيـة وغايـة الجهـل أكبّـتهم علـى منـاخرهم في وهـدة ندمهم".

قولـه تعـالى: {اسْـتَحْوَذَ عَلَـيْهِمُ الـشَّيْطَانُ فَأَنْـسَاهُمْ ذِكْـرَ اللهِ} [المجادلـة: ١٩]، أي:"غلـب علـيهم الـشيطان، واسـتولى علـيهم، حتـى تركـوا أوامـر الله والعمـل بطاعته".

قال الفراء:"غلب عليهم".

قال ابن قتيبة:"أي: غلب عليهم واستولى".

قال أبو عبيدة:"غلب عليهم، وحازهم، قال العجاج:

يحوذهنّ وله حوذى... كما يحوذ الفئة الكميّ".

قال الطبري: أي: "غلب عليهم الشيطان {فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله}".

قال ابن كثير:"أي: استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله، ﷻ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه".

قال الزجاج:"معنى {اسْتَحْوَذَ} – في اللغة-: استولى، يقـال: حـذت الإبـل وحزتهـا إذا

استوليت عليها وجمعتها".

قال القشيري:"إذا استحوذ الشيطان على عبد أنساه ذكر الله، والـنّفس إذا اسـتولت على إنسان أنسته الله".

عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: "مـا مـن ثلاثـة في قريـة ولا بَـدْو، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد اسـتحوذ علـيهم الـشيطان، فعليـك بالجماعـة، فإنمـا يأكـل الذئب القاصية". قال زائدة: قال السائب: يعني الصلاة في الجماعة".

قولـه تعـالى: {أُولَئِـكَ حِـزْبُ الـشَّيْطَانِ} [المجادلـة: ١٩]، أي:"أولئـك حـزب الشيطان وأتباعه".

=

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠).
{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ} يُخَالِفُونَ {الله وَرَسُوله أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} الْمَغْلُوبِينَ.

كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١).

{كَتَبَ الله} فِي اللَّوْح الْمَحْفُوظ أَوْ قَضَى {لأغلبن أنا ورسلي} بالحجة أو السيف {إن الله قوي عزيز}.

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ

=

قال مقاتل:"يعنى: شيعة الشيطان".

قال الطبري: " يعني: جنده وأتباعه".

قال ابن كثير:"يعني: الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله".

قال الزجاج:"قال أبو عبيدة: حزب الشيطان جند الشيطان، والأصل في اللغة أن الحزب: الجمع والجماعة، يقال منه: قد تحزب القوم إذا صاروا فرقا، جماعة كذا وجماعة كذا".

قال ابن زيد:"الحزب: ولاية الذين يتولاهم ويتولونه.

قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المجادلة: ١٩]، أي:"ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون في الدنيا والآخرة".

قال الطبري: " يقول: ألا إن جند الشيطان وأتباعه هم الهالكون المغبونون في صَفْقَتِهِم".

قال القشيري:"لقد خسر حزب الشيطان، وأخسر منه من أعان نفسه- التي هي أعدى عدوّه، إلّا بأن يسعى في قهرها لعله ينجو من شرّها".

عن عكرمة، قال: "إنما سمي الشيطان لأنه تشيطن".

وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢).

{لَا تَجِد قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاَللهِ وَالْيَوْم الْآخِر يُوَادُّونَ} يُصَادِقُونَ {مَنْ حَادَّ الله وَرَسُوله وَلَوْ كَانُوا} أَيْ الْمُحَادُّونَ {آبَاءَهُمْ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إخْوَانهمْ أَوْ عَشِيرَتهمْ} بَلْ يَقْصِدُونَهُمْ بِالسُّوءِ وَيُقَاتِلُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَان كَمَا وَقَعَ لِجَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَة رضي الله عنهم {أُولَئِكَ} الَّذِينَ لَا يُوَادُّونَهُمْ {كَتَبَ} أَثْبَتَ {فِي قُلُوبهمْ الْإِيمَان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ} بِنُورٍ {مِنْهُ} تَعَالَى {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا رضي الله عنهم} بِطَاعَتِهِ {وَرَضُوا عَنْهُ} بِثَوَابِهِ {أُولَئِكَ حِزْب الله} يَتَّبِعُونَ أَمْره وَيَجْتَنِبُونَ نَهْيه {أَلَا إنَّ حِزْب الله هُمْ الْمُفْلِحُونَ} الْفَائِزُونَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن شوذب؛ قال: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر؛ قصده أبو عبيدة فقتله؛ فنزلت: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)}.

أخرجه الطبرني في "المعجم الكبير" (١/ ١٥٤، ١٥٥) -وعنه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١/ ١٠١)، و"معرفة الصحابة" (٢/ ٢١، ٢٢ رقم ٥٧٦) -ومن طريقه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (ص ٢٦٦- مطبوع) عن أبي يزيد القراطيسي، والحاكم في "المستدرك" (٣/ ٢٦٤، ٢٦٥) -وعنه البيهقي في "السنن الكبرى" =

=

(٩/ ٢٧)- من طريق الربيع بن سليمان، كلاهما عن أسد بن موسى ثنا ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شوذب به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإعضاله.

قال البيهقي عقبه: "هذا منقطع".

وسكت عنه الحاكم والذهبي.

وقال الحافظ ابن حجر في "الإصابة" (٢/ ٢٤٤): "أخرجه الطبراني بسند جيد عن عبد الله بن شوذب".

وقال في "فتح الباري" (٧/ ٩٣): "مرسل".

وقال في "التلخيص الحبير" (٤/ ١١٣): "هذا معضل".

وعن عبد الرحمن بن ثابت بن قيس بن الشماس: أنه استأذن النبي ﷺ أن يزور خاله من المشركين؛ فأذن له، فلما قدم؛ قرأ رسول الله ﷺ وأناس حوله: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٦) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) أى: إن الذين يحادون دين الله- تعالى-، ويحاربون ما جاء به رسوله ﷺ، أولئك الذين يفعلون ذلك ...

«في الأذلين» أى: في عداد أذل خلق الله- تعالى- وهم المنافقون ومن لف لفهم، من الكافرين وأهل الكتاب.

وقال- سبحانه-: أُولِئَكَ فِي الْأَذَلِّينَ للإشعار بأنهم مظروفون وكائنون، في ذروة أشد خلق الله ذلا وصغارا.

=

=

ثم بشر- سبحانه- من هم على الحق بأعظم البشارات فقال: كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

أى: أثبت الله- تعالى- ذلك في اللوح المحفوظ وقضاه، وأراد وقوعه في الوقت الذي يشاؤه.

فالمراد بالكتابة: القضاء والحكم. وعبر بالكتابة للمبالغة في تحقق الوقوع.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية، أنه لما فتح الله- تعالى- للمؤمنين ما فتح من الأرض، قال المؤمنون: إنا لنرجو أن يفتح الله لنا فارس والروم.

فقال بعض المنافقين: أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي تغلبتم عليها، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا، من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت.

قال الآلوسى: كَتَبَ اللهُ أى: أثبت في اللوح المحفوظ، أو قضى وحكم.. وهذا التعبير جار مجرى القسم، ولذا قال- سبحانه-: لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي أى: بالحجة والسيف وما يجرى مجراه، أو بأحدهما.. ا.هـ.

إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ على نصر رسله وأوليائه عَزِيزٌ لا يغلبه غالب بل هو القاهر فوق عباده.

والمقصود بالآية الكريمة: تقرير سنة من سننه- تعالى- التي لا تتخلف، وأن النصر سيكون حليفا لأوليائه، في الوقت الذي علمه وأراده.

وشبيه بهذه الآية قوله- تعالى-: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ .

وقوله- تعالى- وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ .

ثم ختم- سبحانه- السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة لصفات المؤمنين الصادقين فقال:

(لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ).

=

=

وقوله: يُوادُّونَ من الموادة بمعنى حصول المودة والمحبة.

أى: لا تجد- أيها الرسول الكريم- قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان، يوالون ويحبون من حارب دين الله- تعالى- وأعرض عن هدى رسوله.

والمقصود من هذه الآية الكريمة النهى عن موالاة المنافقين وأشباههم، وإنما جاءت بصيغة الخبر، لأنه أقوى وآكد في التنفير عن موالاة أعداء الله، إذ الإتيان بصيغة الخبر تشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى، وأن الله- سبحانه- قد أخبر عنهم بذلك.

وافتتحت الآية بقوله: لا تَجِدُ قَوْمًا لأن هذا الافتتاح يثير شوق السامع لمعرفة هؤلاء القوم.

وقوله: وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ تصريح بوجوب ترك هذه الموادة لمن حارب الله ورسوله، مهما كانت درجة قرابة هذا المحارب.

أى: من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء. آباءَهُمْ الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم أَوْ أَبْناءَهُمْ الذين هم قطعة منهم. أَوْ إِخْوانَهُمْ الذين تربطهم بهم رابطة الدم أَوْ عَشِيرَتَهُمْ التي ينتسبون إليها، وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم على كل شيء.

وقدم الآباء لأنهم أول من تجب طاعتهم، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم، وثلث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم، وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتى في نهاية المطاف.

ثم أثنى- سبحانه- على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ.

أى: أولئك الذين لا يوادون أعداء الله مهما كانوا، هم الذين كتب الله- تعالى- الإيمان في قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من

=

=

أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه.

وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ أي: وثبتهم وقواهم بنور من عنده- سبحانه- فصاروا بسبب ذلك أشداء على الكفار، رحماء بينهم.

وَيُدْخِلُهُمْ- سبحانه- يوم القيامة جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها خلودا أبديا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بسبب طاعتهم له، وَرَضُوا عَنْهُ بسبب ثوابه لهم.

أُولئِكَ الموصوفون بذلك حِزْبُ اللهِ الذي يشرف من ينتسب إليه.

أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ فلاحا ونجاحا ليس بعدهما فلاح أو نجاح.

وقد ذكروا روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية الكريمة، منها: أنها نزلت في أبى عبيدة عامر بن الجراح، فقد قتل أباه- وكان كافرا- في غزوة بدر.

والآية الكريمة تصدق على أبى عبيدة وغيره ممن حاربوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم، عند ما استحب هؤلاء الآباء والأبناء الكفر على الإيمان.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، وجوب عدم موالاة الكفار والفساق والمنافقين والمجاهرين بارتكاب المعاصي ... مهما بلغت درجة قرابتهم، ومهما كانت منزلتهم.

ومن دعاء رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يدا ولا نعمة».

(تتمة): قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [المجادلة: ٢٠]، أي:"إن الذين يخالفون أمر الله ورسوله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين يخالفون الله ورسوله في حدوده، وفيما فرض عليهم من فرائضه فيعادونه".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعني: الذين هم في حَدٍّ والشرع في حَدٍّ، أي: مجانبون للحق مشاقون له، هم في ناحية والهدى في ناحية".

=

=

قال قتادة:"يقول: يعادون الله ورسوله".

قال مجاهد:"يعادون، يشاقُّون".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ} [المجادلة: ٢٠]، أي:"أولئك من جملة الأذلاء المغلوبين المهانين في الدنيا والآخرة".

قال مقاتل:"يعنى: في الهالكين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يحادون الله ورسوله في أهل الذلة، لأن الغلبة لله ورسوله".

قال الزجاج:"أي: أولئك في المغلوبين".

قال ابن كثير:"أي: في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين في الدنيا والآخرة".

قال ابن عباس: "يريد الذل في الدنيا والخزي في الآخرة". وروي عن عطاء مثله.

قوله تعالى: {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]، أي:"كتب الله في اللوح المحفوظ وحَكَم بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين".

قال أبو عبيدة:"{كَتَبَ اللهُ}، أي: قضى الله".

قال الطبري:"يقول: قضى الله وخطّ في أمّ الكتاب، لأغلبن أنا ورسلي مَن حادّني وشاقَّني".

قال الزجاج:"أي: قضى الله قضاء ثابتا، ومعنى «غلبة الرسل»، على نوعين: من بعث بالحرب فغالب في الحرب. ومن بعث منهم بغير حرب فهو غالب بالحجة".

قال ابن كثير:"أي: قد حكم وكتب في كتابه الأول وقَدَره الذي لا يُخالَف ولا يُمانع، ولا يبدل، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ

=

=
الدَّارِ} [غافر: ٥١، ٥٢]".
قال قتادة:"كتب الله كتابا وأمضاه".
قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١]، أي:"إن الله سبحانه قوي لا يعجزه شيء، عزيز على خلقه".
قال الطبري:"يقول: إن الله جلّ ثناؤه ذو قوّة وقدرة على كلّ من حادّه، ورسوله أن يهلكه، ذو عزّة فلا يقدر أحد أن ينتصر منه إذا هو أهلك وليه، أو عاقبه، أو أصابه في نفسه بسوء".
قال الزجاج:"أي: مانع حزبه من أن يذل، لأنه قال جل وعلا:: {أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ}. و «العزيز»: الذي لا يغلب ولا يقهر".
قال ابن كثير:"أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه. وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة".
قال القشيري:"الذي ليس له إلا التدبير... كيف تكون له مقاومة مع التقدير؟".
قال قتادة:"قويا في أمره، عزيزا في نقمته".
قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".
قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.
قوله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [المجادلة: ٢٢]، أي:"لا تجد -أيها الرسول- قومًا يصدِّقون بالله واليوم الآخر، ويعملون بما شرع الله لهم، يحبون ويوالون مَن عادى الله ورسوله وخالف أمرهما، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أقرباءهم".
قال الطبري: يقول:"لا تجد يا محمد قومًا يصدّقون الله، ويقرّون باليوم الآخر
=

=

يوادّون من حادّ الله ورسوله وشاقَّهما وخالف أمر الله ونهيه، ولو كان الذين حادّوا الله ورسوله آباءهم {أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.. وإنما أخبر الله جلّ ثناؤه نبيه عليه الصلاة والسلام بهذه الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ}، ليسوا من أهل الإيمان بالله ولا باليوم الآخر، فلذلك تولَّوُا الذين تولَّوْهم من اليهود".

قال ابن كثير:"أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ} [آل عمران: ٢٨] الآية، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤]".

قال قتادة:"لا تجد يا محمد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يوادّون من حادّ الله ورسوله: أي من عادى الله ورسولَه".

قال سهل:"كل من صح إيمانه فإنه لا يأنس بمبتدع ويجابهه، ولا يؤاكله ولا يشاربه ولا يصاحبه، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن، ومن تحبب إلى مبتدع يطلب عزة في الدنيا وعرضًا، أذله الله بذلك العز، وأفقره الله بذلك الغنى، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه، ومن لم يصدق فليجرب".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} [المجادلة: ٢٢]، أي:"أولئك الموالون في الله والمعادون فيه ثَبَّتَ في قلوبهم الإيمان".

قال الطبري: "يقول جلّ ثناؤه: هؤلاء الذين لا يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو

=

=

كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، كتب الله في قلوبهم الإيمان".

قال ابن كثير:"أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته".

قال السمعاني:"أي: أدخل في قلوبهم الإيمان. وقيل: كتب أي: جعل في قلوبهم علامة تدل على إيمانهم".

وقال السدي:"{كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ} جعل في قلوبهم الإيمان".

قال الزجاج:"يعني: الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، ويوالون المؤمنين".

قال الربيع بن أنس: "يعني: أثبت الإيمان في قلوبهم فهي موقنة مخلصة".

وقيل:"حكم لهم بالإيمان فذكر القلوب لأنّها موضعه".

قوله تعالى: {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة: ٢٢]، أي:"وقوّاهم بنصر منه وتأييد على عدوهم في الدنيا".

قال الطبري: " يقول: وقوّاهم ببرهان منه ونور وهدى".

وقال ابن عباس:"{وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}، أي: قواهم".

قال الزجاج:"أي: قواهم بنور الإيمان بإحياء الإيمان، ودليل ذلك قوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [الشورى: ٥٢]، فكذلك: {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة: ٢٢]".

قال الحسن:"وقوّاهم بنصر منه".

قال السدّي: "يعني: بالإيمان".

قال ربيع:"بالقرآن وحجّته".

وقيل: أمدّهم بجبريل -عليه السلام-".

=

=

قوله تعالى: {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} [المجادلة: ٢٢]، أي:"ويدخلهم في الآخرة جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها زمانًا ممتدًا لا ينقطع".

قال الطبري: " يقول: ويدخلهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبدا".

قوله تعالى: {رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ} [المجادلة: ٢٢]، أي:"أحلَّ الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم، ورضوا عن ربهم بما أعطاهم من الكرامات ورفيع الدرجات".

قال الطبري: يقول:"{رضي الله عنهم} بطاعتهم إياه في الدنيا، {وَرَضُوا عَنْهُ} في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة".

قال النحاس:"{رضي الله عنهم}، أي: بطاعتهم في الدنيا. {وَرَضُوا عَنْهُ} بإدخالهم الجنة".

قال ابن كثير:"في قوله: {رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ} سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم".

قال عطاء: " {رضي الله عنهم} بطاعتهم (ورضوا عنه) بثوابه وما تفضل به عليهم من الكرامة سوى الثواب".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ} [المجادلة: ٢٢]، أي:"أولئك جماعة الله وخاصته وأولياؤه".

قال الطبري: " يقول: أولئك الذين هذه صفتهم جند الله وأولياؤه".

قال ابن كثير:"أي: هؤلاء حزبُ الله، أي: عباد الله وأهل كرامته".

قال النحاس:"أي: جنده وجماعته. وتحزب القوم: تجمعوا".

=

قال الزجاج:"«حزب الله»، أي: الداخلون في الجمع الذي اصطفاه الله وارتضاه".
عن سعد بن سعيد الجرجاني، عن بعض مشيخته قال: "قال داود -عليه السلام-: «إلهي، من حزبك وحول عرشك؟». فأوحى الله سبحانه إليه: «يا داود، الغاضّة أبصارهم، النقيّة قلوبهم، السليمة أكفّهم، أولئك حزبي وحول عرشي».
قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢]، أي:"وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة".
قال الطبري: " يقول: ألا إن جند الله وأولياءه هم الباقون المُنْجحون بإدراكهم ما طلبوا، والتمسوا ببيعتهم في الدنيا، وطاعتهم ربهم".
قال الزجاج:" {أَلَا} كلمة تنبيه، وتوكيد للقصة. و {الْمُفْلِحُونَ}: المدركون البقاء في النعيم الدائم".
قال النحاس:" {الْمُفْلِحُونَ}، قيل: أي الذين ظفروا بما أرادوا".
قال ابن كثير:"تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم في الدنيا والآخرة، في مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان. ثم قال: {أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}".
عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر، خرج إلى المسجد يوما فوجد معاذ بن جبل عند قبر رسول الله ﷺ يبكي، فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: يبكيني حديث سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء
الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة».
قال ابن كثير:"فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله: {أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}".

=

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أحب في الله وأبغض في الله وعاد في الله ووال في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ثم قرأ {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ} الآية".

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله".

كتب أبو حازم الأعرج إلى الزُّهريّ: "عافانا الله وإيّاك -أبا بكر- مِن الفتن، ورحمك من النار، فقد أصبحتَ بحالٍ ينبغي لِمَن عرفك بها أن يرحمك بها؛ أصبحتَ شيخًا كبيرًا قد أثْقلَتْك نِعَمُ الله عليك، مما أصحّ من بدنك، وأطال من عمرك، وعلِمت حُجَج الله مما حمَّلك من كتابه، وفقّهك فيه من دينه، وفهّمك من سنة... ولقد جاء نَعتُهم على لسان رسول الله- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «إنّ الله يحبّ الأخفياء الأتقياء الأبرياء، الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا، وإذا شهدوا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يَخرجون مِن كلّ فتنة سوداء مظلمة، فهؤلاء أولياء الله الذين قال الله- عَزَّ وَجَلَّ -: {أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون}». وجاهٌ يجريه الله على يدي أعدائه لأوليائهم، ومِقَةٌ يقذفها الله في قلوبهم لهم، فَيُعظمُهُم الناس تعظيم أولئك لهم، ويَرغب الناس فيما في أيديهم كرغبة أولئك فيه إليهم، {أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون}".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المجادلة: ٤)، وقال بعد: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) (المجادلة: ٥)، يسأل عن تعقيب الأولى بقوله: " وللكافرين عذاب أليم" والثانية بقوله " وللكافرين عذاب مهين"؟ ووجه اختصاص كل موضع بالوارد فيه؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى لما تقدمها ذكر الظهار، وقد سماه

=

=

سبحانه منكرًا من القول وزورًا، وشرع الكفارة فيه رحمة وتداركًا للواقع فيه إذا اتعظ وأناب، وجعلها (على التدرج) من تحرير رقبة للواجد القادر عليها، وإلا فحكمة صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن عجز عن الصيام فإطعام ستين مسكينًا، ثم قال: (ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ) (المجادلة: ٤) أي أن الانقياد لأمر الله سبحانه (والتزام حدوده عنوان كبير على كمال الأديان والتزام ما به التخلص لديه سبحانه، فشرع لكم الحدود، فمن التزمها ولم يتعداها فذلك المؤمن، ومن تنكب عنها وحاد عن التزامها فتلك صفة الكافرين: (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (المجادلة: ٤)، ووصف العذاب بالإيلام ليكون أوقع (وذلك أوقع)، وذلك بين التناسب.

وأما الآية الثانية فتقدمها قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) (المجادلة: ٥)، والمحادة المشاقة والمحاربة، ولذلك كان جزاؤهم أن كبتوا وأذلوا قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) (المجادلة: ٢٠)، فلما تعزز هؤلاء وارتكبوا المحادة والمشاقة كان جزاؤهم إكباتهم وإذلالهم وأهانتهم في مقابلة تعززهم كفرًا وعنادًا، فقال تعالى في جزاء هؤلاء: (وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ) (المجادلة: ٥) أي مذل لهم قامع لعنادهم، وهذا بين التناسب، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٧٠).

الفهرس

